جوامع البيان في الوقاية من أذى الجنّ ومسّ الشّيطان

على مرسى

Scanned by CamScanner

جوامع البيـان
فى الوقاية من أذى الجنّ ومسّ الشّيطان

دراسة نقديّة تبحث فى علاقة بعض المسائل الغيبيّة بالسّلوك الإنسانى وتتناول التعريف بالمنهج الصّحيح للوقاية من أذى الجنّ ومسّ الشيطان والاحتراز من السّحر والحسد وعين الإنسان

تأليف

على مرسى مرسى

المراجعة والتّصويب

محمّد عرفة عبد الفضيل

دار الهدى للنشر والتوزيع

الإصدار الأول

١٤٣١هـ ٢٠١٠م

جوامع البيان
في الوقاية من أذى
الجنّ ومسّ الشّيطان

تصريح مجمع البحوث الإسلاميّة رقم (٧٦٧٧/ ٢٠٠٦م).

بسم الله الرحمن الرحيم

جوامع البيان
في الوقاية من أذى الجنّ ومسّ الشيطان

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية ١٤٥٩١ / ٢٠١٠

(الترقيم الدولي) 977 - 17 - 9217 - 2

الإصدار الأول {١٤٣١هـ ٢٠١٠م}

FIRST EDITION {1431H 2010 AD}

كتاب من إصدار دار الهدى للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية. القاهرة. المعادى.

(٧) شارع حلوان الزراعى . طرة الأسمنت.

PUBLISHED BY DAR Alhoda

P.C: 11729, Maadi, Cairo, Egypt.

7- HEIWAN St, TORA ELCEMENT.

حقوق الطبع محفوظة

جميع حقوق الملكيّة الأدبيّة والفنيّة لهذا الكتاب محفوظة للمؤلف طبقا للقانون، ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملا أو مجزءًا أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئيّة إلا بموافقة المؤلف خطيًّا.

ALL RIGHTS RESERVED

THE AUTHOR RESERVES ALL RIGHTS, NO PART OF THIS BOOK MAY BE TRANSLATED, OR REPRODUCED, DISTRIBUTED OR STORED IN ANY FORM OR BY ANY MEANS, WITHOUT PRIOR WRITTEN PERMISSON FROM THE AUTHOR.

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الأزهر الشريف
مجمع البحوث الإسلامية
الإدارة العامة
للبحوث والتأليف والترجمة

AL - AZHAR AL - SHARIF
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

[تصريح رقم ٧٦٧٧ / ٢٠٠٦م]

السيّد الأستاذ / علي مرسي مرسي

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته ـ وبعد :

فبالإشارة إلى طلبكم الخاص بفحص ومراجعة مؤلفكم [**جوامع البيان فى الوقاية من أذى الجنّ ومسّ الشّيطان**] ـ نفيدكم بأنّ الكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الإسلاميّة، ولا مانع من طبعه عى نفقتكم الخاصّة، وفى حالة الزّيادة أو النّقصان يعتبر التّصريح لاغيا، مع التّأكيد على ضرورة العناية التّامة بضبط الآيات القرآنيّة والأحاديث النّبوية والله تعالى الموفق.

والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

تحريرا فى ٩ / ١٠ / ١٤٢٧هـ
الموافق ١ / ١١ / ٢٠٠٦م

مدير عام
إدارة البحوث والتأليف والتّرجمة

الأمين العام للثّقافة الإسلاميّة

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلاميّة

اعتماد مجمع البحوث الإسلامية للمادة العلميّة للكتاب

نص خطاب الإدارة العامّة للبحوث والتّأليف والتّرجمة المتضمّن تزكية المادّة العلمية للكتاب واعتماد نصوصه والموافقة على طبعه وتداوله من فضيلة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشّريف بالقاهرة.

تقديم الكتاب

الحمد لله العلى الحميد، المبدىء المحصى المعيد، وأشهد ألاّ إله إلاّ الله ذو العرش المجيد، الفعّال لما يريد، وأشهد أنّ محمّدا عبده ورسوله النّبى العربى القرشى الحليم الرّشيد، اللّهمّ صلّ على محمّد النّبى وأزواجه أُمّهات المؤمنين وذرّيته وأهل بيته كما صلّيت على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد.

أمّا بعد - فإنّ أكثر النّاس فى حديثهم عن الجنّ واعتقادهم فى وجوده يجمعون بين الإفراط الذى يؤدّى إلى الغلوّ، والتّفريط الذى يرخّص فى التّزيُّد والإنكار، عندما يتقوّلون بأنّ وراء هذا الإنسان النّاطق المفكّر نوع آخر من [الخلق المغيّب] الذى لا تُدرَك ذاته ولا يُعرف إلاّ بآثاره وتصرُّفاته، وله القدرة على أن يتلبّس جسم الإنسان فينطق بلسانه ويتحرّك بتحرّكه ويسلبه إرادته حتّى يجعل من جسده محلا مسكونا بلا مشاعر أو أحاسيس.

وجعلوا للإنسان فى مقابل ذلك وسائله وتلاواته من [الآيات والأدعية والتّعاويذ] ما يستعين بها على استحضاره كلّما أراد، وعلى تسخيره فى قضاء ما يُراد، وفى مقابل هذا الإفراط الذّهنى يأتى [القرآن الكريم] المنزّل من ربّ العالمين - من خلال آياته الواضحات النّافية لكلّ شكّ وكلماته البيّنات التى لا تحتمل التّأويل - بالقول القاطع الذى ينفى عن الجنّ تلك الخواصّ التى أُضيفت إلى طبيعة خلقه إفراطا فى تصويره أو التى انتقصت من حقيقة خلقه تفريطا فى إنكاره، وأنّه لا يستطيع أن يلج جسد الإنسان لمخالفة ذلك لطبيعة الخلق التى جُبل عليها كلّ من الإنس والجنّ.

ثمّ جاءت عناوين هذا [الخلق المغيّب] فى كتاب الله واضحة وصريحة عندما ذكرت [الجنّ] وجعلتهم نوعا مُقابلا للإنسان يندرجون معه تحت عنوان [الثّقلين] وخاطبتهم وتحدثت عنهم فى المسئولية والمؤاخذة والمصير، كما خاطبت الإنسان وتحدّثت عنه فى كلّ ذلك وهو ما جاء فى قوله تعالى ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ [الرّحمن: ٣١].

وعندما يُخبر التّنزيل الحكيم عن الجنّ ويقطعُ بوجودهم فإنّ إنكارهم يكون تكذيبا لإخبار الله سبحانه عنهم، وبذلك يكون من لم يؤمن بهم غير مؤمن بالقرآن، ومن ثمّ تأتى محاولات التّأويل للآيات الواضحات تحريفا للكلم عن مواضعه وسلخا للألفاظ عن معانيها وإفسادا لتلك المقابلة التّكليفيّة بين الإنس والجنّ كما فى قول الله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذّاريات: ٥٦].

وكما جاء القرآن الكريم بأصل وجودهم جاء بما يُرشد إلى صلتهم بالنّاس وأنّها لا تعدو مجرّد [الوسوسة والتّزيين] على نحوِ ما يحدث للنّاس من النّاس واقرأ في ذلك قوله تعالى في سورة النّاس ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ واقرأ في ذلك أيضا ما جاء على لسان الشّيطان نفسه وهو من الجنّ بنص التنزيل الحكيم ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢]. فليس للجنّ مع الإنسان شيء غير الدّعوة إلى الباطل والوعد والوسوسة والإغواء والتّزيين وتلك هي مهمّته ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩].

وكما جاء هذا في القرآن جاء فيه أيضا ما يقطع بأنّ الذين يتأثّرون بوسوسة الجنّ وإغوائهم إنّما هم فقط ضعاف العقول والإيمان، أمّا أقوياؤهم فهم بعقولهم وإيمانهم بعيدون عن التّأثر بها، وقد استثنى الله تعالى من المتأثّرين بها عباده المخلصين وقال ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الإسراء: ٦٥].

أمّا ما وراء الوسوسة والإغواء من ظهورهم للإنسان العادى بصورتهم الأصليّة، ومن دخولهم في جسمه واستيلائهم على حواسّه، ومن استخدامه إيّاهم في جلب الخير ودفع الشّر، واستحضارهم كلّما أراد، ومن التّزوّج بهم ومعاشرتهم وغير ذلك ممّا شاع على ألسنة النّاس، فهذا كلّه مصدره خارج عن نطاق المصادر الشّرعية ذات القطع واليقين.

وعندما يبيّن الخالق سبحانه أنّ لهذا «الخلق المُغيَّب» خصائص غير خصائص البشر، لكونه مخلوقا من نار، وأنّه يرى النّاس ولا يراه النّاس، وأنّه لا يملك إلاّ التّأثير السّلبى في إدراك البشر، وأنّه مأذون له في توجيه العاصين منهم إلى الشّر والفساد، والغواية والضّلال، كان لابدّ من وجود المنهج القرآني الذى يُصحّح تصوّرات النّاس عن شياطين الجنّ ويُحرّر القلوب من خضوعها لسلطانهم ويُباعد بينهم وبين فجورهم وفسوقهم.

وعندما يقيم الكتاب محوريّة البحث فيه حول تحديد المنهج التّطبيقى الصّحيح لمواجهة المسلم المستمرّة مع الشّيطان فإنّه يطرح من خلال ذلك «ثلاث توجُّهات» رئيسيّة :

(أوّلها) عن [المقدّمات الضروريّة للوقاية والحفظ].

(والثّاني) عن [التّوقي والاحتراز من غوائل الشّيطان].

(والثّالث) عن [العلاج الأمثل للوقاية من أذى شياطين الإنس والجن].

فعندما يشير التّنزيل الحكيم إلى أنّه ليس للشّيطان سلطان على الذين آمنوا وعلى ربّهم يتوكّلون، فإنّ سلاح المؤمن فى تلك المواجهة لا يكون إلاّ بالعلم الذى يقوده إلى صحيح الدّين، والمعرفة التي تحقّق له كمال اليقين، وإذا كانت الشّياطين قد تسلّطت على قلوب بنى آدم إلاّ مَنْ كان في نجوة من شرّهم وغيّهم، فقد أشار الكتاب من خلال «التوجُّه الثّانى» إلى كيفيّة التّوقّى والاحتراز من «غوائل» هذا التّسلُّط وكيفيّة الخلاص منه، عندما قدّم لقارئه شروحا متميّزة عن الاستعاذة من الوساوس والخَطَرات وما يُعتصم به من الشّياطين ويُحترز به من نزغاتهم.

ولـمّا كان من أهداف هذا الكتاب الوقوف على الهدى الصّحيح الذى يُجابه به المسلم حرب الشّيطان، جاءت الإشارة إلى «التّوجُّه الثّالث» وقد تضمّن الحديث عن «السّحر» وحُكمه، وتعريفه، وحقيقته فى الكتاب والسُّنَّة، وحرمة إتيانه وتعلّمه واستخدامه، وكيفيّة التّحرُّز منه، والتّخلُّص من شروره وأضراره، وكيف أنّ السّاحر والشّيطان قرينان متلازمان جمعت بينهما النّفس الحاقدة، والمادّة المحرّمة، والمعصية الفاسدة للإضرار بحياة الإنسان.

ولـمّا كان «حاسد النّعمة» لا يرضيه إلاّ زوالها فقد أفرد الكتاب بحثا تعريفيًّا عن «الحسد» تلك العداوة المتفجّرة فى قلب الإنسان، وكيف أنّه «شرّ مركوز» في طبع صاحبه حتّى أورثه المقت من ربّه تعالى والبغض من خلقه، ولذلك اعتبر رسول الله ﷺ أنّ الحسد من الكبائر العظام التى نهى الله عنها وأمر بالاستعاذة منها بقوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ إلى قوله ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[الفلق: ١-٥]. وفيه يُبيّن سبحانه أنّ التّعوُّذ بالله تعالى والاحتراز بذكره من أنجع ما يُدفع به شرّ الحاسد عن المحسود ومن أعظم ما يُتحصّن به من كيده وحقده.

أمّا «عين الإنس والجان» فلا يمنع من شرّهما إلا «الرُّقية» منهما كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ عندما بيّن فى الصّحيح أنّ «الْعَيْنَ حَقٌّ». وقال: «لَوْ كَانَ شَىْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ». لقد كادت تلك العين الآثمة ذات يوم أن تصيب رسول الله ﷺ بالضّرر والأذى إلاّ أنّ الله تعالى عصمه من نظر الكفّار إليه شَزْرًا بعيون العداوة لقوله سبحانه ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾[القلم: ٥١]. أى «لَيعينوكَ» بأبصارهم بمعنى يحسدونك لبغضهم إيّاك لولا وقاية الله وحفظه لك.

كما تطرّق البحث فى المسألة إلى بيان الفرق بين العين والحسد، ودفع شرّ العين وغيرها بالرّقية الشّرعية والتّحصّن بالآيات والأذكار الواردة عن النّبى ﷺ فى ذلك، وأنّ

الاستغسال للمعيون أمر حضّ عليه الشّرع الشّريف، وأنّ التّبريك على الشّيء عند رؤيته سُنَّة مشروعة، كما أنّ إطفاء نار الحاسد لا يكون إلاّ بالإحسان إليه وقاية من حقده ودفعا لمكنون الشّر فى صدره.

ومن خلال تتابع ما يعرضه الكتاب من مسائل متّصلة بمجمل موضوعاته، فإنّه يشير إلى حقيقة «المسّ الشّيطاني» وكيفيّة التّوقى منه، مسترشدا بالمفهوم القرآنى عن معنى «المسّ» وأنّه لا يكون إلاّ من الشّيطان، وأنّ مسألة ولوج الجنّ جسد الإنس أمر يتعارض مع نصّ الكتاب وهدى السُّنّة، وأنّ قهر الشّيطان للإنسان «بالوسوسة والنّزغ» يؤدّى إلى «الصّرع النّفسى» الذى يتوقّاه المرء بالبعد عن المعاصى ومخالفة الهوى والشّيطان، كما أنّ «الصّرع العضوى» لا يعالجه إلاّ المتخصّصون من أهل العلم والطّب.

إنّ الادّعاء باستخدام القرآن فى تحضير الجان والعلاج من أمراض الأبدان أمر يُخالف كتاب الله تعالى من الجهة التى أُنزل لأجلها، ويُعتبر فى الوقت نفسه عنوانا سيّئا على إيمان المسلمين من حيث لا يشعرون بمكانة تلك المعجزة الخالدة التى جعلها الله سبيلا لإنقاذ البشرية من الأوهام والخرافات.

وبهذا ونحوه اتّخذ الدّجّالون القرآن الكريم وسيلة لكسب العيش عن طريق يأباه الإيمان ويرفضه الدّين القويم، وذلك فضلا عن أنّه انحراف بالهدى القويم عمّا أُنزل لأجله، لما فى ذلك من إفساد للعقول الضّعيفة وصرف لأربابها عن طريق العلاج الصّحيح وتغيير لسنّة الله تعالى فى الأسباب والمسبّبات، واحتيال على أكل أموال النّاس بالباطل، وهذا تصرّف لا يقرّه الدّين ولا يرضى به العقل السّليم.

ومن المهمّ أن نشير إلى أنّه لا اجتهاد لنا فى تقديم المادّة العلميّة للكتاب سوى محاولة القيام بالتّرجمة الصّحيحة لموضوعاته، والنّقل الأمين لأحكامه، وإعداده فى لغة سهلة سلسة تخاطب فكر المسلم ووجدانه، والفضل فى ذلك كلّه إنّما يسجّل لفقهاء الأمّة الأخيار وعلمائها الأطهار هؤلاء الذين اجتباهم الله تعالى ليكونوا لدينه حُفَّاظا، وعلى سُنَّة نبيّه ﷺ وهديه حُرَّاسًا، فتركوا لنا هذا الفيض الزّاخر لننهل منه بلا تعب، ونبحث فيه دون عناء، فرضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل هذا الجهد المتواضع نورا فى صحائف الأعمال، وهديا نستعين به فى سائر الأفعال، متجاوزا عمّا نكون قد قصّرنا فيه عن غير قصد، إنّه سبحانه نعم المولى ونعم النّصير، وصلّى الله وسلّم وبارك على نبيّنا الأكرم سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه ومن تمسّك بسنّته إلى يوم الدّين.

المؤلف

(الكتاب الأول)

المنهج التّطبيقى لمواجهة المسلم مع الشّيطان

(التّوجُّه الأوّل)

المقدّمات الضّرورية للوقاية والحفظ

{أولا} - ليس للشّيطان سلطان على الذين آمنوا.

أخبر سبحانه فى الكتاب أنّه لا سلطان لعدوّه على عباده المخلصين المتوكّلين وإنّما سلطانه على من اتّخذوه وليّا وساروا على دربه، فهؤلاء هم رعيّته وهو وليّهم ومتبوعهم كما فى قوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النّحل: ٩٩-١٠٠].

فتضمّن ذلك أمرين:

(الأوّل) نفى سلطانه وإبطاله عن أهل التّوحيد والإخلاص.

(والثّانى) إثبات هذا السُّلطان على من تولاّه من أهل الشّرك والطُّغيان.

فالأمر الأوّل يبيّن أنّ من اعتصم بالله عزّ وجلّ وأخلص له فى دينه وتوكّل عليه لايستطيع الشّيطان بحال أن يغويه أو يضلّه، كما يُؤكّد مدلول الآية أنّ مدد الإيمان والتوكُّل يبطل سلطان الشّيطان وكيده كما فى قوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾. وفيه قال مجاهد [ليس له حُجّة على ما يدعوهم إليه من المعاصى، وإنّما سُمِّيت الحُجّة سلطانا لأنّ صاحبها يتسلّط بها تسلّط صاحب القدرة بيده].

كما يؤكّد الأمر الثّانى أنّ هذا السّلطان لا يكون إلاّ على من لا يؤمن بالآخرة وشكّ فيها، وأشرك معه غيره فى عبادته وتولّى الشّيطان وسار على دربه كما فى قوله ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾. بتمكّنه منهم وإغوائه لهم وتحريضهم على الكفر والفسوق والعصيان، وإضلالهم بكفره وعناده، وهؤلاء هم الذين أحكم الشّيطان فيهم ظنّه أنّه إن أغواهم اتّبعوه، وإن أضلّهم أطاعوه، فصدق عليهم ظنّه فى الغواية والإفساد كما فى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠]. وفيه قال زيد بن أسلم [إنَّ إبْلِيسَ قَالَ: يارَبِّ أرأيْتَ هؤُلاَءِ الّذين كَرَّمْتَهُمْ وَشَرَّفْتَهُمْ وَفَضَّلْتَهُمْ عَلَيَّ لاَ تَجدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ظَنًّا مِنْهُ فَصَدَقَ عَلَيْهِمْ إبْلِيسُ ظَنَّهُ].

وعندما نفذ للشّيطان فى آدم ما نفذ وأخرجه من الجنّة غلب على ظنّه أنّ ذلك يمكن أن يتحقّق فى ذريّته لمّا أجيب بقول الله تعالى ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤]. فأُعطي من القوّة والاستطاعة حتّى ظنّ أنه قد تمكّن منهم بذلك حتّى نزل قوله تعالى ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾.

فعلم اللّعين أنّ له تبَعًا من الغاوين الذين أضلّهم عن السّبيل، وأغفلهم عن الطّاعة والذّكر وحاد بهم عن الحقّ بما ملكه من سلطان الشّهوة والغرائز، وزيّن لهم ذلك فى أعينهم وأمدّهم بالأمانى والخدع حتّى اتبعوه بالغواية والشّهوات والهوى، فصدق عليهم الظّن الذى ظنّه بهم كما فى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ﴾ [سبأ: ٢٠].

أمّا السّلطان المنفى فى قول الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢]. فهو الحجّة والبرهان، أى ما أظهرتُ لكم حجّة ولا برهانا على ما وعدتكم وزيّنته لكم فى الدّنيا وأغويتكم به فتابعتمونى وصدّقتم مقالتى واستجبتم لى بكامل اختياركم وصميم إرادتكم بلا قهر منّى أو غلبة وما زاد الأمر على أن ﴿دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾. وقيل إنّ السّلطان الذى أثبته له عليهم فى قوله تعالى ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾. غير الذى نفاه فى قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ [سبأ: ٢١]. من وجهين:

(أحدهما) أنّ السّلطان الثّابت هو تسلُّطه عليهم بالإغواء والإضلال وتمكّنه منهم بحيث يؤزُّهم إلى الكفر والشّرك ويزعجهم إليه كما فى قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]. وذلك أنّ [الأزّ] هو التّحريك والتّهييج ومنه يقال لغليان القدر [أزّ] لأنّ الماء يتحرّك بصوت عند الغليان.

(والثّانى) أنّ الله تعالى لم يجعل له عليهم سلطانا ابتداء البتّة، ولكنّهم سلّطوه على أنفسهم بطاعته، ودخولهم فى جملة جُنده وحزبه، فلم يتسلّط عليهم بقوّته فإنّ كيده ضعيف، وإنّما تسلّط عليهم بإرادتهم وهواهم، وظاهر الآية يدلّ على أنّ الشّيطان لا قدرة له على تصريع الإنسان ولا على تعويج أعضائه وجوارحه، ولولا الميل الحاصل بسبب الشّهوة والغضب والوهم لم يكن لوسوسته تأثير على الإنسان.

أمّا مقصود قوله تعالى ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فقد جاء فيه قولان:

(الأوّل) أنّه يراد به بعض المؤمنين الذين يُذنبون وينقادون لإبليس فى بعض المعاصى،

وهؤلاء سُرعان ما يعودون إلي ربّهم بالتّوبة والإنابة والاستغفار لقوله ﷺ من حديث أبي سعيد «قَالَ إِبْلِيسُ لربِّه: بعزَّتك وَجَلاَلك لاَ أَبرحُ أُغْوِى ابْنَ آدمَ مَادامت الأَرْواحُ فيهم فَقَالَ اللهُ وَعزَّتِي وَجلاَلِي لاَ أَبرحُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونى[١]» . كما جاء قوله ﷺ «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحدكُمْ فَيقُولُ مَنْ خَلقَ كَذَا؛ مَنْ خَلقَ كَذَا؛ حَتَّى يَقُولَ مَنْ خَلقَ رَبَّكَ ؟ فَإذَا بَلغَهُ فَلْيَسْتَعذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ[٢]» .

(والثّانى) يُراد به كلّ المؤمنين لما ورد عن ابن عبّاس : أنّ «منَ» فى الآية للتّبيّن لا للتّبعيض ، فليس للشّيطان سلطان على قلوبهم ولا موضع إيمانهم ولا أن يلقيهم فى ذنب يمنعهم عفو الله تعالى ومغفرته وهم الذين هداهم واجتباهم واختارهم واصطفاهم .

وقيل إنّ قول الله تعالى ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ : يُحتمل أن يكون خاصًا فيمن حفظه الله ، ويُحتمل أن يكون فى أكثر الأوقات والأحوال ، وقد يكون فى تسلّطه تفريج كُرْبَة وإزالة غُمَّة كما فعل ببلال إذْ أَتَاهُ «وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّى فَأَضْجَعَهُ ، فَلَمْ يَزلْ يُهَدِّئُه كَمَا يُهَدَّأُ الصَّبِىُّ حَتَّى نَامَ[٣]» . وقوله «يُهَدِّئُه» : من يُهْدِىءُ إِهْدَاءً : سَكَّنَهُ ونوّمه وجعله يهدأ بحركة رفيقة منظمة .

والشّيطان اللّعين أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهمّ بعمل الخير أو يدخل فيه ، فهو يشتدّ عليه ليقطعه عنه ويحول بينه وبين مراده فيه ، وفى الصّحيح عن النّبى ﷺ «إِنَّ شَيْطَانًا تَفلَّت عَلَىَّ الْبَارحَةَ فَأَرَادَ أَنْ يَقْطَعَ عَلَىَّ صَلاَتى فَأَمْكَنَنى اللهُ مِنْهُ[٤]» . ونام النّبى ﷺ وأصحابه فلم يستيقظ حتّى طلعت الشّمس إذ جاء عن أبى هريرة «عَرَّسْنَا مَعَ نَبِىِّ اللهِ ﷺ فَلَمْ نَسْتَيْقِظْ حَتَّى طَلَعت الشَّمْسُ ، فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ : لِيَأْخُذْ كُلُّ رَجُلٍ بِرَأْسِ رَاحِلَتِه فَإِنَّ هَذَا مَنْزِلٌ حَضَرَنَا فِيهِ الشَّيْطَانُ[٥]» .

وجاء فى رواية أبى قتادة «قَالَ : فَجَعَلَ بَعْضُنَا يَهْمِسُ إِلَى بَعْضٍ : مَا كَفَّارَةُ مَا صَنَعْنَا بِتَفْرِيطِنَا فِى صَلاَتِنَا ؟ ثُمَّ قَالَ أَمَا لَكُمْ فِىَّ أُسْوَةٌ ؟» . ثُمَّ قَالَ ﷺ «أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ فِى النَّوْمِ تَفْرِيطٌ ، إِنَّمَا التَّفْرِيطُ عَلَى مَنْ لَمْ يُصَلِّ الصَّلاَةَ حَتَّى يَجِىءَ وَقْتُ الصَّلاَةِ الأُخْرَى[٦]» . ففرّج بذلك عنهم .

---

(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١١١٨٣] .

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٢٧٦] ومسلم [١٣٤] .

(٣) أورده مالك فى مُوطّئه مرسلا [٢٦] والبيهقى فى دلائل النّبوّة [٤ / ٢٧٤] .

(٤) أخرجه البخارى [٣٤٢٣] ومسلم [٥٤١] .

(٥) أخرجه مسلم [٦٨٠] والتّرمذى [٣١٦٣] .

(٦) أخرجه مسلم [٦٨١] وابن ماجه [٥٧٨] وأبو داود [٤٤١] .

فكلّما كان الفعل أنفع للعبد وأحبّ إلى الله تعالى كان اعتراض الشّيطان له أكثر وعن ذلك جاء قوله ﷺ عند أحمد «إنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لابْنِ آدمَ بأَطْرُقِه، فَقَعَدَ لَهُ بطَرِيقِ الإِسْلامِ فَقَالَ تُسْلِمُ وتَذَرُ دينكَ ودينَ آبائكَ ؟ فعصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعدَ لَهُ بطَرِيقِ الْهِجْرَةِ فَقَالَ تُهاجرُ وتَدَعُ أَرْضَكَ وسَمَاءَكَ، وإنَّما مَثَلُ المُهَاجرُ كمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ ؟ فعصَاهُ فَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعدَ لَهُ بطَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ تُجَاهِدُ فَهُوَ جُهْدُ النَّفْسِ والْمَالِ فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ المرْأَةُ ويُقْسَمُ المَالُ ؟ فعصَاهُ فجَاهدَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ عَزَّ وجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ(١)».

وفى الحديث الدّلالة على أنّ الشّيطان قاعد متربّص بكلّ طريق للخير ليقطعه على السّالك كما جاء قوله تعالى إخبارا عن عدوّه إبليس ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾[الأعراف:١٦-١٧]: والإغواء إيقاع الغيّ فى القلب، (قال) ابن الأعرابى [يقال غوَى الرّجلُ [يغوى] غيًا: إذا فسد عليه أمره أو فسد هو فى نفسه وهوأحد معانى قول الله تعالى ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾[القصص:١٨]. أى مُضِلٌّ بيِّن الضّلالة].

و(الإغْواءُ) الإضلال والإبعاد ومنه الإهلاك. قال تعالى ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[مريم: ٥٩]. أى هلاكا، وكأنّ إبليس فى قوله﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ قد أعظمَ قدرَ إغراء الله إيّاه لما فيه من التّسليط على العباد، فأقسم به إعظاما لقدره عنده، وقيل المعنى فبما أهلكتنى بلعنك إيّاى [(٢)]. وقوله ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُم صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾: أى بالصّدّ عنه وتزيينه بالباطل حتّى يَهْلَكُوا كما هَلَكَ هو، أو يَضِلُّوا كما ضَلَّ، أو يُخَيَّبوا كما خُيِّبَ هو، وكأنّه يشير إلى معنى قوله ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾[النّساء:١١٩]. أى لأصدّنّهم عن الحقّ وأُرغِّبنّهم فى الدّنيا وزينتها وأَحُولُ بينهم وبين رضى الله ورضوانه بوضع الموانع والصّوارف عن الآخرة.

كما تشير الآية إلى أنّ السُّبل التى يسلكها الإنسان [أربعة]: فإنّه تارّة يأخذ على جهة يمينه، وتارّة على شماله، وتارّة أمامه، وتارّة يرجع خلفه، فأىّ سبيل سلكها من هذه وجد الشّيطان عليها رَصَدًا له، فإن سلكها فى طاعة وجده عليها يُثبّطه عنها ويقطعه أو يعوقه ويبطّئه، وإن سلكها لمعصية وجده عليها حاملا له وخادما ومعينا ومُمنّيًا ولو اتّفق له الهبوط إلى أسفل لأتاه من هناك.

(١) حديث صحيح أخرجه النّسائى [٣١٣٤] وأحمد [١٥٩٠٠] وابن حبّان [١٦٠١].

(٢) انظر تفسير القرطبى [ج ٧ ص ١٧٥].

(قال) إسحاق: ذكر هذه الوجوه للمبالغة في التّوكيد أي لآتينّهم من جميع الجهات. و(قال) الزّمخشري: قوله ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم﴾ أي من الجهات الأربع التي يأتي منها العدوّ في الغالب، وهذا مَثَلٌ لوسوسته إليهم وتسويله ما أمكنه وقدر عليه، وصحّ عن ابن عبّاس أنّه قال: لم يقل «من فوقهم» لأنّه علم أنّ الله من فوقهم، و(قال) قتادة [أتاكَ الشَّيْطَانُ يا ابْنَ آدَمَ من كُلِّ وَجْهٍ غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يأْتِكَ مِنْ فَوْقِكَ، لَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يَحُولَ بينَكَ وبينَ رَحْمَةِ اللهِ(١)].

وممّا يشهد لصحّة ذلك قوله جلّ شأنه ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾[فصّلت:٢٥]. وفيه قال مقاتل [هيأنا لهم قرناء من الشّياطين، والتّزيين هنا بوجهين: إمّا بفعل المعاصي، وإمّا بشغلهم بزينة الدّنيا عن فعل الطّاعة].

وإبليس وجنوده من الشّياطين يشتهون الشّر ويتلذّذون به ويسعون في طلبه وإدراكه، ويحرصون عليه بمقتضى خبثهم وسفاهتهم، فإذا اقتنص الشّيطان قلب الإنسان، أفسد عليه خُلُقَهُ وضيّع عقله ودينه وأتلف بدنه وماله، بعدما أقسم الملعون بعزّة الله أن يُضلّه بتزيين الشّهوات له وإدخال الشّبه عليه كما في قول الله تعالى ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[سورة ص:٨٢-٨٣]. أي لأُضلّنّهم بإمالتهم عن طريق الحقّ وأدفعهم إلى المعاصي والإثم والفجور، وقد علم أنّه لا يحقّق ذلك إلاّ بالوسوسة والنّزغ ولا يستطيع أن يفسد إلاّ من كان لا يصلح ولهذا قال الله تعالى ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾.

والإخلاص هو ترك الرّياء في الطّاعة من خَلَصَ يَخْلُصُ خُلُوصًا وخَلاَصًا: أي صَفَّاهُ ونَقَّاهُ من شَوْبه، فإذا صفا عن شوائبه وخلص منها سُمِّيَ الفعل المخلص إخلاصا، قال تعالى ﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾[النّحل:٦٦]. فإنّما خلوص اللّبن لكونه لا يخالطه شيء من الفرْث والدّم، فترك العمل لأجل النّاس رياء والعمل لأجلهم شرك، والإخلاص الخلاص من هذين، وقيل الإخلاص سرّ بين العبد وبين الله لا يعلمه مَلَكٌ فيكتبه، ولا شَيْطَانٌ فيُفسده، ولا هوى فيُميله [(٢)].

وعلى هذا النّحو فإنّ الآيات الكريمة تقف بنا أمام فريقين من النّاس:

(الفريق الأوّل):

أولئك الذين أخلصوا لربّهم العبادة من الشّرك والفساد والرّياء وأخرجهم من دائرة الشّيطان وسلطانه وحفظهم من غلواء نزغه ووسوسته ووصفهم بأنّهم [عِبَادَهُ]

(١) انظر إغاثة اللّهفان [ص ١٠١].

(٢) انظر معجم المصطلحات الفقهيّة [ج ١ ص ١٠٨].

إذ أضافهم سبحانه إلى نفسه إضافة تشريف وتكريم في قوله تعالى ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء: ٦٥]. إنّه ينفي كلّ سلطان له عليهم إلاّ أصل الوسوسة، فإذا وسوس الشّيطان ولم تُطَعْ وسوسته لم يكن له سلطان عليهم أبدا.

أمّا معنى قوله ﷺ في الصّحيح من حديث ابن مسعود «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ. قَالُوا وَإِيَّاكَ يَارَسُولَ اللهِ قَالَ وَإِيَّايَ إِلاَّ أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمُ فَلاَ يَأْمُرُنِي إِلاَّ بِخَيْرٍ[1]». أي أسلم أنا من شرّه وفتنته، وأنّه لم يعد له طريق إلى قلبه ﷺ بالوسوسة ولا إلى الأمر بالشّر قطّ وهذه مرتبة عُليا لا يرتقي إليها إلاّ القليل من النّاس، [قال] القاضي [واعلم أنّ الأمّة كلّها مجتمعة على عصمة النّبي ﷺ من الشّيطان في جسمه وخاطره ولسانه الشّريف ﷺ].

كما ذكر أهل الحديث أنّ من خصائص النّبي ﷺ «إِسْلاَمُ شَيْطَانِه» فلم يكن له عليه سلطان أبدا، ولكن كان له حظّ وطمع فزال هذا وغلبه نور النُّبوّة حتّى يئس فلم يعد يأمر إلاّ بخير أو أنّه أسلمَ وآمن وهو معنى سُؤال عائشة لرَسُولَ الله ﷺ «أَوَ مَعِيَ شَيْطَانٌ؟ قَالَ نَعَمْ، فَقَالَتْ: وَمَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ؟ قَالَ نَعَمْ. قَالَتْ وَمَعَكَ يَارَسُولَ اللهِ؟ قَالَ نَعَمْ وَلَكِنَّ رَبِّي أَعَانَنِي عَلَيْهِ حَتَّى أَسْلَمَ[2]». بمعنى استسلم وانقاد حتّى صار مُؤمنا، وجاء في شرح مسلم [وفي هذا الحديث إشارة إلى التّحذير من فتنة القرين ووسوسته وإغوائه، فأعلمَنا بأنّه معنا لنحترز منه بحسب الإمكان].

(الفريق الثّاني):

هم نصيب الشّيطان وقسمه من البشر الضّائعين الذين تملّكهم وحال بينهم وبين التّوبة والرّجوع والإنابة، وجاء التّعريف القرآني عنهم قاطعا: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النّحل: ١٠٠]. وقوله ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]. ثمّ وصف تبارك وتعالى أولئك بأنّهم أولياء الشّيطان وحزبه بقوله سبحانه ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَانِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَانِ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

والْعَدُوُّ الْخَصْم، [يقال] رَجُلٌ عَدُوٌّ [ذُو عَدَاوَة] وهي في اللّغة الظّلم وتجاوز الحدّ ومنه قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣]. والعادي هو الظّالم، والْعَدُوُّ خلاف الصّديق الموالي والجمع: أعداء. و(جاء) في «التّعريفات[3]»

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٨١٤].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٨١٥].

(٣) انظر التّعريفات [ص ١٤٨] والموسوعة الفقهيّة [٢٩ / ٢٩٨].

[العداوة هي ما يتمكّن في القلب من قصد الإضرار والانتقام] كقول الله تعالى :

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[المائدة : ٩١] . ثمّ يأتي التّنزيل الحكيم بالبيان المؤثّر الموحي بالتّوقّي في قول الله تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف : ٢٧] .

إنّ قدَر الله قد سبق أن يجعل الشّياطين أولياء للذين لا يؤمنون ؛ وياويل من كان عدوّه وليّه الذي يسيطر عليه ويستهويه ويقوده حيث شاء ويذهب به كلّ مذهب في البُعد عن الحقّ ؛ فكما يُقرِّر الخالق سبحانه أنّه ﴿وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ . فإنّه يُبيّن أنّ الشّيطان ولي الذين لا يؤمنون ؛ وتلك حقيقة رهيبة تُذكر هكذا مُطلقة ليرى المؤمن كيف يتخلّص من ولاية الشّيطان وسيطرته عليه والحذر من الوقوع في شباكه .

(ثانيا) سلاح المؤمن في مواجهة الشّيطان علم يُتفقّه فيه

وكما يرى أهل العلم فإنّه لا سبيل لدرء خطر الشّيطان والخروج من دائرة تسلُّطه ووسوسته إلاّ من خلال الالتزام بأمرين مهمّين :

الأوّل - تحصيل العلم الشّرعي الذي يُفيد معرفة ما يجب على المكلّف من أمر عباداته ومعاملاته والعلم بالله وصفاته وما يجب له من القيام بأمره والانتهاء بنهيه وتنزيهه سبحانه عن النّقائص .

الثّاني - تفقّه المسلم في هذا العلم ومعرفته به على وجهه الصّحيح .

(فالأمر الأوّل) يُدلّل على أنّه ليس هناك أفضل من العلم تكرمة يحبّ المرء أن يُوصف بها ولو لم يكن العلم له صفة ، وليس عند الإنسان أسوأ من الجهل مذمّة يكره أن يُنعت بها ولو لم يكن له من العلم شيء ، فكفى بالعلم شرفًا أن يدّعيه من لا يحسنه ، وكفى بالجهل ذمًّا أن يتبرّأ منه من هو غارق فيه ، والعالم الفقيه أفضل عند الله تعالى من العابد غير الفقيه لقول النّبي ﷺ من حديث أبي الدّرداء «وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ (١)» .

أمّا (الأمر الثّاني) فإنّه يُبيّن أنّ أمور الدّين لا تُعرف إلاّ بالتّفقّه فيه ومدارسة أحكامه لقوله ﷺ «مَنْ يُرِدِ اللّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ (٢)» . فالأمر الأوّل يقف بنا أمام فرضيّة

---

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣٦٤١] والتّرمذي [٢٦٨٢] وابن ماجه [١٨٤] .

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري [٧١] وابن ماجه [١٨١] وأحمد [٧١٩٣] .

طلب العلم وأهميّتها في حياة المسلم، أمّا الثّاني فإنّه يقودنا إلى حقيقة هذا العلم وفهمه على وجهه الصّحيح دون إفراط أو تفريط.

ويُطْلَقُ العلم على المعرفة والشّعور والإتقان واليقين، فإذا قيل: «عَلِمْتُ الشَّيْءَ أَعْلَمُهُ عِلْمًا»: يكون المعرفة. وإذا قيل: «مَا عَلِمْتُ بِخَبَرِ قُدُومِهِ»: يكون هو الشّعور، وإذا قيل: «عَلِمَ الأَمْرَ وَتَعَلَّمَهُ»: يعني أتقنه، كما يُطلق العلم على عدّة معان منها: الإدراك مُطلقا تصوّرا كان أو تصديقا يقينيّا أو غير يقيني، وبهذا المعنى يكون العلم أعمّ من الاعتقاد مُطلقا [(١)]. والعلم إدراك الشّيء بحقيقته، يقال: [عَلِمَ] فُلانٌ الشَّيْءَ عِلْمًا: عَرَفَهُ، و[تَعَلَّمَ] الأَمْرَ: أتقنه. و[العَلاَّمُ]: الكثير العلم. يقال: فلان [عَلاَّمَة]: لتأكيد الدّلالة على سعة علمه. و[الْعَلِيمُ] من أسماء الله الحسنى: يعلم كلّ شيء من قوله تعالى﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[الملك: ١٤].

والعلم ضدّ الجهل من قوله تعالى﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[الزّمر: ٩]. وفي فضل تحصيله واكتسابه جاء قوله تعالى﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١]. وقوله تعالى﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النّحل: ٤٣].

والتَّعَلُّمُ لغة مصدر [تَعَلَّمَ] من قوله ﷺ «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ(٢)». يقال «عَلَّمْتُهُ الْعِلْمَ فَتَعَلَّمَهُ» و«عَلِمَهُ»: إذا عَرَفَهُ. والفرق بين التّعلّم والتّلقين، أنّ التّلقين يكون في الكلام فقط، أمّا التّعلّم فيكون في الكلام وغيره، فهو أعمّ من التّلقين، [قال] الرّاغب: التّعليم والإعلام في الأصل واحد، إلاّ أنّ الإعلام اختصّ بما كان بإخبار سريع، والتّعليم اختصّ بما يكون بتكرير وتكثير متى يحصل منه أثر في نفس المتعلّم، وربّما استعمل التّعليم بمعنى الإعلام إذا كان فيه تكرير(٣)].

ولقد أجمل القول في بيان علم الدّين وتصنيفه ما ورد في حديث عبد الله بن عمرو قال «الْعِلْمُ ثَلاَثَةٌ، فَمَا وَرَاءَ ذَلِكَ فَهُوَ فَضْلٌ: آيَةٌ مُحْكَمَةٌ، أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ، أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ(٤)». فيُطلق العلم لغة وعُرفا على أربعة أمور [(٥)]:

(أحدها) إطلاقه حقيقة على ما لا يحتمل النّقيض.

(١) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ٢ ص ٥٣٥].
(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري [٥٠٢٧] وأبو داود [١٤٥٢] والتّرمذي [٢٩٠٧].
(٣) انظر الموسوعة الفقهيّة [١٣ / ٥ و ٢٩٥] ومعجم المصطلحات الفقهيّة [ج ١ ص ٤٧٥].
(٤) أخرجه أبو داود [٢٨٨٥] وابن ماجه [٥٤] بإسناد ضعيف [انظر مشكاة المصابيح / ٢٣٩].
(٥) انظر معجم المصطلحات الفقهيّة [ج ٢ ص ٥٣٤].

(الثّانى) يُراد به مجرّد الإدراك سواء كان الإدراك [جازما أو مع احتمال راجح أو مرجوح أو مساوٍ] على سبيل المجاز فشمل الأربعة قوله تعالى ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ [يوسف : ٥١] . إذ المراد نفى كلّ إدراك .

(الثّالث) أنّه يُطلق ويراد به التّصديق سواء كان قطعيّا أو ظنّيا ، أمّا التّصديق القطعى : فإطلاقه عليه حقيقة وأمثلته كثيرة ، وأمّا التّصديق الظّنّى : فإطلاقه عليه على سبيل المجاز ، ومن أمثلته قوله ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾[الممتحنة : ١٠] .

(الرّابع) أنّه يُطلق ويراد به [معنى المعرفة ذاتها] ومن أمثلة ذلك قول الله تعالى ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾[التوبة : ١٠١] . وتُطلق على المعرفة ويراد بها العلم ومنه قول الله تعالى ﴿مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[المائدة : ٨٣] . أى علموا ، والمعرفة لغة اسم من مصدر عرف ، يقال [عَرَفَ] الشَّىْءَ عِرْفَانًا ومَعْرِفَةً : أدركه بحاسّة من الحواسّ الخمس ، يقال عَرَفَ لله فَضْلَهُ ، أى نعمَهُ وإحسانه فهو عارف ، واصطلاحا : إدراك الشّىء على ما هو عليه ، و [عَرَّفَ] الشَّىْءَ : طَيَّبَهُ وزَيَّنَهُ .

وفى القرآن الكريم ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾[محمّد : ٦] . وقال صاحب « الكلّيّات » [والمعنى الحقيقى للفظ « الْعِلْم » هو « الإدراك » ولهذا المعنى مُتعلّق وهو « المعلوم » . وله تابع فى الحصول يكون وسيلة إليه فى البقاء وهو « الملَكة » فأُطلق لفظ العلم على كلّ منها إمّا حقيقة عُرفية أو اصطلاحية أو مجازًا مشهورًا(١)] .

وفى « شرح الكوكب المنير » العلم [صفة يُميِّز المتّصف بها] بين الجواهر والأجسام والأعراض ، والواجب والممكن والممتنع [تمييزا جازما مطابقًا] أى لا يحتمل النّقيض ، فلا يدخل إدراك الحواسّ لجواز غلط الحسّ ، لأنّه قد يُدرك الشّىْءَ لا على ما هو عليه كالمستدير مستويًا والمتحرّك ساكنًا ونحوهما [(٢)] .

[ولذلك كان من أجَلِّ العلوم وأشرفها] :

(علم الفقه)

وهو العلم بأصول الشّريعة وفروعها وأحكامها ، وهو لغة الفَهْم والفطنة ، والْفَقِيهُ : العالم الفَطِنُ ، وفَقِهَ [بالكسر] : فَهِمَ . وفَقَهَ [بالفتح] سبق غيره إلى الفهم . وفَقُهَ [بالضمّ] : صار الفقه له سجيّةً من [فَقِهَ] الأمْرَ فقْهًا : أحسن إدراكه . يقال فَقِهَ عنه الكلام ونحوه : فَهِمَهُ فهو فَقِهٌ ، قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا

(١) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ٢ ص ٥٣٦] .

(٢) انظر شرح الكوكب المنير للفتوحى [١ / ٦٦] .

نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[التّوبة:١٢٢].

والفقه في كلام العرب هو [الْفَهْمُ] ومنه قول الله تعالى ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾[النّساء:٧٨]. أي «لا يفهمون»، والمراد فهم الأحكام الشّرعية، وقوله تعالى ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝ يَفْقَهُواْ قَوْلِى﴾[طه:٢٨]. أي يعلموا ما أقوله لهم ويفهموه، وقال أعرابي لعيسى بن عمر: شهدت عليك بالفقه، تقول منه: فلان لا يفقهُ ولا ينقهُ: أي لا يعلم ولا يفهم، وفقهت الحديث أفقهه إذا فهمته، ومنه: أَفْقَهْتُكَ الشَّيْءَ[(١)]. ثمّ خُصّ به علم الشّريعة والعالم به فقيه. و«فَقُهَ الله وتَفقَّه»: إذا تعاطَى ذلك، و«فَاقَهتُهُ»: إذا بَاحَثْتَهُ في العلم وهو مقصود قول النّبي ﷺ «مَنْ يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُفقِّهْهُ في الدِّينِ[(٢)]». و[التَّفقُّهُ] من تَفقَّهَ في الأَمْرِ يتفقَّهُ تَفقُّهًا: تَفَهَّمَهُ وعَلِمَهُ ومنه:

[الْفَهْمُ]: وهو فطنة يفهم بها صاحبها من الكلام ما يقترن به من قول أو فعل، [أو] هو حسن تصوّر المعنى وجوْدة استعداد الذّهن لاستنباط الأحكام ومنه قول الله تعالى ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾[الأنبياء:٧٩]. والْمَفْهُومُ: مجموع الصّفات والخصائص الموضّحة لمعنى كلّي. و[أَفْهَمَهُ] الأمر: أبانَهُ لَهُ ووَضَّحَهُ[(٣)].

وأورد الحافظ في الفتح ما أخرجه مسلم وغيره من حديث أبي سعيد «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ عَبْدٌ خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ زَهْرَةَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ، فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَبَكَى، فَقَالَ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هُوَ الْمُخَيَّرُ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا بِهِ[(٤)]». وكان أبو بكر قد فهم من المقام أنّ رسول الله ﷺ هو الْمُخَيَّرُ، فمن ثَمَّ قال أبو سعيد «فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا بِهِ».

أمّا [الْفِقْهُ]: فهو التّوصّل إلى علم غائب بعلم شاهد فهو أخصّ من العلم، واصطلاحا: معرفة النّفس ما لها وما عليها. [أو] هو مجموعة الأحكام الشّرعية التي يجب على المسلم الالتزام بها في حياته العملية، وهذه الأحكام تتناول شئون الفرد والجماعة، وتشمل العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات[(٥)].

---

(١) نقلا عن تفسير القرطبي [ج ١١ ص ١٩٣].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري [٣١١٦] وابن ماجه [١٨١] وأحمد [٧١٩٣].

(٣) انظر المعجم الوجيز [ص ٤٨٣].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخاري [٣٩٠٤] ومسلم [٢٣٨٢].

(٥) انظر المفردات في غريب القرآن [ص ٣٨٤].

ثم عُرِّفَ بعد هذا بأنّه العلم بالأحكام الشّرعيّة العملية الفرعيّة من أدلّتها التّفصيلية المتعلّقة بأفعال العباد في عباداتهم ومعاملاتهم وعلاقتهم الأسريّة وجناياتهم والعلاقات بين المسلمين بعضهم وبعض، وبينهم وبين غيرهم في السّلم والحرب وغير ذلك، والحكم على تلك الأفعال بأنّها واجبة أو محرّمة أو مندوبة أو مكروهة أو مباحة أو صحيحة أو فاسدة أو غير ذلك بناء على الأدلّة التّفصيلية الواردة في الكتاب والسُّنَّة وسائر الأدلّة المعتبرة [(١)].

و[موضوعه]: فعل المكلّف من حيث إنّه مُكلّف، وأمر الصّبي بالصّلاة ليعتادها وثوابه على الطّاعة لعموم قوله تعالى﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾[الكهف: ٣٠]. وفي حديث ابن عبّاس «رَفَعَت امْرَأَةٌ صَبِيًّا لَهَا فَقَالَتْ يَا رَسُولَ الله أَلِهَذَا حَجٌّ ؟ قَالَ نَعَم وَلَك أَجْرٌ(٢)». وعدم مؤاخذة غير المكلّف بالمعصية لعدم تكليفه لما رواه عليٌّ رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ عَنِ الْمَجْنُونِ الْمَغْلُوبِ عَلَى عَقْلِهِ حَتَّى يَبْرَأَ، وَعَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ(٣)». واستمداده من الكتاب والسُّنَّة والإجماع والقياس المستنبط من هذه الثّلاثة. وثمرته الفوز بسعادة الدّارين لمن تعلّمه وعمل به، وواضعه الإمام أبو حنيفة النّعمان رحمه الله تعالى، فإنّه أوّل من دوّن الفقه ورتّب أبوابه، وتبعه الإمام مالك رحمه الله تعالى في موطّئه.

الأمر التّكليفي

ويأتي الأمر في اللّغة بمعنيين:

(الأوّل) بمعنى الحال أو الشّأن ومنه قوله تعالى﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ﴾ [النّساء: ٨٣]. وقوله ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾[هود: ٩٧]. أو الحادثة ومنه قوله تعالى﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾[آل عمران: ١٥٩]. (قال) في الإيضاح [أي شاورهم في الفعل الذي تعزم عليه ويجمع بهذا المعنى على «أمور»].

(والثّاني) طلب الفعل كقوله تعالى﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[البيّنة: ٦]. وهو بهذا المعنى نقيض «النّهي» وجمعه «أوامر» [أو] هو قول القائل لمن دونه: [افعل(٤)].[أو] هو طلب الفعل بالقول على وجه العلوّ: بأن

---

(١) انظر معجم المصطلحات الفقهيّة [ج ٢ ص ٥٣٥-٥٣٦].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٣٣٦] وأبو داود [١٧٣٦] والنّسائي [٢٦٤٦].

(٣) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٤٤٠١] والحاكم [٩٤٩] وأحمد [١٣٢٧].

(٤) انظر القاموس المحيط [ص ٤٣٩] وميزان الأصول للسّمرقندي [ص ٨٠].

يطلبه الأعلى من الأدنى. [أو] هو اقتضاء الطّاعة من المأمور بإتيان المأمور به قولا ومنه قول الله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾.

أمّا [التَّكْليفُ] في اللُّغة من كَلَّفَ يُكَلِّفُهُ تَكْليفًا أَمْرًا: أَوْجَبَهُ أو فرضه عليه، فالتّكليف إلزام ما فيه «كُلْفَةٌ» أي مَشقَّةٌ، فإلزام الشّيء والإلزام به هو تصييره لازما لغيره لا ينفكّ عنه مُطلقا أو وقت ما، والتّكاليف المْشَاقّ، و[التّكليف] بالأمر: فرضه على من يستطيع أن يقوم به من قوله تعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة: ٢٨٦]. وقوله ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[المؤمنون:٦٢].

والوُسْعُ: الطّاقة والْجِدَةُ. والآية نصّ على أنّه تعالى لا يكلّف العباد بأمر من أعمال القلب أو الجوارح إلاّ وهي في وُسع المكلّف وفي مقتضى إدراكه وبنْيته، والمتَكلّف هو المتعرّض لما لم يؤمر به من قوله تعالى ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾[ص:٨٦]. والتّكليف في الاصطلاح طلب الشّارع ما فيه كلفة من فعل أو ترك. [أو]: هو إلزام مقتضى خطاب الشّرع فهو إلزام ما فيه كلفة لا طلبه [(١)].

من أين تُؤخذ الأحكام الشّرعية؟

الحكم لغة مصدر «حَكَمَ» أي قَضَى وفَصَّل، ومن حيث عرف الشّرع فيستعمل على وضع اللّغة في الوجوه الثّلاثة: [المنع والصّرف ـ الإحكام والإتقان ـ الحكمة] فإنّ الله تعالى شرّع الأحكام:

(١) داعية إلى مصالح العباد ومانعة عن أنواع الْعَبَث والفساد.

(٢) وشُرعت مبنيّة على الحكمة البالغة والمعانى المستحسنة.

(٣) وهي محكمة مُتقنة بحيث لو تأمّلها العاقل حقّ التأمّل لعرف أنّها مّما ينبغى أن يكون كذلك [(٢)].

أمّا «الشّرع» فهو البيان والإظهار. [قال] ابن فارس [الشّين والرّاء والعين أصل واحد، وهو شئ يفتح في امتداد يكون فيه ومن ذلك: «الشّريعة»: وهي مورد الشّاربة للماء. قال تعالى ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[المائدة:٤٨]. وقال تعالى ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾[الجاثية:١٨]. وشَرَعَ اللّهُ كذا جعله طريقا ومذهبا(٣)]. والمراد بالشّرع على لسان الفقهاء بيان الأحكام الشّرعيّة، [أو] هو تجويز

(١) انظر الموسوعة الفقهيّة [٣/ ٢٤٨] والتّعريفات [ص ٥٨].

(٢) انظر ميزان الأصول [ص ١٦ ـ ١٩].

(٣) انظر معجم المقاييس [ص ٥٥٥].

الشّيء أو تحريمه أى جعله جائزا أو حراما [(١)] .

والحكم الشّرعى عند الأصوليين خطاب الله تعالى المتعلّق بفعل المكلّف من حيث إنّه مكلّف. [أو] هو خطاب الله المتعلّق بفعل المكلّف اقتضاء أو تخييرا أو بأعمّ وضعا وهو الوارد سببا وشرطا ومانعا وصحيحا وفاسدا.

أمّا [الحكم التّكليفى] فهو ما فيه طلب أو تخيير. [أو] هو خطاب الله تعالى المتعلّق بأفعال المكلّفين بالاقتضاء أو التّخيير، وعند الفقهاء [الأثر الثّابت بشيء نحو الجواز والفساد أو الإعلام على وجه الإلزام(٢)]. ولقد اتّفق المسلمون على أنّ المرجع الأساسي لكلّ مسلم في معرفة الأحكام الشّرعية هو كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ، ثمّ اختلفوا على مصادر أخرى سنذكرها تفصيلا فى [الملحق التّعريفى] الذى سيأتى فى ختام هذا الفصل إن شاء الله تعالى.

أنواع الأحكام الشّرعية

والأحكام الشّرعيّة نوعان :

(الأوّل) حكم قطعى وهو مجموعة الأحكام التى دلّ عليها القرآن الكريم أو السُّنَّة الصّحيحة دلالة قطعية مثل:

* وجوب الصّلاة والزّكاة لقوله تعالى﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.
* ووجوب الحجّ لقوله تعالى﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾.
* وتحريم الزّنا لقوله تعالى﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

والأحكام الشّرعية القطعيّة لا نجد فيها خلافا بين المسلمين علماء ومذاهب وعامّة، إذ هى من المعلوم من الدّين بالضّرورة، وهى كذلك قليلة نسبيّا إذا قُورنت بالأحكام الشّرعية الظّنيَّة.

(الثّانى) حكم ظنّى ويشمل:

(١) مجموعة الأحكام التى يدلّ عليها القرآن الكريم أو السُّنَّة الصّحيحة دلالة ظنّية كمقدار ما يجب مسحه من الرّأس عند الوضوء، وهو كامل الرّأس عند مالك وأحمد، ويكفى بعضه عند أبى حنيفة والشّافعى، وذلك لأنّ حرف الباء فى قوله ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة:٦]. يمكن حمله على عدّة معان مختلفة وليس له معنى قطعى واحد.

(٢) مجموعة الأحكام التى استنبطها الفقهاء من بقيّة المصادر الشّرعية بالاجتهاد

---

(١) انظر التّعريفات [ص١١١] والحدود الأنيقة [ص ٦٩].

(٢) انظر الواضح فى أصول الفقه [ص ٢١].

ومن أمثلة ذلك زوجة المفقود الذى لا يُعرف هل هو حىّ أو ميّت ، فاجتهاد الحنفى والشّافعى يقضى عليها أن تنتظر حتّى يموت جميع أقرانه فى بلده فيغلب على الظّن موته ، وعندئذ يحكم القاضى بانحلال الزّواج ويباح لها أن تتزوّج بغيره .

والدّليل على ذلك أنّ المفقود إذا كان حيّا ، فالأصل استمرار حياته حتّى يثبت موته وهو دليل اجتهادى ظنّى ، أمّا الاجتهاد المالكى فقد قضى بانحلال الزّواج بين المفقود وزوجته بناء على طلبها بعد مضى أربع سنوات على فقدانه فى حالة السّلم وسنة واحدة فى حالة الحرب ، والدّليل على ذلك مراعاة مصلحة الزّوجة ومنع الضّرر عنها ومنع المفاسد التى قد تترتّب على بقائها معلّقة وهو أيضا دليل ظنّى .

وقد أجمع العلماء على أنّ من العلم ما هو [فرض مُتعيَّن] على كلّ امرىء فى خاصّة نفسه ، ومنه ما هو [فرض على الكفاية] إذا قام به قائمٌ سقط فرضه على أهل ذلك الموضع [(١)] . وهو ما نشير إليه تفصيلا على النّحو التّالى :

(الأول) فرض العين

وهو تعلُّم ما لا يسع الإنسان جهله من جملة الفرائض المفترضة عليه نحو الشّهادة باللّسان والإقرار بالقلب بأنّ الله وحده لا شريك له ولا شبه له ولا مثل ، ولا نظير له ولا ندّ له ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُوًا أحد ، وأنّه سبحانه خالق كلّ شىء ، وإليه مرجع كلّ شىء ، والشّهادة بأنّ محمّدا ﷺ عبده ورسوله وخاتم أنبيائه حقّ ، وأنّ البعث بعد الموت حقّ ، وأنّ المجازاة بالأعمال حقّ ، والخلود فى الآخرة لأهل الإيمان والطّاعة فى الجنّة ، ولأهل الشّقاوة بالكفر والجحود فى السّعير حقّ .

وأنّ القرآن العظيم كلام الله تعالى وما فيه حقّ من عنده سبحانه يجب الإيمان بجميعه واستعمال مُحكمه ، وأنّ الصّلوات الخمس فرض عليه ، ويلزمه من علمها علم ما لا تتمّ إلاّ به من طهارتها وسائر أحكامها ، وأنّ صوم رمضان فرض ويلزمه علم ما يفسد صومه وما لا يتمّ إلاّ به ، وإن كان ذا مال لزمه فرضا أن يعرف ما تجب فيه الزّكاة ومتى تجب وفى كم تجب ، ويلزمه أن يعلم بأنّ الحجّ عليه فرض مرّة واحدة فى دهره إن استطاع إليه سبيلا [(٢)] .

كما يلزمه معرفة الأمور المنهىّ عنها ولا يُعذر بجهلها نحو تحريم الزّنا ، والرّبا ، والغصب ، والرّشوة ، والشّهادة بالزّور ، وأكل أموال النّاس بالباطل ، وبغير طيب من أنفسهم ، وتحريم الظّلم كلّه ، وتحريم نكاح الأمّهات والأخوات ، ومن ذُكر معهنّ ، وتحريم قتل

---

(١) انظر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البرّ [ج ١ ص ١٠] .

(٢) انظر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البرّ [ج ١ ص ١١] .

النّفس المؤمنة بغير حقّ ، وما كان مثل هذا كلّه ممّا قد نطق به الكتاب وأجمعت عليه الأمّة ، كما يلزمه معرفة ما يحلّ وما يحرم من المأكول والمشروب ، ومنه تحريم الخمر والخنزير ، وأكل الميتة والأنجاس كلّها .

كما يجب على الأباء تعليم أولادهم الصّغار ما يتعيّن عليهم بعد البلوغ ، فيُعلّمه الوليُّ الطّهارة والصّلاة والصّوم ونحوها ، ويعرّفه تحريم الزّنا ، واللّواط ، والسّرقة ، وشرب المسكر ، والكذب ، والغيبة ، وشبهها ، ويعرّفه أنّه بالبلوغ يدخل فى التّكليف ويعرّفه ما يبلغ به ، كما يجب عليه النّظر فى ماله فهذا أحقّ بالتّقديم ، وإنّما المستحبّ ما زاد على هذا من تعليم القرآن والفقه والأدب ، ويُعرّفه ما يُصلح معاشه ومعاده ، ودليل ذلك قول الله تعالى ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التّحريم : ٦] .

و (قال) الأكثرون فى تفسيرها [قُوا أنفسكم بأفعالكم ، وقُوا أهليكم بوصيّتكم] . وذكر القشيرى أنّ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لمّا نزلت هذه الآية قال « يَارَسُولَ اللهِ نَقِي أَنْفُسَنا فَكَيْفَ لَنا بِأَهْلِينا ؟ » . قَالَ « تَنْهَوْنَهُمْ عَمَّا نَهَاكُمُ اللهُ وَتَأْمُرُونَهُمْ بِمَا أَمَرَ اللهُ » . فكما أنّ المؤمن مكلَّفٌ بهداية نفسه وإصلاح قلبه فهو مكلَّفٌ بهداية أهله وإصلاح بيته .

وكما أنّه يحمل تبعة نفسه وجب عليه أن يحمل تبعة أهله وأولاده وهو الأمر الثّابت فى قوله ﷺ من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ « فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّته (١) » . قال الخطّابى [معنى الرّاعى ههنا الحافظ المُؤتمن على من يليه ، يأمرهم بالنّصيحة فيما يلونه ، ويحذّرهم أن يخونوا فيما وُكّل إليهم منه أو يُضيّعوا (٢)] .

(الثّانى) فرض الكفاية

وهو تحصيل ما لابدّ للنّاس منه فى تعلُّمهم أمر دينهم من العلوم الشّرعيّة كحفظ القرآن والأحاديث وعلومهما ، والأصول ، والفقه ، والنّحو ، واللّغة ، والتّصريف ، ومعرفة رواة الحديث ، والإجماع ، والخلاف ، وفتواهم به فى مصالح دينهم ودنياهم فرض على الكفاية يلزم الجميع فرضه ، فإذا قام به قائم سقط فرضه عن الباقين لا خلاف بين العلماء فى ذلك بدليل قوله تعالى :

﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾ [التوبة : ١٢٢] . أى يتبصّروا أمر الدّين ويُحصّلوا حقيقته ويتيقّنوا حلاله وحرامه ثمّ يُعلّمون غيرهم ما تعلّموه من أحكام الشّرع والدّين ، وفى هذا إيجاب التّفقّه فى الكتاب والسُّنّة وأنّه على الكفاية دون الأعيان ويدلّ

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٨٩٣] ومسلم [١٨٢٩] .

(٢) انظر سُنن أبى داود [ج ٣ ص ٦٠ - الهامش] .

عليه قوله تعالى ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النّحل :٤٣] .

فتعليم الطّالبين وإفتاء المستفتين فرض كفاية، فإن لم يكن هناك من يصلح إلاّ واحد تعيّن عليه ذلك لقوله ﷺ من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه «نَضَّرَ اللهُ امْرأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ(١)».

(قال) الخطّابى [قوله «نَضَّرَ اللهُ»: معناه الدُّعاء له بالنّضارة وهى النّعمة والبهجة، وفى قوله «رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ»: دليل على كراهة اختصار الحديث لمن ليس بالمتناهى فى الفقه، لأنّه إذا فعل ذلك فقد قطع طريق الاستنباط والاستدلال لمعانى الكلام من طريق التّفهّم، وفيه وجوب التّفقّه والحثّ على استنباط معانى الحديث واستخراج المكنون من سرّه(٢)].

والمراد بفرض الكفاية تحصيل ذلك الشّىء من المكلّفين به أو بعضهم ويعمّ وجوبه جميع المخاطبين به، فإذا فعله من تحصل به الكفاية سقط الحرج عن الباقين، وإذا قام به جمع تحصل الكفاية ببعضهم فكلّهم سواء فى حكم القيام بالفرض فى الثّواب وغيره. ومن [هذا الباب] تكفين الموتى وغسلهم والصّلاة عليهم ومُواراتهم، فإذا صلّى على الجنازة جَمْعٌ ثمّ جَمْعٌ فالكلّ يقع فرض كفاية، ولو أطبقوا كلّهم على تركه أثم كلّ من لا عذر له ممّن علم ذلك وأمكنه القيام به، ولا يأثم من لم يتمكّن لكونه غير أهل أو لعذر [(٣)].

وللقائم بفرض الكفاية مزيّة على القائم بفرض العين لأنّه أسقط الحرج عن الأمّة لاتّفاق العلماء على أنّ الاشتغال بالعلم أفضل من الانشغال بنوافل الصّوم والصّلاة والتّسبيح ونحو ذلك من نوافل عبادات البدن، ومن دلائله أنّ نفع العلم يعمّ صاحبه والمسلمين، والنّوافل المذكورة مختصّة به، ولأنّ العلم مُصحّح للعمل فغيره من العبادات مُفتقر إليه ولا ينعكس، ولأنّ العلماء ورثة الأنبياء ولا يُوصف المتعبّدون بذلك، ولأنّ العابد تابع للعالم مُقتد به مقلّد له فى عبادته وغيرها واجب عليه طاعته ولا ينعكس [(٤)].

ولأنّ العلم تبقى فائدته وأثره بعد صاحبه والنّوافل تنقطع بموت صاحبها، ولأنّ العلم صفة لله تعالى، ولأنّ العلم فرض كفاية فكان أفضل من النّافلة، وقد قال إمام الحرمين رحمه الله فى كتابه [الغياثى]: فرض الكفاية أفضل من فرض العين من حيث

---

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣٦٦٠] والتّرمذى [٢٦٥٦] وابن ماجه [١٨٩] .

(٢) انظر سُنن أبى داود [ج ٣ ص ٣١٩].

(٣) انظر المجموع للنّووى [ج ١ ص ٥٢].

(٤) انظر المصدر السّابق [ج ١ ص ٤٤].

أنّ فاعله يَسُدُّ مَسَدَّ الأُمّة ويُسقط الحرج عنها ، وفرض العين قاصر عليه [(١)] .

ومن فروض الكفاية عند جماعة من أهل العلم الأذان فى الأمصار، وقيام رمضان، وعيادة المريض، وتشميت العاطس، وقالوا : هذا كلّه فرض على الكفاية، وقال [أهل الظّاهر] بل ذلك كلّه فرض مُتعيّن، وذكر ابن المبارك عن الحسن البصرى قال [ستٌّ إذا أدّاها قوم كانت موضوعة عن العامّة وإذا اجتمعت العامّة على تركها كانوا آثمين :

(١) الجهاد فى سبيل الله يعني سدّ الثّغور. (٢) والضّرب فى العدوّ. (٣) وغسل الميت وتكفينه والصّلاة عليه. (٤) والفُتيا بين النّاس. (٥) وحضور الخُطبة يوم الجمعة فليس لهم أن يتركوا الإمام وليس عنده من يخطب عليه. (٦) والصّلاة فى جماعة(٢)] .

فضل طلب العلم

لقد تكاثرت الآيات وتواترت الأخبار على فضيلة العلم والحثّ على تحصيله والاجتهاد فى اقتباسه وتعليمه ودليل ذلك قوله ﷺ عند التّرمذى من حديث أبى الدّرداء رضي الله عنه «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فيه عِلْمًا سَلَكَ اللّٰهُ به طَرِيقًا إلي الْجَنّة ، وَإِنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجنحَتَهَا رِضًاء لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَن في السَّمواتِ وَمَنْ في الأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاء، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِب ، وإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِياء، وإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورِّثُوا دِينارًا ولاَ دِرْهَمًا ، إِنّما وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ(٣)» .

وقوله «وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاء» : يُبيِّن أنّ العلم بالدّين والشّرع هو الفضل الذى ينبغي أن يتوارثه المسلم عن نبيّه ﷺ ويأخذ منه الزّاد الأكمل لدنياه وآخرته، ثمّ يأتى حديث ابن عمر رضي الله عنه ليُؤكّد أنّ من سعى فى طلب العلم وتحصيله فقد استطاع أن ينال الحظّ الأوفر من ميراث النّبوّة لقوله ﷺ «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُوتِيتُ بِقَدَحِ لَبَنٍ فَشَرِبْتُ حَتَّى إِنِّي لأَرَى الرِّيَّ يَخْرُجُ مِنْ أَظْفَارِي، ثُمَّ أَعْطَيْتُ فَضْلِي عُمَرَ بْنَ الْخَطَّاب ، قَالُوا فَمَا أَوَّلْتَهُ يارَسُولَ الله؟ قَالَ الْعِلْمُ(٤)» . وتفسيره ﷺ اللّبن بالعلم لاشتراكهما فى كثرة النّفع بهما . (قال) ابن المنير [وجه الفضيلة للعلم فى الحديث من جهة أنّه عبّر عن العلم بأنّه فَضْلَةُ النّبى ﷺ ونصيب ممّا آتاه الله تعالى منه(٥)] .

كما جاءت الأحاديث التى تقرّر أنّ لطالب العلم ومعلّمه منزلة رفيعة ومرتبة شريفة منيعة لا يحصّلها إلاّ من أراد الله به خيرا فألهمه رشده منها قول النّبى ﷺ من حديث

---

(١) انظر المجموع للنّووى [ج ١ ص ٤٥] . (٢) انظر جامع بيان العلم [ج ١ ص ١٢] . (٣) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣٦٤١] والتّرمذى [٢٦٨٢] .(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٦٨١ ومسلم ٢٣٩١] . (٥) انظر فتح البارى [ج ١ ص ٢١٧] .

أبى هريرة «الدُّنْيا ملعُونَةٌ ملعُونٌ ما فيها ، إلاَّ ذكْر الله وما والاَهُ وعالماً ومُتعلّماً(١)» .
وقوله ﷺ عن ابن مسعود رضي الله عنه «إذا أراد الله لعبد خيراً فقّههُ في الدّينِ وألْهمهُ رُشْدهُ(٢)» .
وقوله ﷺ عن أبي هريرة رضي الله عنه «ما من رجُلٍ يسْلُكُ طريقًا يطْلُبُ فيه علْمًا إلاَّ سهّل اللهُ لهُ به طريقًا إلى الْجنّة ، ومنْ أبطأ به عملُهُ لمْ يُسْرِعْ به نسبُهُ(٣)» .

وإذا كان أكرم النّاس أخيرهم وأتقاهم كما في قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾[البيّنة : ٧] .
فإنّ هذه الخيريّة لا تتحقق فى الإسلام إلاّ بالتّفقّه في الدّين وهو الأمر المنصوص عليه في قوله ﷺ عندما سُئل عن معادن العرب «فخيارُكُمْ في الْجاهليَّة خيارُكُمْ في الإسْلامِ إذا فقهُوا(٤)» . (قال) فى الفتح [كان شرفهم فى الجاهليّة بالخصال المحمودة من جهة ملائمة الطّبع ومنافرته خصوصا بالانتساب إلى الآباء المتّصفين بذلك ، ثمّ كان الشّرف فى الإسلام بالخصال المحمودة شرعا(٥)] . فكان أرفعهم مرتبة من أضاف إلى ذلك التّفقّه فى الدّين .

فلا يتشعّب من الفقه إلاّ الشّرف وإن كان صاحبه بسيطا ، والعزّ وإن كان مهينا ، والقرب وإن كان قصيًّا ، والغنى وإن كان فقيرا ، والمهابة وإن كان وضيعا ، والنّبل وإن كان حقيرا ، والسّلامة وإن كان سفيها ، وفيه (قال) الشّافعى [ما أحد أورع لخالقه من الفقهاء ، ومن تعلّم القرآن عظُمت قيمته ، ومن نظر فى الفقه نبُل قدره ، ومن نظر فى اللّغة رقّ طبعه ، ومن نظر فى الحساب جزُل رأيه ، ومن كتب الحديث قويت حجّته ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه] .

وفي قوله تعالي ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[آل عمران:١٨] . دليل على فضل العلم وأهله وشرف العلماء ومنزلتهم عند الله ، فإنّه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن اسم العلماء ، وقوله تعالى﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾[طه : ١١٤] .
واضح الدّلالة فى فضل العلم ، لأنّ الله تعالى لم يأمر نبيّه ﷺ بطلب الازدياد من شىء إلاّ من العلم ، وهو العلم الشّرعى الذى يُفيد معرفة ما يجب على المكلّف من أمر عباداته ومعاملاته ومدار ذلك على التّفسير والحديث والفقه ، ودليل ذلك قوله ﷺ «طلبُ الْعلْمِ فريضةٌ على كُلِّ مُسْلمٍ(٦)» .

---

(١) حديث حسن صحيح أخرجه التّرمذى [٢٣٢٢] وابن ماجه [٣٣٣٦] .
(٢) رواه الطّبرانى فى الكبير بإسناد لا بأس به .
(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٩٩] وأبوداود [٣٦٤٣] .
(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٣٧٤] ومسلم [٢٥٢٦] .
(٥) انظر فتح البارى [ج ٦ ص ٤٧٨] .
(٦) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [١٨٤] .

وعن ابن عبّاس فى تفسير قوله تعالى ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[المجادلة: ١١]. قال «يرفع اللهُ الذين أوتوا العلم من المؤمنين على الذين لم يُؤتوا العلم درجات[١]». ورفعة الدّرجات تدلّ على الفضل إذ المراد به كثرة الثّواب، والتى بها ترتفع الدّرجات، ورفعتها تشمل [المعنويّة] فى الدّنيا بعلوّ المنزلة وحسن الصّيت، و[الحسّية] فى الآخرة بعلوّ المنزلة فى الجنّة، وعن زيد بن أسلم رضي الله عنه فى قول الله تعالى ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾[الأنعام: ٨٣]. قالَ بالْعِلْمِ [[٢]].

والعلم قبل القول والعمل وهو مراد قوله تعالى ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾[محمّد: ١٩]. ولمّا سُئل ابن عُيينة عن فضل العلم قال [ألم تسمع قوله حين بدأ به ﴿فَٱعْلَمْ﴾: وفيه أمر بالعمل بعد العلم]. (قال) ابن المنير [أراد به أنّ العلم شرط فى صحّة القول والعمل فلا يعتبران إلاّ به، فهو متقدّم عليهما لأنّه مصحّح للنّية التى هى مصحّحة للعمل بقوله ﴿فَٱعْلَمْ﴾ والخطاب وإن كان للنّبى ﷺ فهو مُتناول لأمّته[٣]].

فضل من علِمَ وعلَّمَ

ويأتى بيان فضل من علِمَ وعَلَّم فيما رواه أبو موسى عن النّبى ﷺ قال «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللّهُ به من الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ، لا تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللّهِ الّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ[٤]».

وفى الحديث جعل النّبى ﷺ النّاس بالنّسبة إلى الهدى والعلم ثلاث طبقات:

(الطّبقة الأولى) ورثة الرّسل وخلفاء الأنبياء وهم الذين قاموا بالدّين علما وعملا ودعوة إلى الله عزّ وجلّ ورسوله ﷺ، وهم بمنزلة الطّائفة الطّيبة من الأرض التى زكَتْ فقبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير فزكَت فى نفسها وزكا النّاس بها، وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة فى الدّين والقوّة على الدّعوة.

فكان لهم قوّة الحفظ والفهم فى الدّين والبصر بالتّأويل، ففجّرت من النّصوص أنهار العلوم واستنبطت منها كنوزها ورزقت فيها فهما خاصا كما قال أمير المؤمنين على

(١) أخرجه الحاكم بإسناد صحيح [٣٨٤٣] وافقه الذّهبى فى التّلخيص صحيح.

(٢) انظر فتح البارى [ج ١ ص ١٧٠].

(٣) انظر المصدر السّابق [ج ١ ص ١٩٣].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٧٩] ومسلم [٢٢٨٢].

رضي الله عنه وقد سئل «هَلْ خَصَّكُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِشَيْءٍ دُونَ النَّاسِ ؟ فَقَالَ لاَ وَالَّذِى فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرأَ النَّسْمَةَ ، إِلاَّ فَهْمًا يُؤْتِيهُ اللهُ عَبْدًا فِي كِتَابِهِ[1]» . فهذا الفهم هو بمنزلة الكلأ والعشب الكثير الذى أنبتته الأرض وهو الذى تميزت به هذه الطّبقة [[2]] .

(والطّبقة الثّانية) وهى التى حفظت النّصوص وكان همّها حفظها وضبطها ، فوردها النّاس وتلقوها منهم فاستنبطوا منها واستخرجوا كنوزها وبذروها فى أرض صالحة للزّرع والإنبات ، ووردوها كلّ بحسبه وهؤلاء هم الذين قال فيهم رسول الله ﷺ «نَضَّرَ اللهُ امْرأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ[3]»

(الطّبقة الثّالثة) وهم أشقى الخلق الذين لم يقبلوا هدى الله تعالى ولم يرفعوا به رأسا فليست لهم قلوب حافظة ولا أفهام واعية ، فإذا سمعوا العلم لا ينتفعون به ، ولا يحفظونه لنفع غيرهم ، وكان مَثَلُهم كمَثَل الأرض السّبخة التى لا تُنبت ولا تنتفع بالماء ولا تُمسكه لينتفع به غيرها .

(قال) القرطبى [ضرب النّبى ﷺ لما جاء به من الدّين مَثَلاً بالغيث العام الذى يأتى النّاس فى حال حاجتهم إليه ، وكذا كان حال النّاس قبل مبعثه ﷺ ، فكما أنّ الغيث يُحيى البلد الميّت فكذا علوم الدّين تحيى القلب الميّت ، ثمّ شبّه السّامعين له بالأرض المختلفة التى ينزل بها الغيث :

(١) فمنهم العالم العامل المعلّم ، فهو بمنزلة الأرض الطيّبة شربت فانتفعت فى نفسها وأنبتت فنفعت غيرها .

(٢) ومنهم الجامع للعلم المستغرق لزمانه فيه غير أنّه لم يعمل بنوافله أو يتفقّه فيما جمع لكنّه أداه لغيره .

(٣) ومنهم من يسمع العلم فلا يحفظه ولا يعمل به ولا ينقله لغيره ، فهو بمنزلة الأرض السّبخة أو الملساء التى لا تقبل الماء أو تفسده على غيرها[4]] .

رفع العلم من أشراط السّاعة

ومن علامات السّاعة أن يُرفع العلم ويثبت الجهل لقوله ﷺ من حديث أنس «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ وَيَثْبُتَ الْجَهْلُ ، وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ وَيَظْهَرَ الزِّنَا[5]» . وجاء فى

(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٥٩٩] . (٢) انظر الوابل الصّيّب [ص ٥٤] . (٣) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣٦٦٠] والتّرمذى [٢٦٥٦] . (٤) انظر فتح البارى [ج ١ ص ٢١٢] . (٥) حديث صحيح أخرجه :البخارى [٨٠] ومسلم [٢٦٧١] والتّرمذى [٢٢٠٥] .

رواية قتادة «أَنْ يَقِلَّ الْعِلْمُ، وَيَظْهَرَ الْجَهْلُ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا، وَتَكْثُرَ النِّسَاءُ، وَيَقِلَّ الرِّجَالُ[(١)]». (قال) في الفتح: [وكأنّ هذه الأمور الخمسة خُصّت بالذكر لكونها مُشعرة بعدم التّوازن واختلال الأمور التي يحصل بحفظها صلاح المهاد والمعاد وهي:

(١) الدّين: لأنّ رفع العلم يخلّ به. (٢) والعقل: لأنّ شرب الخمر يخلّ به. (٣) والنّسب: لأنّ الزّنا يخلّ به. (٤ / ٥) والنّفس والمال: لأنّ كثرة الفتن تخلّ بهما[(٢)]].

وفيها الدّلالة على أنّ من كان لديه فَهْمٌ وقابليّة للعلم لا ينبغي له أن يُهمل نفسه فيترك الاشتغال بعلومه والاستزادة منها لئلاّ يُؤدّي ذلك إلى رفع العلم.

ولا يُرفع العلم إلاّ بموت العلماء وهو المنصوص عليه في قوله ﷺ «إِنَّ اللهَ لاَ يَنْزِعُ الْعِلْمَ بَعْدَ أَنْ أَعْطَاكُمُوهُ انْتِزَاعًا، وَلَكِنْ يَنْتَزِعُهُ مِنْهُمْ مَعَ قَبْضِ الْعُلَمَاءِ بِعِلْمِهِمْ، فَيَبْقَى نَاسٌ جُهَّالٌ يُسْتَفْتُونَ فَيُفْتُونَ بِرَأْيِهِمْ فَيَضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ[(٣)]». فالعلم يُنتزع ويُرفع مع قبض العلماء بعلمهم لقول النّبي ﷺ في حَجّة الوَداع «يَا أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوا مِنَ الْعِلْمِ قَبْلَ أَنْ يُقْبَضَ وَقَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ مِنَ الأَرْضِ» وفي آخره «إِنَّ ذَهَابَ الْعِلْمِ أَنْ يَذْهَبَ حَمَلَتُهُ[(٤)]». ويُفَصِّلُ ذلك قوله ﷺ «إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا يُرْفَعُ فِيهَا الْعِلْمُ وَيَكْثُرُ فِيهَا الْهَرْجُ[(٥)]».

والجهل في قوله «وَيَظْهَرَ الْجَهْلُ» يعني الجفاءُ والسَّفَهُ ومنه «عَدَمُ الْعِلْمِ، وجَهِلَ الشّيْءَ لم يعرفه، وفي القرآن الكريم ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣]. و[الجاهلية] ما كان عليه العرب قبل الإسلام من الجهالة والشِّرك والضّلالة ومنه قوله تعالى ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

ومفهوم قوله ﷺ من حديث معاوية «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللهُ يُعْطِي، وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللهِ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ[(٦)]». يُبيّن أنّ من لم يتفقّه في الدّين ويتعلّم قواعد الإسلام وما يتّصل بها من الفروع فقد حُرم الخير كلّه، وفي ذلك بيان ظاهر لفضل العلماء على سائر النّاس ولفضل التّفقّه في الدّين على سائر العلوم. (قال) في الفتح [وهذا الحديث مشتمل على ثلاثة أحكام:

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري [٨١] وأحمد [١٣٠٢٩].

(٢) انظر فتح الباري [ج ١ ص ٢٣٤].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخاري [٧٣٠٧] ومسلم [٢٦٧٣].

(٤) حديث أخرجه أحمد بإسناد حسن [٢٢١٩١].

(٥) حديث صحيح أخرجه البخاري [٧٠٦٣] ومسلم [٢٦٧٢].

(٦) حديث صحيح أخرجه البخاري [٧١ و٣١١٦] وأحمد [١٦٨٧٠].

(أحدها) فضل التّفقّه فى الدّين .

(والثّانى) أنّ المعطى فى الحقيقة هو الله تعالى .

(والثّالث) أنّ بعض هذه الأُمّة يبقى على الحقّ أبدا إلى أن تقوم السّاعة .

ومقصود الحديث إثبات الخير لمن تفقه فى دين الله تعالى وأنّ ذلك لا يكون بالاكتساب فقط بل لمن يفتح الله عليه به لقول النّبى ﷺ «إِذَا أَرادَ اللهُ عزَّ وَجلَّ بِعَبْدٍ خَيْرًا فَقَّهَهُ فى الدِّينِ[1]» . وفى رواية «يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» . وأنّ من يفتح الله عليه بذلك لا يزال جنسه موجودا حتّى يأتى أمر الله تعالى[2]] .

وجاء عند البخارى عن عمر رضي الله عنه «تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تُسَوَّدُوا[3]» . ومعناه عند أبى عبيد [تعلّموا العلم ما دمتم صغارا قبل أن تصيروا سادة رؤساء منظورا إليكم، فإن لم تتعلّموا قبل ذلك استحييتم أن تتعلّموه بعد الكِبَر فبقيتم جهّالا تأخذونه من الأصاغر ، فيُزْرى ذلك بكم ، أى ينتقص من هيبتكم ومكانتكم بين النّاس .

وهذا شبيه بحديث ابن مسعود رضي الله عنه «لَنْ يَزَالَ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا أَخَذُوا الْعِلْمَ عَنْ أَكَابِرِهِمْ ، فَإِذَا أَتَاهُمْ مِنْ أَصَاغِرِهِمْ فَقَدْ هَلَكُوا» . وله فى الأصاغر تفسير آخر لَمّا قال : بلغنى عن ابن المبارك أنّه كان يذهبُ بالأصاغرِ إلى أهل البدع ولا يذهبُ إلى السِّنِّ[4]] .

ويُستفاد من قول عمر أنّه جعل السّيادة من ثمرات العلم وأوصى طالبه باغتنام هذه الزّيادة قبل بلوغ درجة السّيادة ، وذلك يُحقّق استحقاق العلم بأن يغبط صاحبه لأنّه سبب لسيادته ، [فكأنّه] يقول تعلّموا العلم قبل حصول الرّياسة لتُغبطوا إذا غُبطتم بحقّ ، ومعنى الغبطة أن يتمنّى المرءُ مثل ما للآخر من النّعمة من غير أن يتمنّى زوالها عنه ، وهو المراد بالحسد الذى جاء فى قول النّبى ﷺ «لاَ حَسَدَ إِلاَّ فى اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا[5]» . ويراد «بالحكمة» علم الكتاب والسُّنّة أو كلّ ما منع من الجهل وزجر عن القبيح .

وعن ابن عبّاس قال «ضَمَّنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْكِتَابَ[6]» . وأخرجه أحمد بلفظ «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ[7]» . وقوله عند الحاكم «فَدَعَا اللهَ

---

(١) حديث أخرجه أحمد بإسناد حسن [١٦٨١٧] .

(٢) انظر فتح البارى [ج ١ ص ١٩٨] .

(٣) رواه البخارى مُعلّقا قبل رقم [٧٣] وأبو عبيد فى غريب الحديث [٦٣٥] .

(٤) انظر غريب الحديث [ج ٤ ص ٢٦٠ - ٢٦١] .

(٥) حديث صحيح أخرجه البخارى [١٤٠٩] ومسلم [٨١٦] .

(٦) حديث صحيح أخرجه البخارى [٧٢٧٠] ومسلم [٢٤٧٧] .

(٧) حديث أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢٣٩٧] .

أنْ يُزيدَني فهمًا وَعلْمًا(١)». وجاء قوله ﷺ في رواية ابن ماجه «اللّهمّ علّمْهُ الحكْمَةَ وَتأْويلَ الْكتَابَ(٢)». ويراد «بالتّأويل» هنا: التّفسير والبيان وكشف المعنى وتوضيح المراد، ولذلك كان رضي الله عنه عندما يقرأ قوله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾[آل عمران:٧]. يقول «أنا ممّنْ يعْلمون تأْويلهُ». ومراده والله أعلم تفسيره وبيانه.

و«الْكتَابُ» في قوله «اللّهمّ علّمْهُ الْكتابَ» هنا القرآن المنزّل على نبيّنا محمّد ﷺ والذى أُمرنا بالإيمان والعمل به على طريق التّعيين لأنّ العرف الشّرعى عليه، أمّا غيره من سائر كتب الله تعالى فأمرنا بالإيمان بها على طريق الإبهام والجملة دون التّعيين، بل نُهينا عن العمل بها والنّظر فيها صريحا لأنّه قد ثبت بنصّ القرآن تحريف بعضها وهو الثّابت في قول الله تعالى ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾. وإنّما عرفنا أنّ القرآن هو كتاب الله تعالى ووحيه وتنزيله بقول رسولنا محمّد ﷺ وإخباره بذلك، لكنّ الصّحابة رضى الله عنهم عرفوا ذلك بإخباره سماعا، ونحن عرفناه بالنّقل عنه تواترا، والثّابت بالتّواتر والمسموع بحسّ السّمع سواء.

واختلف الشُّرّاح في المراد بالحكمة هنا: فقيل هى الصّواب، والسّداد، والحقّ، والعلم، والعدل، والحلم، والنّبوّة، والقرآن والسّنّة من قوله تعالى ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾[البقرة:١٢٩]. وقيل هى الإصابة في القول والخشية والفهم عن الله تعالى وما يشهد العقل بصحّته، [أو] هى نور يُفرّق به بين الإلهام والوسواس، والأقرب أنّ المراد بها الفَهْم في القرآن، وبإجابة دعاء النّبىﷺ كان ابن عبّاس من الفقه بالمحلّ الأعلى. [قاله النّووى(٣)].

والحكمة لغة [معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم]. [أو] هى [وضع الشّىء في موضعه] كما في «الحدود الأنيقة». وفي اصطلاح الأصوليين [هى المصلحة التى قصدها الشّارع من تشريع الحكم تحقيقها أو تكميلها؛ أوالمفسدة التى قَصد الشّارع بتشريع الحكم دفعها أو تقليلها. و[الحكماء] هم الذين يكون قولهم وفعلهم موافقا للسُّنّة، و«أحْكَمَ الأمْرَ» أتقنه(٤)]. من قوله ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾[الحجّ:٥٢]. أى يُبيّنها ويجعلها مُتقنة مقنعة محكمة ومنه «آياتٌ مُحْكَمَةٌ» أى مُتقنة واضحة، وقيل مُحكمة غير منسوخة،

---

(١) أخرجه الحاكم بإسناد صحيح [٦٣٨٨] وافقه الذّهبى في التّلخيص صحيح.

(٢) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [١٣٦].

(٣) انظر نووى مسلم [ج ٨ ص ٢٧٦].

(٤) الحدود الأنيقة [ص ٧٣] والموسوعة الفقهيّة [٣٠ / ٢٨٧].

أو مُحكمة غير متشابهة فلا تحتاج إلى تأويل لقول الله سبحانه ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾[آل عمران: ٧].

ضياع الدّين بين الحياء والكبر

لـمّا أحبَّت أمّ سُلَيْم الأنصاريّة أن تقدمٌ لبسط عُذرها في ذكرها لما تستحي من ذكره بين يدى رسول الله ﷺ قالت «يارَسُولَ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ[١]». لأنّ الذى يُعتذر به إذا كان مُتقدِّما على الشّيء المعتَذَر عنه أدركته النّفس صافيا من العيب، وإذا تأخّر العذر استثقلت النّفس المعتذر منه فتأثّرت بقبحه، وعليه فإنّ الأوّل يأتي [دَافِعًا] والثّاني يأتي[رَافِعًا]، وقد قيل: دفع الشّيء المستكره قبل وقوعه أيسر من رفعه بعد وقوعه.

يأتي ذلك مُقدِّمة لسؤال أمّ سُلَيْم رضى الله عنها للنّبي ﷺ بقولها«هَلْ عَلَى الْمَرْأَةِ غُسْلٌ إِذَا هِيَ احْتَلَمَتْ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نَعَم إِذَا رَأَتِ الْمَاءَ[٢]». ورغم أنّ سؤالها يتّصل بدواخل النّفس التى لا يستطيع المرء الإفصاح عنها أمام من تعظُم هيبته وترتفع مكانته، إلاّ أنّها لم تمتنع من طرح سؤالها عمّا احتاجت إليه من فقه وعلم يتّصل بحقيقة من حقائق الدّين، ومعنى قولها «إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ»: أنّ الله لا يأمر بالحياء فى الحقّ ولا يُبيحه كما في قوله تعالى﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾[الأحزاب: ٥٣]. أى لا يمتنع من بيانه وإظهاره، ولـمّا كان ذلك يقع من البشر لعلّة الاستحياء نفى عن الله العلّة الموجبة لذلك فى البشر[[٣]].

وإنّما قالت أمّ سُلَيْمٍ هذا اعتذار بين يدى سُؤالها عمّا دعت الحاجة إليه ممّا تستحى النّساء فى العادة من السّؤال عنه وذكره بحضرة الرّجال، ومُراده هنا معناه اللُّغوى وهو الذى يقع على وجه الإجلال والاحترام للأكابر وهو المعنى الذى حمله قول أمّ المؤمنين عائشة «نِعْمَ النِّسَاءُ نِسَاءُ الأَنْصَارِ لَمْ يَمْنَعْهُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّينِ[٤]».

ولـمّا كان الحياء يعنى انقباض النّفس وتحفُّظها عمّا يعيبها من فعلٍ أو قول وهو مستحيل فى حقّ الله تعالى فيُحمل قولها «إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ» على أنّ الله لا يأمر بالحياء فى الحقّ، أو لا يمنع من ذكر الحقّ، فمن الحقّ أن يسأل المرء بلا استحياء عمّا لا يعرفه من شأن الدّين، بل ومن حقّ الدّين عليه أن يسأل عمّا لا يعرفه وإن اندرج

(١) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٢٨٢].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [١٣٠] ومسلم [٣١٣].

(٣) انظر تفسير القرطبى [ج ١٤ ص ٢٢٧].

(٤) أخرجه البخارى معلّقا قبل رقم [١٣٠].

هذا السّؤال تحت ما يُظنّ أنّه [حرج] يمنعه الحياء.

وكان رسول الله ﷺ يتوصّل بالكناية عمّا يضطرّ إلى التّعبير عنه ممّا يكره التّصريح به، ومن ذلك ما قاله لامرأة رفاعة حينما سألته وقد تزوّجت رجلا فطلّقها قبل أن يدخل بها هل تحلّ لزوجها الأوّل الذى طلّقها ثلاثا «حتَّى تَذُوقِى عُسَيْلَتَهُ وَيَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ(١)». و[الْعُسَيْلَةُ] تصغير العسل، وقيل أنّ الهاء إنّما ثبتت فيها على نيّة اللّذة.

كما يحمل ما ذكره البخارى عن مجاهد من قوله «لاَ يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ مُسْتَحْيٍ وَلاَ مُسْتَكْبِرٌ(٢)». الدّلالة على أنّ ما يكون سببا لترك [أمر شرعى] فهو حياء مذموم وليس بالحياء الشّرعى الذى هو من الإيمان وإنّما هو ضعف ومهانة. و«لاَ» فى كلامه نافية لا ناهية، وكأنّه أراد تحريض المتعلّمين على ترك العجز والتّكبّر لما يُحدث كلّ منهما من النّقص فى تحصيل العلم والدّين [(٣)].

فينبغى لمن عرضت له مسألة أن يسأل عنها ولا يمتنع من السُّؤال حياء من ذكرها، فإنّ ذلك ليس بحياء حقيقى لأنّ الحياء خير كلّه، والحياء لا يأتى إلاّ بخير والإمساك عن السُّؤال فى هذه الحال ليس بخير بل هو شرّ فكيف يكون حياء، وفيه قال أمير المؤمنين على رضي الله عنه «لاَ يرجُونَّ عَبْدٌ إلاَّ رَبَّهُ، وَلاَ يخَافَنَّ إلاَّ ذَنْبَهُ، ولاَ يَسْتَحْيِى مَنْ لاَ يعلَمُ أَنْ يَتَعلَّمَ، وَلاَ يَسْتَحْيِى إِذَا سُئِلَ عَمَّا لاَ يعْلَمُ أَنْ يَقُولَ اللهُ أَعْلَمُ(٤)». ومن أقوال الحسن «مَن اسْتَتَرَ عَنِ الطَّلَبِ بالْحَيَاءِ لَبِسَ لِلْجَهْلِ سِرْبَالَهُ، فَقَطِّعُوا سَرَابِيلَ الْحَيَاءِ، فَإِنَّهُ مَنْ رَقَّ وَجْهُهُ رَقَّ عِلْمُهُ(٥)».

وأمّا معنى قوله ﷺ «الْحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ(٦)» فقد يُشْكَلُ على بعض النّاس من حيث إنّ صاحب الحياء قد يستحى أن يُواجه بالحقّ من يُجلّه ويحترمه فيترك أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وقد يحمله الحياء على الإخلال والتّفريط ببعض الحقوق الظّاهرة وغير ذلك ممّا هو معروف فى العادة، وجواب هذا: أنّ هذا المانع ليس بحياء على الحقيقة بل هو عجز وضعف ومهانة، وإنّما جاءت تسميته حياء من إطلاق بعض أهل العرف له مجازا لمشابهته الحياء الحقيقى، وإنّما حقيقة الحياء خُلُقٌ يبعث على ترك القبيح ويمنع من

---

(١) من حديث صحيح أخرجه أبو داود [٢٣٠٩] والنّسائى [٣٤٠٩].

(٢) رواه البخارى مُعلّقا قبل رقم (١٣٠).

(٣) انظر فتح البارى [ج ١ ص ٢٧٦].

(٤) انظر عيون الأخبار لابن قتيبة [ج ٥ ص ١١٩].

(٥) انظر المصدر السّابق [ج ٥ ص ١٢٣].

(٦) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٣٧] وافقه عليه البخارى [٦١١٧]

التّقصير فى حقّ ذى الحقّ ونحو هذا والله تعالى أعلم [(١)] .

آفة الدّين بين جاهل ومتعالم

وضياع الدّين يكون بين جاهل يترفّع عن السُّؤال فيه ومُتعالم حين يُسأل عمّا لا يعلمه لا يقول الله أعلم، أمّا [الأوّل] فإنّه لم يدرك أنّ السّؤال فى أحكام الدّين وفروضه هو الأمر الذى حضّ الله تعالى عباده عليه، وهو ما تقرّر أصله وثبت وجوبه ممّا يجب عليهم العمل به كما فى قول الله تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النّحل: ٤٣].

وكما يُقصد بالآية سُؤال مؤمنى أهل الكتاب ليخبروا كفار قريش بما علموه أنّ جميع الأنبياء كانوا بشرا، فإنّها أيضا تحمل معنى سُؤال أهل الذّكر عن أحكام الشّرع والدّين، وفيها قال ابن عبّاس رضي الله عنه [أهل الذّكر هم أهل القرآن أو هم أهل العلم والمعنى متقارب] .

ويبيّن رسول الله ﷺ أنّه لا شفاء لداء الجهل إلاّ بالعلم والتّعلُّم وسُؤال أهل الذّكر فيما شقّ على المرء فهمه ومعرفته كما فى قول النّبى ﷺ من حديث جابر عن الذين أفتوا المجروح أن يغتسل بالماء: «أَلاَ سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا، فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِىِّ السُّؤَالُ (٢)» . وفى رواية ابن عبّاس رضي الله عنه «أَلَمْ يَكُنْ شِفَاءُ الْعِىِّ السُّؤَالُ (٣)» . أى لَمْ لَمْ يسألوا حين لم يعلموا؟ فشفاء الجهل السّؤال، وعاب عليهم رسول الله ﷺ الإفتاء بغير علم ودعا عليهم لتقصيرهم فى السّؤال عمّا لا يعلموه، والْعِىُّ فى الأصل العجز عن التّعبير اللّفظى بما يفيد المعنى المقصود والمراد به هنا الجهل.

أمّا ما يُنهى عن السُّؤال عنه فهو الأمر الذى لم يتعبّد الله عباده به ولم يذكره فى كتابه، أو ما يكون تنطُّعا فى بعض المسائل أو تكلُّفا فيما يسّره الله من أمر الدّين، أو ترخُّصا فى الأحكام والفروض لقوله ﷺ من حديث المغيرة بن شعبة «إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الأُمَّهَاتِ، وَوَأْدَ الْبَنَاتِ، وَمَنَعَ وَهَاتِ، وَكَرِهَ لَكُمْ ثَلاَثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ (٤)» . وذُكر عن ابن عبد البرّ قوله [من سأل مُستفهما راغبا فى العلم ونفى الجهل عن نفسه، باحثا عن معنى يجب الوقوف فى الدّيانة عليه فلا بأس به فشفاء العىّ السُّؤالُ، ومن سأل مُتعنّتا غير مُتفقّه ولا مُتعلّم فهو الذى لا يحلّ

---

(١) انظر نووى مسلم [ج ١ ص ٢٨١].

(٢) حديث حسن أخرجه أبو داود [٣٣٦] وأحمد [٣٠٥٧] وابن ماجه [٤٧٠] .

(٣) حديث حسن أخرجه أبو داود [٣٣٧].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٢٤٠٨].

قليل سؤاله ولا كثيره(١)].

والخالقُ سبحانه يُعلِّمُ عبادَهُ أدب السُّؤال وحدود البحث ومنهج المعرفة ليُنشِّئهم على النّهج القويم الذى ارتضاه لهم، فيبيّن أنّ الإكثار من الأسئلة أمر مذموم كما فى قول الله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة:١٠١]. أى لا تسألوا عن أشياء عفا الله عنها وترك فرضها أو تفصيلها ليكون في الإجمال سعَةٌ، وفي الحديث «إنَّ اللهَ فرضَ فرائضَ فلا تُضيِّعُوهَا، وحَدَّ حُدُودًا فلا تَعْتَدُوها، وحرَّمَ أشياءَ فلا تَنْتَهِكُوها، وسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رحْمَةً بِكُمْ غير نسيانٍ فلا تَبحَثُوا عَنْهَا(٢)».

وجاء عن ابن عبّاس رضي الله عنهما [مَارَأَيْتُ قَوْمًا خَيْرًا من أَصْحَاب مُحَمَّد ﷺ، مَا سَأَلُوهُ إلاَّ عَنْ ثَلاثَ عَشْرَةَ مَسْأَلَةً حَتَّى قُبِضَ ﷺ كُلُّهُنَّ فِي الْقُرْآن ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ * ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ * ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾. مَا كَانُوا رضى الله عنهم يَسْأَلُونَ إلاَّ عمَّا يَنْفَعُهُمْ(٣)]. يعنى أنّ هذا كان الغالب عليهم.

ومُراد ابن عبّاس المسائل التى حكاها الله فى القرآن عنهم، وإلاّ فالمسائل التى سألوه عنها وبيّن لهم أحكامها بالسُّنَّة لا تكاد تُحصى أو تعدُّ، وإنّما كانوا يسألونه عمّا ينفعهم من الواقعات ولم يكونوا يسألونه عن المقدّرات والأغلوطات وعُضَل المسائل، ولم يكونوا يشتغلون بتفريع المسائل وتوليدها، بل كانت هممهم مقصورة على تنفيذ ما أمرهم به، فإذا وقع بهم أمر سألوا عنه فأجابهم [(٤)].

وإذا كان قد قيل إنّ السُّؤال نصف العلم وأنّه الباب الموصّل إلى حقائق الدّين وعلومه، فإنّ التّكلُّف فيه والتّعمُّق فى مسائله أمر نهى عنه الشّرع لما رواه أبو داود وغيره عن معاوية «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَى عَنِ الأُغْلُوطَاتِ(٥)». وفسّره الأوزاعى بصعاب المسائل وقال [إذا أراد الله تعالى أن يحرم عبده بركة العلم ألقى على لسانه الأغاليط]. والحاصل أنّ كثرة السُّؤال ومتابعة المسائل بالأبحاث العقليّة والاحتمالات النّظريّة أمر مذموم فى شرع الدّين.

وذكر الشّاطبى أنّ كراهية السُّؤال تكون فى عشرة مواضع [(٦)]:

---

(١) انظر تفسير القرطبى [ج ٦ ص ٣٣٣].

(٢) حديث أخرجه الدّارقطنى [٤ / ١٨٣] والطّبرانى فى الكبير [٢٢ / ٥٨٩].

(٣) انظر تفسير القرطبى [ج ٦ ص ٣٣٣].

(٤) انظر أعلام الموقعين لابن القيّم [ج ١ ص ٧١].

(٥) أخرجه أبو داود [٣٦٥٦].

(٦) انظر الموافقات للشّاطبى [ج ٤ ص ٣١٩].

(أحدها) السُّؤال عمّا لا ينفع في الدّين.

(والثّاني) أن يسأل بعدما بلغ من العلم حاجته كما سأل الرّجل عن الحجّ أَكُلَّ عَامٍ؟ مع أنّ قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾: قاض بظاهره أنّه للأبد.

(والثّالث) السُّؤال من غير احتياج إليه في الوقت وعليه يدلّ قوله ﷺ «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ[(1)]».

(والرّابع) أن يسأل عن [صعاب المسائل] وشرارها كما جاء في حديث معاوية «نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الأُغْلُوطَاتِ». واحدتها أغلوطة وزنها أفعولة من الغلط كالأحموقة من الحُمق، والمعنى أنّه نهى أن يعترض العلماء بصعاب المسائل التي يكثر فيها الغلط ليُستذلّوا بها ويُستسقَط رأيهم فيها [(2)].

(الخامس) أن يسأل عن علّة الحكم وهو من قبيل التّعبُّدات التي لا يعقل لها معنى، كما في حديث قضاء الصّوم دون الصّلاة.

(السّادس) أن يبلغ بالسُّؤال إلى حدّ التّكلُّف والتّعمُّق وعلى ذلك يدلّ قول الله تعالى ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:٨٦]. ولمّا سأل الرّجل قائلا «يَا صَاحِبَ الْحَوْضِ هَلْ تَرِدُ حَوْضَكَ السِّبَاعُ؟ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: يَا صَاحِبَ الْحَوْضِ لاَ تُخْبِرْنَا فَإِنَّا نَرِدُ عَلَى السِّبَاعِ وَتَرِدُ عَلَيْنَا[(3)]».

(السّابع) أن يظهر من السُّؤال معارضة الكتاب والسُّنّة بالرّأي ولذلك قيل لمالك ابن أنس «الرَّجُلُ يَكُونُ عَالِمًا بِالسُّنَّةِ أَيُجَادِلُ عَنْهَا؟ قَالَ لاَ وَلَكِنْ يُخْبِرُ بِالسُّنَّةِ فَإِنْ قُبِلَتْ مِنْهُ وَإِلاَّ سَكَتَ». فليس أخطر من الجدَل في أمور الدّين لثبوت قوله ﷺ من رواية أبي أُمامة رضي الله عنه «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلاَّ أُوتُوا الْجَدَلَ، ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزّخرف:٥٨][(4)]».

والجَدَلُ يقوم على المنازعة في الرّأي وشدّة الخصومة ويستعمل في الحقّ والباطل من [جَادَلَهُ مُجَادَلَةً وَجِدَالاً]: ناقشه وخاصمه، ومنه دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجّة قاصدا تصحيح كلامه [(5)].

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري [٧٢٨٨] ومسلم [١٣٣٧] والتّرمذي [٢٦٧٩].

(٢) انظر سُنن أبي داود [ج ٣ ص ٣١٧].

(٣) أخرجه مالك في الموطأ بإسناد صحيح [٤٤].

(٤) حديث حسن أخرجه ابن ماجه [٤٨] وصحّحه الألباني في تعليقه على المشكاة [١٨٠].

(٥) انظر القاموس القويم [ص ١١٩].

(الثّامن) السّؤال عن المتشابهات[1] ويدلّ على ذلك قوله ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾. ومن ذلك سُؤال من سأل مالكا عن الاستواء فقال: [الاستواء معلوم والكيف مجهول والسّؤال عنه بدعة].

(التّاسع) السُّؤال عمّا شجر بين السّلف الصّالح وقد سُئل عمر بن عبد العزيز عن قتال أهل صفّين فقال رضى الله عنه [تِلْكَ دِمَاءٌ كَفَّ اللهُ عَنْهَا يَدِى فَلاَ أُحِبُّ أَنْ يَلْطَخَ بِهَا لِسَانِى].

(العاشر) سُؤال التّعنُّت والإفحام وطلب الغلَبة في الخصام، وفي القرآن في ذمّ نحو هذا من قوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤]. و فى الحديث «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الأَلَدُّ الْخَصِمُ[2]». وهو الشّديد الجدال، وإنّما صار هذا بغيضا لأنّه إذا احتُجّ عليه بحُجّة أخذ من جانب آخر لَجاجَة ومُمارَاة.

هذه جملة من المواضع التى يُكره السُّؤال فيها ويُقاس عليها ما سواها وليس النّهى فيها واحدا بل فيها ما تشتدّ كراهيته، ومنها ما يخفّ ومنها ما يحرم ومنها ما يكون محلّ اجتهاد، وعلى جملة منها يقع النّهى عن الجدال فى الدّين كما جاء «الْمِرَاءُ فِى الْقُرْآنِ كُفْرٌ[3]». فالسُّؤال فى مثل ذلك منهى عنه والجواب بحَسَبِه.

قال البغوى فى [شرح السُّنَّة] المسائل على وجهين:

(الأوّل) ما كان على وجه التّعليم لما يحتاج إليه من أمر الدّين فهو جائز بل مأمور به لقول الله تعالى ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النّحل: ٤٣]. وعلى ذلك تتنزّل أسئلة الصّحابة عن الأنفال والكَلالة وغيرهما.

(والثّانى) ما كان على وجه التّعنُّت والتّكلُّف وهو المراد فى قوله ﷺ «دَعُونى مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ سُؤَالُهُمْ وَاخْتِلاَفُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ». (قال) فى الفتح [وفى الحديث إشارة إلى الاشتغال بالأهمّ المحتاج إليه عاجلا عمّا لا يحتاج إليه فى الحال فكأنّه قال: عليكم بفعل الأوامر واجتناب النّواهى فاجعلوا اشتغالكم بها عِوضًا عن الاشتغال بالسُّؤال عمّا لم يقع[4]].

---

(١) المتشابه فى اللّغة مأخوذ من التّشابه، وفى عرف أهل الأصول: هو الْمُشْكَلُ الذى يحتاج فى فهم المراد به إلى تفكُّر وتأمُّل. [انظر إحكام الفصول لابن حزم ص ٤٨].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٧١٨٨] ومسلم [٢٦٦٨] والتّرمذى [٢٩٧٦].

(٣) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٤٦٠٣].

(٤) انظر فتح البارى [ج ١٣ ص ٢٧٨].

أمّا (الثّانى) فهو الْمُتقوّلُ فى الدّين بغير علم حين يُسأل، فلا هو أجاب بالصّحيح من الأحكام ولا هو فوّض أمر الإجابة لأهل العلم بقوله [لا أدرى] و[الله أعلم] ولا أدرك حقيقة القول من خالقه ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[الإسراء:٣٦]. أى لا تقل ما ليس لك به علم ولا تحكم بالقيافة والظّن.

و[الفتوى] الجواب عمّا يُشْكلُ فى المسائل الفقهيّة والشّرعية وبيان الحُكم فيها وجمعها [فَتاوَى] و[فَتاوٍ] من قوله تعالى ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾[النمل:٣٢]. وقوله ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[يوسف:٤١]. أمّا [المُفْتِى]: فهو من يتصدّى للفتوى بين النّاس.

وليس هناك أصعب من أن يُورد المرء نفسه مورد الحَرَج والشّدّة عندما يُفْتى بغير علم أو يقول بغير فقه، وهو ما أكّد خطورته رسول الله ﷺ على الدّين عندما يُنتزع العلم بموت العلماء فيتّخذ النّاس رُءوسًا جُهّالاً إذا سُئلوا أَفْتَوْا بغير علم «فَيَضلُّونَ وَيُضلُّونَ(١)». وقوله ﷺ «مَنْ قَالَ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ فَلْيَتَبَوَّأْ بيتًا فِي جَهَنَّمَ، وَمَنْ أُفْتِيَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ إِثْمُهُ عَلَى مَنْ أَفْتَاهُ(٢)».

كما جاء قوله ﷺ عند ابن ماجه بلفظ «مَنْ أُفْتِيَ(٣) بِفُتْيَا غَيْرِ ثَبْتٍ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى مَنْ أَفْتَاهُ(٤)». فالتّوقُّف عن الفتوى بغير علم هو الهَدْىُ الذى ربّى رسول الله ﷺ عليه أصحابه لما رواه أيّوب عن ابن أبى مُلَيكة قال «سُئِلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ عَنْ آيَة فَقَالَ أَيُّ أَرْضٍ تُقلُّني، وَأَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي، وَأَيْنَ أَذْهَبُ وَكَيْفَ أَصْنَعُ، إِذَا أَنَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللهِ بِغَيْرِ مَا أَرَادَ اللهُ بِهَا(٥)».

ولـمّا كان الإفتاء هو الإخبار بحكم الله تعالى عن دليل لمن سأل عنه فى أمر نازل فقد كان السّلف من الصّحابة والتّابعين يكرهون التّسرّع فى الفتوى ويودّ كلّ منهم أن يكفيه إيّاها غيره، فإذا رأى أنّها تعيّنت عليه بذل اجتهاده فى معرفة حُكمها من الكتاب والسُّنّة أو قول الخلفاء الرّاشدين ثمّ أفتى لحديث ابن أبي ليلى قال «أَدْرَكْتُ عِشْرِينَ وَمِائَةً مِنَ الأَنْصَارِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ يُسْأَلُ عَنْ شَيْءٍ، إلاَّ

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٧٣٠٧].

(٢) حديث حسن أخرجه أبوداود [٣٦٥٧].

(٣) قوله [أُفتِى] أى من وقع فى خطأ بفتوى عالم فلا إثم على متّبع ذلك العالم.

(٤) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٤٧] وأحمد [٨٢٧٣] وأورده فى المشكاة [٢٤٢].

(٥) انظر أعلام الموقعين [ج ٢ ص ١٨٤].

وَدَّ أَنَّ أَخَاهُ كَفَاهُ ، وَلاَ يُحَدِّثُ حَدِيثًا إِلاَّ وَدَّ أَنَّ أَخَاهُ كَفَاهُ(١) » .

وقد حرّم الله تعالى التَّقَوُّلَ عليه بغير علم وجعله من أعظم المحرّمات بل جعله في المرتبة العليا منها فقال تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

فجعل المحرَّمات أربع مراتب وبدأ بأسهلها وهي [الفواحش] ثمّ ثنّى بما هو أشدّ تحريما منه وهو [الإثم والظّلم] ثمّ ثلّث بما هو أعظم تحريما منهما وهو [الشّرك به] سبحانه ، ثمّ ربّع بماهو أشدّ تحريما من ذلك كلّه وهو [التَّقَوُّلُ عليه] بلا علم ، وهذا يشمل القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وفي دينه وشرعه .

وقد وصف سبحانه فعل ذلك بالكذب والافتراء في قوله ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾[النّحل : ١١٦] . فتقدّم إليهم بالوعيد على الكذب عليه في أحكامه وقولهم لما لم يحرّمه هذا حرام ولما لم يحلّه هذا حلال ، وهذا بيان منه أنّه لا يجوز للعبد أن يقول هذا حلال وهذا حرام إلاّ بما علم أنّ الله أَحَلَّهُ أو حَرَّمَهُ .

وعن ابن هانيء قال [سألتُ الإمام أحمد عن الذى جاء في قوله ﷺ « اجْرَؤُكُمْ عَلَى الْفُتْيَا أَجْرَؤُكُمْ عَلَى النَّارِ » ؟ قال رحمه الله : يُفتي بما لا يسمع . قال وسألته عمّن أفتى بفُتيا يعيى بها قال : فإثمها على من أفتاها] . وعن ابن عبّاس قال « إنّ كلّ من أفتى في كلّ ما يسألونه عنه لمجنون » . وقال سحنون بن سعيد « أجسر النّاس على الفُتيا أقلّهم علما ، يكون عند الرّجل الباب الواحد من العلم يظن أنّ الحق كلّه فيه » . ولمّا سُئل الشّافعي عن مسألة فلم يجب قال [حتّى أدرى إنّ الفضل في السّكوت لا في الجواب] .

لا يستحيي المرء أن يقول لا أدري

ينبغي على المسلم الحقّ إذا سُئل عن شيء لا يعرفه أو عرض له ما لا يعرفه أن يقول [لاَ أَعْرِفُهُ] أو [لاَ أَتحقَّقُهُ] ولا يستنكف عن ذلك ، فمن عِلْمِ العالم أن يقول فيما لا يعلم [لاَ أَعْلَمُ] أو [اللهُ أَعْلَمُ] لما رواه البخارى عن ابن مسعود موقوفا « يَاأَيُّهَا النَّاسُ مَنْ عَلِمَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ به ، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلْ اللهُ أَعْلَمُ ، فَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ يَقُولَ لِمَا لاَ يَعْلَمُ اللهُ أَعْلَمُ ، وَقَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لنبيّه ﷺ ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾[ص : ٨٦(٢)] .

---

(١) انظر أعلام الموقعين [ج ١ ص ٣٤] .

(٢) رواه البخارى موقوفا [٤٨٠٩] ومسلم [٢٧٩٨] .

وأورد البخارى في صحيحه [باب : ما كَانَ النَّبيُّ ﷺ يُسأَلُ مِمَّا لَمْ يَنزِلْ عَلَيه الْوَحْيُ فيقول «لاَ أَدْرِي» أو «لَمْ يُجبْ». حَتَّى يَنْزِلَ عَلَيْه الْوَحْيُ]. وساق الحافظ دليلا على ذلك ما روى عن ابن مسعود قال «سُئِلَ النَّبيُّ ﷺ عَنِ الرُّوحِ فَسكَتَ حَتَّى نَزلَت الآيَةُ[(١)]».
وما أخرجه الحاكم عن جبير بن مطعم «أَنَّ رَجُلاً أَتي النَّبيَّ ﷺ فَقَالَ يارَسُولَ اللهِ أَيُّ الْبِلاَد شَرٌّ؟ قَالَ لاَ أَدْرى. فَلَمَّا أَتَاهُ جِبْرِيلُ قَالَ يَاجِبْرِيلُ أَيُّ الْبلْدَان شَرٌّ؟ قَال لاَ أَدْرى حَتَّى أَسْأَلَ رَبِّى، فانْطَلَقَ جبْرِيلُ فَمكَثَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَمْكُثَ، ثُمَّ جَاءَ فَقَال يَامُحَمَّدُ إِنَّكَ سَأَلْتَني أَيُّ الْبلاَد شَرٌّ؟ وَإِنِّي قُلْتُ لاَ أَدْرى وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّى فَقُلْتُ أَيُّ الْبلاَد شَرٌّ؟ فَقَالَ أَسْوَاقُهَا[(٢)]». قال: وهذا الحديث أصل في قول العالم [لا أدرى].

وقول المرء [لاَ أَدْرِى] لا يضع من منزلته ولا يُقلّل من هيبته بل هو دليل على عظم محله وتقواه وكمال معرفته، لأنّ المتمكّن لا يضرّه عدم معرفته مسائل معدودة، بل يُسْتَدَلُّ بقوله [لاَ أَدْرِى] على تقواه وأنّه لا يُجازف في فتواه، وإنّما يَمتنع مِنْ [لاَ أَدْرِى] من قلّ علمه وقصرت معرفته وضعفت تقواه لأنّه يخاف ـ لقصوره ـ أن يسقط من أعين السّائلين وهو جهالة منه، فإنّه بإقدامه على الجواب فيما لا يعلمه يبوء بالإثم العظيم.

وفارق كبير بين من يتورّع لعلمه وتقواه بقوله [لاَ أَدْرِى] وبين من يجازف بدينه لجهله وقلّة علمه، فيقع فيما فَرَّ عنه ويتّصف بما احترز منه لفساد نيّته وسوء طويّته، ولا يُوصف إلاّ بما أخبر به النّبي ﷺ في قوله «الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلاَبِسِ ثَوْبَىْ زُورٍ[(٣)]».

ومعنى «الْمُتَشَبِّعُ»: أى المتزيّن بما ليس عنده يتكثّر به ويتزيّن له، أمّا حكم التثنية في قوله «ثَوْبَى زُورٍ»: فللإشارة إلى أنّ كذب المتحلّى مُثنّى، لأنّه كذب على نفسه بما لم يأخذ، وعلى غيره بما لم يُعْطَ، وقال الزّمخشرى في الفائق [المتشبّع أى المتشبّه بالشّبعان وليس به، واستعير للتحلّى بفضيلة لم يُرزقْها، وشبّه بلابس ثوبى زور أى ذى زور، وهو الذى يتزيّا بزى أهل الصّلاح رياء[(٤)]].

فكأنّ الذى لا يدرى قد تصوّر أنّه أصاب العلم كلّه ليُفتى فيه بجهله وهو لا يدرى!!. (قال) ابن القيّم [الجرأة على الفُتْيا تكون من قلّة العلم ومن غزارته وسعته، فإذا قلّ علم المرء أفتى عن كلّ ما يُسْأَلُ عنه بغير علم، وإذا اتّسع علمه اتّسعت

---

(١) رواه البخارى معلّقا قبل رقم [٧٣٠٩].

(٢) أخرجه الحاكم [٣٠٦] وأورده الذّهبى في التّلخيص سندا ومتنا وسكت عنه.

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٢١٩] ومسلم [٢١٣٠].

(٤) انظر فتح البارى [ج ٩ ص ٢٢٨].

فُتياه، ولهذا كان ابن عبّاس رضي الله عنه من أوسع الصّحابة فُتيا، وجاء عن حذيفة رضي الله عنه قوله «إنّما يُفتى النّاس أحد ثلاثة: من يعلم ما نُسخ من القرآن، أو أمير لا يجد بُدًّا، أو أحمق متكلّف[1]].

وممّا قاله أبو حصين «إنّ أحدهم ليُفتى فى المسألة ولو وردت على عمر رضي الله عنه لجمع لها أهل بدر، ولأن يموت الرّجل جاهلا خير له من أن يقول ما لا يعلم. ومن إكرامه نفسه أن لا يقول إلاّ ما أحاط به علمه]. ولقد اعتبر العلماء أنّ قول الرّجل «لاَ أَعْلَمُ» أو «لاَ أَدْرى» أصل من أصول العلم يفزع إليه عندما لا يعلم. «وَاللّهُ أَعْلَمُ» تعدل عند الشّعبى «نِصْفَ الْعِلْمِ». وكان ابن المسيّب لا يكاد يُفتى إلاّ أن يقول «اللّهُمَّ سَلِّمْنِى وَسَلِّمْ مِنّى».

وقيل لابن المبارك متى يُفتى الرّجل؟ قال [إذا كان عالما بالأثر بصيرا بالرّأى]. ويريد «بالرّأى» القياس الصّحيح والمعانى والعلل الصّحيحة التى علّق الشّارع بها الأحكام وجعلها مؤثّرة فيها طردا وعكسا. فلا ينبغى للمرء أن يسأل غير العالم بالأحكام المتبصِّر بحقائق الدّين العارف بهدى السُّنَّة، وذلك مدلول قول الله تعالى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾[الفرقان: ٥٩]. أى سَلِ العالم بربّه العارف بصفات جلاله وكماله وأسمائه وحقائق شرعه وأصول دينه.

ملحق تعريفى فى أصول الفقه

الفقه فى اللُّغة هو الفَهْم العميق النّافذ والذى به تُعرف غايات الأقوال والأفعال ومن ذلك قول الله تعالى ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾[النّساء: ٧٨]. وقوله ﷺ من حديث أبى هريرة رضي الله عنه «مَنْ يُرِدِ اللّهُ به خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِى الدِّين[2]». أمّا معناه فى اصطلاح العلماء الشّرعيين لا يخرج عن هذا وإن كان يُخصّص عمومه: «فهو العلم بالأحكام الشّرعيّة العمليّة المكتسَبة من أدلّتها التّفصيليّة». وعلى ذلك فإنّ علم الفقه يتكوّن من جزئين [[3]]:

(أحدهما) العلم بالأحكام الشّرعية العمليّة أمّا الأحكام الاعتقاديّة كالوحدانيّة ورسالة الرّسل وتبليغهم رسائل ربّهم والعلم باليوم الآخر وما يكون فيه، كلّ هذا لا يدخل فى مضمون كلمة الفقه بالمعنى الاصطلاحى.

(والثّانى) العلم بالأدلّة التَّفصيلية لكلّ قضية من القضايا، فإذا ذكر أنّ الرّبا حرام

---

(١) انظر أعلام الموقّعين [ج ١ ص ٣٧].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٧١] وابن ماجه [١٨١] وأحمد [٧١٩٣].

(٣) انظر أصول الفقه للشّيخ محمد أبى زهرة [ص ٤]

قليله وكثيره ذكر دليله من الكتاب، وإذا ذكر أنّ كلّ زيادة في رأس المال ربا أقام الدّليل بقول الله تعالى ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩]. فموضوع علم الفقه الحكم في كلّ جزئية من أعمال النّاس بالحلّ أو التحريم أو الكراهة أو الوجوب أو الاستحباب ودليل كلّ واحد من هذه الأمور.

ولا يُطلق اسم «الفقيه» إلاّ على العالم بالأحكام الشّرعية الثّابتة للأفعال الإنسانيّة كالوجوب والحظر والإباحة والنّدب والكراهة وكون «العقد» صحيحا أو فاسدا أو باطلا، وكون «العبادة» قضاءً لفائتة أو أداءً لحاضرة ونحوِ ذلك، فالعارفُ بأحكام الشّريعة من حيث إنّها واجبة، ومحظورة، ومباحة، ومكروهة، ومندوب إليها، يسمَى «فَقِيهًا»، من فَقِهَ الأمرَ فَقَهًا وفِقْهًا: أحسنَ إدراكه.

و«أصول الفقه» في اللُّغة جمع أَصْل، ويُرَادُ بالأصل ما ينبني عليه غيره، وفي الاصطلاح هو عبارة عن أدلّة هذه الأحكام وعن معرفة وجوه دلالتها على الأحكام من حيث الجملة لا من حيث التّفصيلِ [(١)]. وبذلك فإنّ «أصول الفقه» تَخْتَصُّ بالفقه من حيث كونه مَبْنِيًّا عليها ومستندًا إليها، هذا من حيث الإضافة [(٢)].

أمّا من حيث كونه عَلَمًا على علم مُعَيَّن فإنّ أصول الفقه: هي العلم بالقواعد التي يُتَوَصَّلُ بها إلى استنباط الأحكام الشّرعيّة الفرعيّة من أدلّتها التّفصيلية، ومن ذلك يتبيّن حقيقة الفرق بين «الفقه» و«أصوله»: فالأصول هي الوقوف على أدلّة الأحكام من كتاب وسُنَّة وإجماع وقياس وغير ذلك، وعلى معرفة وجوه دلالة ذلك على الأحكام من حيث الجملة مثل «الأمرُ للوجوب» و«النّهي للتّحريم».

ويأتي هذا بخلاف «الفقه» فإنّه يتعلّق بمعرفة الأحكام الشّرعية العملية على وجهها التّفصيلي كقول الله تعالى ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [البقرة: ١٧٣]. وقوله تعالى ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥]. وقوله تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١(٣)]. فيتبيّن من هذه الآيات جملة أحكام هي تحريم أكل الميتة والدّم ولحم الخنزير، وكذلك إباحة البيع وتحريم الرِّبا، وكذلك النّهي عن قتل النّفس التي حرّم الله قتلها إلاّ بالحقّ.

أمّا «موضوع» علم الفقه فهو أفعال المكلّفين من حيث ما يُثْبَت لها من الأحكام

---

(١) انظر القاموس المحيط للفيروزآبادي [ج ٤ ص ٢٩١].

(٢) انظر أصول الفقه الإسلامي [ج ١ ص ٢٤].

(٣) انظر أصول الفقه الإسلامي [ج ١ ص ٢٥].

الشّرعية، لأنّ الفقه إنّما يُرادُ به الأحكام العملية وأدلّتها التّفصيلية، أى أدلّة كلّ حكم منفردا، وبذلك يُناط بالفقيه أن يبحث فى فعل المكلّف فى كلّ جزئية من الجزئيّات العمليّة بالإباحة أو التّحريم أو الكراهة أو الوجوب أو النّدب ذاكرًا دليلَ كلّ واحدة من هذه الجزئيات [(١)].

استمداد علم أصول الفقه

يُستمدّ علم أصول الفقه من علوم هى فى جملتها عدّة علوم هى:

(الأوّل) علم الكلام وهو الكلام فى الحَسَن والقبيح، ويراد بهما البحث عن كون الشّىء مُلائما للطّبع أو مُنَفِّرا، أو كون الشّىء صفة كمال أو صفة نقص، كأن نقول العلم حسن والجهل قبيح، وبهذا التّفسير لا نزاع فى كون هذين عقليين، على أنّ المعلوم من مذهب أهل السُّنّة أنّ الأحكام إنّما تثبت من جهة الشّرع لا من جهة العقل المحض ولهذا تفصيل عند أهل العلم [(٢)].

(الثّانى) اللُّغة العربية وذلك لأنّ فَهْمَ الكتاب والسُّنّة والاستدلال بهما يَعزّ حصولهما أو الظّفر بهما من غير الوقوف على علوم اللُّغة العربية لكونها لغة التّخاطُب بين الله وبين خلقه ولغة الوحى كذلك، ولأنّ هذين المصدرين العظيمين [الكتاب والسُّنّة] عربيّان، وبذلك فإنّ العربيّة واحدة من الرّوافد التى يَسْتَمِدُّ منها علمُ الأصول معانيه وتفصيلاته، وذلك كعلم النّحو وهو الكلام فى معانى الحروف التى يحتاج إليها الفقيه، إلى غير ذلك من علوم اللُّغة كالكلام فى معنى الأمر والنّهى وصيغ العموم والمجمل والمبيّن والمطلق والمقيّد ونحو ذلك، وكأنّ النُّبوّة الحانية قد صاغت هذه اللّغة وأبانت قواعدها لتتلقّى الأرض من خلالها هبة السّماء إليها متمثلة فى الذّكر الحكيم لقوله ﷺ من حديث على «أَوَّلُ مَنْ فُتِقَ لِسَانُهُ بِالْعَرَبِيَّةِ الْمُبَيِّنَةِ إِسْمَاعِيلُ، وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً(٣)».

(الثّالث) علم الحديث وهو الكلام فى الأخبار وذلك من حيث مراتبها ودرجاتها فى القوّة والضّعف أو الثّبوت وعدمه، فيقف على متواترها وآحادها ليُعْلَم القطعىُّ منها والظّنّى، فَيُقَدَّم الأوّلُ منهما من حيث الحُجّية عند التّعارض، وكذلك يقفُ على المتقدِّم منها والمتأخّر ليُمْكِنَ التّعويلُ بعد ذلك على الخبر المتأخّر لدى تعارض الأخبار فى المسألة المعروضة [(٤)].

---

(١) انظر أصول الفقه الإسلامى [ج ١ ص ٢٨].

(٢) انظر المستصفى للإمام الغزالى [ج ١ ص ١٣٥].

(٣) حديث صحيح أورده فى صحيح الجامع [٢٥٨١].

(٤) انظر الإبهاج فى شرح المنهاج للسُّبكى [ج ١ ص ٧].

(الرّابع) الأحكام الشّرعية وذلك من حيث تصوّرها لأنّ المقصود إثباتها أو نفيها، وذلك كأن نقول الأمر للوجوب، والنّهي للتّحريم، والصّلاة واجبة، والرّبا حرام [(١)].

تعريف الحكم الشّرعي

الحكم الشّرعي هو [خطابُ الله تعالى المتعلّق بأفعال المكلّفين بالاقتضاء أو التّخيير أو الوَضْع]. فالخطاب يُراد به توجيهُ الكلام نحو الغير للإفهام، وبإضافته إلى الله تعالى خرج خطابُ مَنْ سواه، إذ لا حُكْمَ إلاّ حُكْمُه وبهذا يخرج خطاب الملائكة والجنّ والإنس، والرّسول ﷺ إنّما وَجبت طاعته بإيجاب الله إيّاها.

أمّا قوله «المتعلّق بأفعال المكلّفين»: فقد احترز به عن المتعلّق بذاته الكريمة وذلك كقول الله تعالى ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [آل عمران:١٨]. فإنّ ذلك خطابٌ من الله تعالى ومع ذلك فليس بحكم شرعي لعدم تعلّقه بأفعال المكلّفين [(٢)]. أمّا «الاقتضاء»: فهو الطّلب وينقسم إلى:

(١) طلب [فعل]: فإن كان [جازما] فهو الإيجاب، ومن الأمثلة على طلب الفعل من المكلّف قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗا﴾ [آل عمران:٩٧]. وقوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة:١٨٣]. وإن كان [غير جازم] فهو [النّدب].

(٢) وطلب [ترك] فإن كان جازما فهو [التّحريم] وإن كان غير جازم فهو [الكراهة]. أمّا مثالُ ما يقتضي [طلبَ الكفّ] من المكلّف عن الفعل كقول الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ﴾ [آل عمران:١٣٠].

أمّا «التّخيير»: فهو ما يقتضي تخيير المكلّف بين الفعل والتّرك كقول الله تعالى ﴿وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النّساء:١٠١]. وقوله تعالى ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗا﴾ [النّور:٦٠]. أمّا «الْوَضْعُ» فهو السّبب والشّرط والمانع وعلى هذا فإنّ الحكم الشّرعي ينقسم إلى قسمين:

(الأوّل) الحكم التّكليفي وهو ما اقتضى طَلَب فعلٍ من المكلّف أو كَفّه عن فعل أو تخييره بين الفعل والكفّ عنه، وعلى هذا فإنّه يترتّب قيام الحكم التّكليفي على خمسة أقسام هي الواجب، والمندوب، والحرام، والمكروه، والمباح.

(الثّاني) الحكم الوضعي وهو رَبْطُ الشّارع بين أمرين فيجعل أحدهما سببا للآخر

---

(١) انظر إرشاد الفحول [ص ٦].

(٢) انظر أصول الفقه الإسلامي [ج ١ ص ٤٠].

أو شرطا أو مانعا [(١)]، وسمّيت [وضعية] لأنّ الشّارع وضعها علامات لأحكام تكليفيّة وجودا وانتفاء [(٢)] وتفصيل ذلك:

(١) أنَّ «السّبب»: هو جعْلُ وصف ظاهر منْضبط مناطا لوجود حكم - أى يستلزم وجودُه وجودَه - فهو ما يلزم من وجوده الوجودُ ومن عدمه العدمُ [(٣)]. ومن الأمثلة على السّبب قوله تعالى ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]. فقد جعل رُؤية هلال رمضان سببا لوجوب الصّوم.

(٢) أمّا «الشّرط»: فهو الحكم على الوصف لكونه شرطا للحكم، وحقيقة الشّرط هو ما كان عدمُه يستلزم عدمَ الحكم، فهو وصف ظاهر منضبط يستلزم ذلك، ومثاله: أنّ الحوْل شرط فى وجوب الزّكاة فعدمه يستلزم عدمَ وجوبها، وكذا الإحصان شرط فى سببية الزّنا والرّجم، فعدمُه يستلزم عدمها [(٤)].

(٣) أمّا «المانع»: فهو وصف ظاهر منضبط يستلزم وجودُه حكمةً تستلزم عدمَ الحكم أو عدمَ السّبب:

* وجود الأبوّة، فإنّه يستلزم عدم ثبوت الاقتصاص للابن من الأب، لأنّ كون الأب سببا لوجود الابن يقتضي أن لا يصير الابن سببا لعدمه، وفى هذا ما أخرجه التّرمذى عن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال «سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: لاَ يُقَادُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ[(٥)]».

* وكذلك اختلاف الملّة يستلزم عدمَ التّوارث بين المختلفين لحديث جابر أنّ النّبى ﷺ قال «لاَ يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ[(٦)]». وقوله ﷺ عن أسامة بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ «لاَ يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ وَلاَ الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ[(٧)]».

وجملة القول أنّ [الحكم التّكليفى] يُراد به طلبُ الفعل من المكلّف أو الكفّ عنه أو تخييره فيه، أمّا [الحكم الوضعى] فلا يُراد به تكليف أو تخيير، وإنّما يُراد به الرّبط بين أمرين ليكون أحدهما سببا أو شرطا أو مانعا، والآخر مسبّبا أو مشروطا أو ممنوعا [(٨)].

---

(١) انظر كتاب أصول الفقه [ص ٢٧].

(٢) انظر المستصفى [ج ٢ ص ١٣٦].

(٣) انظر إرشاد الفحول [ص ٦].

(٤) انظر أصول الفقه الإسلامى [ج ١ ص ٤٢].

(٥) حديث صحيح لغيره أخرجه التّرمذى [١٤٠٠].

(٦) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٢٢٢٣].

(٧) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٦١٤].

(٨) انظر أصول الفقه لعبد الوهّاب خلاّف [١٠٣].

أقسام الحكم التّكليفى

ذهب جمهور الأصوليين إلى أنّ الحكم التّكليفى ينقسم إلى خمسة أقسام هى الواجب والمندوب والحرام والمكروه والمباح، أمّا الحنفية فقد قسّموا الحكم التّكليفى إلى سبعة أقسام، وذلك بالتّفريق بين الواجب والفرض، وكذا التّفريق بين المكروه تحريما والمكروه تنزيها، وعلى هذا فإنّ أقسام الحكم التّكليفى عند الحنفية سبعة هى الفرض، والواجب، والمندوب، والحرام، والمكروه كراهة تحريميّة، والمكروه كراهة تنزيهيّة، والمباح. وأوّل هذه الأقسام:

(١) الواجب

الوجوب اللُّزوم ومنه يقال «أَوْجَبَ الرَّجُلُ»: إذا عمل ما يجب به الجنّة أو النّار، وقيل فى تعريفه ما يُثاب على فعله ويُعاقب على تركه، وقيل ما يجب بتركه العقاب. (أو) ما يصير المكلّف بتركه عاصيا، وقيل ما يمدح فاعله ويذمّ تاركه [(١)].

ومن الأمثلة على «الواجب» الذى يُثاب فاعله ويُذمّ تاركه ويُعاقب عليه قول الله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾[البقرة:٢١٦]. فقد جعل القتال واجبا على كلّ مسلم لدفع الشّر والفساد، فالوجوب مستفاد من صيغة الطّلب الجازم بالفعل وهو القتال، وفى قوله تعالى﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ .أوجب الله تعالى على الأزواج أن يُعْطوا الزّوجات مهورهن، وهذا طلب جازم يفيد بصيغته الوجوب [(٢)].

وجدير بالذّكر هنا أنّ الواجب يُرادف الفرض عند جمهور الأصوليين، فالواجب والفرض اسمان لمسمّى واحد، فهما مترادفان كالحتم واللازم يراد بهما ما يُمدح فاعله ويُذمّ تاركه، أو هو ما يُثاب على فعله ويُعاقب على تركه، أمّا الحنفيّة فقد اصطلحوا على تخصيص اسم «الفرض» بما يقطع بوجوبه، وكذا تخصيص اسم «الواجب» بما لا يُدرك إلا ظنّا [(٣)].

وللواجب أربعة أقسام:

(الأوّل) من حيث تعيين المطلوب، وهو من هذا الاعتبار ينقسم إلى:

(١) واجب [مُعَيّن]: وهو ما طلبه الشّارع «عَيْنًا»، أى ما كان المطلوب فيه واحدا من غير تخيير بينه وبين غيره كإيقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة وصوم رمضان ونحو ذلك من الفرائض التى يلتزم المكلّف بالقيام بها «عَيْنًا» دون أن يكون له مندوحة لاختيار غيرها وعلى هذا أكثر الواجبات التى تمثّل فروض العين.

---

(١) انظر الإحكام فى أصول الأحكام [ج ١ ص ٧٤]. (٢) انظر أصول الفقه الإسلامى [ج ١ص ٤٤]. (٣) انظر الإحكام للآمدى [ج ١ ص ٧٥].

(٢) واجب [مُخَيَّر] وهو ما طلبه الشّارع «مُبْهَمًا» وذلك فى واحد من أمور معيّنة كخيارات الكفّارة الثّلاثة وهى المشار إليها فى كفّارة اليمين إذ خيّر المشرّع الحالف الذى حنث فى يمينه بين إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو عتق رقبة، فأىّ من هذه الكفّارات أدّى برئَت ذمته من الواجب المطلوب منه [(١)].

وجملة القول أنّ الواجب من هذا الاعتبار واحد يُختار من أمور مُعينة بحيث لو أتى بواحد منها فقد أتى بالواجب، ولو ترك الجميع أثم ولحقه الذّمّ وهو مذهب الجمهور من أهل العلم [(٢)].

(الثّانى) من حيث وقت الأداء وهو نوعان :

(١) مُطلق عن الوقت وهو ما أوجب الشّارع فعله من غير تقييد بزمن معيّن، فوجوبه على التّراخى إذ لا يثبت حكم وجوب الأداء على الفور بمطلق الأمر ومثاله : من نذر أن يصوم شهرا صام أىّ شهر شاء وهو قول الحنفيّة وطائفة من علماء الأصول، وهو أنّ الأمر المطلق المجرّد عن القرائن لا يقتضى الفور بل التّراخى، واحتجّوا فى ذلك بأنّ الأمر له دلالة على استدعاء الفعل ولا دلالة له على الزّمان، بل الأزمنة كلّها بالإضافة إليه سواء [(٣)].

(٢) الواجب المُقَيَّد بزمن وهو ما طلب الشّارع من المكلّف أن يفعله فى وقت معيّن وهو نوعان :

(١) الواجب المُضَيَّق وهو ما كان وقته مُساويا له وعلى قدره فيجوز التّكليف به، وذلك كصوم رمضان إذ لا يزيد الزّمان فيه على الفعل الواجب ولا الفعل الواجب على الزّمان، أى أنّ وقت الواجب مساو له ولا يزيد عليه ولا ينقص عنه، والمراد بالواجب هنا الصّوم [(٤)].

(٢) الواجب المُوَسَّع وصورته أن يزيد الوقت على الفعل فيقتضى ذلك إيقاع الفعل فى جزء من أجزاء الوقت لعدم أولوية البعض، ومثال ذلك صلاة الظّهر مثلا فإنّ وقتها يتّسع لصلوات كثيرة إذ يتّسع لصلاة الظّهر وغيرها، وصلاة الظّهر إنّما تستوعب جزءا يسيرا من أجزاء الوقت فسمّى هذا الواجب بالواجب الموسّع [(٥)].

---

(١) انظر أصول الفقه الإسلامى [ج ١ ص ٤٩].

(٢) انظر المصدر السّابق [ص ٥٠].

(٣) انظر أصول السَّرخسى [ج ١ ص ٢٦].

(٤) انظر الإبهاج فى شرح المنهاج [ج ١ ص ٩٣].

(٥) انظر أصول الفقه للشّيخ محمد أبى زهرة [ص ٣١].

(الثّالث) الواجب من حيث الملزم بأدائه وحاصله أنّ الوجوب فيه ينقسم إلى فرض عين وفرض كفاية:

(١) أمّا «فرض العين» فإنّه يتناول كلّ واحد من المكلّفين كالصّوم والصّلاة وغيرهما من الفرائض التي يلتزم كلّ مكلّف بأدائها.

(٢) و«فرض الكفاية» فهو الذي يتناول بعضا غير مُعيّن من المكلّفين كالجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر، والصّلاة على الميت، إلى غير ذلك من الواجبات التي لا تلزم واحدا بعينه، وإنّما تجب في حقّ الجماعة في الجملة، وهذا هو الواجب الكفائي وقد سُمّي بذلك لأنّ فعل البعض كاف في تحصيل المقصود منه والخروج عن عهدته، بخلاف الواجب فإنّه لا بدّ فيه من فعل كلّ معين بذاته فَسُمّي من أجل ذلك «فرض عين» [(١)].

ويأتي مثل هذا التّقسيم أيضا في السُّنَّة، فسُنَّة العين كصلاة الضّحى ونحوها، أمّا سُنَّة الكفاية فهي كتشميت العاطس، والأُضحية في حقّ أهل البيت، ويتعيّن فرض الكفاية بالشّروع فيه، أي بالدّخول في فعله، فإذا ما شرع في فعله صار فرض عين، أي مثله من حيث وجوب الإتمام، فمن شرع في صلاة الجنازة لزمه أن يُتمَّها مثلما يجب الاستمرار في صف القتال حتما، لأنّ في الانصراف من صفّ القتال ما يكسر قلوب الجند [(٢)].

(الرّابع) الواجب من حيث تقديره وهو هنا نوعان:

(١) الواجب المحدّد وهو ما طلب الشّارع فعله بقدر معلوم، أو هو ما كان له حدّ مقدّر تنشغل به ذمّة المكلّف فلا تبرأ إلاّ بأدائه على النّحو المشروع، وذلك كالصّلوات الخمس يُؤدّيها المكلّف على صفتها وكيفيّتها اللّتين حدّدهما الشّارع الحكيم ﷺ.

(٢) الواجب غير المحدّد وهو ما لم يحدّد له الشّارع مقدارا معلوما وذلك كمسح الرّأس، فإنّ الشّارع لم يُعيّن له مقدارا مُحَدَّدا وإنّما تبرأ الذّمّة فيه بما يقع به المسح كيفما كان قدره، وكذلك مقدار الرُّكوع والسُّجود فليس لهما تقدير معيّن، وإنّما يتمّ الواجب بمُطلق الرّكوع والسّجود [(٣)].

(٢) المنـــدوب

المندوب شرعا اسم لفعل مدعو إليه عن طريق الاستحباب والتّرغيب دون الحتم والإيجاب، وجاء في المندوب تعريفات مُتقاربة تُفضي كلّها إلى مقصود واحد أنّه

(١) انظر أصول الفقه الإسلامي [ج ١ ص ٥٢].

(٢) انظر شرح البناني على جمع الجوامع [ج ١ ص ١٣٤].

(٣) انظر أصول الفقه الإسلامي [ج ١ ص ٥٣].

ما يستحقّ بفعله الثّواب ولا يستحقّ بتركه العقاب.

وفي «منتهى الأصول»: المطلوب فعله من غير ذمّ على تركه مطلقا [(١)]. و[يسمّى] المندوب: سُنَّة ونافلة، ومن أسمائه أيضا المرغّب فيه، والمستحبّ، والتّطوُّع، وهو اسم لما يتبرّع به المرء من عنده ويكون مُحسنا في ذلك ولا يكون ملوما على تركه، فهو والنّفل سواء، وحكمه «شرعا»: أنّه يُثاب على فعله ولا يعُاقب على تركه.

أمّا «السُّنَّة» فيُراد بها ما واظب عليه النّبي ﷺ و«المستحبّ» ما فعله مرّة أو مرّتين، و«التّطوُّع»: ما يُنشئه الإنسان باختياره ولم يَرِد فيه نقل، و«المندوب» لا شكّ في عمومه لجميع ما ذكر [(٢)].

و«السُّنَّة» في عرف أهل الفقه يُطلقونها على ما ليس بواجب، وقيل: «ما واظب النّبي ﷺ على فعله مع ترك ما بلا عذر». وقيل: هي في العبادات النّافلة [(٣)]. وجملة القول: أنّ المندوب يقع على عدّة مراتب منها:

(١) السُّنَّة المؤكّدة وهي «ما واظب النّبي ﷺ على فعلها وليس أداؤها لازما محتوما» وذلك كصلاة الوتر -على الخلاف فيها- فهو عند الجمهور سُنَّة من السُّنن وعند الحنفيّة واجب، وكذلك صلاة الرّكعتين قبل الفجر وبعد كلّ من الظُّهر والمغرب والعشاء فتلك كلّها سُنن مؤكّدة واظب على فعلها رسول الله ﷺ ويُلام تاركها من غير أن يُعاقب عليها.

(٢) وتأتي في مرتبة أدنى من ذلك «السُّنَّة غير المؤكّدة»: كصلاة أربع ركعات قبل الظّهر وقبل العصر وقبل العشاء، فهذه من النّوافل التي يُثاب المرء على فعلها ولا يُعاقب أو يُلام من تركها، فمثل هذه الصّلوات سُنن غير مُؤكّدة لأنّ النّبي ﷺ قد فعلها من غير أن يُواظب عليها [(٤)].

ومع جواز ترك المندوب مرّة أو مرّات فلا مساغ لتركه تركا كلّيا، ويُجرَّحُ تاركُهُ كلّيًّا ويُقدح في عدالته، فتَرْكُ مثل هذه السُّنن جملة لا جَرَمَ أنّه غير جائز إلاّ إذا كان تركه بالجزء. (قال) الشّاطبي [إذا كان الفعل مندوبا بالجزء كان واجبا بالكلّ، كالأذان في المساجد الجوامع أو غيرها، وصلاة الجماعة وصلاة العيدين، وصَدَقة التّطوُّع، والنّكاح والوتر، والفجر، والعُمرة، وسائر النّوافل الرّواتب فإنّها مندوب إليها بالجزء، ولو

---

(١) انظر منتهى الوصول [ص ٣٩].

(٢) انظر أصول السّرخسي [ج ١ ص ١١٥].

(٣) انظر الإبهاج في شرح المنهاج [ج ١ ص ٥٦].

(٤) انظر أصول الفقه للشّيخ محمد أبي زهرة [ص ٣٩].

فرض تركها جملة لجُرِّحَ التّارك لها، ألا ترى أنّ في الأذان إظهارا لشّعائر الإسلام، ولذلك يستحقّ أهل المصر القتال إذا تركوه، وكذلك صلاة الجماعة وهي من شعائر الإسلام من داوم على تركها يُجرّح فلا تُقبل شهادته، فالتّرك لها جملة مُؤثّر في أوضاع الدّين إذا كان دائما، أمّا إذا كان في بعض الأوقات فلا تأثير له فلا محظور في التّرك(١)].

(٣) الحرام

الحرام هو ما يُثاب على تركه ويُعاقب على فعله ويرادفه المحظور والمعصية والذّنب والمزجور عنه، والمتوعّد عليه، والقبيح، وذلك هو الذى عليه جمهور الأصوليّين، وهو أنّ الحرام ما طلب الشّارع الكفّ عنه جزما وتوعّد بالعقاب عليه. أمّا «الفعل»: فيُراد به الشّيء الصّادر من المكلّف، والفاعل هو مصدر [الفعل] ليشمل بذلك الأقوال المحرّمة كالغيبة، والنّميمة، والأمر بالمنكر، والنّهي عن المعروف، وليعمّ كذلك أعمال القلب كالحقد والحسد والظّن والإثم [(٢)].

أمّا موجب النّهي عند الحنفيّة شرعا: لزوم الانتهاء عن مباشرة المنهي عنه لأنّه ضدّ الأمر وبذلك فإنّ مُقتضى النّهي قبح المنهيّ عنه شرعا، كما أنّ مُقتضى الأمر حُسْن المأمور به شرعا. إذا تبيّن هذا فإنّ المنهيّ عنه من حيث صفة القُبح قسمان:

(الأوّل) ما هو «قبيح لذاته» كالزّنا والسّرقة وأكل الميتة وشرب الخمر، وكذا الصّلاة بغير طهارة ونحو ذلك ممّا حرّمه الشّارع لذاته، فذلك كلّه قبيح شرعا. وحكم هذا النّوع أنّه غير مشروع أصلا، لأنّ المشروع لا يخلو عن حكمة ولا حكمة هنا، ولأنّ ضرره ذاتي: أي يكمن في عينه دون غيره [(٣)].

(الثّاني) ما هو «قبيح» لمعنى اتّصل به «وصفا» وهذا أيضا نوعان:

(أولهما) ما هو «قبيح» لمعنى جاوره «جمعا» كوطء الرّجل زوجته في حالة الحيض فإنّه حرام منهي عنه، وذلك لمعنى مُخالطة الأذى، ومُخالطة الأذى هنا مجاور للوطء جمعًا غير متّصل به وصفا، ولهذا جاز له أن يستمتع بها فوق المئزر ويجتنب ما تحته على سبيل الاحتياط، لأنّه لا يأمن الوقوع في مباشرة الأذى إذا استمتع في الموضع القريب منه وهو قول الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى.

ونظير هذا النّوع البيع وقت النّداء فإنّه منهيّ عنه لما فيه من الانشغال عن السّعي إلى صلاة الجمعة بغيره بعدما تبيّن لزوم السّعي، وذلك يجاور البيع ولا يتّصل به وصفا،

---

(١) انظر الموافقات [ج ١ ص ١٣٢].

(٢) انظر أصول الفقه الإسلامي [ص ٦٦].

(٣) انظر المصدر السّابق [ص ٦٧].

وكذلك الصّلاة في الأرض المغصوبة منهيٌّ عنها لمعنًى معلوم وهو شغل ملك الغير بنفسه، وذلك مجاور لفعل الصّلاة جمعا غير متّصل به وصفا، فعرف بذلك أنّ قُبْحَه لمعنى في غيره [(١)].

(الثّاني) ما كان قبيحا لمعنى اتصل به وصفا، فبيانه مثلا في الزّنا فإنّه وطء غير مملوك فكان قبيحا شرعا، لأنّ الشّرع قد قصر ابتغاء النّسل بالوطء على محل مملوك فقال سبحانه ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾. ونظيره من العبادات: النّهي عن صوم يوم العيد وأيام التّشريق، فإنّه قبيح لمعنى اتّصل بالوقت الذى هو محلّ الأداء وصفا وهو أنّه يوم عيد ويوم ضيافة فيحرُم صومه وهكذا [(٢)].

(٤) المكـــروه

المكروه هو ما طلب الشّارع من المكلّف الكفّ عن فعله طلبا غير جازم، وذلك أن تقترن صيغة النّهي بقرينة تدلّ على عدم الحتم والإلزام كقول الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[المائدة: ١٠١]. وكذلك قول النّبى ﷺ «إِنَّ اللهَ تَعَالَى كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ(٣)». إلى غير ذلك من النّصوص التي تدلّ فيها الصّيغة على الكراهة وأنّ طلب الكفّ فيها جاء على نحو غير جازم [(٤)].

أمّا إن كان طلب الكفّ جازما كانت دلالته التّحريم كقوله تعالى ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾[البقرة: ١٧٣]. والمكروه لغة مأخوذ من الكره والكراهة الذى هو ضدّ المحبّة والرّضا من قول الله تعالى ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾[البقرة: ٢١٦]. وحدّ المكروه ما يكون تركه أولى من تحصيله. (قال) فى التّعريفات [المكروه ما هو راجح التّرك فإن كان إلى الحرام أقرب تكون كراهته تحريميّة، وإن كان إلى الحِلّ أقرب تكون تنزيهيّة ولا يُعاب على فعله(٥)].

على أنّ التّعريف الجامع للمكروه لدى الجمهور أنّه [ما يُمدح تاركه ولا يُذمّ فاعله]. وبقوله «ما يُمدح تاركه» خرج الواجب، والمندوب، والمباح. وبقوله «ولا يذمّ فاعله»

---

(١) انظر أصول الفقه الإسلامى [ج ١ ص ٦٧].

(٢) انظر أصول السّرخسى [ج ١ ص ٧٩].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٧١٥] وافقه البخارى [٢٤٠٨] وأحمد [١٨٠٦٥].

(٤) انظر أصول الفقه الإسلامى [ج ١ ص ٦٨].

(٥) انظر الإحكام للآمدى [ج ١ ص ٩٣].

خرج الحرام فإنّه يذمّ فاعله، والمختار أنّ المكروه منهيّ عنه، كما أنّ المندوب مأمور به، ولا يعنى ذلك أنّ المكروه لم يرد الله من المكلّف فعله وإنّما معناه أنّ تاركه ممدوح وفاعله لا يقع عليه ذمّ فهو بذلك ليس حسنا ولا قبيحا [(١)].

وللعلماء فى المكروه اصطلاحات ثلاثة:

(الأوّل) الحرام أو «المحظور» وفيه يقول الشّافعي: أكره كذا، وهو يريد التّحريم وهو غالب إطلاق المتقدّمين تطبيقا لقوله تعالى﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾[النّحل:١١٦]. فكرهوا إطلاق لفظ التّحريم.

(الثّانى) أنّه ما نُهِيَ عنه نَهْيَ تنزيه وهو المراد هنا وهو الذى أشعر فاعله أنّ تركه خيرٌ من فعله.

(الثّالث) إنّه تَرْكُ الأوْلَى كترك صلاة الضّحى وذلك لكثرة الفضل فى فعلها، والفرق بين هذا والذى قبله ورود النّهى المقصود، والضّابط فى ذلك أنّ ما ورد فيه نهى مقصود يقال له «مكروه» وما لم يرد فيه نهى مقصود يقال له ترك الأَوْلَى ولا يقال له مكروه [(٢)].

والمكروه عند الحنفيّة نوعان:

(الأوّل) المكروه كراهة تحريم وهو المقابل للواجب وهو ما طلب الشّارع من المكلّف تركه طلبا جازما بدليل ظنّى كأخبار الآحاد والقياس، وذلك مثل لبس الحرير والذّهب فى حقّ الرّجال، وكذلك بيع المرء على بيع أخيه وخطبته على خطبته لقوله ﷺ «لاَ يَخْطُبْ أَحَدُكُمْ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ وَلاَ يَبِعْ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ إِلاَّ بِإِذْنِه(٣)».

ومثل هذه الأخبار ظنّية الثّبوت، وذلك بخلاف الحرام وهو ما طلب الشّارع من المكلّف تركه طلبا جازما بدليل قطعي لا شبهة فيه كالقرآن والسُّنّة المتواترة والإجماع، وذلك كالسّرقة، والزّنا، وشرب الخمر، والغيبة، والنّميمة، وأكل الرّبا، وأكل أموال النّاس بالباطل، وشهادة الزّور، ونحو ذلك ممّا ثبت بدليل قطعي، والحرام منكره كافر بخلاف المكروه تحريما فإنّ منكره لا يكفر بل يفسق فقط على أنّ المكروه تحريما أقرب إلى الحرام [(٤)].

(الثّانى) المكروه كراهة تنزيه وهو المقابل للمندوب [أو] هو ما طلب الشّارع

---

(١) انظر أصول الفقه لأبى زهرة [ص ٤٥].

(٢) انظر الإبهاج فى شرح المنهاج [ج ١ ص ٥٩].

(٣) حديث متّفق عليه أخرجه البخارى [٥١٤٢] ومسلم [١٤١٢].

(٤) انظر أصول الفقه الإسلامى [ج ١ص ٧١].

من المكلّف تركه طلبا غير جازم بدليل ظنّى فيه شبهة، وهو ما لا يذمّ فاعله خلافا للمكروه كراهة تحريميّة فإنّه يذمّ فاعله، ومن أمثلة المكروه تنزيها أكل لحوم الخيل، والوضوء من سُؤر الهرّة، وسباع الطّير، ونحو ذلك من أمثلة المكروه تنزيها، وهو من حيث المرتبة خلاف الأوْلَى [(١)].

(٥) المبـــاح

المباح فعل مأذون فيه من الشّارع خلا من مدح وذمّ، وفى اللُّغة عبارة عن الإطلاق، يقال: أباحه أى جعله مُطلقا. [أو] هو ما خيّر الشّارع المكلّف فيه بين فعله وتركه، فالمكلّف له أن يفعله وله أن لا يفعله، وبذلك فإنّ الإباحة حكم شرعى بالتّخيير بين الفعل والتّرك المتوقّف وجوده كغيره من الأحكام على الشّرع، وقد يُطلق المباح على ما لا ضرر على فاعله وإن كان تركه محظورا، كما يقال [دم المرتدّ مباح] أى لا ضرر على من أراقه، ويقال للمباح الحلال والجائز والمُطلق [(٢)].

ويثبت المباح بثلاثة طرق:

(أوّلها) نصّ الشّارع على عدم تأثيم فاعله كقوله تعالى ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾. فإذا حاقت بالمكلّف ضَرورة لأكل ما كانَ محظوراً فلا حرج عليه فهو بذلك مُباح [(٣)].

(الثّانية) عدم النّص من الشّارع على التّحريم فلا حرج عندئذ فى الفعل فهو بذلك مباح بالبراءة الأصليّة، لأنّ الأصل فى الأشياء الإباحة وذلك كلبس المعطف والبنطلون ممّا شاع لبسهما فى هذا الزّمان، فلا جناح فى ذلك ما دام فيه ستر سابغ للبدن والعورة إلى غير ذلك ممّا يستجدّ من أفعال يفرزها التّحديث وتبدل الظّروف والأحوال.

(الثّالثة) نصّ الشّارع على الإباحة كقوله تعالى ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤]. فقد نصّ على إباحة الأكل ممّا أمسكه الكلب المعلّم وإن جاء به ميّتا لصاحبه وذلك ضمن الشّروط الشّرعية المقرّرة فى الصيد [(٤)].

أدلة الأحكام الشّرعية

اتّفق المسلمون على أنّ المرجع الأساسى لكلّ مسلم فى معرفة الأحكام الشّرعيّة هو كتاب الله تعالى وسُنّة رسوله ﷺ ثمّ اختلفوا على مصادر أخرى هى الإجماع والقياس

(١) انظر أصول الفقه للشّيخ محمد أبى زهرة [ص ٤٥ - ٤٦].

(٢) انظر إرشاد الفحول للشّوكانى [ص ٦].

(٣) انظر أصول الفقه الإسلامى [ج ١ص ٧٣].

(٤) انظر حاشية البنانى على شرح جمع الجوامع [ج ١ص ١٢٣] والمستصفى للغزالى [ج ١ص ٤٧].

والاستحسان والمصالح المرسلة والعرف.

والواقع أنّ هذه المصادر المختلف عليها إنّما ترجع أيضا إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ لذلك يصحّ أن يقال [إنّ القرآن الكريم والسُّنَّة المطهّرة هما مرجع كلّ مسلم فى تعريف أحكام الإسلام]. وهذا لا يعنى إنكار بقية المصادر الشّرعيّة بل معناه أنّها تخضع جميعها للقرآن والسُّنَّة، وأوّل هذه الأدلّة تعريفا:

(الدّليل الأوّل)

القرآن الكريم

القرآن الكريم هو اللّفظ العربى المنزّل على نبيّنا محمّد ﷺ للإعجاز بسورة منه والمنقول متواترا، وعُرِّفَ بأنّه كلام الله تعالى المنزّل على نبيّنا محمّد ﷺ بلفظه العربى المتعبّد بتلاوته المكتوب فى المصاحف المتواتر من حيث النّقل، وهو أصل الأصول كلّها وأساس الأدلّة جميعا سواء فى ذلك السُّنَّة المبيّنة للكتاب الحكيم والكاشفة عن معانيه ومقاصده، وهو حُجَّةُ الله البالغة التى تنبثق عنها الحجج والدّلائل كافّة، ولا يزيغ عنه إلاّ خاسر هالك أو مستكبر أثيم.

والجنوح عن كتاب الله جُحْدًا أو استخفافا لا جرم أنّه كفر والعياذ بالله، وإن لم يكن جُحْدا ولا استخفافا بل تقصيرا وتفريطا مع الإيمان به وبصلاحه فذلكم فسق وعصيان لله جلّ وعلا وتأويلا لقوله تعالى:

* ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[المائدة: ٤٤].
* ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾[المائدة: ٤٧].
* ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[المائدة: ٤٨].

ومثل هذه النّصوص أبلغ دلالة على وجوب الاحتكام لكتاب الله كلّه إذ هو مصدر الشّريعة برُمَّتِهَا، بل هو منهل الأصول والدّلائل كافّة [(١)].

(الدّليل الثّانى)

السُّنَّة

السُّنَّة فى اللُّغة تعنى السّيرة والطّريقة المحمودة المستقيمة، وفى الشّرع العمل المحمود فى الدّين ممّا ليس فرضا ولا واجبا وجمعه: سُنَنٌ. أمّا السُّنَّة فى الاصطلاح فتُطلق على ما يُقابل الفرض، وعلى ما صدر من النّبى ﷺ من الأفعال والأقوال التى ليست للإعجاز

(١) أصول الفقه الإسلامى [ج ١ ص ١٦٩].

وهذا هو المراد هنا، ويدخل فى الأفعال التّقريرات فاستغنى عن إدخالها فى التّعريف، وفى الجملة فإنّ السُّنَّةَ تُطلق على ما كان من العبادات نافلة منقولة عن النّبى ﷺ، وقد تُطلق على ما صدر عن الرّسول ﷺ من الأدلّة الشّرعيّة ممّا ليس بمَتْلُوٍّ ولا هو بمُعجز ولا داخل فى المعجزة، ويدخل فى ذلك أقوال النّبى ﷺ وأفعاله وتقاريره.

وعلى هذا فالسُّنَّة باعتبار ماهيّتها تنقسم إلى ثلاثة أقسام [(١)]:

(الأول) السُّنَّةُ القولية

وهى أكثر السُّنَّة ومثال ذلك قول النّبى ﷺ «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يرفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلى السَّمَاءِ فِى الصَّلاَةِ أَوْ لا تَرْجِعُ إِلَيْهِمْ(٢)». ومنها قوله ﷺ من حديث أبى هريرة عند الشّيخين «لأَنْ يَحْتَزِمَ أَحَدُكُم حُزْمَةً مِنْ حَطَبٍ فَيَحْمِلَهَا عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ رَجُلاً يُعْطِيهِ أَوْ يَمْنَعُهُ(٣)».

(الثانى) السُّنَّة الفعلية

اختلف الأصوليون فى «أفعال النّبى ﷺ» هل هى دليل لشرعية مثل ذلك بالنّسبة إلينا أم ليست دليلا؟ وبيان ذلك [(٤)]:

(١) إنّ ما كان من الأفعال الجِبِلِّيَّة ـ التى جُبِلَ عليها الإنسان ـ كالقيام والقعود والأكل والشّرب ونحوه فلا خلافَ فى كونه على الإباحة فى حقّه ﷺ وفى حقّ أمّته أيضا، على أنّ التّأسى به فيه مستحبّ، فقد كان ابن عمر رضي الله عنهما عندما يَحُج يجرّ خطَامَ ناقته حتّى يبركها فى موضع بركت فيه ناقة النّبى ﷺ تبرّكا بآثاره الظّاهرة ومواطن نعاله الشّريفة.

(٢) أمّا ما كان غير ذلك ممّا ثبت أنّه من خواصّ النّبى ﷺ وأمّته وهو ما أجمعت عليه الأمّة، وذلك كاختصاصه ﷺ بوجوب الضّحى، والوتر، والتّهجّد باللّيل، والمشاورة، والتّخيير لنسائه، وكذلك اختصاصه ﷺ بإباحة الوصال فى الصّوم، واختصاصه بجزء من الغنيمة وهو الخمس، إذ لا تحلّ له الصّدقة، وكذلك اختصاصه ﷺ بدخول مكّة بغير إحرام، وكذا الزّيادة فى النّكاح على أربع نساء، إلى غير ذلك من خواصّه الكريمة ﷺ.

أمّا ما عُرِفَ أَنَّ فعْلَهُ بيانٌ لأمّته فهو دليلٌ على أنّه لها من غير خلاف وذلك:

---

(١) الإحكام للآمدى [ج ١ ص١٢٧] وأصول الفقه الإسلامى [ج ١ ص ١٧١].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٤٢٨] وابن ماجه [٨٦٤].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [١٤٨٠] ومسلم [١٠٤٢] والتّرمذى [٦٨٠].

(٤) انظر أصول الفقه الإسلامى [ج ١ ص ١٧٤].

(١) إمّا بصريح قوله ﷺ ومنه «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِى أُصَلِّى [١]». وقوله ﷺ «خُذُوا عَنِّى مَنَاسِكَكُمْ [٢]».

(٢) أو بقرائن الأحوال كما لو ورد لفظ مُجمل أو عامّ أُريد به الخصوص، أو مُطلق أُريد به التّقييد ولم يبيّنه قبل الحاجة إليه، ثمّ فعل عند الحاجة إليه فعلا صالحا للبيان، فإنّه يكون بيانا حتّى لا يكون البيان مُؤخّرا عن وقت الحاجة، وذلك كقطعه يد السّارق من الكوع بيانا لقوله تعالى ﴿فَاقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾ [المائدة:٣٨]. وكَتَيَمّمه إلى المرفقين بيانا لقوله تعالى ﴿فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة: ٦]. ونحو ذلَك، والبيانُ تابعٌ للْمُبَيَّن فى الوجوب والنّدب والإباحة [٣].

(الثالث) السُّنَّة التّقريريّة

المراد بالتّقرير هنا أن يرى النّبىُّ ﷺ فعلا أو يسمع قولا فلا يُنكره بل يُقرّه، فإنّ مجرّد إقراره لما رأى أو سمع يعتبر سُنَّة، ومثال ذلك إقراره ﷺ لمن تيمم للصّلاة إذ لم يجد الماء ثمّ وجده بعد الصّلاة، وكذلك إقراره لمن أكل حمار الوحشى، وأُكلَ الضَّبُّ [٤] على مائدته ﷺ فأقرّهم على أكله وإن لم يأكلها هو لأنّ نفسه تعافُّهُ [٥] إلى غير ذلك من المسائل التى رآها النّبى ﷺ أو سمعها فأقرّها فهى بذلك مسنونة [٦].

حجيّـة السُّنَّة

ممّا لا شكّ فيه أنّ السُّنَّةَ حُجَّةٌ فى الشّريعة بعد الكتاب الحكيم، بل إنّها الدّليل الثّانى من أدلّة التّشريع وهى مُكمّلة للكتاب فى بيان الحكم، ودورُ السُّنَّة مشهود فى تبيين القرآن والكشف عن معانيه ممّا أُبهم أو كان مجملا غير مُستبين، أو كان عامّا فاقتضى التّخصيص، أو كان مُطلقا فاقتضى التّقييد، إلى غير ذلك من وجوه التّبيين أو الكشف عن مقاصد القرآن [٧].

---

(١) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٧٢٤٦] ومسلم [٦٧٤] وأحمد [٢٠٤٠٩].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٢٩٧] وأبو داود [١٩٧٠] والنّسائى [٣٠٦٢].

(٣) انظر أصول الفقه الإسلامى [ج ١ ص ١٧٥].

(٤) الضَّبُّ حيوان من جنس الزّواحف غليظ الجسم خَشِنُهُ، له ذَنَبٌ عريض حَرِشٌ أَعْقَدُ، يعيش فى صَحَارى البلاد العربيّة ويأكله أهلها نظرا لأنّ لحمه يُذهب العطش، وهو أصلا لا يشرب الماء وإنّما يكتفى بالنّسيم وبرد الهواء. [راجع المعجم الوسيط ـ ج ١ ص ٥٥٢].

(٥) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٦٥٥] ومسلم [١٩٤٣] والتّرمذى [١٧٩١].

(٦) انظر الموافقات للشّاطبى [ج ٤ ص ٦٨].

(٧) انظر أصول الفقه الإسلامى [ج ١ ص ١٧٧].

ولقد ثبتت حُجِّيَّةُ السُّنَّة بقول الله تعالى ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الحشر: ٧]. فوجب أخذ ما جاء به النّبي ﷺ والانتهاء عمّا نهى عنه وظاهر الأمر في الآية الوجوب، وفي قوله تعالى ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]. جعل الله اتّباع نبيّه ﷺ من لوازم محبّتنا له سبحانه، ومحبّتنا لله تعالى واجبة، ولزومُ الواجب واجبٌ، فاتّباعُهُ ﷺ واجبٌ، وقوله تعالى ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾، أمر والأمر للوجوب [(١)].

واتّباعه ﷺ يشمل كلّ ما صدر عنه من قول أو فعل، فضلا عمّا أُنزل إليه من ربّه تعالى وهو الفرقان، وعلى هذا فلا ريب فى حُجِّية السُّنَّة وأنّها المصدر الثّانى بعد كتاب الله الحكيم وهى المبيّنة له المتمّمة لشرع الله تعالى [(٢)].

(الدّليل الثّالث)

الإجمــــاع

الإجماع هو الدّليل الذى يلى النّصوص فى القوّة والاحتجاج وهو فى مرتبة تلى النّصوص وليس قبلها وهو يعتمد عليها، والإجماع هو [اتّفاق المجتهدين من الأمّة الإسلامية فى عصر من العصور بعد النّبى ﷺ على حكم شرعى فى أمر من الأمور العملية]. وقد أجمع علماء المسلمين على اعتبار الإجماع حجّة، وإن كانوا قد اختلفوا فيمن هم العلماء المجتهدون الذين يتكوّن منهم الإجماع [(٣)].

وفكرة الإجماع فى الفقه الإسلامى قد تدرّجت من عصر الصّحابة رضوان الله عليهم إلى عصر الأئمّة المجتهدين، وقد قام هذا التّدرّج على أدوار ثلاثة [(٤)]:

(الأوّل) أنّ الصّحابة كانوا يجتهدون فى المسائل التى تعرض لهم، وقد كان عمر رضي الله عنه يجمعهم ويستشيرهم ويبادلهم الرّأى، فإذا أجمعوا على أمر معيّن سارت عليه سياسته، وإن اختلفوا تدارسوا حتّى ينتهوا إلى أمر تقرّه جماعة الفقهاء منهم، وبذلك يكون الأمر مُجْمَعًا عليه، وينال بهذا الإجماع قوّة ليست فى الرّأى المنفرد، وما كانوا يُجمِعُون إلاّ على أمر يكون قد ورد فيه النّص.

(والثّانى) أنّه فى عصر الاجتهاد كان كلّ إمام يجتهد فى ألاّ يشذّ بأقوال يُخالف

---

(١) انظر شرح تنقيح الفصول للقرافى [ص ٢٨٨].

(٢) انظر المصدر السّابق [ص ٢٨٩].

(٣) انظر إرشاد الفحول للشّوكانى [ص ٧١].

(٤) انظر أصول الفقه للشّيخ محمّد أبى زهرة [ص ١٨٥].

بها ما عليه فقهاء أهل بلده، حتّى لا يُعتبر شاذًا فى تفكيره، فأبو حنيفة كان شديد الاتّباع لما هو موضع إجماع عند من سبقوه من علماء الكوفة، ومالك كان يعتبر إجماع أهل المدينة حُجَّة كذلك.

(والثّالث) أنّ فقهاء الأُمّة كانوا حريصين على أن يعرفوا مواضع الإجماع من الصّحابة رضى الله عنهم ليتّبعوه، وقد كان كلّ مجتهد حريصا على ألاّ يخرج عمّا أجمع عليه الصّحابة بل كان حريصا عند اختلافهم على ألاّ يخرج برأى يكون غير الآراء الدّائرة فى محيط خلافهم.

وبهذا الاتجاه الاتباعي كان للإجماع في الاجتهاد موضع، وقد وُجد له سند من قول النّبى ﷺ «مَا رَآهُ الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَوْا سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ سَيِّءٌ(١)». ومن قوله ﷺ «إِنَّ أُمَّتِي لاَ تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلاَلَةٍ(٢)». وفى رواية «إِنَّ اللهَ تَعَالَى لاَ يَجْمَعُ أُمَّتِي عَلَي ضَلاَلَةٍ وَيَدُ اللهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ(٣)». ويُؤيّده قوله ﷺ من رواية أبي عبيد «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْكُنَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الْجَمَاعَةَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ(٤)». ومنه قوله ﷺ «عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةُ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ، مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الْجَمَاعَةَ، وَمَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكُمُ الْمُؤْمِنُ(٥)».

(الدليل الرابع)

القيـــاس

القياس فى اللُّغة التّقدير، يقال قَاسَهُ بغيره وعليه يَقيسُهُ قَيْسًا وقِيَاسًا واقتاسه قَدَّرَهُ على مثَاله فانقاس، والمقدارُ مقياس [(٦)]. والقياس فى الاصطلاح مساواة فرع لأصل فى علّة حكمه، فنبّه بذلك على أنّ المراد بالفرع محلّ الحكم المطلوبُ إثباته فيه، وبالأصل محل الحكم المعلوم، ولعلّ القول السّديد فى حدّ القياس ما قاله جمهور الأصوليين بأنّه حَمْلُ معلوم على معلوم فى إثبات حكم لهما أو نَفْيه عنهما بأمر جامع بينهما، من إثبات حكم أو صفة أو نفيهما عنهما [(٧)].

(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٣٦٠٠] وهو موقوف على ابن مسعود رضي الله عنه.
(٢) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٤٠٢١].
(٣) أخرجه فى صحيح الجامع [١٨٤٨] وأورده فى «المشكاة» [١٧٣].
(٤) أخرجه فى غريب الحديث [١ / ١٤٣] والحاكم [٣٩١] وقال الذّهبى صحيح على شرط الشّيخين.
(٥) أخرجه التّرمذى وقال صحيح بمجموع طرقه [٢١٦٥].
(٦) انظر القاموس المحيط [ج ٢ ص ٢٥٣].
(٧) انظر أصول الفقه الإسلامى [ج ١ ص ٣٣٢].

وذهب أكثر العلماء إلى أنّ القياسَ حُجَّةٌ وأنّه يجوز التَّعَبُّد به في الشّرعيّات عقلا، وهو قول الصّحابة والتّابعين وأئمّة المذاهب الأربعة وأكثر الفقهاء والمتكلّمين الذين أجازوا القياس بالرّأي على الأصول التي تثبت أحكامُها بالنّص لتعدية حكم النّص إلى الفروع، كما تضافرت الأخبار عن رسول الله ﷺ في الأخذ بهذا القانون المحكم وإرشاد الصّحابة إليه لما روى أنّ عمر قال «هَشَشْتُ[1] فَقَبَّلْتُ وَأَنا صَائِمٌ فَقُلْتُ يارَسُولَ الله صَنَعْتُ الْيَوْمَ أَمْرًا عَظِيمًا! قَبَّلْتُ وَأَنا صَائِمٌ! فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ أَرَأَيْتَ لَوْ تَمَضْمَضْتَ مِنَ الْمَاءِ وَأَنْتَ صَائِمٌ؟ فَقَالَ عُمَرُ لاَ بَأْسَ بِهِ، فَقَالَ فَـمَهْ[2]».

(قال) الخطّابى [في هذا إثبات القياس والجمع بين الشّيئين في الحكم الواحد لاجتماعهما في الشّبه، وذلك أنّ المضمضة بالماء ذريعة لنزوله إلى الحلق ووصوله إلى الجوف فيكون به فساد الصّوم، كما أنّ القبلة ذريعة إلى الجماع المفسد للصّوم، فإذا كان أحد الأمرين منهما غير مُفطر للصّائم فالآخر بمثابته[3]].

فالرّبط بين المضمضة بالماء في الصّيام والقبلة فيه ينبّه إلى المماثلة فيهما من حيث أنّ كليهما قد يُؤدّى إلى أمر مُفطر، وبالمماثلة بينهما يتساويان في الحكم، فإذا كانت المضمضة لا تُفطر وعمر يعلم ذلك فكذلك يجب أن يُعْلَمَ أنّ القُبلة لا تُفطر.

ورحم الله المزنى صاحب الشّافعى فقد لخّص الفكرة في القياس والعمل به من الصّحابة أبلغ تلخيص فقال [الفقهاء من عصر رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا استعملوا المقاييس في جميع الأحكام في أمر دينهم، وأجمعوا على أنّ نظير الحقّ حقّ، ونظير الباطل باطل، فلا يجوز لأحد إنكار القياس لأنّه تشبيه الأمور والتّمثيل عليها]. ولقد قال الإمام ابن القيّم في هذا المعنى أيضا [مدار الاستدلال جميعه على التّسوية بين المتماثلَين والفرق بين المختلفَين، ولو جاز التّفرقة بين المتماثلَين لخرق الاستدلال وغلّقت أبوابه[4]]. ومن جملة الأصول التي اختلف العلماء في اعتبارها والاستدلال بها نعرض ما يلي:

(أ) الاستحسان

الاستحسان لغة وجود الشّيء حسنًا، يقول الرّجل [استحسنتُ كذًا] أي اعتقدته حَسَنًا، واستقبحته أي اعتقدته قبيحا، أو معناه: طلب الأحسن للاتباع الذي هو مأمور به، وقد اختلفوا فيه فقال به الحنفية والحنابلة وهو عندهم واحد من الأدلّة المعتبرة بعد الأصول

---

(١) قوله «هَشَشْتُ فَقَبَّلْتُ»: أى نشطت لفظا ومعنى، والهشاش في الأصل الارتياح والخفّة والنّشاط.
(٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٢٣٨٥] وأحمد [١٣٨].
(٣) انظر سنن أبي داود [ج ٢ ص ٣٠٢ ـ الهامش].
(٤) انظر أصول الفقه للشيخ محمد أبي زهرة [ص ٢٠٦].

الأساسيّة الأربعة :[الكتاب والسُّنة والإجماع والقياس] . وذلك خلافا لغيرهم من أهل العلم وفي طليعتهم الإمام الشّافعي وأتباعه في المذهب فقد ذهبوا إلى بطلان الاستحسان حتّى قال الشّافعي [من استحسن فقد شرّع[1]] .

ويمكن حمل ذلك على القول في الشّرع بمجرّد الهوى من غير دليل، مع أنّ الحنفيّة ما انْثنوا عن القياس إلى الاستحسان إلاّ استنادا إلى أثارةٍ من دليل الكتاب أو السُّنَّة أو الإجماع أو الضّرورة [[2]] .

والحقّ أنهّ لا يوجد في لفظ الاستحسان ما يصلح محلاً للنّزاع، إذ ليس الخلاف بين العلماء في جواز استعمال لفظ الاستحسان لوروده في التّنزيل الحكيم بقول الله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾[الزّمر :١٨].ولوروده في السُّنَّة كما في قوله ﷺ «مَا رَآهُ الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَنٌ[3]» .

والإستحسان في لسان الفقهاء نوعان :

(أوّلهما) العمل بالاجتهاد في تقدير ما جعله الشّرع موكولا إلى آرائنا وذلك كالمتعة المذكورة في قوله ﴿مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[البقرة:٢٣٦] . فقد أوجب ذلك بحَسْب اليسار والعُسْرَة وشَرَطَ أن يكون بالمعروف، فعرفنا بذلك أنّ المراد ما يُعْرَف استحسانه بغالب الرّأي، وكذلك قول الله تعالى ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[البقرة:٢٣٣]. ولا يُظَنُّ بأحد من الفقهاء أنّه يخالف هذا النّوع من الاستحسان .

(النّوع الثّاني) وهو الدّليل الذى يكون معارضا للقياس الظّاهر (الجليّ) أو هو اسم لدليل يعارض القياس الجلي، فكأنهم سَمّوْه بهذا الاسم لاستحسانهم تَرْكَ القياس بدليل آخر فَوْقَه [[5]] .

على أنّ استحسان العمل بأقوى الدّليلين لا يكون من اتّباع الهوى وشَهْوة النّفس في شيء مثلما يزعم المنكرون للاستحسان، وقد قال الشّافعي في نظائر ذلك [أَسْتَحِبُّ ذلكَ] . وأيُّ فرق بين مَنْ يقولُ [أَسْتَحْسِنُ كذَا] . وبين من يقول [أَسْتَحِبُّهُ] . بل إنّ الاستحسان أفَصح اللُّغتين وأقربُ إلى مُوافقة عبارة الشّرع في هذا المرَاد .

---

(١) انظر الإحكام للآمدى [ج ٣ ص ٢٠٠] .

(٢) انظر أصول الفقه الإسلامى [ج ٢ ص ٢٥٢] .

(٣) من حديث أخرجه أحمد بإسناد صحيح موقوفا على ابن مسعود [٣٦٠٠] .

(٤) انظر أصول الفقه الإسلامى [ج ٢ ص ٤٤٥] .

وما ذهب إليه أصحاب أبى حنيفة في ذلك هو أنّ الاستحسان عدول فى الحكم عن طريقة إلى طريقة هى أقوى منها، وهذا أولى ممّا ظنّه مخالفوهم لأنّه الأليق بأهل العلم، ولأنّ أصحاب المقالة أعرف بمقاصد أسلافهم، ولأنّهم رضى الله عنهم قد نصّوا فى كثير من المسائل فقالوا [استحسنّا هذا الأثر ولوجه كذا] فعلمنا أنّهم لم يستحسنوا بغير طريق [(١)].

(٢) الاستصحاب

وهو الاستدلال بعدم الدّليل على نفى الحكم، [أو] هو بقاءُ ما هو ثابت بالدّليل، [أو] هو عبارة عن الحكم بثبوت أمرٍ فى الزّمان الثّانى بناء على ثبوته في الزّمان الأول [(٢)]. واحتج الجمهور بجملة أدلّة منها قوله تعالى ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥]. فإنّ ذلك احتجاج بعدم الدّليل، ولأنّ النّافى متمسّكٌ بالعدَم، والعدمُ غير مُحتاجٍ إلى الدّليل فينعدم الحكم لعدم دليله [(٣)].

و(قال) فى الكافى [إنّ المُفْتى إذا سُئل عن حادثة يطلب حكمَها فى الكتاب ثمّ فى السُّنَّة ثمّ فى الإجماع ثمّ فى القياس، فإن لم يجده فيأخذ حكمَها من استصحاب الحال فى النّفي والإثبات، فإن كان التّردُّد فى زواله فالأصل بقاؤه، وإن كان التّردُّد فى ثبوته فالأصل عدم ثبوته(٤)].

وقد اختلفوا فى صحّة الاستدلال بالاستصحاب باعتباره واحدا من الأدلّة الشّرعيّة، فذهب أكثر الأصوليّين إلى صحّة الاحتجاج به، وفيهم المالكيّة وأكثر الشّافعية كالمزنى والصّيرفى وغيرهم من المحقّقين، وقد اختاره الآمدى، وسواء كان ذلك بالاستصحاب لأمر وجودى أو عدمى أو عقلى أو شرعي، وذلك لأنّ ما تحقّق وجودُه أو عدمُه فى حالة من الأحوال فإنّه يستلزم ظنَّ بقائه، والظّنُّ حجّةٌ متبعة فى الشّرعيات.

وذهب آخرون إلى بُطلان الاستصحاب فلا يجوز الاحتجاج به عندهم، وإلى ذلك ذهب الحنفية وجماعة من المتكلّمين كأبى الحسين البصرى وغيره، ومن هؤلاء من جوّز التّرجيحَ به فقط [(٥)].

---

(١) انظر المعتمد فى أصول الفقه لأبى الحسين البصرى [ج ٢ ص ٢٩٥].

(٢) انظر أصول السّرخسى [ج ٢ ص ٢٢٤].

(٣) انظر أصول الفقه الإسلامى [ج ٢ ص٤٦٢].

(٤) انظر إرشاد الفحول للشّوكانى [ص ٢٣٧].

(٥) انظر الإحكام للآمدى [ج ٣ ص ١٩١].

ويتبيّن من هذا عدّة أمور [(١)] :

أوّلها ـ أنّ الاستصحاب ليس في ذاته دليلا فقهيًّا ولا مصدرا للاستنباط ولكنّه إعمال لدليل قائم وإقرار لأحكام ثابتة لم يحصل تغيير فيها .

والثّاني ـ أنّ الاستصحاب تُبنى عليه القواعد الثّلاث التّالية وقد صرّح بها ابن حزم في أصوله وهي :

(١) أنّ ما ثبت بيقين لا يزول إلاّ بيقين مثله ، فإذا ثبتت الزّوجيّة فلا تزول إلاّ بأمر يقيني ، وإذا ثبت الوضوء لا يزول إلاّ بيقين ، وإذا ثبتت الحياة لا تزول إلاّ بحكم أو وفاة ، وإذا ثبت الجنون لا يحكم بزواله إلاّ إذا ثبت العقل .

(٢) أنّ ما يثبت حلُّه لا يحرم إلاّ بدليل مغيّر أو بأمر يغيّر صفاته ، فالعنب حلال يثبت حلُّه إلاّ إذا تغيّرت صفته فتخمّر ، وكذلك التّمر وعصير القصب كلّ هذا حلال إلاّ إذا تغيّرت صفته فتخمّر أو صار نبيذا مُسكرا ، فإنّه يكون حراما لثبوت ذلك التّغيير في الصّفة .

وكذلك كلّ ما ثبت تحريمه يستمر على التّحريم إلاّ أن يقوم دليل على الإباحة كحالة الاضطرار أو بتغيُّر الصّفة التي كان عليها التّحريم ، كأن تتحوّل الخمر إلى خلّ ، أو أن يُقتل النبّيذ بالماء حتّى تزول عنه صفة الإسكار فإنّه يصير حلالا إذ بتغيُّر الصّفة التي كانت سببا للتّحريم يزول التّحريم .

(٣) أنّ كلّ ما لم يقم فيه دليل شرعي يبقى على حُكم الأصل ، فإن كان الأصل الإباحة بقي على حكم الإباحة كالأطعمة والألبسة وغير ذلك ، وهكذا يستمرّ الحكم الأصلي الذي قرّره الشّرع في الأمور حتّى يقوم دليل مغيِّر .

(الثّالث) أنّ الاستصحاب يُؤخذ به حيث لا دليل ، ولذلك وسّع نطاق الاستصحاب الذين حصروا الأدلّة في أقلّ عدد ، فنُفاة القياس وسّعوا في الاستدلال به ، فالظّاهرية والإماميّة أثبتوا به الأحكام في مواضع كثيرة لم يثبتها فيه جمهور الفقهاء الذين أثبتوا القياس ، فكلّ موضع فيه قياس أخذ به الجمهور قد أخذ الظّاهرية في موضعه بالاستصحاب .

والشّافعي الذي لم يأخذ بالاستحسان كان أكثر أخذا بالاستصحاب من الحنفيّة والمالكيّة ، لأنّه في كلّ موضع كان للعرف أو الاستحسان فيه حكم كان محله عند الشّافعي الاستصحاب . ومن أجل هذا كان أقلّ الفقهاء أخذا بالاستصحاب المالكية إذ

(١) انظر أصول الفقه للشّيخ محمد أبي زهرة [ص ٢٨٣] .

هم الذين وسّعوا نطاق الاستدلال حتّى لم يبقوا للاستصحاب إلاّ دائرة ضيّقة والحنفية يلونهم فى هذا ويقاربونهم فى التّقليل منه [(١)].

(٣) المصالح المرسلة

سمّاها بعضهم بالاستدلال المرسل وأطلق عليها بعضهم الاستدلال، والمراد بالمصلحة المحافظة على مقصود الشّرع بدفع المفاسد عن الخلق [(٢)]. [أو] هى المنفعة التى قصدها الشّارع الحكيم لعباده من حفظ دينهم ونفوسهم وعقولهم ونسلهم وأموالهم وفق ترتيب معيّن فيما بينها [(٣)].

والمصالح المرسلة هى التى لم يشهد لها أصلٌ شرعى من نصّ أو إجماع لا بالاعتبار ولا بالإلغاء، وذلك كجمع المصحف وكتابته فإنّه لم يدلّ عليه نصّ من قِبَل الشّارع ولذلك توقَّفَ فيه أبو بكر وعمر أوّلا حتّى تحقّقوا من أنّ ذلك مصلحة فى الدّين تدخل تحت مقاصد الشّرع، ومثله أيضا تدوين العلوم الشّرعية وغيرها [(٤)]. على أنّ تكاليف الشّريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها فى الخلق، وهذه المقاصد لا تعدو ثلاثة أقسام: إمّا أن تكون ضرورية، أو أن تكون حاجيّة، أو أن تكون [تحسينيّة] وهى التى تأتى مبيّنة على النّحو التّالى:

(أولا) أمّا الضّرورية فمعناها أنّها لابدّ منها فى قيام مصالح الدّين والدّنيا بحيث إذا فُقدت لم تجْرِ مصالحُ الدّنيا على استقامة بل على فسادٍ وتهارج وفوْت حياةٍ، وفى الأخرى فوت النّجاة والنّعيم والرّجوع بالخسران المبين، ومجموع الضّروريات خمسة وهى: حفظ الدّين، وحفظ النّفس، وحفظ النّسل، وحفظ المال، وحفظ العقل [(٥)]:

(١) فأمّا (الدّين): فهو محفوظ بشرع الزّواجر عن الرِّدّة والمقاتلة مع أهل الحرب، وقد نبّه الله عليه بقوله ﴿قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾[التّوبة: ٢٩].

(٢) وأمّا (النّفس): فهى محفوظة بشرع القصاص، وقد نبّه الله تعالى عليه بقوله ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٧٩].

---

(١) انظر أصول الفقه للشّيخ محمّد أبى زهرة [ص ٢٨٤].

(٢) انظر إرشاد الفحول [ص ٢٤٢].

(٣) بحوث فى الأدلّة المختلف فيها نقلا عن كتاب المحصول للرّازى [ج ٢ ص ٤٣٤].

(٤) انظر تعليق الشّيخ دراز على الموافقات [ج ١ ص ٣٩].

(٥) انظر موافقات الشّاطبى [ج ٢ ص ٨].

(٣) وأمّا (النّسل) : فهو محفوظ بشرع الزّواجر عن الزّنا ، لأنّ المزاحمة على الأبضاع [(١)] تُفْضي إلى اختلاط الأنساب وهذا يُفْضي إلى انقطاع التّعهّد عن الأولاد ، وفيه التّوثّب على الفروج بالتّعدّى والتّغلّب ، وهو مجلبةُ الفساد والتّقاتل .

(٤) وأمّا (المال) : فهو محفوظ بقطع اليد فى حدّ السّرقة وتحريم الغشّ والرّبا وغيرهما ممّا فيه إتلاف للمال ، وقد نبّه الله تعالى عليه بقوله ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[البقرة:١٨٨] . وقوله تعالى﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[النّساء : ١٦١] .

(٥) وأمّا (العقل) : فهو محفوظ بتحريم المُسْكر المغيّب له ، وقد نبّه الله عليه بقوله تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[المائدة : ٩١] .

(ثانيا) أمّا التى فى محل (الحاجة) فإنّه مُفتقرٌ إليها من حيث التّوسعة ورفع الضّيق المؤدّى فى الغالب إلى الحرج والمشقّة اللاّحقة بفوت المطلوب ، فإذا لم تُراعَ دخلَ على المكلّفين الحرجُ والمشقّة ، ولكنّه لا يبلغ مبلغَ الفساد العادى المتوقّع فى المصالح العامّة ، وهى جارية فى العبادات والعادات والمعاملات والجنايات :

(ففي العبادات) : كالرُّخَص المخفَّفَة بالنّسبة إلى لُحُوق المشقّة بالمرض والسّفر ، وإزالة النّجاسة وستر العورة وأخذ الزّينة والتّقرُّب بنوافل الخيرات .

(وفى العادات) : كإباحة الصّيد والتّمتُّع بالطّيّبات ممّا هو حلال سواء كان مأكلا ، أو مشربا ، أو ملبسا ، أو مسكنا ، أو مركبا ، أو ما أشبه ذلك ، ومجانبة المآكل النّجسات والمشارب المستخبثات والإسراف والإقتار فى المتناولات .

(وفى المعاملات) : كالقراض والمساقاة والسّلَم والمنع من بيع النّجاسات وفضل الماء والكلأ وغير ذلك .

(وفى الجنايات) : كالحكم باللَّوْث والقَسامة وضرب الدّية على العاقلة وتضمين الصّناع وما أشبه ذلك ، وقتل الحرّ بالعبد أو قتل النّساء والصّبيان فى الجهاد .

(ثالثا) أمّا (التّحسينيات) فمعناها : الأخذ بما يليق من محاسن العادات وتجنُّب الأحوال المدنّسات التى تأنفها العقول الرّاجحات والنّفوس الزّاكيات ويجمع ذلك

---

(١) الأبْضَاعُ جمع ومفرده بُضْعٌ ـ بالضّم ـ يُطلق على الفرْج والجِمَاع ويُطلق على التّزويج أيضا ، كالنّكاح الذى يُطلق على العقد والجِماع . (انظر المصباح المنير ج ١ ص٥٧) .

قسم مكارم الأخلاق [(١)].

ويستبين ممّا تقدّم أنّ المصالح المرسلة عند الأصوليين هي عبارة عن المعانى التى يحصل من ربط الحكم بها وبنائه عليها جَلْبُ مصلحة أو دفع مفسدة عن الخلق، ولم يقم دليل مُعيّنٌ من قِبَل الشّرع يدلّ على اعتبارها أو إلغائها.

ويتّضح من هذا التّعريف أنّ المصالح المرسلة لا تكون إلاّ فى الوقائع التى سكت عنها الشّارع وليس لها أصل مُعيّن تُقاس عليه، ويوجد فيها معنى مناسب يصلح أن يكون علّة ومناطا لحكم شرعى يُحْكَم به بناء على ذلك المعنى المناسب [(٢)].

الفرق بين المصالح المرسلة والقياس

فرّق القائلون بالمصالح المرسلة بينها وبين القياس بأمرين:

(الأوّل) أنّ القياس يرجع إلى أصلٍ مُعَيَّنٍ من أصول الشّريعة يُقاس فيه الفرعُ على الأصل لعلّة جامعةٍ بينهما.

(الثّانى) أنّ المصالح المرسلة لا ترجع إلى أصل معيّن وقالوا: رأيْنا الشّارِعَ اعتبرها فى مواضع من الشّريعة فاعتبرناها حيث وجدت لعلمنا أنّ جنسها مقصود له [(٣)].

(٤) سدّ الذّرائع

السّدُّ فى اللُّغة إغلاق الخلل، والذّريعة الوسيلة إلى الشّىء، يقال: «تذرّع فُلاَنٌ بذريعة» أى توصّل بها إلى مقصده، والجمع ذرائع. (قال) القرافى فى التّنقيح [وجملة ذلك أنّ «سدّ الذّرائع» ما ظَاهِرُهُ مُبَاحٌ وَيُتَوصَّلُ به إلى مُحَرَّم. وفى اصطلاح الفقهاء هى الأشياء التى ظاهرها الإباحة ويتوصّل بها إلى فعل محظور، ومعنى «سدّ الذّريعة»: حسم مادّة وسائل الفساد وفعالها إذا كان الفعل السّالم من المفسدة وسيلة إلى مفسدة(٤)].

والذّريعة كما يجب سدُّها يجب فتحُها ويُكْرَهُ ويُنْدَبُ ويُبَاحُ، فإنّ الذّريعة هى الوسيلة، فكما أنّ وسيلةَ المحرَّم مُحَرَّمةٌ فوسيلةُ الواجب واجبةٌ كالسّعى للجمعة والحجّ [٥]. ومواد الأحكام على قسمين:

(الأوّل) مقاصد وهى الطُّرق المُفضية للمصالح والمفاسد فى أنفسها.

---

(١) انظر الموافقات للشّاطبى [ج ٢ ص ٨ - ١٢].

(٢) انظر أصول الفقه الإسلامى [ج ٢ ص ٤٧٩].

(٣) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد [ص ٢٩٥ - ٢٩٦].

(٤) انظر شرح تنقيح الفصول [ص ٤٤٨] والموسوعة الفقهيّة [٢٤ / ٢٧٦].

(٥) انظر أصول الفقه الإسلامى [ج ٢ ص ٤٨٨].

(الثانى) وسائل وهى الطرق المفضية إليها وحكمها كحكم ما أفضت إليه من تحريم أو تحليل إلاّ أنّها أخفض رتبةً من المقاصد فى حكمها.

فالوسيلة إلى أفضل المقاصد أفضلُ الوسائل، وإلى أقبح المقاصد أقبح الوسائل وإلى ما هو متوسّط متوسّطةٌ [(١)].

واستدلّ المالكيّة والحنابلة على جواز الاحتجاج [بسدّ الذّرائع] بكثير من النّصوص منها ما رُوى عن النّبى ﷺ «دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لاَ يَرِيبُكَ(٢)». وهذا نهىٌ عن ترك ما يَريب، وليس فى الرّيبة أعظمُ من بيع السّلعة بثمن إلى أجَل ثمّ يشتريها البائع بأقلّ ممّا باعها، بأن يبيعها بمائة وخمسين نقدا لأجَل، ويشتريها بخمسين نقدا على الفور، فإن قيل إنّ معنى هذا أن تَدَعَ ما يتّهمك به النّاسُ ويظنّون بك ظنَّ السّوء، والجواب عن ذلك: أنّ هذا عدول عن الظّاهر، لأنّه نَهَى المرتابَ عن فعل ما يريبه هو لا ما يريب النّاسَ منه.

وذكر ابن القيّم فى أعلام الموقّعين كثيرا من أوجه الاحتجاج على منع ما يؤدّى إلى الحرام فبلغت تسعة وتسعين وجها نقتضب منها [(٣)]:

(١) ما جاء فى قول الله سبحانه ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[الأنعام:١٠٨]. وفيه حرّم الله تعالى سبَّ آلهة المشركين مع كون السّبِّ غيظا وحميّةً لله تعالى وإهانةً لآلهتهم، لكونه ذريعة إلى سبّهم لله تعالى، وكانت مصلحةُ ترك مسبّته تعالى أرجحَ من مصلحة سبّنا لآلهتهم، وهذا كالتّنبيه بل كالتّصريح على المنعَ من الجائز لئلاّ يكون سببا فى فعل ما لا يجوز.

(٢) وفى قول الله تعالى ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾[النور: ٣١]. مَنَعَهنّ من الضّرب بالأرجل وإن كانَ جائزا فى نفسه، لئلاّ يكون سببا إلى سمعِ الرّجال صوتَ الخَلْخَال فيُثير ذلك دواعى الشّهوة منهم إليهنّ.

(٣) أنّ النّبي ﷺ حَرَّمَ الخُلْوَةَ بالأجنبيّة ولو فى إقراء القرآن والسّفر بها ولو فى الحجّ، سدًّا لذريعة ما يُحاذر من الفتنة وغلبات الطّباع.

(٤) وأنّه ﷺ نهى المرأة أن تسافرَ بغير مَحْرَمٍ وما ذلك إلاّ أنّ سفرها بغير مَحْرَمٍ قد يكون ذريعة إلى الطّمع فيها والفجور بها.

(٥) وأنّه ﷺ مَنَعَ المُقْرِضَ من قبول الهديّة حتّى يحسبَهَا من دَيْنه، وما ذاك إلاّ لئلاّ

(١) انظر شرح تنقيح الفصول [ص ٤٤٩].

(٢) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٢٥١٨] والنّسائى [٥٧٢٧].

(٣) انظر أعلام الموقّعين [ج ٣ ص ١٣٧ - ١٥٩].

يُتّخذ ذلك ذريعةً إلى تأخير الدَّيْن لأجلِ الهديّة فيكون ربًا ، فإنّه يعود إليه مالُه وأخذُ الفضْلِ الذى استفاده بسبب القرض .

(٦) أنّ الشّارع اشترط [للنّكاح] شروطا زائدة على العقد تقطع عنه شُبَهَ السِّفاح كالإعلام والْوَلِىِّ ومَنَع المرأةَ أن تَلِيَهُ بنفسها ، وندب إلى إظهاره حتّى اسْتَحبّ فيه الدُّفَّ والصّوتَ والوليمةَ ، لأنّ فى الإخلال بذلك ذريعةً إلى وقوع السِّفاح بصورة النّكاح ، وزوال بعض مقاصد النّكاح من جَحْدِ الفراش .

ثمّ أكّد ذلك بأن جعل للنّكاح حَرِيما من العدّة تزيد على مقدار الاستبراء ، وأثبت له أحكاما من المصاهرة وحُرْمَتها ، ومن الموارثة زائدةً على مجرّد الاستمتاع ، فعُلِمَ أنّ الشّارع جعله نسبًا ووُصْلَةً بين النّاس بمنزلة الرّحم كما جمع بينهما فى قول الله تعالى ﴿ فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾[الفرقان:٥٤]. وهذه المقاصد تمنع شَبَهَه بالسِّفاح وتُبيّن أنّ نكاحَ المحلِّل بالسّفاح أشبهُ منه بالنّكاح [(١)] .

(٧) أنّ الشّارع أمر بالاجتماع على إمام واحد فى الإمامة الكُبرى وفى الجمعة وفى العيدين والاستسقاء وصلاة الخوف ، مع كون صلاة الخوف بإمامين أقرب إلى حصول صلاة الأمن ، وذلك سدّا لذريعة التّفريق والاختلاف والتّنازع ، وطلبا لاجتماع القلوب وتآلف الكلمة ، وهذا من أعظم مقاصد الشّرع ، وقد سدّ الذّريعة إلى ما يناقضه بكلّ طريق ، حتّى فى تسوية الصّف فى الصّلاة لئلاّ تختلف القلوب .

(٨) أنّ السُّنَّة مضت بكراهة إفراد رجب بالصّوم وكراهة إفراد الجمعة به وليلتها بالقيام سدّا لذريعة اتخاذ شرع لم يأذن به الله من تخصيص زمان أو مكان بما لا يخصّه به ، ففى ذلك وقوع فيما وقع فيه أهل الكتاب .

(٩) أنّ النّبى ﷺ أمر الملتقط أن يُشْهِدَ على اللُّقَطَة وقد عُلم أنّه أمين ، وما ذاك إلاّ لسدّ الذّريعة أمام كوامن الطّمع والكتمان ، فإذا بادر وأَشْهَدَ كان أحسم لمادّة الطّمع والكتمان ، وهذا أيضا من ألطف أنواعها .

(١٠) وذمّ ﷺ الخطيب الذى قال «من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن عصاهما فقد غوى» . سدّا لذريعة التّشريك فى المعنى بالتّشريك فى اللّفظ ، وحسما لمادّة الشّرك حتّى فى اللّفظ ، ولهذا قال للذى قال له «مَا شَاءَ اللّهُ وَمَا شِئْتَ ! «أَجعلْتَنى لله ندًّا ؟» . فحَسَمَ مادّة الشّرك وسدّ الذّريعة إليه فى اللّفظ كما سدّها فى الفعل والقَصد .

(١١) وأَمَرَ الله تعالى كليمه موسى وأخاه هارون فى قوله ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ

(١) انظر أعلام الموقّعين [ج ٣ ص ١٣٧ ـ ١٥٩] .

﴿إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣ - ٤٤]. أن يلينا القول لأعظم أعدائه وأشدّهم كفرا وأعتاهم عليه، لئلاّ يكون إغلاظ القول له - مع أنه حقيق به - ذريعة إلى تنفيره وعدم قيام صبره لقيام الحُجَّة، فنهاهما عن الجائز لئلاّ يترتّب عليه ما هو أكره إليه تعالى.

(١٢) أنّ الله تعالى حرّم الخمر لما فيها من المفاسد الكثيرة المترتّبة على زوال العقل، وحرّم القطرة الواحدة منها، وحرّم إمساكها للتّخليل ونجّسها، لئلا تُتّخذ القطرة ذريعة إلى الْحُسْوة ويُتَّخذ إمساكها للتّخليل ذريعة إلى إمساكها للشّرب، وقد صرّح ﷺ بالعلّة في تحريم القليل فقال «مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ(١)».

(١٣) أنّ الله تعالى حرّم نكاح أكثر من أربع لأنّ ذلك ذريعة إلى الجَوْر، وقيل العلّة فيه أنّه ذريعة إلى كثرة المؤنة المفضية إلى أكل الحرام، وعلى التّقديرين فهو من باب سدّ الذّرائع، وأباح الأربع وإن كان لا يُؤمَن الجَور في اجتماعهن لأنّ حاجته قد لا تندفع بما دونهن، فكانت مصلحة الإباحة أرجح من مفسدة الجَوْر المتوقّعة.

(١٤) أنّ الله تعالى حرّم خِطْبَة المعتدّة صريحا، حتّى حرّم ذلك في عدّة الوفاة وإن كان من المرجّح في انقضائها ليس إلى المرأة، فإنّ إباحة الخِطْبَة قد تكون ذريعة إلى استعجال المرأة بالإجابة والكذب في انقضاء عدّتها.

(١٥) أنّ الشّارع حرّم الطّيب على المُحْرِم لكونه من أسباب دواعي الوطء، فجاء تحريمه من سدّ باب الذّريعة.

(١٦) أنّ النّبي ﷺ كره الصّلاة إلى ما قد عُبد من دون الله، وأحبّ لمن صَلَّى إلى عود أو عمود أو شجرة أو نحو ذلك أن يجعله على أحد جانبيه، ولا يصمُدُ إليه صمدا قطعا لذريعة التّشبُّه بالسّجود إلى غير الله تعالى.

(١٧) أنّ النّبي ﷺ نهى عن تقدّم رمضان بصوم يوم أو يومين، إلاّ أن تكون له عادة توافق ذلك اليوم، ونهى عن صوم يوم الشّك، وما ذاك إلاّ لئلاّ يُتّخذ ذريعة إلى أن يُلحق بالفرض ما ليس منه، وكذلك حرّم صوم يوم العيد تمييزا لوقت العبادة عن غيره لئلاّ يكون ذريعة إلى الزّيادة في الواجب كما فعلت النّصارى.

(١٨) وكذلك نَدَبَ النّبي ﷺ إلى تمييز فرض الصّلاة عن نفلها، فكره للإمام أن يتطوّع في مكانه وأن يستديم جلوسه مستقبل القبلة، كلّ هذا سدّا للباب المفضي إلى أن يزاد في الفرض ما ليس منه.

---

(١) حديث حسن صحيح أخرجه أبو داود [٣٦٨١] والتّرمذي [١٨٦٥].

(١٩) كما أمر ﷺ المأمومين أن يصلُّوا قعودا إذا صلّى إمامهم قاعدا وقد تواتر عنه ذلك، ولم يجيء عنه ما ينسخه، وما ذاك إلاّ سدّا لذريعة مُشابهة الكفّار حيث يقومون على ملوكهم وهم قعود كما علّله صلوات الله وسلامه عليه.

(٢٠) وأمر ﷺ المصلّى بالليل إذا نَعَسَ أن يذهب فليرقد، وقال «لَعَلَّهُ يَذْهَبُ يَسْتَغْفِرُ فَيَسُبُّ نَفْسَهُ(١)». فأمره بالنّوم لئلاّ تكون صلاته فى تلك الحال ذريعة إلى سبّه لنفسه وهو لا يشعر لغلبة النّوم.

(٢١) كما نهى ﷺ عن البول فى الجُحر، وما ذاك إلاّ لأنّه قد يكون ذريعة إلى خروج حيوان يُؤذيه، وقد يكون من مساكن الجنّ فيُؤذيهم بالبول فربّما آذوه.

(٢٢) ونهى النّبى ﷺ عن البراز فى قارعة الطّريق والظّل وموارد الماء لأنّه ذريعة لاستجلاب اللّعن كما علّل به ﷺ بقوله «اتَّقُوا اللاَّعِنَيْنِ؟ قَالُوا وَمَا اللاَّعِنَانِ يَارَسُولَ اللهِ؟ قَالَ الَّذِى يَتَخَلَّى فِى طَرِيقِ النَّاسِ أَوْ ظِلِّهِمْ(٢)».

(٢٣) كما نهى ﷺ عن الاحتباء يوم الجمعة لما رواه أبو داود والتّرمذى من حديث سهل بن معاذ «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَى عَنِ الْحُبْوَةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَالإِمَامُ يَخْطُبُ(٣)». و«الاحْتِبَاءُ» أن يجلس ويلفّ ثوبه على نفسه وقد جمع ساقيه، وما ذاك إلاّ أنّه ذريعة إلى النّوم وقت الخُطبة.

(٢٤) ونهى ﷺ المرأة إذا خرجت إلى المسجد أن تتطيّب أو تُصيب بخورا، وذلك لأنّه ذريعة إلى ميل الرّجال وتشوُّفهم إليها، فإنّ رائحتها وزينتها وصورتها وإبداء محاسنها تدعو إليها، فأمرها أن تخرج تَفِلَة وأن لا تتطيّب وأن تقف خلف الرّجال، وأن لا تُسبِّح فى الصّلاة إذا نابَهَا شىء بل تصفّق ببطن كفّها على ظهر الأخرى، كلّ ذلك سدّا للذّريعة وحماية عن المفسدة.

(٢٥) ونهى رسول الله ﷺ أن تنعت المرأةُ المرأةَ لزوجها حتّى كأنّه ينظر إليها، ولا يخفى أن ذلك سدّا للذّريعة وحماية عن مفسدة وقوعها فى قلبه وميله إليها بحضور صورتها فى نفسه، وكم ممّن أحبّ غيره بالوصف قبل الرّؤية!.

(٢٦) وأنّه نهى عن الجلوس بالطّرقات وما ذاك إلاّ لأنّه ذريعة إلى النّظر إلى المحرّم، فلمّا أخبروه أنّه لابدّ لهم من ذلك قال «أَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ، قَالُوا: وَمَا حَقُّهُ؟ قَالَ

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٢١٢] ومسلم [٧٨٦].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٩] وأبو داود [٢٥].

(٣) حديث حسن أخرجه أبو داود [١١١٠] والتّرمذى [٥١٤].

غَضُّ الْبَصَرِ ، وَكَفُّ الأَذَى ، وَرَدُّ السَّلاَمِ (١) » .

(٢٧) وأمر ﷺ أن يُفرِّق بين الأولاد فى المضاجع وأن لا يُتْرَكَ الذَّكَرُ مع الأنثى فى فراش واحد ، لأنّ ذلك قد يكون ذريعة إلى نسج الشّيطان بينهما المواصلة المحرّمة بواسطة اتّحاد الفراش ، والرّجل قد يعبث فى نومه بالمرأة فى حال نومها إلى جانبه وهو لا يشعر ، وهذا أيضا من ألطف أبواب سدّ الذّرائع .

(٢٨) كما حرّم ﷺ الشّيَاع وهو المفاخرة بالجماع لأنّه ذريعة إلى تحريك النّفوس والتّشبُّه ، وقد لا يكون عند الرّجل من يغنيه من الحلال فيتخطّى إلى الحرام ، ومن هذا كان المجاهرون خارجين من عافية الله تعالى ورحمته وهم المتحدّثون بما فعلوه من المعاصى ، فإنّ السّامع تتحرّك نفسه إلى التّشبّه وفى ذلك من الفساد المنتشر ما لا يعلمه إلاّ الله تعالى .

(٢٩) وأنّه ﷺ نهى عن الاحتكار وقال «لاَ يَحْتَكِرُ إلاَّ خَاطِىءٌ (٢) » . فإنّه ذريعة إلى أن يُضَيِّقَ على النّاس أَقْوَاتَهُم .

(٣٠) وأنّه ﷺ نهى عن التّداوى بالخمر وإن كانت مصلحة التّداوى راجحة على مفسدة ملابستها ، سدّا لذريعة قربانها واقتنائها ومحبّة النّفوس لها ، فحسم عليها المادة حتّى فى تناولها على وجه التّداوى وهذا من أبلغ سدّ الذّرائع .

(٣١) جمع عثمان رضي الله عنه المُصحف على حرف واحد من الأحرف السّبعة لئلا يكون ذريعة إلى اختلافهم فى القرآن ، ووافقه على ذلك الصّحابة رضى الله تعالى عنهم .

(قال) ابن القيّم [وباب سدّ الذّرائع أحد أرباع التّكليف ، فإنّه : أمر ونهى ، والأمر نوعان :

[أحدهما] مقصود لنفسه .

[والثّانى] وسيلة إلى المقصود .

والنّهى نوعان :

[أحدهما] ما يكون المنهى عنه مفسدة فى نفسه .

[والثّانى] ما يكون وسيلة إلى المفسدة . فصار سدّ الذّرائع المُفْضِيَةِ إلى الحرام أحد أرباع الدّين [٣] .

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٢٤٦٥] ومسلم [٢١٢١] .

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٦٠٥] وأبو داود [٣٤٤٧] والتّرمذى [١٢٦٧] .

(٣) انظر أعلام الموقّعين [ج ٣ ص ١٥٩] .

(ثالثا) خير ما ألقى فى القلب اليقين

إنّ حسم المواجهة مع إبليس وكشف كيده ومنعه من تلبيس أمور العبادة على المسلم لابدّ وأن تتحقّق من خلال عاملين أساسيين :

(العامل الأوّل)

الاحتياط المتوافق مع شرع الدّين وضرورة الأخذ باليقين

ولا يكون الاحتياط إلاّ بموافقة السُّنَّة وترك مُخالفتها واتّباع الهدى الذى جاء به رسول الله ﷺ وطرح الوسوسة والتّخلّص من بلائها ، والاحتياط لغة استعمال ما فيه الحياطة أى الحفظ ، من [حَاطَهُ] يَحُوطُهُ إذا حَفِظَهُ ، وقيل الأخذ فى الأمور بالأحزم والأوثق من جميع الجهات ومنه [افعل الأحوط] أى افعل ما هو أجمع لأصول الأحكام وأبعد عن شوائب التّأويل ، ومعناه أيضا الاحتراز من الخطأ واتّقاؤه ، والإحداق به من جميع الجهات ومنه سُمّى الْجِدَارُ « بالحائط » وأصله الحفظ ، و[احْتَاطَ] : أَخَذَ فى أموره بأوثق الوجوه [(١)] .

والاحتياط اصطلاحا فعل مُتمكّن به من إزالة الشّك ،[أو] أن يحكم باليقين والقطع من غير تخمين، ويأخذ بالثّقة فى أموره وأحكامه . و[قال] الجرجانى : الاحتياط حفظ النّفس عن الوقوع فى المآثم . أمّا الاحتراز فقد يكون بالفعل وقد يكون بالتّرك وقد يكون بالتّوقُّف ، ومن معانيه : التّحفُّظ [(٢)] .

والفرق بين الاحتياط والوسوسة أنّ الاحتياط هو الاستقصاء والمبالغة فى اتّباع السُّنَّة وما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه من غير غُلُوّ ومجاوزة، ولا تقصير ولا تفريط ، فهذا هو الاحتياط الذى يرضاه الله ورسوله ﷺ ، أمّا الوسوسة فهى ابتداع ما لم تأت به السُّنَّة ولم يفعله رسول الله ﷺ ولا أحد من الصّحابة زاعما أنّه يصل بذلك إلى تحصيل المشروع وضبطه كمن يحتاط بزعمه ويغسل أعضاءه فى الوضوء فوق الثّلاثة فيسرف فى صبّ الماء فى وضوئه وغسله [(٣)] .

ولا يتأكّد هذا الاحتياط إلاّ «باليقين» الذى يستقرّ فى القلب ويستقرّ معه العلم الصّحيح الذى لا يتحوّل ولا يتغيّر ، ومتى وصل «اليقين» إلى القلب امتلأ من جلال الله تعالى ومحبّته ، وخشع من خوفه ورهبته ، ورضى بقضائه وقدره ، وأناب إليه وتوكّل عليه ، وفاض نورا وإشراقًا ، وازداد يقينًا وإحسانًا ، وزال منه كلّ شكّ ،

---

(١) انظر معجم المصطلحات الفقهيّة [ج ١ ص ٧٨] والمعجم الوجيز [ص ١٧٨] .

(٢) انظر التّوقيف على مهمّات التّعريف [ص ٣٩] .

(٣) انظر كتاب الرّوح لابن القيّم [ص ٢٥٦] .

وانتفى عنه كلّ سخط وريب. واليقين هو طمأنينة القلب واستقرار العلم فيه وهو معنى ما يقولون [ماء يقن] إذا استقرّ عن الحركة ودام.

واليقين في اللُّغة العلم الذى لا شكَّ معه، وعلم اليقين ليس فيه شكّ.[أو] هو الاعتقاد الجازم الثّابت المطابق للواقع، وسُكون النّفس مع معرفة الحكم، أمّا في الاصطلاح فهو اعتقاد الشّيء أنّه كذا مع اعتقاد أنّه لا يمكن إلاّ كذا، وهو مطابق للواقع غير ممكن الزّوال، ومن تعريفات اليقين [رؤية العيان بقوّة الإيمان لا بالحجّة والبيان]. ومنها قولهم [مشاهدة الغيوب بصفاء القلوب وملاحظة الأسرار بمحافظة الأفكار(١)].

وعن ابن مسعود قال «الْيَقِينُ الإِيمَانُ كُلُّهُ وَالصَّبْرُ نِصْفُ الإِيمَانِ(٢)». وأُجيب بأنّ مراد ابن مسعود أنّ اليقين هو أصل الإيمان، فإذا أيقن القلب انبعثت الجوارح كلّها للقاء الله تعالى بالأعمال الصّالحة حتّى قال سُفيان الثّورى [لَوْ أَنَّ الْيَقِينَ وَقَعَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يَنْبَغِي لَطَارَ اشْتِيَاقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَهَرَبًا مِنَ النَّارِ].

ومن اليقين الموت، قال جلّ ثناؤه ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾[الحجر: ٩٩]. وبه يتحقّق أبلغ العلم وأوكده، فلا يكون معه مجال عناد ولا احتمال زوال ومنه قوله ﷺ في موت ابن مظعون «أَمَّا عُثْمَانُ فَقَدْ جَاءَهُ وَاللَّهِ الْيَقِينُ وَإِنِّي لأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ، وَاللَّهِ مَا أَدْرِي - وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ - مَا يُفْعَلُ بِهِ(٣)». وقوله ﷺ من حديث مُعاذ «مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ وَهِيَ تَشْهَدُ أَلاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ يَرْجِعُ ذَاكَ إِلَى قَلْبٍ مُوقِنٍ إِلاَّ غَفَرَ اللَّهُ لَهَا(٤)».

وكان عمر بن عبد العزيز يقول «مَا رَأَيْتُ يَقِينًا أَشْبَهَ بِالشَّكِّ مِنْ يَقِينِ النَّاسِ بِالْمَوْتِ ثُمَّ لاَ يَسْتَعِدُّونَ لَهُ(٥)». يعني كأنّهم فيه شاكّون، وضدّ اليقين الرَّيْبُ وهو نوع من الحركة والاضطراب من [رَابَ يَرِيبُ وأَرَابَهُ الشَّيْءُ]: أَقْلَقَهُ وأَزْعجه، ومنه الحديث «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِظَبْيٍ حَاقِفٍ فَقَالَ لاَ يَرِيبُهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ(٦)». بمعنى لا يُقلقه أحد ولا يُزعجه، ومعنى حاقف أى نائم قد انحنى في نومه [(٧)].

---

(١) انظر الكُلّيّات [ص ٩٧٩] ومعجم المصطلحات [ج ٣ ص ٥١٥] ودليل الفالحين [ج ١ ص ٢٥٦].

(٢) أخرجه الحاكم [٣٧١٧] وافقه الذّهبى في التّلخيص وقال صحيح.

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٢٦٨٧].

(٤) حديث حسن صحيح أخرجه ابن ماجه [٣٠٧٨] وأحمد [٢١٨٩٧].

(٥) انظر تفسير القرطبى [ج ١٠ ص ٦٤].

(٦) حديث صحيح أخرجه النّسائى [٢٨١٧] ومالك في الموطأ [٧٧١].

(٧) انظر النّهاية في غريب الحديث [١ / ٤١٣].

ويتشعَّبُ من اليقين التّوحيد، والإخلاص، والتّوكُّل، والشّكر، والهيبة، والصّدّيقيَّة، والمحبّة، وغير ذلك من مقوّمات الإيمان وعناصره، فاليقين هو الإيمان كلّه ومن المأثور «وأَقْسِمْ لَنا مِنَ الْيَقِينِ ما تُهوّنُ به عَلَيْنا مَصائبَ الدُّنيا».

ومن معاني اليقين أن يؤمن المرء بما جاء به الشّرع من مسألة القَدَر ومسألة المُعاد، وأن يغلب الإيمان على العقل والقلب والنّفس، حتّى يصير المتيقّن به كالأمر المعاين المحسوس، فإذا تمكّن اليقين من القلب تشعبّت منه شُعَبٌ كثيرة، فلا يخاف ممّا يخاف منه النّاس في العادة، علما منه بأنّ ما أصابه لم يكن ليُخطئه، وما أخطأه لم يكن ليُصيبه، ويهوّن عليه مصائب الدّنيا اطمئنانا بما وعد في الآخرة، وتزدرى نفسه بالأسباب المتكثّرة فيفتر سعيه فيما يسعى النّاس فيه ويكدّون ويكدحون فيستوى عنده ذهب الدنيا وحَجَرها [(١)].

وما جاء وصف المؤمنين في الكتاب إلاّ أنّهم بلقاء ربّهم يوقنون، وما بيّن سبحانه آياته إلاّ لقوم يوقنون، وما جاء المتلوّ من القرآن إلاّ هدى ورحمة لقوم يوقنون ومن ذلك قوله تعالى﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[لقمان: ٤]. وقوله تعالى﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[الجاثية: ٢٠]. وقوله تعالى﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[المائدة: ٥٠].

ويحصل اليقين بثلاثة أشياء:

(أحدها) تدبُّر القرآن وفهم آياته

وتدبّر القرآن يكون بفهم آياته والتّفكُّر في معانيه وتذوُّق حلاوته والوقوف على أحكامه ومنه قوله تعالى﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[محمّد: ٢٤]. وفيه الدّلالة على وجوب التّدبّر في القرآن ليتفهّموا معناه ويعرفوا أحكامه ويعلموا أوامره ونواهيه، والتّدبُّر قريب من التّفكُّر إلاّ أنّ التّفكُّر تصرّف بالنّظر في الدّليل، والتّدبُّر تصرّف بالنّظر في العواقب [(٢)].

(قال) الحسن [تدبُّر آيات الله اتّباعها، أمّا الذى لا يتدبّر القرآن فقد أقفل الله على قلبه فلا يفهم أحكامه ولا يعقل آياته، وأصل القَفْل اليُبْسُ والصّلابة، فالأقفال في الآية إشارة إلى ارتتاج القلب وخُلُوّه من الإيمان لأنّ الله تعالى طَبع على قلوبهم وقال في الآية ﴿عَلَىٰ قُلُوبٍ﴾. والمراد أم على قلوب هؤلاء وقلوب من كانوا بهذه الصّفة أقفالها [(١)].

ويرتبط التّدبُّر لآيات الله تعالى بالمعاني التى لا تدركها إلاّ العقول الزّاكية كما في

---

(١) انظر حجّة الله البالغة [ج ٢ ص ٩١].

(٢) انظر التّعريفات [ص ٤٧] والتّوقيف [ص ١٦٧].

(٣) انظر تفسير القرطبي [ج ١٦ ص ٢٤٧].

قوله جلّ شأنه ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[ص: ٢٩]. واللُّب هو العقل الخالص من شوائب الجهل والشرك، وسمى بذلك لكونه خالص ما فى الإنسان من معانيه، لأنّ لُبّ كلّ شىء خالصه وخياره [(١)].

وقوله تعالى ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[الزمر: ٢٣]. يؤكّد أنّ للين القلوب وزوال قساوتها وطمأنينتها وسكونها أثرا مباشرا فى تدبّر آيات الله تعالى وإعظام كتابه الكريم، وقد قبّح سبحانه من لا يخشع قلبه لسماع كلامه وتدبّره فقال فى التنزيل ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[الحديد: ١٦]. وفيها قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلاّ أربع سنين(٢)». وفى ذلك دعوة إلى خشوع القلب لذكره تعالى وما نزل من كتابه الكريم.

أمّا «الفهم» كما سبق تعريفه فهو فطنة يفهم بها صاحبها من الكلام ما يُقترن به من قول أو فعل. [أو] هو حسن تصوّر المعنى وجودة استعداد الذهن للاستنباط، و[المفهوم] مجموع الصفات والخصائص الموضّحة لمعنى كلّى، و[أفهمه] الأمر: أبانه له ووضّحه.

(الثانى) تدبُّر آيات الخالق فى الآفاق

وهو الأمر الذى يتحقّق بتدبّر الآيات المعجزة التى يُبدعها الخالق جلّ وعلا فى الأنفس والآفاق لوعده القائم فى قوله ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[فصّلت: ٥٣]. وآيات الله تعالى هى علامات وحدانيته، ودلائل قدرته، وعظيم معجزاته الباهرات فى أقطار الأرض والسموات، من الشمس، والقمر، والنجوم، والليل، والنهار، والرياح، والأمطار، والصواعق، والرعد، والبرق، والنبات، والأشجار، والبحار، وغيرها من بدائع المخلوقات كما فى قوله تعالى:

* ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾[فصّلت: ٣٧].
* ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾[الشورى: ٣٢].
* ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾[الروم: ٢٢].
* ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾[الروم: ٢٣].

وقوله جلّ شأنه ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾. وعد منه لعباده أن يُطلعهم على شىءمن خفايا هذا الكون، ومن خفايا أنفسهم على السواء، وعدهم سبحانه أن يُريهم آياته فى الآفاق وفى أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّ هذا الدّين هو الحقّ، وأنّ منهجه الذى جاء به رسول الله

---

(١) انظر الموسوعة الفقهيّة [٣٠ / ٢٦٤].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٣٠٢٧].

ﷺ هو الصّدق، ولقد صَدَقَهُم الله وعده وما يزال وعد الله قائما ليريهم الآيات فى الآفاق وفى أنفسهم ما بقيت فيها الحياة [(١)].

كما يشير قوله ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾. إلى لطيف الحكمة وجلال الصّنعة فى خلق الله لهذا الإنسان وإبداعه فيه من القلبَ الذى هو محلّ الفكر والتّدبُّر والفهم والتّعقُّل، إلى الفم واليدين، واللّسان والشّفتين، والأنف والقدمين، إلى غير ذلك من نعمة البصر بالعينين والسّمع بالأُذنين، وما به قام الإعجاز من الحقّ للخلق فى قوله جلّ شأنه:

* ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾[الرّوم: ٢٠].
* ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الذّاريات: ٢١].
* ﴿بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾[القيامة: ٤].
* ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾[البلد: ٨ - ٩].

(الثّالث) العمل بموجب العلم

إنّ اليقين الحقّ الذى يقوم على كمالات الإيمان بالله تعالى ويُبرهن على حقيقة الانقياد والاستسلام له سبحانه يقتضى من المرء تحصيل نوعين من العلم:

(أولهما) العلم بالله تعالى وبما يتصّف به من نعوت الجلال والكمال وما دلّت عليه أسماؤه الحسنى وآياته الكبرى، فإذا رسخ هذا العلم فى القلب أوجب خشية الله تعالى لا محالة، فيعلم أنّ الله تعالى يُثيب على طاعته ويُعاقب على معصيته كما شهد به القرآن والعيان، وهذا معنى قول أبي حيّان التّيمي [الْعُلَمَاءُ ثَلَاثَةٌ: عَالِمٌ بالله لَيسَ عَالمًا بأَمرِ الله، وَعَالِمٌ بِأَمْرِ الله لَيسَ عَالمًا بالله، وَعَالِمٌ بالله وبأمرِ الله، فَالْعَالِمُ بالله الّذى يَخْشَى اللهَ، وَالْعَالِمُ بِأَمْرِ الله الّذى يَعْرِفُ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ(٢)]. وقال رجل للشّعبى: أيها العالم! فقال [إِنَّمَا الْعَالِمُ مَنْ يَخْشَى اللهَ تَعَالَى]. وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال [كَفَى بِخَشْيَةِ الله عِلْمًا، وَكَفَى بَالاغْتِرَارِ بالله جَهْلاً].

(والثّانى) العلم بالأحكام الشّرعيّة الدّاعية إلى مصالح العباد والمانعة عن أنواع العَبَث والفساد والتى أشار إليها رسول الله ﷺ بقوله «مَنْ يرد اللهُ به خَيرًا يُفَقِّهْهُ فى الدِّين(٣)». وقال «فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فى دِينِ الله وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنى اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ(٤)». وما رواه البخارى معلّقا عن مالك بن الحويرث من قوله ﷺ «ارْجِعُوا إِلَى

---

(١) انظر فى ظلال القرآن [ج ٢٤ ص ٣١٣٠].

(٢) انظر فتاوى ابن تيمية [ج ٣ ص ٣٣٣].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٧١] ومسلم [١٠٣٧].

(٤) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٧٩] ومسلم [٢٢٨٢].

أَهْلِيكُمْ فَعَلِّمُوهُمْ(١)». وفيه تحريض النبى ﷺ وَفْدَ عبد القيس على أن يحفظوا الإيمان والعلم ويُخبروا من وراءهم.

ومن صفات حامل هذا العلم ما جاء عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قال [إِنَّ الْفَقِيهَ حَقَّ الْفَقِيهِ مَنْ لَمْ يُقَنِّط النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهُمْ فِى مَعَاصِى اللهِ، وَلَمْ يُؤَمِّنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَلَمْ يَدَعِ الْقُرْآنَ رَغْبَةً عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ، وَإِنَّهُ لاَ خَيْرَ فِى عِبَادَةٍ لاَ عِلْمَ فِيهَا وَلاَ عِلْمَ لاَ فِقْهَ فِيهِ وَلاَ قِرَاءَةَ لاَ تَدَبُّرَ فِيهَا].

و«الْيَقِينُ» عند أهل العلم والصّلاح يقوم على ثلاثة أوجه: يقين خبر، ويقين دلالة، ويقين مشاهدة [(٢)]:

(١) فيقين الخبر يعنى سكون القلب إلى خبر المخبر ووثوقه به.

(٢) ويقين الدّلالة ما هو فوقه وهو أن يقيم له الأدلّة الدّالّة على ما أخبر به وهذا كعامّة أخبار الإيمان والتّوحيد والقرآن، فإنّه سبحانه وتعالى يُقيم لعباده الأدلّة والبراهين على صدق أخباره فيحصل لهم اليقين من الوجهين، من جهة الخبر ومن جهة الدّليل فيرتفعون بذلك إلى الدّرجة الثّالثة وهى:

(٣) يقين المكاشفة بحيث يصير المخبر به لقلوبهم كالمرئى لعيونهم، فنسبة الإيمان بالغيب حينئذ إلى القلب كنسبة المرئي إلى العين، وهذا من أعلى أنواع المكاشفة وفيه قال بعضهم [رَأَيْتُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ حَقِيقَةً. فَقِيلَ لَهُ: وَكَيْفَ؟ قَالَ رَأَيْتُهُمَا بِعَيْنَىْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَرُؤْيَتِى لَهُمَا بِعَيْنَيْهِ آثَرُ عِنْدِى مِنْ رُؤْيَتِى لَهُمَا بِعَيْنَىَّ، فَإِنَّ بَصَرِى قَدْ يَطْغَى وَيَزِيغُ بِخِلاَفِ بَصَرِهِ ﷺ].

واليقين من الإيمان بمنزلة الرّوح من الجسد وبه تفاضل العارفون، وفيه تنافس المتنافسون، وإليه شمّر العاملون تحقيقا لقول الله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السّجدة: ٢٤]. واليقين قرين التّوكّل، ولهذا فُسِّرَ التوكّل بقوّة اليقين، والله عزّ وجلّ جعل الرّوح والفرح في الرّضى واليقين وهو معنى قول النّبى ﷺ فى الحديث «وَإِنَّ اللهَ بِعَدْلِهِ وَقِسْطِهِ جَعَلَ الرَّوْحَ وَالْفَرَجَ فِى الرِّضَى وَالْيَقِينِ، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ فِى السَّخَطِ(٣)».

والنّاس على قدر قُربهم من التّقوى يكون إدراكهم من اليقين، وعلى قدر مُفارقتهم

---

(١) رواه البخارى مُعلّقا قبل رقم [٨٧].

(٢) انظر مدارج السّالكين [ج ٢ ص ٤٠٠].

(٣) رواه الطّبرانى فى الكبير [انظر التّرغيب ج ٢ ص ٥٤٠ رقم ٢٤].

للنّفس يكون وصولهم لليقين، فاليقين لا يساكن قلبا فيه سكون إلى غير الله تعالى، ومن أعلامه النّظر إلى الله فى كلّ شىء، والرّجوع إليه فى كلّ أمر، والاستعانة به فى كلّ حال، فإذا استكمل العبد حقائق اليقين صار البلاء عنده نعمة، والمحنة عنده منحة، والبلايا فى يقينه عطايا [(١)].

واليقين عند أهل العلم على ثلاث درجات:

(الأولى) علم اليقين

وهو الوقوف على ما قام بالحقّ سبحانه من أسمائه وصفاته ونعوت جلاله وكماله وجماله ويشمل:

(١) قبول ما ظهر من أوامر الحقّ تعالى ونواهيه وشرعه ودينه الذى جاء به رسوله ﷺ فنتلقّاه بالقبول والانقياد والإذعان والتّسليم للرُّبوبيّة، والدُّخول من خلالها تحت رقّ العبوديّة الحقّة لله تعالى وحده لا شريك له.

(٢) الإيمان بالغيب الذى أخبر به سبحانه على لسان رسوله ﷺ من أمور المعاد وتفاصيله، والجنّة والنّار وما قبل ذلك من الصّراط والميزان والحساب، وما قبل ذلك من تشقُّق السّماء وانفطارها، وانتثار الكواكب ونسف الجبال وطى السّموات، وما قبل ذلك من أمور البرزخ ونعيمه وعقابه، فقبول هذا كلّه - إيمانا وتصديقا - هو اليقين الذى لا يخالج القلب فيه شبهة ولا شكّ ولا تناسى ولا غفلة.

(٣) الوقوف على ما قام بالحقّ سبحانه من العلم بأسمائه وصفاته وأفعاله من خلال تحصيل أمرين [(٢)]:

(الأوّل) وهو علم التّوحيد الذى أساسه علم الأمر والنّهى وعلم الأسماء والصّفات وعلم التّوحيد والمعاد واليوم الآخر، وهذه الثّلاثة أشرف علوم الخلائق على الإطلاق.

(الثّانى) التّوحيد القصدى الإرادى الذى هو إخلاص العمل لله تعالى وعبادته وحده وتخليص القلب من كلّ شَوْب يُكدِّرُ صفاءه، فلا يطلب المرء لعمله شاهدا غير الله تعالى وقد قال ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزُّمر: ٢].

ويفصّل ذلك ما جاء في قوله ﷺ عند أحمد عن أبى ذرّ رضي الله عنه « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَخْلَصَ قَلْبَهُ للإِيمَانِ، وَجَعَلَ قَلْبَهُ سَلِيمًا وَلِسَانَهُ صَادِقًا، وَنَفْسَهُ مُطْمَئِنَّةً، وَخَلِيقَتَهُ مُسْتَقِيمَةً، وَجَعَلَ

(١) انظر مدارج السّالكين [ج ٢ ص ٤٠٢ - بتصرّف].

(٢) انظر مدارج السّالكين [ج ٢ ص ٤٠٣].

أُذُنُهُ وَاعِيَةً وَعَيْنَهُ نَاظِرَةً[1]». وقوله ﷺ عند النّسائى عن أبى أمامة «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلاَّ مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ[2]». فإذا ما خلص القلب من شوب الرّياء سُمّى ذلك [إخلاصا] وهو الأمر الذى لا يعلمه ملَك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ولا هوى فميله [[3]].

وفى معنى قول الله تعالى ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾. قال القرطبى [أى لو تعلمون اليوم فى الدّنيا علم اليقين بما أنتم عليه مقبلون ممّا وصفت: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾. بعيون قلوبكم، فإنّ علم اليقين يُريك الجحيم بعين فؤادك وهو أن تتصوّر لك تارّات القيامة وقطع مسافاتها: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾. أى عند المعاينة بعين الرّأس فتراها يقينا لا تغيب عن عينيك[4]].

(الثّانية) عيـن اليقيـن

هو الإدراك الذى يعنى أنّ صاحبه قد استغنى به عن طلب الدّليل بعدما رسخ الإيمان فى القلب يقينا فحصل له العلم بالمدلول، وإذا كان اليقين مشاهدا له مدركا لحقيقته فلا حاجة به إلى الاستدلال، فيصبح الفرق بينه وبين علم اليقين كالفرق بين الخبر الصّادق والعيان، أمّا حقّ اليقين فهو فوق هذا. وقد مُثِّلَت المراتب الثّلاثة بمن أُخْبِرَ أنّ عنده عسلا والمرء لا يشكّ فى صدقه، ثمّ أراه إيّاه فازداد يقينا ثمّ ذاق منه، فلمّا جاء الخبر ولم يشكّ فى صدقه كان ذلك [علم] اليقين، ولمّا أراه إيّاه كان ذلك [عين] اليقين، ولمّا ذاق منه كان ذلك [حقّ] اليقين.

وكذلك فَإِنَّ عِلْمَنَا الأَنَ بالجنّة والنّار هو [عِلْمُ الْيَقِينِ]، فإذا أُزْلِفَت الجَنَّةُ فى الموقف للمتّقينَ وشاهدها الخلائق وبُرِّزَت الجحيمُ للغاوينَ وعاينها الخلائق فذلك [عَيْنُ الْيَقِينِ]. فإذا أُدْخِلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ وأَهْلُ النَّارِ النَّارَ فذلك حينئذ [حَقُّ الْيَقِينِ] الذى لا مِرْيَةَ فيه ولا مَحِيدَ لأحد عنه وهذا معنى الاستغناء عن الخبر بالعيان.

(الثّالثة) حقّ اليقيـن

وهذه الدّرجة لا تُنَال فى هذا العَالَم إلاّ للرُّسل الكرام، فإنَّ نَبِيَّنَا ﷺ رأى بعينه الجنّة والنّار، وموسى عليه السّلام سمع كلام الله منه إليه بلا واسطة وكلّمه تكليما، وتجلّى

(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢١٢٠٧] والبيهقى فى الشُّعب [١٠٨] وحسّنه الهيثمى [١٠ / ٢٣٢].

(٢) أخرجه النّسائى بإسناد حسن [٣١٤٠] وأورده الألبانى فى الصّحيحة [١ / ٧٢] برقم ٥٢ وحسّنه.

(٣) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ١ ص ١٠٧].

(٤) انظر تفسير القرطبى [ج ٢٠ ص ١٧٤].

للجبل وموسى ينظر فجعله دكّا هشيما، أمّا نحن فى هذه الدّار فيحصل لنا حقّ اليقين من تَذوُّق ما أخْبَرَ به رَسُولُ الله ﷺ من حقائق الإيمان المتعلّقة بالقلوب وأعمالها، فإنّ القلب إذا باشرها وتذوّقها صارت فى حقّه حقّ يقين.

أمّا فى أمور الآخرة والمعاد ورؤية الله تعالى جَهْرَةً عيانًا وسماع كلامه حقيقة بلا واسطة فحظّ المؤمن منه فى هذه الدّار الإيمان وعلم اليقين، أمّا حقّ اليقين فيتأخّر إلى وقت العرض يوم اللّقاء إذا قدّر الله تعالى وشاء.

وتأمّل حال الصّحابى الجليل [عُمَيْرُ بْنُ الحُمَام(١)] يوم أُحُد، عندما أخذ تَمرَاته وهو يأكلها على حاجة وجوع وفاقة إليها، فلمّا عاين سوق الشّهادة قد قامت ألقى قُوتَهُ من يده وقال «لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمرَاتِى هَذِه! إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، قَال: فرَمَى مَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمرِ ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ(٢)». وكذَلَك أحوال الصّحابة رضى الله عنهم كانت مطابقة لما فى قوله تعالى﴿ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[السّجدة: ٢٤].

أمّا معنى قول الله تعالى﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾[الواقعة: ٩٥]. أى هذا الذى قصصناه عليك هو محض اليقين وخالصه، وقيل: أصل اليقين أن يكون نعتًا للحقّ فأضيف المنعوت إلى النّعت على الاتساع والمجاز كقوله تعالى﴿وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾[يوسف: ١٠٩]. وفيه أضيف الشّىء إلى نفسه لاختلاف اللّفظ. (قال) قتادة [فى هذه الآية إنّ الله تعالى ليس بتارك أحدا من النّاس حتّى يَقِفَهُ على اليقين من هذا القرآن، فأمّا المؤمن فأيقن فى الدّنيا فنفعه ذلك يوم القيامة، وأمّا الكافر فأيقن يوم القيامة حين لا ينفعه اليقين [(٣)].

وينتظم للمسلم من اليقين أمران:

(أوّلهما) علم اليقين.

(والثّانى) عمل اليقين.

فإنّ العبد قد يعلم علما جازما بأمر معيّن ومع هذا يكون فى قلبه حركة واختلاج من العمل الذى يقتضيه ذلك العلم، كعلم العبد أنّ الله ربّ كلّ شىء ومليكه ولا خالق غيره وأنّه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فهذا قد تصحبه الطّمأنينة إلى الله والتّوكّل عليه وقد لا يصحبه العمل بذلك لغفلة القلب عن هذا العلم.

---

(١) تصرّح رواية [جابر] عند البخارى أنّ ذلك كان يوم أُحُد، وتذكر رواية مسلم عن أنس أنّ الذى قال ذلك هو [عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَام] رضى الله عنه وهو مّمن استشهدوا فى [غزوة بدر].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٤٠٤٦] ومسلم [١٩٠١].

(٣) انظر تفسير القرطبى [ج ١٧ ص ٢٣٤].

ولذلك يأتي قوله ﷺ في الحديث المشهور الذى رواه أبو بكر رضي الله عنه «سَلُوا اللَّهَ الْيَقِينَ وَالْعَافِيَةَ، فَمَا أُعْطِىَ أَحَدٌ بَعْدَ الْيَقِينِ شَيْئًا خَيْرًا من الْعَافِيَة فَسَلُوهُمَا اللَّهَ[(١)]». فأهل اليقين إذا ابتلوا ثبتوا على الحقّ ومنه قوله ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾[الفرقان: ٣٢]. خلافا لغيرهم فى مواجهة الشّدائد، فإنّ الابتلاء قد يُذهب إيمانه أو يُنقصه وقد قال تعالى﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾[السّجدة: ٢٤].

(العامل الثّانى)

عدم الغلوّ فى العبادة والتّوسُّط فى أمور التّقرُّب والطّاعة

ويشير العامل الثّانى إلى خطورة الغلوّ والتّنطُّع فى الدّين وهى من الأمور التى ذمَّها رسول الله ﷺ، وأخبر بهلَكَة الذين ساروا على دربها واستسلموا لغوائل وسواسها وجاء القرآن بالتّحذير منها كما فى قوله تعالى﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾[البقرة: ٢٢٩]. وقوله تعالى﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[البقرة: ١٩٠].

وهذا يتطلّب الإشارة إلى ثلاث مسائل:

(الأولى) الغلُوُّ فى الدّين

وهو الأمر الذى نهى عنه رسول الله ﷺ وأخبر أنّ فيه الهلكة والخسار لقوله «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ الْغُلُوُّ فِى الدِّينِ[(٢)]». والغلوُّ تجاوز الحدّ من غلا يَغْلو، فهو غَالٍ و[غَالَى] فى الأمر: بَالَغ فيه [(٣)].

ومعنى «غَلاَ فى الدِّين» تَصلَّبَ وتَشَدَّدَ حتى جاوز الحدّ فأفرط كما في قوله جلّ شأنه ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾[النّساء: ١٧١]. أى لا تُبالغوا فيه فتجعلوا المسيح إلها وابنا لله بسبب شدّة حبّكم إيّاه، فنهاهم عن الإفراط تارة والتّفريط أُخرى.

ويأتى نهى النّبى ﷺ عن التّشدُّد والتّنطُّع بقوله «ألاَ هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ[(٤)]». «وكَرَّرَهَا ثَلاَثًا». وهم المتعمِّقون المتشدِّدون المجاوزون الحدود فى غير موضع التّشديد من الأقوال والأفعال، ثمّ يُبيّن عاقبة التّشدُّد ونتائجه فى قوله ﷺ «لاَ تُشَدِّدُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَيُشَدِّدَ

(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٥].

(٢) حديث صحيح أخرجه النّسائى [٣٠٥٧] وأحمد [١٨٥١].

(٣) انظر القاموس القويم [٢ / ٦٠].

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٧٠] وأبو داود [٤٦٠٨].

اللهُ عَلَيكُمْ ، فَإِنَّ قَوْمًا شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ ، فَتِلْكَ بَقَايَاهُمْ فِى الصَّوَامِعِ وَالدِّيَارِ ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾[الحديد:٢٧](١)». وفيه ينهى النبى ﷺ عن التّشدُّد فى الدّين وذلك بالزّيادة على المشروع، وأخبر أنّ تشديد العبد على نفسه هو سبب لتشديد الله تعالى عليه ويكون ذلك بواحد من أمرين :

(١) إمّا بالشَّرْعِ كما يُشَدِّدُ على نفسه بالنَّذْرِ الثّقيل فيلزمه الوفاء به .

(٢) وإمّا بالقَدْر كفعل أهل الوسواس فإنّهم شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم القَدْرَ حتّى استحكم فيهم ذلك وصار صفة لازمة لهم .

ويأتى النّهى عن الغلوّ فى قوله ﷺ «اقْرَأُوا الْقُرْآنَ وَلاَ تَغْلُوا فِيهِ وَلاَ تَجْفُوا عَنْهُ وَلاَ تَأْكُلُوا بِهِ وَلاَ تَسْتَكْثِرُوا بِهِ(٢)». والغالى فيه هو مَنْ تشدّد فى الأمر وجاوز الحدّ. ويُقصد به البحث عن بواطن الأشياء والكشف عن عللها وغوامض مُتعبّداتها، وحامل العلم غير الغالى فيه ولا الجافى عنه الذى من أخلاقه وآدابه القصد فى الأمور والاعتدال فيها، كما يأتى دليل ذلك من قوله ﷺ من حديث أبى موسى رضي الله عنه «إِنَّ مِنْ إِجْلاَلِ اللهِ إِكْرَامَ ذِى الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِى فِيهِ وَلاَ الْجَافِى عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِى السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ(٣)».

و[حاملُ الْقُرْآنِ] قارئه وسُمّى [حاملاً] لما تحمّل فى حفظه من الدّرس والمشقّة فى تفهّمه والعمل بأحكامه وتدبُّره، فهو حامل لمشاقّ كثيرة تزيد على الأعمال الثّقيلة. و[الْغَالِى فيه] : هو المتجاوز الحدّ فى التّشدُّد والعمل به وتتبُّع ما خفى منه واشتبه عليه من معانيه، والكشف عن دقائق علله التى لا يصل فيها عقله بما يبتدعه فى الدّين ليضلّ ويضلّ غيره، ويجاوز حدود قراءته ومخارج حروفه ومدوده .

أمّا [الْجَافِى عَنْهُ] فهو التّارك له البعيد عن تلاوته والعمل بما فيه، فإنّ هذا من الجفاء وهو البعد عن الشّىء. (قال) فى النّهاية :[وإنّما قال ذلك لأنّ من أخلاقه التى أُمر بها القصد فى الأمر]، و[الغلوُّ] التّشديد فى الدّين ومجاوزة الحدّ، [والتّجافى] البعد عنه .

أمّا هؤلاء الذين يُغَالُونَ فى العبادة ويتجاوزون الحدّ فيها فإنّهم يجورون جَوْرًا فاحشا عن الصّراط، فالميزان الذى تُعرف به الاستقامة على الطّريق والجوْر عنه هو ما كان رسول الله ﷺ وأصحابه عليه، والجائر عنه إمّا مُفرِّط ظالم، أو مُجتهد مُتأوّل، أو مُقلّد

(١) أورده أبو داود بإسناد ضعيف [٤٩٠٤].

(٢) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١٥٤٦٨] والطّحاوى فى معانى الآثار [٣ / ١٨].

(٣) حديث حسن أخرجه أبو داود [٤٨٤٣] والمشكاة [٤٩٧٢].

جاهل، وهو الأمر الذى حذّر منه رسول الله ﷺ لمّا يسّر فى بعض الأمور وخفّف فيها فبلغه أنّ أقواما تنزّهوا عنها فقال «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْغَبُونَ عَمَّا رُخِّصَ لِي فِيهِ! فَوَاللهِ إِنِّي أَعْلَمُهُمْ بِاللهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً[١]». وفى رواية «وَاللهِ إِنِّي لأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ للهِ وَأَعْلَمَكُمْ بِمَا أَتَّبِعُ[٢]». وعند مسلم «مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا؟ لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي[٣]».

(الثّانية) خطورة التشدُّد فى أمور الدّين

وهو التّشديد والاستقصاء في الأمر حتّى يتجاوز الحدّ فيه وهو ما نفاه الله تعالى عن نبيه الأكرم ﷺ بقوله تعالى ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾[ص:٨٦]. وهم الذين يتشدّدون فى الأمور ويتجاوزون الحدود المشروعة فى القول أو الفعل، ومن ذلك أولئك الذين نهاهم النّبى ﷺ عن الوصال فى الصّوم لئلاّ يتكلّفوا ما يشقّ عليهم أو يتعرّضوا للتّقصير في بعض وظائف الدّين من إتمام الصّلاة بخشوعها وأركانها وآدابها فقال «مَا بَالُ رِجَالٍ يُوَاصِلُونَ! إِنَّكُمْ لَسْتُمْ مِثْلِي، أَمَا وَاللهِ لَوْ تَمَادَّ لِي الشَّهْرُ لَوَاصَلْتُ وِصَالاً يَدَعُ الْمُتَعَمِّقُونَ تَعَمُّقَهُمْ[٤]». وفى رواية «لَوْ تَأَخَّرَ الْهِلاَلُ لَزِدْتُكُمْ، كَالْمُنَكِّلِ لَهُمْ حِينَ أَبَوْا أَنْ يَنْتَهُوا[٥]».

فالفقه كلّ الفقه الاقتصاد فى الدّين والاعتصام بالسُّنَّة، وهو ما أشار إليه أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه بقوله «عَلَيْكُمْ بِالسَّبِيلِ وَالسُّنَّةِ، فَإِنَّهُ مَا مِنْ عَبْدٍ عَلَى السَّبِيلِ وَالسُّنَّةِ ذَكَرَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فَاقْشَعَرَّ جِلْدُهُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ تَعَالَى إِلاَّ تَحَاتَّتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا يَتَحَاتُّ عَنِ الشَّجَرَةِ الْيَابِسَةِ وَرَقُهَا، وَإِنَّ اقْتِصَادًا فِي سَبِيلٍ وَسُنَّةٍ خَيْرٌ مِنَ اجْتِهَادٍ فِي خِلاَفِ سَبِيلٍ وَسُنَّةٍ، فَاحْرِصُوا إِذَا كَانَتْ أَعْمَالُكُمْ اقْتِصَادًا أَنْ تَكُونَ عَلَى مَنْهَجِ الأَنْبِيَاءِ وَسُنَنِهِمْ». وقوله «تَحَاتَّتْ» أى تساقطت عنه [[٦]].

كذلك جاء المعنى ذاته عن ابن مسعود لمّا قال «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ، فَإِنَّ الْحَيَّ لاَ تُؤْمَنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ كَانُوا أَفْضَلَ هَذِهِ الأُمَّةِ، أَبَرَّهَا قُلُوبًا وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا، اخْتَارَهُمُ اللهُ تَعَالَى لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٣٥٦] وافقه البخارى [٦١٠١].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [١١١٠] وأبو داود [٢٣٨٩] ومالك فى الموطأ [٦٢٥].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٤٠١].

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [١١٠٤] وافقه البخارى [٧٢٤١].

(٥) حديث صحيح أخرجه مسلم [١١٠٣] وافقه البخارى [١٩٦٥].

(٦) انظر إغاثة اللّهفان [ج ١ ص ١٢٧].

وَلإِقامَة دينه فاعْرِفُوا لَهُم فَضْلَهُمْ، وَاتَّبِعُوهُمْ عَلَى أَثَرِهِمْ وَسِيرَتِهِمْ فَإِنَّهُم كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ[1]». وفى قول النبى ﷺ من رواية أبى أمامة عند أحمد «وَلَكِنِّى بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ[2]». جمع بين كونها حنيفية وكونها سمحة:

(١) فهى [حَنِيفِيَّةٌ] فى التّوحيد، والحنيف المائل عن كلّ دين باطل إلى دين الحقّ وهو الإسلام العظيم.

(٢) وهى [سَمْحَةٌ] فى العمل أى قائمة على اليسر والسّهولة.

وضدّ الأمرين الشّرك وتحريم الحلال، وهما اللّذان ذكرهما النّبى ﷺ فيما يروى عن ربّه تعالى قال «إِنِّى خَلَقْتُ عِبَادِى حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِى مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا[3]».

وكان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يقول «سُنَّتْ لَكُمُ السُّنَنُ وَفُرِضَتْ لَكُمُ الْفَرَائِضُ وَتُرِكْتُمْ عَلَى الْوَاضِحَةِ إِلاَّ أَنْ تُمِيلُوا بِالنَّاسِ يَمِينًا وَشِمَالاً[4]». وفى قوله «يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ». وفيه يُخبر رسولُ الله ﷺ أنّ فساد الدّين يكون من ثلاثة:

(١) الغالين الذين يُحرّفون ما جاء به.

(٢) والمبطلين الذين ينتحلون باطلهم غير ما كان عليه.

(٣) والجاهلين الذين يتأوّلون على غير تأويله.

وفساد الإسلام من هؤلاء الطّوائف الثّلاثة، فلولا أنّ الله تعالى يقيم لدينه من ينفى عنه ذلك لجرى عليه ما جرى على أديان الأنبياء قبله من هؤلاء [[5]].

(الثّالثة) التّوسُّط والاعتدال فى العبادة

تشير كلّ الدّلائل فى الكتاب والسُّنَّة إلى ضرورة التّوسُّط فى أمور التّقرُّب والطّاعة والعبادة، فلا تُكلَّف نفس إلاّ ما وسُعت بدليل قول الله تعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة:٢٨٦]. والتّكليف هو الأمر بما يشقّ عليه، وتكلّفت الأمر: تجشّمته، والْوُسْعُ: الطّاقَةُ والْجِدَةُ.

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية [١ / ٣٠٥].

(٢) أخرجه أحمد بإسناد حسن [٢٢١٩٢] والطّبرانى فى الكبير [٧٨٦٨].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٨٦٥].

(٤) أخرجه مالك فى الموطأ [١٥١٣].

(٥) انظر إغاثة اللّهفان [ص ١٦٠].

ولقد نصّ الله فى الآية على أنه لم يُكلّف العباد من وقت نزول هذه الآية عبادة من أعمال القلب أو الجوارح إلاّ وهى فى وُسْعِ المكلّف وفى مقتضى إدراكه وبنْيَته. (قال) القرطبى [فالله سبحانه بلطفه وإنعامه علينا لم يكلّفنا بالمشقّات المثقلة ولاَ بالأمور المؤلمة، كما كلّف من كانوا قبلنا بقتل أنفسهم، وقرْض مواضع البول من ثيابهم، بل سهّل ورَفَق ووضع عنّا الإصر والأغلال التى وضعها على مَن كان قبلنا(١)].

ويفسّر ذلك قوله ﷺ «إنَّ هَذا الدِّينَ مَتينٌ فَأَوْغِلْ فيه برِفْقٍ، وَلاَ تُبغِّضْ إِلَى نَفْسكَ عَبادَةَ اللهِ تَبارَكَ وَتَعالَى، فإنَّ المُنبتَّ لاَ أَرضًا قَطعَ ولاَ ظَهراً أَبقَى(٢)». والإيغال فى قوله «فأَوْغِلْ فيه برِفْقٍ» الإمعان فيه، يقال منه: أَوْغَلْتُ أُوغِلُ إيغالاً، ومنه [أَوْغَلَ] فى الأمر: بَالَغَ وتَعَمَّقَ وأَبْعَدَ.

أمّا قوله «فإنَّ الْمُنْبَتَّ لاَ أَرْضًا قَطَعَ ولاَ ظَهْرًا أَبْقَى»: فإنّه يعنى أنّ الذى يُسْرِعُ فى السَّيْرِ ويُتْعبُ نفسه بلا فتور حتّى تعطب دابّته فإنّه يبقى مُنْبَتًّا منقطعا به لم يقض سفره وقد أعطب ظهره، فَشَبَّهَهُ بالمجتهد فى العبادة حتّى يصيبه الإعياء [(٣)]. وقيل هو أن يَلِحَّ فى شدّة السّير حتّى تقوم عليه رَاحلَتُهُ أو تعْطبَ فيبقى منقطعا به، وهذا مَثَلٌ ضربه للمجتهد فى العبادة حتّى يصيبه الإعياء والتّعب [(٤)].

ولمّا نزل قوله تعالى﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[آل عمران: ١٠٢]. اشتدّ الأمر على القوم فقاموا اللّيل حتّى ورَمتْ عراقيبهم وتقرّحت جباههم فأنزل الله التّخفيف عنهم بقوله ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟﴾ [التغابن:١٦]. أى فيما يُتطوَّع به من نافلة أو صدقة. (قال) فى التّعريفات [الاستطاعة والقدرة والقوة والوُسْعُ والطّاقة متقاربة المعنى فى اللّغة، أمّا فى عرف المتكلّمين: فهى القدرة التّامّة التى يجب عندها صدور الفعل فلا تكون إلاّ مقارنة له. [أو] هى التّهيُّؤ لتنفيذ الفعل بإرادة المختار من غير عائق(٥)].

وقد جعل الله تعالى هذه الأمّة وَسَطًا كما فى قوله﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[البقرة:١٤٣]. وهى الخيار العدل لتوسُّطها بين الطّرفين المذمومين، والعدل هى الوسط بين طرفى الجور والتّفريط، والآفات إنّما تتطرّق إلى

(١) انظر تفسير القرطبى [ج ٣ ص ٤٣٠].

(٢) أخرجه أحمد بإسناد حسن [١٢٩٨٦] وابن المبارك فى الزّهد [١١٧٨] والبيهقى [١١٤٧].

(٣) انظر غريب الحديث [ج ٣ ص ٣٨٤].

(٤) انظر غريب الحديث [ج ٥ ص ٤٣٠].

(٥) انظر التّعريفات [ص ١٣] والكُلّيّات [ص ١٠٨].

الأطراف والأوساط على الدّوام محميّة بأطرافها فخيار الأمور أوساطها.

والوَسَط هو ما له طرفان متساويا القَدْر، فتارّة يقال فيما له طَرَفٌ محمود وطَرَفٌ مذموم كالخير والشّر، وتارّة يقال فيما له طرفان مذمومان كالجود بين البخل والسّرف، فيستعمل استعمال القصد الموصوف عن الإفراط والتّفريط فيمدح به نحو السّواء والعدل، (قال) الحرّالى [الوسط العدل الذى نسبة الجوانب إليه كلّها على السّواء، فهو خيار الشّيء، ومتى زاغ عن الوَسَط حصل الجوْر الموقع فى الضّلال عن القصد، كما يقال «الوسط» فى الكميّة المتّصلة كالجسم الواحد وفى الكميّة المنفصلة كشيء يفصل بين شيئين(١)].

واختلف العلماء فى تفسير الوسط فى قوله تعالى﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾. على عدّة أقوال:

(القول الأول) أنّ الوسط هو العدل والدّليل عليه الآية والخبر والنّقل والمعنى:

* أمّا الآية فقوله تعالى﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾[القلم:٢٨]. أىْ أَعْدَلُهُمْ.

* وأمّا الخبر فما رُوى عن أبى سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النّبى ﷺ «فى قوله تعالى﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾. قال عَدْلاً». وعند البخارى «وَالْوَسَطُ الْعَدْلُ(٢)».

* أمّا النقل فقال الجوهرى فى الصّحاح عن تفسير الآية: أى عَدْلاً، وهو الذى قاله الأخفش والخليل.

* وأمّا المعنى فمن وجوه:

(١) أنّ الوَسَط حقيقة فى البعد عن الطّرفين، ولاشكّ أنّ طرفى الإفراط والتّفريط رديئان، فالمتوسّط فى الأخلاق يكون بعيدا عن الطّرفين فكان معتدلا فاضلا [(٣)].

(٢) إنّما سُمّى العدل وسطا لأنّه لا يميل إلى أحد الخصمين، والعدل هو المعتدل الذى لا يميل إلى أحد الطّرفين.

(٣) أنّ أعدل بقاع الشّيء وسطه لأنّ حكمه مع سائر أطرافه على سواء وعلى اعتدال، والأطراف يتسارع إليها الخلل والفساد، والأوساط محميّة محوطة، فلمّا صحّ ذلك فى الوسط صار كأنّه عبارة عن المعتدل الذى لا يميل إلى جهة دون جهة.

(القول الثّانى) أنّ الوسط فى كلّ شيء خياره.(قال) الطّبرى [الوسط فى كلام

---

(١) انظر المعجم الوسيط [٢/١٠٧٣] والتّعريفات [ص ٢٥٢] والمفردات [ص ٥٢٢].

(٢) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٣٣٩] والتّرمذى [٢٩٦١].

(٣) انظر تفسير الفخر الرّازى [ج ٤ ص ١٠٧-١٠٨].

العرب الخيار، يقولون فلان وسط فى قومه وواسط، إذا أرادوا الرّفع فى حَسَبِه والإعْلاء فى قَدْرِهِ ومَنْزِلَته [(١)].

(القول الثّالث) يجوز أن يكونوا وسطا على معنى أنّهم متوسّطون فى الدّين بين المُفْرِط والمفرِّط والغَالى والمقصِّر فى الأشياء، لأنّهم لم يغلوا كما غلت النّصارى فجعلوا المسيح ابنا وإلها، ولا قصّروا كتقصير اليهود فى قتل الأنبياء وتبديل الكتب وغير ذلك ممّا قصّروا فيه.

(رابعا) أوامر الدّين بين الإفراط والتّفريط

الإفراط والتّفريط أمران متلازمان فى الإضرار بالدّين وفروضه:

[فالأوّل] يُؤدّى إلى الغُلوّ والتّشدُّد.

و[الثّانى] يُرخّص فى الأوامر والتّكاليف حتّى يضيع الدّين دون ما تردّد.

والإفراط عند أهل اللّغة [الإسراف ومجاوزة الحدّ أو الزّيادة على الأمر]. يقال أَفْرَطَ يُفْرِطُ إفْرَاطًا: إذا أسرف وتجاوز الحدّ والقدر فى قول أو فعل من قول الله تعالى ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾[طه:٤٥]. أى يسرف ويعجل فى تعذيبنا عذاب الفارط فى الذّنب وهو المتقدّم فيه، ولا يخرج استعمال الفقهاء له عن معناه اللّغوى [(٢)].

أمّا التّفريط من فَرَّطَ يُفَرِّطُ تَفْرِيطًا ـ فى الشَّىْءِ: قَصَّرَ فيه وضَيَّعَهُ حتّى فات، وفى القرآن ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[الزُّمَر:٥٦]. و[منه] الفُرُطُ وهو الأَمْرُ المُضَيَّعُ كقوله تعالى ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[الكهف:٢٨]. من التّفريط الذى هو التّقصير وتقديم العجز بترك الدّين والإيمان [(٣)].

(قال) الجرجانى [الفرق بين الإفراط والتّفريط أنّ الإفراط تجاوز الحدّ من جانب الزّيادة والكمال، والتّفريط يُستعمل فى تجاوز الحدّ من جانب النّقصان والتّقصير(٤)]. فالنّسبة بين الإفراط والتّفريط التَّضادُّ.

وحقيقة التّعظيم للأمر والنّهى أن لا يُعَارَضَا بتَرَخُّصٍ جافٍ ولا يُعَرَّضَا لتَشْدِيدٍ غالٍ، وما أمرَ الله عزّ وجلّ بأمر من الأمور إلاّ وللشّيطان فيه نزغتان:

---

(١) انظر تحفة الأحوذى [ج ٧ ص ٣٨٤].

(٢) انظر معجم المصطلحات الفقهيّة [ج ١ ص ٢٤٧].

(٣) انظر الموسوعة الفقهيّة [١٣ / ٨٢].

(٤) انظر التّعريفات [ص ٢٦].

(١) إمّا تقصير وتفريط. (٢) وإمّا إفراط وغلوّ.

والشّيطان لا يبالى بما ظفر من الخطيئتين عندما يسترق النّظر إلى قلب العبد لاستكشاف أحواله:

* فإن وجد فيه فُتورًا عن الطّاعة وتوانيًا عن العبادة وترَخُّصًا فى الأوامر والتّكاليف، دخل عليه من باب التّثبيط والكسل المذموم والفتور والتّوانى، وركنه إلى التّأويل والتّمنّى والرّجاء والتّسويف، وربّما قاده إلى ترك المأمور به من العبادة.

* وإن وجد منه حَذَرًا وجدًّا وتَشَمُّرًا وأيس أن يدخل عليه من باب التّقصير والتّفريط أمره بالاجتهاد الزّائد فى الطّاعة، ثمّ يُسَوِّلُ له أنّ هذا القدْر الذى يبذله منها لا يتناسب وهمَّة إيمانه، ولا يرتقى إلى درجة إحسانه فيقول له لا ترقد إذا رَقَدَ النَّاسُ، ولا تفطر إذا أُفطروا، ولا تتعب أنت إذا استراحوا، وإذا غسل أحدهم وجهه ثلاث مرّات فاغسل أنت سبْعًا، وإذا توضّأ للصّلاة فاغتسل أنت لها!!، ونحو ذلك من الإفراط والتّعدى فيحمله على الغُلُوّ والمجاوزة وتعدّى الصّراط المستقيم، كما يحمل الأوّل على التّقصير دونه وأن لا يقربه [(١)].

ومقصود الشّيطان من الرَّجُلَين إخراجهما عن الصّراط المستقيم، هذا بأن لا يقرّبه ولا يدنو منه، وهذا بأن يجاوزه ويتعدّاه، ومن [صور هذا] ما رواه أبو قلابة عن مسلم بن يسار قال «أَنَّ رُفْقَةً مِنَ الأَشْعَرِيِّينَ كَانُوا فِي سَفَرٍ فَلَمَّا قَدمُوا قَالُوا يَارَسُولَ اللهِ لَيْسَ أَحَدٌ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَفْضَلَ مِنْ فُلاَنٍ! يَصُومُ النَّهَارَ، فَإِذَا نَزَلْنَا قَامَ يُصَلِّي حَتَّى نَرْتَحِلَ، قَالَ مَنْ كَانَ يَمْهَنُ لَهُ أَوْ يَكْفِيهُ أَوْ يَعْمَلُ لَهُ؟ قَالُوا نَحْنُ. قَالَ كُلُّكُمْ أَفْضَلُ مِنْهُ(٢)». وفي بعض الحديث المرفوع «لَيْسَ خَيْرُكُمْ مَنْ تَرَكَ الدُّنْيَا لِلآخِرَةِ وَلاَ الآخِرَةَ لِلدُّنْيَا، وَلَكِنْ خَيْرُكُمْ مَنْ أَخَذَ مِنْ هَذِهِ وَهَذِهِ (٣)».

وقد اقتطع أكثر النّاس إلاّ أقلّ القليل فى هذين الواديين، وادى التّقصير والإهمال، ووادى المجاوزة والتّعدّى، والقليل منهم الثّابت على الصّراط الذى كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام [(٤)]:

* فقوم قصّر بهم عن الإتيان بواجبات الطّهارة، وقوم تجاوز بهم إلى مجاوزة الحدّ بالوسواس.

---

(١) انظر الوابل الصّيّب [ص ١٣].

(٢) انظر عيون الأخبار [ج ٣ ص ٣٢٦].

(٣) انظر المصدر السّابق [ج ٣ ص ٣٢٧].

(٤) انظر إغاثة اللّهفان [ج ١ ص ١١٢].

* وقصّر بقوم فى خلطة النّاس حتّى اعتزلوهم فى الطّاعات كالجمعة والجماعات والجهاد وتعلّم العلم، وتجاوز بقوم حتّى خالطوهم فى الظّلم والمعاصى والآثام.

* وكذلك قصّر بقوم حتّى منعهم من الاشتغال بالعلم الذى ينفعهم، وتجاوز بآخرين حتّى جعلوا العلم وحده غايتهم دون العمل به.

* وكذلك قصّر بقوم حتّى منعهم من قبول أقوال أهل العلم والالتفات إليها بالكلّية، وتجاوز بآخرين حتّى جعلوا الحلال ما حلّلوه والحرام ما حرّموه وقدّموا أقوالهم على سُنَّة رسول الله ﷺ الصّحيحة الصّريحة.

* وقصّر بقوم حتّى أهملوا أعمال القلوب ولم يلتفتوا إليها وعدُّوها فضلا أو فضولا، وتجاوز بآخرين حتّى قصروا نظرهم وعملهم عليها ولم يلتفتوا إلى كثير من أعمال الجوارح وقالوا العارف لا يسقط وارده لورده [(١)].

ومقصود الشّيطان من هؤلاء جميعا إخراجهم عن الصّراط المستقيم، فلا يقرّب الأوّل إليه ولا يُدنيه منه حتّى يقع فى دائرة التّقصير والتّفريط، ويدفع بالثّانى إلى أن يتجاوزه ويتعدّاه حتّى يفتح له باب الإفراط والغلوّ، ودين الله بين الغالى فيه والجافى عنه، وخير النّاس النّمط الأوسط الذين ارتفعوا عن تقصير المفرّطين ولم يلحقوا بغلوّ المعتدين ودليل ذلك:

* قول على رضي الله عنه [خَيْرُ هَذه الأُمَّة النَّمَطُ الأَوْسَطُ، يَرْجِعُ إِلَيْهِمُ الْغَالى وَيَلْحَقُ بِهِمُ التَّالى(٢)]. أى يلحق بهم من قَصّر ويرجع إليهم من غلا وتجاوز، و«النَّمَطُ»: الجماعة من الناس أمرهم واحد، وقال أبو عبيد «النَّمَطُ»: هو الطَّرِيقَةُ أو الأُسْلُوبُ، ومنه يقال «الزم هذا النّمط».

والمعنى الذى أراده عَلِيٌّ: أنّه كَرِهَ الغُلُوَّ والتَّقصيرَ، فالغالى فيه هو المتعمّق حتّى يُخْرِجُه ذلك إلى إكفار النّاس كنحوٍ من مذهب الخوارج وأهل البدع، والجافى عنه التّارك له وللعمل به ولكن القصدُ من بين ذلك [(٣)].

* ومنه أيضا قول مُطَرِّف لابنه [يَاعَبْدَ الله: الْعِلْمُ أَفْضَلُ مِنَ الْعَمَلِ وَالْحَسَنَةُ بَيْنَ السَّيِّئَتَيْنِ وَخَيْرُ الأُمُورِ أَوْسَاطُهَا، يَعْنِى بَيْنَ الإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ(٤)].

---

(١) انظر إغاثة اللّهفان [ج ١ ص ١١٣].

(٢) انظر غريب الحديث [٧٠٨] والفائق [٤ / ٢٧].

(٣) انظر غريب الحديث [ج ٤ ص ٣٧٦].

(٤) انظر الفائق [٢ / ٢١١] والنّهاية [٥ / ١١٩].

ويعني قوله «الْحَسَنَةُ بَيْنَ السَّيِّئَتَيْنِ» : أنّ الغُلُوَّ في العبادة سيّئة والتّقصير سيئة، والاقتصاد بينهما [حسنة]. وهو المعنى الذى جاء في الحديث الشّريف عن فضل قارئ القرآن «غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَلاَ الْجَافِي عَنْهُ». فالغُلُوُّ فيه : «التَّعَمُّقُ»، والجفاء عنه «التَّقْصِيرُ» وكلاهما سيّئة [(١)].

ومّما يُشبه هذا الحديث قول تميم الدّارى «خُذْ مِنْ دِينِكَ لِنَفْسِكَ وَمِنْ نَفْسِكَ لِدِينِكَ، حَتَّى يَسْتَقِيمَ بِكَ الأَمْرُ عَلَى عِبَادَةٍ تُطِيقُهَا(٢)». ومثل ذلك حديث يروى عن بريدة عن النّبي ﷺ قال «عَلَيْكُمْ هَدْياً قَاصِداً - ثلاثًا - إِنَّهُ مَنْ يُشَادَّ هَذَا الدِّينَ يَغْلِبْهُ(٣)». ومّما يُبيّن ذلك قوله تعالى﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[الفرقان:٦٧] . وفيها يصفهم سبحانه بالقصد الذى هو بين الغُلُوّ والتّقصير بقوله تعالى﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ : والْقَوَام [بالفتح] : العدل والاستقامة. و[بالكسر] : ما يدوم عليه الأمر ويستقرّ. [قال] في الكشّاف [القَوَامُ العدل بين الشّيئين لاستقامة الطّرفين واعتدالهما، وقُرِئَ قِوَامًا «بالكسر» وهو ما يُقام به الشّيء].

كما يأتي قوله ﷺ من حديث عائشة «عَلَيْكُمْ مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا، وَإِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ مَا دُووِمَ عَلَيْهِ وَإِنْ قَلَّ، وَكَانَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا عَمِلُوا عَمَلاً أَثْبَتُوهُ(٤)» : دليل على الحثّ على الاقتصاد في العبادة واجتناب التّعمّق وهو عام في جميع أعمال البرّ والطّاعة. وقوله «وَكَانَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا عَمِلُوا عَمَلاً أَثْبَتُوهُ» : أى لازموه وداوموا عليه، والظّاهر أنّ المراد بالآل هنا : أهل بيته وخواصّه ﷺ من أزواجه وقرابته ونحوهم.

كما يُبيّن قوله ﷺ «أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ(٥)». كمال شفقته ورأفته بأمّته لأنّه أرشدهم إلى ما يُصلحهم وما يُمكنهم الدّوام عليه بلا مشقّة ولا ضرر، فيكون ذلك أنشط للقلوب وأروح للنّفوس وأطيب للأفئدة فتقوم العبادة على التّيسير والتّخفيف، بخلاف من تَعَاطَى من الأعمال ما يشقّ فإنّه بصدد أن يتركه أو بعضه، أو يفعله بغير كُلْفَة وبغير انشراح فى القلب فيفوته الخير العظيم.

كما يشير الحديث إلى فضل المداومة على العمل وإلى أنّ قليله الدّائم خير من

---

(١) انظر النّهاية [١ / ٢٨١].

(٢) انظر الفائق [٢ / ٢٤٥].

(٣) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١٩٦٧٤] وابن خُزيمة [١١٧٩].

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٧٨٢] وافقه البخارى [٥٨٦١].

(٥) حديث صحيح أخرجه مسلم [٧٨٣] وافقه البخارى [٦٤٦٦] وأبو داود [١٣٦٨].

كثيره المنقطع، لأنّ بدوام القليل تدوم الطّاعة والذّكر والمراقبة والنّية والإخلاص ويتحقّق الإقبال على الخالق جلّ وعلا [(١)].

(خامسا) شريعة الإسلام بين التّيسير والتّعسير

من الحقائق الثّابتة التي لا يُنكرها إلاّ مُعرض ولا يزيغ عنها إلاّ جاهل قيام شريعة الإسلام على اليُسر ونبذها للعُسر، ومراعاتها الكاملة لطبيعة الإنسان المبنيّة على الضّعف وقلّة الاحتمال وافتقاد الإرادة وعدم الاصطبار كما في قول الله تعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة:٢٨٦]. وأقامت أساس ذلك كلّه على محدوديّة الطّاقة والاقتدار، ويُستدلّ على اعتماد التّيسير ونبذ التّعسير منهجا لحياة الإنسان بقول الله تعالى ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾[المائدة:٦].

وبذلك تكون شريعة الإسلام قد بُنيت على السّهولة والبساطة واليسر خلافا للملل السّابقة التي كان سمتُها المغالاة والتّشديد، لكنّ الإسلام الذى جيء به ليكون دين البشرية طيلة الدّهر قد جعله الله سهلا مُيسّرًا ومرغوبا لا مكان فيه للغلوّ أو الإفراط أو التّنطّع، وذلك في كلّ جانب من جوانبه سواء في ذلك العبادات أو المعاملات أو غير ذلك من وجوه السّلوك والتّعامل [(٢)]. لقول النّبى ﷺ «إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَيَسِّرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ(٣)». وقوله ﷺ عند أحمد «عَلِّمُوا وَيَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا، وَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ(٤)».

واليُسر ضدّ العُسر وهو السّهل السّمح قليل التّشديد ومنه قول الله سبحانه ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾[عبس: ٢٠]. أى يسّر على كلّ واحد ما خلقه له وقدّره عليه، و[يسّر] الشّيْء: جعله يسيرا أو ميسورا. (قال) السّيوطى [سَمَّاهُ «يُسْرًا» مبالغة بالنّسبة إلى الأديان قبله، لأنّ الله رفع عن هذه الأمّة الإصر الذى كان على مَنْ قبلهم، ومن أوضح الأمثلة له أنّ توبتهم كانت بقتل أنفسهم، وتوبة هذه الأمّة بالإقلاع والعزم والنّدم(٥)].
أمّا «الْعُسْرُ» فهو الضّيق والشّدّة والصّعوبة ومنه [تعسّر] الأَمْرُ: صَعُبَ واشْتَدَّ. يقال [عسُرَ عُسْرًا وعَسَرًا] فهو عَسِرٌ وعَسيرٌ ومنه قوله تعالى ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾[اللّيل: ١٠]: أى الطّريقة الشّاقة الشّديدة الْعُسِرِ التى اختارها لنفسه.

---

(١) انظر نووى مسلم [ج ٣ ص ٣٣١].
(٢) انظر أصول الفقه الإسلامى [ج ١ ص ١٦٤].
(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٩] والنّسائى [٥٠٤٩].
(٤) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢١٣٦].
(٥) انظر سنن النّسائى (ج ٤ ص ٤٦١ / الهامش].

ويأتى قوله ﷺ «وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ» للمبالغة من الشّدّة وأصله لا يقابل الدّين أحد بالشّدّة ولا يجرى بين الدّين وبينه معاملة بأن يشدّد كلّ منهما على صاحبه إلاّ غلبه الدّين، و[المراد] أنه لا يفرّط أحد فيه ولا يخرج عن حدّ الاعتدال.

ومن دلالات الحديث أنّ كلّ تنطُّع في الدّين منقطع، وأنّ الإفراط يُؤدّى إلى الفتور، والمبالغة في التّطوّع تُفضي إلى ترك الأفضل وإخراج الفرض عن وقته، كمن بات يُصلّى اللّيل كلّه ويغالب النّوم إلى أن غلبته عيناه فنام عن صلاة الصّبح، فإن لم يستطع المرء الأخذ بالأكمل فعليه أن يعمل بما يقرب منه، فخير العمل أدومه وإن قلّ لقول عائشة «أنَّ النّبىَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ فَقَالَ مَنْ هَذه؟ قَالَتْ فُلاَنَةُ لاَ تَنَامُ، تَذْكُرُ مِنْ صَلاَتِهَا، فَقَالَ مَه، عَلَيْكُمْ مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ، فَوَاللهِ لاَ يَمَلُّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى تَمَلُّوا، وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ[(١)]».

أمّا قوله «فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا»: أى الزموا السّداد وهو الصّواب من غير إفراط ولا تفريط، وإن لم تستطيعوا الأكمل فاعملوا بما يقرب منه، وأبشروا بالثّواب على العمل الدّائم وإن قلّ، ومراده تبشير من عَجَزَ عن العمل بالأكمل بأنّ العجز إذا لم يكن من صنعه لا يستلزم نقص أجره، وأبْهَمَ المبشّر به تعظيما له وتفخيما.

ومن القواعد الفقهيّة الثّابتة في الشّرع أنّ المشقّة تجلب التّيسير، والأصل في هذه القاعدة قوله تعالى ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]. وفيه من أدلّة السُّنَّة قول النّبى ﷺ «بُعثتُ بالْحَنيفيَّةِ السَّمْحَةِ[(٢)]». وهذه القاعدة تدلّ على الشّمولية التى تتناول كلّ صور المشقّة فى مختلف أوجه الحياة من عبادات ومعاملات وغيرها بما يقتضى تيسيرا في الأحكام ورفعا للحرج، وقد قال العلماء فى هذا يتخرّج على هذه القاعدة جميع رُخَص الشّرع وتخفيفاته، وقالوا إنّ أسباب التّخفيف فى العبادات وغيرها سبعة [(٣)]:

(أوّلها) ما يختصّ بالسّفر الطّويل وهو ثلاثة أيام ولياليها على الخلاف، ورُخَصُهُ فيه القصر والفطر والمسح أكثر من يوم وليلة وسُقوط الأضحية.

(والثّانى) المرض ورُخَصُه كثيرة منها: التّيمّم عند الخوف على نفسه أو على عضو من أعضائه، أو زيادة المرض أو بُطئه، والقعود فى صلاة الفرض، والاضطجاع فيها

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٤٣] ومسلم [٧٨٥] والنّسائى [١٦٤١].

(٢) أخرجه أحمد بإسناد حسن [٢٢١٩٢] والطّبرانى [٧٨٦٨].

(٣) انظر أصول الفقه الإسلامى للدّكتور أمير عبد العزيز [ج ١ ص ٣٥].

والإيماء، والتّخلّف عن الجماعة مع حصول الفضيلة، والفطر فى رمضان للشّيخ الكبير الفانى مع وجوب الفدية عليه، والتّداوى بالنّجاسات وبالخمر على أحد القولين، وإباحة نظر الطّبيب إلى العورة والسّوأتين إذا كانت هناك حاجة وضرورة إلى ذلك.

(الثّالث) الإكراه فى الشّريعة ومؤدّاه حمل الشّخص على فعل أو قول لا يريد مباشرته، وما دام لا يريده فهو لا يرضى به، ولذلك كان الإكراه والرّضا غير متلاقيين، والإكراه لكى ينتج ثمرته يتضمّن التّهديد بأذى ينال المُكره إمّا فى ماله أو فى نفسه أو بأذى شخص آخر يعنيه، وقد يكون من الأذى السّبّ أو فعل ما يترتّب عليه مهانة المُكره فى نظر النّاس [(١)].

ولابدّ لتحقيق الإكراه من أمور أربعة:

(١) أن يكون المُكرِهُ قادرا على إيقاع ما هدّد به، فإن لم يكن قادرا على ذلك ويعلم مَنْ هدّده أنّه غير قادر فالتّهديد لغو لا يُلتفت إليه.

(٢) أن يقع فى نفس المُكْرَه أنّ المهدِّدَ سينفذ ما هدّد به، ويقع منه الفعل تحت تأثير ذلك الخوف، فإن لم يكن هذا الخوف لم يتحقّق أنّه فعل ما فعل غير راض.

(٣) أن يكون الأمر الذى هدّد به المهدّد مُؤذيا للمُكره فى نفسه أو ماله، أو مؤذيا لمن يهمّه من النّاس على تفصيل وخلاف فى ذلك.

(٤) أن يكون الفعل الذى أُكره عليه مُحرّما، أو تصرُّفا يترتّب عليه التزام بالنّسبة للمُكره، ولقد عرّف بعض الفقهاء الإكراه تعريفا جامعا لهذه المعانى الأربعة فقالوا [هو حمل الغير على أمر يُمتنع عنه بتخويف يقدر الحامل على إيقاعه].

(الرّابع) النّسيان وهو حالة تعترى الشّخص تجعله لا يتذكّر التّكليف الذى كلّفه الشّارع به، أو تجعله لا يقوم بحقّ عبادة قد نواها كالصّائم الذى يأكل ناسيا، ومن ذلك ترك أداء الصّلاة فى وقتها.

وقد قسّم الفقهاء الحقوق بالنّسبة للنّسيان إلى قسمين:

(١) نسيان حقوق الله تعالى وقد أسقط الله تعالى الإثم فيها عندما رُفِعَ الْقَلَمُ عن النّاسى حتّى يتذكّر كما ورد فى الأثر الصّحيح «إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِى الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ(٢)». وإذا ترك الذّابح اسم الله تعالى ناسيا وهو يذبح يسقط عنه الإثم وتُؤكل الذّبيحة، ومن ذلك ترك أداء الصّلاة فى وقتها، فقد قال النّبى

---

(١) انظر أصول الفقه للشّيخ أبى زهرة [ص ٣٣٣].

(٢) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه عن ابن عبّاس [١٦٧٧] انظر المشكاة [٦٢٨٤] والإرواء [٨٢].

ﷺ «مَنْ نَامَ عَنْ صَلاَةٍ أَوْ نَسِيَهَا فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا[(١)]».

(٢) حقوق العباد فلا يُعدّ النّسيان عذرا بالنّسبة لها، فلا يسقط حقّ لعبد بنسيان أدائه إليه فى وقته، ولا يُعذر من يدّعى أنّه ارتكب جريمة ناسيا، بل إنّه يُؤاخذ عليها إلاّ إذا كان من شأنه أن ينسى، فإنّ ذلك نوع من «الْعَتَهِ» يكون موضع نظر، فإن سقطت المؤاخذة فلأنّه «مَعْتُوهٌ» لا لأنّه نَاسٍ.

(الخامس) الجهل بالأحكام الشّرعية وكذا الأمور التى انعقد الإجماع عليها لا يُعدّ عذرا مُسَوِّغًا لمخالفتها بدعوى عدم العلم بها، وهذا النّوع من العلم هو الذى يُسَمِّيه الشّافعى علم عامّة لا يسع أحدا أن يجهله، وهو عنده قسمان:

(١) علم [العَامَّة] الذى لا يسع أحداً غير مغلوب على عقله جهلَهُ مثل الصّلوات الخمس، وأنّ لله تعالى على النّاس صوم رمضان، وحجّ البيت إذا استطاع، وزكاة أموالهم، وأنّه حرّم عليهم القتل والزّنى والسّرقة والخمر والرّبا، وما كان فى معنى هذا ممّا كلّف العباد أن يتعلّموه ويعملوا به ويُعطوه من أنفسهم وأموالهم، وأن يكفُّوا عمّا يحرُم عليهم منه.

وهذا الصّنف كلّه من العلم موجود نصّا فى كتاب الله تعالى وموجود عامّا عند أهل الإسلام ينقله عوامّهم عمّن مضى من عوامّهم، يحكونه عن رسول الله ﷺ ولا يتنازعون فى حكايته ولا وجوبه، وهذا العلم هو الذى لا يمكن الغلط فيه من الخبر ولا التّأويل ولا يجوز التّنازع فيه، وبهذا يتبيّن أنّ هذا العلم هو العلم المأخوذ من صريح الكتاب والسُّنَّة المتواترة والمشهور من الأحاديث والذى انعقد على أحكامه إجماع المسلمين.

(٢) علم [الخاصّة] وهو ما ينوب العباد من فروع الفرائض ولم يرد فيه نصّ صريح من كتاب أو سُنَّة ولم ينعقد عليه إجماع، وإنّ هذا النّوع من العلم يختصّ به الفقهاء الذين عكفوا على الدّراسات الفقهيّة وهو درجة عالية يسع العامّة أن يجهلوه ولا يسع الفقهاء أن يُهملوه [(٢)].

كما أنّ الجهل بأحكام النّصوص منه ما يكون عُذرا ومنه ما لا عُذر فيه، ولقد ضبط علماء الأصول ذلك فى أقسام أربعة:

(١) جهل لا يُعذر فيه صاحبه ولا شُبهة فيه كالرِّدَّة بعد إيمان، وارتكاب ما نصّ القرآن نصّا قاطعا على تحريمه مُعتقدا حلّه، وكذلك ما تواتر وثبت بالإجماع فإنّ الجهل

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٩٧] ومسلم [٦٨٤] وأبو داود [٤٤٢] والتّرمذى [١٧٨].

(٢) انظر أصول الفقه للشّيخ محمّد أبى زهرة [ص ٣٢٥].

بهذا إثم والإثم لا يبرّر الإثم.

(٢) جهل يُعذر فيه الشّخص لأنّه موضع اشتباه من حيث الدّليل، وذلك يكون في الجهل بالمسائل التي يحتاج فهمها إلى ضرب من التّأويل والتّفسير، وتكون هي محتملة التّأويل والحقّ فيها لا يتبيّن إلاّ بعد الفحص والتّأمّل كتأويل العلماء صفات الله تعالى، فإنّ الجهل بهذا التّأويل لا يُكفّر ويعذر فيه الجاهل.

(٣) الجهل في مواضع الاجتهاد والجهل الذى لا تتوافر فيه أسباب العلم توافرا تامّا أو يكون الجهل معه شبهة أسقطت العقاب.

(٤) الجهل بالأحكام الإسلامية في غير الدّيار الإسلاميّة، وهو جهل قوى إلى درجة أنّ جمهور الفقهاء قال إنّه تسقط عنه التّكليفات الشّرعيّة، لأنّ دار الحرب ليست موضع علم بالأحكام الشّرعية فلم تستفض فيها مصادر الأحكام ولم تشتهر، فكان الجهل جهلا بالدّلي، والجهل بالدّليل يسقط التّكليف إذ لم يتوجّه الخطاب، وعلي ذلك يتميّز هذا القسم عن بقية الأقسام السّابقة بأنّ الجهل هنا ليس عذرا فقط بل هو مُسقط للخطاب.

وهذه كُلُّها في الجهل الذى يكون موضوعه أمرا مقرّرا بالكتاب والسُّنّة وإن لم يكن صريحا، ولم يكن الاعتماد في أصل الحكم على قول فقيه أو عدد من الفقهاء بنوا قولهم على استنباط وهذا الأخير أصل العذر ثابت فيه على هذا النّحو الذى بيّنه الإمام الشّافعي رحمه الله تعالى [(١)].

(السّادس) العسر وعموم البلوى وذلك كالصّلاة مع النّجاسة المعفوّ عنها مثل دم القُروح والدّمامل والقيح والصّديد، والبول المترشرش على الثّوب قدر رءوس الإبر وطين الشّوارع وذَرْقُ الطّيور إذا عمّ في المساجد، وغير ذلك من النّجاسات المعفوّ عنها لعموم البلوى دفعا للعسر وطلبا للتّيسير على العباد.

(السّابع) النّقص ووجه ذلك أنّ النّفوس قد جُبِلَتْ على حبّ الكمال فناسبه التّخفيف، والنّقص بذاته نوع من المشقّة فناسب ذَلك التّخفيف في التّكليفات، [ومن ذلك] :

* عدم تكليف الصّبى والمجنون.

* وعدم تكليف النّساء بكثير ممّا يجب على الرّجال كالجماعة والجمعة والجهاد والجزية وتحمّل الدّية، وإباحة لبسهن الحرير والذّهب، إلى غير ذلك من أنواع التّخفيف [(٢)].

---

(١) انظر أصول الفقه للشّيخ محمّد أبى زهرة [ص ٣٢٩ - ٣٣٠].

(٢) انظر أصول الفقه الإسلامى للدّكتور أمير عبد العزيز [ج ١ ص ٣٦].

وهذا يقودنا إلى التّعريف بالرُّخصة والعزيمة على النّحو التّالى:

أولا - الرّخصة

الرّخصة في اللُّغة اسم من [رخَّص] وتُطلق في «لسان العرب» على معان كثيرة أهمّها الإذن فى الأمر بعد النّهى عنه، يقال «رَخَّصَ لَهُ فى الأَمْرِ» سَهَّلَهُ ويَسَّرَهُ، والاسم رُخْصَة على وزن «فُعْلَة» مثل غُرْفَة، وهى عكس التّشديد: أى أنّها تعنى السّهولة والتّيسير فى الأمور، يقال «رَخَّصَ الشّارِعُ في كَذَا ترخيصًا وأرْخَص إرْخاصًا» إذا يسَّرَهُ ومنه قوله ﷺ «إنَّ اللهَ يُحبُّ أَنْ تُؤتَى رُخَصُهُ كَما يَكْرَهُ أَنْ تُؤتَى مَعْصِيَتُهُ[(١)]». ويقال: «تَرْخِيصُ اللهِ للْعَبْدِ في أَشْيَاء»: أى تخفيفها عنه، والرّخصة فسحة فى مُقابلة التّشديد والتّضييق والحَرَج [(٢)].

والرّخصة شرعا اسم لما تغيّر من الأمر الأصلى لعارض أمر إلى يسر وتخفيف كصلاة السّفر ترفُّها وتوسعة على أصحاب الأعذار لقول الله تعالى ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾[البقرة١٨٤]. وقول الله تعالى﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾[النّساء: ١٠١].

والرّخصة فى الاصطلاح الشّرعى هى جواز الإقدام على الفعل مع اشتهار المانع منه شرعا [(٣)]. وعرفّها الغزالى [بأنّها]: عبارة عمّا وسع للمكلّف فى فعله لعذر وعجز عنه مع قيام السّبب المحرّم. [أو]: هى الحكم الثّابت على خلاف الدّليل لعذر هو المشقّة والحرج. [أو]: هى ما ثبت على خلاف دليل شرعى لمعارض راجح. أو هى [الحكم الوارد على فعل لأجل العذر استثناء من العزيمة[(٤)]]. ودليل ذلك قول النّبى ﷺ من حديث جابر «عَلَيْكُمْ بِرُخْصَةِ اللهِ الَّتِى رَخَّصَ لَكُمْ[(٥)]». والرّخصة حقيقيّة ومجازيّة:

(أ) فالحقيقيّة على ضربين:

(الأوّل) ما يظهر التّغاير فى حُكمه مع بقاء وصف الفعل وهو الحُرمة، أى يرتفع الحكم وهو المؤاخذة مع بقاء الفعل محرّما [(٦)]:

(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٥٨٦٦] والبيهقى فى شُعَب الإيمان [٥٣٩٢] والإرواء [٥٦٤].

(٢) انظر ميزان الأصول [ص ٥٥].

(٣) انظر شرح تنقيح الفصول للقرافى [ص ٨٥].

(٤) انظر الموسوعة الفقهيّة [٢٢ / ١٥١ - ١٥٢].

(٥) أخرجه فى صحيح الجامع [٤٠٧٧].

(٦) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ٢ ص ١٣٦].

* كإجراء كلمة الكفر على اللّسان فى حالة الإكراه مع اطمئنان القلب بالإيمان.

* وإتلاف مال الغير بغير إذن فى حالة الإكراه والمخمصة.

* وكإفطار صوم رمضان بالإكراه.

فإنّه يُرخّص له الإقدام فى هذه المواضع مع بقاء حرمة الفعل حتّى لو امتنع وبذل نفسه تعظيما لنهى الله فقُتل أو مات جوعا فإنّه يُثاب على ذلك ببقاء الوصف.

(الثّاني) ما يظهر التّغيير فى الحكم وفى وصف الفعل أيضا، وهو أن لا يبقى الفعل مُحرّما كشُرب الخمر وتناول الميتة فى حال الإكراه أو المخمصة، ففى هذا النّوع ارتفعت الحُرمة والمؤاخذة جميعا حتّى لو امتنع فقُتل أو مات جوعا يُؤاخذ به.

(٢) أمّا الرّخصة المجازية:

فمنها وضع الإصر والأغلال التى كانت مشروعة على الأمم السّابقة وقد وضعها الله تعالى عن هذه الأمّة كما فى قوله تعالى﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[الأعراف: ١٥٧]. وقوله تعالى﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾[البقرة: ٢٨٦].

فهذا النّوع من الإصر والأغلال غير مشروع أصلا فى حقّ هذه الأمّة وذلك ليس بناء على عذر موجود فى حقّنا، بل هو تيسير وتخفيف، فكان ذلك رخصة من حيث الاسم مجازا وإن لم تكن رخصة حقيقيّة لانعدام السّبب الموجب للحُرمة مع الحكم بالرّفع والنّسخ أصلا فى حقّ هذه الأمّة [(١)]. على أنّ الرّخصة تنقسم إلى ثلاثة أقسام وهى: الواجبة والمندوبة والمباحة [(٢)]:

(*) فالواجبة مثل أكل الميتة للمضطر على الصّحيح.

(*) أمّا المندوبة فهى كالقصر للمسافر بشروطه المعروفة وهو أن يبلغ ثلاثة أيّام فصاعدا على الخلاف.

(*) أمّا المباح فهو كالفطر للمسافر.

الصّلة بين الرّخصة ورفع الحرج

رفعُ الحرج مُركّب إضافى تتوقّف معرفته على معرفة لفظيّة، فالرّفع لغة نقيض الخفض فى كلّ شىء، والأصل فى مادّة الرّفع العلوّ، [يقال] ارتفع الشّىء ارتفاعا إذا علا، ويأتى بمعنى الإزالة من قولهم «رفع الشّىء» إذا أُزيل عن موضعه.

---

(١) انظر أصول الفقه الإسلامى للدّكتور أمير عبد العزيز [ج ١ ص ٩٦].

(٢) انظر المصدر السّابق [ج ١ ص ٩٣].

(قال) في المصباح المنير [الرّفع في الأجسام حقيقة في الحركة والانتقال، وفي المعاني محمول على ما يقتضيه المقام، ومنه قوله ﷺ «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثٍ...[1]».
والحَرَج في اللّغة المكان الضّيق الكثير الشّجر، والضّيق، والإثم، والحرام، والأصل فيه الضّيق، وسئل ابن عبّاس رضي الله عنهما عن الضّيق فدعا رجلا من هُذَيْلٍ فقال له ما الحرَج فيكم ؟ فقال الحرج من الشّجر ما لا مخرج له، فقال ابن عبّاس هو ذلك، والحَرَجُ ما لا مخرج له، والحرج [في الاصطلاح]: ما فيه مشقّة وضيق فوق المعتاد فهو أخصّ من معناه اللّغوي.

ورفعُ الحرج إزالة ما في التّكليف الشّاق من المشقّة برفع التّكليف من أصله أو بتخفيفه أو بالتّخيير فيه، أو بأن يجعل له مخرج كرفع الحرج في اليمين بإباحة الحنْث فيها مع التّكفير عنها أو بنحو ذلك من الوسائل، فرفع الحرج لا يكون إلاّ بعد الشّدّة خلافا للتّيسير، والحَرَج والمشقّة مترادفان، والفقهاء والأصوليون قد يُطلقون عليه أيضا «دَفْعُ الْحَرَجِ» و«نَفْيُ الْحَرَجِ».

ورفع الحَرَج في الاصطلاح يتمثّل في إزالة كلّ ما يُؤدّي إلى مشقّة زائدة في البدن أو النّفس أو المال في البدء والختام والحال والمآل، وهو أصل من أصول الشّريعة ثبت بأدلّة قطعيّة لا تقبل الشّكّ. والصّلة بين الرّخصة ورفع الحرج من وجوه:

(الأوّل) أنّ رفع الحرَج أصل كلّي من أصول الشّريعة ومقصد من مقاصدها، أمّا الرُّخَص فهي فرع يتدرّج ضمن هذا الأصل العام وجزء أخذ من هذا الكلّ، فرفع الحرَج مُؤدّاه يُسر التّكاليف في جميع أطوارها، والرُّخص مُؤدّاها تيسير ما شقّ على بعض النّفوس عند التّطبيق من تلك الأحكام الميسّرة ابتداء.

(الثّاني) أنّ الحرَج مرفوع عن الأحكام ابتداء وانتهاءً في الحال والمآل، بينما الرُّخَص تشمل عادة أحكاما مشروعة بناء على أعذار العباد تنتهي بانتهائها وأُخرى تُراعي فيها أسباب مُعيَّنة تتبعها وجودا وعدما، وليست الرُّخص مُرادفة لرفع الحرَج وإلاّ لكانت أحكام الشّريعة كلّها رخصا بدون عزائم.

(الثّالث) إذا رفع المشرِّع الحرجَ عن فعل من الأفعال فالذي يتبادر إلى الذّهن أنّ الفعل إن وقع من المكلّف لا إثم ولا مؤاخذة عليه، ويبقى الإذن في الفعل مسكوتا عنه، فيمكن أن يكون مقصودا ويمكن أن يكون غير مقصود إذ ليس كلّ ما لا حرج فيه يُؤذن فيه بخلاف التّرخيص في الفعل، فإنّه يتضمّن إلى جانب ذلك الإذن فيه [[2]].

---

(١) من حديث صحيح أخرجه أبو داود [٤٣٩٨] والنّسائي [٣٤٣٢] صحيح الجامع [٣٥١٤].

(٢) انظر الموافقات [٢/ ١٥٩] والموسوعة الفقهيّة [١٤/ ٢١٣ و ٢٢/ ١٥٢].

ثانيا ـ العزيمة

قد تكون العزيمة في مقابل الرّخصة على القول بأنّ العزيمة هي الحكم المتغيّر عنه، وقد لا تكون في مقابل الرّخصة على القول بأنّ العزيمة هي الحكم الذى لم يتغيّر أصلا، والعزيمة في اللّغة القصد المؤكّد ومنه قولهم: عزمت على فعل الشّيء. (قال) الجوهرى [عزمت على كذا عَزْمًا وعُزْمًا: أى جَزْمًا وعَزِيمَةً وعَزِيمًا: إذا أردت فعله وقطعت عليه، من قوله تعالى﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[طه:١١٥]. أى لم يكن له قصد فى فعل ما أمر به].

و[الْعَزْمُ]: إرادة الشّيء وعقد النيّة عليه، وسُمِّيَ بعضُ الرّسل:«أُولي العَزْم» لتأكيد قصدهم فى طلب الحقّ من قول الله تعالى﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[الأحقاف:٣٥]. والعزيمة فى اللّغة أيضا [الاجتهاد في الأمر(١)]. و«عزائم الله»: فرائضه التي أوجبها وفي الحديث «إنَّ اللّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ، كَمَا يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى عَزَائِمُهُ(٢)».

وهي فى الاصطلاح الشّرعي عبارة عمّا لزم العباد بإيجاب الله تعالى [أو] هي طلب الفعل الذى لم يشتهر به مانع شرعي. و(عرّفها) السّرخسى بقوله [العزيمة فى أحكام الشّرع ما هو مشروع منها ابتداء من غير أن يكون متّصلا بعارض، وسمّيت «عزيمة»: لأنّها من حيث كونها أصلا مشروعا فى نهاية من الوكادة والقوّة حقّا لله علينا بحكم أنّه إلٰهنا ونحن عَبِيدُهُ وله الأمر يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وعلينا الإستسلام والانقياد(٣)].

و(قال) في شرح المنهاج [إذا ثبت الحكم لا على خلاف الدّليل أو على خلاف الدّليل لكن ليس لعذر على وجه التّيسير فهو عزيمة، سواء كان واجبا أم مندوبا أم مباحا أم مكروها أم حراما من جهة أنّه يجزم أمره ـ أى قطع وحتم ـ سَهُلَ على المكلّف أم شقّ مأخوذ من العزم وهو القصد المصمّم، والعزيمة مصدر «عزم» فهى أيضا قسم من أقسام الحكم(٤)].

سادسا ـ الاقتصاد فى الطّاعة من مقاصد الشّريعة

الاقتصاد هو التّوسُّط بين طرفى الإفراط والتّفريط وله طرفان هما له ضدّان: [تقصير ومُجاوزة]. فالمقتصد هو الذى يأخذ بالوَسَط ويعدل عن الطّرفين، ومن ذلك قول الله تعالى

(١) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ٢ ص ٤٩٩].

(٢) أخرجه ابن حبّان بلفظه [٣٥٦٨] والبيهقى [٣/ ١٤٠] وصحيح الجامع [١٨٨٥].

(٣) انظر أصول السّرخسى [ج ٢١ ص ١١٧].

(٤) انظر الإبهاج فى شرح المنهاج [ج ١ ص ٨٢].

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾[الفرقان: ٦٧] . والدّين كلّه بين هذين الطّرفين، بل الإسلام قصد بين الملل، والسُّنَّةُ قصد بين البدع، ودين الله تعالى بين الغالى فيه والجافي عنه، وكذلك الاجتهاد هو بذل الجهد فى موافقة الأمر، والْغُلُوّ مُجَاوزته وتعدّيه [(١)] .

ويأتى الأمر بالتّوسُّط في العبادة إبقاء على النّفس ودفعا للملل عنها ومن ذلك قول الله تعالى ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾[طه: ٢] . وقول الله تعالى ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾[البقرة: ١٨٥] . وفي ذلك جاء قول النّبيﷺ عند أحمد « يَسِّرُوا ولاَ تُعَسِّرُوا(٢) » . وعند البخارى «فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَيَسِّرُوا(٣) » .

واليُسر من السُّهولة ومنه اليسار للغنى، وسُمِّيت اليُسرى تفاؤلا أو لأنّه يسهل له الأمر بمعاونتها لليُمنى، ومن اليسر الفطر فى السّفر، والعسر الصّوم فيه، والوجه عموم اللّفظ فى جميع أمور الدّين كما قوله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[الحج: ٧٨] .

ولـمّا أراد رسول الله ﷺ أن يتبيّن حقيقة ما نُقل له عن عبد الله بن عمرو من أنّه يقوم اللّيل دوما ويصوم النّهار دون انقطاع فقال له «أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَقُومُ اللَّيْلَ وَتَصُومُ النَّهَارَ؟» فَرَدَّ عَبْدُ الله بالإيجاب، فَقَالَ ﷺ «فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ هَجَمَتْ عَيْنُكَ وَنَفِهَتْ نَفْسُكَ، وإِنَّ لِنَفْسِكَ حَقًّا، وَلأَهْلِكَ حَقًّا، فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ(٤) » . وجاء عند مسلم بلفظ «هَجَمَتْ لَكَ الْعَيْنُ وَنَهِكَتْ» . وقوله «هَجَمَتْ عَيْنُكَ وَنَفِهَتْ نَفْسُكَ» . أى غارت عينُك وضنيت لكثرة السّهر، وكَلّت نفسُك من التّعب وضعُفت، ومن كان على هذا النّحو فإنّه لا يستطيع أن يحقّق صلاة ولا عبادة !.

كما لا يستطيع من كان هذا حاله أن يُحصّل تلك المكتسبات المرجوّة من التّقرُّب والطّاعة إلاّ بنشاط القلب وخشوعه وهمّته دون ما تعب أو كلل، وإلى هذا أشار نبيّناﷺ بقوله «إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ يُصَلِّي فَلْيَرْقُدْ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا صَلَّى وَهُوَ نَاعِسٌ لاَ يَدْرِى لَعَلَّهُ يَذْهَبُ يَسْتَغْفِرُ فَيَسُبُّ نَفْسَهُ(٥) » . ومقصده أنّه لا يميّز بين الطّاعة وغيرها من شدّة الْمَلاَل فكيف يتنبّه إلى حقيقة قوله وفعله .

والنُّعاس أوّل النّوم وهو ريح لطيفة تأتى من قبل الدّماغ تغطّى العين ولا تصل القلب ،

---

(١) انظر كتاب الرّوح لابن القيّم [ص ٢٥٧] .

(٢) من حديث صحيح أخرجه أحمد [٢١٣٦] .

(٣) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٩] .

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [١١٥٣] ومسلم [١١٥٩] وأبو داود [٢٤٢٧] .

(٥) حديث صحيح أخرجه مسلم [٧٨٧] وأبو داود [١٣١١] .

فإذا وصلته كانت نوما، وفى قوله «فَلْيَرْقُدْ»: أمر استحباب على أنّ النُّعاس النّوم الخفيف، وعليه ففى القطع الثّواب، والتّمادى فى الصّلاة مكروه، أمّا إذا أُريد بالنّعاس النّوم الثّقيل فالأمر بالرّقاد للوجوب، ويؤيّده التّعليل بقوله «فإنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا صَلَّى وَهُوَ نَاعِسٌ» الخ. وعليه فالقطع واجب والتّمادى حرام. ثمّ يأتى قوله فى الحديث «لَعَلَّهُ يَذْهَبُ يَسْتَغْفِرُ»: للإشفاق أى يُخشى على أحدكم أنّ يقصد الاستغفار فيسبق لسانه إلى سبّ نفسه فيدعو عليها.

وفى الحديث دلالة على أنّ الله تعالى لا يُكلّف نفسا إلاّ وُسعها، وعلى استحباب قطع الصّلاة عند غلَبة النّوم وهو عام فى صلاة الفرض والنّفل ليلا ونهارا، لكنّ محله فى الفريضة إذا لم يخش خروج وقتها، وحمله مالك وجماعة على خصوص نفل اللّيل لأنّه محلّ النّوم غالبا، ولمّا قال حنظلة «يارَسُولَ الله نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بالنَّارِ والْجَنَّةِ كَأَنَّا رَأْىَ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا! فَقَالَ رسول الله ﷺ وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِى وَفِى الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِى طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ! سَاعَةً وَسَاعَةً[(١)]». أى أنّهم لايكلّفون الدّوام على ذلك ولكن ساعة وساعة.

كما أنّ من أدوأ الدّاء فى الطّاعات مَلالُ النّفس، فإنّها إذا ملّت لم تنتبه لصفة الخشوع وكانت تلك المشاقّ خالية عن معنى العبادة وهو مقصود قوله ﷺ «إنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةً، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةً، فَمَنْ كَانَتْ شِرَّتُهُ إِلَى سُنَّتِى فَقَدْ أَفْلَحَ، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ[(٢)]».

والشِّرَّةُ: النَّشَاطُ. والْفَتْرَةُ: الضَّعْفُ والانْكِسَارُ، والمعنى أنّ حدّة الأمر تتناقص إلى هدوء وفترة، فيجتهد المجتهد فى العبادة وقد يغلو فى الشّدّة والتّمسّك، ثمّ تهدأ حدّته إلى قصد فى الأمر، فأبان رسول الله ﷺ أنّ الفترة التى تعقب الغلوّ ينبغى أن تكون إلى السُّنّة والأخذ بها وعدم التّهاون بتركها حتّى يلزم طريق الهدى، أمّا إذا كانت الفترة إلى تقصير وإهمال فإنّها الهلاك [(٣)].

ولذلك جعل الشّارع للطّاعات قدرا محدّدا كالدّواء فى حقّ المريض لا يُزاد ولا يُنقص، لكون أنّ المقصود هو تحصيل صفة الإحسان على وجه لا يُفضى إلى إهمال الواجبات الحياتية، ولا إلى غمط حقّ من الحقوق الشّرعية.

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٧٥٠] والتّرمذى [٢٥١٤] وأحمد [١٧٥٤١].

(٢) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٦٧٦٤] وابن حبّان [١٠] وصحيح الجامع [٢١٥٢].

(٣) انظر المسند [ج ٦ ص ٢٩٩ ـ الهامش].

(التوجه الثانى)

التوقى والاحتراز من غوائل الشيطان

(القسم الأول)

الاستعاذة من الوساوس والنزغات

أولا - الاستعاذة فى حياة المسلم وقاية وعلاج

أكّد القرآن الكريم أنّ معركة الشّيطان مع ابن آدم طويلة ممتدّة لا تنتهى لحكمة اقتضتها المشيئة الغالبة لله تعالى، فهو له قابع خانس مترصّد لغفلة تسهّل له فرصة الاختراق، أو شهوة تتيح له سرعة الاقتناص، أو غضب يحتويه ليقطعه عن طاعة مولاه كما فى قول الله تعالى﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[الأعراف: ١٦]. وقول الله تعالى﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[ص:٨٢]. وقول الله تعالى ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[الحجر: ٣٩].

وحربه مع المسلم مستمرّة حتّى دنوّ أجله، فلا يتركه عنده حتّى يُفسد عليه دينه وعقله، ويعوقه عن إصلاح شأنه، ويحول بينه وبين التّوبة، أو أن يؤيسه من رحمة ربّه، ويُكرّهُ له لقاءه، فيلقى الله وهو عليه ساخط لما روى «أنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَكُونُ فى حَالٍ أَشَدَّ عَلَى ابْنِ آدم مِنْهُ فى حَالِ الْمَوْتِ، يَقُولُ لإخوانه دُونَكُم هَذَا فَإِنَّهُ إِنْ فَاتَكُم الْيَوْمَ لَمْ تَلْحَقُوهُ(١)». ولذا ثبتَ فى الصّحيح أنّ النّبى ﷺ كان يردّد فى دعائه «وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنِى الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ(٢)».

إنّ صراع الشّيطان مع الحقّ ينبثق من خليقة الشّر الكامنة فيه، ومن كبريائه وحقده وحسده، والمسلم فى معركته معه ليس مغلوبًا على أمره، وليس مُجرّدًا من تلك العُدّة التى تُؤهّله لمجابهة هذا العدوّ المتربّص به، فكان الإيمان له جُنّة، وكان الذّكر له وسيلة، وكانت الاستعاذة له سلاحًا كما فى قول الله تعالى﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[الأعراف: ٢٠٠]. وقوله تعالى﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾[المؤمنون: ٩٧-٩٨].

ولمّا سأل أبو بكر رسول الله ﷺ عن شىء يقوله إذا أصبح وإذا أمسى؟ قال له «قُلْ اللّهُمَّ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، رَبَّ كُلِّ شَىْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِى وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، قَالَ قُلْهَا إِذَا أَصْبَحْتَ

(١) انظر سُنن أبى داود [ج ١ص ٥٧٣ - الشرح].

(٢) من حديث صحيح أخرجه أبو داود (١٥٥٢) والنّسائى [٥٥٤٦].

وَإِذَا أَمْسَيْتَ وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ(١)».

وقد تضمّن هذا الحديث استعاذة النّبى ﷺ من الشّر وأسبابه وغايته، فإنّ الشّر كلّه إمّا أن يصدر من النّفس أو من الشّيطان وغايته إمّا أن تعود على [الذّاكر] أو على واحد من [النّاس] وهو بذلك يشير إلى [مصدرى] الشّر اللّذين يصدر عنهما و[غايتيه] اللّتين يصل إليهما وهما:

(أ) النّفس وما جُبلت عليه من شرّ

ومن تأمّل «القرآن والسُّنّة» وجد اعتناءهما بذكر «أهواء النّفس» وصفاتها الّتى تسمّى بها، فذُكرت بأنّها «أمّارة بالسّوء» كما فى قوله تعالى ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾[يوسف:٥٣]. وهى التى يغلب عليها اتّباع هواها بفعل الذّنوب والمعاصى، وجعل فى مقابلها «النّفس اللّوامة». وهى التى تُذنب وتتوب، فيكون عنها خير وشرّ، لكن إذا فعلت الشّر تابت وأنابت، فسُمِّيت «لوّامة» لأنّها تلوم صاحبها على الذّنوب، ولأنّها تتلوّم أى تتردّد بين الخير والشّر.

وذكرها بأنّها «وَسْوَاسٌ» كما فى قوله تعالى ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق:١٦]. وجعل فى مقابلها «النّفس المطمئنّة» كما فى قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾[الفجر:٢٧]. وهى التى تحبّ الخير وتفعله والحسنات وتُقبل عليها، وتبغض الشّر والسّيئات وتبتعد عنها وقد صار ذلك لها خُلُقًا وعَادَةً ومَلَكَة.

ويُراد «بالنَّفس» عند كثير من المتأخّرين صفتها المذمومة، فيقال: فُلاَنٌ له نَفْسٌ، ويقال «أُتْرُكْ نَفْسَكَ». ومنه قول أبى مرثد [رَأَيْتُ رَبَّ الْعِزَّةِ فِى الْمَنَامِ فَقُلْتُ أَىْ رَبِّ كَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَيْكَ؟ فَقَالَ اتْرُكْ نَفْسَكَ]. ومعلوم أنّه لا يترك ذاته وإنّما يترك هواها وأفعالها المذمومة المنكورة من ذنوب وآثام، وكذلك النّفس لمّا كانت حال تعلّقها بالبدن يكثر عليها اتّباع هواها صار لفظ «النَّفْس» يعبّر به عن النّفس المتّبعة لهواها أو عن اتّباعها الهوى.

ولذلك جاءت الاستعاذة من «شرّ النَّفْس» فى خُطبة الحاجة بقوله ﷺ «وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا(٢)». وما جاء عند التّرمذى من قوله ﷺ «اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِى رُشْدِى وَأَعِذْنِى مِنْ شَرِّ نَفْسِى(٣)». وقوله عند أبى داود «أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ

---

(١) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٣٣٩٢] وأبوداود [٥٠٦٧].

(٢) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [١١٠٥] وأبو داود [٢١١٨] والنّسائى [١٤٠٤].

(٣) حديث حسن أخرجه التّرمذى [٣٤٨٣] وابن حبّان [٢٤٣١] وأحمد [١٩٨٧٧].

نَفْسي(١)». وعند الحاكم بلفظ «اللَّهمَّ قِني شرَّ نفْسي(٢)». كما كان ﷺ يستعيذ بربّه تعالى من شرّ النَّفْس ويسأله تقواها وتزكيتها في قوله «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسي تَقْوَاهَا وزكِّهَا أنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاَهَا(٣)».

والنَّفس[في القاموس]: الرّوح الذي إذا فارق البدن لم تكن بعده حياة، وهي التي أرادها النّبي ﷺ بقوله «نَفْسُ الْمُؤْمِنِ مُعَلَّقَةٌ بدَيْنه حتّى يُقْضَى عَنْهُ(٤)». كأنّ روحه تُعذّب بما عليه من الدّيْن حتّى يُؤدّى عنه، ولِكلّ إنسان نَفْسَان:

(إحداهما) نفس «التّميز» وهي التي تفارقه إذا نام فيفارقه عقله ويتوفاها الخالق كما في قوله الكريم﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[الزُّمر: ٤٢].

(والأخرى) نفس «الحياة» وهي التي إذا نام الإنسان تنفَّس بها وتحرَّك بقوّتها، وإذا توفَّاها الله تعالى توفّى معها نفس التّمييز، وإذا توفّى نفس التّمييز لم يتوفّ معها نفس الحياة، وهو الفرق بين توفّي أنفس «النّائم» وتوفّي أنفس «الحي» وسُمِّيت النّفس نفسا لتولّد النَّفَس منها [(٥)].

كما أنّ النَّفْس في القرآن تُطلق على الذّات بجملتها كقوله تعالى﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾[النور: ٦١]. وقوله تعالى﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[النحل: ١١١]. كما تُطلق النّفس على الرّوح وحدها كقوله تعالى﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾[الفجر: ٢٧].

فسُمِّيت النَّفْس [رُوحًا] لحصول الحياة بها، وسمّيت [نَفْسًا] إمّا من الشّيء النّفيس لنفاستها وشرفها، وإمّا من تنفّس بالشّيء إذا خرج، فلكثرة خروجها ودخولها في البدن سُمِّيت نفسا، ومنه «النَّفَس» بالتّحريك، فالفرق بين النَّفْس والرّوح فرق بالصّفات لا فرق بالذّات، وإنّما سُمِّي الدّم «نَفْسًا» لنفاسته في البدن ولأنّ الحياة لا تتمّ إلاّ به، ولأنّ خروجه الذي يُؤدّي إلى الموت يلازم خروج هذه النَّفْس.

وإذا كان قوام الحياة بالرُّوح التي هي سرّ من أسرار الخالق جلّ وعلا فإنّ النَّفْس تُمثّل صورة العبد التي ابتُليت بالهوى والشّهوة فهي لا تريد إلاّ الدّنيا، ولا تحبّ إلاّ إيّاها، والرّوح

---

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٥٠٦٧] والتّرمذي [٣٣٩١].

(٢) أخرجه الحاكم [١٩١٦] وقال صحيح على شرط الشّيخين.

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٧٢٢] والتّرمذي [٣٥٧٢].

(٤) حديث صحيح أخرجه التّرمذي [١٠٧٨] وابن ماجه [١٩٧٢].

(٥) انظر معجم المصطلحات الفقهيّة [ج ٣ ص ٤٣١].

تدعو إلى الآخرة وتؤثرها، فجعل الهوى تبعا للنفس، والشيطان تبع للنفس والهوى.

ويبين قوله ﷺ من رواية ابن عمر «اللَّهُمَّ أنتَ خَلقْتَ نفْسي وأنْتَ تَتوفَّاهَا، لك مَمَاتَهَا ومَحْيَاهَا، إنْ أحْيَيْتَهَا فاحفَظْهَا، وإنْ أمَتَّهَا فاغْفِرْ لَهَا». أنّ الرّوح المقبوضة هى النّفس التى يتوفّاها الله تعالى حين موتها وفى منامها، وهى التى يتوفّاها رسل الرّحمن، وهى التى يجلس الملك عند رأس صاحبها ويخرجها من بدنه كرْهًا، ويكفّنها بكفن من الجنّة أو النّار، ويصعد بها إلى السّماء فتصلّى عليها الملائكة أو تلعنها، وتوقف بين يدى ربّها تعالى فيقضى فيها أمره.

ثمّ تعاد إلى الأرض فتدخل بين الميّت وأكفانه، فيسأل، ويمتحن، ويعاقب، وينعّم، وهى التى تجعل فى أجواف طير خضر فتأكل وتشرب من الجنّة، وهى التى تعرض على النّار غدوًّا وعشيًا، وهى التى تؤمن، وتكفر، وتطيع، وتعصى، وهى الأمّارة بالسّوء، وهى اللّوامة، وهى المطمئنّة إلى ربّها، وإلى أمره وذكره، وهى التى تعذّب وتنعّم، وتسعد وتشقى، وتحبس وترسل، وتصحّ وتسقم، وتلذّ وتألم، وتخاف وتحزن.

وعلى هذا فإنّ التّأكيد فى القرآن الكريم قائم على أنّ النّفس واحدة ولكنّ لها صفات تتسمّى باعتبار كلّ صفة منها باسمها:

فتسمى «مطمئنة»

باعتبار طمأنينتها إلى ربّها سبحانه بعبوديّته ومحبّته والإنابة إليه والتّوكّل عليه والرّضا به والسّكون إلى جنابه. يقال «اطْمَأنَّ القَلْبُ» إذا سكن ولم يقلق ومنه قوله تعالى ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]. أى ليسكن إلى المعاينة بعد الإيمان بالغيب، «فالطّمأنينة» سكون القلب إلى الشّيء وعدم اضطرابه وقلقه ومنه الأثر المعروف [الصِّدْقُ طُمَأْنينَةٌ وَالْكَذِبُ رِيبَةٌ] أى أنّ الصّدق يطمئنّ إليه قلب السّامع ويجد عنده سكونا إليه، والكذب يوجب ارتيابا واضطرابا ومنه قول النّبى ﷺ «الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ». أى سكن إليه وارتاح له.

فالطّمأنينة إلى الله سبحانه حقيقة ترد منه على قلب عبده تجمعه عليه، وتردّ قلبه الشّارد إليه، حتّى كأنّه جالس بين يديه، يسمع به، ويبصر به، ويتحرّك به، ويبطش به، فتسرى تلك الطّمأنينة فى نفسه وقلبه ومفاصله وقواه الظّاهرة والباطنة وتجذب روحه إلى خالقه سبحانه، ويلين جلده وقلبه ومفاصله إلى خدمته والتّقرّب إليه، ولا يمكن حصول الطّمأنينة الحقيقيّة إلاّ بالله وبذكره الذى أنزله على رسوله ﷺ كما فى قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾.

وفى تعريف [ذكر الله] هنـا قولان :

(أحدهمـا) أنّه ذكر العبد ربّه تعالى ، فإنّ قلبه لا يطمئنّ إلاّ به ولا يسكن إلاّ إليه ، فإذا اضطرب القلب وقلق فليس له ما يطمئنّ به سوى ذكر الله تعالى .

(والثّانى) أنّ ذكر الله هو القرآن الذى أنزله على نبيّه ﷺ ولا يطمئنّ القلب إلاّ بالإيمان واليقين، ولا سبيل إلى حصول الإيمان واليقين إلاّ بالقرآن ، فإنّ سكون القلب وطمأنينته من يقينه ، واضطرابه وقلقه من شكّه ، والقرآن هو المحصّل لليقين والدّافع للشّكوك والأوهام فلا تطمئنّ قلوب المؤمنين إلاّ به ، ولا يزداد يقينهم إلاّ بتلاوته وذكره .

كما لا تطمئنّ النّفس إلاّ إذا خلصت من الشّك إلى اليقين ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الغفلة إلى الذّكر ، ومن المعصية إلى التّوبة ، ومن الرّثاء إلى الإخلاص ، ومن الكذب إلى الصّدق ، ومن العجز إلى الكيس ، ومن صولة العُجب إلى ذلّة الإخبات ، ومن التّيه إلى التّواضع ، ومن الفتور إلى العمل ، فإذا ما تحقّق لها ذلك كلّه أخبتت لله تعالى واطمأنّت إلى وعده وسكنت لأمره وطاعته .

وقد أيّد الله تعالى هذه النّفس بجنود عديدة فجعل الملَكُ قرينها وصاحبها الذى يليها ، ويسدّدها ويقذف فيها الحقّ ويرغّبها فيه ، ويريها حسن صورته ، ويزجرها عن الباطل ويزهّدها فيه ويريها قبح صورته ، ثمّ أمدّها بما علّمها من القرآن والأذكار وأعمال البرّ ، وجعل وفود الخيرات ومداد التّوفيق تنتابها وتصل إليها من كلّ ناحية ، وكلّما تلقّت ذلك بالقبول والشّكر والحمد ازداد مددها ويقينها فتقوى على محاربة النّفس الأمّارة والانتصار عليها .

وتسمّى « لوّامة »

وهى التى أقسم بها سبحانه فى قوله تعالى ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة : ٢] . ولكونها لا تثبت على حال واحدة ، وقد أُخذت اللّفظة من « التّلوّم » وهو التّردّد ، فهى كثيرة التّقلّب والتّلوّن ، وهى من أعظم آيات الله فلا تستقرّ على حال لكونها تتلوّن فى السّاعة الواحدة فضلا عن اليوم والشّهر ألوانا متعدّدة من التّصرّفات والأحوال ، فتذكر وتغفل ، وتُقبل وتعرض ، وتلطف وتكشف ، وتنيب وتجفو ، وتُحبّ وتبغض ، وتفرح وتحزن ، وترضى وتغضب ، وتُطيع وتتّقى ، وتؤمن وتفجر ، إلى أضعاف أضعاف ذلك من حالاتها وتلوّنها كلّ وقت ، وهذه الأقوال كلّها حقّ ولا تنافى بينها ، فإنّ النّفس موصوفة بهذا كلّه وباعتباره سمّاها القرآن « النّفس اللّوّامة » .

واللوّامة عند العلماء نوعان:

(الأولى) أنّها اللّوّامة غير الملومة وهي نفس المؤمن التي لا تزال تلوم صاحبها على تقصيرها في طاعة الله عزّ وجلّ مع بذله جهده، فهي تندم على ما فات وتلوم نفسها على الشّر لما فعلته، وعلى الخير لما لم تستكثر منه، وأشرف النّفوس من لامت نفسها في طاعة الله تعالى واحتملت ملام اللائمين في مرضاته، فلا تأخذها فيه لومة لائم ومنه قوله تعالى ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]. فعلى هذه الوجوه تكون «اللّوامة» بمعنى «اللائمة» وهي صفة مدح فيجيء القَسَمُ بها سائغا حسنا في قوله تعالى ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾.

(الثّانية) أنّها بمعنى الملومة «المذمومة» فهي صفة ذمّ عند من نفى أن تكون الآية قسَما، و«الملومة» هي النّفس الجاهلة الظّالمة التي يلومها الله وملائكته ومنه قوله تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩]. والملوم هو الذى يشتدّ لومه من ملائكة العذاب، أمّا المدحور فهو المُهان المُبعد المُقصَى.

وتسمّى «أمّارة بالسُّوء»

وهي النّفس الباعثة بالشّر والآمرة بكلّ سوء وهذا من طبيعتها إلاّ ما وفّقها الله تعالى وثبّتها وأعانها، فما تخلّص واحد من شّر نفسه إلاّ بتوفيق الله تعالى له كما جاء بقوله حاكيا عن امرأة العزيز ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣]. والمعنى: وما أزكّي نفسي لأنّ النّفس أمّارة بالسّوء ميّالة إلى القبائح، راغبة في المعصية توّاقة إلى اللّذات.

فإذا مالت النّفس إلى الشّهوة والغضب كانت «أمّارة بالسُّوء» وكونها «أمَّارَةٌ» يفيد المبالغة، والسّبب فيه أنّ «النّفس» من أوّل حدوثها قد ألفت المحسوسات والتذّت بها وعشقتها، ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول «وَنَعُوذُ بالله من شُرُورِ أنفسنا وسَيِّئات أعْمَالنا». فالشّر كامن في النّفس وهو يُوجب سيئات الأعمال، فإن خَلّى الله بين العبد وبين نفسه يهلك بين شرّها وما يوقعه فيه هواه.

والشّيطان قرين النّفس الأمّارة وصاحبها الذى يلازمها، فهو يعدُها ويمنّيها، ويقذف فيها بالباطل، ويأمرها بالسّوء ويزيّنه لها، ويُطيل الأمل ويمدّ لها فيه، ويُريها الباطل في صورة الحق، ويمدّها بالمدد الباطل من الأماني والشّهوات المهلكة، ويستعين عليها بهواها وإرادتها، فمنه يدخل عليها كلّ مكروه، وما استعان الشّيطان على النّفوس بشيء هو أبلغ من هواها وإرادتها إليه.

(٣) الشّيطان المتمثّل شرّه فى وسوسته وإغوائه

وقد ورد ذكر الشّيطان فى أكثر من ثمانين موضعا فى كتاب الله وأفردت له سورة كاملة، فجاء تحذير الله تعالى لعباده منه أكثر من تحذيره من «النّفس». وهذا الذى لا ينبغى غيره لأنّ «شَرَّ النَّفْسِ» وفسادها ينشأ من وسوسته باعتبارها مَرْكَبُهُ وموضع شرّه ومحل طاعته، وقد أمر سبحانه بالاستعاذة منه فى كلّ أحواله لشدّة الحاجة إلى التّعوّذ منه ولم يأمر بالاستعاذة من النّفس في موضع واحد. فكان من دعائه ﷺ كما فى صحيح أبى داود من حديث أبى الأزهر الأنمارى «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِى ذَنْبِى وَاخْسَأْ شَيْطَانِى وَفُكَّ رِهَانِى وَاجْعَلْنِى فِى النَّدِىِّ الأَعْلَى[١]».

والقرآن الكريم فى آياته البيّنات كشف مقاصد الشّيطان ورصد أعماله وفضح خططه فهو متربّص بالمؤمنين لإيقاعهم فى هُوّة الشّرك والطُّغيان والأخذ بهم إلى طرق الغواية والكفران، وهو فى ذلك يستخدم كلّ أدواته ووسائله من الإلقاء والنّزغ والخنس والوسوسة والتّزيين والتّخبُّط والاستزلال والتّسويل والاستهواء والخذلان والإيحاء، وبذلك جاء التّنبيه والبيان:

* ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾[البقرة: ٢٦٨].
* ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾[البقرة:٢٧٥].
* ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾[آل عمران: ١٥٥].
* ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾[آل عمران: ١٧٥].
* ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[النّساء: ٦٠].
* ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[النّساء: ١٢٠].
* ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [المائدة: ٩٠].
* ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام: ٤٣].
* ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[الأعراف: ٢٢].
* ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[يوسف: ٥].
* ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾[يوسف: ٤٢].
* ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾[الإسراء: ٢٧].

---

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٥٠٥٤].

* ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

* ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤].

* ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٩].

* ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [سورة ص: ٤١].

* ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ٦٢].

* ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [سورة محمد: ٢٥].

* ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٩].

* ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البقرة: ١٠٢].

* ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ [الأنعام: ٧١].

* ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

ويختلف تأثير وسوسة الشّياطين بحسب استعداد الموسوس إليه وقبوله لذلك، فمن أعظم تأثيره الكفر والخروج عن الملّة، فإذا عصم الله العبد من ذلك بقوّة اليقين انقلب تأثيره في صورة أخرى وهي التّشاحن والتّباغض والتّحريش بين النّاس، ثمّ إذا عصم الله تعالى المرء من ذلك أيضا صار خاطرا يجيء ويذهب ولا يبعث النّفس إلى عمل لضعف أثره.

وما أصعب الأمر في حياة البشر إذا [قَارَنَ] النّفسَ الأمّارة [شَيْطَانٌ رجيم] في غاية المكر والخداع، فيعدها ويُمنّيها ويسحرها بجميع أنواع السّحر حتّى يُخيّل إليها النّافع ضارّا والضّار نافعا، والحسن قبيحا والقبيح جميلا، وما استعاذ المؤمنون بربّهم سبحانه من شرّ النّفس الأمّارة وقرينها من الشّياطين، إلاّ لأنّهما أصل كلّ شرّ و قاعدته ومنبع كلّ فتنة وضلال وهما متساعدان عليه متعاونان.

ثانيا - الاستعاذة في كلام العرب

تعني [الاستعاذة] في كلام العرب الاستجارة والتّحيّز إلى شيء على معنى الامتناع به من المكروه من [عَاذَ] به عَوْذًا وعِيَاذًا: التجأ إليه واعتصم به، وتَعَوَّذَ به: لجأ إليه، تقول [أعُوذُ بالله منَ الشَّيْطَان الرَّجيم]. ومنه قول الله تعالى ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]. أي امْتَنِعْ به وَألْجأْ إليه ومصدره العَوْذُ والعِيَاذُ والمَعَاذُ، وغالب استعماله في المستعاذ به، ومنه قوله تعالى ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾. وقوله ﷺ

«ولَقَدْ عُـذْتِ بـِمَعَاذٍ[1]». وفي رواية «لَقَدْ عُذْتِ بعَظِيمٍ».

و(أَعَاذَهُ) بالله حَصَّنَهُ به وبأسـمائـه ومنه قـوله تعالى ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[آل عمران:٣٦]. و[اسْتَعَاذَ بـه]: تَعَوَّذَ، ومنه قول الله تعالى ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾[غافر:٢٧]. و(الْمَعَاذُ) الملجأ. يقال: مَعاذَ الله، ومنه قوله تعالى ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾[يوسف:٢٣]. أى أعوذ بالله تعالى وأستجير به مما دعوتنى إليه، والْمُعَوِّذَتَان: [سورتا الفلق والنّاس] من القرآن الكريم عَوَّذَتا قارِئَهُما، أى عَصَمَتَاهُ من كلّ سوء وشرّ، وكلُّها تحمل معنى التّحصُّن والاعتصام والالتجاء.

ولا يختلف معنى «الاستعاذة» اصطلاحا عن معناها اللُّغوى، عندما عرّفها البيجورى بأنّها الاستجارة إلي ذى مَنَعَةٍ علي جهة الاعتصام به من المكروه. وقول القائل «أَعُوذُ بالله»: [خَبَرٌ] لَفْظًا [دُعَاءٌ] مَعنًي ولكن عند الإطلاق ـ ولا سيّما عند تلاوة القرآن أو الصّلاة ـ تنصرف إلي قول «أَعُوذُ بالله مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» وبما بمنزلتها لما سيأتى بيانه [[2]]. ومنها التَّعْوِيذُ: الرُّقْيَةُ يرقَى بها الإنسانُ من جنون أو فزَع، وقوله: أَعَاذَهُ الله وعَوَّذَهُ به: حَصَّنَهُ به وبأسمائه.

وأصل [اللّفظة] من اللُّجأ إلي الشّىء والاقتراب منه، ومن كلام العرب «أَطْيَبُ اللَّحْمِ عُوَّذُهُ»: أى أطيبه ما وَلِيَ العظمَ كأنّه عاذ به. و«نَاقَةٌ عائذٌ»: يعوذ بها ولدها وجمعها: «عُوذٌ» كحمرٍ ومنه قول بُدَيْلِ بْنِ وَرْقَاء فى حديث الحديبيةَ [[3]] «وَمَعَهُمُ الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ» جمع: مُطْفِلٌ وهى النّاقة التى معها فَصيلها، واللّفظ فيه على حقيقته أى: خرجوا إليك بدوابّهم ومواكبهم حتّى أخرجوا معهم النّياق التى معها أولادها [[4]].

والاعتصام بالله تعالى واللَّوْذُ به من شرّ كلّ ذى شرّ من المخلوقات هو قمّة التّسليم لمشيئته وإرادته سبحانه، لأنّها كلّها فى سلطانه وأنّه الآخذ بناصيتها وهو المعنى الذى تضمّنه قول النّبى ﷺ فيما أخبر به عن ربّه تعالى «وإِنْ سَأَلَني لأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنِ اسْتَعَاذَ بِي لأُعِيذَنَّهُ[5]». ومن دعائه ﷺ عن أبى هريرة رضي الله عنه «أَعُوذُ بكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ[6]».

والنَّاصِيَةُ مُقدّم الرّأس وجمعه [نَوَاصٍ] يقال أخذ بناصية فلان أى سيطر عليه متمكّنا منه من قوله تعالى ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾[هود:٥٦]: أى المسيطر عليها

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٢٥٥].

(٢) انظر الموسوعة الفقهيّة [٤ / ٥].

(٣) جزء من حديث صحيح أخرجه البخارى [٢٧٣١].

(٤) انظر إغاثة اللّهفان [ص ٩٠].

(٥) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٥٠٢].

(٦) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٧١٣] والنّسائى [٧٩٥].

ومالك أمرها والمتصرّف فيها، وكذلك قوله تعالى ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾: أي يُجر المجرمون من نواصيهم وأقدامهم وهو كناية عن إذلال المجرمين وإهانتهم يوم القيامة إذ يُطوى كلّ مجرم فتُربط ناصيته مع قدميه ويؤخذ فيلقى فى النّار عاجزا مُهانـا [(١)].

فالله وحده هو الذى لا ينبغى الاستعاذة إلاّ به، فلا يُستعاذ بأحد من خلقه، بل هو الذى يُعيذ المستعيذين ويعصمهم ويمنعهم من شرّ ما استعاذوا من شرّه، وقد أخبر سبحانه عمّن استعاذ بخلقه، أنّ استعاذته زادته طغيانا ورهقا فقال سبحانه حكاية عن مُؤمنى الجنّ ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[الجنّ:٦].

وفى تفسيرها قالوا [أنّ الرّجُل من العرب فى الجاهليّة كان إذا سافر فأمسى فى أرض قفر قال: أعوذ بسيّد هذا الوادى من شرّ سُفهاء قومه، فيبيت فى أمن وجوار منهم حتى يُصبح». أى فزاد الإنس الجنّ باستعاذتهم بسادتهم «رهقًا»، أى خطيئة وإثما وهو قول ابن عبّاس وقتادة، والرّهَق فى كلام العرب: الأثم وغشيان المحارم، فزادوهم بهذه الاستعاذة غشيانا لما كان محظورا من الكبر والتّعاظم فظنّوا أنّهم سادوا الإنس والجنّ.

وأُضيفت الزّيادة إلى الجنّ إذ كانوا سببا لها، وقال مجاهد [فزادوهم: أى إنّ الإنس زادوا الجنّ طُغيانا بهذا التّعوّذ حتّى قالت الجنّ: سُدنا الإنس والجنّ، وازداد الإنس بهذا فَرَقا وخوفا من الجنّ (٢)].

ونزغ الشّيطان فى قول الله تعالى لنبيّه محمّد ﷺ ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[الأعراف:٢٠٠]: وساوسه ونخسه «فى القلب» بما يُسوّل للإنسان من المعاصى والآثام، من قوله «نَزَغْتُ بَيْنَ الْقَوْمِ»: إذا أفسدت ما بينهم، وقيل النّزغ الإزعاج وأكثر ما يكون عند الغضب، وأصله الإزعاج بالحركة إلى الشّر، عند ذلك يستلزم الأمر الرّكون إلى جناب الله عزّ وجلّ والاستعاذة به من شرّ الشّيطان ونزغه كما فى قوله تعالى ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾. وهذا مُرتهن بأمرين:

(الأوّل) أن تكون الاستعاذة عند هذه الحالة مدخلا لأن يتذكّر المرء نعم الله تعالى عليه وشديد عقابه إليه، فيدعوه كلّ واحد من هذين الأمرين إلى الإعراض عن مقتضى الطّبع والإقبال على أمر الشّرع.

(الثّانى) إذا كان قد ثبت بالنّص أنّ لهذه الاستعاذة أثرا فى دفع نزغ الشّيطان وجبت المواظبة عليه فى أكثر الأحوال.

---

(١) انظر المفردات [ص ٤٩٦] والقاموس القويم للقرآن الكريم [٢ / ٦٧٠].

(٢) انظر تفسير القرطبى [ج ١٩ ص ١٠].

كما أنّ في قوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: دلالة على أنّ الاستعاذة باللّسان لا تُفيد إلاّ إذا حضر في القلب العلمُ الصّحيح بمعنى الاستعاذة، فكأنّه تعالى قال اذكر لفظ الاستعاذة بلسانك فإنّي [سَمِيعٌ]. واستحضر معانيها بعقلك وقلبك فإنّي بما في ضميرك [عَلِيمٌ]. فالقول باللّسان عديم الأثر والفائدة ما لم يُقترن بمعرفة القلب لمعنى الاستعاذة بالله تعالى والتي تأتي بعد ذلك في حياة المؤمنين لُطفا مانعا من تأثير وساوس الشّيطان ونزغه وإغوائه.

ويتعلّق أثر هذه الآية بالتي بعدها إذا عُلم أنّها تبيّن أنّ الرّسول ﷺ قد ينزغه الشّيطان دون أن يُؤثّر في قلبه وأنّ علاج ذلك هو الاستعاذة بالله تعالى، بعكس حال المتّقين الذي يزيد على حال الرّسول ﷺ في هذا الباب وهو أن «يَمَسَّهُمْ» طائفٌ من الشّيطان، وهذا «الْمَسُّ» يكون لا محالة أبلغ من النّزغ الذي هو «كالابتداء» في الوسوسة كما في قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

والطّائف من [طَافَ] يَطُوفُ طَوْفًا وَطَوَافًا: إذا أَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، و[أَطَافَ] يُطِيفُ إِطَافَة: جعل يستدير بالقوم ويأتيهم من نواحيهم، ثمّ سُمِّيَ الجنون والغضب والوسوسة «طَيْفًا» لأنّه لَمَّةٌ من الشّيطان تُشَبَّهُ بلَمَّة الخيَال، (قال) الأزهري [الطَّيْفُ في كلام العرب «الْجُنُونُ»، ثمّ قيل للغضب «طَيْفٌ» لأنّ الغضبان يُشبه المجنون. وقال الفرّاء في هذه الآية: الطّائف والطّيف سواء وهو ما كان كالخيال الذي يَلُمُّ بالإنسان، ومنهم من قال الطَّيْفُ كَالْخَطْرَةِ والطَّائِفُ كَالْخَاطِرِ.

وعلى ذلك فإنّ معنى الآية يشير إلى أنّ الذين اتّقوا المعاصي والآثام إذا لحقهم شيء من طائف الشّيطان تفكّروا في قدرة الخالق جلّ وعلا، وفي إنعامه عليهم فتركوا المعصية وانتهوا عنها، فيزول مسّ هذا الطّائف ويحصل الاستبصار والخلاص من وسوسة الشّيطان كقوله تعالى ﴿تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[1]].

ثم إنّ الخُلُق النّبوي الكريم يأبى أن يسبّ المرء الشّيطان الرّجيم فليس المؤمن بلعّان، وليس بالسَّبّ تكون الوقاية والاحتراز، ولا يرجع الشّيطان عن نزغه وكيده للمؤمنين إلاّ بالاستعاذة بالله تعالى منه ومن شرّ وسوسته لما ثبت من قوله ﷺ من حديث أبي هريرة «لاَ تَسُبُّوا الشَّيْطَانَ وَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ شَرِّهِ[2]».

---

(١) انظر تفسير الفخر الرّازي [ج ١٥ ص ١٠٤].

(٢) أخرجه في صحيح الجامع [٧٣١٨] وأورده في الصّحيحة [٢٤٢٢].

وطبقا لمقتضى الظروف والمؤثّرات التى يعيشها المسلم ويُواجهها فى يومه فإنّ استعاذته بالله تعالى من شرور الدّنيا وآثامها تأتى تبعًا للأحوال التّالية :

ثالثا ـ الإستعاذات الواجبة والمستحبّة فى الجوانب التّعبّديّة

(ا) الإستعاذة فى أوّل الصّلاة

تأتى الاستعاذة فى أوّل الصّلاة عند القراءة مُقدّمة لهذا الفيض القرآني المنزّل، واستحضارًا لجلال الموقف أمام الله تعالى، وتمهيدًا لهذا الجوّ الإيمانى الذى يتلى فيه كتابه، وتطهيراً لقلب القارىء من وساوس الشّيطان التى تحول بينه وبين صفاء اللّقاء بخالقه ومولاه، وتخليصاً لمشاعره من كلّ شوائب الانشغال والغفلة، وتحريرا لنفسه من كلّ عوامل الرّجس والإثم والشّر الذى يرمز إليه هذا الشّيطان لقول الله تعالى ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النّحل : ٩٨] .

وكَانَ رَسُولُ الله ﷺ إذَا قَامَ منَ اللّيْلِ كَبّرَ ثُمّ يَقُولُ « سُبْحَانَكَ اللّهُمّ وَبحَمْدكَ وَتَبارَكَ اسْمُكَ وتَعالَى جدُّكَ ولاَ إِلَهَ غَيرُكَ : ثُمّ يَقُولُ لاَ إِلَهَ إلاّ اللّهُ ـ ثلاثًا ـ ثُمّ يَقُولُ اللّهُ أكْبَرُ كَبيراً ـ ثلاثًا ـ أعُوذُ بالله السّميعِ الْعَليمِ منَ الشّيْطَانِ الرّجِيمِ منْ هَمْزِه وَنَفْخه وَنَفْثه ثُمّ يَقْرأُ(١) » . وجاء في رواية « قيل يارسول الله ما همزه ونفثه ونفخه ؟ فقال : أَمّا هَمْزُهُ فَالمَوْتَةُ ، وَأَمّا نَفْثُهُ فَالشّعْرُ ، وَأَمّا نَفْخُهُ فَالْكِبْرُ(٢) » . قال أبو عبيد [فهذا تفسير من النّبى ﷺ ولتفسيره تفسير أيضا :

* فالْمَوْتَةُ الجُنونُ ، وإنّما سَمّاهُ هَمزًا لأنّه جَعَلَهُ مِنَ النّخسِ والغمزِ ، وكُلُّ شيْءٍ دفَعْتَهُ فقد هَمَزْتَهُ .

* وأمّا الشّعْرُ فإنّه سَمّاهُ نَفثًا لأنّه كالشّيء يَنفُثُهُ الإنْسَانُ من فَمه مثل الرُّقْيَة ونحوها ، وليس معناه إلاّ الشّعْر الذى كان المشركون يقولونه فى النّبى ﷺ وأصحابه .

* وأمّا الْكِبرُ فإنّما سُمّى نَفخًا لما يُوسْوسُ إليه الشّيْطَانُ فى نفسه فَيُعَظِّمُهَا عنده وَيُحقِّرُ النّاسَ فى عينيه حتّى يَدْخُلَهُ لذلك الكِبْرُ والتّجبُّرُ والزّهْوُ(٢)] .

واختُلف فى حُكم الاستعاذة ومحلّها وصيغتها والجهر بها وتكرارها فى الرّكعات على النّحو التّالى :

---

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٧٧٥] والنّسائى [٨٩٨] والحاكم [٧٨٩] .

(٢) انظر غريب الحديث [ج ٢ ص ٤٤٣ / ح ٢٤٩] .

(١) أمّا عن حكمها عند أوّل الصّلاة وقبل القراءة فهي عند الأئمّة الثّلاثة والجمهور سُنَّةٌ مستحبّة، يأتي بها المصلّي قبل القراءة، وهو قول جمهور العلماء من الصّحابة والتّابعين فمَنْ بعدهم، واستدلوا بقوله تعالى ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾. أي إذا أردت أن تقرأ فأوقع الماضي موقع المستقبل [بمعنى]: إذا أردت القراءة فاستعذ، وإذا قلت فاصدُق، وإذا أحرمت فاغتسل، والأمر في الآية محمول على النّدب باتّفاق الأئمّة، وقال مالك وأصحابه تُكره في الفرض دون النّفل والأحاديث تردّ عليهم ولا وجه لهم في هذه التّفرقة [(١)].

(٢) والتّعوّذ ليس من القرآن ولا آية منه وهو قول القارىء: [أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ] وهذا اللّفظ هو الذي عليه الجمهور في التّعوّذ لأنّه لفظ كتاب الله تعالى، وعن ابن المنذر قال «جاءَ عَنِ النّبيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ قَبْلَ الْقِرَاءَةِ أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ(٢)». وذُكر عن الشّافعي: يحصُل التّعوّذ بكلّ ما اشتمل على الاستعاذة باللّهمن الشّيطان، لكن أفضله [أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ]. وهو ظاهر قول الله تعالى ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[فصّلت: ٣٦].

(٣) والاستعاذة يأتي بها كلُّ مُصَلٍّ سرًّا قبل القراءة في أوّل الرّكعة، وهو قول أكثر العلماء من فقهاء الأمّة لحديث أبي سعيد رضي الله عنه «أَنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ يَتَعَوَّذُ فِي صَلاَتِه قَبْلَ الْقِرَاءَةِ(٣)». ويختصّ التّعوّذ بالرّكعة الأولى دون غيرها من ركعات الصّلاة واستدلوا على ذلك بما رواه أبو هريرة رضي الله عنه «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا نَهَضَ فِي الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ افْتَتَحَ الْقِرَاءَةَ بِالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَمْ يَسْكُتْ(٤)».

وفي الحديث دلالة على أنّه ﷺ لم يكن يستفتح ولا يتعوّذ في غير الأُولى، ولأنّ الصّلاة جملة واحدة فالقراءة فيها كلّها كقراءة واحدة فيلزم لها تعوّذ واحد في أوّل الصّلاة، لأنّ الاستعاذة قبل القراءة تُذهب الوسوسة عن القارىء حال القراءة، وتكراره مُستحبّ عند الشّافعية في ابتداء القراءة في كلّ ركعة لكلّ مُصَلٍّ لا فرق بين إمام ومأموم ومُنفرد وقالوا إنّه في الرّكعة الأولى آكد [(٥)].

(٢) الاستعاذة عند تلبيس القراءة

والمسلم عندما يقف موقف الطّاعة بين يدي ربّه تعالى، فإنّه يقوم في أعظم مقام

(١) انظر المنهل العذب المورود [ج ١ص ١٨٧].

(٢) أخرجه أبوداود في المراسيل [٢٤] عن الحسن البصري.

(٣) أورده ابن العربي في أحكام القرآن [ج ٢ ص ١١٧٦].

(٤)حديث صحيح أخرجه مسلم [٥٩٩] ولا يوجد عند غيره من الجماعة.

(٥) انظر المنهل العذب المورود[ج ٥ ص ١٨٨].

وأقربه إليه وأغيظه للشيطان وأشده عليه لما روى أنه «إذا رأى ابن آدم ساجداً، اعتزل ناحية يبكى ويقول: ياويله ؟ أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فعصيت فلى النار(١)». فكلما ازدادت غيرته واشتد غيظه، حاول أن يفسد عليه صلاته، ويلبس عليه قراءته، وينتزع منه خشوعه، ويحول بينه وبين إقباله على ربه، فلا يدرى كم صلى من الركعات ولا يعرف حقيقة ما استوفاه من السنن والواجبات.

ولهذا يخطئ القارئ تارة ويخلط عليه القراءة أخرى أو يشوش عليه ذهنه وقلبه، فإذا حضر القراءة لم يعدم منه القارئ هذا أو هذا، وربما جمعهما له فكان من المهم أن «يستعيذ» بالله تعالى منه، كهذا الذى كان يحول بين عثمان بن أبى العاص الثقفى وبين صلاته وقراءته يلبسها عليه فاشتكى ذلك للنبى ﷺ فقال له «ذاك شيطان يقال له خنزب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله تعالى واتفل عن يسارك ثلاثا، قال ففعلت فأذهبه الله عنى(٢)».

وفى الحديث الدلالة على أن الشيطان أحرص ما يكون على اقتناص الإنسان عندما يهم بالخير أو يدخل فيه، فحينئذ يشتد عليه ليقطعه عنه، وكلما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله تعالى كان اعتراض الشيطان له أقوى، وفى الصحيح عن النبى ﷺ «إن شيطانا تفلت على البارحة فأراد أن يقطع على صلاتى(٣)».

وعندما يحاول الشيطان اللعين أن يلبس على المصلى صلاته، فإن الشرع قد جعل له سجدتى السهو طريقا إلى جبر هذه الصلاة، وتداركا لما ألبسه عليه، ورداً لكيده خاسئا مبعدا عن مراده فى إفسادها، فتكتمل صلاته بذات السجود الذى عصى به إبليس ربه تعالى لما روى عن عطاء بن يسار رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال «إذا شك أحدكم فى صلاته، فلا يدرى كم صلى ثلاثا أو أربعا، فليصل ركعة وليسجد سجدتين وهو جالس قبل التسليم، فإن كانت الركعة التى صلى خامسة شفعها بهاتين، وإن كانت رابعة فالسجدتان ترغيم للشيطان(٤)».

(٣) الاستعاذة عند قراءة القرآن

تأتى الاستعاذة قبل القراءة تمهيداً لهذا الجو الملائكى الذى يتلى فيه كتاب الله تعالى، وتطهيرا لقلب القارئ من الوسوسة التى تشغله عن الفهم الصحيح لمعانيه السامية،

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٨١] وابن ماجه [٨٧١].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٠٣] وأحمد [١٧٨٢٣] والطبرانى فى الكبير [٨٣٦٨].

(٣) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٤٢٣] ومسلم [٥٤١].

(٤) حديث صحيح أخرجه أبو داود [١٠٢٦] ومالك [٢٠٧] وأحمد [١١٦٨٩].

وتوجيهًا لمشاعره الفيّاضة إلى الله خالصة لا يشغلها شاغل من عالم الرّجس والشّر الذى يُمثله الشّيطان الرّجيم.

كما تأتي عنوانا وإعلاما بأنّ الذى يأتي بعدها هو كلام الله تعالى ولهذا لم تشرع الاستعاذة بين يدى كلام غيره، بل تأتى مُقدّمة وتنبيها للسّامع أنّ الذى يأتى بعدها هو التّرتيل والتّلاوة، والذّكر والضّراعة، وقد شُرع ذلك للقارىء وإن كان وحده، وجاء الأمر بذلك فى قوله تعالى ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النّحل:٩٨]. أى إذا أخذت فى قراءته فاستعذ بالله تعالى من أن يعرض لك شيطان فيصدّك عن تدبُّره والعمل بما فيه.

(قال) فى الفتح [هذا مُقدَّم ومُؤخَّر وذلك أنّ الاستعاذة قبل القراءة و[التّقدير]: فإذا أخذت فى القراءة فاستعذ، وقيل: هو على أصله لكن فيه إضمار: أى إذا أردت القراءة، لأنّ الفعل يُوجد عند القصد من غير فاصل(١)].

ومعنى الاستعاذة فى الآية الاعتصام بالله تعالى وهو قول أبى عبيدة، والأمر فيه على النّدب فى قول الجمهور، وحكى النّقّاش عن عطاء أنّ الاستعاذة واجبة فى صدر كلّ قراءة فى غير الصّلاة.

ويتحقّق من الاستعاذة قبل الشّروع فى القراءة أمران:

(الأوّل) حصُول فائدة القرآن وتحقيق بركته وحضور الملائكة التى تدنو من القارىء وتستمع لقراءته كما فى حديث أسيد بن حضير لمّا كان يقرأ ورأى مثل الظُّلّة فيها مثل المصابيح فقال رسول الله ﷺ «تلْكَ الْمَلائكَةُ(٢)». والشّيطان ضد المَلَك وعدوّه فأُمر القارىء أن يطلب من الله إلى مباعدة عدوّه عنه حتّى يحضره خاصّ ملائكته، فهذه منزلة لا تجتمع فيها الملائكة والشّياطين.

(الثّانى) بَقَاء فائدة القرآن وثباتها وحفظها تحصُّنا من هجوم الشّيطان على القارىء بخيله ورَجله حتّى يشغله عن المقصود بالقرآن، وهو تدبّره وتفهّمه ومعرفة ما أراد به المتكلّم به سبحانه، فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن فلا يكمل انتفاع القارىء به، فأمر عند الشّروع فى القراءة أن يستعيذ بالله عزّ وجلّ من شرّه وكيده [(٣)].

(١) انظر فتح البارى [ج ٨ ص ٢٣٦].

(٢) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٠١٨] ومسلم [٧٨٦].

(٣) انظر إغاثة اللّهفان [ص ٩١].

(٤) الاستعاذة عند دخول المسجد

يستحبّ عند الدّخول إلي المسجد الاستعاذة بالله تعالى من الشّيطان الرّجيم كما في سنن أبي داود عن عبد الله بن عمرو عن النبيﷺ أنّه كان إذا دخل المسجد قال «أَعُوذُ بِاللهِ الْعَظِيمِ وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ، قَالَ الشَّيْطَانُ حُفِظَ مِنِّي سَائِرَ الْيَوْمِ(١)». وجاء في رواية للحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ فَلْيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَلْيَقُلِ :اللَّهُمَّ أَجِرْنِي مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ(٢)». أى من وساوسه ونزغاته من قوله تعالى﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾.

وتأتي الاستعاذة من الشّيطان في هذا المقام تحقيقا لمسألتين:

(الأولى) أنّها تأتي بمعنى الدُّعاء والحفظ من شرّ وسوسته وإغوائه وخطواته وخَطَرَاتِهِ وتسويله وإضلاله، لكونه السّبب في الضّلالة والغواية والإفساد.

(الثّانية) أنّ مقصودها التّعوُّذ من صفات الشّيطان الرّجيم وأخلاقه من الحسد والكبر والعجب والغرور والعصيان والإغواء.

وقوله «فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ»: أى إذا قال هذا الدُّعاء داخل المسجد قال الشّيطان «حُفِظَ مِنِّي سَائِرَ الْيَوْمِ». أى فلا أقدر على أن أُوَسْوِسَ له فيه، والمراد به مُطلق الوقت وتفصيل ذلك عند العلماء:

(١) إن أُريد حفظه من جنس الشّياطين وإغوائهم تعيّن حَمْلُهُ على حفظه من شيء مخصوص وهو الكبائر.

(٢) وإن أُريد حفظه من إبليس فقط بقى الحفظ على عمومه فيشمل الصّغائر، وما يقع منه من الذُّنوب حاصل من إغواء جنوده.

وقد جاء في هذا الباب أذكار كثيرة ومجموعها أن يقال عند الدّخول «أَعُوذُ بِاللهِ الْعَظِيمِ وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، بِسْمِ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ وَسَلِّمْ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ». ويقال ذلك أيضا عند الخروج من المسجد غير أنّه يقول «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ» بدلا قوله «اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ(٣)».

---

(١) حديث صحيح أخرجه أبوداود [٤٦٦] والنّسائي [٢٩٣].

(٢) أخرجه الحاكم [٧٧١] وقال صحيح على شرط الشّيخين.

(٣) انظر المنهل العذب المورود [ج ٤ ص ٧٦].

(٥) التعوّذ من أربع بعد التّشهّد الأخير

يستحبّ للمصلّى أن يستعيذ بالله تعالى من مجامع الشّر كلّه بعد تشهّده الأخير، فليس الشّر إلاّ العذاب وأسبابه، لما ثبت فى الصّحيح أنّ النّبى ﷺ كان يتعوّذ بالله تعالى من فتنة المحيا، وفتنة الممات، ومن فتنة المسيح الدّجّال، وفتنة القبر، وأمر المسلمين أن يتعوّذوا منها قبل خروجهم من الصّلاة لحديث أبى هريرة عند أبى داود أنّ النّبىﷺ قال «إِذَا فَرِغَ أَحَدُكُمْ مِنَ التَّشَهُّدِ الأَخِيرِ فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ(١)». وفى رواية النّسائى «إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ:».

وجاءت رواية مسلم في صحيحه عن ابن عبّاس بلفظ «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُعَلِّمُهُمْ هَذَا الدُّعَاءَ كَمَا يُعَلِّمُهُمُ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ(٢)».

ومحل هذا التّعوّذ يكون بعد التّشهّد وقبل السّلام كما جاء قوله ﷺ «إِذَا فَرَغَ أَحَدُكُمْ مِنَ التَّشَهُّدِ الأَخِيرِ». وقوله «إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ:». وفى هذا كلّه تعيين الاستعاذة بعد الفراغ من التّشهّد فيكون سابقا على غيره من الأدعية، كما أنّ فيه التّصريح باستحبابه فى التّشهّد الأخير والإشارة إلى أنّه لا يستحبّ فى الأوّل، لكون التّشهّد الأوّل مبنى على التّخفيف [(٣)]. وهذه الاستعاذة من آكد أدعية الصّلاة حتّى أوجب بعض السّلف والخلف الإعادة على من لم يدعو بها بعد التّشهّد الأخير، وتتضمّن الرّوايات الاستعاذة من أربع كما جاء فى رواية أبى هريرة رضي الله عنه:

(أوّلها) الاستعاذة من عذاب جهنّم

والعذاب إمّا أن يكون فى البرزخ أو فى الآخرة، وأسبابه إمّا أن تكون فتنة الحياة التى يُمكن تداركها بالتّوبة إلى الله والرّجوع إليه، أو فتنة الدّجّال وفتنة الممات اللّتين لا يدرك المفتون فيهما رجوعا ولا إنابة. وتأتى استعاذة النّبى ﷺ من جهنّم لشدّتها وصعوبة ما فيها لما روى عن أبى هريرة قال «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ(٤)».

---

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٩٨٣] والنّسائى [١٣٠٩].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٥٩٠] وأبو داود [١٥٤٢] والتّرمذى [٣٤٩٤].

(٣) انظر نووى مسلم [ج ٣ ص ٩٣].

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٣٣ / ٥٨٨] والنّسائى [٥٥٣٢].

وكان يقول «تَعوَّذُوا باللهِ منْ عَذابِ النَّارِ وعَذابِ الْقَبرِ[(١)]». وكان يدعو بهؤلاء الكلمات «اللَّهمَّ إِنِّي أعُوذُ بكَ مِنْ فِتْنَةِ النَّارِ وعَذابِ النَّارِ[(٢)]».

وأصل [العذاب] فِي كلامِ العربِ الْعِقابُ والنَّكالُ وكُلُّ ما شَقَّ على النّفس ثمّ استُعمل في كلّ عقوبة مُؤلمة [(٣)]. ولمّا علم المؤمنون أنّ غريم جهنّم المتمثّل في الشّر ملازم لقرينه غير مفارق له كان دعاؤهم ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾[الفرقان: ٦٥].

(والثانى) الاستعاذة من عذاب القبر

الإيمان بعذاب القبر وفتنته واجب والتّصديق به لازم حسبما أخبر به الصّادق الأمين ﷺ، وأنّ الله تعالى يُحيي العبد المكلّف في قبره بردّ الحياة إليه فيجعله من العقل في مثل الوصف الذى عاش عليه ليعقل ما يُسأل عنه وما يُجيب به ويفهم ما أتاه من ربّه تعالى وما أعدّ له في قبره من كرامة أو هوان.

وهذا هو الثّابت بالكتاب عند أهل السُّنّة والجماعة ومنه قوله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾[الأنعام: ٩٣]. وفيه قال ابن عبّاس «هَذا عندَ الْموْتِ والْبَسْط: الضَّرْبُ، يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُم وأَدبارَهُم». ويشهد له قول الله تعالى ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾. وهذا وإن كان قبل الدّفن فهو من جملة العذاب الواقع قبل يوم القيامة.

وجاء في البخارى من حديث البراء بن عازب «في قوله ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾[إبراهيم: ٢٧[(٤)]]. أَنَّها نَزلَتْ في عَذابِ الْقَبْرِ». والمراد تثبيت المؤمن في القبر عند سؤال الملكين إيّاه. (قال) الكرماني: [ليس في الآية ذكر لعذاب القبر، فلعلّه سمّى أحوال العبد في قبره «عَذابَ الْقَبْرِ» تغليبا لفتنة الكافر على فتنة المؤمن لأجل التّخويف، ولأنّ القبر مقام الهول والوحشة ولأنه ملاقاة الملائكة ممّا يُهابُ منه ابن آدم في العادة[(٥)]].

وكما ثبت عذاب القبر بالكتاب ثبت بالسُّنّة كذلك كما في قول النّبي ﷺ لأهل القَليب لمّا اطّلع عليهم «هَلْ وَجدتُم ما وَعدكُمْ ربُّكُم حقًّا؟. فقِيلَ لهُ: تَدْعُو أمْواتًا؟

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٨٦٧] والنّسائى [٥٥٣٣].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٣٧٥] ومسلم [٢٠٧٨] وأبو داود [١٥٤٣].

(٣) انظر الموسوعة الفقهيّة [٣١ / ٢٦٩].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [١٣٦٩] ومسلم [٢٨٧١].

(٥) انظر فتح البارى [ج ٣ ص ٢٧٧].

فَقَالَ: مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لاَ يُجِيبُونَ[(١)]». (قال) السّهيلي: [وإذا جاز أن يكونوا في تلك الحال «عالمين» جاز أن يكونوا «سامعين» إمّا بآذان «رءوسهم» كما هو قول الجمهور، أو بآذان «أَرْوَاحِهِمْ» على رأى من يوجّه السّؤال إلى الرّوح من غير رجوع إلى الجسد[(٢)]].

والعبد في القبر إمّا مُؤمن وإمّا كافر أو منافق، فيقالُ للمُؤمن «مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟» أى في مُحمَّد ﷺ «فَيَقُولُ أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ». «فَيُقَالُ لَهُ انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَدًا فِي الْجَنَّةِ فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا». وأمّا المنافق أو الكافر فيقال له «مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ لاَ أَدْرِي! كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ. فَيُقَالُ لاَ دَرَيْتَ وَلاَ تَلَيْتَ، وَيُضْرَبُ بِمَطَارِقَ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ[(٣)]». وقامت حكمة إسماع غير الثّقلين عذاب القبر عند العلماء على قولين:

(الأوّل) أنّ الله تعالى صَرَفَ أبصار العباد وأسماعهم عن مشاهدة ذلك وسَتَره عنهم إبقاء عليهم لئلاّ يتدافنوا، وليست للجوارح الدّنيوية قدرة على إدراك أمور الملكوت إلاّ من شاء الله تعالى، وقد ثبتت الأحاديث بما ذهب إليه الجمهور كقوله «إِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ إِذَا انْصَرَفُوا[(٤)]». وقوله «حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلاَعُهُ[(٥)]». وقوله «يُسْمَعُ صَوْتُهُ إِذَا ضَرَبَهُ بِالْمِطْرَاقِ». وقوله «يُضْرَبُ بَيْنَ أُذُنَيْهِ». وكلّ ذلك من صفات الأجساد [(٦)]. وهو ما يجمعه قوله ﷺ عن عائشة «إِنَّهُمْ يُعَذَّبُونَ عَذَابًا تَسْمَعُهُ الْبَهَائِمُ كُلُّهَا[(٧)]».

ولمّا كانت حكمة الدّفن منفيّة في حقّ البهائم فإنّها سمعت ذلك وأدركته ودليل ذلك ما أصاب بغلة رسول الله ﷺ عندما نفرت ومالت عن الطريق لمّا مرّت بمن يُعذَّبُ في قبره قرب حائط لبني النّجار وكادت تُلقي برسول الله ﷺ لولا حفظ الله تعالى له، ويتأيّد هذا بما جاء عند مسلم من حديث زيد بن ثابت قال «بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي حَائِطٍ لِبَنِي النَّجَّارِ عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ وَنَحْنُ مَعَهُ، إِذْ حَادَتْ بِهِ فَكَادَتْ تُلْقِيهِ، وَإِذَا أَقْبُرٌ سِتَّةٌ أَوْ خَمْسَةٌ أَوْ أَرْبَعَةٌ! فَقَالَ: مَنْ يَعْرِفُ أَصْحَابَ هَذِهِ الأَقْبُرِ؟ فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا، قَالَ فَمَتَى مَاتَ هَؤُلاَءِ؟

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [١٣٧٠] ومسلم [٢٨٧٤].

(٢) انظر فتح البارى [ج ٣ ص ٢٧٧].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [١٣٧٤] ومسلم [٢٨٧٠]. والمراد بالثَّقَلَين الإنس والجنّ، قيل لهم ذلك لأنّهم كالثِّقَلِ على وجه الأرض، أولتحمُّلهم ثِقَلَ التّكاليف.

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٧١ / ٢٨٧٠].

(٥) من حديث صحيح أخرجه الحاكم [١٠٧].

(٦) انظر فتح البارى [ج ٣ ص ٢٧٨].

(٧) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٣٦٦] ومسلم [٩٠٣].

قَالَ مَاتُوا فِى الإِشْرَاكِ ، فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبْتَلى فِى قُبُورِهَا(١) » الحديث.

(الثّانى) لـمّا استثنى الخالق سبحانه الإنس فقط دون الجنّ من سماع قول الميت «قَدِّمُونِى» كما فى رواية البخارى «يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَىْءٍ إِلاَّ الإِنْسَانُ(٢) » . ولا يسمعهم صوته إذا عُذِّبَ بأنّ كلامه قبل الدّفن متعلّق «بأحكام الدّنيا» وصوته إذا عُذِّبَ فى القبر مُتعلّق «بأحكام الآخرة» . وقد أخفى الله تعالى على المكلّفين أحوال الآخرة إلاّ من شاء الله إبقاءً عليهم [(٣)] . ويتأيد هذا بقوله ﷺ «لَوْلاَ أَنْ لاَ تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ عَذَابَ الْقَبْرِ(٤) » . أى لولا خشية أن يُفضى سماعكم إلى ترك أن يدفن بعضكم بعضا «أَنْ يُسْمِعَكُمْ» : من الإسماع «عَذَابَ الْقَبْرِ» أى الصّوت الذى هو أثره وإلاّ فالعذاب لا يُسمع .

والقبر أوّل منازل الآخرة فإن خلُص المقبور من عذابه كان ما بعده من المنازل أيسر وأسهل لقوله ﷺ من حديث عثمان «إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِ الآخِرَةِ ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ » . ثُمَّ قَالَ «مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلاَّ وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ(٥) » . أى ما رأيتُ منظرا مُقذِذًا على حالة من أحوال الفظاعة إلاّ فى حالة كون القبر أقبح منه . وقوله «أَوَّلُ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِ الآخِرَةِ» : أى ما بعده من عَرْصَة القيامة عند العرض والوقوف عند الميزان ، والمرور على الصّراط ثمّ الجنّة أو النّار .

(الثّالث) الاستعاذة من فتنة المحيا والممات

هى كلمة جامعة لمعانى كثيرة تُرغّبُ المرء فى أن يلجأ إلى ربّه لرفع ما نزل ودفع ما لم ينزل ، وحتّى يستشعر الافتقار إلى خالقه فى كلّ وقت وحين ، وكان رسول الله ﷺ يتعوّذ من جميع ما ذُكر دفعا عن أمّته وتشريعا لهم ليُبيّن صفة المهمّ من الأدعية ، و[فتنة المحيا] ما يعرض للإنسان مدّة حياته من الافتتان بالدّنيا والشّهوات وأعظمها أمر الخاتمة عند الموت ، و[فتنة الممات] يجوز أن يُراد بها الفتنة عند الموت ، وأُضيفت إليه لقُربها منه ، ويكون المراد بفتنة المحيا على هذا ما قبل ذلك ويجوز أن يراد بها فتنة القبر .

وقد صحّ فى حديث أسماء «إِنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِى قُبُورِكُمْ مِثْلَ أَوْ قَرِيبَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ(٦) » . ولا يكون مع هذا الوجه متكرّرا مع قوله «عَذَابَ الْقَبْرِ» . لأنّ العذاب

---

(١) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٦٧ / ٢٨٦٧] .

(٢) أخرجه البخارى [١٣١٦] .

(٣) انظر فتح البارى [ج ٣ ص ٢٨٣] .

(٤) أخرجه مسلم [٢٨٦٨] والنّسائى [٢٠٥٧] .

(٥) حديث حسن أخرجه الترمذى [٢٣٠٨] وابن ماجه [٤٢٦١] .

(٦) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٨٦] .

مُرتّب على الفتنة والسّبب غير المسبّب. وقيل: أراد بفتنة المحيا الابتلاء مع زوال [الصّبر]، وبفتنة الممات السّؤال في القبر مع [الحَيْرة] وهذا من العام بعد الخاص لأنّ عذاب القبر داخل تحت فتنة الممات، وفتنة الدّجّال داخلة تحت فتنة المحيا [(١)]. وأصل الفتنة الامتحان والاختبار كما في قوله تعالى ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]. واستعملت اللّفظة في الشّرع في اختبار كشف ما يكره. يقال [فَتَنْتُ الذّهبَ] إذا اختبرته بالنّار لتنظر جودته، وكذا في الغفلة عن المطلوب كقوله تعالى ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨].

كما تستعمل في الإكراه على الارتداد عن الدّين كقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [البروج: ١٠]. واستعملت أيضا في الإشارة إلى الضّلال والإثم والكُفر والعذاب والفضيحة، كما يُعرف المراد حيثُما ورد بالسّياق والقرائن [(٢)].

(الرّابع) الاستعاذة من فتنة المسيح الدّجّال

اختُلف في تلقيب الدّجّال بذلك فقيل لأنّه ممسوح العين، وقيل لأنّ أحد شقّيْ وجهه خُلق ممسوحا لا عين فيه ولا حاجب، وقيل لأنّه يمسح الأرض إذا خرج، أمّا تسميته بالدّجّال فلأنّه خدّاعٌ مُلبّس من الدّجل وهو الخلط والتّغطية لأنّه يخلط الحقّ بالباطل ويغطّيه به، وممّا جاء من خبر الدّجّال قول النّبيّ ﷺ من حديث أبي مسعود الأنصاري «إنَّ الدَّجَّالَ يَخْرُجُ وإنَّ مَعَهُ مَاءً ونَارًا، فأَمَّا الَّذي يَراهُ النَّاسُ مَاءً فَنارٌ تَحْرِقُ، وأَمَّا الَّذي يَراهُ النَّاسُ نَارًا فَمَاءٌ بَارِدٌ عَذْبٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَلْيَقَعْ في الَّذي يَرَاهُ نَارًا فإنَّهُ مَاءٌ عَذْبٌ طَيِّبٌ(٣)».

واستعاذ ﷺ من كلّ هذه الأمور وهو معصوم منها تعليما للأمّة كما استعاذ من الدّجّال مع أنّه لم يكن في زمانه ﷺ لينتشر خبره بين الأمّة الرّاشدة من جماعة إلى جماعة بأنّه خدّاع كذّاب ساعٍ في الأرض بالفساد ساحر، فلا يلتبس حاله على المؤمنين عند خروجه ويعلمون أنّ جميع دعاويه باطلة، وإشارة إلى أنّ الشّر يُستعاذ منه وإن بَعُدَ زمانه.

رابعا - استعاذات اليوم الموظّفة

وهي التي لا ينبغي للعبد أن يخلّ بها لشدّة الحاجة إليها وعظيم الانتفاع بها في الآجل والعاجل وتتضمّن الإشارة إلى بعض الأمور التي تتّصل بحياة المرء اليومية وهي التي نأتي بها على النّحو التّالي:

(١) انظر فتح الباري [ج ٢ ص ٣٧١].
(٢) انظر فتح الباري [ج ١١ ص ١٨٠].
(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٩٣٥].

(١) الاستعاذة عند النوم:

كان رسول الله ﷺ إذا أمسى استعاذ بربه سبحانه من شرّ الليل وشرّ ما بعده بقوله «ربِّ أسألك خير هذه الليلة وخير ما بعدها، وأعوذ بك من شرِّ هذه الليلة وشرِّ ما بعدها، ربِّ أعوذ بك من الكسل ومن سوء الكبر أو الكفر، وأعوذ بك من عذاب في النار وعذاب في القبر(١)». وفي الترمذي عن عمرو بن شعيب رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال «إذا فزع أحدكم في النوم فليقل أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون، فإنها لن تضره(٢)».

كما تُستحبّ الاستعاذة عند النوم لحديث عائشة «أنّ رسول الله ﷺ كان إذا أخذ مضجعه نفث في يديه وقرأ بالمعوذات ومسح بهما جسده(٣)». والنّفث من: نفث ينفث نفثا ونفثانا: نفخ، و[الشيء] من فمه: رمى به، وقال أهل اللغة: النفث نفخ لطيف بلا ريق. والنّفث ينبغي أن يكون بعد التلاوة ليوصل بركة القرآن إلى بشرة القارىء والمقروء له، وجاء عند البخاري في باب الطّبّ «ثمّ يمسح بهما وجهه وما بلغت يداه من جسده(٤)».

والمعوّذتان هما خير سورتين قرئتا ويزيدان على غيرهما من السّور في باب التعويذ إذ لم توجد سورة كلّها تعويذ إلا هاتين السورتين ومنه قوله ﷺ لعقبة بن عامر «ياعقبة تعوّذ بهما فما تعوّذ متعوّذ بمثلهما(٥)». وعن عليّ رضي الله عنه رفعه «كان رسول الله ﷺ يقول عند مضجعه اللهمّ إني أعوذ بوجهك الكريم وكلماتك التامات من شرّ كلّ شيء أنت آخذ بناصيته(٦)».

(٢) الاستعاذة عند الرّؤيا يكرهها:

وهو حاصل ما ذكره رسول الله ﷺ من أدب الرّؤيا المكروهة والذي يقضي بأن يتعوّذ من شرّها وشرّ الشيطان، وذلك لمشروعية الاستعاذة عند كلّ أمر يكره لقوله ﷺ من حديث أبي سعيد «وإذا رأى غير ذلك ممّا يكرهه فإنّما هي من الشّيطان فليستعذ بالله من شرّها ولا يذكرها لأحد فإنّها لا تضرّه(٧)». وفي رواية «وليستعذ بالله من

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٧٢٣] والترمذي [٣٣٩٠] وأبو داود [٥٠٧١].

(٢) أخرجه الترمذي [٣٥٢٨] وقال هذا حديث حسن غريب.

(٣) حديث صحيح أخرجه البخاري [٦٣١٩].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخاري [٥٧٤٨].

(٥) حديث صحيح أخرجه أبو داود [١٤٦٣] والنسائي [٥٤٥٣].

(٦) حديث حسن أخرجه أبو داود [٥٠٥٢] والنسائي في عمل اليوم والليلة [٧٦٧].

(٧) حديث صحيح أخرجه البخاري [٦٩٨٥] والترمذي [٣٤٥٣].

شرِّهَا ؛ فَإِنَّهَا لاَ تَضُرُّهُ [١]». ويحتاج مع الاستعاذة إلى صدق التّوجُّه إلى الله تعالى ولا يكفى إمرار الاستعاذة على اللّسان.

كما ورد فى صفة التّعوُّذ من شرّ الرُّؤيا أثر صحيح عن إبراهيم النَّخعى «إِذَا رَأَى أَحدُكُمْ فِي مَنَامِه مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُلْ إِذَا اسْتَيْقَظَ أَعُوذُ بِمَا عَاذَتْ بِهِ مَلاَئِكَةُ اللهِ وَرُسُلُه مِنْ شَرِّ رُؤْيَايَ هَذِه أَنْ يُصِيبَنِي فِيهَا مَا أَكْرَهُ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ[٢]». وكذلك ورد فى الاستعاذة من التّهويل فى المنام ما أخرجه مالك قال «بَلَغَنِي أَنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ قَالَ يَارَسُولَ اللهِ إِنِّي أُرَوَّعُ فِي الْمَنَامِ ؟ فَقَالَ قُلْ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ وَشَرِّ عِبَادِه وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونَ[٣]».

ويترتّب على الحكمة من النّهى عن التّحدُّث بالرُّؤيا يكرهها المرء أمران :

(الأمرالأوّل) طرد الشّيطان وإظهار احتقاره واستقذاره، ولكونها مخلوقة على شاكلته وواقعة على هواه ومُراده، ولأنّه يُخيّل بها بقصد تحزين الآدمى والتّهويل عليه.

(قال) القرطبى [ظاهر الخبر أنّ هذا النّوع من الرُّؤيا يعنى ما كان فيه تهويل أو تخويف أو تحزين هو المأمور بالاستعاذة منه لأنّه من تخيّلات الشّيطان، فإذا استعاذ الرّائى منه صادقا فى التجائه إلى الله وفَعَل ما أمَره به من التّفل والتّحوُّل والصّلاة أذهب الله عنه ما به وما يخافه من مكروه ذلك ولم يصبه منه شىء[٤]].

(الأمرالثّانى) ألاّ يكون التّحدُّث بها ذريعة إلى انتقالها من مرتبة الوجود اللّفظى إلى مرتبة الوجود العينى كما انتقلت من الوجود الذّهنى إلى اللّفظى، وهكذا عامة الأمور تكون فى الذّهن أولا، ثمّ تنتقل إلى الذّكر ثمّ تنتقل إلى الحسّ، وهذا من ألطف سدّ الذّرائع وأنفعها، ومن تأمّل عامّة الشّر رآه متنقلا فى درجات الظّهور طَبَقًا بعد طَبَقٍ من الذّهن إلى اللّفظ إلى الخارج.

(٣) الاستعاذة عند إرادة قضاء الحاجة

تسنّ الاستعاذة بالله تعالى عند إرادة قضاء الحاجة فى الأمكنة المعدّة لذلك وغيرها وعليه الإجماع لحديث أنس رضي الله عنه قال «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ الْخَلاَءَ قَالَ اللَّهُمَّ

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٢٩٢] ومسلم [٢٢٦١] وأبو داود [٥٠٢١].

(٢) أخرجه ابن أبى شيبة بأسانيد صحيحة [٢٩٥٤٦].

(٣) أخرجه مالك بإسناد صحيح [١٧١٠].

(٤) انظر فتح البارى [ج ١٢ ص ٣٨٩].

إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخُبُثِ وَالْخَبَائِثِ[1]». وجاءت كلمة [الْخُبُثِ] فى الأحاديث على روايتين:

(الأولى) على التّسكين والخُبْث فيها الشّر، والخبائث النُّفوس الشّريرة.

(الثّانية) على الضّم والخُبُث فيها: جمع خبيث، والمراد بها ذكران الشّياطين، والخبائث جمع خبيثة والمراد إناث الشّياطين، والتّسكين أعمّ ولهذا كان هو أكثر الرّوايات كما قال الخطّابى رحمه الله تعالى.

وقوله فى الحديث «إِذَا أَرَادَ» يُفيد الْعِنْدِيَّةَ قبل الدّخول كما في رواية شعبة «إِذَا أَتَى الْخَلَاءَ». وعند حمّاد «إِذَا دَخَلَ». وعند سعيد بن زيد «إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ الْخَلَاءَ». وكلّها تُبيِّن أنّ النّبى ﷺ كان يقول هذا الذّكر عند إرادة الدّخول لا بعده، كما يتعلّق بقوله «فَلْيَقُلْ» ما يأتى:

(١) أنّ التّلفُّظ بهذا الذّكر يختصّ بالأمكنة المعدّة لذلك وغيرها من الأمكنة لحضورها الشّياطين كما في حديث زيد بن أرقم «إِنَّ هَذِهِ الْحُشُوشَ مُحْتَضَرَةٌ، فَإِذَا أَتَى أَحَدُكُمُ الْخَلَاءَ فَلْيَقُلْ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الْخُبُثِ وَالْخَبَائِثِ[2]». والحشوش الكُنُفُ جمع حُشّ وهو بيت الخلاء، أو مكان قضاء الحاجة بين الشّجر المتكاثف، وقد تسكنها الجنّ أو توجد فيها الهوامّ المؤذية كالأفاعى والعقارب.

(٢) أنّ من نسى ذلك حتّى دخل دورة المياه أو شمّر ثيابه فى فضاء بعيد مُتوارٍ فليستعذ بقلبه لا بلسانه عند الجمهور.

(٣) من لم يستطع التّلفُّظ بلسانه كالأخرس فبنيّة القلب.

(٤) يشرع الجهر بهذا الذّكر قبيل دخول دورة المياه أو عند تشمير الثّياب فى الفضاء لثبوت جهر النّبى ﷺ به كظاهر الأحاديث.

وفى الأحاديث الدّلالة على طلب الاستعاذة بالله تعالى عند إرادة دخول الخلاء لقضاء الحاجة لحضور الشّياطين تلك الأمكنة، وهى مواضع يُهجر فيها ذكر الله تعالى يقدّم لها الاستعاذة تحصّنا منهم لأنّ لهم فيها تسلُّطا على ابن آدم لم يكن فى غيرها لبُعد الحفظة عنه حال التّخلى.

والذّكر باللّسان حال قضاء الحاجة ليس ممّا شُرِّعَ لنا ولا نَدَبَنَا إليه رسول الله ﷺ ولا نُقل عن أحد من الصّحابة، وإنّما يكفى فى هذه الحال استشعار الحياء والمراقبة، وهذا

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [١٤٢] ومسلم [٣٧٥] والتّرمذى [٥] وابن ماجه [٢٩٦].

(٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٦] وابن ماجه [٢٩٦] وأحمد [١٩٢٢٨].

من أجلّ الذّكر وأعظمه، فذكر كلّ حال يكون بحسب ما يليق بها ويناسبها، واللائق بهذه الحال التّقنّع بثوب الحياء من الله تعالى وإجلاله وذكر نعمته عليه وإحسانه فى إخراج المؤذى له والذى لو بقى فيه لقتله، فالنّعمة في تيسير خروجه كالنّعمة في التّغذّى به وتذوّقه، وكان بعض السّلف يقول [الْحَمْدُ لله الّذى أذاقنى لَذّتَهُ وأَبْقَى فِى قُوَّتِهُ وأَذْهَبَ عَنِّى مَضَرَّتَهُ].

أمّا ذكر القلب عند قضاء الحاجة فلا ريب أنّه لا يُكره لأنّه لابدّ لقلبه من ذكر، ولا يمكن للمرء صرف قلبه عن ذكر من هو أحبّ شيء إليه فلو تكلّف القلب نسيانه لكان تكليفه بالمحال.

(٤) الاستعاذة عند الخروج من البيت

كان رسول الله ﷺ إذا خرج من بيته خرج مُستعينا باسم ربّه سبحانه متوكّلاً عليه لحديث أمّ سلمة قالت «كَانَ النَّبيُّ ﷺ إذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِه قَالَ: بِسْمِ اللهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نَزِلَّ أَوْ نَضِلَّ. أَوْ نَظْلِمَ أَوْ نُظْلَمَ، أَوْ نَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيْنَا». وجاء عند أبى داود بلفظ «أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ(١)».

(قال) الطّيبى: [إنّ الإنسان إذا خرج من منزله لابدّ أن يعاشر النّاس ويزاول الأمر فيخاف أن يعدل عن الصّراط المستقيم، فإمّا أن يكون فى أمر الدّين فلا يخلو من أن يَضلّ أو يُضلّ. وإمّا أن يكون فى أمر الدّنيا: فإمّا بسبب جريان المعاملة معهم بأنّ يظلم أو يُظلم وإمّا بسبب الاختلاط والمصاحبة فإمّا أن يَجْهَلَ أو يُجْهَلَ عليه، فاستعيذ من هذه الأحوال كلّها بلفظ سلس مُوجز رُوعى فيه المطابقة المعنويّة والمشاكلة اللّفظيّة(٢)].

(٥) الاستعاذة عند السّفر

كان رسول الله ﷺ إذا خرج مسافرا سأل ربّه العناية والحفظ والرّعاية لحديث أبى هريرة من رواية التّرمذى قال «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا سَافَرَ قَالَ اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِى السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ وَالْمَالِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ(٣)». وجاء عن عبد الله بن سرجس بلفظ «اللَّهُمَّ إِنِى أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ، وَمِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ، وَمِنْ دَعْوَةِ الْمَظْلُومِ، وَمِنْ سُوءِ الْمَنْظَرِ فِى الأَهْلِ وَالْمَالِ(٤)».

فنبّه رسول الله ﷺ بهذا الدّعاء على كمال الاعتماد على ربّه تعالى وتمام الاكتفاء به

---

(١) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٣٤٢٧] وأبو داود [٥٠٩٤] وابن ماجه [٣١٤٨].

(٢) انظر تحفة الأحوذى [ج ٨ ص ٤٣٠ - الشّرح].

(٣) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٣٤٣٨] والنّسائى [٥٥١٦].

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٣٤٣] والتّرمذى [٣٤٣٩] وابن ماجه [٣١٥٠].

عن كلّ مصاحب سواه، والمعنى: أنت الذى أرجوه وأعتمد عليه مُعينًا وحافظا فى سفرى، وفى غيبتى عن أهلى أنْ تَلُمَّ شَعْثَهُم وتُداوِى سَقَمَهُمْ وتحفظ عليهم دينهم وأمانتهم. ثمّ يختم ﷺ دعاءه بأمرين:

(الأوّل) استعاذته بربّه تعالى من وعثاء السّفر، أى شدّته ومشقّته.[يقال] «وَعَثَ الطَّرِيقُ وُعُوثَةً» إذا شقّ على السّالك، وأصله من الوَعْث وهو الدَّهْسُ والْمَشْىُ يُشْتَدُّ فيه على صاحبه فصار مثلا لكلّ ما يَشُقُّ على فاعله [(١)].

(والثّانى) استعاذته من كآبة المنقلب وهى تغيُّر النّفس بالانكسار من شدّة الهمّ والحزن ونحوه، والمعنى ألاّ يرجع من سفره بأمر يحزنه إمّا بإصابة فى سفره، أو خسارة فى تجارته، أو أن يعود غير مقضى الحاجة.

(٦) الاستعاذة عند نزول المنزل

المنزل فى اللُّغة إمّا أن يكون مكان النّزول والجمع منازل، وهو اسم لما يشتمل على بيوت وصحن مسقوف يُخصّص للإقامة والمأوى، أو هو نزول الشّخص فى المنهل أو المكان أى حلّ به ومنه «نَزَلَ مَنْزِلاً». وكان رسول الله ﷺ إذا نزل منزلا قال «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ(٢)».

وأخبر ﷺ أنّ من قال ذلك «لَمْ يَضُرَّهُ شَىْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ». ولفظه عند أحمد «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً فَقَالَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَىْءٌ حَتَّى يَظْعَنَ مِنْهُ(٣)». والظَّعْنُ المسير من ظَعَنَ [فُلاَنٌ] ظَعْنًا أى سار وارتحل.

و[الكلمَاتُ] فى قوله «أعوذُ بكلمَات الله التَّامَّات»: هى القرآن الكريم، والتّامَّات هى الكاملات، والمعنى أنّه لا يدخلها نقص ولا عيب كما يدخل فى كلام النّاس، وقيل هى النّافعات الكافيات الشّافيات من كلّ ما يُتعوَّذ منه، وفى الحديث الرّد على ما كان يفعله أهل الجاهليّة من كونهم إذا نزلوا منزلا قالوا [نعوذ بسيّد هذا الوادى] ويعنون به كبير الجنّ ومن ذلك قول الله تعالى ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجنّ: ٦].

وذُكر عن ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ كان إذا سافر فأقبل اللّيل قال «يَا أَرْضُ رَبِّى وَرَبُّكِ اللهُ، أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شَرِّكِ وَشَرِّ مَا فِيكِ، وَشَرِّ مَا خُلِقَ فِيكِ، وَشَرِّ مَا يَدِبُّ عَلَيْكِ، وَأَعُوذُ بِاللهِ مِنْ أَسَدٍ وَأَسْوَدَ، وَمِنَ الْحَيَّةِ وَالْعَقْرَبِ، وَمِنْ سَاكِنِ الْبَلَدِ، وَمِنْ وَالِدٍ وَمَا وَلَدَ(٤)».

(١) انظر غريب الحديث لأبى عبيد [ج ١ ص ٢٧٥]. (٢) أخرجه مسلم [٢٧٠٨] والتّرمذى [٣٤٣٧] وابن ماجه [٢٨٧٣]. (٣) حديث حسن أخرجه أحمد [٢٦٩٩٨] وأبو داود [٣٨٩٨]. (٤) أخرجه أبوداود [٢٦٠٣] وأحمد [٦١٦١] وقال أحمد شاكر فى تخريج المسند «إسناده صحيح».

وقوله «وأَسْوَدَ» هو العظيم من الحيَّات وخُصَّت بالذِّكر لخباثتها، وقيل الأَسْوَدُ هي الحيَّة العظيمة التي فيها سواد وهي أخبث الحيَّات، وذُكر من شأنها أنَّها تعارض الرَّكب وتتبع الصَّوت فلذا خصَّها بالذِّكر وجعلها كجنس مُستقل وعطف عليها الحيَّة.

(قال) الخطابي: [سُكَّانُ الْبَلَدِ هم من الجنّ الذين هم سكّان الأرض، قال: والبلد من الأرض ما كان مأوى الحيوان وإن لم يكن فيه بناء ومنازل، قال: ويُحتمل أنّ المراد بالْوَالد إبليس، وَمَا وَلَدَ الشّياطينُ(١)].

ويُؤيّد ذلك قول النّبي ﷺ «إِذَا سِرتُمْ فِي الْخِصْبِ فَأَمْكِنُوا الرِّكْبَ أَسْنَانَهَا وَلاَ تُجَاوِزُوا الْمَنَازِلَ، وَإِذَا سِرتُمْ فِي الْجَدْبِ فَاسْتَجِدُوا، وَعَلَيْكُمْ بِالدُّلْجَةِ فَإِنَّ الأَرْضَ تُطْوَى بِاللَّيْلِ، وَإِذَا تَغَوَّلَتْ لَكُمُ الْغِيلاَنُ فَنَادُوا بِالأَذَانِ، وَإِيَّاكُمْ وَالصَّلاَةَ عَلَى جَوَادِّ الطَّرِيقِ وَالنُّزُولَ عَلَيْهَا فَإِنَّهَا مَأْوَى الْحَيَّاتِ وَالسِّبَاعِ وَقَضَاءَ الْحَاجَةِ فَإِنَّهَا الْمَلاَعِنُ(٢)».

(٧) الاستعاذة عند رؤية الرِّيح والغيم

من عجائب قدرة الله في خلقه أن جعل الرّيح مُسخّرة مُذلّلة فيما خُلقت له من [خَيْرٍ] يسوقه لمن أراد رحمته، من جمع السّحاب النّاشيء عن الغيث وحسن الكلأ، وتسيير السّفن وإذهاب المضارّ والإتيان بالمنافع من ثمار الشّجر وصلاح الجسد، أو [شَرٍّ] يريده لمن وقع به عذابه، لكونها عاصفة عاتية كريح عاد التي لم تمرّ على شيء إلاّ جعلته كالرّميم، ولكونها مُهلكة للزّرع والضّرع ومفرّقة للسّحاب والمطر واشتمالها على الصّواعق القاتلات ونحوها.

وعقد ذُكر عن عطاء بن أبي رباح أنّه سمع عائشة تقول «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا كَانَ يَوْمُ الرِّيحِ وَالْغَيْمِ، عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، فَإِذَا مَطَرَتْ سُرَّ بِهِ وَذَهَبَ عَنْهُ ذَلِكَ. قَالَتْ عَائِشَةُ فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ «إِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ عَذَابًا سُلِّطَ عَلَى أُمَّتِي». وَيَقُولُ إِذَا رَأَى الْمَطَرَ «رَحْمَةٌ(٣)».

فكان خوفه ﷺ أن يُعاقبوا بعصيان العصاة وسروره لزوال سبب الخوف، وفي سُنن أبي داود عن عائشة «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَأَى نَاشِئًا فِي أُفُقِ السَّمَاءِ تَرَكَ الْعَمَلَ وَإِنْ كَانَ فِي صَلاَةٍ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، فَإِذَا مُطِرَ قَالَ اللَّهُمَّ صَيِّبًا هَنِيئًا(٤)». (قال) الخطّابي [«الصَّيِّبُ» ما سال من المطر وجرى وأصله من صاب

---

(١) انظر دليل الفالحين [ج ٣ ص ٤٨١].

(٢) حديث صحيح أخرجه أحمد [١٤٢١١] ومسلم [١٩٢٦] وأبو داود [٢٥٦٩] بألفاظ مُتقاربة.

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٨٩٩] ولا يوجد عند غيره من الجماعة.

(٤) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٥٠٩٩] وابن ماجه [٣١٥٢].

المطرُ صوبا إذا نزل وانْصَبّ[(١)]]. ومنه [الصَّوْبُ] المطر بقدر ما ينفع ولا يُؤذى كقوله تعالى ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة:١٩].

ثمّ يأتى قوله ﷺ من حديث أُبَيٍّ بن كعب «لاَ تَسبُّوا الرِّيحَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ فقولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِه الرِّيحِ وَخَيْرِ مَا فِيهَا وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ به، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِه الرِّيحِ وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ به[(٢)]». وقد تضمّن ثلاثة أمور:

(الأوّل) النّهى عن سَبِّ الرِّيح كما فى قوله «لاَ تَسبُّوا الرِّيحَ». وهو نهى تنزيه.

(الثّانى) بيان أنّها مأمورة بما تجىء به من رحمة وعذاب لقوله ﷺ «الرِّيحُ مِنْ رَوْحِ اللهِ تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ وَتَأْتِي بِالْعَذَابِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهَا فَلاَ تَسبُّوهَا، وَاسْأَلُوا اللهَ خَيْرَهَا، وَاسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا[(٣)]».

(الثّالث) بيان ما يقال عند اختلاف الأحوال على قسمين:

(١) أن يتوجّه إلى الله تعالى بسُؤاله خيرها المترتّب عليها من تجميع السّحاب وإنزال الغيث ونماء البلاد والعباد فى قوله ﷺ «وَسَلُوا اللهَ خَيْرَهَا».

(٢) أن يستعيذ بالله تعالى من شرّها أن يكون عذابا مُسلَّطا على الأمّة أو لكونها عاتية شديدة مُفرِّقة مُفسدة كما فى قوله ﷺ «وَاسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا».

وفى الأحاديث بيان المراقبة لله تعالى والالتجاء إليه عند اختلاف الأحوال وحدوث ما يُخاف بسببها.

(٨) الاستعاذة عند سماع نهيق الحمار:

جاء فى الصّحيح عن أبى هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال «إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ فَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِه فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهِيقَ الْحِمَارِ فَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَانًا[(٤)]». وفى رواية أحمد والحاكم من حديث جابر «وَإِذَا سَمِعْتُمْ نُهَاقَ الْحَمِيرِ وَنُبَاحَ الْكِلاَبِ[(٥)]». وجاء عند أبى داود بلفظ «إِذَا سَمِعْتُمْ نُبَاحَ الْكِلاَبِ وَنَهِيقَ الْحُمُرِ بِاللَّيْلِ فَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْهُنَّ فَإِنَّهُنَّ يَرَيْنَ مَا لاَ تَرَوْنَ[(٦)]».

وتتضمّن الأحاديث الدّلالات التّالية:

---

(١) انظر سُنن أبى داود [ج ٤ ص ٣٦١] والمعجم الوجيز [ص ٣٧٣].

(٢) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٢٢٥٢].

(٣) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٥٠٩٧] وابن ماجه [٣٠١٨] وأحمد [٧٤٠٧].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٣٠٣] ومسلم [٢٧٢٩] والتّرمذى [٣٤٥٩].

(٥) حديث صحيح أخرجه أحمد [١٤٢٨٧] والحاكم [٧٧٦٢].

(٦) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٥١٠٣] والبخارى فى الأدب المفرد [١٢٣٤].

(الأولى) أنّ حكمة التّوجُّه بالسُّؤال وقت صياح الدّيكة هي رجاء تأمين الملائكة على دعائه واستغفارهم وشهادتهم له بالإخلاص، كما يُؤخذ منه استحباب الدّعاء عند حضور الصّالحين تبرُّكا بهم.

(الثّانية) أنّ فائدة أمره ﷺ بالتّعوُّذ عند سماع نهيق الحمار أو نباح الكلب لما يُخشى من شرّ الشّيطان وشرّ وسوسته، فيلجأ إلى الله تعالى في دفع ذلك لما رواه الطّبراني من حديث أبي رافع «لاَ يَنْهَقُ الْحِمَارُ حَتَّى يَرَى شَيْطَانًا أَوْ يَتَمَثَّلَ لَهُ شَيْطَانٌ[1]».

(قال) في المُفهم: [هذا يدلّ على أن الله تعالى خَلَق للدّيكة إدراكا تدرك به الملائكة، كما خلق للحمير إدراكا تدرك به الشّياطين، ويفيد: أنّ كل نوع من الملائكة والشّياطين موجودان، وهذا معلومٌ من الشّرع قطعا والمنكرُ لشيء منهما كافر، وكأنّه إنّما أمر النّبي ﷺ بالدُّعاء عند صراخ الدّيكة لتؤمّن الملائكة على ذلك الدّعاء فتتوافق الدّعوتان، فعندئذ يُستجاب للدّاعي، وإنّما أمر بالتّعوُّذ من الشّيطان عند نهيق الحمير لأنّ الشّيطان لما حضر يُخاف من شرّه فينبغي أن يُتعوَّذ منه[2]].

ويبيّن قوله ﷺ «إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ»: أنّ للدّيك خصيصة ليست لغيره من معرفة الوقت اللّيلي، فإنّه يُقسّط أصواته فيها تقسيطا لا يكاد يتفاوت، ويوالي صياحه قبل الفجر وبعده ولا يكاد يخطيء سواء أطال اللّيل أم قصر، ويُؤيّده ما أخرجه أبو داود عن زيد بن خالد رفعه «لاَ تَسُبُّوا الدِّيكَ فَإِنَّهُ يَدْعُو إِلَى الصَّلاَةِ[3]».

ومعناه أنّ العادة جرت بأنّه يصرخ عند طلوع الفجر وعند الزّوال فطرة فطره الله تعالى عليها. [قال] الحليمي [يُؤخذ منه أنّ كلّ من يُستفاد منه الخير لا ينبغي أن يُسَبَّ ولا أن يُسْتَهَانَ به بل يُكْرَمَ ويُحْسَنَ إليه[4]].

خامسا - الاستعاذة من أعمال القلب وفتن الصّدر

ورد في الصّحيح أنّ صلاح الجوارح واجتنابها للمحرّمات مرتبط بصلاح القلب وسلامته من آفات الشّيطان ورجزه لقوله ﷺ «أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ[5]». فإذا كان القلب فاسدا قد استولى عليه اتّباع الهوى فسدت حركة الجوارح كلّها وانبعثت إليها كلّ المعاصي

(١) أورده الحافظ في الفتح [ج ٦ ص ٤٠٦].

(٢) انظر المفهم للقرطبي [ج ٧ ص ٥٨].

(٣) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٥١٠١] والنّسائي في عمل اليوم واللّيلة [٩٤٥].

(٤) انظر فتح الباري [ج ٦ ص ٤٠٦].

(٥) من حديث صحيح أخرجه البخاري [٥٢] ومسلم [١٥٩٩].

بحسب اتّباع هوى القلب، ولذلك كان رسول الله ﷺ يكثر فى دعائه أن يقول «وَأسألُكَ قَلْباً سليماً[١]». ويقول «وأعُوذُ بكَ مِنْ شَرِّ قَلْبى[٢]».

وكان رسول الله ﷺ يستعيذ بربّه «منْ قَلْب لاَ يَخْشَعُ[٣]». ويقول «أعُوذُ بكَ مِنْ شَرِّ لسَاني وَشَرِّ قَلْبى[٤]». وكان من دعائه «ونَقِّ قلبى منَ الْخطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأَبيَضَ منَ الدَّنَس[٥]». وقوله «وَاهْد قَلْبي وَسَدِّدْ لِسَاني وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ قَلْبى[٦]». وكان من دعائه ﷺ لعليٍّ قوله «اللَّهُمَّ اهْد قَلْبَهُ وَثَبِّتْ لسَانَهُ[٧]». وكان يقول «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِى وَإِنِّى لأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِى كُلِّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ[٨]».

(قال) الخطّابى [قوله «يُغَانُ» معناه يُغطّى ويُلَبّس على القلب، وأصله من الْغَيْنِ وهو الغطاء، وكلّ حائل بينك وبين شىء فهو غين، ولذلك قيل للغيم «غَيْنٌ» لحجبه السّماء عنّا فلا نراها بعين الرّأس[٩]]. ولا يستقيم إيمانُ عبد حتّى يستقيم قلبه وتستقيم معه جوارحه لما أخرجه أحمد من قوله ﷺ «لاَ يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ[١٠]». ولا تتمّ استقامة القلب إلاّ بشيئين:

(أحدهما) أن تتقدّمَ محبَّة الله تعالى عنده على كلِّ المحابِّ، فإذا تعارض حبّ الله تعالى وحبّ غيره سبق حبّ الله تعالى حبّ ما سواه، وقد قضى الله قضاء لا يُردّ ولا يُدفع أنّ من أحبّ شيئا سواه عُذِّبَ به ولابدّ، وأنّ من خاف غيره سُلِّطَ عليه، وأنّ من اشتغل بشىء غيره كان شُؤْمًا عليه، ومن آثر غيره عليه لم يبارك له فيه.

(والثّانى) تعظيم الأمر والنّهى وهو ناشىء عن تعظيم الآمر النّاهى، فإنّ الله تعالى ذمّ من لا يُعظِّم أمره ونهيه كما فى قوله تعالى﴿ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ﴾[نوح:١٣]. وقالوا فى تفسيرها: ما لكم لا تخافون لله تعالى عظمة، وتعظيم الأمر والنّهى لا يقوم إلاّ على ثلاثة أمور:

---

(١) رواه التّرمذى [٣٤٠٧] والحاكم [١٩٠٨] وقال صحيح على شرط مسلم.

(٢) من حديث صحيح أخرجه النّسائى [٥٤٧٠].

(٣) حديث صحيح أخرجه النّسائى [٥٤٥٧].

(٤) من حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٣٤٩٢] وأبو داود [١٥٥١] والنّسائى [٥٤٧٠].

(٥) من حديث أخرجه مسلم [٥٨٩].

(٦) من حديث صحيح أخرجه أبو داود [١٥١٠].

(٧) من حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣٥٨٢] والتّرمذى [١٣٣٦].

(٨) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٧٠٢] وأبو داود [١٥١٥].

(٩) انظر نووى مسلم [ج ٩ ص ٣٠].

(١٠) أخرجه أحمد بإسناد حسن [١٢٩٨٢].

(أوّلها) أن لا يُعَارَضَا بترخّص جاف.

(والثّاني) أن لا يُعرَّضَا لتشديد غال.

(والثّالث) أن لا يُحْمَلاَ على علّة تُضعف الانقياد.

ونورد فيما يلي بعض ما يتّصل بالاستعاذة من الخواطر الرّديئة التي ترد على القلب في غفلة من الطّاعة والذّكر:

(أ) الاستعاذة من فتنة الصّدر

يقصد بالصّدر هنا القلب والمراد بفتنته:

(١) ما يحصل فيه من الوساوس والْهَمّ إلى المعاصي واكتساب الآثام.

(٢) ما ينطوي عليه من القساوة والحقد والحسد والعقائد الباطلة والأخلاق السّيئة.

وهي كلّها من الأمور التي ينبغي على المسلم أن يتعوّذ منها كما في حديث عمر «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتعوَّذُ مِنْ خَمسٍ ـ مِنْهَا ـ فِتْنَةُ الصَّدْرِ(١)». وجاء عند النّسائي بلفظ «وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الصَّدْرِ(٢)».

واختلفوا في تعريف «فِتْنَةِ الصَّدْرِ» فقال ابن الجوزي [هي موت صاحبه غير تائب]. وقال غيره: هو الضّيق المشار إليه في قول الله تعالى ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. أي يُضيّق على نفسه في تركه هواه للمعاصي والآثام.

ولـمّا خصّ الله أعمال القلوب بالذّكر في قوله تعالى ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ١٠]. أهمل ذكر أعمال الجوارح لكونها تابعة لأعمال القلب المتمثّلة في بواعثه وإراداته وخواطره التي تنبني عليها أفعال هذه الجوارح، ولذلك جعل سبحانه أعمال القلب الأصل في المدح كقوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]. وكذلك جعلها الأصل في الذّمّ كقوله ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

ويأتي التّحصيل كما في الآية لـمَا في الصّدور لا لـمَا في القلوب، لأنّ القلب مَطيّة الرّوح ومنبع الإيمان، وإنّما المنازع في هذا الباب هو النّفس وما يختلجها من خير وشرّ ومحلّها ما يقرب من الصّدر ولذلك قال سبحانه:

* ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [النّاس: ٥].

---

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود [١٥٣٩].

(٢) أخرجه النّسائي [٥٤٩٦] بإسناد صحيح.

* ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾[الزمر : ٢٢].

والمراد بشرح الصّدر هو ذلك الاستعداد الشّديد الموجود فى النّفس للإيمان بدين الله تعالي وإقامة فروضه، وفيه قال ابن عبّاس :[وسّع صدره للإسلام حتّى ثبت فيه]. وقال السُّدّيّ [وسّع صدره بالإسلام للفرح به والطّمأنينة إليه]. وفى القاموس: شرح الله صدره للأمر :حبّبه إليه، وشَرَحَ الشّيء: بَسَطَه ووسّعه.

(٢) الاستعاذة عند الغضب

يتولّد الغضب من انفعالات تتميّز بالميل إلى الاعتداء ويكون من تغيُّر يحدث عند غليان دم القلب ليحصل عنه التَّشفّي والغيظ، وهو من المخلوق ممدوح ومذموم:

* فالمحمود ما كان فى جانب الدّين.

* والمذموم ما كان فى خلافه.

وهو الأمر الذى حذّر منه نبى الإسلام ﷺ ونبّه إلي خطورته عندما قال للسّائل: «لاَ تَغْضَبْ(١)». وما جاء عن سليمان بن صرد قال «اسْتَبَّ رَجُلاَنِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ عِنْدَهُ جُلُوسٌ وَأَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ وَقَد احْمَرَّ وَجْهُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ(٢)».

ويمثّل الغضب فى حياة البشر جِمَاعَ الشّر كلّه باعتباره مَرْكَبُ الشّيطان ومصدره، لذلك كان لابدّ لصاحبه أن يجعل من الاستعاذة سببا لزوال هذا الغضب ومؤثّراته والتّخلّص من كوامن الشّر فيه ومجاهدة النّفس على تركه.

(٣) الاستعاذة من الأربع

عندما تأتي الاستعاذة من نبيّنا ﷺ بقوله «اللّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ؛ وَمِنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ؛ وَمِنْ نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ؛ وَمِنْ دَعْوَةٍ لاَ يُسْتَجَابُ لَهَا(٣)». وجاء عند أبى داود بلفظ «وَمِنْ دُعَاءٍ لاَ يُسْمَعُ(٤*)». فإنّه يُشير إلى أمرين مُهمّين:

(أوّلهما) أنّ فى كلّ من القرائن الأربع التى ذكرها ما يُشعر بأنّ وجوده مبنى على غايته وأنّ الغرض منه هو تلك الغاية.

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦١١٦] والتّرمذى [٢٠٢٠].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦١١٥] ومسلم [٢٦١٠] وأبو داود [٤٧٨١].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٧٢٢] والتّرمذى [٣٤٨٢].

(٤) من حديث صحيح أخرجه أبو داود [١٥٤٨]. (*) قال الخطابى قوله «لاَ يُسْمَعُ» معناه: لا يُجَابُ، وفى هذا قول المصلّى «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ». يريد استجاب الله دعاء من حمده. [انظر سُنن أبى داود ـ ج ١ ص ٥٧٢ ـ الشّرح].

(والثّاني) أنّ تحصيل المرء لهذه الغاية لا يتحقّق إلاّ بإذعان هذه الأربعة وتطويعها لأمر الشّرع والدِّين.

فكان أوّل ما استعاذ منه رسول الله ﷺ من هذه الأربعة هو:

(العلم الذى لا ينفع)

ويُطلق العلم حقيقة على ما لا يحتمل النّقيض، كما يراد به [معنى المعرفة]. يقال «عَلِمْتُ الشَّيْءَ أَعْلَمُهُ عِلْمًا»: عرفْتُه، ومنه قوله تعالى ﴿مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]. أى عَلِمُوا، ويُقصد به هنا العلم بالأحكام الشّرعية العمليّة من أدلّتها التّفصيليّة المتعلّقة بأفعال العباد، فى عباداتهم ومعاملاتهم وعلاقاتهم الأسرية وجناياتهم والعلاقات بين المسلمين بعضهم وبعض، وبينهم وبين غيرهم فى السّلم والحرب وغير ذلك.

ومنه كذلك «الحكم» على تلك الأفعال بأنّها واجبة، أو مُحرَّمة، أو مندوبة، أو مكروهة، أو مُباحة، أو صحيحة، أو فاسدة، أو غير ذلك بناء على الأدلّة التّفصيلية الواردة فى الكتاب والسُّنَّة وسائر الأدلّة المعتبرة [(١)].

وهذا العلم ينقسم فى واقع التّطبيق إلى قسمين:

(الأوّل) علم ثابت فى القلب فذلك العلم النّافع الذى وجد من صاحبه التزاما وهدى وتطبيقا وهو مضمون سُؤاله ﷺ لربّه «اللَّهُمَّ انْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي وَزِدْنِي عِلْمًا وَالْحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَأَعُوذُ بِاللهِ مِنْ حَالِ أَهْلِ النَّارِ(٢)». وجاء عند الحاكم بلفظ «وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي وَارْزُقْنِي عِلْمًا تَنْفَعُنِي بِهِ(٣)». وقوله «انْفَعْنِي» أى بالعمل بمقتضاه، والنّافع منه ما يتعلّق بأمر الدّين والدّنيا.

(الثّاني) علم على اللّسان فذلك حُجَّةُ الله على ابن آدم يوم القيامة، وهو الذى يُسْتَعَاذُ بالله تعالى منه لأنّه لا ينفع صاحبه لا فى الدّنيا بالعمل به، ولا فى الآخرة بالثّواب عليه، بل يكون وبالا وحسرة وندامة وهو الذى كان محل استعاذته ﷺ بقوله «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ». وقوله ﷺ من حديث جابر «سَلُوا اللهَ عِلْمًا نَافِعًا، وَتَعَوَّذُوا بِهِ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ(٤)».

وقوله تعالى ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]. يُبيِّن أنّه ليس من الكياسة فى شيء أن يأمر المرء بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ويفعله، وقد

---

(١) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ٢ ص ٥٣٦].

(٢) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٣٥٩٩] وابن ماجه [٢٠٥].

(٣) أخرجه الحاكم [١٩١٥] وقال صحيح على شرط مسلم.

(٤) أخرجه ابن ماجه [٣١١٤] وقال فى الزّوائد إسناده صحيح، وحسّنه فى الصّحيحة [١٥١١].

أخبر النّبى ﷺ أنه «يُؤتى بالرّجلِ يومَ القيامة فيُلقى فى النّارِ فتندلقُ أقتابُ بطنه فيَدُورُ بها كما يدُورُ الحمارُ بالرّحى، فيجتمعُ أهلُ النّارِ عليه فيقولُون: يافلانُ مَا لكَ، ألَمْ تكُن تأمُرُ بالمعرُوف وتنهى عن المنكر؟ فيقُولُ بلى: قد كُنتُ آمرُ بالمعرُوف ولا آتيه، وأنهى عن المُنكَرِ وآتيه(١)». و«الأقتاب» الأمعاء، واحدها قتبٌ. وعند الأصمعى «قتبةٌ». أمّا قوله «فتندلقُ أقتابُ بطنه»: فإنّ الاندلاق خروج الشّىء من مكانه سلسا سهلا [(٢)].

فأوضع العلم ما وقف على اللّسان، وأرفعه ما ظهر أثره فى الجوارح والأركان، وتحصيل شرفه وارتقاء درجاته لا يقوم إلاّ على حقيقة العمل به وترجمته في واقع الحيٰة إلى مُثُل وقيم ومبادىء كما فى قوله تعالى ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. والرّفعة الشّرف وارتفاع القدر والمنزلة، والأصل فى مادّة الرّفع: العلوّ، من قولهم ارتفع الشّىء ارتفاعا إذا علا، والمعنى أنه يرفع الله الذين أُوتوا العلم من المؤمنين على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم «دَرَجَٰتٍ» أى درجات فى دينهم إذا فعلوا ما أُمروا به.

ولا ينفع العلم عندما لا يُبتغى به وجهُ الله تعالى أو ليصيب به عرضا زائلا من الدّنيا لقوله ﷺ «مَنْ تعلّم علمًا مّما يُبتغى به وجهُ الله لا يتعلّمُهُ إلاّ ليُصيبَ به عرضًا من الدُّنيا لَمْ يجدْ عرفَ الجنّة يومَ القيامة(٣)». يعنى «ريحها».

ولا ينفع العلم كذلك إذا تمّ تحصيله «ليُماريَ به السُّفهاءَ أو ليُباهيَ به العُلماءَ أو ليصرفَ وُجوه النّاس إليه فهو فى النّار(٤)». إنّه لا يجنى من ذلك إلاّ المقت والعذاب. ويقال لمثله يوم القيامة «كذبتَ ولكنّك تعلّمتَ ليُقالَ عالمٌ، وقرأتَ ليُقالَ هو قارىءٌ فقد قيلَ(٥)». ثمّ يأمر به فيُسحب على وجهه حتّى يلقى فى النّار. وذكر عن علي قوله «قصم ظهري رجلان: عالمٌ متهتّكٌ وجاهلٌ متنسّكٌ(٦)». لأنّ كلاّ من هذين فتنة فى الدّين:

(١) فالعالم المتهتّك الذى لا يعمل بعلمه يفتن النّاس بفعله لأنّ اقتداءهم بفعل العالم ربّما يكون أكثر من اقتدائهم بقوله وهو ما أخبر عنه رسول الله ﷺ بقوله «إنّ أخوفَ ما أخافُ على أمّتي الأئمّةُ المضلُّونَ(٧)».

(٢) والجاهل المتنسّك المنقطع للعبادة على جهل يفتن النّاس بجهله، فإنّه لتنسّكه تميل النّاس إليه ويقتدون به فيعمّ جهله كلّ من اقتدى به.

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٧٠٩٨] ومسلم [٢٩٨٩]. (٢) انظر غريب الحديث [ج ٣ ص ٣٨٩]. (٣) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣٦٦٤] وابن ماجه [٢٠٦]. (٤) انفرد به ابن ماجه [٢٠٧] وقال الألبانى «حسن بما قبله». انظر المشكاة [٢٢٥و٢٢٦]. (٥) من حديث صحيح أخرجه مسلم [١٩٠٥] والنّسائى [٣١٣٧] والحاكم [٣٦٨]. (٦) انظر المنهل العذب المورود [ج ٨ ص ٢٠٨]. (٧) أورده فى صحيح الجامع [١٥٥١] والصّحيحة [١٥٨٢].

الثانى - (الاستعاذة من قلب لا يخشع)

وهو القلب الذى لا يتذلّل لبارئه سبحانه ولا يخضع لأمره ولا ينقاد لحكمه وقد حذّر الله تعالى من قسوته وعدم خشوعه له فى قوله تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[الزّمر: ٢٢]. وكما جاء التّنبيه النّبوى فإنّ مثل هذا القلب ينبغى أن يُستعاذ منه لقساوته وفساد عبوديّته بالغفلة والوسواس.

ولقد تماثلت أقوال العلماء فى التّعريف بالخشوع، فمن قائل إنّه معنى يقوم بالنّفس يظهر عنه سكون فى الأطراف يلائم مقصود العبادة، ومن قائل إنّه هيئة فى النّفس يظهر منها سُكون وتواضع فى الجوارح، فيكون تارّة من فعل القلب كالخشية، وتارّة من فعل البدن كالسّكون، ثمّ جاءت معانيه فى ألفاظ مُترادفة ومُتلازمة منها التّواضع، والإخبات، والانخفاض، والذّل، والخشية، والسّكون، من قول الله تعالى ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾[طه: ١٠٨]. أى سكنت وذلّت وخضعت، كما أنّ قوله سبحانه ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾[فصّلت: ٣٩]. يبيّن أنّ خشوعها هو سُكونها وانخفاضها، ومنه يقال خشع بصره إذا غضّه.

كما جاء ذكر الخشوع فى موضع المدح للمُؤمنين القانتين الخاشعين وصفًا لتواضعهم وإخباتهم لله تعالى فى أكثر من آية ضمن البيان القرآنى الكريم منها:

* ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[البقرة: ٥٤].

* ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[الأنبياء: ٩].

وقد اتّفق العلماء على أنّه يُطلب من المصلّى أن يكون خاشعا مستحضرا عظمة الله وهيبته وأنّه يُناجى من لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السّماء لقوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[المؤمنون: ١-٢]. أى خائفون منه سبحانه متذلّلون له جاعلون أبصارهم إلى مواضع سُجودهم.

و[الخشوع] أكثر ما يُستعمل فيما يُوجد على الجوارح، أمّا [الضّراعة] فأكثر ما تُستعمل فيما يُوجد فى القلب، ولذلك رُوى «إِذَا ضَرَعَ الْقَلْبُ خَشَعَتِ الْجَوَارِحُ». والخشوع يكون فى الصّوت والبصر والخضوع فى البدن، والخضوع قد يكون بتكلّف، أمّا الخشوع فلا يكون تكلّفا وإنّما بخوف المخشوع له [(١)].

وعلى هذا فإنّ الخشوع يتضمّن معنيين:

(أحدهما) التّواضع والذُّل الملازمان للقلب.

---

(١) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ٢ ص ٣٠].

(والثّانى) السُّكون والطُّمأنينة المعلّقتان بالجوارح.

وذلك مستلزم للين القلب المنافى للقسوة، فخشوع القلب يتضمّن عبوديته لله تعالى وطمأنينته إليه، ولهذا كان الخشوع فى الصّلاة متضمنا لهذا وهذا: التّواضع والسّكون، واستقى العلماء ممّا سبق أنّ الخشوع قسمان:

(الأوّل ـ خشوع باطنى)

ويتحقّق ذلك باستحضار القلب لعظمة الله تعالى وخضوعه له وتذلّله وخوفه منه ولينه وسكون خواطره الرّديئة والتّفكّر فى معانى الآيات والأذكار، فمدار الخشوع الكامل يقوم على قلب الإنسان الذى إذا فسدت عبوديّته بالغفلة والوسواس، تأثّرت بذلك جوارحه المؤتمرة بأمر قلبه المرتهنة بتوجيهه ويدلّ عليه ما روى عن حذيفة «لَوْ خَشَعَ قَلْبُ هَذَا لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ[1]». ولمّا سُئل على رضي الله عنه عن الخشوع قال [الْخُشُوعُ فِى الْقَلْبِ، وَأَنْ تُلِينَ كَفَّيْكَ لِلْمَرْءِ الْمُسْلِمِ، وَأَلاَّ تَلْتَفِتَ فِى صَلاَتِكَ[2]). وعن الحسن قال [كَانَ الْخُشُوعُ فِي قُلُوبِهِمْ، فَغَضُّوا لَهُ الْبَصَرَ فِى الصَّلاَةِ[3]]. ويُجمل الجنيد التّعريف بالخشوع بقوله [الْخُشُوعُ تَذَلُّلُ الْقُلُوب لِعَلاَّمِ الْغُيُوبِ[4]].

ويتحقّق خشوع القلب بفراغه عن غير ما هو مُلابس له من فعل الصّلاة ومُتكلّم به من ذكرها وقولها، فيكون الفكر مُقترنًا بالفعل وبالقول ولا يكون جائلاً فى غيرهما أثناء الصّلاة لقول عقبة بن عامر إنّ النّبي ﷺ قال «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ مُقْبِلٌ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ إِلاَّ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ[5]». وجاء عند الحاكم «يُقْبِلُ فِيهِمَا بِقَلْبِهِ وَطَرْفِهِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ[6]». وقوله ﷺ «إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ فِي صَلاَةٍ فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَا يَقُولُ فِي صَلاَتِهِ[7]».

ويتحقّق كذلك بمراقبة العبد لربّه فى الحركات والسّكنات لقربه منه واطّلاعه على سرّه وضميره المقتضى للاستحياء منه تعالى، ومُطالعته لكمال ربّه وجماله المقتضى للاستغراق فى محبّته والشّوق إلى لقائه ورُؤيته، والخوف من شدّة بطشه وانتقامه وعقابه.

وتفاوت الخشوع فى القلوب يكون بتفاوت معرفتها للخالق تبارك وتعالى، فمن

---

(١) أورده ابن المبارك فى الزّهد [١٢١٣] موقوفا على سعيد بن المسيّب وذكره فى نوادر الأصول [٢ / ٦٩١].

(٢) أخرجه الحاكم وصحّحة وكذا فى تصريح الإيمان لابن تيمية [ص ٢٥].

(٣) انظر كتاب الخشوع فى الصّلاة لابن رجب [ص ١٢].

(٤) انظر مدارج السّالكين [ج ١ ص ٥٢١].

(٥) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٣٤] وأبو داود [٩٠٦] والنّسائى [١٥١].

(٦) أخرجه الحاكم [٤٦١] وقال هذا حديث صحيح الإسناد.

(٧) أخرجه فى صحيح الجامع [٧٥٢] وأورده فى الصّحيحة [١٥٩٧].

كان بالله أعرف كان لربّه ومولاه أتقى وأخشع.

(الثانى - خشوع ظاهرى)

ويتحقّق بالتزام الجوارح لكمال هيئاتها التّعبدية لخالقها وسُكونها وتخشّعها حتّى يستقلّ كلّ عضو منها فى إظهار التّضرّع الكامل لله عزّ وجلّ حال الصّلاة، وخشوع الجوارح وسكونها نابع من خشوع القلب لكونها تابعة له ومُترجمة لحاله لقول النّبى ﷺ «ألاَ وإنَّ فِى الْجَسَدِ مُضْغَةً إذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، ألاَ وَهِىَ الْقَلْبُ(١)». فإذا خشع القلب خشع السّمع والبصر والرّأس والوجه وسائر الأعضاء ومنه قوله ﷺ فى ركوعه عند أبي داود عن على «خَشَعَ لَكَ سَمْعِى وَبَصَرِى وَمُخِّى وَعَظْمِى(٢)». وفى رواية «وَمَا اسْتَقَلَّ به قَدَمِى».

والصّلاة من أعظم العبادات التى يظهر فيها خشوع الأبدان النّاشيء من خشوع القلب ورقّته وانكساره، فهو في حقيقته ملازم لكلّ حركاتها وأفعالها وأقوالها لقوله ﷺ «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يرفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ فِى صَلاَتِهِمْ، فَاشْتَدَّ قَوْلُهُ فِى ذَلِكَ فَقَالَ: لَيَنْتَهِينَّ عَنْ ذَلِكَ أَوْ لَتُخطَفَنَّ أَبْصَارُهُمْ(٣)». ولو خشع هؤلاء ما رفعوا أبصارهم إلى السماء، فخشوع الجوارح دليل على خشوع القلب، أو كما قيل فإنّ حسن أدب الظّاهر عنوان لأدب الباطن، وقد أدرك حقيقة خشوع الجوارح من قال: [لاَ يَكُونُ خَاشِعاً حَتَّى تَخْشَعَ كُلُّ شَعْرَةٍ عَلَى جَسَدِهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾].

ومن أقوى مظاهر خشوع الجوارح:

(١) الطُّمأنينة الكاملة فى كلّ ركن من أركان الصّلاة وتحصل بتسكين الجوارح حتّى تطمئنّ المفاصل ويستقرّ كلّ عضو فى مقرّه، فأشدّ النّاس سرقة وأكثرهم مكرًا واحتيالاً هذا النقّار المختلس من ركوعه وسجوده المفتقد لطمأنينتها وخشوعها، فهذا لا حظّ له فى صلاته لقوله ﷺ من حديث أنس «مَنْ صَلَّى الصَّلَوَاتِ لوَقْتِهَا، وَأَسْبَغَ لَهَا وُضُوءَهَا وَأَتَمَّ لَهَا قِيَامَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا، خَرَجَتْ وَهِىَ بَيْضَاءُ مُسْفِرَةٌ تَقُولُ حَفِظَكَ اللَّهُ كَمَا حَفِظْتَنِى، وَإِنْ صَلاَّهَا لغَيْرِ وَقْتِهَا وَلَمْ يُسْبِغْ لَهَا وُضُوءَهَا، وَلَمْ يُتِمَّ لَهَا خُشُوعَهَا وَلاَ رُكُوعَهَا وَلاَ سُجُودَهَا خَرَجَتْ وَهِىَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ تَقُولُ ضَيَّعَكَ اللَّهُ كَمَا ضَيَّعْتَنِى(٤)».

---

(١) أخرجه البخارى [٥٢] ومسلم [١٥٩٩].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٧٧١] وأبو داود [٧٦٠] والتّرمذى [٣٤٢١].

(٣) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٩١٣] وابن ماجه [٨٦٣].

(٤) رواه الطّبرانى فى الأوسط وأورده المنذرى فى التّرغيب [ج ١ ص ٢٥٨].

كما يدلّل قوله ﷺ من حديث ابن أبى وداعة «الصَّلاَةُ مَثْنَى مَثْنَى، أَنْ تَشَهَّدَ فِى كُلِّ رَكْعَتَيْنِ وَأَنْ تَبَأَس وَتَمَسْكَنَ وَتُقْنِعَ بِيَدَيْكَ وَتَقُولَ اللَّهُمَّ اللَّهُمَّ، فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَهِى خِدَاجٌ[1]»: على ضرورة إظهار البؤس والفاقة لله عزّ وجلّ والتزام السّكون والوقار فى حضرته، و[إقناع اليدين] رفعهما فى الدّعاء والمسألة بعد الصّلاة لا فيها، ومن لم يفعل ذلك تكون صلاته ناقصة فى الأجر والفضيلة.

(٢) أن يجعل المصلّى نظره محلّ سجوده وألاّ يختلس الالتفات يمنة أو يسرة، فخشوع البصر أن يكون فى موضع السّجود، ورفعه إلى السّماء منهى عنه كما فى صحيح الحديث، والنّظر إلى ما يلهى فيه الكراهة، وتغميض العينين من غير عذر مُخالف لهدى السُّنَّة، والالتفات إلى غير القبلة مُبطل للصّلاة للأدلّة الكثيرة التى أكّدت ذلك منها حديث أنس «إِيَّاكَ وَالالْتِفَاتَ فِى الصَّلاَةِ، فَإِنَّ الالْتِفَاتَ فِى الصَّلاَةِ هَلَكَةٌ[2]».

وجعل الالتفات هَلَكَة لكونه سببا لنقصان ثواب الصّلاة ولكونه نوعا من تسويل الشّيطان واختلاسه، وكذا قوله ﷺ من رواية الحارث الأشعرى «وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَكُمْ بِالصَّلاَةِ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلاَ تَلْتَفِتُوا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ فِى صَلاَتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ[3]». وفى رواية الحاكم «فَإِذَا صَرَفَ وَجْهَهُ انْصَرَفَ عَنْهُ».

إنّ أدب الإسلام إنّما يفرض على المصلّى إذا قام إلى الصّلاة أن يهاب الرّحمن، فلا يمدّ بصره إلى شىء وهو فى حضرته، وتلك هى حقيقة الخشوع الكامل الذى يقطع المصلّى عن معرفة من بيمينه أو يساره إذا أدرك عظمة من هو واقف بين يديه.

(٣) سكون اليدين وبُعدهما عن العَبَث بالثّوب أو الجسد بغير عذر أو غرض مشروع ووضعهما على الصّدر لاتّفاق جمهور العلماء على أنّ وضع اليدين على هذا النّحو أمنع من العبث وأقرب إلى الخشوع، ولما رواه أبو ذرّ أنّ النّبى ﷺ قال «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فَلاَ يَمْسَحِ الْحَصَى فَإِنَّ الرَّحْمَةَ تُوَاجِهُهُ[4]». ولمّا سُئل الإمام أحمد عن حكمة وضع اليد اليمنى على اليسرى على الصّدر فى الصّلاة قال [هُوَ ذُلٌّ بَيْنَ يَدَىْ عَزِيزٍ[5]].

(٤) كما يقتضى كمال الخشوع ألاّ يدخل المصلّى إلى الصّلاة وهو يدافع الأخبثين لتعلّق قلبه من ذلك بما يُشوّش عليه مقصود الصّلاة لقوله ﷺ من رواية أحمد ومسلم «لاَ يُصَلَّى بِحَضْرَةِ الطَّعَامِ وَلاَ وَهُوَ يُدَافِعُهُ الأَخْبَثَانِ[6]».

---

(١) حديث صحيح أخرجه أبوداود [١٢٩٦]. (٢) أخرجه التّرمذى [٥٨٩] وقال هذا حديث حسن غريب. (٣) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٢٨٦٣] وأحمد [١٧١٠٤] والحاكم [٧٩٤]. (٤) أخرجه التّرمذى [٣٧٩] وقال حديث أبى ذر حديث حسن وابن خزيمة (٩١٣). (٥) انظر الخشوع فى الصّلاة لابن رجب [ص٢١]. (٦) حديث صحيح أخرجه مسلم [٥٦٠] وأبو داود [٨٩].

وأكمل الخشوع ما جمع بين خشية القلب ورهبة الجوارح وطمأنينتها فى الصّلاة وهو ما يؤكّده قول النبي ﷺ «مَا منْ أَحَد يَتوضّأ فَيُحْسنُ الْوُضُوء ويُصلّي رَكْعَتَيْنِ يُقْبلُ بقَلْبه ووَجْهه عَلَيْهمَا إلاَّ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ[1]». وجاءت رواية مسلم بلفظ «مَا منْ مُسْلمٍ يَتوضّأ فيُحْسنُ وُضُوءه». ويتضمّن الحديث الإشارة إلى معنيين :

الأوّل - عدم اشتغال القلب بشىء غير الصّلاة فى قوله «يُقْبلُ بقَلْبه» وهذا يتطلّب قطع ما ينافى خشوع القلب وحضوره من خواطر ووساوس وأفكار.

الثّاني - عدم الالتفات بالوجه إلى غير جهة الصّلاة فى قوله «ووَجْهه» ويتضمّن الإشارة إلى التزام الجوارح بكمال هيئاتها التّعبُّدية الواجبة فى الصّلاة.

وقد بيّن العلماء أنّ أحاديث النّفس ووقوع الوساوس فى القلب غير اختيارية حال الصّلاة، أمّا الاختيار فهو إبقاء تسلسلها فى الفكر، وبالتّالى فإنّ قطع هذه الأفكار يكون اختياريا، وكذلك شغله فى الصّلاة وإقباله عليها وهو ما يمنع وقوع هذه الوساوس وحدوثها، وهو المعنى الذى تضمّنته رواية زيد بن خالد الجهني أنّ النّبى ﷺ قال «منْ توضّأ فأحْسنَ وُضُوءهُ ثُمّ صلّى ركْعَتيْنِ لاَ يسْهُو فيهمَا، غُفرَ لهُ ما تقدّمَ منْ ذَنْبه[2]».

والسّهو الذى يحذر منه النّبى ﷺ هو الغفلة عن شىء من أعمال الصّلاة لاشتغال قلبه بأمر من أمور الدّنيا بل ينبغى أن يكون مُقبلاً على مناجاة ربّه مُنقطعًا عن جميع ما سواه فى صلاته كلّها، فإذا فعل ذلك غفر له ما تقدّم من ذنبه.

الثّالث - (الاستعاذة من نفس لا تشبع)

هى تلك النّفس النّهمة التى فتحت أمام صاحبها باب الإفراط فى حبّ التّملُّك وشهوة الاستحواذ، واسترسلت فى جمع ما تشتهى حرامه وباطله، وقادته إلى الشّره وغلبة الحرص على الشّىء واشتهائه، وتتّسم هذه النّفس بعدم الرّضا بما قسم الله لها، فلا هى برزق الله تقنع ولا هى بفضله ترضى وتخضع.

والنّفس التى لا تشبع تُصيبُ من تَعلّقٍ بمُتَع الدّنيا بالنَّهَم وحبّ الاستحواذ، فهو منهوم بما هو زائل، مُتناسٍ لما هو إليه صائر، وفى الحديث «مَنْهُومَانِ لاَ يَشْبَعَانِ: مَنْهُومٌ فِي عِلْمٍ لاَ يَشْبَعُ، وَمَنْهُومٌ فِي دُنْيَا لاَ يَشْبَعُ[3]».

والنَّهَمُ: من نَهِم فى الشّىء نَهمًا ونَهامَةً - أفرط الشّهوة أو الرّغبة فيه، فهو نَهمٌ ونَهيمٌ،

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٣٤] وأبو داود [٩٠٦].

(٢) حديث حسن أخرجه أبو داود [٩٠٥] وأحمد [١٦٩٩١] والطّبرانى فى الكبير [٩٠٢].

(٣) أخرجه الحاكم [٣١٥] وقال صحيح على شرط الشّيخين.

والنَّهْمَةُ: الشهوةُ في الشّيء، وليس أسوأ من أنّ يموت المرء وقد تملّكه حبّ المال وحبّ الحياة لقوله ﷺ من حديث أنس «يَكْبُرُ ابْنُ آدَمَ وَيَكْبُرُ مَعَهُ اثْنَتَانِ حَبُّ الْمَالِ وَطُولُ الْعُمْرِ (١)». والحكمة في التّخصيص بهذين الأمرين:

(١) أنّ أحبّ الأشياء إلى ابن آدم نفسه فهو راغب في بقائها فأحبّ لذلك طول عمره.

(٢) وأنّه أحبّ المال لأنّه من أعظم الأسباب في دوام الصّحة التي ينشأ عنها غالبا طول العمر، فكلّما أحسّ بقرب نفاد ذلك اشتدّ حبّه له وزادت رغبته في دوامه.

ولو كان للنّفس التي لا تشبع واديان من ذهب أو مال لأحبتّ أن يكون لها الثّالث لقوله ﷺ من حديث ابن عبّاس «لَوْ كَانَ لابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لابْتَغَى ثَالِثًا، وَلاَ يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ (٢)».

ولقد جاءت الرّوايات الصّحيحة بأكثر من تعريف لهذا الذي تتمنّاه النّفس وتشتهي مزيده فرُوي عند البخاري «مِلْءَ وَادٍ مَالاً». وفي رواية «وَادِيًا مَلآنَ مِنْ ذَهَب». ومثله عند أحمد وزاد «وَفِضَّة». ولفظه عند أبي عبيدة من حديث جابر «لَوْ كَانَ لابْنِ آدَمَ وَادِ نَخْلٍ». كما جاء الطّلب بألفاظ مختلفة منها «لأَحَبَّ» و«لابْتَغَى ثَالِثًا» وفي حديث أنس «لَتَمَنَّى مِثْلَهُ».

ورغم أنّ قوله ﷺ «لاَ يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ»: قد جاء بعبارات مُختلفة في أكثر من رواية إلاّ أنّها تضمّنت معنى واحدا يبيّن أنّ حقيقة المراد ليست في عضو بعينه بقرينة عدم الانحصار في التّراب إذ غيره يملؤه أيضا:

* فجاءت في حديث ابن الزّبير عند البخاري «وَلاَ يَسُدُّ جَوْفَ (٣)».
* وعنده من رواية ابن عبّاس «وَلاَ يَمْلأُ عَيْنَ (٤)».
* وفي حديث أنس عند مسلم «وَلَنْ يَمْلأَ فَاهُ (٥)». ومثله عند أحمد.
* وقوله في حديث زيد بن أرقم عند أحمد «وَلاَ يَمْلأُ بَطْنَ ابْنِ آدَمَ (٦)».
* وجاء عند مسلم «وَلاَ يَمْلأُ نَفْسَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ (٧)».

---

(١) أخرجه البخاري [٦٤٢١] ومسلم [١٠٤٧].
(٢) أخرجه البخاري [٦٤٣٦] ومسلم [١٠٤٨].
(٣) من حديث صحيح أخرجه البخاري [٦٤٣٨].
(٤) من حديث صحيح أخرجه البخاري [٦٤٣٧].
(٥) من حديث صحيح أخرجه البخاري [١٠٤٨] وأحمد [١٢٦٥].
(٦) من حديث صحيح أخرجه أحمد [١٩١٧٦].
(٧) من حديث صحيح أخرجه مسلم [١٠٤٩].

وتأتي كلّها كنايات [عن الموت] لأنه مُستلزم للامتلاء فكأنّه قال: لا يشبع من الدّنيا حتّى يموت، فكنّى [بالفم] لكونه طريق الوصول إلى الجوف، أمّا [العين] فلأنّها الأصل في الطّلب لأنّه يرى ما يُعجبه فيطلبه ليحوزه إليه، ثمّ عبّر [بالنّفس] عن الذّات وأطلق، وخصّ [البطن] في أكثر الرّوايات لأنّ أكثر ما يُطلب له المال هو تحصيل المستلذّات وأكثرها يكون للأكل والشّرب.

(قال) الطّيبي [وقع قوله «ولاَ يَملأُ» موقع التّذييل والتّقرير للكلام، كأنّه قد قيل: ولا يَشْبَعُ مَنْ خُلِقَ من التّراب إلاّ بالتّراب، ويُحتمل أن تكون الحكمة من ذكر التّراب دون غيره أنّ المرء لا ينقضي طمعه حتّى يموت، فإذا مات كان من شأنه أن يُدفن، فإذا دُفن صُبَّ التّراب عليه فملأ جوفه وفاه وعينيه ولم يبق منه موضع يحتاج إلى تراب غيره [1]].

[وتُؤخذ المناسبة من ذكر التّراب أنّ فيه إشارة إلى أنّ الآدمي خُلق من التّراب ومن طبعه القبض واليبس، وأنّ إزالته ممكنة بأن يمطر الله عليه ما يُصلحه حتّى يثمر الخلال الزّكية والخصال المرْضيّة كما في قول الله تعالى ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨]. فوقع قول رسول الله ﷺ «ويَتوبُ اللّه»: موقع الاستدراك، أي أنّ ذلك العسر الصّعب يمكن أن يكون يسيرا على من يسّره الله تعالى عليه [2]].

ويُقصد بقوله ﷺ «وَيَتُوبُ اللّهُ عَلَى مَنْ تَابَ» أنّ الله تعالى يقبل التّوبة من الحريص كما يقبلها من المذنب. [قيل] وفيه إشارة إلى ذمّ الاستكثار من جمع المال وتمنّي ذلك والحرص عليه، ويُمكن أن يكون معناه أنّ الآدمي مجبول على حبّ المال وأنّه لا يشبع من جمعه إلاّ من حفظه الله تعالى ووفّقه لإزالة هذه الجبلّة عن نفسه، فوضع «يَتُوبُ» موضعه إشعارا بأنّ هذه الجبلّة المذمومة جارية مجرى الذّنب وأنّ إزالتها ممكنة بتوفيق الله وتسديده، وجاءت الإشارة إلى ذلك في قول الله تعالى ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]. وفي إضافة الشّح إلى النّفس دلالة على أنه غريزة فيها، كما أنّ في قوله ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ إشارة إلى إمكان إزالة ذلك.

والنّفس التي لا تشبع تنقاد في حياتها لأمرين:

(الأوّل) الطّمع وهو شدّة الرّغبة في استحواذ ما لدى الغير وتملّكه، وضدّه الرّضا والقناعة والعطاء.

و(الثّاني) الحرص الذي يَجْمَعُ صَاحِبُهُ جَشَعًا ويَمْنَعُ بُخلاً وشُحًّا وضدّه الزُّهد والسّخاء والكرم.

---

(١) انظر فتح الباري [ج ١١ ص ٢٦٠]. (٢) انظر فتح الباري [ج ١١ ص ٢٦١].

فالأمر «الأوّل» من أخطر ما يُبتلى به المرء عندما تتوق نفسه إلى حاجة الغير والطّمع في استحواذها، وهو الذى حذّر منه ﷺ عندما سأله الرّجل «أَوْصِنى؟ فَقَالَ عَلَيْكَ بالإِيَاسِ ممَّا فى أَيْدى النَّاسِ؛ وَإِيَّاكَ وَالطَّمَعُ فإِنَّهُ الْفَقْرُ الْحَاضِرُ[(١)]».

فالطّمع لا يقود إلاّ إلى العوز والحاجة ولا يحقّق إلاّ الهوان والمذلّة؛ وهى النّقيصة التى أمرنا رسول الله ﷺ أن نستعيذ منها لقوله «اسْتَعِيذُوا باللهِ من طَمَعٍ يَهْدى إِلى طَبَعٍ، وَمِنْ طَمَعٍ فى غَيْرِ مَطْمَعٍ وَمِنْ طَمَعٍ حَيْثُ لاَمَطْمَعٍ[(٢)]». والطَّبَعُ: الدَّنَسُ والْعَيْبُ، وكُلّ شَيْنٍ فى دين أو دنيا فهو طَبَعٌ. يُقَالُ منه رَجُلٌ طَبِعٌ.

ولا يلزم المرء مع طبائع النّفس الغالبة إلاّ القناعة، فإن كان يغنى من الدّنيا ما يكفى، فأدنى ما فيها يغني ويستكفى، وهو المعنىّ الذى أكّده رسول الله ﷺ بقوله من حديث فضالة «طُوبَى لِمَنْ هُدِىَ إِلى الإِسْلاَمِ وكَانَ عَيْشُهُ كَفَافًا وقَنَعَ[(٣)]». كما يُبيّن قوله ﷺ من حديث أبى سعيد «ومَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَصْبِرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ[(٤)]».

إنّ المسلم الحقّ يرضى بالقليل ويملأ قلبه إيمانا بربّه وقناعة، ومن القناعة الرّضا بالقليل من الرّزق، وقد قيل [عَزَّ مَنْ قَنَعَ وَذَلَّ مَنْ طَمَعَ] لأنّ القانع لا يُذلّه الطّلب ولا يَغْلُبُهُ الشَّرَهُ فلا يزال عزيزا. وجاء عند مسلم «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا وقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا أَتَاهُ[(٥)]». وقوله ﷺ من حديث أبى الدّرداء «يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ، فَإِنَّ مَا قَلَّ وَكَفَي خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَى[(٦)]».

ومن قول سعد بن أبى وقّاص «إِذَا طَلَبْتَ الْغِنَى فَاطْلُبْهُ بِالْقَنَاعَةِ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَكَ قَنَاعَةٌ فَلَيْسَ يُغْنِيكَ مَالٌ[(٧)]». وكان يقال: أَنت أخو العزّ ما التحفْتَ القناعة، ومن القناعة الرّضا بالقَسْمِ والعطاء، فهو: [قَنِعٌ] و [قَنُوعٌ] و [الْقَانِعُ] بمعنى الرّاضى وفى المَثَل: خير الغنى القُنوع وشرّ الفقر الخضوع.

[والقناعة فضيلة مركّبة من الجود والعدل، أمّا الشَّرَهُ فمُتولّد عن الطّمع المُتولّد عن الحسد، والحسد متولّد عن الرّغبة المتولّدة عن الجور والشّحّ والجهل، أمّا الحرص فإنّه يتولّد

---

(١) رواه الحاكم بإسناد صحيح [٨٠٩٣].

(٢) أخرجه أحمد بإسناد حسن [٢١٩٢٠] والبغوى فى شرح السُّنَّة [١٣٦٣].

(٣) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٢٣٤٩].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [١٤٦٩] ومسلم [١٠٥٣] وأبو داود [١٦٤٤].

(٥) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٠٥٤] والتّرمذى [٢٣٤٨] وابن ماجه [٣٣٥٥].

(٦) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢١٦١٨] وصحّحه الحاكم [٢ / ٤٤٥] ووافقه الذّهبى.

(٧) انظر عيون الأخبار لابن قتيبة [ج ٨ ص ١٨٥].

من رذائل عظيمة منها الذّل ؛ والسّرقة ؛ والغصب ؛ والقتل ؛ والهمّ بالفقر ؛ والمسألة لما بأيدى النّاس ، وإنّما فَرّقَ بين الحرص والطّمع لأنّ الحرص هو إظهار ما استكنّ فى النّفس من الطّمع (١)] .

أمّا الأمر «الثّانى» وهو الحرص على المال فإنّه من أكثر العوامل المُفسدة للدّين ، بل يكون أكثر خطرا على مُقوّمات الأخلاق من إفساد الذّئبين للغنم ، لما يُسبّبه من البخل والبطَر والكبر لقوله ﷺ من حديث كعب بن مالك «مَا ذئبَان جَائعَان أُرْسلاَ فى غَنمٍ بأفْسَدَ لَهَا من حرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرف لدينه(٢)». فالذّئاب الجائعة المُرسلة فى جماعة من جنس الغنم ليست بأشدّ إفسادًا لها من حرص المرء على المال والجاه ، ويُؤخذ من دلالات الحديث :

(١) أنّ إفساد المال يكون نوع من القدرة التى تُحرّك داعية الشّهوات ويجرّ إلى التّنعّم فى المباحات فيصير التنعّم مألوفا ، وربما يشتدّ أُنسه بالمال ويعجز عن كسب الحلال فيقتحم فى الشّبهات .

(٢) ويكفى بالجاه إفسادا أنّ المال يُبذل له ، ولا يُبذل الجاه للمال ممّا يكون سببا فى خوض المرآة والمداهنة والنّفاق وسائر الأخلاق الذّميمة فهو أفسد وأفسد [(٣)] .

فليس أسوأ على المرء من الحرص لكونه بَكْرُ الذّنوب وأصل المهالك . وما جاء وصف اليهود فى كتاب الله إلاّ بهذا وهو قول الله تعالى ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة:٩٦] . فجمود العين وقسوة القلب وطول الأمل من نتاج الحرص على الحياة ، وهو ما يُؤكّده قول النّبى ﷺ عند الحاكم «اقْتَربَتِ السَّاعَةُ ولاَ يَزْدَادُ النَّاسُ عَلَى الدُّنْيَا إلاّ حرْصًا وَلاَ يَزْدَادُونَ منَ الله إلاّ بُعْدًا(٤)» .

وما الطّمع والحرص إلاّ وجهان لعملة واحدة رديئة يتداولها الأشحّاء والمبخلون ، وما البخل والبخس إلاّ قرينان بئيسان لا يفترقان ، فالأوّل [من] بَخلَ بَخَلاً وبُخْلاً : ضَنَّ على غيره بما عنده ، وهو الأمر الذى حذّر من نتائجه الخالق جلّ وعلا بقوله تعالى ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[آل عمران : ١٨٠] . أمّا البَخْسُ فهو «النَّقْصُ» ومنه قوله تعالى ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾[يوسف : ٢٠] .أى باعوه بثمن مبخوس منقوص ، وقد [بَخَسَه] حقّهُ أىْ أنقصه ، وهو الأمر المنهى عنه فى كتاب الله تعالى بقوله

---

(١) انظر تهذيب الأخلاق لابن حزم [ص٧٠] .

(٢) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٢٣٧٦] .

(٣) انظر تحفة الأحوذى [ج ٦ ص ٢٤٤] .

(٤) أخرجه الحاكم [٨٠٨٢] وقال صحيح الإسناد .

﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾[الأعراف:٨٥] .

والشُّح هو البخل مع حرص، يقال: رجل شحيح بيّن الشُّحّ والشّحّ والشّحاحة، وجعل بعض أهل اللّغة الشُّح أشدّ من البخل، وقد أخبر سبحانه أنّ الشُّحّ هو الأمر الذى مسّ كُلّ نفسٍ فى قوله ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾[النساء:١٢٨] . ومنه قوله تعالى ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾[الأحزاب:١٩]. أى على المال أن ينفقوه فى سبيل الله.

وممّا يدلّ على أنّ الشُّحّ أشدّ فى الذّمّ من البخل ما جاء من قوله ﷺ عن جابر «اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُماتٌ يومَ الْقِيامَةِ، واتَّقُوا الشُّحَ فإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دماءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحارِمَهُمْ(١)». وقوله ﷺ عند النّسائى «لا يَجْتَمِعُ غُبارٌ فى سَبِيلِ الله وَدُخانُ جَهَنّمَ فِى مَنْخَرَىْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ أَبداً، وَلا يَجْتَمِعُ شُحٌّ وَإِيمانٌ فِى قَلْبِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ أَبَداً(٢)».

(قال) طاوس [البخل أن يبخل الإنسان بما فى يده، والشُّحّ أن يشُحّ بما فى أيدى النّاس، يحبّ أن يكون له ما فى أيديهم بالحلّ والحرام، وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: من اتّبع هواه ولم يقبل الإيمان فذلك الشّحيح(٣)].

ليس الغنى عن كثرة العرض

ويُبيّن رسول الله ﷺ أنّ كمال الإيمان وحقيقته فى غنى النّفس وقُنوعها وليس فى إشرافها ونُزوعها كما فى قوله من حديث أبى هريرة «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ(٤)». ومعناه: أنّ الغنى النّافع أو العظيم أو الممدوح هو غنى النّفس، فإذا استغنت نفس المرء كفّت عن المطامع فعزّت وعظُمت، وحصل لها من الحُظوة والنّزاهة والشّرف والمدح أكثر من الغنى الذى يناله فقير النّفس لحرصه، فإنّه يُورِّطه فى رذائل الأمور وخسائس الأفعال لدناءة همّته وحرصه [(٥)]. ولابن حبّان من حديث أبى ذرّ «قَالَ لى رَسُولُ الله ﷺ يا أَبا ذَرٍّ أَتَرى كَثْرَةَ الْمالِ هُوَ الْغِنَى؟ قُلْتُ نَعَمْ. قالَ: وَتَرَى أَنَّ قِلَّةَ الْمالِ هُوَ الْفَقْرُ؟ قُلْتُ نَعَمْ يارَسُولَ الله، قَالَ إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى الْقَلْبِ وَالْفَقْرُ فَقْرُ الْقَلْبِ(٦)».

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٥٧٨].

(٢) حديث صحيح أخرجه النّسائى [٣١١٤].

(٣) انظر تفسير القرطبى [ج ١٨ ص ٣٠].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٤٤٦] ومسلم [١٠٥١] والتّرمذى [٢٣٧٣].

(٥) انظر فتح البارى [ج ١١ ص ٢٧٧].

(٦) أخرجه الحاكم [٨٠٩٤] ووافقه الذّهبى فى التّلخيص صحيح على شرط البخارى.

(قال) فى الفتح [معنى الحديث ليس حقيقة الغنى كثرة المال، لأنّ كثيرا ممن وسّع الله تعالى عليه فى المال لا يقنع بما أوتى، فهو يجتهد فى الازدياد ولا يُبالى من أين يأتيه، فكأنّه فقير لشدّة حرصه، وإنّما حقيقة الغنى غنى النّفس، وهو من استغنى بما أُوتى وقنع به ورضى ولم يحرص على الازدياد ولا ألحّ فى الطّلب فكأنّه غنى(1)].

وإنّما يتحصّل غنى النّفس عند المسلم بأمرين:

(الأوّل) عندما يفتقر قلبه إلى ربّه تعالى فى جميع أموره فيتحقّق له أنّه المعطى المانع فيرضى بقضائه ويفزع إليه فى كشف ضرّائه، فينشأ عن افتقار القلب لربّه غنى نفسه عن غير ربّه تعالى ومنه قوله سبحانه ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾[الضّحى: ٨].

(الثّانى) عندما يشكر العبد ربّه على نعمائه فيعترف بها باطنا، ويتحدّث بها ظاهرا، ويعمل على تصريفها فى مرضاة وليّها ومُعطيها سبحانه.

فمن أراد الله به خيرا فتح له باب الذّل والانكسار ودوام اللُّجأ والافتقار إليه، ورؤية عيوب نفسه وجهلها وعدوانها، ومشاهدة فضل ربّه تعالى وإحسانه ورحمته وجوده وبرّه وغناه، فالعارف يسير إلى الله بين مشاهدة المنّة ومطالعة عيب النّفس والعمل، وهذا معنى قوله ﷺ من حديث شدّاد بن أوس «اللّهُمَّ أَنْتَ رَبِّى، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، خَلَقْتَنِى وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَىَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِى، فَاغْفِرْ لِى، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ(2)». فجمع رسول الله ﷺ فى الحديث بين الأمرين:

(١) بين مُشاهدة «المنّة» المتضمّنة إحسان الخالق وإنعامه وفضله والتى تُوجب له المحبّة والحمد والشّكر بقوله «أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَىَّ».

(٢) وبين مُطالعة «عيب النّفس والتّقصير فى العمل» التى تُوجب له سبحانه الذّل والانكسار والافتقار إليه والتّوبة فى كلّ وقت بقوله «وَأَبُوءُ بِذَنْبِى».

الرّابعة - (الاستعاذة من دعاء لا يستجاب)

الدُّعاء هو التّضرُّع إلى الله تعالى وقصده فى الحوائج كلّها، وهو أصل العبادة وخُلاصتها، لما فيه من إقبال العبد على خالقه سبحانه، والإعراض عمّا سواه، وتذلّله له وخضوعه

---

(١) انظر فتح البارى [ج ١١ ص ٢٧٧].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٣٠٦] والتّرمذى [٣٣٩٣] والنّسائى [٥٥٣٧]. وقد أورد البخارى هذا الحديث فى [باب ما يقول إذا أصبح] ثمّ قال رسول الله ﷺ فى آخر الرّواية «وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِىَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ».

لأمره تعالى، ويأتي سؤال العبد لربّه وهو في موقف التضرّع والطّاعة، اعترافًا منه بحق عبوديّته له، وإقرارا بكمال غناه وتفرّده بالفضل والإحسان، ودليلاً على أنّه لا غنى له عن هذا الفضل وهذا الإحسان طرفة عين.

وفضل الله وإحسانه ليس موقوفًا على سُؤال العبد ربّه، بل هو المتفضّل به عليه ابتداء بلا طلب أو سُؤال، وإنّما تأتي ضراعته لربّه وسُؤاله إيّاه تحقيقًا لمرتبة العبوديّة المطلقة الواجبة له، وإظهارًا لشدّة فقره إليه بين يدى عزّه وغناه، وبرهانًا أكيدًا على مدى حاجته إلى عونه ومدده ورضاه، وتحقيقا لقوله تعالى:

* ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر: ٦٠].

* ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[الأعراف: ٥٥].

وأصل الدّعاء أن تميل الشّيء إليك بصوت وكلام ويكون منك، ومنه الطّلب، ويكون برفع الصّوت وخفضه؛ يقال: دعوت فلانا أى سألته ودعوته، والدّعاء إلى الشّيء الحثّ على فعله، واصطلاحا: طلب الفعل من الأدنى إلى الأعلى، فالدّعاء نوع من السّؤال لجلب الخير أو دفع الشرّ، أمّا الاستعاذة فهي دعاء لدفع الشّر، كما أنّ بين الدّعاء والاستغفار عموم وخصوص فيجتمعان في طلب المغفرة، وينفرد الدّعاء إن كان بطلب غير المغفرة، والدّعاء والنّداء واحد لكن قد يتجرّد النّداء عن الاسم والدّعاء لا يكاد يتجرّد [(١)].

كما أشارت السُّنّة إلى أنّ أعجز النّاس من قصّر في سُؤاله لربّه وتوجّهه إليه بحاجته لقوله ﷺ «أعجزُ النَّاسِ من عجزَ عن الدُّعاء، وأبخلَ النَّاسِ من بخلَ بالسَّلامِ(٢)». ولذلك تواردت الآثار عن نبيّنا ﷺ بالترغيب في الدّعاء والحضّ عليه وبيان فضله منها:

* قوله ﷺ «لاَ يرُدُّ القَدرَ إلاَّ الدُّعاءُ. ولاَ يَزيدُ فِي العُمُرِ إلاَّ البِرُّ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بالذَّنْبِ يُذْنِبُهُ(٣)».

* وقوله ﷺ «لَيْسَ شَيْءٌ أكْرَمَ عَلَى اللهِ مِنَ الدُّعَاءِ(٤)».

* وقوله ﷺ «مَنْ لَمْ يسْأَلِ اللهَ يغْضَبْ عليْه(٥)».

* وجاء عند الحاكم بلفظ: «مَنْ لاَ يدْعُو اللهَ يغْضَبْ عَلَيْه». قال الطّيبى [معنى الحديث

(١) انظر فتح البارى [ج ١١ ص ٩٧] ومعجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ٢ ص ٨].

(٢) أورده فى الصّحيحة [٦٠١] وصحيح الجامع [١٠٤٤].

(٣) أخرجه الحاكم [١٨٥٠] وقال صحيح الإسناد.

(٤) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٣٣٧٠] وابن ماجه [٣١٠٢] وأحمد [٨٧٥٦].

(٥) حديث حسن أخرجه التّرمذى [٣٣٧٣] وابن ماجه [٣١٠٠] وأحمد [٩٦٦٢].

أنّ من لم يسأل الله يبغضه، والمبغوض مغضوب عليه والله يحبّ أن يُسأل[1]].

وتُحمل العبادة في قوله ﷺ «إنّ الدُّعَاءَ هو الْعبادَةُ[2]». على المعنى اللّغوى، إذ الدّعاء هو إظهار غاية التّذلّل والافتقار إلى الله تعالى والاستكانة له، وما شُرعت العبادات إلاّ للخضوع للخالق جلّ وعلا وإظهار الافتقار إليه [[3]].

والله تعالى يحبّ تذلّل عبده بين يديه، وإلحاحه في سؤاله إيّاه، وطلبه حوائجه منه، ولجوءه إليه، واستعاذته به، وفراره منه إليه، وبذلك يكون الدّعاء من أنجع الوسائل المحقّقة لكمال العبوديّة المطلقة لله لما ورد في الصّحيح من قوله ﷺ عن ربّه جلّ شأنه «يَا ابْنَ آدَمَ إنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلاَ أُبَالِي[4]».

وروى أبو عبيد عن عائشة عن النّبى ﷺ قال «إذَا تَمَنَّى أَحَدُكُمْ فَلْيُكْثِرْ فَإِنَّمَا يَسْأَلُ رَبَّهُ[5]». والتمنّي فيه تَشَهِّي حُصُولِ الأمر المرغوب وحَديثُ النَّفْس بما يكونَ وما لا يكون، والمعنى إذا سأل المرء ربّه حوائجه وفضله فليُكثر من الطّلب والرّجاء فإنّ فضل الله كثير وخزائنه واسعة لا تنفد.

خفض الصّوت بالدّعاء

يستحبّ للدّاعى عدم الجهر بدعائه والمخافتة به فيُسْمِعُ نفسه ولا يُسمع غيره وذلك أدعى إلى الخشوع والقبول وهو الأمر الذى نزل به القرآن في قوله تعالى ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[الأعراف:٥٥]. ومن الأدب مع الخالق جلّ وعلا أن يكون الطّلب في ساحة عفوه ورضاه بخفض الصّوت عند دعائه ولهذا أثنى الله على عبده زكريا بقوله ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾[مريم:٣]. فلمّا استحضر القلب كان سبحانه أقرب إليه من كلّ قريب.

ولمّا كان الدّعاء من أفضل الذّكر أمر تعالى نبيّه الأكرم ﷺ أن يذكره في نفسه كقوله ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[الأعراف:٢٠٥]. (قال) مجاهد وابن جريج: أُمروا أن يَذكروه في الصّدور بالتّضرّع والخوف والاستكانة دون رفع الصّوت والصّياح، وتأمل كيف قال في آية الذّكر ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ الآية، وفي آية الدّعاء ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾: فذكر التّضرّع

---

(١) انظر فتح البارى [ج ١١ ص ٩٨].

(٢) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٣٣٧٢] وابن ماجه [٣١٠١] وأبو داود [١٤٧٩].

(٣) انظر فتح البارى [ج ١١ ص ٩٨].

(٤) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٣٥٤٠].

(٥) انظر غريب الحديث لأبى عبيد [٢٠٢] والجامع الصّغير [٤٣٧] والصّحيحة [١٢٦٦].

فيهما معًا وهو التّذلُّل والتّمسكُن والانكسار وهو روح الذّكر والدّعاء.

وكما خصّ الله تعالى الدّعاء «بالخُفْيَة» لحاجة الدّاعي إلى التّذلُّل والتّضرُّع، خصّ الذّكر «بالْخيفَة» لحاجة الذّاكر إلى الخوف، فإن الذّكر يستلزم المحبّة ويثمرها، ولابدّ لمن أكثر من ذكر الله أن يثمر له ذلك محبّته، والمحبّة ما لم تقترن بالخوف فإنّها لا تنفع صاحبها بل تضرّه، والدّعاء ذكر للمدعو سبحانه مُتضمّن للطّلب والثّناء عليه بأوصافه وأسمائه فهو ذكر وزيادة كما جاء في قوله ﷺ «أَفْضَلُ الذِّكْرِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لله[1]». فسمّى الحمد دعاء وهو ثناء محض، لأنّ الحمد مُتضمّن للحبّ والثّناء والحبّ أعلى أنواع الطّلب، فنفس الحمد والثّناء مُتضمّن لأعظم الطّلب فهو دعاء على الحقيقة، ومن الفوائد التي ذكرها الأئمة في إخفاء الدّعاء [[2]]:

(١) أنّه أعظم إيمانا لأنّ صاحبه يعلم أنّ الله يسمع الدّعاء الخفيّ.

(٢) أنّه أرفع في الأدب والتّعظيم، لأنّ الملوك لا تُرفع الأصوات عندهم ومن رفع صوته لديهم مقتُوه - ولله المثلُ الأعلى - فإذا كان يسمع الدّعاء الخفيّ فلا يليق بالأدب بين يديه إلاّ خفض الصّوت به.

(٣) أنّه أبلغ في التّضرُّع والخشوع الذي هو روح الدّعاء ولبّه مقصوده، فإنّ الخاشع الذّليل إنّما يسأل مسألة المسكين الذي انكسر قلبه وذلّت جوارحه وخشع صوته، حتّى إنّه لا يكاد تبلغ ذلّته وسكينته وضراعته إلى أن ينكسر لسانه، فلا يُطاوعه بالنّطق وقلبه يسأل طالبا مبتهلا ولسانه لشدّة ذلّته ساكنا، وهذه الحال لا تأتي مع رفع الصّوت بالدّعاء.

(٤) أنّه أبلغ في جمعية القلب على الذّلّة في الدّعاء فإنّ رفع الصّوت يفرّقه، فكلّما خفض صوته كان أبلغ في تجريد همّته وقصده للمدعو سبحانه.

(٥) أنّه دالّ على قرب صاحبه للقريب لا مسألة نداء البعيد للبعيد، وقد أشار النّبي ﷺ إلى المعنى بعينه لمّا رفع الصّحابة أصواتهم بالتّكبير وهم معه في السّفر فقال «يَاأَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ [[3]] فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا وَهُوَ مَعَكُمْ[4]». وفي رواية «وَالَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَةِ أَحَدِكُمْ». بل هو

---

(١) حديث حسن أخرجه التّرمذي [٣٣٨٣].

(٢) انظر التّفسير الكبير لابن تيمية [ج ٤ ص ٣٠٠].

(٣) قوله ﷺ «ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ» من ربع الرّجل يربع إذا رفق وكفّ، أي ارفقوا بأنفسكم في الطّلب ولا ترفعوا أصواتكم فإنّ رفع الصّوت إنّما يفعله الدّاعي لبعد من يدعوه ليسمعه، فإنّه إذا خفض صوته كان أبلغ في توقير ربّه سبحانه وتعظيمه.

(٤) حديث صحيح أخرجه البخاري [٦٦١٠] ومسلم [٢٧٠٤] وأبو داود [١٥٢٦].

سميع بصير قريب فلا حاجة إلى رفع الصّوت بالتّكبير وقد قال تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وهذا القرب من الدّاعى هو قرب خاص، وليس قربا عاما من كلّ أحد، فهو قريب من داعيه وقريب من عابديه وقريب من سائليه و«أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ[1]». وقوله تعالى ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]. فيه الإرشاد والإعلام بهذا القرب، ولاشكّ أنّ الذى يسمعك خُفْيَة يكون أقرب إليك من نفسك لنفسك.

(٦) إنّه ادعى إلى دوام الطّلب والسُّؤال، فإنّ اللّسان لا يملّ والجوارح لا تتعب، بخلاف ما إذا رفع صوته، فإنّه قد يملّ اللّسان وتضعف قواه وهذا نظير من يقرأ ويكرّر، فإذا رفع صوته فإنّه لا يطول له، بخلاف من خفض صوته.

(٧) إنّ إخفاء الدُّعاء أبعد له من القواطع والمشوّشات، فإنّ الدّاعى إذا أخفى دعاءه لم يدر به أحد، فلا يحصل على هذا تشويش ولا غيره، وإذا جهر به فرطت له الأرواح البشرية ولا بدّ، ومانعته وعارضته ولو لم يكن إلاّ أنّ تعلّقها به يفزع عليه همّته، فيضعف أثر الدّعاء فإذا أسرّ الدّعاء أمن هذه المفسدة.

(٨) إنّ أعظم النّعمة الإقبال والتّعبّد، ولكلّ نعمة حاسد على قدرها دقّت أو جلّت، ولا نعمة أعظم من هذه النّعمة، فإنّ أنفس الحاسدين متعلّقة بها، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد، وقد قال نبي الله يعقوب ليوسف عليهما السّلام ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥]. وإذا كان الدّعاء المأمور بإخفائه يتضمّن دعاء الطّلب والثّناء والمحبّة والإقبال على الله تعالى، فهو من عظيم الكنوز التى هى أحقّ بالإخفاء عن أعين الحاسدين [[2]].

الدّعاء فى الرّخاء

إذا أحبّ العبد أن يُستجاب له عند الشّدائد المؤثّرة والحوادث المؤسفة فليكثر لربّه الدّعاء فى الرّخاء لقوله ﷺ من حديث أبى هريرة «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكَرْبِ فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ[3]». أى فى حال الصّحة والفراغ والعافية، لأنّ من شيمة المؤمن أن يريّش السّهم قبل أن يرمى ويلتجىء إلى الله قبل الاضطرار، فمن عامل الله التّقوى والطّاعة فى حال رخائه عامله الله باللّطف والإعانة فى حال شدّته، وما نجّى

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٤٨٢] وأبو داود [٨٧٥].

(٢) انظر التّفسير الكبير لابن تيمية [ج ٤ ص ٣٠٢].

(٣) حديث حسن بشواهده أخرجه التّرمذى [٣٣٨٢] والحاكم [٢٠٣٥].

الله تعالى يونس من المكوث في بطن الحوت إلاّ لأنّه كان من المسبّحين ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[الصّافات:١٤٣-١٤٤].

وسُؤال الله تعالى من فضله لا يتوقّف على حالٍ بل ينبغي أن يكون في كلّ الظّروف والأحوال كما في قوله سبحانه ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾[النّساء:٣٢]. فسُؤال الخالق وحده دون خلقه هو المتعيّن، لأنّ سُؤاله في الفقر والغنى، والمرض والصّحة، يأتي تحقيقا لمقام العبودية والخضوع بين يديه، وإظهارا لمدى الحاجة والافتقار إليه وقد قال الله تعالى ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[النّمل:٦٢].

وعلى المؤمن أن يجعل علاقته بربّه في الرّخاء ذكرا يصله دوما بجلال مولاه، وحمدا يسجّل له في الصّحائف يوم تعرض الأعمال في موقف المباهاة كما في قوله ﷺ من حديث جابر «أَفْضَلُ الذِّكْرِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لله(١)»:

(فالأولى) هي «كلمة التّوحيد» التي لا يماثلها شيء باعتبارها الفارقة بين الكفر والإيمان، ولأنّها الأجمع للقلب مع الله تعالى، والأشدّ تزكية للنّفس، والأقوى تنقية للفؤاد، والأطرد للشّيطان، وهي كلمة الإخلاص وخاتمة الإيمان كما في قول النّبي ﷺ «مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ تَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، يَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى قَلْبٍ مُوقِنٍ إِلاَّ غَفَرَ اللهُ لَهَا(٢)».

أمّا (الثّانية) فإنّها تجمع بين ذكر الله تعالى والدّعاء والحمد يشملهما، فإنّ من حمد الله تعالى فإنّه يحمده على نعمته، والحمد على النّعمة طلب المزيد وهو رأس الشّكر كما في قوله تعالى ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[إبراهيم:٧]. وفي ذلك جاء قوله ﷺ عن أنس «مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً فَقَالَ الْحَمْدُ لله، إِلاَّ كَانَ الَّذِي أَعْطَاهُ أَفْضَلَ مِمَّا أَخَذَ(٣)». وعن عائشة قالت «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا رَأَى مَا يُحِبُّ قَالَ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ قَالَ الْحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ(٤)».

فإذا اتّقى العبد ربّه تعالى وحفظ حدوده وراعى حقوقه في حال رخائه، عرفه ربّه في الشّدّة وراعى له تعرّفه إليه في الرّخاء فنجّاه من الشّدائد حال الكرب والضّيق، وهو معنى قوله ﷺ لابن عبّاس «تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ(٥)». ومعرفة العبد لربّه تقوم على أمرين:

---

(١) حديث حسن أخرجه التّرمذي [٣٣٨٣]. (٢) حديث حسن صحيح أخرجه أحمد [٢١٨٩٧] وابن ماجه [٣٠٧٨]. (٣) حديث حسن أخرجه ابن ماجه [٣٠٨٢]. (٤) أخرجه ابن ماجه [٣٠٨١] قال في الزّوائد إسناده صحيح. (٥) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢٨٠٤] وصحيح الجامع [٢٩٦١].

(أحدهما) المعرفة العامّة التى هى الإقرار بوحدانية الله تعالى والتّصديق برسوله ﷺ والإيمان بدينه وهى معرفة عامّة للمؤمنين.

(والثّانى) المعرفة الخاصّة التى تقتضى ميل القلب إلى الله بالكلّية والانقطاع إليه والأنس به والطّمأنينة بذكره والحياء منه والهيبة له.

كما أنّ معرفة الله تعالى لعبده نوعان:

(١) معرفة عامة وهى علمه تعالى بعبده واطّلاعه على سرّه وعلانيته كما فى قول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦].

(٢) معرفة خاصة وهى التى تقتضى محبّته لعبده وتقريبه إليه وإجابة دعائه وإنجائه من الشّدائد وهى المشار إليها بقوله ﷺ فيما يحكى عن ربّه تعالى «ولاَ يَزَالُ عَبْدِى يَتقرَّبُ إِلَيَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحبَّهُ، فإِذَا أَحببْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذى يَسْمَعُ به، وبَصرَهُ الَّذى يُبصر به، ويده الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، ورِجْلَهُ الَّتى يَمْشِي بِهَا، ولَئِنْ سَأَلَنى لأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنِ اسْتَعَاذَنى لأُعيذَنَّهُ[(١)]».

ورُوى عن سلمان قال [إذا كان الرّجل دعّاء فى السّرَّاء فنزلت به ضرّاء فدعا الله تعالى قالت الملائكة: صوت معروف، فشفعوا له]. وقال رجل لأبى الدّرداء: أوصنى؟ قال [اذْكُرِ اللهَ فِي السَّرَّاءِ يَذْكُرْكَ اللهُ عزَّ وَجلَّ فِي الضَّرَّاءِ]. وعنه أنّه قال [ادْعُ اللهَ فِي يَوْمِ سَرَّائِكَ لَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ لَكَ فِي يَوْمِ ضَرَّائِكَ[(٢)]].

الدّعاء الذى لا يردّ

(أ) دعاء المؤمن لا يردّ

ترتبط استجابة دعاء المؤمن بواحدة من أربع:

[إمّا] الإجابة بعين المطلوب فى الوقت المطلوب. [أو] تأخير الإجابة لوقت آخر لحكمة يعلمها الله تعالى اقتضت تأخيرها. [أو] دفع شرّ بدّله الله له أو إعطاؤه أحسن ممّا طلب. [أو] ادّخار الدّعاء ليوم القيامة لكون الدّاعى أحوج إلى ثوابه فيه.

ويتأكّد هذا بالخبر المروى عن عبادة بن الصّامت مرفوعا «مَا عَلَى الأَرْضِ مُسْلِمٌ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ إِلاَّ آتَاهُ اللهُ إِيَّاهَا أَوْ صَرَفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا[(٣)]». وجاء عند أحمد من

(١) حديث حيح أخرجه البخارى [٦٥٠٢].

(٢) انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب [٣١٢].

(٣) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٣٥٧٣].

حديث أبي سعيد مرفوعا « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلاَ قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلاَّ أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا إِحْدَى ثَلاَثٍ : إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَ لَهُ دَعْوَتَهُ ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الآخِرَةِ ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا(١) » .

وجاء عند الحاكم من حديث أبي هريرة «مَا مِنْ عَبْدٍ يَنْصِبُ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي مَسْأَلَةٍ إِلاَّ أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهَا ، إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَهَا وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا(٢) » . وله من حديث جابر «فَلاَ يَدَعُ اللهُ دَعْوَةً دَعَا بِهَا عَبْدُهُ الْمُؤْمِنُ إِلاَّ بَيَّنَ لَهُ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ عَجَّلَ لَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ ادَّخَرَ لَهُ فِي الآخِرَةِ ، قَالَ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ : يَا لَيْتَهُ لَمْ يَكُنْ عَجَّلَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ دُعَائِهِ(٣) » . أي كنت أتمنى أن لا يجيب في حياتي لتنفعني اليوم في آخرتي .

(قال) ابن الجوزي : [إنّ دعاء المؤمن لا يردّ غير أنه قد يكون الأَوْلَى تأخير الإجابة أو يُعوِّض بما هو أَوْلَى له عاجلا أو آجلا ، فينبغي للمؤمن ألاّ يترك الطّلب من ربّه فإنّه مُتعبِّد له بالدُّعاء كما هو مُتعبِّد له بالتّسليم والتّفويض(٤)] .

(٢) دعوة المظلوم والمسافر والوالدين

من الأسباب المقتضية إجابة الدّعاء ما أشار إليه رسول الله ﷺ في الحديث المروى عن أبي هريرة «ثَلاَثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لاَ شَكَّ فِيهِنَّ : دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ ؛ وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ ، وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ(٥) » . وفي رواية «وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ» . أي لضرره ، ولم تُذكر الوالدة لأنّ حَقَّهَا أَكثر فدُعاؤها أولى بالإجابة ، وتفصيل ذلك :

(١) أنّ دعوة المظلوم الذي أصابه الأذى وحلّ به الضّرر تُفتح لها أبواب السّماء رحمة ورأفة إذا دعا لمن يُعينه أو يُسلّيه أو يُهوّن عليه ، أو على من ظلمه بأيّ نوع من أنواع الظّلم لقوله ﷺ من حديث ابن عمر «اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ ، فَإِنَّهَا تَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ كَأَنَّهَا شَرَارَةٌ(٦) » . وقوله ﷺ من حديث أنس «اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ وَإِنْ كَانَ كَافِرًا ، فَإِنَّهُ لَيْسَ دُونَهَا حِجَابٌ(٧) » .

---

(١) أخرجه أحمد [١١٠٧٥] والحاكم [١٨٥٢] بإسناد حسن .

(٢) أخرجه الحاكم [١٨٦٥] وقال صحيح الإسناد .

(٣) أخرجه الحاكم [١٨٥٥] مطوّلا .

(٤) انظر فتح الباري [ج ١١ ص ١٤٥] .

(٥) حديث حسن أخرجه الترمذي [٣٤٤٨] وابن ماجه [٣١٢٩] .

(٦) أورده في صحيح الجامع [١١٨] والصحيحة [٨٧١] .

(٧) أورده في صحيح الجامع [١١٩] والصّحيحة [٧٦٧] .

(٢) وكذلك دعوة المسافر سفر الطّاعة تكون أقرب إلى الإجابة لأنّ فى سفره مظنّة حصول انكسار النّفس بطول الغُربة عن الأوطان، وتحمُّل المشاقّ والانكسار من أعظم أسباب إجابة الدّعاء، ويُحتمل أن تكون دعوته لمن أحسن إليه وبالشّر لمن أذاه وأساء إليه لأنّ دعاءه لا يخلو عن الرّقة [(١)].

(٣) أمّا دعوة الوالد الذى تحمَّل ألم التّربية وذاق صنوف العذاب حتّى ترعرع غصن وليده وأينع زهره فإنّ دعوته لا تُردُّ، وجاء فى الأثر عن أم حكيم «دُعَاءُ الْوَالِدِ يُفْضِى إِلَى الْحِجَابِ(٢)». أى يصعد ويصل إلى حضرة القبول فلا يَحُولُ بينه وبين الإجابة حائل.

(٣) يُستجاب لنا فى اليهود

دعاؤنا على اليهود مُستجاب لقوله ﷺ «يُسْتَجَابُ لَنَا فِي الْيَهُودِ، وَلاَ يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِينَا(٣)». هذا ما رواه البخارى فى صحيحه مُعلّقا، وهو المعنى الذى جاءت به رواية مسلم «وَإِنَّا نُجَابُ عَلَيْهِمْ وَلاَ يُجَابُونَ عَلَيْنَا(٤)». أى لأنّا ندعو عليهم بالحقّ وهم يدعون علينا بالظّلم.

وقد جاء ذلك فى حديث عائشة عند الشّيخين قالت «إِنَّ الْيَهُودَ أَتَوُا النَّبِىَّ ﷺ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ. قَالَ: وَعَلَيْكُمْ. فَقَالَتْ عَائِشَةُ: السَّامُ عَلَيْكُمْ وَلَعَنَكُمُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْكُمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَهْلاً يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ وَإِيَّاكِ وَالْعُنْفَ - أَوِ الْفُحْشَ - قَالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ أَوَلَمْ تَسْمَعِى مَا قُلْتُ! رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ فَيُسْتَجَابُ لِى فِيهِمْ وَلاَ يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِىَّ(٥)».

ويُستفاد من الحديث أنّ الدّاعى إذا كان ظالما لمن دعا عليه لا يُستجاب دعاؤه ويُؤيِّده قول الله تعالى ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرّعد: ١٤]. أى يضلّ عنهم ذلك الدّعاء فلا يجدون منه سبيلا وهو مثل قول اللهّ تعالى ﴿قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ [الأعراف: ٣٧]. قال ابن عبّاس: أى أصوات الكافرين محجوبة عن الله تعالى فلا يسمع دُعاءهم.

ما يمنع استجابة الدّعاء

من الموانع التى تحول دون استجابة الدّعاء:

---

(١) انظر تحفة الأحوذى [ج ٨ ص ٤٤٨].

(٢) أورده ابن ماجه بإسناد ضعيف [٣٩٣٢] وانظر التّعليق الرّغيب [٢ / ٢٧٧].

(٣) رواه البخاوى فى صحيحه مُعلّقا قبل رقم [٦٤٠١].

(٤) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٢١٦٦].

(٥) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٤٠١] ومسلم [٢١٦٥] باختلاف.

(١) كسب المال الحرام

العيش على الحرام أكلاً وشربًا ولباسًا وتغذيةً من أعظم الموانع التى تحول دون استجابة الدّعاء كما فى قوله ﷺ «أيُّها النَّاس إنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلاَّ طَيِّبًا، وإنَّ اللهَ أمرَ المُؤْمنين بمَا أمَر بهِ المُرسَلين فقَال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾. ثُمَّ ذَكَر الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَر أَشْعثَ أَغْبر يمُدُّ يديه إلى السَّماء يقُولُ «يارَبِّ يارَبِّ ومطْعَمُهُ حرامٌ ومَشْرَبُهُ حَرَامٌ ومَلْبَسُهُ حرامٌ وغُذِّى بالْحرَامِ؛ فأنَّى يُسْتَجَابُ لَهُ[١]».

وفيه أنّ المشروب والمأكول والملبوس ونحو ذلك ينبغى أن يكون حلالا خالصا لا شُبهة فيه، وأنّ من أراد قبول دعائه كان أولى بالاعتناء بذلك من غيره، أمّا قوله «فأنّى يُسْتَجابُ لَهُ» فهو استفهام وقع على وجه التّعجّب والاستبعاد، أى من أين يُستجاب لمن هذه صفته وكيف يستجاب له ؟. كما يُؤخذ من الحديث أنّ تكسّب الحرام والتّغذّى به من جملة موانع الإجابة وعدم قبولها.

(٢) ترك الفروض والواجبات

ترك الفروض والواجبات وارتكاب المحرّمات من الموانع التى تقف حائلا دون استجابة الدّعاء، فلا يُرفع الدّعاء إلاّ بالعمل الصّالح باعتباره من الكلم الطيّب كما فى قول الله تعالى ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]. ولهذا قيل [مثل الذى يدعو بغير عمل كمثل الذى يرمى بغير وتر]. وعن بعض السّلف [كَيْفَ تَسْتَبْطِىءُ الإجابَةَ وَقَدْ سَدَدْتَ طَرِيقَهَا بِالْمَعَاصِى].

وأداء الفرائض من أحبّ ما يتقرّب به إلى الله تعالى لقوله «وَمَا تَقرَّبَ إِلَيَّ عَبْدى بشَىْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ ممَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْه[٢]». ويدخل تحت هذا اللّفظ كلّ الفرائض الظّاهرة كالصّلاة والزّكاة والصّوم والحجّ وغيرها من الأركان، وكما يشير الحديث فأنّ الأمر بالفرائض جازم ويقع بتركها المعاقبة بخلاف النّفل الذى يشترك معها فى تحصيل الثّواب لتأتى الفرائض أكمل أجرا وأحبّ إلى الله تعالى أداء وأقرب إليه رضا وقبولا.

كما أنّ الإتيان بالفرائض على الوجه المأمور به يُحقّق الامتثال للأمر واحترام الآمر النّاهى وتعظيمه بالانقياد له وإظهار عظمة ربوبيّته وتحقيق ذلّ عبوديّته، فيكون التّقرّب بذلك من أعظم الأعمال عند الله تعالى وهو ما أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله من حديث أبى ثعلبة الخشنى «إنَّ اللهَ فرضَ فرَائضَ فَلاَ تُضيِّعُوهَا، وحَدَّ حُدُودًا فلا تعتدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فلا تنتهِكُوهَا، وسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ فَلاَ تَسْأَلُوا عَنْهَا[٣]».

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٠١٥]. (٢) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٥٠٢]. (٣) حديث حسن رواه الدّارقطنى [٤ / ١٨٣] والطّبرانى فى الكبير [٢٢ / ٢٢١].

وفعل الطّاعات موجب لاستجابة الدّعاء ولهذا توسّل الذين دخلوا الغار وانطبقت الصّخرة عليهم بأعمالهم الصّالحة التى أخلصوا فيها لله عزّ وجلّ ودعوا الله بها فأجيبت دعوتهم لقول بعضهم لبعض «انْظُروا أعْمَالاً عَملْتُموهَا صَالحةً لله، فَادْعُوا اللهَ تَعَالَى بِهَا لَعَلَّ اللهَ يَفْرجُهَا عَنْكُمْ(١)».

واستُدلّ بهذا على أنّه يُستحبّ للإنسان أن يدعو فى حال كربه بصالح عمله ويتوسّل إلى الله تعالى به، لأنّ هؤلاء فعلوه فاستُجيب لهم وذَكَرَهُ النبى ﷺ فى معرض الثّناء عليهم والتّعريف بجميل فضائلهم.

(٣) ترك الأمر بالمعروف

كما أنّ ترك الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر يمنع استجابة الدّعاء لقول النّبي ﷺ من حديث عائشة رضى الله عنها «يا أَيُّها النَّاس إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ مُرُوا بالْمَعْرُوف وَانْهوْا عَن الْمُنْكَرِ من قَبْلِ أَنْ تَدْعُونى فَلاَ أُجيبُكُم، وَتَسْأَلُونى فَلاَ أُعْطِيكُمْ، وَتَسْتَنْصرُونى فَلاَ أَنْصُرْكُمْ(٢)». ويتأيّد هذا بقوله ﷺ من حديث حذيفة بن اليمان فى السُّنن «والَّذى نَفْسى بيده لَتأْمُرنَّ بالْمَعْرُوف ولَتَنْهوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعثَ عَلَيْكُم عَذَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلاَ يَسْتَجيبُ لَكُمْ(٣)».

والمعنى أنّ أحد الأمرين واقع إمّا الأمر والنّهى منكم، وإمّا إنزال العذاب من ربّكم، ثمّ عدم استجابة الدّعاء له فى دفعه عنكم، بحيث لا يجتمعان ولا يرتفعان، فإن كان الأمر والنّهى لم يكن عذاب، وإن لم يكونا كان العذاب العظيم.

والأمر بالمعروف يتعيّن على المرء إذا كان المنكر فى موضع لا يعلم به إلاّ هو أو لا يتمكّن من إزالته إلاّ هو، كمن يرى زوجته أو ولده على منكر أو تقصير فى المعروف، فإنّه يجب عليه مجابهة هذا المنكر لقوله ﷺ «فَلْيُغيِّرْهُ» وهو أمر إيجاب بإجماع الأمّة وهو أيضا من النّصيحة التى هى من الدِّين.

(٤) الاستعجال فى الإجابة

وإجابة الدّعاء مشروطة بعدم استعجالها كأن يقول المرء قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ فلم أَرَ يُستجب لى فينقطع عند ذلك ويَدَعُ الدّعاء لقوله ﷺ «يُسْتَجَابُ لأَحَدكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ فَيَقُولُ قَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِى(٤)». والمراد أنّه يملّ الدّعاء فيتركه فيكون

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٩٧٤] ومسلم [٢٧٤٣] وأبو داود [٣٣٨٧].

(٢) أخرجه أحمد بإسناد حسن [٢٥١٣١].

(٣) حديث أخرجه الترمذى وحسّنه [٢١٦٩] وأحمد بإسناد صحيح [٢٣١٩٤].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٣٤٠] ومسلم [٢٧٣٥] وأبوداود [١٤٨٤].

كالمَانّ بدعائه، أو أنه أتى من الدّعاء ما يستحقّ به الإجابة فيصير كالمبخل للرّبّ الكريم الذى لا تُعجزه الإجابة ولا ينقصه العطاء. (قال) الدّاودى [يُخشى على من خالف وقال «قَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِى». أن يُحْرَمَ الإجابة وما قام مقامها من الادّخار والتّكفير [1]].

وفى الحديث أدب من آداب الدُّعاء وهو أنّه يلازم الطّلب ولا ييأس من الإجابة، لما فى ذلك من الانقياد والاستسلام وإظهار الافتقار إلى الله تعالى، حتّى قال بعض السّلف «لأَنَا أَشَدُّ خَشْيَةً أَنْ أُحْرَمَ الدُّعَاءَ مِنْ أَنْ أُحْرَمَ الإِجَابَةَ». وكأنّه يشير إلى حديث ابن عمر رضي الله عنه «مَنْ فُتِحَ لَهُ فِى الدُّعَاءِ مِنْكُمْ فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ[2]».

(٥) الدّعاء بإثم أو قطيعة رحم

ومن شروط إجابة الدُّعاء أن لا يكون فيه إثم أو قطيعة رحم أو دعاء بالشّر على غير مُستحقّه، لقوله ﷺ من حديث أبى هريرة «لاَ يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ[3]». وفى رواية «مَا مِنْ أَحَدٍ يَدْعُو بِدُعَاءٍ إِلاَّ آتَاهُ اللهُ مَا سَأَلَ أَوْ كَفَّ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهُ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ[4]».

والإثم هو الفعل المُبطِّىءُ عن الجزاء والثّواب وجمعه آثام ومنه قول الله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾[النّجم:٣٢]. وفى الحديث «وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِى صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ[5]». فالآثام تُضيّق الرّزق وتنزع البركة منه وتحرم العاصى من فيض ربّه وفضله. (قال) اللّكنوى [الإثم الذّنب الذى يستحقّ العقوبة عليه ولا يصحّ أن يُوصف به إلاّ المحرّم].

والقطيعة هى الهجران والمخاصمة وقطع ما ألف القريب منه من سابق الصّلة والإحسان لغير عذر شرعى [6]، أمّا [الرّحِم] فمشتقّ من الرَّحْمَة ومنه قوله تعالى ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾[الكهف:٨١]. وقوله ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾[البلد:١٧].

وفى الحديث «إِنَّ الرَّحِمَ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ اللهُ مَنْ وَصَلَكِ وَصَلْتُهُ وَمَنْ قَطَعَكِ قَطَعْتُهُ[7]». أى قرابة مشتبكة كاشتباك العروق، والمعنى أنّ اسمها من اسمه وهى مُشتقّة

(١) انظر فتح البارى [ص ١٤٥ ج ١١].

(٢) أخرجه الحاكم [١٨٦٩] وقال هذا حديث صحيح الإسناد.

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٧٣٥] والتّرمذى [٣٣٨٧].

(٤) حديث حسن أخرجه التّرمذى [٣٣٨١] وأحمد [١٤٨١٥] عن جابر رضى الله عنه.

(٥) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٥٥٣] والتّرمذى [٣٣٨٩].

(٦) انظر الموسوعة الفقهيّة [٢٧ / ٣٥٨].

(٧) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٩٨٨] ومسلم [٢٥٥٤] وأحمد [٧٩١٨].

منه، وجاء عند مسلم بلفظ «الرَّحِمُ مُعلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللهُ(١)». وفى الأحاديث نهى عن الدّعاء بالباطل الذى يلحق الأذى بذوى القربى أو بنيهم أو على النّعمة المتّصلة بهم، أو أن يدعو بالشّر على غير مستحقّه، أو أن يكون له فيما سأله غرض فاسد ومقصد باطل.

(٦) الاعتداء فى الدّعاء

الاعتداء هو تجاوز الحدّ من [عَدَا الأَمْرَ يَعْدُوهُ وتَعَدَّاهُ] وكلاهما تجاوزه وتركه؛ والاعتداء فى الدّعاء وتجاوز الحدّ فيه يمنع قبوله واستجابته بواحد من أمرين:

(الأوّل) أن يدعو بمُستحيل شرعا أو مُستبعد عقلا.

(الثّانى) أن يدعو بمُحال جرى أمره على العادة والدّعاء بخرقه تحكُّم فى القدرة القاضية بدوامه.

فمن [الأمر الأوّل] ما رواه ابن ماجه عن أبى نَعَامَة «أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ مُغَفَّلٍ سَمِعَ ابْنَهُ يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْقَصْرَ الأَبْيَضَ عَنْ يَمِينِ الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلْتُهَا، فَقَالَ أَيْ بُنَيَّ! سَلِ اللهَ الْجَنَّةَ وَعُذْ بِهِ مِنَ النَّارِ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ(٢)». وجاء عند أبى داود عن ابن سعد قال «سَمِعَنِي أَبِي وَأَنَا أَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَنَعِيمَهَا وَبَهْجَتَهَا وَكَذَا وَكَذَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَسَلاسِلِهَا وَأَغْلالِهَا وَكَذَا وَكَذَا، فَقَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ، إِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَ الْجَنَّةَ أُعْطِيتَهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْخَيْرِ، وَإِنْ أُعِذْتَ مِنَ النَّارِ أُعِذْتَ مِنْهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الشَّرِّ(٣)».

ولعلّ سعدا رضي الله عنه أنكر على ابنه حيث سأل النّعيم والبهجة بعد سُؤاله الجنّة، وحيث استعاذ من السّلاسل والأغلال بعد استعاذته من النّار، فهو من قبيل تحصيل الحاصل فيكون دعاء ليس وراءه طائل.

أمّا [الأمر الثّانى] فإنّه لا يعقل أن يدعو الإنسان أنّه يصعد إلى السّماء أو يتحوّل الجبل الفلانى ذهبا، أو أن يطلب إدخال من مات على الكفر الجنّة، وكلّ ذلك من قبيل المستحيلات التى تعدّ فى نظر الشّرع اعتداء فى الدّعاء.

وفى قول الله تعالى ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]. قيل المراد إنّه لا يحبّ المعتدين فى الدّعاء، والمُعتدى هو المجاوز للحدّ المرتكب للحظر

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٥٥٥] ووافقه البخارى [٥٩٨٩] عن زيد بن رومان.

(٢) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٣١٣٠] وأورده الألبانى فى الإرواء [١٤٠].

(٣) حديث صحيح أخرجه أبو داود [١٤٨٠].

وقد يتفاضل بحسب ما اعتدى فيها.

والاعتداء في الدّعاء على وجوه منها:

(١) الجهر الكثير والصِّياح وهو ما يُناقض قوله ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

(٢) أن يدعو بما ليس في الكتاب والسُّنّة وقد قال تعالى﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾[الأعراف: ١٨٠].

(٣) أن يسأل ما لا يجوز له سؤال من المعونة على المحرّمات ومنه قول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[المائدة: ١٠١].

(٤) أن يدعو ربّه غير متضرّع لمنافاته لدعاء الذّليل كما في قوله تعالى﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[الأنبياء: ٩٠]. وقوله جلّ شأنه ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[السّجدة: ١٦].

(٥) أن يُثني على ربّه تعالى بما لم يُثْنِ به على نفسه ولا أذن له فيه وقد قال الله تعالى ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾[الأنعام: ٤١].

(٦) أن يدعو مع ربّه غيره فإنّ من أعظم العدوان أن يُشرك مع ربّه غيره في دعائه له وقد قال ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾[يونس: ١٠٦].

وعلى هذا فإنّ في قوله تعالى﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]. الدّلالة على أمرين:

(أحدهما) محبوب لله تعالى وهو الدُّعاء تضرُّعا وخُفية.

(والثّاني) مكروه له مسخوط عليه وهو الاعتداء في الدّعاء.

فأمر سبحانه بما يحبُّه وندب إليه، وحذَّر ممّا يبغضه وزجر عنه بما هو أبلغ طرق الزّجر والتّحذير وهو لا يحبّ فاعله، ومن لا يحبّه الله فأيّ خير يناله؟ [(١)].

(٧) الغفلة عن ذكر الله تعالى

والقلب الغافل عن ذكر ربّه اللاّهي بدنياه عن طاعته لا يُستجاب له دعاء لكونه مُعرض عن الله تعالى مُشتغل بغير أمره لقول النّبي ﷺ من حديث عبد الله بن عمرو عند أحمد «الْقُلُوبُ أَوْعِيَةٌ وَبَعْضُهَا أَوْعَى مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَيُّهَا النَّاسُ فَاسْأَلُوهُ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، فَإِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَجِيبُ لِعَبْدٍ دُعَاهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ غَافِلٍ (٢)».

وجاء عند التّرمذي بلفظ «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ تَعَالَى لاَ يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاَهٍ (٣)».

(١) انظر التّفسير الكبير لابن تيمية [ج ٤ ص ٣٠٨]. (٢) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٦٦٥٥].

(٣) حديث حسن لغيره أخرجه التّرمذي [٣٤٧٩].

ثمّ تأتي الآيات الكريمة لتبيّن أنّ الغفلة هي ترك الطّاعة والذّكر عمدا، واتباع الهوى والضّلالة قصدا من قول الله تعالى ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]. والغفلة هي فقد الشّعور بما ينبغي أن يشعر به من قوله تعالى ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [سورة ق: ٢٢]. أى غافلا عن إدراك القيامة وأحداث ما بعد الموت، والغافلون في قوله تعالى ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. هم الذين لا يُدركون الحقّ ولا يهتدون إليه.

واللاّهى من [لَهَا ـ يَلْهُو ـ لَهْوًا] أى شغل نفسه بما فيه لذّتها وسرورها، ولَهِى عن الشّيء يلهى غفل عنه وانصرف، فهو [قلب لاهٍ] وهى [قُلُوبٌ لاَهِيَةٌ] ومنه قوله تعالى ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٣]. أى غافلة منصرفة عن الحقّ وعن أداء واجباته، وتلَهَّى عن الشّيء تشاغل عنه وانصرف كقوله تعالى ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس: ١٠]. واللاّهية من لَهِيَ عنه إذا نَسِيَهُ وغَفَلَ عنه.

وفي قوله سبحانه ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمّد: ٣٦]. تنبيه على أنّ اشتغال أهل الدّنيا باللّعب معناه السّخرية والاستهزاء معلّل باللّهو الذى معناه الذّهول والغفلة فإنّهم أقدموا على اللّعب للهوهم وذهولهم عن الحقّ [(١)]. فاللّعب هو العَبَثُ وترك ما ينفع إلى ما لا ينفع. [أو] هو الإقبال على الباطل، أمّا اللّهو فهو الإعراض عن الحقّ والميل عن الجدّ إلى الهزل [(٢)].

(٨) عدم العزم في المسألة

ولا يُقبل دعاء من لا يعزم المسألة ولا يُحسن المظنّة بالله تعالى في الإجابة لقوله ﷺ من حديث أنس «إِذَا دَعَا أَحَدُكُم فَلْيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ وَلاَ يَقُولَنَّ اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ فَاعْطِنى فَإِنَّهُ لاَ مُسْتَكْرِهَ لَهُ(٣)». وجاء عند مسلم «لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ وَلْيُعْظِم الرَّغْبَةَ(٤)». ولفظه عند أحمد «إِذَا دَعَا أَحَدُكُم فَلاَ يَقُلْ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ وَلَكِنْ لِيَعْزِمْ بِالْمَسْأَلَةِ، فَإِنَّهُ لاَ مُكْرِهَ لَهُ(٥)».

وعزم المسألة الشّدّة في طلبها والجزم من غير ضعف في هذا الطّلب ولا تعليق على مشيئة أو نحوها، وعلى المرء أن يُبالغ في ذلك بتكرار الدّعاء والإلحاح فيه لقول النّبى

---

(١) انظر تفسير الفخر الرّازى [٢٢ ص ١٤١].

(٢) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ٣ ص ١٨٥].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٣٣٨] ومسلم [٢٦٧٨].

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٨ / ٢٦٧٩].

(٥) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٧٣١٢].

ﷺ «وَلْيُعظِمِ الرَّغْبَةَ». ويُحتمل أن يُراد به الأمر بطلب الشّيء العظيم والكبير ويُؤيّده ما في آخر هذه الرّواية «فَإِنَّ اللهَ لاَ يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ[1]».

والمراد من قوله ﷺ «فإِنَّهُ لاَ مُسْتَكْرِهَ لَهُ»: أنّ الذي يحتاج إلى التّعليق بالمشيئة ما إذا كان المطلوب منه يتأتّى إكراهه على الشّيء فيخفّف الأمر عليه ويعلم بأنّه لا يطلب منه ذلك الشّيء إلاّ برضاه، والله تعالى مُنزَّه عن ذلك فليس للتّعليق فائدة.

(قال) ابن عبد البرّ [لا يجوز لأحد أن يقول «اللَّهُمَّ اعْطِنِي إِنْ شِئْتَ». وغير ذلك من أمور الدّين والدّنيا لأنّه كلام مستحيل لا وجه له، ولأنّه سبحانه لا يفعل إلاّ ما شاءه، فينبغي للدّاعي أن يجتهد في الدّعاء ويكون على رجاء الإجابة ولا يقنط من الرّحمة فإنّه يدعو برًّا كريمًا[2]].

ما يكره من الدّعاء

(١) تخصيص الدّاعي نفسه بالدّعاء

يكره تخصيص المرء نفسه بالدّعاء لحديث أبي هريرة قال «قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الصَّلاَةِ وَقُمْنَا مَعَهُ، فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ فِي الصَّلاَةِ اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا وَلاَ تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا، فَلَمَّا سَلَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ لِلأَعْرَابِيِّ لَقَدْ تَحَجَّرْتَ وَاسِعًا. يُرِيدُ رَحْمَةَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ[3]». أي ضَيَّقْتَ من رحمة الله ما وسّعه، ومَنَعْتَ ما أباحه وخَصَصْتَ به نَفْسَكَ دون غيرك، وأصل الْحَجْرِ الْمَنْعُ، ومنه الْحَجْرُ على السّفيه وهو منعه من التّصرُّف في ماله ورفع يده عنه، وذُكر بصيغة التّفعيل إشارة إلى أنّه قد تكلّف في هذا الدُّعاء الذي خصّ به نفسه.

وفي الحديث دلالة على أنّه يُطلب من الدّاعي ألاّ يخصّ نفسه بالدّعاء لإنكار الرّسول ﷺ على الرّجل قوله «وَلاَ تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا». ولكونه بخل برحمة الله تعالى على خلقه، ولأنّ التّعميم في الدُّعاء أقرب إلى الإجابة، ولأنّ رحمة الله وسعت كلّ شيء.

(٢) دعاء الإنسان على نفسه وأهله وماله

جاء النّهي صريحا عن أن يدعو الإنسان على نفسه وأهله وماله خشية أن تُفتح أبواب الرّحمة أثناء الدّعاء فيستجيب الله الطّلب ويحلّ ما دعي به لحديث مسلم عن عمران بن حصين قال «بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، وَامْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ عَلَى نَاقَةٍ،

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٧٩] وأبو داود [١٤٨٣] والترمذى [٣٤٩٧].

(٢) انظر فتح البارى [ج ١١ ص ١٤٤].

(٣) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣٨٠] والترمذى [١٤٧].

فضَجرتْ فلعنَتها فسمعَ النبيُّ ﷺ ذلكَ فقالَ: خُذوا ما عليْها ودَعُوها فإنّها ملْعُونةٌ[3] ».
وإنّما قال هذا زجرا للمرأة ولغيرها، فعُوقبت بإرسال النّاقة للعنها إيّاها.

ولـمّا تلكّأ بعير الرّجل قليلا وتوقّف عن السّير «قال له شأْ لعنَكَ اللّهُ! فقَالَ رَسُولُ اللّه ﷺ منْ هذَا اللاعنُ بعيرَهُ؟ قالَ أنا يارسُولَ الله! قالَ انزلْ عنْهُ فلا تصْحبْنا بملْعُون».
ثمَّ قالَ «لاَ تَدْعُوا علَي أنفُسكُمْ ولاَ تدْعوا على أوْلادكُمْ، ولاَ تدْعُوا على أمْوالكُمْ، لاَ تُوافقُوا منَ الله ساعَةً يُسألُ فيها عطاءً فيَستَجيبُ لَكُمْ[1] ». وزاد أبو داود «ولاَ تدْعُوا علَى خدَمكُمْ». وفي الحديث النّهي عن إطلاق الألسنة بالدّعوات السّيئة وطلب المصائب والكوارث والأذى أن تلحق بالأنفس أو تمرّ على الأبناء أو على النّعمة المتّصلة بهم.

وفي قوله تعالى ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: ١١]. قال مجاهد: هو الواصل لأهله وولده وماله إذا غضب عليه دعا قائلا [اللّهُمّ لاَ تُبارِكْ فِيه اللّهمّ الْعنْهُ]. يقول: لو عجّل له ذلك لأهْلَكَ من دعا عليه وأماته، أو ما دعا عليه فسلبه منه، والحديث يدلّ على أنه قد يُستجاب هذا الدُّعاء لمصادفته ساعة إجابة [[3]].

سادسا ـ الاستعاذة من أمراض النّفس

(أ) الاستعاذة من الذلة

الذّلُّ في اللّغة الضّعف والمهانة ومنه الذّلّةُ والمذلّةُ، والذُّلُّ [بالضّم] ما كان عن قهر ومنه قوله تعالى ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الشّورى: ٤٥].
والذِّلّةُ [بالكسر]: ما كان بعد تصعّب وإباء من غير قهر، يقال: ذَلَّ يَذلُّ ذُلاً وذِلّةً: فهو «ذَليلٌ» وهو الضّعيفُ والْمُهانُ ومنه قول الله تعالى ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [المعارج: ٤٤]. أي من الرّهَقِ والهوان [[4]].

أمّا إذا كان الذُّلُّ من جهة الإنسان نفسه لنفسه فهو الأمر المحمود كما في قوله تعالى ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة ٥٤]. ومنه قولهم خفَضَ جنَاحَ الذُّلِّ: ألاَنَ جانبه وتواضع كما في قوله تعالى ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].
وذَلَّ الْعبْدُ لربّه خضَعَ وامْتَثلَ وخشَعَ.

والذِّلّةُ لغير الله تعالى أمرٌ استعاذ منه رسول الله ﷺ كما في حديث أبي هريرة بقوله

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٥٩٥] وأبو داود [٢٥٦١].
(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٣٠٠٩] وأبو داود [١٥٣٢].
(٣) انظر جامع العلوم والحكم [ص ٢٤٤].
(٤) انظر بصائر ذوي التّمييز [٢ / ١٧-١٨].

«اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْقِلَّةِ وَالذِّلَّةِ[(١)]». كما جاء عند النّسائى بصيغة الأمر فى قوله ﷺ «تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الْفَقْرِ وَالْقِلَّةِ وَالذِّلَّةِ[(٢)]». وفى الأحاديث الإشارة إلى أمرين:

(الأوّل) أهميّة الاستعاذة بالله تعالى من المذلّة والمسكنة.

(الثّانى) أنّ المؤمن الصّادق لا يُذل ولا يخضع لغير خالقه سبحانه.

(٢) الاستعاذة من الجُبن

الجُبْنُ هيئة حاصلة للقوّة الغضبية بها يحجم المرء عن مباشرة ما ينبغى، وزاد فى التّعريفات»: وما [لا] ينبغى، ومنه [جَبَن] جُبْنًا: تَهَيَّبَ الإقدام على ما لا ينبغى أن يُخاف منه. [أو] هو ضعف القلب ومهابة الأشياء، والْجَبَانُ: الْهَيُوبُ للأشياء لا يُقْدمُ عليها، كما يُفسَّر [الجبن] بعدم الإقدام على مخالفة النّفس والشّيطان والتّقاعس عن قتال الأعداء، وهى الصّفة التي استعاذ منها رسول الله ﷺ ولتتربّى أمّته على الشّجاعة والإقدام كما فى حديث أنس «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَالْهَرَمِ[(٣)]». وجاء عند النّسائى بلفظ «اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ[(٤)]».

وتأتى استعاذته ﷺ من الجُبن لما فيه من التّقصير عن أداء الواجبات والقيام بحقوق الله تعالى وإزالة المنكر والإغلاظ على العصاة، ولأنّه بشجاعة النّفس وقوّتها المعتدلة تتمّ العبادات، ويقوم المسلم بنصرة المظلوم والجهاد لإعلاء دين الله تعالى وشرعه [(٥)].

(٣) الاستعاذة من الخيانة

الخيانة هى الغدر والتّفريط فى الأمانة ومنه قول الله تعالى ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]. (قال) الرّاغب [الخيانة والنّفاق واحد، لكنّ الخيانة تقال اعتبارا بالقهر، والأمانة والنّفاق اعتبارا بالدّين ثمّ يتداخلان، فالخيانة: مُخالفة الحقّ بنقض العهد فى السّر، والعهد شامل لجميع التّكاليف الشّرعيّة، والاختيان: المبالغة فى الخيانة بالإصرار عليها [(٦)] ومنه قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحجّ: ٣٨].

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى فى الأدب المفرد [٦٧٨] وأبو داود [١٥٤٤].
(٢) حديث صحيح أخرجه النّسائى [٥٤٧٦].
(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٢٨٢٣] ومسلم [٢٧٠٦].
(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٣٦٥] والنّسائى [٥٤٦٠].
(٥) انظر نووى مسلم [ج ٩ ص ٣٦].
(٦) انظر المطّلع [ص٢٦٢] والتّوقيف [ص٣١٩] ومعجم الألفاظ الفقهيّة [ج ٢ ص ٦٥].

وتحمل استعاذة النّبي ﷺ من الخيانة كما في حديث أبي هريرة عند أبي داود «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ فَإِنَّهُ بِئْسَ الضَّجِيعُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ فَإِنَّهَا بِئْسَ [بِئْسَتِ] الْبِطَانَةُ(١)». الدّلالة على أمرين :

(الأوّل) أن يعتصم المسلم بربّه تعالى من تحرُّك نفسه لتحرّى الخيانة ونقض العهد وما يُبطنه من الشّر كما جاءت الإشارة إلى ذلك فى قول الله تعالى﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[الأنفال:٢٧].

والأمانات الأعمال التى ائتمن الله عليها العباد، وسمّيت أمانة لأنّها يُؤْمَنُ معها من منع الحقّ مأخوذة من الأمن، ويُقصد بها الأمانة فى كلّ شىء فى الطّهارة والوضوء والصّلاة والزّكاة والجنابة والصّوم والكيل والوزن والودائع وغيرها، وعلى ذلك فقد كانت الأمانة من أوّل ما يُفقد من الدّين لقوله ﷺ من حديث شدّاد بن أوس رضي الله عنه «أَوَّلُ مَا تَفْتَقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الأَمَانَةَ(٢)».

و«الأمانة» مصدر سُمِّىَ به الشّىء الذى يكون فى الذّمة ومنه قول الله تعالى﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾[البقرة:٢٨٣]. والأمر فيه للوجوب بقرينة الإجماع على وجوب أداء الدّيون.

(الثّانى) أن يحول دون قيام الآخرين نقضهم للعهود وخيانتهم له فيما ائتمنهم عليه وهو مقصود قول النّبى ﷺ «بِئْسَتِ الْبِطَانَةُ». والبطانة فى الأصل ضدّ الظّهارة فى الثّوب، والمراد بها فى الحديث ما يُبطنه الإنسان من الشّر، وتُطلق أيضا على صاحب سرّ الرّجل وداخلة أمره الذى يشاوره فى أقواله وأفعاله، ويصحّ إيراده هنا ويكون المعنى: أعوذ بك من الخيانة فإنّها بئست الصّاحب.

وإذا كان الاختلاف قد قام حول المراد بالخيانة فى قول الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[الأنفال:٢٧]. فإنّ الوجوه التى ذكرها العلماء فى سبب نزول هذه الآية من نحو قيام البعض بسماع الشّىء من النّبى ﷺ فيلقونه إلى المشركين مثلما فعل أبو لُبابة وحاطب بن أبى بلتعة، أو أنّه تعالى أمرهم أن لا يخونوا الغنائم وجعل ذلك خيانة له، لأنّه خيانة لعطيّته وخيانة لرسول ﷺ باعتباره القيِّم بقسمها، فمن خانها فقد خان الرّسول ﷺ، فهذه كلّها داخلة فيها لكن لا يجب قصر الآية عليها لأنّ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب.

كما يُستقى من الآية الكريمة الدّلالات التّالية :

---

(١) حديث حسن أخرجه أبو داود [١٥٤٧] والنّسائى [٥٤٨٣].

(٢) حديث صحيح أورده فى صحيح الجامع [٢٥٧٠] والصّحيحة [١٧٣٩].

(١) إيجاب أداء التّكاليف بأسرها على سبيل التّمام والكمال من غير نقص ولا إخلال، ومعنى الخون في قوله ﴿لَا تَخُونُواْ﴾، النّقص كما أنّ معنى الوفاء التّمام ومنه: تخوّنه إذا انتقصه، ثمّ استعمل في ضدّ الأمانة والوفاء لأنّك إذا خُنت في الشّيء فقد أدخلت عليه النّقصان فيه.

(٢) أنّ التّقدير في قوله ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ﴾، أي لا تخونوا الله والرّسول، فإنّكم إن فعلتم ذلك فقد خُنتم أماناتكم، والأمانات هي الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد وسُمِّيت أمانة لأنها يُؤمَنُ معها من منع الحقّ.

(٣) أنّكم عندما تخونون فإنّ ذلك يعني أنّ الخيانة توجد منكم عن تعمّد لا عن سهو لقوله تعالى﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. أي أنّكم تعلمون ما في الخيانة من القبح والعار.

(٤) ثمّ إنّه لـمّا كان الدّاعي إلى الإقدام على الخيانة هو حبّ الأموال والأولاد وزين الحياة وبهرجها نبّه سبحانه على أنّه يجب على العاقل أن يحترز عن المضارّ المتولّدة من ذلك الحبّ فقال في الآية التي بعدها ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[الأنفال:٢٨]. والفتنة صرف القلب عن الطّاعة واستهواء الدّنيا والانشغال بها والاستسلام للهوى وقد قال الله تعالى﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[طه:١٣١(١)].

سابعا ـ الاستعاذة من سوء الأخلاق

الأخلاق جمع خُلُق وهو مَلَكَةٌ راسخة في النّفس تصدر عنها الأفعال من خير أو شرّ بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر ورويّة، فإن صدرت عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سُمِّيت تلك الهيئة [خُلُقًا حسنا]، وإن كان الصّادر عنها الأفعال القبيحة سُمِّيت تلك الهيئة [خُلُقًا سيئا]، وهي في اللّغة السَّجيّة والطّبع سواء أكان حميدا أم غير حميد.

ولهذا يُوصف الْخُلُقُ الممدوح بأنّه كريم أو عظيم أو حميد أو رفيع، ويوصف الخُلُقُ المذموم بضدّ هذه الأوصاف وهو الأمر الذي حثّ رسول الله ﷺ المسلمين على الاستعاذة منه بقوله كما في حديث أبي هريرة «اللّهُمَّ إنّي أعُوذُ بكَ منَ الشِّقَاق وَالنِّفاق وَسُوء الأخْلاَق(٢)». وفيه دليل على أنّ الشّقاق والنّفاق من أقبح الأخلاق السّيئة التي تضرّ بالمرء ثمّ تتعدّاه إلى غيره من أفراد المجتمع.

وقوله «وَسُوءِ الأخْلاَق» أي ما قبح منها ونقص، و[السَّيِّئَةُ] المعيبة والنّاقصة، و[السَّيِّءُ] كلّ قبيح وشائن. [أو] ما يتعلّق بها الذّم في العاجل والعقاب في الآجل. (قال) القرطبي

(١) انظر تفسير الفخر الرّازي [ج ١٥ ص ١٥٦-١٥٧ بتصرّف].

(٢) أخرجه أبو داود [١٥٤٦] والنّسائي [٥٤٨٦] بإسناد ضعيف.

[«حَقِيقَةُ الخُلقِ»: هو ما يأخذ به الإنسان نفسه من الأدب فيسمّى خُلُقًا لأنه يصير كالْخلْقَة فيه، أمّا ما طُبِعَ عليه من الأدب فهو الخيم بالكسر: السَّجِيَّةُ والطَّبيعة، فيكون الخُلُقُ: الطّبع المتكلّف، والخيم: الطّبع الغريزى[1]].

ويجمع رسول الله ﷺ في استعاذته كلّ منكرات الأهواء والأعمال بقوله «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مُنْكَرَاتِ الأَخْلَاقِ وَالأَعْمَالِ وَالأَهْوَاءِ[2]». والمنكر ما لا يُعرف حُسْنُهُ، أو ما عُرِفَ قُبحه من جهة الشّرع، والمراد بالأخلاق الأعمال الباطنة.

والأهواءُ جمع الهوى مصدر [هَوَاهُ إِذَا أَحَبَّهُ]، ثمّ سُمِّيَ الأمر المشتهى: الهوى سواء كان محمودا أو مذموما، ثمّ غلب مُسَمَّاهُ على غير المحمود لأنّ الأهواء كلّها منكرة كما في قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾[القصص: ٥٠]. ولذلك كان رسول الله ﷺ كثيرا ما يقول «واهْدني لأَحْسَنِ الأَخْلَاقِ لا يَهْدى لأَحْسَنِهَا إِلاَّ أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا، إِنَّهُ لاَ يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلاَّ أَنْتَ[3]». أى أرشدنى لأكملها وأفضلها ووفقنى للتخلّق بها واصرف عنّى قبيحها.

وما جاءت كلمة الخُلُق فى «الذّكر الحكيم» إلاّ مرّتين:

(الأولى) عند قول قوم عاد لهود لمّا كذبوه ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[الشّعراء: ١٣٧]. لتأكيد مذهبهم فى الكُفر وما جرى عليه أمرهم من الشّرك.

(الثّانية) عند وصفه سبحانه وتعالى لخُلُق نبيّه ﷺ بأكرم الوصف وأعظمه فى قوله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: ٤]. وفيها قال ابن عبّاس ومجاهد: أى على دين عظيم من الأديان لَيس دِينٌ أَحَبَّ إلى الله تعالى ولا أرضى عنه منه، وجاء فى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها «فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّه ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ[4]». ولفظه عند أحمد «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ[5]». وعن أنس قال «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا[6]». وعن عائشة «لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاحِشًا وَلاَ مُتَفَحِّشًا، وَلا صَخَّابًا فِي الأَسْوَاقِ، وَلاَ يَجْزِى بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ[7]».

(١) انظر تفسير القرطبى [ج ١٨ ص ٢٢٧].

(٢) حديث صحيح أخرجه الترمذى [٣٥٩١] والمشكاة [٢٤٧١] وصحيح الجامع [١٢٩٨].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٧٧١] وأبو داود [٧٦٠] والترمذى [٣٤٢١].

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٧٤٦] وأبو داود [١٣٤٢].

(٥) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢٤٤٨٢].

(٦) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٣١٠] وأبو داود [٤٧٧٣].

(٧) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٠٣٢] والترمذى [٢٠١٦].

فلم يُذكر خُلُقٌ مَحْمُودٌ إلاّ وكان للنّبي ﷺ منه الحظّ الأوفر لقول أنس «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ(١)». وقال الجنيد: سُمِّيَ خُلُقُه عظيما لأنّه لم تكن له همّةٌ سوى الله تعالى. وقيل: سُمِّيَ خُلُقُه عظيما لاجتماع مكارم الأخلاق فيه ﷺ ويدلّ عليه قوله في الصّحيح «بُعثتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ(٢)». ومن مُفردات سُوء الأخلاق التي تجمعها تلك الحُزْمَةُ الكَريهة التي تتحكّم في مصير ابن آدم وتقوده إلى الضّلال والغواية والهلاك، نذكر فيما يلي أمثلة لما أصاب البعض من سوء الأخلاق وألم المعصية:

١ - الغيبة

الغيبة ذكر العيب بظهر الغيب، وهي مرضٌ خطير وداءٌ فتّاك، ومعولٌ هدّام وسُلوك يُفرّق بين الأحباب، وبُهتان يغطّي على محاسن الآخرين، وبذرة تنبت شرورا بين النّاس، وهو الأمر الذي جاء النّهي عنه في كتاب الله تعالى بقوله ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[الحجرات:١٢]. ولمّا سُئل النبي ﷺ عن الغيبة عرّفها بقوله «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ». فَقِيلَ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِيهِ مَا أَقُولُ؟ قَالَ «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ(٣)».

وقوله «بِمَا يَكْرَهُ»: هو عامّ سواء كان ذلك في بدنه أو دينه أو دُنياه أو نفسه أو خُلُقه أو ماله أو غير ذلك ممّا يتعلّق به، سواء ذكر ذلك عنه باللّفظ أو الكتابة أو الرمز أو الإشارة، وضابطه: أنّ كلّ ما أفهمت به غيرك نقصان مسلم فهو غيبة مُحرّمة، ويدلّ عليه قوله ﷺ «إِنَّ مِنْ أَرْبَى الرِّبَا الاسْتِطَالَةَ فِي عِرْضِ الْمُسْلِمِ بِغَيْرِ حَقٍّ(٤)». كما اعتبر رسول الله ﷺ أنّ غيبة المسلم لأخيه المسلم وذكره بما يكره منافية لحقيقة الإيمان وهو ما تضمّنه قوله «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانُ قَلْبَهُ، لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنِ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ(٥)».

وذكر المرء غيره بما يكره لا يخلو من أمرين:

(الأوّل) إن كان فيه ما ذُكر من المنقصة كان ذلك غيبة.

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٣٠٧] وافقه البخاري [٣٠٤٠].

(٢) أخرجه مالك بإسناد صحيح [١٦١٥].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٥٨٩] وأبو داود [٤٨٧٤].

(٤) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٤٨٧٦].

(٥) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٤٨٨٠].

(الثانى) إن لم يكن فيه شيء مما ذُكر كان ذلك بهتانا وكذبا عظيما لقوله ﷺ من حديث أبى هريرة عند الترمذى «وإنْ لَمْ يَكُنْ فيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ[1]» . أى قلت عليه البهتان وهو كذب عظيم يبهت فيه من يقال فى حقّه.

وكما ذكر العلماء فإنّ للغيبة أسبابا وبواعث منها شفاء المغتاب غيظه بذكر مساوىء من يغتابه، ومنها مجاملة الأقران والرّفاق ومشاركتهم فيما يخوضون فيه من الغيبة، ومنها ظنّ المغتاب فى غيره ظنّا سيّئا مدعاة إلى الغيبة، ومنها تبرئة المغتاب نفسه من سيىء وينسبه إلى غيره أو يذكر غيره بأنّه مشارك له، ومنها رفع النّفس وتزكيتها بتنقيص الغير، ومنها حسد من يُثنى عليه النّاس ويذكرونه بخير، ومنها الاستهزاء والسّخرية وتحقير الآخرين.

(قال) الحسن [الغيبة ثلاثة أوجه كلّها فى كتاب الله تعالى: الغيبة والإفك والبهتان، فأمّا الغيبة فهو أن تقول فى أخيك ما هو فيه، وأمّا الإفك فأن تقول فيه ما بلغك عنه، وأمّا البهتان فأن تقول فيه ما ليس فيه[2]]. واختُلف فى حدّ الغيبة وفى حُكمها، فأمّا حدّها فقال الرّاغب [هى أن يذكر الإنسان عيب غيره من غير حاجة إلى ذكر ذلك، وقال غيره: حدّ الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه، أو أن تذكره بسوء وإن كان فيه[3]].

أمّا حكمها فهى مُحرَّمة بإجماع المسلمين وأنها من الكبائر لأنّ حدّ الكبيرة صادق عليها، ولأنّها ممّا ثبت الوعيد الشّديد فيه ومنه حديث أنس رفعه «لَمَّا عُرِجَ بِى مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمُشُونَ بِهَا وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، قُلْتُ مَنْ هَؤُلاءِ يَاجِبْرِيلُ؟ قَالَ هَؤُلاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَقَعُونَ فِى أَعْرَاضِهِمْ[4]».

ولا خلاف أنّ الغيبة من الكبائر وأنّ من اغتاب أحدا فعليه أن يتوب إلى الله تعالى لتسوية القرآن الكريم بين الغيبة وأكل الميتة بقوله تعالى ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ ،لأنّ الميت لا يعلم بأكل لحمه كما أنّ الحىّ لا يعلم بغيبة من اغتابه. (قال) ابن عبّاس رضي الله عنهما [إنّما ضرب الله هذا المثل للغيبة لأنّ أكل لحم الميت حرام مُستقذر، وكذا الغيبة أمر مُحرّم فى الدّين وقبيح فى النّفوس، فكما يمتنع المرء أن يأكل لحم أخيه ميتا كذلك يجب أن يمتنع من غيبته حيًّا].

(١) من حديث صحيح أخرجه التّرمذى [١٩٣٤].

(٢) انظر تفسير القرطبى [ج ١٦ ص ٣٣٥].

(٣) انظر فتح البارى [ج ١٠ ص ٤٨٤].

(٤) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٤٨٧٨].

والفرق بين النّصيحة والغيبة أنّ النّصيحة يكون القصد فيها تحذير المسلم من مُبتدع أو فتّان أو غاشّ أو مُفسد، فتذكر ما فيه إذا استشارك من يريد صحبته أو معاملته كما قال النّبي ﷺ لفاطمة بنت قيس وقد استشارته في نكاح معاوية وأبي الجهم فقال «أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَعَائِلٌ لاَ مَالَ لَهُ، وَأَمَّا أَبُو الْجَهْمِ فَإِنَّهُ رَجُلٌ لاَ يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِه(١)».

فإذا وقعت الغيبة على وجه النّصيحة لله تعالى ورسوله فهي القربة إلى الله سبحانه، وإذا وقعت على وجه ذمّ الغير وتمزيق عرضه والتّفكّه بلحمه والغضّ منه لتضع من منزلته في قلوب النّاس، فهو الدّاء العضال وهي النّار التي تأكل الحسنات كما تأكل النّار الحطب.

٢ ـ النّميمة

لـمّا اختُلف في النّميمة والغيبة هل هما مُتغايرتان أو متّحدتان كان التّغاير عند الأكثر هو الرّاجح وأنّ بينهما عموما وخصوصا ظاهرين:

(١) فالنّميمة نقل قول الغير للمقول فيه على جهة الإفساد بغير رضاه سواء كان بعلمه أم بغير علمه.

(٢) والغيبة ذكره في غيبته بما لا يرضيه.

فامتازت النّميمة بقصد الإفساد بالشرّ والوشاية بين النّاس، وهي ليست مخصوصة بهذا فحسب، بل حدّ النّميمة كشف ما يُكره كشفه سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه أو ثالث، وسواء كان الكشف بالكناية أو بالرّمز أو بالإيماء، فحقيقة النّميمة إفشاء السّر وهتك السّتر عمّا يُكره كشفه [(٢)].

والنّميمة من الأخلاق الذّميمة والسُلوكيّات المقوتة بين النّاس كما في قول الله تعالى ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾[القلم: ١١]. (قال) الرّاغب [هَمْزُ الإنسان اغتيابه والنَّمُّ إظهار الحديث بالوشاية، وأصل النّميمة الهمس والحركة(٣)].

والنّميمة خُلُقٌ دنيء يرفضه الإسلام لما يحمله من إيقاع الشّر بين النّاس لما روى عن حذيفة أنّه بلغه أنّ رجلا يَنُمُّ الحديث فقال «سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ(٤)». وفي رواية لمسلم «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ(٥)». كما جاءت رواية ابن مسعود رضي الله عنه عند مسلم أيضا بلفظ «أَلاَ أُنَبِّئُكُم مَا الْعَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ».

(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢٧٢٠٧].

(٢) انظر نووى مسلم [ج ١ ص ٣٩٠].

(٣) انظر فتح البارى [ج ١٠ ص ٤٨٧].

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٠٥].

(٥) أخرجه مسلم [١٦٩ / ١٠٥] و[٢٦٠٦] و«العَضْهُ» صفة للفعل الغليظ التّحريم وهى النّميمة.

(قال) في النّهاية [الْقَتَّاتُ هُوَ النَّمَّامُ، يقال: قَتَّ الحديث يَقُتُّهُ: إذا زوّره وهيّأه وسوّاه، وقيل النَّمَّامُ: الذى يكون مع القوم يتحدّثون فينمّ عليهم، يقال منه: فُلاَنٌ يَقُتُّ الأحاديثَ قَتًّا: أى يَنمُّها نَمًّا، وقال الأصمعى فى الذى يُنَمِّي الأحاديث هو مثْل الْقَتَّات إذا كان يُبَلِّغُ هَذَا عَنْ هَذَا على وجه الإفساد والنّميمة[1]].

والْقَتَّاتُ الطَّعَّانُ للمرء إذا غاب، والْقَسَّاسُ الذى يسأل عن الأخبار ثمّ يُنمُّهَا، واللّمَّازُ الذى يذكرهم في مغيبهم، أمّا الْمَشَّاءُ بنميم: الذى يمشى بين النّاس بالنّميمة ليُفسد بينهم، يقال: [نَمَّ يَنُمُّ نَمًّا ونَمِيمَةً] أى يمشي ويسعى بالفساد [[2]].

والنَّمَّامُ لا يُخَفَّف عنه العذاب في قبره كما أخبر رسول الله ﷺ عن اللّذين يُعذّبان وما يُعذَّبان في كبير بقوله «أَمَّا هَذَا فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِه، وَأَمَّا هَذَا فَكَانَ يَمْشِى بَيْنَ النَّاسِ بِالنَّمِيمَةِ[3]». (قال) النّووى [كلّ من حُمِلَتْ إليه نميمة وقيل له فلان يقول فيك فعليه بستّة أمور:

(١) ألاّ يُصدقه لأنّ النّمام فاسق.

(٢) أن ينهاه عن ذلك وينصحه ويقبّح له فعله.

(٣) أن يبغضه فى الله تعالى فإنّه بغيض عند الله ويجب بغض من أبغضه الله تعالى.

(٤) ألاّ يظنّ بأخيه الغائب السّوء.

(٥) ألاّ يحمله ما حكى له على التّجسُّس والبحث عن ذلك.

(٦) ألاّ يرضى لنفسه ما نهى النّمام عنه فلا يحكى نميمته عنه فيقول فلان حكى كذا فيصير به نمّاما ويكون آتيا ما نهى عنه[4]].

٣ـ الكذب

الكذب من أقبح الذّنوب التى تعكس الضّرر النّاشىء عن الانحراف عن الصّدق وتعمّد البهتان والزّور، وحقيقة الكذب إنّما يقع فى الإخبار عن شىء بخلاف ما هو عليه فى الواقع وضدّه الصّدق كما فى قول الله تعالى ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف:٢٧]. ومنه كَذَبَ الظَّنُ: أَخْطَأَ. و«كَذَّبَ الشَّاهدَ» أنكره وجحده ومنه قوله تعالى ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنعام:٦٦].

(١) انظر غريب الحديث [ج ٣ ص ٣٥٣].

(٢) انظر تحفة الأحوذى [ج ٥ ص ٤٣٧].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٠٥٢] ومسلم [٢٩٢].

(٤) انظر نووى مسلم [ج ١ ص ٣٩٠].

و«الكاذب» غير الصّادق من قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ [الزُمر:٣]. و«الْكَذَّابُ» كثير الكذب من قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ [غافر:٢٨]. ومن الفقهاء من سوّى بين الكذب والإخلاف، ومنهم من فرّق بينهما فجعل الكذب في الماضي والحاضر وإخْلافُ الوعد في المستقبل [(١)]. يقال [أخْلَفَهُ مَا وَعَدَهُ]: وهو أن يقول شيئا ولا يفعله في المستقبل.

ومن أعظم الافتراء والكذب ما كان على الله تعالى ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾[الأنعام:٢١]. ومنه تكذيب نبي الإسلام ﷺ ودعوته كما في قوله تعالى ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾[فاطر:٢٥]. وكما أنّ الصّدق في حياة النّاس يهدي إلي البرّ والجنّة، فإنّ الكذب يهدي إلي الفجور والنّار لقوله ﷺ من حديث ابن مسعود «إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَي الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَي النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا، وَعَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَي الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَي الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا(٢)».

والفجور في قول النّبي ﷺ «فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَي الْفُجُورِ» يعني شقّ ستر الدّيانة والميل إلي الفساد وارتكاب المعاصي والانبعاث عليها، وهو اسم جامع لكلّ معاني الشّر ومنه الفاجر وهو الفاسق المجاهر غير المكترث بفسقه، كما أنّ من الفجور الميل عن الحقّ والاحتيال في ردّه، وهو ما جاء وصف الله تعالى له بقوله ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾[نوح: ٢٧]. وجمعه فُجَّار، ومنه قوله تعالى ﴿وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾[الانفطار:١٤]. والفاجر يُطلق على الفاسق والكافر ومن ثبت زناه ببيّنة أو إقرار [(٣)].

والمراد بالكتابة في قول النّبي ﷺ «حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا»: الحكم عليه بذلك وإظهاره للمخلوقين من الملأ الأعلي وإلقاء ذلك في قلوب أهل الأرض فيُعرف به. وعن عائشة «مَا كَانَ خُلُقٌ أَبْغَضَ إِلَي رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الْكَذِبِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُحَدِّثُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ بِالْكِذْبَةِ فَمَا يَزَالُ فِي نَفْسِهِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّهُ قَدْ أَحْدَثَ مِنْهَا تَوْبَةً(٤)».

ولا يُغيِّرُ الحقيقة بكذبه إلاّ المنافق الخدّاع كما جاء ذلك صريحا في قوله ﷺ «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ(٥)». فكلّ الخصال

(١) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ٣ ص ١٤١].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٠٩٤] ومسلم [٢٦٠٧] وأبو داود [٤٩٨٩] وابن ماجه [٤٦].

(٣) انظر تحرير التّنبيه [ص ٣٥١].

(٤) حديث حسن أخرجه التّرمذى [١٩٧٣].

(٥) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٠٩٥] ومسلم [٥٩].

السّيئة تندرج تحت الخصلة الأولى وهى [الْكَذِبُ فِى الْحَدِيثِ].

(قال) فى الفتح: [ووجه الاختصار على هذه العلامات الثّلاث أنّها مُنبّهة على ما عداها إذ أصل الدّيانة منحصر فى ثلاث [القول والفعل والنيّة] فنبّه على فساد [القول] بالكذب، وعلى فساد [الفعل] بالخيانة، وعلى فساد [النِّيَّة] بالخُلْف لأنَ خُلْفَ الوعد لا يقدح إلاّ إذا كان العزم عليه مقارنا للوعد، أمّا لو كان عازما ثمّ عرض له مانع أو بدا له رأى فهذا لا تكون منه صورة النّفاق(١)].

الصلح بين النّاس بالتّورية

الذى يُصلح بالتّورية واستعمال المعاريض لا يكون كذابا لقوله ﷺ من حديث أمّ كلثوم بنت عقبة «لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِى يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ وَيَقُولُ خَيْراً وَيَنْمِى خَيْراً(٢)». (قالَ) ابْنُ شِهَاب: «وَلَمْ أَسْمَعْ يُرَخِّصُ فِى شَىْءٍ مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ كَذِبٌ إِلاَّ فِى ثَلاَثٍ: الْحَرْبُ، وَالإِصْلاَحُ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَدِيثُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ، وَحَدِيثُ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا».

وفى قوله ﷺ «وَيَقُولُ خَيْرًا» قال العلماء: المراد هنا أن يخبر بما علمه من الخير ويسكت عمّا علمه من الشّر، ولا يكون ذلك كذبا لأنّ الكذب الإخبار بالشّىء على خلاف ما هو به، وأجازوا قول ما لم يكن فى هذه المواضع للمصلحة وقالوا: الكذب المذموم ما فيه مضرّة، واحتجّوا بقول إبراهيم ﷺ ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾. وقوله ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾. وقول منادى يوسف عليه السّلام ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾.

وجاء فى حاشية البخارى [وليس فى الحديث ما يقتضى جواز الكذب، فإنّه قال «لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِى يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ». وسَلْبُ الكذب عن المصلح لا يستلزم كون ما يقوله كذبا لجواز أن يكون صدقا بطريق التّصريح أو التّعريض].

وقال آخرون منهم الطّبرى [لا يجوز الكذب فى شىء أصلا، وما جاء من الإباحة فى هذا المراد به التّورية واستعمال المعاريض لا صريح الكذب، مثل أن يعد زوجته أن يأتى لها بكذا وهو ينوى إن قدّر الله ذلك، وحاصله: أن يأتى بكلمات مُحتملة يفهم المخاطب منها ما يُطيِّب قلبه، وإذا سعى فى الإصلاح نقل من هؤلاء إلى هؤلاء كلاما طيّبا فيه صلاح وإصلاح، ومن هؤلاء إلى هؤلاء كذلك وورَّى، أمّا كذبه لزوجته وكذبها عليه فالمراد به إظهارالودّ والوعد بما لا يلزم ونحو ذلك(٣)].

---

(١) انظر فتح البارى [ج ١ ص ١١٢].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٠٥] وافقه البخارى [٢٦٩٢] وأبو داود [٤٩٢٠].

(٣) انظر نووى مسلم [ج ٨ ص ٤٠٤].

٤ ـ التعامل مع النّاس بوجهين

هو نوع من النّاس يُنافق ويُخادع فيأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه آخر ويتحايل من أجل الاطلاع على الأسرار بالكذب والبهتان، وقد حذّر رسول الله ﷺ من التّعامل بهذا الأسلوب وبيّن أنّ من اتّصف بذلك كان من أشرّ النّاس بقوله ﷺ في الحديث الشّريف «مِنْ شَرِّ النَّاسِ ذُو الْوَجْهَيْنِ الَّذى يَأْتِي هَؤُلاَءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلاَءِ بِوَجْهٍ(١)». وفي رواية «إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ذَا الْوَجْهَيْنِ(٢)». وجاء عند البخاري بلفظ «وَتَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ، الَّذى يَأْتِي هَؤُلاءِ بِوَجْهٍ وَيَأْتِي هَؤُلاءِ بِوَجْهٍ(٣)».

ويأتي وصف نبي الله ﷺ لذى الوجهين «بشَرِّ النَّاسِ» مبالغة في ذلك ولأنّ حاله حال المنافق إذ هو مُتملّق بالباطل والكذب مُحقّق للفساد بين النّاس، وذو الوجهين غير أمين على الدّين مُقوّض للقيم والأخلاق لما رواه أحمد في مُسنده عن أبي هريرة بلفظ «مَا يَنْبَغِي لِذِى الْوَجْهَيْنِ أَنْ يَكُونَ أَمِينًا(٤)». ومن العذاب الموعود به يوم القيامة ما أخرجه أبو داود من قوله ﷺ عن عمّار بن ياسر رضي الله عنه «مَنْ كَانَ لَهُ وَجْهَانِ فِى الدُّنْيَا كَانَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِسَانَانِ مِنْ نَارٍ(٥)».

٥ ـ ظن السّوء

وقفت بنا الآيات الكريمة أمام نوعين مذمومين من ظنّ السّوء:

(الأوّل) لا يورّث صاحبه إلاّ الكفر والشّرك وهو الظّن بالله ظنّ السّوء كما جاء في قوله تعالى ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦]. ويعبّر به عن كفرهم وفساد عقيدتهم كظنّهم أنّ الله يُخلف وعده أو ظنّهم بأنّ الرّسول كاذب، وأنّه لا حساب ولا عقاب و﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: ٢٧]. وما أورثهم هذا الإفك إلاّ اللّعنة والغضب والمقت والعذاب كما في قوله تعالى ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

(الثّاني) سوء الظّن بالمسلمين وهو الأمر المنهى عنه شرعا كما في قول الله تعالى ﴿ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]. كما حذّر منه رسول الله ﷺ بقوله «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلاَتَحَسَّسُوا وَلاَتَجَسَّسُوا(٦)». ومحل

---

(١) حديث صحيح أخرجه أبوداود [٤٨٧٢].

(٢) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٢٠٢٥].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٤٩٤] ومسلم [٢٥٢٦].

(٤) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٧٨٧٧].

(٥) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٤٨٧٣] والبخارى في الأدب المفرد [١٣١٠]

(٦) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥١٤٣] ومسلم [٢٥٦٣] وأبو داود [٤٩١٧].

النّهى أنّه يحمل تهمة لا يُوجد سبب يوجبها ودليل كون الظّن هنا بمعنى «التّهمة»: قوله تعالى ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾. وذلك أنّه قد يقع له خاطر التّهمة ابتداء ثمّ يريد أن يتجسّس خبر ذلك ويبحث عنه فنهى النّبى ﷺ عن ذلك وقد جاء فى بعض الحديث «إِذَا ظَنَنْتَ فَلاَ تُحقِّقْ، وَإِذَا حَسَدْتَ فَلاَ تَبْغِ، وَإِذَا تَطَيَّرْتَ فَامْضِ(١)».

وفى قول النّبى ﷺ «إيَّاكُمْ وَالظَّنَّ» التّحذير من ظنّ السّوء بالمسلمين، ولكونه «أَكْذَبُ الْحَدِيث» لعدم مطابقته للواقع سواء كان قولا أو فعلا، والذى يميّز الظّنون التى يجب اجتنابها عمّا سواها أنّ كلّ ما لم تعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر كان حراما واجب الاجتناب، وذلك إذا كان المظنون به ممّن شوهد منه السّتر والصّلاح وألفت منه الأمانة فى الظّاهر فظنّ السّوء به محرّم، بخلاف من اشتهر بين النّاس بتعاطى الرّيب والمجاهرة بالخبائث، وذكر التّرمذى عن سفيان قوله [الظَّنُّ ظَنَّانِ»: فظنّ إثم وظنّ ليس بإثم:

(١) فأمّا الظّن الذى هو إثم فالذى يظنّ ظنّا ويتكلّم به.

(٢) وأمّا الظّن الذى ليس بإثم فالذى يظنّ ولا يتكلّم به.

وعلى ذلك فإنّ الظّن فى الشّريعة قسمان مذموم ومحمود(٢)].

(فالمذموم): ما هو ضدّه بدلالة قوله تعالى ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾.

(والمحمود): ما سلم معه دين الظّان والمظنون به عند بلوغه.

وأكثر العلماء على أنّ الظّن القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز وأنّه لا حرج فى الظّن القبيح بمن ظاهره القبح. (قال) الخطّابى [المراد ترك تحقيق الظنّ الذى يضرّ المظنون به وكذا ما يقع فى القلب بغير دليل، وذلك أنّ أوائل الظّنون إنّما هى خواطر لا يمكن دفعها وما لا يقدر عليه لا يكلّف به ويؤيّد ذلك قوله ﷺ «إِنَّ اللّهَ تَجَاوَزَ لأُمَّتِى عَمَّا لَمْ تَتَكَلَّمْ بِهِ أَوْ تَعْمَلْ بِهِ، وَبِمَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا(٣)»].

٦ ـ الغشّ

الغشّ لغة الخديعة بالكذب وحقيقته إظهار المرء خلاف ما أضمره لغيره مع تزيين المفسدة له، وأصله من الغَشَش وهو الماء الكدر، يقال: غَشَّ صَاحبَهُ غشًّا: زيَّن لَهُ غير المصلحة وأظهرَ له غير ما يُضمِرُ، فهو غَاشٌ وغَشَّاشٌ [صيغة مبالغة]: كَثِيرُ الْغشِّ. أمّا الشّىء

---

(١) ذكره ابن عبد البرّ فى التّمهيد [٦ / ١٢٥].

(٢) انظر تحفة الأحوذى [ج ٥ ص ٣٩٨].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٢٦٩] ومسلم [١٢٧] وأبو داود [٢٢٠٩].

المغشوش فهو غير الخالص، والغشّ في البيع: أن يكتم البائع عن المشترى عيبا في المبيع لو اطّلع عليه لما اشتراه بذلك الثّمن، والغشّ والتّدليس في البيع بمعنى واحد. (قال) ابن عرفة [الْغِشُّ: إبداء البائع ما يوهم كمالاً في مبيعه كاذبا أو كتم عيبه(١)].

والأمّة مُجمعة على تحريم الغشّ لما رُوى عن أبى هريرة «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ مِنْ طَعَامٍ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلاً، فَقَالَ: يَاصَاحِبَ الطَّعَامِ مَا هَذَا؟ قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَارَسُولَ اللهِ، قَالَ: أَفَلاَ جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ! ثُمَّ قَالَ مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا(٢)».

* وجاء عند مسلم بلفظ «وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا(٣)».

* وعند ابن ماجه «فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهِ فَإِذَا هُوَ مَغْشُوشٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَيْسَ مِنَّا مَنْ غَشَّ(٤)».

* وفى رواية أبى داود «فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهِ فَإِذَا هُوَ مَبْلُولٌ(٥)».

و«الصُّبْرَةُ»: الطّعام المجتمع كالكومة وجمعها «صُبَرٌ» أو ما جمع من الطّعام بلا كيل ولا وزن. (قال) الخطّابى [قوله «لَيْسَ مِنَّا مَنْ غَشَّ» معناه: ليس على سيرتنا ومذهبنا، يريد أنّ من غشّ أخاه وترك مناصحته فإنّه قد ترك اتّباعى والتّمسّك بسنّتى ولم يقتدى بعلمى وحسن طريقتى(٦)]. كما يترتّب على الغشّ إيقاع الضّرر البالغ بالمسلم والمكر به بإتلاف ماله وتحقيق الإيذاء ببدنه خفية وهو الأمر الذى نهى عنه رسول الله ﷺ فى قوله «مَنْ ضَارَّ أَضَرَّ اللهُ بِهِ، وَمَنْ شَاقَّ شَاقَّ اللهُ عَلَيْهِ(٧)». أى أوقع به بالغ الضّرر وهو الأمر المنهى عنه فى الدّين.

٧ ـ الكبر

الكبر الارتفاع على النّاس واحتقارهم ودفع الحقّ ترفّعا عنه. فمن [التَّكَبُّرِ]: العظمة والتّجبّر، و[تَكَابَرَ] فُلاَنٌ: أرى من نفسه أنّه كبير القدر، و[تَكَبَّرَ] تعظّم وامتنع عن قبول الحقّ معاندة وكبرا، و[الْكِبْرِيَاءُ]: الاستكبار والتّرفّع عن الانقياد ومنه قول الله تعالى ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ [المدثر: ٢٣]. ومن [الْكِبْرِ]: الإِثْمُ الْكَبِيرُ. وفى القرآن الكريم

(١) انظر شرح حدود ابن عرفة [ج ١ ـ ص ٣٧٠].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٠٢] والتّرمذى [١٣١٥].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٠١].

(٤) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [١٨٢٣].

(٥) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣٤٥٢].

(٦) انظر سُنن أبى داود [ج ٣ ص ٢٥٠].

(٧) حديث حسن أخرجه أبو داود [٣٦٣٥] والتّرمذى [١٩٤٠] وابن ماجه [٢٣٧١].

﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[النور: ١١]. و[الكَبيرةُ]: الإثم العظيم المنهى عنه شرعا ومنها [الكَبائر] كقول الله تعالى﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾[النجم: ٣٢].

وصفة «التَّكَبُّر» لا يستحقُّها إلاَّ الكبير المتعال وقد قال ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[الجاثية: ٣٧]. فمن ادّعاها من المخلوقين فهو كاذب، ولذلك صارت مدحا فى حقّه سبحانه وذمًّا فى البشر، وإنّما جعل شرف المخلوق فى إظهار العبوديّة الكاملة له وحده كما فى قوله تعالى﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾[النّساء: ١٧٢].

ومن يتكبّر ينازع الخالق صفة من صفاته ومن ينازعه عذّبه لقول النّبى ﷺ عن ربّه «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائى، والْعَظَمَةُ إِزَارِى، مَنْ نَازَعَنِى وَاحِدًا مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فى جَهَنَّمَ(١)».

(قال) النّووى [فى قوله تعالى «مَنْ نَازَعَنِى وَاحِداً مِنْهُمَا». أى يتخلّق بذلك فيصير بمعنى المشارك، وهذا وعيد شديد فى الكبر مصرّح بتحريمه.

وأمّا تسميته إزارا ورداء فمجاز واستعارة حسنة كما تقول العرب [فُلانٌ شِعَارُهُ الزُّهْدُ وَدِثَارُهُ التَّقْوَى]. لا يريدون الثّوب الذى هو شِعَارٌ أو دِثَارٌ، بل معناه صفته، ومعنى الاستعارة هنا: الإزار والرّداء يُلصقان بالإنسان ويلزمانه وهما جمال له، قال: فضرب ذلك مثلا لكون العزّ والكبرياء بالله تعالى أحقّ وله ألزم واقتضاهما جلاله(٢)].

والصّلة بين الكبر والعُجْب هى أنّ الكبر يتولّد من الإعجاب بالنّفس ومنه[تَخَايَلَ يَتَخَايَلُ تَخَايُلاً]: تَكَبَّرَ وأُعْجِبَ بنفسه، و[تَخَايَلَ] فى مشيه: تمايل كِبْرًا. و[الْخُيَلاَءُ]: التَّكَبُّرُ والْعُجْبُ ومنه قول رسول الله ﷺ «مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلاَءَ لَمْ يَنْظُرِ اللهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ(٣)».

وينقسم الكبر عند أهل العلم إلى باطن وظاهر:

(١) فالباطن هو خُلُقٌ فى النّفس من قول الله تعالى﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[غافر: ٣٥]. ويقال عن هذا «فِى نَفْسِهِ كِبْرٌ».

(٢) والظّاهر أعمال تصدر عن الجوارح فإذا ظهرت قيل: «تَكَبَّرَ».

فالأصل هو الْخُلُقُ الذى فى النّفس وهو الاسترواح والرّكون إلى رؤية النّفس فوق المتكبَّر عليه، فإنّ الكبر يستدعى مُتَكَبَّرًا عليه ليرى نفسه فوقه فى صفات الكمال ومُتكَبِّرًا

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٢٠].

(٢) انظر نووى مسلم [ج ٨ ص ٤٢٢].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٦٦٥] ومسلم [٢٠٨٥] وأبو داود [٤٠٨٥].

عليه [(١)]. وعلى هذا «فالْكِبْرُ»: هو تلك «الحالة» التى يختصّ بها الإنسان من «إعجابه» بنفسه وذلك أن يرى نفسه أعلى من غيره، وأعظم من ذلك ذنبا أن يتكبّر على ربّه تعالى بأن يمتنع من قبول الحقّ والإذعان له بالتّوحيد والخضوع لشرعه والطّاعة لنبيّه ﷺ والاستكانة والاستسلام لأمره.

ثمّ إنّ التّكبُّر يأتى على وجهين:

(أحدهما) أن تكون الأفعال الحسنة زائدة على محاسن الغير ومن ثمّ وصف سبحانه نفسه [بِالْمُتَكبِّرِ(٢)] من قوله تعالى ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣].

(والثّانى) أن يكون مُتكلّفا لذلك مُتشبّعا بما ليس فيه وهو وصف عامّة النّاس نحو قوله سبحانه ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

ولقد قضى الله أن تُسعَّر جهنّمُ بالمتكبّرين فقال سبحانه ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزّمر: ٧٢]. وعن ابن مسعود أنّ رسول الله ﷺ قال «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فى قَلْبِه مِثْقَالُ ذَرَّةٍ منْ كِبْرٍ(٣)». وفى رواية «ولاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أحَدٌ فِى قَلْبِه مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرِيَاءَ(٤)».

وفيما رواه البخارى يسأل الرّجل رسول الله قائلا «إنَّهُ يُعْجِبُنى أنْ يَكُونَ ثَوْبِى حَسَنًا وَنَعْلِى حَسَنَةً؟ فَيقُولُ رَسُولُ الله ﷺ إنَّ اللهَ يُحبُّ الْجَمَالَ وَلَكِنَّ الْكِبْرَ مَنْ بَطِرَ الْحَقَ وَغَمَصَ النَّاسَ(٥)». وجاء عند مسلم بلفظ «الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ». وفيها يعرِّف رسول الله ﷺ الكِبْر بأمرين:

(الأوّل) أنه «بَطَرُ الْحَقِّ» وهو دفعه وإنكاره ترفُّعا وتجبُّرا.

(والثّانى) أنه «غَمْطُ النَّاسِ» باحتقارهم والحطّ من منزلتهم استعلاء وتكبُّرا.

ثمّ يأتى وصف المستكبر فى قول نبيّنا ﷺ «ألاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ(٦)». بصفتين:

(الأولى) أنّه «عُتُلٌّ» وهو الغليظ الجافى الشّديد فى كفره اللّدود فى خصومته وهو

(١) انظر تحفة الأحوذى [ج ٥ ص ٤٠٧] والموسوعة الفقهية [٢ / ٣١٩].

(٢) انظر فتح البارى [ج ١٠ ص ٥٠٥].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٩١] وأبو داود [٤٠٩١] والتّرمذى [١٩٩٨].

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٤٨ / ٩١].

(٥) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٤٧ / ٩١] وأبو داود [٤٠٩٢] والتّرمذى [١٩٩٩].

(٦) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٠٧١] ومسلم [٢٨٥٣] وابن ماجه [٤١٩١].

الوصف القرآنى الذى جاء فى قوله تعالى ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٣]. وهو الجبّار الفظّ الغليظ الذى قد صار من شدّة تجبُّره وغلظه معروفا بالشّر مشهورا به، وقيل إنّه الذى يعتلّ النّاس فيجرّهم إلى حبس وعذاب، مأخوذ من العَتْلِ وهو الجرّ ومنه قوله تعالى ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الدّخان: ٤٧].

(والثّانية) أنّه «جوّاظ» وهو الجَمُوع المنوع كثير اللّحم المختال كما فى قوله ﷺ عند مسلم «كُلُّ جوّاظٍ زَنيمٍ مُتَكَبِّرٍ[١]». وجاء عند أحمد بلفظ «كُلُّ جَعْظَرِىٍّ جوّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ جَمَّاعٍ مَنَّاعٍ[٢]». فالجَوَّاظُ: الغليظ الفظّ، والزّنيم: الشّديد الخَلْقِ الواسعُ الجوف المصحّح الأكول الشّروب الظّلوم للنّاس.

أمّا «الْجَعْظَرِىُّ»: فهو الفظّ الغليظ المتكبّر الذى جاء وصفه فى قوله ﷺ «إِنَّ اللَّهَ يَبْغَضُ كُلَّ جَعْظَرِىٍّ جَوَّاظٍ، سَخَّابٍ فِى الأَسْوَاقِ، جِيفَةٍ بِاللَّيْلِ، حِمَارٍ بِالنَّهَارِ، عَالِمٍ بِالدُّنْيَا، جَاهِلٍ بِالأَخِرَةِ[٣]».

واختُلف فى تأويل قوله ﷺ «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِى قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»: فقيل لا يدخل الجنّة مع أوّل الدّاخلين، وقيل: لا يدخلها بدون مجازاة، وقيل معناه لا يدخل الجنّة حال دخولها وفى قلبه كبر. (قال) الطّيبى [المقام يقتضى حمل الكبر على من يرتكب الباطل، لأنّ تحرير الجواب إن كان استعمال الزّينة لأظهار نعمة الله فهو الجائز أو المستحب، وإنْ كان للْبَطَرِ المؤدّى إلى تسفيه الحقّ وتحقير النّاس والصّد عن سبيل الله فهو المذموم[٤]].

الكبر بين المهابة والتّواضع

الكبر أثر من آثار العُجب والبغى صادر مِن قلب امتلأ بالجهل والظّلم بعدما نزل عليه المقت والغضب، عندما ينظر إلى النّاس شزرا ويمشى بينهم تبخترا، ويُعاملهم مُعاملة الاستئثار لا الإنصاف والإيثار، يذهب بنفسه تيها وإعجابا، فلا يبدأ من لقيه من النّاس بالسّلام، ولا ينطلق لهم وجهه، ولا يسعهُم خُلُقه، ولا يرى لأحد عليه حقًّا، فلا يزداد بذلك من الله إلاّ بُعْدا، ومن النّاس إلاّ صَغارا وبُغْضا.

أمّا المهابة فهى أثر من آثار امتلاء القلب بعظمة الله تعالى ومحبّته وإجلاله، فإذا امتلأ القلب بذلك حلّ فيه النّور ونزلت عليه السّكينة وأُلبس لباس الهيبة، واكتسى وجهه

(١) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٤٧ / ٢٨٥٣].

(٢) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٦٥٨٠].

(٣) أورده فى صحيح الجامع [١٨٧٨] والصّحيحة [١٩٥].

(٤) انظر فتح البارى [ج ١٠ ص ٥٠٦].

بالحلاوة والمهابة، فأخذ بمجامع القلوب محبّة وصفاء، فحنّت إليه الأفئدة وقرّت به العيون وأنست به القلوب.

وكما تتحقّق المهابة بمحبّة الله تعالى والقرب منه، فإنّ التّواضع يتولّد من علم المرء بالله ومعرفته لأسمائه وصفاته ونعوت جلاله وتعظيمه وإجلاله، فيتولّد من بين ذلك كلّه خُلُقُ التّواضع المتمثّل في انكسار القلب لله تعالى، وخفض جناح الذّل، والرّحمة بعباده، وهذا خُلُق يُعطيه الله تعالى من يحبّه ويكرمه ويقربه وقد قال ﷺ فيما رواه أبو داود وغيره «إِنَّ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لاَ يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَد، وَلاَ يَبْغِى أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ[1]». وفي رواية مسلم «وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللّهُ[2]».

والتّواضع المحمود على نوعين:

(الأوّل) تواضع العبد عند «أمر الله» امتثالا وعند «نهيه» اجتنابا.

(الثّاني) تواضعه لعظمة الله تعالى وجلاله وخضوعه لعزّته وكبريائه، فكلّما شمخت نفسه تذكّر عظمة الخالق جلّ وعلا وتفرّده بذلك، وغضبه الشّديد على من نازعه ذلك، فتواضعت إليه نفسه وانكسر لعظمة الله قلبه واطمأنّ لهيبته وأخبت لجلاله وسلطانه، فهذا غاية التّواضع الذى يستلزم الأمر الأوّل من غير عكس، والمتواضع حقيقة من رُزق الأمران معًا والله سبحانه المستعان.

٨ ـ الظّلم

الظّلم عند أهل اللّغة وضع الشّيء في غير موضعه المختصّ به إمّا بنقصان أو بزيادة وإمّا بعدول عن وقته أو مكانه، والظّلم التّعدّى وأصله الجور ومُجاوزة الحدّ والميل عن القصد ومنه قول النّبى ﷺ في الوضوء «فَمَنْ زَادَ عَلَى هَذَا أَوْ نَقَصَ فَقَدْ أَسَاءَ وَظَلَمَ[3]». وفي قول الله تعالى ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ [النّساء: ٣٠]. (قال) الألوسي: أريد «بِالْعُدْوَان»: التّعدى على الغير، و«بالظُّلْم»: ظلم النّفس بتعريضها للعقاب، ومنه [ظَلَمَ ظُلْمًا ومَظْلمَةً]: جَارَ وجاوز الحد. و[المَظَالِمُ] جمع مظلمة مصدر: ظَلَمَ يَظْلِمُ ظُلْمًا، واسم لما أُخذ بغير حقّ.

والظّلم وضع الشّيء في غير موضعه الشّرعي. و[تَظَالَمَ] الْقَوْمُ: ظَلَم بَعْضُهُم بَعْضًا. و[الظُّلاَمَةُ]: ما يطلبه المظلوم وهو اسم ما أُخذ منه ظلما. و[الظّلاّمُ] من النّاس

---

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٤٨٩٥] وابن ماجه [٣٣٨٧].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٥٨٨].

(٣) حديث حسن صحيح أخرجه أبو داود [١٣٥] وابن ماجه [٤٢٨].

كثير الظّلم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[فصّلت: ٤٦].

وظلم العبد لغيره من الكبائر العظام التى لا يتجاوز الله عنها لحرمتها كما فى قوله ﷺ عن ربّه تعالى «ياعبادى إنّى حرّمت الظّلم على نفسى وجعلته بينكم محرّما فلا تظالموا(١)». أى لا تتظالموا. والمراد: أنّ الله منع نفسه من الظّلم لعباده فلا يظلم بعضهم بعضا وهذا توكيد لقوله «وجعلته بينكم محرّما» وزيادة تغليظ فى تحريمه.

وكما أنّ الظّالم ملعون بظلمه فى الدّنيا فهو ملعون به فى الآخرة وقد تسجّل ذلك فى الكتاب المبين ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[هود: ١٨]. فالظّالم لن يجنى من ظلمه إلاّ اللّعنة والمقت والغضب، ولذلك جاء التّحذير من الرّكون إلى الذين ظلموا فى قوله تعالى﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[هود: ١١٣].

والظّلم يوم القيامة ظُلمات يتردّى فيها الظّالم وهو ما حذر منه رسول الله ﷺ النّاس أن يتّقوه من أنفسهم ويحذروه كما فى قوله ﷺ «اتّقوا الظّلم فإنّ الظّلم ظلمات يوم القيامة(٢)». وجاء عند البخارى بلفظ «الظّلم ظلمات يوم القيامة(٣)».

والله عزّ وجلّ يُمهل للظّالم ويُطيل له حتّى إذا أخذه لم يستطع الإفلات من عذابه لقوله ﷺ من حديث أبى موسى «إنّ الله عزّ وجلّ يملى للظّالم فإذا أخذه لم يفلته، ثمّ قرأ قول الله تعالى﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢(٤)].

وقوله «لم يفلته»: أى إذا أهلكه لم يرفع عنه الهلاك كما أهلك القرون الظّالمة بذنوبهم وآثامهم وبغيهم على النّاس وظلمهم بغير حق كما قضى الله فى تنزيله ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[الشّورى: ٤٢].

وإذا كان الظّلم ظُلمات يوم القيامة فإنّه ينقسم فى الدّنيا إلى أقسام:

(أحدها) ظلم المرء لنفسه بالشّرك والكفر كما قال تعالى﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان: ١٣]. فإنّ المشرك جعل المخلوق فى منزلة الخالق فعبده وتألّهه فكان ذلك من وضع الأشياء فى غير موضعها، وأكثر ما ذُكر فى القرآن وعيدا للظّالمين إنّما أُريد به المشركون كما فى قول الله تعالى﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[البقرة: ٢٥٤]. وقوله

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٥٧٧].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٥٧٨].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٢٤٤٧] ومسلم [٢٥٧٩] والتّرمذى [٢٠٣٠].

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٥٨٣] وافقه البخارى [٤٦٨٦] والتّرمذى [٣١١٠].

﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]. ثـمّ يلى ذلك كلّ المعاصى على اختلاف أنواعها من كبائر وصغائر.

(والثّانى) ظلم المرء لنفسه بارتكابه المعاصى والذّنوب التى تُودى به إلى عذاب النّار وتركه أوامر الله ونواهيه وقد أشار القرآن إلى هذا بقوله ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وقوله ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ [فاطر: ٣٢]. وقوله ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ﴾ [الصّافّات: ١١٣].

وظُلم النّفس هو الأمر الذى أخبر به رسول الله ﷺ أبا بكر أن يستعيذ منه كما فى قوله «اللّهُمَّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى ظُلْمًا كَثِيرًا وَلاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ(١)». وقوله «ظَلَمْتُ نَفْسِى» أى بملابسة ما يستوجب العقوبة أو ينقص حظّ المرء من العبادة، ومن دلالات هذا الحديث أنّ الإنسان لا يخلو من تقصير ولو كان صدّيقا.

(والثّالث) ظلم المرء لغيره وهو المذكور فى الحديث القُدسى «وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا». وقوله ﷺ: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِى شَهْرِكُمْ هَذَا فِى بَلَدِكُمْ هَذَا(٢)». وصورة هذا الظّلم بين البشر مُتعدّدة متكرّرة بين البشر، وقد أجمل رسول الله ﷺ هذه الأنواع الثّلاثة فى قوله من حديث أنس «الظُّلْمُ ثَلاَثَةٌ: فَظُلْمٌ لاَ يَغْفِرُهُ اللهُ، وَظُلْمٌ يَغْفِرُهُ، وَظُلْمٌ لاَ يَتْرُكُهُ، فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِى لاَ يَغْفِرُهُ اللهُ فَالشِّرْكُ، قَالَ اللهُ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِى يَغْفِرُهُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ أَنْفُسَهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ، وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِى لاَ يَتْرُكُهُ اللهُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا حَتَّى يُدَبِّرَ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ(٣)».

دعوة المظلوم لا تردّ

ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب لقوله ﷺ «وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ(٤)». وفيه دعوة إلى تجنُّب الظّلم حتى لا يدعو المظلوم بظلمك إياه، كما أنّ فيه التّنبيه على منع جميع أنواع الظّلم، ويُقصد «بالْحِجَاب»: أنّه ليس لدعوته صارف يصرفها ولا مانع يمنعها، وأنّها مقبولة وإن كان صاحبها عاصيا كما جاء فى حديث أبى هريرة عند أحمد مرفوعا «دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ مُسْتَجَابَةٌ وَإِنْ كَانَ فَاجِرًا فَفُجُورُهُ عَلَى نَفْسِهِ(٥)». وفى رواية «اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ وَإِنْ كَانَ كَافِرًا فَإِنَّهُ لَيْسَ

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٨٣٤] ومسلم [٢٧٠٥].
(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٧] ومسلم [١٦٧٩].
(٣) حديث حسن أورده فى صحيح الجامع [٣٩٦١] والصّحيحة [١٩٢٧].
(٤) حديث متّفق عليه أخرجه البخارى [٢٤٤٨] ومسلم [١٩].
(٥) حديث حسن أخرجه أحمد [٨٧٨١] وأورده فى صحيح الجامع [٣٣٨٢] والصّحيحة [٧٦٧].

دُونَهَا حِجَابٌ[(١)]». وقوله «فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ» تعليل للاتّقاء وتمثيل للدّعاء كمن يقصد دارالسّلطان متظلّما فلا يُحجب.

ودعوة المظلوم مستجابة لما جاء في الصّحيح عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا بِهَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلاَّ اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ[(٣)]».

فعلى المسلم أن يتحلّل من مظالمه من قبل أن يُؤخذ لأخيه من حسناته يوم لا دينار فيه ولا درهم لقوله ﷺ «مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ[(٢)]».

أمّا قوله «فَحُمِلَ عَلَيْهِ»: أي على الظّالم وهو المعنى الذي جاء في حديث مسلم ولفظه «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ[(٤)]».

٩ ـ عقوق الوالدين

عقوق الوالدين الاستخفاف بهما وعصيانهما وترك الإحسان إليهما وهو كبيرة من الكبائر، وعقوبة فاعله عظيمة يوم الدّين لقوله ﷺ «أَلاَ أُحَدِّثُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ قَالُوا بَلَى، قَالَ الإِشْرَاكُ بِاللهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ[(٥)]». والعقوق مشتقّ من العقّ وهو القطع ويُراد به صدور ما يتأذى به الوالدان من قول أو فعل إلاّ في شرك أو معصية.

وفي قوله ﷺ «إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الأُمَّهَاتِ[(٦)]»: خصّ الأمهات بالذّكر إظهارا لعظم قدرهنّ، ولأنّ العقوق إليهنّ أسرع من الآباء لضعفهنّ، ولينبّه على أنّ برّ الأمّ مقدّم على برّ الأب في التّلطّف والحنوّ والرّحمة ونحو ذلك، وفي حديث الرّجل الذي جاء إلي النّبي ﷺ يسأله عن أحق النّاس بصحبته فذكر له «أُمّه» ثلاث مرّات ثمّ ذكر «الأب» مرّة

---

(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١٢٤٨٨].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٢٤٤٩].

(٣) حديث صحيح أورده فى صحيح الجامع [٣٣٨٣].

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٥٨١] والتّرمذى [٢٤١٨].

(٥) حديث صحيح أخرجه البخارى [٢٦٥٤] ومسلم [٨٧] والتّرمذى [١٩٠١].

(٦) حديث صحيح أخرجه البخارى [٢٤٠٨] ومسلم [٥٩٣].

واحدة [(١)]. فدلّ على أنّ محبّة الأمّ والشّفقة عليها ينبغي أن تكون محبّة مُضاعفة إلى هذه الثّلاثة التي تقابل تضحيّاتها الثّلاثة التي انفردت بها الأمّ دون الأب وهي: صعوبة «الحمل» وصعوبة «الوضع» وصعوبة «الرّضاع والتّربية»، فهذه ثلاث منازل تزيد من مراتب الشّفقة والمحبّة لها.

أمّا قوله تعالى ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣]: فقد خصّ حالة «الْكِبَر» لأنّها الحالة التي يحتاجان فيها إلى البِرّ لتغيّر الحال عليهما بالضّعف والكبر، فأوجب في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثر ممّا أوجبه من قبل لأنّهما في هذه الحالة قد صارا كَلًّا عليه، فيحتاجان أن يَلِيَ منهما في الكِبَرِ ما كان يحتاج في صغره أن يَلِيَاه منه، لذلك خصّ هذه الحالة بالذّكر.

وأيضا فطُول المُكث للمرء يُوجب الاستثقال عادة فيحصل الملل ويكثر الضّجر ويُظهر الابن غضبه على والديه وتنتفخ لهما أوداجه، ويستطيل عليهما بدالّة البُنوّة وقلّة الدّيانة وأقلّ ما يُظهره بتنفُّسه المتردّد من الضّجر أن يقول لهما «أُفٍّ». وقد أُمر أن يقابلهما بالقول الموصوف بالكرامة، وهو السّالم من كلّ عيب فقال تعالى ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣(٢)].

فكيف يتسنّى للمرء أن يَعُقّ والديه وقد نهى الله تعالى عن قولة «الأُفّ» لهما وهي تعبير لفظي يحمل أدنى التبرُّم والتّأفّف، ومنه الكلام الرّديء الخفي الموحي بالإشمئزاز، وهي تقال لكلّ ما يُضجر ويُستثقل ويُتكرّه فعله، وهو المعنى الذي جاء في الأثر «لَوْ عَلِمَ اللهُ مِنَ الْعُقُوقِ شَيْئًا أَرْدَأَ مِنْ «أُفٍّ» لَذَكَرَهُ، فَلْيَعْمَلِ الْبَارُّ مَا شَاءَ أَنْ يَعْمَلَ فَلَنْ يَدْخُلَ النَّارَ، وَلْيَعْمَلِ الْعَاقُّ مَا شَاءَ أَنْ يَعْمَلَ فَلَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ(٣)». (قال) علماؤنا: [وإنّما صارت قولة «أُفّ» للأبوين أردأ شيء لأنّ رفضهما رفض كفر النّعمة وجحد التّربية وردّ الوصيّة التي أوصى بها الخالق في التّنزيل].

ولـمّا نهى رسول الله ﷺ أن يلعَنَ الرّجل والديه وبيّن أنّ ذلك من أكبر الكبائر قيل «يَارَسُولَ اللهِ كَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ(٤)». وجاء عند التّرمذي بلفظ «يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَشْتُمُ أَبَاهُ وَيَشْتُمُ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ(٥)».

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري [٥٩٧١] ومسلم [٢٥٤٨] وابن ماجه [٢٩٦٦].

(٢) انظرتفسير القرطبي [ج ١٠ ص٢٤٢].

(٣) انظر تفسير القرطبي [ج ١٠ ص ٢٤٣].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخاري [٥٩٧٣] ومسلم [٩٠] وأبو داود [٥١٤١].

(٥) من حديث صحيح أخرجه الترمذي [١٩٠٢].

وفى قوله «وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْه» : استبعاد من السّائل لأنّ الطّبع المستقيم يأبى ذلك، فبيّن فى الجواب أنّه وإن لم يتعاط السَّبَّ بنفسه فى الأغلب الأكثر لكن قد يقع منه التّسبّب فيه وهو ممّا يُمكن وقوعه كثيرا. (قال) فى الفتح :[فيه دليل على عظم حقّ الأبوين، وفيه العمل بالغالب لأنّ الذى يسُبّ أبا الرّجل يجوز أن يسبّ الآخر أباه ويجوز أن لا يفعل لكنّ الغالب أن يُجيبه بنحو قوله]. وإذا كان الشّرع قد بيّن أن التّسبُّب فى لعن الوالد من أكبر الكبائرعند الله تعالى فالتّصريح بلعنه أشدّ وأعظم لقوله ﷺ من حديث ابن عمرو «مِنَ الْكَبَائِرِ عِنْدَ اللهِ أَنْ يَسُبَّ الرَّجُلُ وَالِدَهُ(١)».

والكبيرة فى اللّغة [الإثم العظيم] وجمعها كبائر، (قال)الرّاغب [وهى مُتعارفة فى كلّ ذنب تعظم عقوبته، وفى الاصطلاح: هى ما كان حراما محضا شُرعت له عقوبة محضة بنصّ قاطع فى الدّنيا والآخرة. [أو] هى: ما يترتّب عليها حدّ أو توعّد عليها بالنّار أو اللّعنة أو الغضب وهذا من أمثل الأقوال(٢)].

فمن البرّ بالوالدين والإحسان إليهما ألاّ يتعرّض لسبّهما ولا عصيانهما فإنّ ذلك من الكبائر وبذلك وردت السُّنّة الصّحيحة، ومن عقوق الوالدين مخالفتهما فى أغراضهما الجائزة لهما، كما أن من برّهما وإكرامهما موافقتهما على أغراضهما، وعلى هذا إذا أمرَا أو أحدُهما ولدَهما بأمر وجبت طاعتهما فيه إذا لم يكن ذلك الأمر معصية، وإن كان ذلك المأمور به من قبيل المباح فى أصله، وقد ذهب بعض النّاس إلى أنّ أمرهما بالمباح يصيّره فى حقّ الولد مندوبا إليه وأمرهما بالمندوب يزيده تأكيدا فى ندبيته.

والله تعالى أمر الخلق بعبادته وتوحيده وذكره وجعل برّ الوالدين مقرونا بذلك كما قرن شكرهما بشكره فقال ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء:٢٣]. وقال ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[لقمان:١٤].

وعن ابن مسعود «قُلْتُ: يَارَسُولَ اللهِ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: الصَّلاَةُ عَلَى مِيقَاتِهَا، قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ، قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ الْجِهَادُ فِى سَبِيلِ اللهِ(٣)». فأخبر رسول الله ﷺ أنّ برّ الوالدين أفضل الأعمال بعد الصّلاة التى هى أعظم دعائم الإسلام وركنه الرّكين، ورتّب ذلك بـ«ثُمَّ» التى تفيد التّرتيب والمهلة. (قال) الطّبرى [إنّما خصّ ﷺ هذه الثّلاثة بالذّكر لأنّها عنوان على ما سواها من الطّاعات:

(١) فإنّ من ضيّع الصّلاة المفروضة حتّى خرج وقتها من غير عذر مع خفّة مؤنتها

(١) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد [١ / ٢٧].

(٢) انظر معجم المصطلحات الفقهيّة [ج ٣ ص ١٣٥].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٢٧٨٢] ومسلم [٨٥].

عليه وعظيم فضلها فهو لما سواها أضيع.

(٢) ومن لم يبرّ والديه مع وفور حقّهما عليه كان لغيرهما أقل برًّا.

(٣) ومن ترك جهاد الكفّار مع شدّة عداوتهم لدين الإسلام كان لجهاد غيرهم من الفسّاق أترك.

فظهر أنّ الثّلاثة تجتمع في أنّ من حافظ عليها كان لما سواها أحفظ، ومن ضيّعها كان لما سواها أضيع [(١)]. وقد بيّن رسول الله ﷺ أنّ من تمام برّ الوالدين:

(*) صلَةُ أهلِ وُدِّهما لقوله ﷺ من حديث ابن عمر «إنَّ مِنْ أَبَرِّ الْبِرِّ صِلَةَ الرَّجُلِ أَهْلَ وِدِّ أَبِيهِ بَعدَ أَنْ يُوَلِّيَ (٢)».

(*) وكان من نصيحة نبيّ الله ﷺ لمن أراد الخروج معه إلى الجهاد «فَارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْكَ فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا». وجاء في رواية «فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ (٣)».

(*) وعن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال «رَغِمَ أَنْفُهُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ، قِيلَ مَنْ يارَسُولَ الله؟ قَالَ: مَنْ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا ثُمَّ لَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ (٤)». قال أهل اللّغة معناه: ذلَّ وخَزِيَ، وأصل الرّغام تراب مختلط برمل، وقيل كلّ ما أصاب الأنف ممّا يؤذيه، ومعناه: أنّ برّ الوالدين عند كبرهما وضعفهما بالخدمة أو النّفقة أو غير ذلك سبب لدخول الجنّة، فمن قصّر في ذلك فاته دخول الجنّة وأرغم الله أنفه دلالة على الخزي والإذلال.

ثامنا - الاستعاذة من هموم النّفس وعجزها

جاء في الصّحيح عن أنس بن مالك قال «كَثِيراً مَا كُنْتُ أَسْمَعُ النَّبِيَّ ﷺ يَدْعُو بِهَؤُلاَءِ الْكَلِمَاتِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجزِ وَالْكَسَلِ، وَالْبُخْلِ وَضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ (٥)». وجاء عند أبي داود بلفظ «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ وَضَلَعِ الدَّيْنِ وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ». وزاد النّسائي: «وَالْجُبْنِ». وفي الأحاديث استعاذ رسول الله ﷺ من ثمانية أشياء كلّ شيئين منهما قرينان:

* [فَالْهَمُّ وَالْحَزَنُ] قرينان وهما من آلام الرّوح ومعذّباتها، والفرق بينهما أنّ الهمّ توقّع الشّر في المستقبل، و الحَزَن هو التألّم على حصول المكروه في الماضي، وكلاهما تألّم

---

(١) انظر فتح الباري [ج ٦ ص ٧].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٥٥٢] والتّرمذي [١٩٠٣] وأبوداود [٥١٤٣].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٥٤٩] وافقه البخاري [٣٠٠٤].

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٥٥١].

(٥) حديث صحيح أخرجه البخاري [٦٣٦٣] وأبو داود [١٥٤١] والنّسائي [٥٤٦٥].

وعذاب يرد على الرّوح، فإن تعلّق بالزّمن الماضى سُمّى [حَزَنًا] وإن تعلّق بالمستقبل سُمّى [هَمًّا]. وقد نفى الله عن أهل الجنّة الخوف والحزَن، فلا يحزنون على ما مضى ولا يخافون ممّا يأتى ولا يطيب لهم العيش فيها إلاّ بذلك.

* و[الْعَجْزُ وَالْكَسَلُ] قرينان وهما من أسباب الألم لأنّهما يستلزمان فوات المحبوب، فالعجز يستلزم عدم القدرة، والكسل يستلزم عدم الإرادة، فتتألّم الرّوح لفواته بحسب تعلّقها به والتذاذها بإدراكه لو حصل.

* و[الْجُبْنُ وَالْبُخْلُ] قرينان لأنّهما سبب فى عدم النّفع بالمال والبدن وهما من أسباب الألم، لأنّ الجبان تفوته محبوبات ومُفرحات وملذوذات عظيمة لا تنال إلاّ بالبذل والشّجاعة، والبخل يحول بينه وبينها، [فَالْجَبَانُ] لا ينتفع ببدنه، و[الْبَخِيلُ] لا ينتفع بماله.

* و[ضَلَعُ الدَّيْنِ وقهر الرِّجَال] قرينان أحدهما قهر بحقّ وهو ضلَع الدّين، والثّانى قهر بباطل وهو غلبة الرّجال، وأيضاً فضلع الدَّين قهر بسبب من العبد فى الغالب، وغلبة الرّجال قهر بغير اختياره [(١)].

وتفصيل هذه المسائل يأتى على النّحو التّالى:

(أ) الاستعاذة من الهمّ والحزن

ومُحصّلها أنّ «الْهَمَّ» لمَا يتصوّره العقل من المكروه فى الحال (أو) هو الخوف ممّا يُتوقّع حصوله فى المستقبل ممّا يترتّب عليه القلق والحزن، ومنه [الْغَمُّ]: إلكرب أوالحزن يحصل للقلب بسبب ما، وهو مقصود قول الله تعالى ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ [الأنبياء:٨٨].

والْهَمُّ حُزْنٌ يصيب الإنسان ولكنّه أخصّ من «الْحَزَن» الذى هو خشونة فى النَّفْس لحصول غَمٍّ، وقيل: «الْهَمُّ» مُتعلّق بما هو آتى، و«الْحَزَنُ» موصول بالماضى، والحُزْنُ والْحَزَنُ: الاغتمام والتّوجُّع النّفسي [أو]: هو الأسف على ما فات من خيرى الدّنيا والآخرة ومنه [حَزِنَ] الأمرُ فلانًا حُزْنا: غَمَّه وأهمَّه، وجاء فى التّنزيل ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:١٧٦]. فهو مَحْزونٌ وحَزِينٌ ومنه قوله تعالى ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]. فهوحَزِنٌ وحَزِين.

(قال) الخطّابى: [أكثر النّاس لا يفرّقون بين الْهَمِّ والْحَزَنِ، إلاّ أنّ الْحَزَنَ إنّما يكون على أمر قد وقع والْهَمُّ فيما يُتوقّع [(٢)]].

---

(١) انظرتفسير المعوّذتين [ص ١٢] وروضة المحبّين لابن القيّم [ص ٣٨].

(٢) انظر سُنن النّسائى بشرح السُّيوطى [ج ٤ ص ٦٤٨ - هامش].

(٢) الاستعاذة من العجز والكسل

العجز عدم القدرة على الشّىء مُطلقا ؛ وقيل هو ترك ما يجب فعله والتّسويف به، والعجز لغة مصدر الفعل «عجز». يقال : عَجَزَ عَنِ الأَمرِ عَجْزًا وعَجَزَانًا : ضَعُفَ ولم يَقْدِرْ عليه فهو [عَاجِزٌ]. والتّعجيز : التّثبيطُ. وفى المصباح : أَعْجَزَهُ الشّيْءُ : فَاتَهُ. وفى «مفردات الرّاغب» العجز أصله التّأخُّر عن الشّىء وصار فى التّعارف اسما للقصور عن فعل الشّىء وهو ضدّ القدرة [(١)].

وفارق بين العجز والكسل، فيُراد بالعجز عدم القدرة على فعل الخير، أمّا الكسل فهو عدم انبعاث النّفس إلى الخير وقلّة الرّغبة فيه، والكسل فى القاموس التّثاقُل والفتور عمّا لا ينبغى أن يتثاقل عنه، فهو كسِلٌ وكَسْلانٌ ومنه قول الله تعالى ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾[التّوبة: ٥٤].

فالعجز ضدّ الاقتدار، والكسل ضدّ النّشاط، والفرق بين العجز والكسل أنّ الكسل ترك الشّىء مع القدرة على القيام به، والعجز عدم القدرة على أدائه، فالأوّل نفسى والثّانى عضوى وهذا هو الفارق بين الصّفتين.

ولمّا كان العجز والكسل أمرين مترادفين متقاربين فى المعنى والمسمّى، ومتعلّقين بالقوى البدنيّة للإنسان ولهما من التّأثير المباشر ما يحُول دون القيام بالفروض والطّاعات فكثيرا ما كان رسول الله ﷺ يستعيذ بربّه تعالى منهما لحديث أنس رضى الله عنه «كَانَ رسول الله ﷺ يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْجُبْنِ وَالْهَرَمِ [(٢)]». وجاء عند أبي داود بلفظ «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَالْهَرَمِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ [(٣)]».

ويُعتبر هذا الدّعاء النّبوى الكريم من جوامع الكلم التى تشير إلى أنّ أنواع الرّذائل التى تحيط بالإنسان ثلاثة : نفسانية وبدنية وخارجية بحسب القوى العقليّة والغضبيّة والشّهوانيّة ؛ فالهمّ والحزن مُتعلّقان [بالعقليّة] والجبن [بالغضبيّة] والبخل [بالشّهوانيّة] والعجز والكسل [بالبدنيّة]، وضلع الدّين وغلبة الرّجال [بالخارجية]، فالأوّل مالى والثّانى جاهى [(٤)]. وفى الحديث دليل لاستحباب الاستعاذة من كلّ الأشياء المذكورة وما فى معناها وهو الصّحيح الذى أجمع عليه أهل العلم.

---

(١) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ٢ ص٤٧٧].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٣٦٧] ومسلم [٢٧٠٦] والنّسائى [٥٤٦٧].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٢٨٢٣] وأبو داود [١٥٤٠].

(٤) انظر فتح البارى [ج ١١ ص ١٧٨].

(٣) الاستعاذة من الكفر والضلال

الْكُفرُ تَغْطِيَةُ ما حقُّهُ الإظْهارُ، والْكُفْرانُ ستر نعمة المُنعم بتَرْك أداء شكرها، وأعظم الكُفر جحود الوحدانيّة أو النُّبوّة أو الشّريعة، و[الْكُفْرانُ]: فى جحود النّعمة أكثر استعمالا، و[الْكُفْرُ] فى الدِّين أكثر تعريفا، وهو أربعة أنواع: كفر إنكار؛ وكفر جحود؛ وكفر عناد؛ وكفر نفاق؛ وهذه الأربعة من لقى الله تعالى بواحد منها لم يغفر له.

وتأتي استعاذة النّبى ﷺ من الكفر تعليما لأمّته وحرزا من أن يقعوا فيه لما رواه النّسائى عن أبى بَكْرَةَ أنّ رسول الله ﷺ كان يدعو فى دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ يَقُولُ «اللَّهُمَّ إنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ(١)».

أمّا الضّلال فهو من مُقابلة الهدى فلا يجد السّالك إلى مقصده طريقا أصلا، أو هو العدول عن الطّريق المستقيم كما فى قوله ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾[لقمان: ١١]. والضّلالة بمعنى الإضاعة كما في قوله تعالى ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾[محمّد: ٤]. وبمعنى الهلاك كقوله تعالى ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[السّجدة: ١٠]. وكقوله تعالى ﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّا﴾[مريم: ٧٥]. فإذا كان الضّلال هو فقدان ما يُوصِّل إلى الحقّ، فإنّ الضّلالة هى سُلوك طريق لا يُوصِّل إلى هذا الحقّ وينافيه.

لذلك كان من جوامع الكلم التي كان يستعيذ بها رسول الله ﷺ إذا خرج من بيته ما جاء في حديث أمّ سلمة قالت «مَا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ بَيْتِي قَطُّ إلاَّ رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ(٢)». وفي رواية النّسائى «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ قَالَ بِسْمِ اللهِ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَزِلَّ أَوْ أَضِلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ(٣)».

(٤) الاستعاذة من الحور بعد الكور

شاءت إرادة الله تعالى أن تتغيّر أحوال النّاس وتتبدّل وتنقلب من الحَسَن إلى القبيح، وتتحوّل من السّيىء إلى الأسوأ فلا تستقرّ على أمر واحد، وسبحان من يُغيِّر ولا يتغيّر، ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا سافر قال «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ، وَالْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ، وَدَعْوَةِ الْمَظْلُومِ، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِى الأَهْلِ وَالْمَالِ(٤)». وجاء عند مسلم بلفظ «وَالْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْنِ».

---

(١) حديث صحيح أخرجه النّسائى [٥٤٨٠] وأحمد [٢٠٢٦٠].

(٢) حديث صحيح أخرجه أبوداود [٥٠٩٤] والتّرمذى [٣٤٢٧].

(٣) حديث صحيح أخرجه النّسائى [٥٥٠١].

(٤) أخرجه مسلم [١٣٤٣] والتّرمذى [٣٤٣٩] والنّسائى [٥٥١٣].

والحديث يحمل معنى الاستعاذة من فساد الأمور بعد صلاحها أو الرّجوع من الحالة المستحسنة بعد أن كان عليها إلى ما هو أردى منها، ومعنى «الْحَوْر» فيه: الرّجوع من الإيمان إلى الكفر، ومن الطّاعة إلى المعصية، ومن الزّيادة إلى النّقصان، ومن الاستقامة إلى الضّلال، وكما رُوى قوله «بَعْدَ الْكَوْرِ» بالرّاء، رُوى أيضا بالنّون «بَعْدَ الْكَوْن». وكلاهما له في بيان اللّغة معنى ووجه:

(١) فرواية «الْكَوْر» مأخوذة من تكوير العمامة وهي لفّها وجمعها، يقال: كَارَ عمَامَتَهُ إذا لَفَّهَا، وحارها إذا نقضها، والمعنى: نعوذُ بك من أنّ تَفْسَدَ أُمُورُنَا بعد صلاحها كَفساد العمامة بعد استقامتها على الرّأس؛ ومُرادها الاستعاذة من النُّقصان بعد الزّيادة أو من الشّتات بعد التّوحُّد والانتظام [(١)].

وزعم الهيثم أنّ «الحجّاج بن يوسف» بعث فلانا ـ قد سَمَّاهُ ـ على جيش وأَمَّرَهُ عليهم إلى الخوارج، ثمّ وجَّهَهُ بعد ذلك إليهم تحت لواء غيره، فقال له الرّجل: «هَذَا الْحَوْرُ بَعْدَ الْكَوْرِ». فقال له الحَجَّاجُ «وما قولك الْحَورُ بَعْدَ الْكَوْرِ؟ فقال: النُّقْصَانُ بعد الزّيادة». ومن قال هذا أخذه من كَوْرِ الْعِمَامَة، يقول [قد تغيّرت حاله وانتقضت كما ينتقض كَوْرُ العمامة بعد الشَّدّ، وكُلُّ هذا قريبٌ بعضُهُ من بعض في المعنى].

(٢) ورواية «الْكَوْن» مأخوذة من الْكَوْنِ مصدر (كَانَ ـ يَكُونُ ـ كَوْنًا): إذا وُجدَ وَثَبَتَ واستقرّ، فتكون الاستعاذة من الرّجوع عن الجماعة بعد الكون عليهم أو من التّغيُّر بعد الثّبات، ولمّا سُئل عاصم عن معناه قال: ألم تسمع قولهم حَارَ بَعْدَمَا كَانَ؛ أي أنّه كان على حالة جميلة فرجع عنها أي ارتدّ وعاد [(٢)].

(٥) الاستعاذة من الشّقاق والنّفاق

الشّقَاقُ والمُشَاقَّةُ الخلاف والعداوة ومُجانبة طريق الحقّ، ومنه شقّ فلان العصا؛ إذا فارق الجماعة وانسلخ عنها، ويدلّ عليه قول الله تعالى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الحشر: ٤]. أي عادوه وخالفوا أمره. وقول الله تعالى ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [سورة ص: ٢]. أي في إظهار خلاف ومباينة من [شَاقَّهُ] خَالَفَهُ وعَادَاهُ ومنه [شَقَّ عَصَا الطَّاعَة] أي خَالَفَ وتَمرَّد، وكأنّ هذا في شقّ وذلك في شقّ [(٣)].

أمّا النّفاق فهو فعل المنافق الذي يُظهر خلاف ما يُبطن، أو يخفي الكفر ويُظهر الإيمان، أو يضمر العداوة ويُظهر الصّداقة، وقد يُطلق على الرّياء لأنّ كليهما إظهار غير

(١) انظر غريب الحديث [ج ١ ص ٢٧٦].

(٢) انظر نووى مسلم [ج ٥ ص ١٢٢].

(٣) انظر تفسير القرطبي [ج ٢ ص ١٤٣].

ما فى القلب ومنه قول الله تعالى ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٧]. (قال) ابن تيمية [أساس النّفاق الذى بُنِيَ عليه هو الكذب، وأن يقول الرّجل بلسانه ما ليس فى قلبه كما أخبر سبحانه ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]. فكان عهد النّاس بهم أنّهم ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١].

وجاء فى «التّعريفات» [النّفاق إظهار الإيمان باللّسان وكتمان الكُفر بالقلب. ولا يُطلق هذا الاسم على من يُظهر شيئا ويُخفى غيره ممّا لا يختصّ بالعقيدة(١)]. والنّفاق فى اللّغة هو من جنس الخداع والمكر وإظهار الخير وإبطان خلافه كما فى قوله ﷺ من حديث عبد الله بن عمرو «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فيه كَانَ مُنَافِقًا خالصًا، وَمَنْ كَانَتْ فيه خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فيه خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا ائْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ(٢)».

والنّفاق فى الشّرع ينقسم إلى قسمين [(٣)]:

(أحدهما) النّفاق الأكبر وهو أن يُظهر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ويُبطن ما يناقض ذلك كلّه أو بعضه، وهذا هو النّفاق الذى كان على عهد رسول الله ﷺ ونزل القرآن الكريم بذمّ أهله وتكفيرهم، وأخبر أنّهم فى الدّرْك الأسفل من النّار كما فى قوله سبحانه ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾.

(والثّانى) النّفاق الأصغر وهو نفاق العمل الذى يُظهر فيه الإنسان علانية صالحة ويُبطن ما يخالف ذلك، وأصول هذا النّفاق ترجع إلى الخصال المذكورة فى قوله ﷺ «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا». وهى خمس:

(١) أن يحدّث بحديث لمن يصدّقه به وهو كاذب له.

(٢) إذا وعد أخلف وهو على نوعين:

(الأوّل) أن يَعِدَ ونيّته ألاّ يُوفِيَ بوعده وهذا أشرّ الخلق، ولو قال: أفعل كذا إن شاء الله تعالى ومَن نيّته أن لا يفعل كان كَذِبًا وخُلْفًا.

(الثّانى) أن يَعِدَ ومن نيّته أن يَفِيَ ثمّ يبدو له فيُخلف من غير عذر له فى الخُلف.

(٣) إذا خاصم فجر ويقصد بالفجور أن يخرج عن الحقّ عمدا حتّى يصير الحقّ باطلا والباطل حقّا، وهذا ممّا يدعو إليه الكذب كما فى قوله ﷺ «إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ

(١) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ٣ ص ٤٣٠] والموسوعة الفقهيّة [٦ / ١٧٨].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٤] ومسلم [٥٨].

(٣) انظر جامع العلوم والحكم [ص ٦٩٢].

يَهْدى إِلَى الْفُجُورِ، وإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدى إِلَى النَّارِ[1]». وقوله ﷺ فى الصّحيحين «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الأَلَدُّ الْخَصِمُ[2]».

(٤) إذا عاهد غدر ولم يف بالعهد، وقد أمر تعالى بالوفاء بالعهد فقال ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]. وقوله ﷺ من حديث ابن عمر «لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يومَ الْقِيَامَةِ يُعْرَفُ به[3]». والغدر نقض العهد وترك الوفاء به.

(٥) الخيانة في الأمانة وقد قال رسول الله ﷺ عند أحمد «لاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ، وَلاَ دِينَ لِمَنْ لاَ عَهْدَ لَهُ[4]».

ولقد جاء القرآن مصدّقا بذلك كلّه فقال ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧]. فجمعت الآيات لهم بين الْخُلْفِ فى الْوَعْدِ والْكَذِبِ فيه والبخل فى العطاء والإعراض عنه.

ثمّ تأتي استعاذة النبي ﷺ كما فى حديث أبى هريرة بقوله «اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشِّقَاقِ وَالنِّفَاقِ وَسُوءِ الأَخْلاَقِ[5]». دليلا على أنّ الشّقاق والنّفاق من أقبح الأخلاق السّيّئة التى تصادف الإنسان لتعدّى ضررهما إلى الغير، الأول بتشرذم الجماعة وضعفها، والثّانى بضياع الدّين نفاقا بين النّاس.

تاسعا - التّعوّذ من مصائب الدّنيا

المصيبة فى اللّغة كلّ مكروه يحلّ بالإنسان، والمصاب من يصاب بالأذى والشّدّة النّازلة، ومنها [البلاء] والبَلِيَّةُ تنزل بالمرء، و[ابتلاه الله]: جَرَّبَهُ واختبره، ومنها [المحنة]: البلاء والشّدّة، و[الامتحان] الاختبار. (قال) الرّاغب [«أَصَابَ» يُستعمل فى الخير والشّر وهو معنى قول الله تعالى ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ [التوبة: ٥٠]. وقيل الإصابة فى الخير مأخوذة من الصَّوْبِ وهو المَطر الذى ينزل بقدر الحاجة من غير ضرر، وفى الشّر مأخوذة من إصابة السَّهْمِ.

و(قال) الكرمانى [المصيبة فى اللّغة ما ينزل بالإنسان مُطلقا، وفى العُرف ما نزل به

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٠٩٤] ومسلم [٢٦٠٧].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٢٤٥٧] ومسلم [٢٦٦٨].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٧٣٧] وافقه البخارى [٣١٨٦].

(٤) حديث صحيح أخرجه أحمد [١٢٣٢٤] والهيثمى فى المجمع [١ / ٩٦].

(٥) أخرجه أبوداود [١٥٤٦] والنّسائى [٥٤٨٦] بإسناد ضعيف.

من مكروه خاصّة وهو المراد هنا[1]] . والمصائب فى حياة النّاس نوعان :

(الأولى) إمّا أن تكون امتحانا واختبارا كما فى قول الله تعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمّد : ٣١] . وقول الله تعالى ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [الحجّ : ٣٥] .

(الثّانية) أو أن تكون عقابا نازلا كما فى قوله تعالى ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشّورى : ٣٠] . وقوله ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ [الزّمر : ٥١] .

والله تعالى لم يبتل عبده ليُهلكه وإنّما ابتلاه ليمتحن صبره على المصيبة ويختبر عبوديّته له فيما يضرّه ، وهو الأمر الذى يتحقّق :

(١) بحبس النّفس عن التّسخُّط على المقدور واستسلامها لما شاء الله وقدّر .

(٢) وحبس اللّسان عن الشّكوى فلا ينطق إلاّ بالاسترجاع والتّفويض .

(٣) وحبس الجوارح عن المعصية فلا تشقّ جيبا ولا تلطم خدًّا .

فإذا ما واجه المرء ما أصابه بتلك المعايير الإيمانيّة انقلبت المحنة فى حقّه منحة ، وتحوّلت البلايا عطايا ، وصار المكروه محبوبا ، واستوفى المرء أجره من خالقه بغير حساب تحقيقا لوعد الله تعالى ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أى يعطون أجرهم بلا مكيال ولا ميزان ، وكما حثّ رسول الله ﷺ على التّعوّذ من مصائب الدّنيا حثّ كذلك على مواجهتها بالصّبر والاحتمال :

* لقوله ﷺ من حديث صهيب رضي الله عنه «عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ[2]» . وعند مالك والبخارى «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ[3]» .

* وقوله ﷺ من حديث أبي هريرة عند البخارى «مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ ، وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حَزَنٍ ، وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ ، حَتَّى الشَّوْكَةَ يُشَاكُهَا ، إِلاَّ كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ[4]» . وفى رواية أحمد «إِلاَّ كَانَ كَفَّارَةً لِذَنْبِهِ» . أى يكون ذلك عقوبة بسبب ما صدر منه من المعصية ويكون ذلك سببا لمغفرة ذنبه .

---

(١) انظر فتح البارى [ج ١٠ ص ١٠٩] .

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٩٩٩] .

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٦٤٥] ومالك فى الموطأ [١٦٩٠] .

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٦٤٢] ومسلم [٢٥٧٣] .

* وما أخرجه التّرمذى من حديث أنس «إنَّ عظَمَ الْجزاء مع عظَمِ الْبلاء، وإنَّ اللّهَ إذا أحبَّ قومًا ابْتلاهُم؛ فمنْ رضِيَ فلهُ الرِّضا؛ ومنْ سخط فلهُ السَّخطُ[1]». أى فمن كان ابتلاؤه أعظم كان جزاؤه أوفر، ومقصود الحديث الحثّ على الصّبر على البلاء بعد وقوعه وليس التّرغيب فى طلبه للنّهى عنه.

* وقوله ﷺ من حديث أبي هريرة «ما يزالُ الْبلاءُ بالمُؤْمنِ والمُؤْمنة فى نفْسه وولده وماله حتَّى يلْقى الله يوم القيامة وما عليْه خطيئةٌ[2]». (قال) الرّاغب فى مفرداته: الصّبر حبس النّفس على ما يقتضيه العقل أو الشّرع، وربّما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه؛ فإذا كان حبس النّفس بمصيبة سمّى «صبْرًا» ويضادّه الجزع، وإن كان فى محاربة سمّى «شجاعةً» ويضادّه الجبن، وإن كان فى نائبة مضجرة سمّى «رحابة صدر» ويضادّه الضّجر، وإن كان فى إمساك الكلام سمّى «كتمانا» ويضادّه الهذر، وقد سمّى الله كلّ ذلك «صبْرًا[3]» فقال ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾،

ومن المسائل التى حثّ رسول الله ﷺ عليها فى هذا الباب:

(أ) الاستعاذة من التّردّى والهدم

التّردّى السّقوط من مكان مرتفع نحو جبل أو السّقوط في نحو بئر، أمّا الهدَمُ [بفتحتين]: ما تهدّم وسقط على من تحته. [يقال]: هدمْتُه هدْمًا، وهدّمْتُ الْبناء: على التّكثير ومنه قوله تعالى ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ﴾ [الحج: ٤٠]. (قال) البعلى [الهدم التّخريب ويقع على كلّ بناء، فما دام شىء من البناء لا يكون هدما [[4]]].

والتّردّى والهدم هما الأمران اللّذان استعاذ من شرّهما رسول الله ﷺ كما فى قوله من رواية أبي اليسر «اللّهمّ إنّى أعوذُ بك من الْهدْم وأعوذُ بك من التّردّى[5]». وجاء عند أحمد «اللّهمّ إنّى أعوذُ بك من الْهرم والتّردّى والْهدْم والْغمّ والْحريق والْغرق[6]».

(١) حديث حسن أخرجه التّرمذى [٢٣٩٦] وابن ماجه [٣٢٧٢].

(٢) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٢٣٩٩].

(٣) الصّبر نقيض الجزع ولغة حبس النّفس عن الضّجر والرّضا بما يقتضيه العقل والشّرع؛ واصطلاحا: خُلق فاضل يحمل النّفس على التّحلّى بما يحسن والتّخلّى عن القبيح. (وقيل) هو اعتراف العبد بأنّ ما أصابه من الله تعالى، واحتساب أجره عنده؛ ورجاء ثوابه منه. (وقيل) هو حبس النّفس على الطّاعة ومشاقها؛ والمصائب وحرارتها؛ وعن المنهيّات والشّهوات ولذّاتها. (وهو) ثلاثة أنواع: صبر على المصيبة وأفضله ما كان عند الصّدمة الأولى؛ وصبر على الطّاعة؛ وصبر على المعصية.

(٤) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ٣ ص ٤٤٨].

(٥) حديث صحيح أخرجه أبو داود [١٥٥٢] والنّسائى [٥٥٤٦].

(٦) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١٥٤٦٢].

وجاء عن أبى عبيد فى حديث النبى ﷺ «أَنَّهُ كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنَ الأَيْهَمَيْنِ[1]». [قال] أبو عبيد [يُقَالُ إِنَّهُمَا السَّيْلُ وَالْحَرِيقُ]. وتأتى الاستعاذة منهما لأنهما ليسا مما يُستطاع دفعُه، ورغم استعاذة النبى ﷺ من شرّ التردّى والهدم إلاّ أنّ من مات بواحدة منهما يموت شهيدا، لأنّها لقوّة وقعها لا يكاد الإنسان يصبر عليها فربّما انتهز الشّيطان هذه الفرصة فيضرّه فى دينه ويزعزع عقيدته ويذهب بإيمانه.

(٢) الاستعاذة من فجأة النّقمة وزوال النّعمة

جاء فى الصّحيح عن ابن عمر قال «كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ[2]». أى تبدّل ما رزقتنى من الصّحة إلى الأمراض والأسقام، والفرق بين الزّوال والتّحوُّل؛ أنّ الزّوال يُقال فى شىء قائم بغيره ثمّ فارقه من غير بدل، والتّحوُّل تغيُّر الشّىء وانفصاله عن غيره مع البدل، فزوال النّعمة ذهابها من غير بدل، وتحوّل العافية إبدال الصّحة بالمرض.

أمّا قوله «وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ» أى بَغْتَتِهَا، يقال فاجأه مفاجأة، إذا بغته من غير تقدُّم سبب، والنّقمة العقوبة ومنه قوله تعالى ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ [المائدة: ٩٥]. أى يعاقبه، والاستعاذة هنا تأتى من فُجَأة النّقمة لا من النّقمة مُطلقا لأنّ فُجأتها أشدّ من نزولها تدريجيا.

ويجمع رسول الله ﷺ فى قوله «وَجَمِيعِ سَخَطِكَ» جميع أسباب الغضب، والسُّخْطُ [بالضّم] ضدّ الرّضا وقد (سَخِطَ) عليه سَخَطًا وسُخْطًا: كرِهَهُ وغضِبَ عليه ولم يرضه، ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول وهو ساجد فيما أخبرت به عائشة رضى الله عنها «أَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ عِقَابِكَ، وَأَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ[3]».

(٣) الاستعاذة من جَهْد البلاء ودَرَك الشّقاء وشَمَاتَة الأعداء

روى البخارى فى صحيحه من حديث أبى هريرة «أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنْ سُوءِ الْقَضَاءِ، وَشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ، وَجَهْدِ الْبَلاَءِ[4]». وفى الحديث دلالة على استحباب الاستعاذة من الأربع المذكورة، ولا يعارض ذلك كون ما سبق فى قدر الله تعالى لاحتمال أن يكون مما قُضى، فقد يقضى على المرء بالبلاء مثلا ثمّ يقضى أنّه إذا دعا كشف هذا البلاء، فالقضاء مُحتمل للدّافع والمدفوع.

---

(١) انظر غريب الحديث لأبى عبيد [٢٨٢ - ج٢ ص ٥٣٥].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٧٣٩] وأبو داود [١٥٤٥].

(٣) حديث صحيح أخرجه النّسائى [٥٥٤٩].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٣٤٧] ومسلم [٢٧٠٧].

ويقصد [بِجَهْدِ الْبَلاَءِ] كلّ ما أصاب المرء من شدّة ومشقّة وما لا طاقة له بحمله ولا مقدرة له على دفعه من [جَهِدَ من الأَمْرِ جَهْدًا] : بَلَغَ مَشَقَّتَهُ . و[جَهِدَ] الْعَيْشُ جَهَدًا : ضاق واشتدّ فهو جَهِدٌ، ورُوِى عن عمر رضى الله عنه أنّه فسّره بقلّة المال وكثرة العيال، وقال غيره هى الحالة الشّاقة.

ويأتى [دَرَكُ الشَّقَاءِ] من الإدراك واللّحاق، ويُطلق على السّبب المؤدّى إلى الهلاك، ويكون فى أمور الدّنيا وأمور الآخرة ومعناه [أَعُوذُ بِكَ رَبِّى أَنْ يُدْرِكَنِى شَقَاءٌ] . أمّا [سُوءِ الْقَضَاءِ] فإنّه عام فى النّفس والمال والأهل والولد والخاتمة والمعاد، والمراد [بِالْقَضَاءِ] هنا المقضى من الأمر لأنّ حكم الله كلّه حَسَنٌ لا سوء فيه، وقيل :

(١) القضاء هو إرادة الله الأزليّة المتعلّقة بالأشياء على ما هى عليه فيما لا يزال [أو] هو الحكم بالكُلِّيَّات على سبيل الإجمال فى الأزل .

(٢) أمّا القدر فهو الحكم بوقوع الجزئيّات التى لتلك الكليّات على سبيل التّفصيل .

و[شَمَاتَةُ الأَعْدَاءِ] ما ينكأ القلب ويبلغ من النّفس أشدّ مبلغ ومنه قول الله تعالى ﴿ فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ ﴾[الأعراف : ١٥٠] . وفى معنى قوله «وَشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ» (قال) النّووى [الفرح بالبليّة تنزل بالمُعَادى من شَمِتَه شَمَاتَةً : فَرِحَ بمكروه أصابه فهو شَامِتٌ، و[أَشْمَتَهُ] الله بعدوه : جعله يشمت به، وهو ما استعاذ منه رسول الله ﷺ كما فى حديث عبد الله بن عمرو قال «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْعُو بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ(١)» :

١ـ فَجَهْدُ [الْبَلاَءِ] يأتى من جهة المعاش . ٢ـ ودَرَكُ [الشَّقَاءِ] من جهة المعاد .

٣ـ وسوء [الْقَضَاءِ] من جهة المبدأ . ٤ـ أمّا شماتة [الأَعْدَاءِ] فتقع لكلّ من وقع له كلّ من هذه الخصال الثّلاثة .

كما أنّ تَعَوُّذَ النّبى ﷺ من كلّ ذلك يأتى تعليما لأمّته فإنّ الله تعالى قد آمنه من جميع ذلك، ثمّ يكون التّعوُّذ من العبد إظهارا لشدّة فقره وعظيم حاجته لربّه وخالقه وتضرّعه إليه [(٢)] .

عاشرا ـ الاستعاذة من فتن الدّنيا

فتن الدّنيا لا تتوقّف عند حدّ معيّن وإنّما يمتدّ أثرها بامتداد الحياة والمعصوم منها من عصمه الله تعالى، وأصل الفتنة الابتلاء والاختبار ومنه قوله تعالى ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾[العنكبوت : ٢] . وقول الله تعالى ﴿وَنَبْلُوكُم

(١) حديث صحيح أخرجه النّسائى [٥٥٠٣] . (٢) انظر فتح البارى [ج ١١ ص ١٥٣] .

بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[الأنبياء:٣٥].

والفتنة في اللُّغة على ثلاثة معان:

(أحدها) الامتحان والاختبار ومنه قول الله تعالى﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾[الأعراف:١٥٥]. أي امتحانك واختبارك.

و(الثاني) الافتتان نفسه من قوله تعالى﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾. ويقال: افْتُتِنَ الرَّجُل فهو[مفْتُونٌ]: إذا أصابته فتنةٌ فذهبَ مالُهُ أوعقلُه.

(الثالث) المفتون به نفسه ويُسمَّى فتنةً كما يُستعمل في الغفلة عن المطلوب من قول الله تعالى﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[التغابن:١٥]. ومنه يأتي قوله ﷺ من حديث أبي سعيد «إِنَّ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَاظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، أَلاَ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ(١)».

واستُعملت في الشّرع في اختبار وكشف ما يُكره، يقال فتنت الذّهب إذا اختبرته بالنّار لتنظر جودته من [الْفَتْنِ] وهو الإحراق ومنه قول الله تعالى﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾[الذّاريات:١٣]. وكذا إذا اختُبر ومنه قوله تعالى﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ وفتَن الشَّيْءُ فُلاَنًا: أُعْجِبَ به واسْتَهْوَاهُ، ومنه [الافْتِتَانُ] الإعجابُ بالشّيء والتَّدلُّه به.

و[الْفَتَّانُ] الشّيطان. قال الْقُتَيْبِيُّ: «فتنةٌ» أي إغرام. يقال فُتِنَ الرّجلُ بامرأته: أي شُغفَ بها، وقيل فتنة: محنة. كما يُستعمل لفظ «الفتنة» في الإكراه على الرّجوع عن الدّين كما في قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[البروج:١٠].

وتأتي استعاذة النّبيّ ﷺ من شرّ فتن الدّنيا كما في قوله «وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا(٢)». وجاءت في حديث آخر بلفظ «وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ(٣)». وكأنّه ﷺ جمع في هذه العبارات الوجيزة كلّ ما يواجهه المرء في هذه الدّنيا من فتن:

* فمُتعة الحياة وزهرتها فتنة ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[طه:١٣١]. وقوله ﷺ من حديث أبي سعيد «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ اللهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا، قَالُوا وَمَا زَهْرَةُ الدُّنْيَا؟ قَالَ بَرَكَاتُ الأَرْضِ(٤)».

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٧٤٢] والتّرمذي [٢١٩١] وابن ماجه [٣٢٤٨].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري [٦٣٧٠] والتّرمذي [٣٥٦٧] والنّسائي [٥٤٩٣].

(٣) حديث صحيح أخرجه النّسائي [٥٥٢٠] وأحمد [٢٣٤٢].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخاري [٦٤٢٧] ومسلم [١٠٥٢].

ومنه قوله ﷺ عند الترمذى «فوالله لاَ الْفقرَ أَخْشى عَلَيْكُمْ وَلَكن أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيا كَمَا بُسطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُم فتنافسُوهَا كَمَا تَنَافسُوهَا وَتُهْلككُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهمْ[(١)]».

* ورغد الحياة وزينتها ونعيمها ابتلاء وفتنة ومنه قوله تعالى ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾[الجن: ١٦ - ١٧]. أى لَوسّعْنا عليهم وأعطيناهم رزقا واسعا وماء كثيرا لنختبرهم كيف يكون شكرهم لهذه النّعم، وضرب بالماء الغدَق الكثير مثلاً لذلك، وفيها قال عمر [أينما كان الماء كان المال، وأينما كان المال كانت الفتنة]. وعن ابن مسعود قال [لاَ يقُولَنّ أَحدُكُم اللّهُمّ اعْصمْنى منَ الْفتْنَة، فإنّهُ ليْس أَحَدٌ منكُم يرجعُ إِلى مَالٍ وأهلٍ وولَد إلاّ وَهُو مُشْتَملٌ عَلى فتنَة، ولَكن ليَقُلْ اللّهُمّ إِنى أَعُوذُ بِكَ من مُضلاّت الْفتَن[(٢)]].

والفتنة في قول الله تعالى ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[التغابن: ١٥]. تحتمل معنيين:

(الأوّل) أنّ الله تعالى يفتنكم بالأموال والأولاد بمعنى يختبركم، فانتبهوا لهذا وحاذروا وكونوا أبدا مُتيقّظين لتنجحوا في الابتلاء، وتخلّصوا وتجرّدوا لله كما يفتن الصّائغ الذّهب بالنّار ليخلّصه من الشّوائب.

(الثّانى) أنّ هذه الأموال والأولاد فتنة لكم تُوقعكم بفتنتها في المخالفة والمعصية، فاحذروا هذه الفتنة حتّى لا تجرفكم وتبعدكم عن الله تعالى [(٣)].

وكلا المعنيين قريب من قريب، لحديث بريدة «كَانَ رَسُولُ اللّه ﷺ يَخْطُبُ فَجَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ عَلَيْهمَا قَميصَان أَحْمَرَان يَمْشيَان وَيَعْثُرَان، فَنزلَ رَسُولُ اللّه ﷺ منَ المنْبَر وَحَمَلَهُمَا فَوضَعَهُمَا بيْن يَدَيْه، ثُمّ قَالَ صَدَقَ اللّهُ وَرَسُولُهُ ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ نَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصّبيّيْنِ يَمْشيَان وَيَعْثُرَان فَلَمْ أَصْبرْ حَتّى قَطَعْتُ حَديثى وَرَفَعْتُهُمَا[(٤)]».

وعن الحسن في قوله تعالى ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ قال: أدخلَ [منْ] «للتّبعيض» لأنّ كلّهم ليسوا بأعداء، ولم يذكر «منْ» في قول الله تعالى ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ لأنّهما لا يخلُوان من الفتنة واشتغال القلب بهما [(٥)].

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣١٥٨] ومسلم [٢٩٦١].

(٢) انظر تفسير القرطبى [ج ١٨ ص ١٤٣].

(٣) انظر فى ظلال القرآن [ج ٢٨ ص ٣٥٩٠].

(٤) حديث صحيح أخرجه أبو داود [١١٠٩] والترمذى [٣٧٧٤].

(٥) تفسير القرطبى [ج ١٨ ص ١٤٣].

وفسّر بعض العلماء قوله ﷺ «وأَعُوذُ بكَ من فتْنَة الدُّنْيا» كما في حديث البخارى «بفتْنَة الدَّجَّال». (قال) في الفتح [وفى إطلاق الدّنيا على الدّجال إشارة إلى أنّ فتنته أعظَم الفتن الكائنة فيها[1]] . وقد ورد ذلك صريحا عن مُصْعَب قال «كانَ سَعْدٌ يأمُرُ بخَمْس ويَذْكُرهنَّ عن النّبى ﷺ أنّهُ كان يأمُرُ بهنَّ [منها] : وأَعُوذُ بكَ من فتْنَة الدُّنْيا - يَعْنى فتْنَةَ الدَّجَّال - وأَعُوذُ بكَ من عذاب القَبْر[2]» .

أمّا استعاذته ﷺ من فتنة المحيا كما فى قوله «وأَعُوذُ بكَ من فتْنَة المَحْيَا والمَمَات[3]» . فهى ما يعرض للإنسان مُدَّة حياته من الافتتان بالدّنيا والشّهوات والجهالات وأعظمها والعياذ بالله أمر الخاتمة عند الموت، وفتنة الموت يجوز أن يُرادبها الفتنة عند الموت وأُضيفت إليه لقربها منه، وقيل: أُريد بفتنة المحيا الابتلاء مع زوال الصّبر، وبفتنة الممات السّؤال فى القبر مع الحَيْرَة، وهذا من العام بعد الخاصّ لأنّ عذاب القبر داخل تحت فتنة الممات وفتنة الدّجَّال داخلة تحت فتنة المحيا .

حادى عشر - الاستعاذة من شرّ فتنة المال

وأعجب ما فى قصّة المال أنّه كما يقود إلى الجنّة ورضوانها فإنّه يدفع إلى النّار وعذابها، فهو من أكثر الوسائل المؤدّية إلى الكفر والفسوق والطّغيان ما لم يُسخَّر فيما يُرْضى الخالق جلّ وعلا، وما جاء وصف القرآن لهذا العُتُلّ الجافى إلاّ بقول الله تعالى ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾[القلم: ١٤]. وما جاء وعده له فى التّنزيل إلاّ بقوله سبحانه ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾[المدثر ١١ - ١٢].

ولمّا افتخر النّاس بالغنى وتباهوا بالذُّرِّيَّة أخبر سبحانه أنّ ما كان من زينة الحياة الدّنيا من مال وبنين إنّما هو غرور لا يدوم ونعيم لا يبقى كالهشيم الذى تذروه الرّياح من قوله تعالى ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[الكهف: ٤٦] . فالمال بما فيه من جمال ومتاع، والأولاد بما لهم من قوّة ومَنعَة إنّما يُمثّلان زينة واهية مُحتقرة «لا يَبْقَى» منها إلاّ ما كان للقبر زادًا وللآخرة عدّة وثوابًا .

وكما أخبر الخالق سبحانه فإنّ فتنة المال فى حياة البشر لا يشاركهم فيها إلاّ الشّيطان الرّجيم فقال ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[الإسراء: ٦٤] . فتتحقّق شركته بإنفاقهم الأموال التى أصابوها من غير حِلّها فى مَعصية الله تعالى ومُخالفة أمره وتسخيرها للآثام والفجور واللّهو لما

---

(١) فتح البارى [ج ١١ ص ١٨٣].

(٢) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٣٦٥].

(٣) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٥٩٠].

روى عن عبد الرّحمن بن عوف أنّ رسول الله ﷺ قال « قَالَ الشَّيْطَانُ لَعَنَهُ اللهُ لَنْ يَسْلَمَ مِنِّي صَاحِبُ الْمَالِ مِنْ إِحْدَى ثَلاَثٍ أَغْدُو عَلَيْهِ بِهِنَّ وَأَرُوحُ بِهِنَّ: أَخْذُهُ مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ، وَإِنْفَاقُهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَأُحَبِّبُهُ إِلَيْهِ فَيَمْنَعُهُ مِنْ حَقِّهِ[1] ».

تعس عبد الدّينار

ومن ابتلاء الله تعالى لهذه الأمّة أن جعل فتنتها في المال وهو ما أخبر به ﷺ في قوله « إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي فِي الْمَالِ[2] ». وفتنة المال تبدأ بالتّعالى على الخلق والتّفاخر به كهذا الذى قال لصاحبه ﴿ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴾.

وكذلك أخبر عن الذى كفر بآياته وقال ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا﴾[مريم :٧٧]. ومن فتنة المال الانشغال به عن الطّاعة والإعراض عن الآخرة كالذين قالوا ﴿شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا﴾[الفتح :١١]. ومنها الحبّ المُفرط للمال والتّعلّق به وكنزه كما فى قوله ﴿هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾[التّوبة :٣٥].

وفى ذلك جاء قول النّبى ﷺ عند البخارى « تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ؛ إِنْ أُعْطِىَ رَضِىَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ[3] ». ولفظه عند ابن ماجه « إِنْ أُعْطِىَ رَضِىَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَفِ[4] ». وعبد الدّينار هو طالبه الحريص على جمعه القائم على حفظه، فكأنّه لذلك صار خادمه وعبده من قوله « تَعِسَ » تَعَسًا: شَقِىَ فهو تَعِسٌ وتَعِيسٌ و« التَّعْسُ » الشَّرُّ، وقوله « تَعْسًا لَهُ » دُعَاءٌ عليه.

و« الانتكاس » فمعناه إذا سقط اشتغل بسقطته حتّى يسقط الأخرى، أمّا معنى قوله « وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ »: أى إذا أصابته الشّوكة فلا يجد من يخرجها منه بالمنقاش، وفى الدّعاء بذلك إشارة إلى عكس مقصوده، لأنّ من عَثَر فدخلت فى رجله الشّوكة فلم يجد من يخرجها يصير عاجزا عن الحركة والسّعى فى تحصيل الدّنيا، وخصّ العبد بالذّكر لِيُؤذن بانغماسه فى محبّة الدّنيا وشهواتها كالأسير الذى لا يجد خلاصا، ولم يقل [مَالِكُ] الدِّينارِ أو [جَامِعُ] الدّينار لأنّ المذموم من المِلْكِ والجمع الزّيادة على قدر الحاجة [[5]].

ولقد قسّم أهل العلم أحكام الكسب إلى ثلاثة أقسام:

(الأوّل) ما نصّ الشّارع على طلبه مع الوعيد على تركه كالحلال البيّن المعلوم.

---

(١) أورده الهيثمى فى مجمع الزّوائد [١٠ / ٢٤٥] وقال رواه الطبرانى وإسناده حسن.

(٢) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٢٣٣٦] وأحمد [١٧٤٠١] والحاكم [٨٠٦١].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٢٨٨٧].

(٤) من حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٣٣٥٢].

(٥) انظر فتح البارى [ج ١١ ص ٢٥٩].

(الثّانى) ما نصّ على تركه مع الوعيد على فعله كالحرام البيّن الواضح.

(الثّالث) ما لم يأت فيه نصّ بالحلّ أو الحرمة وهو الأمر المشتبه في حكمه كما في قول النبي ﷺ من حديث النّعمان بن بشير رضى الله عنه «الْحَلالُ بَيِّنٌ وَالْحَرامُ بَيِّنٌ وبينهما أُمورٌ مُشْتبهاتٌ لا يعلمهنّ كثيرٌ من النّاس، فمن اتّقى الشُّبُهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشّبُهات وقع في الْحرام كالرّاعي يرعى حول الْحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإنّ لكلّ ملك حمًى، ألا وإنّ حمى الله محارمه([1])».

ويُقصد بقوله «الْحلالُ بيّنٌ» ما لا يُعاقب عليه أو ما انتفى عنه حكم التّحريم ومنه قول الله تعالى﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾[المائدة:٨٨]. أى تمتّعوا بالحلال الطيّب من المأكل والمشرب والملبس ونحو ذلك، وخصّ الأكل بالذّكر لأنّه أعظم المقصود وأخصّ الانتفاعات للإنسان لقوله ﷺ «إنّ أطيب ما أكل الرّجلُ من كسبه([2])». أمّا «الْحلّ» فإنّه أعمّ من ذلك شرعا لأنّه يُطلق على ما سوى التّحريم، وقد جاء مقابلا له في القرآن والسُّنّة كقول الله تعالى﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾[البقرة:٢٧٥]. وقول الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾[التّحريم:١].

ولـمّا كان الحلال مقابلا للحرام شمل ما عداه من المباح والمندوب والواجب والمكروه مُطلقا عند [الجمهور] وتنزيها عند أبى حنيفة، ولهذا قد يكون الشّىء حلالا ومكروها فى آن واحد [كالطّلاق] فإنّه مكروه وإن وصفه رسول الله ﷺ بأنّه حلال فى قوله من حديث ابن عمر «أبغضُ الْحلال عند الله عزّ وجلّ الطّلاقُ([3])». وعلى ذلك يكون كلّ مباح حلالا ولا عكس [([4])].

أمّا الحرام فضدّ الحلال وهو ما يُعاقب على فعله ولا يُذمّ على تركه، وقيل هو ما ثبتت حرمته بدليل قطعي لا شبهة فيه لقول النّبى ﷺ «الْحلالُ ما أحلّ الله فى كتابه، والْحرامُ ما حرّم الله فى كتابه، وما سكت عنه فهو ممّا عفا عنه([5])». وقد يُسمّى [الحرام] معصية أو ذنبا أو محظورا، وحكمه أنّه لازم التّرك اعتقادًا وعملا فيكفر مستحلّه ويفسُق فاعله ويُعذّب بالنّار، ويُثاب تاركه امتثالاً.

وحرّم الله الشّىءَ جعله [حراما] غير مباح من قوله تعالى﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٢٠٥١] ومسلم [١٥٩٩].

(٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣٥٢٨] والنّسائى [٤٤٦١] وأحمد [٢٥٧٢١].

(٣) أخرجه أبو داود [٢١٧٨] والحاكم [٢٨٤٣] وقال صحيح الإسناد على شرط مسلم.

(٤) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ١ ص ٥٨٥].

(٥) حديث حسن أخرجه التّرمذى [١٧٢٦] وابن ماجه [٢٧٣١].

مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ ﴾[المائدة:٩٦]. وقوله جلّ شأنه ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾[الأعراف:١٥٧]. ومنه الحُرمة: ما لا يحلّ انتهاكه من ذمّة أو حق أو صحبة أو نحو ذلك وجمعها حُرُمَاتٌ [(١)]. من قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ﴾[الحج:٣٠].

ويُقصد بقوله «وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ»: الأمور التي لم يتبيّن حكمها على وجه التّعيين، والمتشابه في اللّغة مأخوذ من التّشابه كقول الله تعالى ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾[آل عمران:٧]. والمتشابه والمشترك والمجمل نظائر من حيث اللّغة وشرعا هو ما اشتبه مراد المتكلّم فيه على السّامع بوقوع التّعارض ظاهرا بين الدّليلين السّمعيين المتماثلين من كلّ وجه، بحيث لا يعرف ترجيح أحدهما على الآخر [(٢)].

(قال) في الفتح [والثّالث مُشتبه لخفائه فلا يدرى هل هو حلال أو حرام، وما كان هذا سبيله ينبغي اجتنابه لأنّه إن كان في نفس الأمر حراما فقد برئ من تبعتها، وإن كان حلالا فقد أُجِرَ على تركها بهذا القصد لأنّ الأصل في الأشياء مُختلف فيه حظرا وإباحة(٣)].

وقد ورد في ذلك قوله ﷺ عن الحسن مرفوعا «دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لاَ يَرِيبُكَ فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيبَةٌ(٤)». وقوله «دَعْ مَا يَرِيبُكَ»: أي اترك ما تشُكُّ في كونه حسنا أو قبيحا أو حلالا أو حراما إلى ما لا تشُكُّ فيه وتتيقّن حُسنه.

والرّيبة اسم مأخوذ من [الرَّيْب]: وهو التُّهْمَةُ والشَّكُّ من رَابَهُ الأَمْرُ - رَيْبًا، وريبةً: الظَّنُّ والتَّرَدُّدُ وجمعه [رِيَبٌ] ومنه قول الله تعالى ﴿وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾[التوبة:٤٥]. وقوله سبحانه ﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾[التوبة:١١٠]. (قال) الخطّابي [كلّ ما شككت فيه فالورع اجتنابه، ثمّ هو على ثلاثة أقسام واجب ومندوب ومكروه:

* فالواجب اجتناب ما يستلزمه ارتكاب المحرّم.
* والمندوب اجتناب معاملة من أكثر ماله حرام.
* والمكروه اجتناب الرُّخَص المشروعة على سبيل التّنطُّع(٥)].

---

(١) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ١ ص ٥٦٤].

(٢) انظر معجم المصطلحات الفقهيّة [ج ٣ ص ٢٠٨].

(٣) انظر فتح الباري [ج ٤ ص ٣٤١].

(٤) حديث صحيح أخرجه أحمد [١٧٢٧] والتّرمذي [٢٥١٨].

(٥) انظر فتح الباري [ج ٤ ص ٣٤٣].

ثمّ يأتي بيان قوله ﷺ «ومَنْ وَقعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ». على وجهين:

(أحدهما) أنّ من لم يتق الله تعالى وتجرأ على الشبهات أفضت به إلى المحرّمات بطريق اعتياد الجرأة والتّساهل فى أمرها، فيحمله ذلك على الجرأة على الحرام المحض، ولهذا قال بعض الصّالحين [الصّغيرة تجرُّ إلى الكبيرة والكبيرة تجرّ إلى الكفر] وهو معنى قوله تعالى ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

(وثانيهما) أنّ من أكثر من مُواقعة الشّبهات أظلم عليه قلبه لفقدانه نور العلم، ونور الورع، فيقع فى الحرام ولا يشعر به، وإلى هذا النّور تأتى الإشارة بقوله تعالى ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزُّمر: ٢٢].

وأصل المال الحلال هو الرّزق الطّيب الذى لا شُبهة للحرام فيه لقوله ﷺ عند ابن ماجه «أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فى الطَّلَب، فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوفِي رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، خُذُوا مَا حَلَّ وَدَعُوا مَا حَرُمَ(١)». وفى رواية «أَجْمِلُوا فِي طَلَبِ الدُّنْيَا فَإِنَّ كُلًّا مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ(٢)». والإجمالُ فى الطّلب الاعتدال وعدم التّفريط.

والقليل من المال كثير ببركته وحلاله لقوله ﷺ من حديث أبى الدّرداء «مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ قَطُّ إِلاَّ بُعِثَ بِجَنْبَتَيْهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ يُسْمِعَانِ أَهْلَ الأَرْضِ إِلاَّ الثَّقَلَيْنِ: أَيُّهَا النَّاس هَلُمُّوا رَبِّكُمْ، فَإِنَّ مَا قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَى، وَلاَ آبَتْ شَمْسٌ قَطُّ إِلاَّ بُعِثَ بِجَنْبَتَيْهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ يُسْمِعَانِ أَهْلَ الأَرْضِ إِلاَّ الثَّقَلَيْنِ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا وَأَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا(٣)». وَقوله «آبت»: أى طلعت وبزغت.

وجاء عند مسلم عن أبى هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال «يَقُولُ الْعَبْدُ: مَالِي مَالِي! إِنَّمَا لَهُ مِنْ مَاله ثَلاَثٌ: مَا أَكَلَ فَأَفْنَى، أَوْ لَبِسَ فَأَبْلَى، أَوْ أَعْطَى فَاقْتَنَى، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ ذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ(٤)». وقوله «فَاقْتَنَى»: أى ادّخر ثوابه لآخرته.

وفى المال الحلال ثلاثة حقوق:

(أولها) حقّ لله تعالى ويتحقّق بإخراج زكاته المفروضة كما فى قول الله تعالى ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذّاريات: ١٩]. وقول الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤ - ٢٥].

---

(١) أخرجه ابن ماجه [١٧٥٦] والحاكم [٨٠٨٩] ووافقه الذّهبى صحيح.

(٢) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [١٧٥٥] وأورده الألبانى فى الصّحيحة [٨٩٨].

(٣) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢١٦١٨] وابن حبّان [٢٤٧٦] وصحّحه الحاكم.

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٩٥٩] والتّرمذى [٢٣٤٢] بألفاظ متقاربة.

(والثانى) حقّ للمسكين والمحتاج كما أحبّ الله تعالى ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾[البقرة:١٧٧] .

(والثّالث) حقّ للنّفس بأن يكون منجاة لصاحبه وعتقا من النّار ووسيلة لعفو الله وإحسانه وهو ما قضاه فى سابق علمه ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [اللّيل:١٧-١٨].

شرّ الكسب المال الحرام

وشرّ الكسب المال الحرام لقوله ﷺ من حديث أبى هريرة «يَأْتِى عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يُبَالِي الْمَرْءُ مَا أَخَذَ مِنْهُ أَمِنَ الْحَلاَلِ أَمْ مِنَ الْحَرَامِ(١)». وجاء عند النّسائى بلفظ «يأْتى عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ مَا يُبَالِي الرَّجُلُ مِنْ أَيْنَ أَصَابَ الْمَالَ مِنْ حِلٍّ أَوْ مِنْ حَرَامٍ(٢)». وفيه ذمّ من لم يبال من حيث كسب المال حلالا كان أم حراما، (قال) ابن التّين [أخبر النبى ﷺ بهذا تحذيرا من فتنة المال، وهو من بعض دلائل نبوّته ﷺ لإخباره بالأمور التى لم تكن فى زمنه، ووجه الذّم من جهة التّسوية بين الأمرين، وإلاّ فأخذ المال من الحلال ليس مذموما من حيث هو(٣)].

وعندما يقذف العبد اللّقمة الحرام في جوفه كما قال النّبى ﷺ فما «يُتَقَبَّلُ مِنْهُ عَمَلُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَأَيُّمَا عَبْدٍ نَبَتَ لَحْمُهُ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ(٤)». وجاء عند أحمد «يَا كَعْبَ ابْنَ عُجْرَةَ إِنَّهُ لاَ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ النَّارُ أَوْلَى بِهِ(٥)». ولفظه عند التّرمذى «إِنَّهُ لاَ يَرْبُو لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ إِلاَّ كَانَتِ النَّارُ أَوْلَى بِهِ(٦)».

والسُّحْتُ أصله من السَّحْت وهو الإهلاك والاستئصال، والسُّحْتُ كلّ مال حرام لا يحلّ كسبه وفى القرآن ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾[المائدة:٤٢]. وسُمِّي بذلك لأنه ينتزع البركة ويمحقها، وسُمِّيت الرّشوة سُحتا كما فى حديث ابن رواحة حين أرسله النّبى ﷺ ليُخرِّص(٧) على أهل خيبر نَخْلَهم وكَرْمَهم وقد عرضوا عليه الرّشوة، فقال «أَمَّا مَا عَرَضْتُمْ مِنَ الرِّشْوَةِ فَإِنَّهَا سُحْتٌ وَإِنَّا لاَ نَأْكُلُهَا(٨)». لكنَّ السُّحْتَ أعمّ من الرّشوة لأنّ السُّحْتَ كلّه حرام لا يحلّ كسبه، وكلّ شىء غير مبارك فيه سُحْتٌ [(٩)].

ولاَ يَقْبَلُ اللهُ الصَّدَقَةَ إلاّ من كسب طيّب حلال لقوله ﷺ «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٢٠٥٩]. (٢) حديث صحيح أخرجه النّسائى [٤٤٦٦]. (٣) انظر فتح البارى [ج ٤ ص ٣٤٧]. (٤) رواه الطّبرانى فى الصّغير [٩١ / ١٠٦]. (٥) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١٤٣٧٨]. (٦) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٦١٤]. (٧) الْخَرْصُ: هو تَقْدِيرُ ما على النّخل من الرُّطَب تَمْراً، وما على الْكَرْمِ من الْعنب زبيبا ليُعْرَفَ مقدارُ عُشْره، ثُمَّ يُخَلَّى بينه وبين مالكه ويُؤْخَذُ ذلك المقدار وقت قطع الثّمار. (٨) انظر الدُّر المنثور [٢ / ٢٨٤]. (٩) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ٢ ص ٢٤٨].

منْ كَسْب طَيِّب ـ ولاَ يقبلُ الله إلاَّ الطَّيِّب ـ فإنَّ الله يتقبَّلُها بيمينه ثُمَّ يُربِّيها لصاحبه كَمَا يُربِّي أَحَدُكُم فلُوَّهُ حتَّى تكُونَ مثْل الْجَبلِ(١)». كما جاء قوله ﷺ من حديث ابن عبّاس «لاَ يغْبطَنَّ جَامعُ الْمَال منْ غَيْر حلِّه، أوْ قَالَ منْ غَيْرِ حَقِّه، فَإنَّهُ إنْ تَصدَّقَ به لَمْ يُقْبَلْ منْه ومَا بَقِيَ كَانَ زَادهُ إلَى النَّار(٢)».

شرّ المال كسب الربا

المقرّر في القرآن أنّ شرّ المال هو «كَسْبُ الرِّبَا» وأنّ الذين يأكلونه ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ [البقرة:٢٧٥]. وقال للمؤمنين ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾[آل عمران: ١٣٠]. فكسب الربا مُهلك ماحق لا بركة فيه ولا نماء كما في قوله تعالى﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾[البقرة:٢٧٦]. وفيه قال رسول الله ﷺ «مَا أَكْثَر أَحدٌ منَ الرِّبَا إلاَّ كَانَ عَاقبَةُ أَمْرِه إلَى قلٍّ(٣)».

وأصل الرّبا الزّيادة، يُقال: «رَبَا الشَّيْءُ يربُو ربْوًا ورُبُوًا» نما وزاد، والاسم «الرِّبا» وأرْبَى الرَّجُلُ أي تعامل بالرّبا، أو أتى الرّبا أو أخذ أكثر ممّا أعطى. (قال) في الفتح [وأصل الرّبا الزّيادة:

(١) إمّا في نفس الشّيء كقول الله تعالى﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصّلت:٣٩]. أي علت، ومنه «الرَّبْوَةُ»: للمكان الزّائد على غيره في الارتفاع.

(٢) وإمّا في مُقابلة كدرهم بدرهمين وهي الاستدانة بالزّيادة وهي فيه حقيقة شرعية(٤)].

ويُطلق الرّبا على كلّ مبيع مُحرَّم ولا خلاف بين المسلمين في تحريمه وإن اختلفوا في تفاصيله، والرّبا في [اصطلاح] الفقهاء زيادة أحد البدلين المتجانسين من غير أن يقابل هذه الزّيادة عوض، ومن أنواعه:

(١) ـ[ربا النَّسيئة] مأخوذ من النّسأ ونَسأ الشَّيْءَ: أخّرَه. والنَّسيءُ التَّأخيرُ، والنَّسيئَةُ الدَّيْنُ الْمُؤَخَّرُ وهو نوعان:

(الأوّل) قلب الدَّين على المعسر وهذا هو ربا الجاهليّة، فيكون للرّجل على الرّجل مَال

(١) أخرجه الحاكم [٢١٨٢] وقال صحيح الإسناد.

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري [١٤١٠] ومسلم [١٠١٤].

(٣) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [١٨٦٢] والحاكم [٨٠٥٧] ووافقه الذّهبي في التّلخيص.

(٤) انظر فتح الباري [ج ٤ ص ٣٦٦].

مُؤجّل فإذا حلّ قال له صاحب الدّين إمّا أن تقضي وإمّا أن تُربي. فإن قضاه وإلاّ زاد الدّائن فى الأجل وزاد فى الدّين مقابل التّأجيل، فيتضاعف الدّين فى ذمّة المدين.

(الثّانى) ما كان فى بيع جنسين اتفقا فى علّة ربا الفضل مع تأخير قبضهما أو قبض أحدهما، كبيع الذّهب بالذّهب أو الفضّة بالذّهب مُؤجّلا بدون تقابض فى مجلس العقد.

(٢) -[رِبَا الْفَضْلُ] وهو الزّيادة في أحد العوضين وجاءت النّصوص بتحريمه فى ستّة أشياء هى الذّهب والفضّة والبُرُّ والشَّعير والتّمر والملح، فإذا بيع أحد هذه الأشياء بجنسه حرم التّفاضل بينهما، ويُقاس على هذه الأشياء السّتة ما شاركها فى العلّة، فلا يجوز بيع شيء منها بجنسه إلاّ مثْلاً بمثل سواء بسواء يدا بيد.

لكن يجوز بيع كيلو ذهب بكيلوين فضّة إذا كان يدا بيد لاختلاف الجنس كما في قوله ﷺ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه «الذّهَبُ بالذّهَب وَزْنًا بوَزْنٍ مثلاً بمثْلٍ، وَالْفضَّةُ بالْفضَّة وَزْنًا بوَزْنٍ مثْلاً بمثْلٍ، فَمَنْ زَادَ أَو اسْتَزَادَ فَهُوَ ربًا[1]». وفى رواية عبادة ابن الصَّامت «سواءٌ بسواءٍ، يداً بيدٍ، فإذَا اخْتَلَفتْ هَذه الأَصْنَافُ فَبيعُوا كَيْفَ شئْتُمْ إذَا كَانَ يَداً بيَدٍ[2]».

وتركُ الرّبا وأكله شرط لصحّة الإيمان كما فى قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[البقرة:٢٧٨]. وآكل الرّبا؛ ومُؤكله؛ وكاتبه؛ وشاهداه؛ ملعونون على لسان نبى الإسلام ﷺ إلى يوم القيامة لحديث جابر ابن عبد الله رضي الله عنه قال «لَعَنَ رَسُولُ الله ﷺ آكلَ الربَا؛ وَمُؤْكلَهُ؛ وَكَاتبَهُ؛ وَشَاهدَيْه، وَقَالَ هُمْ سَوَاءٌ[3]». وفيه تصريح بتحريم الكتابة بين المترابين والشّهادة عليهما وفيه تحريم الإعانة على الباطل.

والمرء فى حظّه مع المال بين أمرين:

(١) إمّا ابتلاء فيه بالغنى لينظر ماذا هو فاعل به كقوله تعالى ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾[الأنفال:٢٨].

(٢) وإمّا امتحان فيه بالحرمان والْعَوَز لينظر كيف صبره عليه كما فى قول الله تعالى ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[البقرة:١٥٥]. وقد جمع الله تعالى ذلك كلّه فى قوله تعالى ﴿لَتُبۡلَوُنَّ

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٨٤/١٥٨٨].

(٢) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٨١/١٥٨٧] وأبو داود [٣٣٤٩].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٥٩٨] وأبو داود [٣٣٣٣].

﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

فابتلاء الغَنى لا يُواجه إلاّ بالشّكر الذى يتضمّن الاعتراف بالنّعم باطنا، والتّحدُّث بها ظاهرا، ثمّ تصرِيفها فى الوجه الذى يُرضى الخالق جلّ وعلا، أمّا الافتقار إلى المال والحاجة إليه فلا يُواجه إلاّ بالصّبر والاحتمال والتّسليم لأمر الله تعالى، وحَسْبُ المرء من شرف الفقر أن لا يرى أحدا يعصى الله ليفتقر، وقد قيل [الْغَنِىُّ من كثُرت حسناته والفقير من قلّ نصيبه منها]. وقيل لابن عمر رضي الله عنهما [توفّى زيد بن حارثة وترك مائة ألف درهم!. قال لكنّها لا تتركه(١)].

وجاء عن أبى معتمد السُّلمىّ رضي الله عنه قال [النّاسُ ثلاثةُ أصناف أغنياء وفقراء وأوساط، فالفقراءُ موتى إلاّ مَنْ أغناه الله بعزّ القناعة، والأغنياءُ سُكارى إلاّ مَنْ عصمهُ اللهُ فتنةَ المال، وأكثرُ الخير مع أكثر الأوساط، وأكثرُ الشّرّ مع الفقراء والأغنياء لسَخْف الفقر وبَطَرِ الْغِنَى(٢)].

وعن عبيد الله بن عمير «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يَانَبِىَّ الله مَالى لاَ أُحبُّ الْمَوْتَ؟ قَالَ لَهُ هَلْ لَكَ مِنْ مَالٍ؟ قَالَ نعم. قَالَ قَدِّمْهُ بَيْنَ يَدَيْكَ. قَالَ لاَ أُطِيقُ ذَلكَ، قَالَ فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ إِنَّ الْمَرْءَ مَعَ مَاله، إِنْ قَدَّمَهُ أَحبَّ أَنْ يَلْحقَ به وَإِنْ أَخَّرَهُ أَحَبَّ أَنْ يَتَخَلَّفَ عَنهُ(٣)». وخيرية المال ليست لذاته فقط بل بحسب ما يتعلّق به وإن كان يُسَمَّى خيرا فى الجملة، وكذلك صاحب المال الكثير فإنّه ليس غنيًا لذاته بل بحسب تصرّفه فيه:

(١) فإن كان فى نفسه غنيّا فإنّه لا يتوقّف عن صرفه فى الواجبات والمستحبّات من وجوه البرّ والقُربات.

(٢) وإن كان فى نفسه فقيرا أمسكه وامتنع من بذله فيما أُمر به خشية نفاده.

فهو على الحقيقة فقير [صورة ومعنى] وإن كان المال تحت يده، لكونه لا ينتفع به لا فى الدّنيا ولا فى الآخرة بل ربّما كان وبالاً عليه، وقد قال النّبى ﷺ للرّجل لـمّا سأله «أَنْ تَصدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغنى، وَلاَ تُمْهِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغت الْحُلْقُومَ قُلْتَ لِفُلاَنٍ كَذَا وَلِفُلاَنٍ كَذَا، وَقَدْ كَانَ لِفُلاَنٍ(٤)».

كما أنّ حقيقة الغنى ليست فى كثرة المال وعَرَض الدّنيا لأنّ كثيرا ممّا وسّع الله

---

(١) انظر عيون الأخبار لابن قتيبة [ج ٣ ص ٢٤٦].

(٢) انظر المصدر السّابق [ج ٣ ص ٣٣١].

(٣) انظر عيون الأخبار لابن قتيبة [ج ٦ ص ٣٠٨].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [١٤١٩] ومسلم [١٠٣٢].

عليه في المال لا يقنع بما أُوتي، فهو يجتهد في الازدياد ولا يبالي من أين يأتيه فكأنّه فقير لشدّة حرصه، والسّعيد من استغني بما أُوتي وقنع به ولم يحرص علي المزيد كما جاء ذلك صريحا في قوله ﷺ «لَيسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، ولَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفسِ(١)».
والعَرَضُ عند أهل اللُّغة:

(١) إذا كان بالسُّكون فهو جميع صنوف الأموال غير الذّهب والفضّة وجمعه عروض.

(٢) أمّا العَرَضُ بفتح الرّاء فما يُصيبه الإنسان من حظّه في الدّنيا ومنه قوله تعالى ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾[الأنفال: ٦٧].

(قال) القرطبي [معنى الحديث أنّ الْغنى النّافع أو العظيم أو الممدوح هو غنى النّفس، وبيانه أنّه إذا استغنت نفسه كفَّت عن المَطامع فعزّت وعظُمت، وحصل لها من الحُظوة والنّزاهة والشّرف والمدح، أكثر من الغنى الذي يناله مَنْ يكون فقير النّفس لحرصه الذي يورّطه في رذائل الأمور وخسائس الأفعال لدناءة همّته وبخله، والحاصل أنّ المتّصف بغنى النّفس يكون قانعا بما رزقه الله تعالى، فلا يحرص على الازدياد لغير حاجة، ولا يلحّ في الطّلب لغير ضرورة، ولا يلْحَف في السّؤال، بل يرضى بما قسم الله له فكأنّه واجدٌ أبدا، والمتّصف بفقر النّفس على الضّد منه لكونه لا يقنع بما أُعطي، بل هو أبدا في طلب الازدياد من أيّ وجه أمكنه ثمّ إذا فاته المطلوب حزن وأسف(٢)].

وغنى النّفس يتحقّق بغنى القلب عندما يفتقر إلى ربّه تعالى في جميع أموره، فيتحقّق له أنّه المعطى المانع فيرضى بقضائه ويشكره على نعمائه، ويفزع إليه في كشف ضرّائه، فينشأ عن افتقار القلب لربّه غنى نفسه عن غير ربّه تعالى، ونبرز فيما يلي أهمّ العوامل السّلبيّة المؤثّرة في تعامل النّفس الإنسانيّة مع المال وفتنته:

(ا) التّعوُّذ من فتنة الغنى

الغنَى لغة ضدّ الفقر ومنه [غَنِيَ] فُلاَنٌ غِنًى وغَنَاءً: كَثُرَ مَالُهُ فهو [غَنِيٌّ] إذا صار موسّعًا مُستغنيًا لكثرة ما عنده من الأموال، وتأتي فتنة الغنى من الحرص على جمع المال وحبّه حتّى يُكتسب من غير حلّه، وإنفاقه في غير وجهه، والبخل به عن مستحقيه ومنع الحقوق الواجبة فيه والتّفاخر به، وهو الأمر الذي استعاذ منه رسول الله ﷺ بقوله كما في حديث عائشة «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ النَّارِ وَعَذَابِ النَّارِ وَفِتْنَةِ

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٤٤٦] ومسلم [١٠٥١] والتّرمذى [٢٣٧٣].
(٢) انظر فتح البارى [ج ١١ ص ٢٧٧].

الْقَبْرِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَشَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى وَشَرِّ فِتْنَةِ الْفَقْرِ (١)». والتّقييد فى الاستعاذة من الغنى بالشّر يُخرِج ما فيه من الخير سواء قلّ أم كثر لوجود الخير فيه باعتبار أنّ كلّ الغنى ليس بشرٍّ.

(قال) الكرماني: [صرّح فى فتنة الغنى بذكر الشّر إشارة إلى أنّ مضرّته أكثر من مضرّة غيره، أو تغليظا على أصحابه حتّى لا يغترّوا فيغفلوا عن مفاسده، أو إيماء إلى أنّ صورته لا يكون فيها خير بخلاف صورة الفقر فإنّها قد تكون خيرا (٢)]. فتأتى استعاذة النّبى ﷺ من الأمور المترتّبة على الغنى كالكبر، والعُجب، والشّره، والحرص، وجمع المال الحرام، والبخل، وكالتّضجُّر، والتّبرُّم من القدَر، والوقوع فى المساخط النّاشئة من فتنة الفقر.

(٣) الاستعاذة من فتنة الفقر

ويراد به [الفقر المُدْقِعُ] الذى يُفضى بصاحبه إلى الْهَمِّ والمذلّة واختلال الحال ولا يصحبه خير ولا ورع حتّى يتورّط بسببه فيما لا يليق بأهل الدّين والمروءة، ولا يبالى بسبب فاقته على أىّ حرام وثب ولا فى أىّ باطل تورّط.

وكما استعاذ رسول الله ﷺ من الغنى الذى لا يُطوّع لروح الدّين والشّرع فإنّه استعاذ كذلك من كلّ أنواع الفقر التى ربّما تقود إلى السّخط وعدم الرّضا بقضاء الله وقلّة الصّبر والوقوع فى الحرام كما فى قوله ﷺ من حديث أبى هريرة «تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الْفَقْرِ وَالْقِلَّةِ وَالذِّلَّةِ وَأَنْ تَظْلِمَ أَوْ تُظْلَمَ (٣)». وفى رواية النسائى «اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ (٤)». وجاء عند البخارى «وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ فِتْنَةِ الْفَقْرِ (٥)».

(قال) النّووى [أمّا استعاذته ﷺ من فتنة الغنى وفتنة الفقر فلأنّهما حالتان تخشى الفتنة فيهما بالتّسخُّط والضّيق وقلّة الصّبر، والوقوع فى حرام أو شبهة للحاجة، ويخاف فى الغنى من الأشر والبَطر والبخل بحقوق المال أو إنفاقه فى إسراف أو فى باطل أو فى مفاخر (٦)].

ومن نصائح أمير المؤمنين على لابنه [يَابُنَىَّ إِنِّى أَخَافُ عليك الفقر فاستعذ بالله منه،

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٣٧٧] ومسلم [٤٩].

(٢) انظر فتح البارى [ج ١١ ص ١٨١].

(٣) حديث صحيح أخرجه النّسائى [٥٤٧٦].

(٤) حديث صحيح أخرجه النّسائى [٥٤٧٥] والبخارى فى الأدب المفرد [٦٧٨].

(٥) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٣٧٦] ومسلم [٥٨٧].

(٦) انظر نووى مسلم [ج ٩ ص ٣٤].

فإنّ الفقر منقصةٌ للدّين، مدهشةٌ للعقل، داعيةٌ للمقت]. وكونه «منقصةً للدِّين» فلأنه إذا اشتدّ ربّما يحمل المرء على الخيانة أو الكذب أو احتمال الذّل أو القعود عن نُصرة الحقّ وكلّها نقص في الدِّين، وقد قيل [إنّ العجز والتّوانى تزاوجا فأنتجا الفقر].
وللفقر معان متعدّدة منها :

(١) العَوَزُ والحاجة الضّروريّة وذلك عام للإنسان ما دام في الدّار الدُّنيا.

(٢) فقر النّفوس وهو شرهُها وطمَعُها وهو المعْنىُّ بقولهم [مَنْ عَدِمَ الْقَناعة لَمْ يُفدْهُ الْمَالُ غنًى]. وبقوله ﷺ في شأن المال «وَمَنْ أَخَذَهُ بإِشْرَاف نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فيه وَكَانَ كَالَّذِى يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ[١]». وقوله ﷺ «كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْراً[٢]». وهو المقابل بقوله ﷺ عند البخارى «وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ».

(٣) ومنه عدم المقتنيات وقلّة المال كما في قولهم [افْتَقَرَ الرَّجُلُ] : إذا قلّ ماله، أمّا قوله ﷺ في الحديث «والْقِلَّةُ» ففيه تفسير للفقر إن أُريد به فقر المال، وإن أُريد به فقر النّفس كان مُغايرا له.

(٤) دوام الافتقار إلى الله تعالى في كلّ حال وأن يشهد العبد في كلّ ذرّة من ذرّاته الظّاهرة والباطنة فاقته التّامّة وحاجته الملحّة إلى الله من كلّ وجه وفي كلّ وقت من قوله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر : ١٥].

فكلّ ما سوى الله فقير إليه وليس للعبد شىء يقدم به على ربّه سوى الافتقار إليه حتّى يصير أمره كلّه لله عزّ وجلّ فلا يبقى عليه بقيّة من نفسه وحظّه وهواه، فمتى بقى عليه شىء من أحكام النّفس ففقره مدخول، ومن أحسن ما يتوسّل به العبد إلى خالقه ومولاه دوام الافتقار إليه على جميع الأحوال، وملازمة السُّنّة في جميع الأفعال، وطلب القوت من وجه حلال.

كما لا يتحقّق الفقر الحقيقى للعبد إلّا من خلال «عِلْم» يسوسه، و«وَرَع» يحجزه، و«يقين» يحمله و«ذِكْرٍ» يؤنسه، فإذا صحّ الافتقار إلى الله تعالى على هذه الأركان فقد صحّ الاستغناء بالله تعالى، وإذا صحّ الاستغناء بالله سبحانه تحقّق كمال الغنى به، فإنّ الاستغناء به هو عين الافتقار إليه سبحانه [[٣]].

(٣) الاستعاذة من الشّح والبخل

الشُّحُّ والبُخْلُ من القضايا التى تعرّض لها القرآن وأبرز خطورتها وأثرها السّلبى على المجتمع الإسلامى، وبيّن في عديد من الآيات المُحكمات أنّ الشُّح والبُخل من الأمور المنكورة

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٠٣٥] وافقه البخارى [١٤٧٢] والتّرمذى [٢٤٦٣].
(٢) أورده في كنز العمّال [٢ / ١٦٦].
(٣) انظر مدارج السّالكين [ج ٢ ص ٤٤٠].

التى تحول دون إنفاق المال فى سبيل الله تعالى ونصرة دينه وصرفه إلى المستحقّين إليه وفى ذلك جاء قوله تعالى ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾ : والمعنى أنّ النبى ﷺ يأمركم بإلحاح المستقصى فى السّؤال أن تنفقوا فى سبيل الله تعالى إلاّ أنّ استجابتكم تمثّلت فى هذا البخل البيّن الذى أخرج أضغانكم وكشف عيوبكم وبيّن الشّح الذى أظهر عورات نفوسكم.

والبُخْلُ والبَخَلُ فى اللّغة أن يمنع الإنسان الحقّ الواجب عليه كهذا الذى يمنع زكاة ماله إذا بلغ نصابه، أو منع السّائل من عطائه ومنه قوله ﷺ «مَا مِنْ أَحَدٍ لاَ يُؤَدِّى زَكَاةَ مَاله إلاَّ مُثِّلَ لَهُ يومَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ حَتَّى يُطَوِّقَ عُنُقَهُ[(١)]». وفى رواية أبى عبيد «يَجِيءُ كَنْزُ أَحَدِهِمْ يومَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ[(٢)]».

[قال] : وإنّما سُمِّىَ «شُجَاعًا أَقْرَعَ» لأنّه «يَقْرِى السُّمَّ فى رَأْسهِ حَتَّى يَتَمَعَّطَ مِنْهُ شَعْرُهُ». وجاء فى حديث آخر «شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَان». وهما النُّكتتان السّوداوان فوق عينيه، وهو أوحش ما يكون من الحيّات وأخبثُهُ [(٣)]. (قال) عياض [«الشُّجَاعُ» هو نوع من الحيّات التى تُواثب الفارس والرّاجل ويقوم على ذَنَبه وهو من أقبح الحيّات منظرا].

واختُلف فى الشُّح والبُخلِ هل هما بمعنى واحد أم بمعنيين، فقيل: البُخل الامتناع من إخراج ما تملكه من بَخِلَ بَخَلاً وبُخْلاً: ضَنَّ بما عنده فهو بَاخِلٌ وبَخِيلٌ، والشُّحُّ : الحرص على تحصيل ما ليس لك. و(قال) أبو البقاء [البخل هو نفس المنع من شَحَّ فُلاَنٌ بالشّىء: بَخِلَ به فهو شَحِيحٌ، والشُّحُّ: الحالة النّفسيّة التى تقتضى ذلك المنع[(٤)]]. ومن ذلك يتّضح الفرق بين الاثنين:

(١) (فَالشُّحُّ) : هو شدّة الحرص على الشّىء والإحفاء فى طلبه والاستقصاء فى تحصيله وجشع النّفس عليه.

(٢) و(الْبُخْلُ) : منع إنفاقه بعد حصوله وحبّه وإمساكه.

وعلى ذلك فإنّ الشُّح ينطوى على [بُخْلٍ] يُمسك و[حرْصٍ] يَمنع ومنه قوله تعالى ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [الأحزاب: ١٩] . أى على المال أن ينفقوه فى سبيل الله تعالى، فهو [شَحيح] قبل تحصيله له [بَخيلٌ] بعد حصوله عليه، فالبُخل ثمرة الشُّح والشّح يدعو إلى البُخل، والشُّحُّ كامن فى النّفس، فمَنْ بَخل فقد أطاع شُحّه ومن

---

(١) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٣٠١٢] والنّسائى [٢٤٤٠] وابن ماجه [١٤٥٥].

(٢) أخرجه أبوعبيد فى غريب الحديث [٤٠٧].

(٣) انظر غريب الحديث (ج ٣ ص١٣١].

(٤) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ٢ ص ٣٢١].

لم يبخل فقد عصى شُحَّهُ ووقى شرّه، وذلك هو المُفلح من قول الله تعالى ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وجاء عند البخارى عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنْ خَمْسٍ «مِنْهَا»: الْجُبْنُ وَالْبُخْلُ(١)». ويتأيّد هذا بقوله ﷺ من حديث سعد «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ(٢)». كما كان رسول الله ﷺ «يَتَعَوَّذُ مِنَ الشُّحِ وَالْجُبْنِ وَفِتْنَةِ الصَّدْرِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ(٣)».

وإذا كان الإيمان والبُخل لا يجتمعان فكذلك الشُّح والإيمان لا يلتقيان فى قلب رجل مسلم أبداً كما فى قوله ﷺ من حديث أبى هريرة «لاَ يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فى سَبِيلِ اللهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِي مَنْخَرَىْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ أَبَداً، وَلاَ يَجْتَمِعُ شُحٌّ وَإِيمَانٌ فِى قَلْبِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ أَبَداً(٤)». وهذا يدلّ على أنّ الشّح أشدّ فى الذّم من البخل.

ولـمّا كان الشُّحُّ من المُهلكات جاء التّحذير منه في قوله ﷺ «وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ(٥)». كما أنّ التّعوُّذ من الشُّحِّ والبخل يُحقّق السّلامة من ضررهما، ويُقوِّى لدى المسلم دوافع الجود والكرم، ويعمل على خلق مجتمع التّكافل والتّراحم بين المؤمنين.

وإذا كان الشّحُّ أمرا مذموما فإنّ «الاقتصاد» خُلُقٌ محمود يتولّد من خُلُقَين هما العدل والحكمة، «فبالعدل»: يعتدل فى البذل والمنع، و«بالحكمة» يضع كلّ واحد منهما فى موضعه الذى يليق به، فيتولّد من بينهما «الاقتصاد فى الأمور» وهو وسط بين طرفين مذمومين هما الإسراف والتّقتير كما فى قول الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

أمّا الشّحُّ فهو خلقٌ ذميم كريه يتولّد من سُوء الظّن بالله وضعف النّفس ويمدّه وعد الشّيطان حتّى يصير «هَلَعٌ» يسيطر على تصرُّفات المرء وحياته، والهلع: شدّة الحرص على الشّىء والشّره به، فيتولّد عنه «الْمَنْعُ» لبذله «وَالْجَزَعُ» لفقده كما جاء بذلك قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾. ويُفسّر ذلك ما رواه أبو داود عن أبى هريرة من قوله ﷺ «شَرُّ مَا فِى رَجُلٍ شُحٌّ هَالِعٌ

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٢٨٢٢] والنّسائى [٥٤٦٢].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٣٦٥] والنّسائى [٥٤٦٠] والتّرمذى [٣٥٦٧].

(٣) حديث صحيح أخرجه النّسائى [٥٤٩٧] وفى عمل اليوم واللّيلة برقم [١٣٥].

(٤) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [١٦٣٣] والنّسائى [٣١١٤] وابن ماجه [٢٢٥٦].

(٥) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٥٧٨].

وَجُبْنٌ خَالِعٌ[1]». ومعناه أنّ الشحّ الذى يمنعه من إخراج الحقّ الواجب عليه أشدّ من البُخل، فإذا استُخرِجَ منه هَلَعَ وجزع فشحّ ومَنع، أمّا «الْجُبنُ الْخَالِعُ» فهو الشّديد الذى ينخلع فؤاده من شدّته.

(٤) التّعوّذ من غلبة الدَّيْن

الدَّيْنُ كلّ ما ثبت فى الذّمة من مال بسبب يقتضى ثبوته ولا يسقط إلاّ بالأداء أو الإبراء، وهو الذى فرض القرآن الكريم كتابته لأجَله بإشهاد كما فى قول الله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾[البقرة: ٢٨٢].

ومنه ذهب البعض إلى أنّ كَتْبَ الدّيون واجب على أربابها، مفروض بهذه الآية بيعا كان أو قرضا لئلاّ يقع فيه نسيان أو جحود، والجمهور على أنّ الأمر بالكتابة ندب إلى حفظ الأموال وإزالة الرّيب وإذا كان الغريم تقيّا فما يضرّه كتاب.

ووُصفت استدانة من لم يستطع الأداء «بغَلَبَة الدَّيْن»: من شدّة قهره لصاحبه وهو الأمر الذى تعوَّذ منه رسول الله ﷺ بقوله «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ[2]». والغلبة من [غَلَبَه] غلبًا وغَلَبَةً: قَهَرَهُ هَمُّهُ واستولى عليه، والموافق للحديث هو الدَّيْنُ الذى يُفضى إلى المعصية بواسطة العجز عن الأداء وهو الذى سمّاه رسول الله ﷺ «ضَلَعُ الدَّيْن». أى ثقلُه وشدّتُه لما فى حديث أنس «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحزَنِ وَضَلَعِ الدَّيْنِ وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ[3]».

وأصل الضَّلَعِ الاعوجاج والميل. يقال ضَلَعَ [بفتح اللام] يَضْلَعُ: أى مال ومنه قولهم «أَضْلَعَتْهُ الْخُطُوبُ» أى أثقلته واشتدّت عليه، وسُمّى بذلك لأنّه يميل بصاحبه عن طريق الاستواء عندما يعجز عن الوفاء بالدَّين مع إلحاح الدّائن فى السّداد، وقد قيل [مَا دَخَلَ هَمُّ الدَّيْن قَلْبًا إِلاَّ أَذْهَبَ مِنَ الْعَقْلِ مَا لاَ يَعُودُ إِلَيْه].

وكان [الدَّيْنُ] من أكثر ما استعاذ منه رسول الله ﷺ كقوله «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَالْهَرَمِ وَالْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ[4]». وفى رواية البخارى «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَالْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ[5]». و[المغْرَمُ] الدَّيْنُ، و[الْغُرْمُ] الغرامة والدَّين الثَّقيل، من قول الله تعالى ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾[الطّور: ٤٠]. و[المُغْرَمُ] بضمّ الميم وفتح

---

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٢٥١١].

(٢) أخرجه النّسائى بإسناد صحيح [٥٥٠٣] وأحمد [٦٦١٨] والحاكم [١٩٨١].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٣٦٩] ومسلم [٢٧٠٦].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٣٦٨] والنّسائى [٥٤٨١].

(٥) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٣٧٧] ومسلم [٥٨٧].

الرّاء «اسم مفعول» وهو المثقل بالدّين ومنه قوله ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٦]. وقوله ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٠]. أى المدينين أو الملزمين بدفع دين [(١)].

والاستدانة لا تقود صاحبها إلاّ إلى الإثم [بالكذب] فى الحديث و[الخُلْف] في الوعد لما في رواية النّسائي من حديث عائشة قالت «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ أَكْثَر ما يتعوَّذُ من الْمَغْرَم، فَقُلْتُ يارَسُول الله ما أَكْثَر ما تتعوَّذُ من الْمَغْرَمِ؟ قَالَ: إِنَّهُ مَنْ غَرِمَ حَدَّث فَكَذَبَ وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ(٢)». ويشير فيه رسول الله ﷺ إلى الضّرر اللاّحق من المغرم الذى يضطر معه صاحبه إلى أمرين خطيرين هما:

(١) الْكَذِبُ فى الحديث الذى ربّما يلجأ إليه المدين لخلق الأعذار المبرّرة لعدم الوفاء بالدّين.

(٢) الْخُلْفُ فى الوعد الذى يترتّب على كذبه وقطعه على نفسه للسّداد هروبا من الوفاء به، وهذا شأن من يستدين غالبا [(٣)].

وفى الأحاديث الدّلالة على التّنفير من الدَّيْن لحمله المدين على ارتكاب الكذب والخُلْف فى الوعد اللّذين هما من صفات المنافقين، ولأنّه قد ينشغل به قلبه، وربّما مات قبل وفائه فبقيت ذمّته مرتهنة به.

ومن القاضيات للدَّيْن المُذهبات للهمّ والغمّ تلك الدّعوات التى دعا بها رسول الله ﷺ وعَلّم أبا أمامة أن يستعيذ بها عندما قال له «يَا أَبَا أُمَامَةَ مَالي أَرَاكَ جَالِسًا فِي الْمَسْجِد فِي غَيْرِ وَقْت الصَّلاَة؟ قَالَ هُمُومٌ لَزِمَتْنِي وَدُيُونٌ يَارَسُولَ الله، قَالَ أَفَلاَ أُعَلِّمُكَ كَلاَمًا إِذَا قُلْتَهُ أَذْهَبَ اللهُ هَمَّكَ وَقَضَى عَنْكَ دَيْنَكَ؟ قَالَ قُلْتُ بَلَي يَارَسُولَ الله، قَالَ قُلْ إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَن، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَة الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَال، قَالَ فَفَعَلْتُ ذَلكَ فَأَذْهَبَ اللهُ هَمِّى وَقَضَى عَنِّى دَيْنِى(٤)». ويُستدلّ من الحديث:

(١) أنّ في ذكر الله تعالى والتّعوُّذ به تفريجا للكروب وقضاءً للدّيون لقول أبى أمامة «فَفَعَلْتُ ذَلكَ فَأَذْهَبَ اللهُ هَمِّى وَقَضَى عَنِّى دَيْنِى».

(٢) استحباب تكرار هذه الاستعاذة فى الصّباح والمساء كما فى قوله ﷺ «قُلْ إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ».

---

(١) انظر المصباح المنير [ص ٤٤٦]. والقاموس القويم للقرآن الكريم [٢ / ٥٢]. (٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٨٣٢] ومسلم [٥٨٩]. (٣) انظر فتح البارى [ج ٢ ص ٣٧٢]. (٤) أورده أبوداود [١٥٥٥] بإسناد ضعيف.

(٣) استحباب اللُّجوء إلي الله تعالي عند النّوازل والكروب للدُّعاء والاستغفار لقوله ﷺ «مالي أَرَاكَ جَالسًا في الْمَسْجد في غَيْرِ وَقْت الصَّلاَة». وفيه الإشارة إلى أنّ ما ألجأه إلى الجلوس في المسجد إلاّ الغموم التي لزمته والدُّيون التي أثقلت كاهله.

كما أنّ في قوله ﷺ «في غَيْرِ وَقْت الصَّلاَة»: إشارة إلى أهميّة الكدّ والتّعب في سبيل لقمة العيش وعدم الرُّكُون إلى التّكاسل عن السّعي في طلبها، لذلك جمع رسول الله ﷺ بين الاستعاذة من غَلَبة الدَّين والهمّ والحَزَن لكونهما مُحصّلة حتميّة لغلبة الدّين في حياة المرء، ثمّ كان التّلازم في الاستعاذة بينها وبين العجز والكسل لكون العجز ضدّ [الاقتدار] الموجب للسّعي والعمل، والكسل الذي هو ضدّ [النّشاط] المؤدّي للكسب والعطاء.

ولقد جاء الشّرع بالتّيسير علي المُعسر وإنظاره لقوله ﷺ «مَنْ يَسَّرَ عَلَي مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللّهُ عَلَيْه في الدُّنْيا وَالأخرة، ومَنْ سَتَرَ مُسلماً سَتَرَهُ اللّهُ في الدُّنْيا والآخرة، وَاللّهُ في عَوْنِ الْعَبْد مَا كَانَ الْعَبْدُ في عَوْنِ أخيه[١]». كما جاء قوله ﷺ عن أبي الْيَسَرِ «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُظلَّهُ اللّهُ في ظلِّه فَلْيُنْظرْ مُعْسراً أَوْ لِيَضعْ لَهُ[٢]».

وروى مسلم في صحيحه عن عبادة بن الوليد قال «خَرَجْتُ أَنَا وَأَبي نَطْلُبُ الْعلْمَ في هَذَا الْحَيِّ منَ الأَنْصَار، فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ لَقينا أَبَا الْيَسَرِ صَاحب رَسُول اللّه ﷺ وَمَعَهُ غُلامٌ لَه، مَعهُ ضمَامَةٌ [٣] من صُحُف» قالَ فقَالَ لَهُ أبي «يَاعَمّ إنِّي أرَى في وَجْهكَ سُفْعَة [٣] من غَضَبٍ؟ قَالَ أَجلْ، كَانَ لي عَلَي فُلاَن بْن فُلاَن مَالٌ، فَأَتَيْتُ أَهْلَهُ فَسَلَّمتُ، فَقُلْتُ ثَمَّ هُوَ؟ قَالُوا لاَ. فَخرجَ عَلَيَّ ابنٌ لَه جَفرٌ [٤] ..».

«.. فقُلْتُ لَهُ أينَ أبُوك؟ قَالَ سَمعَ صَوْتَكَ فَدخَلَ أَريكَةَ أُمّي. فَقُلْتُ اخْرُجْ إِلَيَّ فَقَدْ عَلمْتُ أَيْنَ أَنْتَ!، فَخرَجَ، فَقُلْتُ مَا حَمَلَكَ عَلَى أَن اخْتَبَأْتَ منِّي؟ قَالَ أنَا وَاللّهُ أُحدّثُكَ ثُمَّ لاَ أَكْذبُكَ، خَشيتُ وَاللّه أَنْ أُحدِّثَكَ فَأَكْذبَكَ وأَنْ أعدَكَ فَأُخْلفَكَ، وكُنْتَ صَاحبَ رَسُول اللّه ﷺ، وكُنْتُ وَاللّه مُعْسراً، قَالَ قُلْتُ: آللّه! - ثَلاثًا - [٥] قَالَ اللّهُ. قَالَ فَأَتَى بصَحيفَته فَمحَاهَا بيَده فَقَالَ إنْ وَجَدْتَ قَضَاءً فَاقْضني وإلاَّ أَنْتَ في حلٍّ، ثُمَّ قَالَ: فَأَشْهَدُ بَصَرُ عَيْنَيَّ هَاتَيْن وسَمعُ أُذُنَيَّ هَاتَيْن ووَعَاهُ قَلْبي هَذَا - وأشَارَ إلَى مَناط قَلْبه - رَسُولَ اللّه ﷺ هُوَ يَقُولُ: مَنْ أَنْظَرَ مُعْسراً أَوْ وَضَعَ عَنْهُ أَظَلَّهُ اللّهُ في ظلِّه[٦]».

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٩٩] وأبو داود [٤٩٤٦] وابن ماجه [١٨٥].

(٢) حديث صحيح أخرجه أحمد [١٥٥٢٠] وابن ماجه [١٩٧٨].

(٣) الضِّمَامَةُ الرِّزْمَةُ منَ الْوَرَق يُضَمّ بَعْضُهَا إلى بعض، والسُّفْعةُ تغيّر لون الوجه.

(٤) الْجَفرُ الذي قارب البلوغ.

(٥) [آللّه] جاءت بهمزة ممدودة على سبيل الاستفهام.

(٦) حديث صحيح أخرجه مسلم [٧٤ / ٣٠٠٦] وابن ماجه مختصرا [١٩٧٨].

وهذه الرّواية بكلّ جلالها وما تحمله من قيَم إسلامية خالدة لتسجّل تلك القصّة التي تتكرّر كلّ وقت من الدّائن مع مدينه، والمدى الذى وصل إليه المدين فى التّخفّى من دائنه عندما استخفي وراء الأريكة لإعساره وعدم استطاعته قضاء دينه، ثمّ خشيته من أن يُحدِّث صاحب الدَّين عن عذره «فَيَكْذبْ» أو أن يعدَه بالوفاء «فَيُخْلف». إلاّ أنّ أبَا الْيَسرِ وهو الصّحابى الجليل الذى استشرب أخلاقَه من أخلاقِ نبيّه ﷺ استحضر فى حينه أمرين:

* إمّا أن يُنظره إلى حين ميسرة.

* أو أن يتنازل عن حقّه فى الدَّيْنِ.

ثمّ أتي من فوره بصحيفة الدَّين فمحاها بيده وقال له «إنْ وَجَدْتَ قَضَاءً فَاقْضِني وَإلاَّ فَأنْتَ في حلٍّ». إنّه اختار رضي الله عنه التّنازُل عن حقّه بعدما أشْهَد عينيه وسَمعَ أُذُنَيْه وما وَعَاهُ قَلْبُهُ أنّه رأى وسمع النّبى ﷺ يقول «مَنْ أنْظرَ مُعْسراً أوْ وَضعَ عَنْهُ أظَلَّهُ اللهُ في ظلِّه».

وإذا كانت فائدة الدَّيْن تُحتسب باليوم والسّاعة فإنّ إنْظَارَ الْمَدينِ بعد حلِّه مع [الفارق] يكون ثوابه كذلك باليوم والسّاعة لقوله ﷺ من حديث بُريدة رضي الله عنه «مَنْ أنْظَرَ مُعسِراً كَانَ لَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ صَدقَةٌ، ومَنْ أنْظَرَهُ بَعْدَ حِلِّه كَانَ لَهُ مِثْلُهُ في كُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ[1]».

(٥) الاستعاذة من فتنة الجوع

كما ثبت تعوّذ النّبى ﷺ من فتنة الجوع لقوله من حديث أبى هريرة «اللَّهُمّ إنّي أعُوذُ بكَ منَ الْجُوعِ فإنَّهُ بِئسَ الضَّجيعُ، وأعُوذُ بكَ منَ الْخيَانَة فإنّها بئسَت الْبطَانَةُ[1]». ويقصد بالجوع في الحديث الألم الحاصل من منع الطّعام وخلوّ المعدة من الغذاء إمّا [بالحرمان] منه فقرا؛ وإمّا [بعدم التّحصّل] على القليل منه استطاعة، وفى ذمّه ﷺ للجوع إشارة إلى أنّ المراد به الجوع الذى يضرّ الإنسان ويُضعفه عن العبادة والطّاعة.

وتأتى استعاذة الرّسول ﷺ من الجوع لظهور أثره فى قوى الإنسان الظّاهرة والباطنة ومنع صاحبه من أداء الفروض والطّاعات، ثمّ يصفه رسول الله ﷺ بقوله «فإنَّهُ بئْسَ الضَّجيعُ» أى المضاجع، والضّجيع ما يلازم صاحبه فى المضجع، وأُطلق على الجوع ضجيعا للزومه الإنسان ليلا ونهارا فى النّوم واليقظة. (قال) السِّنْدىّ [ضجيعك من ينام فى فراشك، والمعنى: بئس الصّاحب الجوع الذى يمنعك من وظائف العبادات ويُشوّش العقل ويُثير الأفكار الفاسدة والخيالات الباطلة[1]].

---

(١) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [١٩٧٧] وأورده الألبانى فى الصّحيحة [٨٦].

(٢) حديث حسن أخرجه أبوداود [١٥٤٧] والنّسائى [٥٤٨٣].

(٣) انظر سُنن النّسائى [ج ٤ ص ٦٥٦].

والمراد بالاستعاذة من هذه الأشياء طلب الثّبات والاستقامة على صفات الكمال في كلّ حال، والإعلام بأنّها من الأوصاف الذّميمة، فمن وُجدت فيه فليعالج في إزالتها بعزم وإرادة، ومن فُقدت فيه فليحمد الله تعالى على ذلك.

(٦) الاستعاذة من الطّمع

الطّمع الرّغبة في الشّيء واشتهاؤه ومنه [الطَّمُوعُ] في الشّيء شديد الحرص في الحصول عليه ومنه قوله تعالى ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ [المعارج: ٣٨]. [والطَّمَّاعُ]: الكثيرُ الطَّمَع، وهو الأمر الّذى حضّ رسول الله ﷺ على الاستعاذة منه لما رواه أحمد في مسنده عن معاذ رضي الله عنه «قَالَ لَنَا النَّبيُّ ﷺ اسْتَعِيذُوا بالله مِنْ طَمَعٍ يَهْدِى إِلَى طَبَعٍ، وَمِنْ طَمَعٍ يهْدى إِلَى غَيْرِ مَطْمَعٍ، وَمِنْ طَمَعٍ حَيْثُ لاَ طَمَعٍ(١)».

و«الطَّبَعُ» الدَّنَسُ والْعَيْبُ، فَكُلُّ شَيْنٍ فى دين أو دُنيا فهو «طَبَعٌ» ومنه حديث عمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه «لاَ يَتزوَّجُ مِنَ الْمَوَالى فى الْعَرب إلاَّ الأَشِرُ الْبَطِرُ، وَلاَ يَتَزَوَّجُ مِنَ الْعَرَبِ فِى الْمَوَالِى إلاَّ الطَّمِعُ الطَّبِعُ(٢)». وأصل الطّبع الدّنس والصّدأ الّذى يغشى السّيف فيُغطى وجهه من الطّبْع وهو الختْم، يقال سيفٌ طَبِعٌ، ثمّ استُعير للدّنس فى الأخلاق والشّين فى الخلال [(٣)].

ويروى الحاكم عن سعد بن أبى وقّاص رضي الله عنه قال «جاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبىِّ ﷺ فَقَالَ يَارَسُولَ الله أَوْصِنى ؟ فَقَالَ لَهُ النَّبىُّ ﷺ: عَلَيْكَ بالإِيَاسِ ممَّا فى أَيْدى النَّاسِ وَإِيَّاكَ وَالطَّمعَ فَإِنَّهُ الْفَقْرُ الْحَاضِرُ(٤)». وفيه يصف الطّمع بالفقر الدّائم القائم على الحرص والشّره.

ولا يكون الطّمع مرغوبا إلاّ فى ثواب الله وعفوه ورحمته ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦]. فيدعو الإنسان ربّه خوفا من عقابه وطمعا فى ثوابه، ويحمل «الطّمع» فيه معنى توقّع الأمر المحبوب.

ومن معانى «الطّمع» كذلك العلم من قوله تعالى ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ٤٦]. أى لم يدخل أصحاب الأعراف الجنّة ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ بمعنى وهم يعلمون أنّهم يدخلونها وذلك معروف فى اللّغة أن يكون [طَمِع] بمعنى عَلِم، وهذا قول ابن مسعود وابن عبّاس وغيرهما.

---

(١) أخرجه أحمد بإسناد حسن [٢١٩٢٠] وأبو عبيد فى غريب الحديث [١٥٢].

(٢) انظر تهذيب اللّغة [٢ / ١٨٧].

(٣) انظر الفائق [٥ / ٣٥٣].

(٤) أخرجه الحاكم [٨٠٩٣] وافقه الذّهبى فى التّلخيص صحيح.

ثانى عشر - الاستعاذة من سيىء الأسقام

المرض السَّقَم [بفتح القاف وسُكونها]: نقيض الصّحة، وهو حالة خارجة عن الطّبع ضارّة بالفعل، وقد يكون المرض فى البدن كما فى قول الله سبحانه ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾[الصّافّات:٨٩]. وقوله جلّ شأنه ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[الشّعراء:٨٠]. وقد يكون فى النّفس كقوله تعالى ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾[البقرة:١٠].

وأصل المرض النُّقصان، يُقال بدن مريض: ناقص القوّة. وقلب مريض: ناقص الدّين، (قال) ابن عرفة: [المرض فى البدن فتور الأعضاء، وفى القلب فتور عن الحقّ، والمرض فى الاصطلاح الفقهى: هو ما يعرض للبدن فيخرجه عن الاعتدال الخاصّ(١)].

أمّا الدَّاءُ فهو علّة تحصل بغلَبة بعض الأخلاط على بعض وخصّه أبو البقاء بما يكون فى الجوف والكبد والرّئة، والمرض يكون فى سائر البدن، والمرض الحقيقى سوء المزاج، والمجازى ما يخلّ بالكمال كالجهل وسوء العقيدة والحسد، وذكر المرض وإرادة الألم من باب الكناية لا الحقيقة.

وكان من هدي النّبى ﷺ فعل التّداوى فى نفسه والأمر به لمن أصابه مرض من أهله وأصحابه لقوله ﷺ من رواية جابر «لكُلِّ دَاء دَوَاءٌ فإذَا أُصيبَ دَوَاءُ الدَّاء بَرأَ بإذْن الله عَزَّ وَجَلَّ(٢)». وقوله ﷺ عن أبى هريرة «مَا أَنْزَلَ اللهُ منْ دَاء إلاَّ أنْزَلَ لَهُ شفَاءً(٣)». وعن أسامة ابن شريك قال «كُنْتُ عنْدَ النَّبيِّ ﷺ وَجَاءَت الأَعْرَابُ فَقَالُوا: يَارَسُولَ الله أَنَتَدَاوَى؟ فَقَالَ نَعَمْ يَاعبَادَ الله تَدَاوَوْا، فَإنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَضَعْ دَاءً إلاَّ وَضَعَ لَهُ شفَاءً غَيْرَ دَاءٍ وَاحدٍ. قَالُوا وَمَا هُوَ؟ قَالَ الْهَرَمُ(٤)».

وجاء في المسند عن أبي خزامة «قُلْتُ يَارَسُولَ الله أَرَأَيْتَ رُقًى نَسْتَرْقيهَا وَدَوَاءً نَتَدَاوَى به وَتُقَاةً نَتَّقيهَا هَلْ تَرُدُّ منْ قَدَر الله شَيْئًا؟ فَقَالَ ذَلكَ منْ قَدَر الله(٥)». وعن ابن مسعود يرفعه «إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُنزلْ دَاءً إلاَّ أَنْزَلَ لَهُ شفَاءً، عَلمَهُ مَنْ عَلمَهُ وَجَهلَهُ مَنْ جَهلَهُ(٦)». وفى الأحاديث الأمر بالتّداوى وأنّه لا ينافى التّوكُّل كما لا ينافيه دفع داء الجوع والعطش والحرّ والبرد بأضدادها، بل لا تتمّ حقيقة التّوحيد إلاّ بمباشرة الأسباب

(١) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ٣ ص ٢٦٢].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٠٤].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٦٧٨] وابن ماجه [٢٧٩١].

(٤) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣٨٥٥] والتّرمذى [٢٠٣٨] وابن ماجه [٢٧٨٩].

(٥) أخرجه التّرمذى بإسناد حسن [٢٠٦٥] وابن ماجه [٣٥٠٠] وأحمد [١٥٤١٢]. وقال فى المسند [إسناده حسن لأجل ابن أبى خزامة].

(٦) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٣٥٧٨].

التى جعلها الله مقتضيات لمسبّباتها قدرا وشرعا، وأنّ تعطيلها يقدح فى نفس التّوكُّل كما يقدح فى الأمر وحكمته، ويضعفه من حيث يظنّ مُعطّلها أنّ تركها أقوى فى التّوكُّل، فإنّ تركها عجزًا ينافى التّوكُّل الذى حقيقته اعتماد القلب على الله تعالى فى حصول ما ينفع العبد فى دينه ودنياه، ودفع ما يضرّه فى دينه ودنياه، فلابدّ مع هذا الاعتماد من مُباشرة الأسباب، وإلاّ كان مُعطّلاً للحكمة والشّرع، فلا يجعل العبد عجزه توكّلاً ولا توكُّله عجزًا].

[وفى قوله ﷺ «لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ» تقويةٌ لنفس المريض والطّبيب وحثٌّ على طلب ذلك الدّواء والتّفتيش عليه، فإنّ المريض إذا استشعرت نفسه أنّ لدائه دواء يزيله تعلّق قلبه بروح الأمل وبردت عنده حرارة اليأس وانفتح له باب الرّجاء، ومتى قويت نفسه انبعثت حرارته الغريزيّة وكان ذلك سببا لقوّة الأرواح النّفسيّة والطّبيعيّة فيه، ومتى قويت هذه الأرواح قويت القوى التى هى حاملة لها فقهرت المرض ودفعته، وكذلك الطّبيب إذا علم أنّ لهذا الدّاء دواء أمكنه طلبه والتّفتيش عليه، وأمراض الأبدان على وزن أمراض القلوب، وما جعل الله للقلب مرضا إلاّ جعل له شفاء بضدّه، فإن علمه صاحب الدّاء واستعمله وصادف داء قلبه أبرأه بإذن الله تعالى(١)].

وعندما يستعيذ نبيُّنا ﷺ من سَيِّئ الأسقام كما فى قوله من حديث أنس «اللّٰهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبَرَصِ وَالْجُنُونِ وَالْجُذَامِ وَمِنْ سَيِّءِ الأَسْقَامِ(٢)». فإنّه يشير إلى ما يكون سببا لعيب أو فساد عضو ونحو ذلك من الأمراض المزمنة التى تُؤدّى إلى حدوث خلل فى عقل الإنسان وبدنه، كما لم يتعوّذ رسول الله ﷺ من الأسقام مُطلقا لأنّ بعضها تخفّ مؤنته وتكثر مثوبته عند الصّبر عليها مع عدم إزمانها كالحمّى والصّداع ورمد العين وغير ذلك من التّوعُّكات الصّحية الطّارئة.

ونعرض للمسائل التى تتعلّق بالاستعاذة من الأمراض على النّحو التّالى:

(أ) الاستعاذة من الأمراض المزمنة

جمع رسولنا ﷺ فى قوله من حديث أنس «اللّٰهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُنُونِ وَالْجُذَامِ وَالْبَرَصِ وَسَيِّءِ الأَسْقَامِ(٣)». بين بعض الأمراض الخطيرة التى تكون سببا فى إصابة بدن الإنسان وتُؤثّر تأثيرا مباشرا فى صحّته وحياته واعتبرها من سيىء الأسقام لزمانتها وطول مُكثها، فاستعاذ ﷺ أوّل ما استعاذ من البَرَصِ وهو بياض يظهر على الجسد يكون من فساد المزاج،

(١) انظر زاد المعاد لابن القيّم [ج ٤ ص ١٧].

(٢) حديث صحيح أخرجه أبوداود [١٥٥٤].

(٣) حديث صحيح أخرجه النّسائى (٥٥٠٨].

وتأتي إشارته إلى الجُذام لكونه علّة تتآكل منها بعض الأعضاء وتتساقط وتحدث من انتشار السّوداء في البدن فيفسد مزاج الأعضاء وهيئتها، وربّما أدّت الأصابة به إلى هلاك هذه الأعضاء وتآكُلها.

كما تأتي استعاذة النّبي ﷺ من هذه الأمراض لكونها عاهات يظهر بها الشّين وتنتهي بصاحبها إلى حدّ يفرّ منه الصّديق ويقلّ معه المؤانس والمداوي، فهي ليست كسائر الأمراض والعاهات، كما كان ﷺ يتعوّذ ممّا ذُكر دفعا عن أمّته شرّ هذه الأمراض وتشريعا لهم في بيان صفة المهمّ من الأدعية الشّريفة المباركة.

والأمر بالفرار من المجذوم في قوله ﷺ «وَفِرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ كَمَا تَفِرَّ مِنَ الأَسَدِ[1]». ليس من باب العدوى في شيء بل هو لأمر طبيعي وهو انتقال الدّاء من جسد لجسد بواسطة الملامسة والمخالطة وشمّ الرّائحة، ولذلك يقع في كثير من الأمراض انتقال الدّاء من المريض إلى الصّحيح بكثرة المخالطة، فالمجذوم تشتدّ رائحته حتّى يسقم من أطال مجالسته ومحادثته ومضاجعته، ولهذا يأمر الأطبّاء بترك مخالطة المجذوم لا على طريق العدوى بل على طريق التّأثُّر بالرّائحة لأنّها تُسقم من واظب اشتمامها [[2]].

ويأتي تعميم الاستعاذة بعد تخصيص المذكورات بقوله «وَسَيِّءِ الأَسْقَامِ» أي قبيحها كالفالج والعمى وغيرهما، وإنّما قيّد بسيّئها لأنّ الأمراض مطهّرة للآثام مع الصّبر، فأراد رسول الله ﷺ ألاّ يسُدّ باب الأجر عندما سُئل عن أيّ النّاس أشدُّ بلاءً «قَالَ الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الْعَبْدُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاَؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاَءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ[3]».

(٢) الاستعاذة من العلّة والألم

العلّة لغة معنى يحلّ بالمحلّ فيتغيّر به حال المحلّ ومنه سُمِّيَ المرض «عِلَّةً» لأنّه بحلوله يتغيّر الحال من القوّة إلى الضّعف فيقال «اعْتَلَّ» إذا مَرِضَ، فكلّ وصف حلّ بمحلّ وتغيّر به حاله معا فهو «عِلَّةٌ» وصار المحل «مَعْلُولاً» كالجرح مع المجروح وغير ذلك.

أمّا «الأَلَم» فهو الإحساس بالوَجَع المترتّب على العلّة من [أَلَمَهُ المرضُ يُؤْلِمُهُ إيلامًا]: أَوْجَعَهُ. فهو مُؤلِمٌ وأَلِيمٌ، و[تَأَلَّم]: تَوَجَّعَ. ويأتي معنى ذلك من قول الله تعالى

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري [٥٧٠٧] ومسلم [٢٢٢٠].

(٢) انظر فتح الباري [ج ١٠ ص١٧٠].

(٣) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٣٢٦٥] وأورده في الصّحيحة [١٤٣] والمشكاة [١٥٦٢].

﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]. أى إذا كنتم تتألمون ممّا أصابكم من الجراح، فإنهم يتألمون أيضا ممّا يصيبهم إلاّ أنكم ترجون ثواب الله تعالى وهم لا يرجون، وكان نبيّنا ﷺ فى أكثر أحيانه يُعوِّذُ بعض أهله ممّا يلحق بهم من مرض وألم كما جاء فى الصّحيح:

* عند الشّيخين عن عائشة قالت «كَانَ النَّبيُّ ﷺ يُعوِّذُ بَعْضَ أَهْله يَمْسَحُ بيده الْيُمْنى ويَقُولُ اللَّهُمّ رَبَّ النَّاسِ أَذْهِبِ الْبَأْسَ وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِى لاَ شِفَاءَ إِلاَّ شِفَاؤُكَ شِفَاءً لاَ يُغَادِرُ سَقَمًا[(١)]».

* وعن عثمان بن أبى العاص الثّقفى «أَنَّهُ شَكَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَجَعًا يَجِدُهُ فِي جَسَدِه مُنْذُ أَسْلَمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ضَعْ يَدَكَ عَلَى الّذى تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ وَقُلْ بِسْمِ اللهِ - ثَلاَثًا - وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ[(٢)]».

* وجاء قوله ﷺ من حديث ابن عبّاس «مَنْ عَادَ مَرِيضًا فَقَالَ عِنْدَهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَشْفِيَكَ وَيُعَافِيَكَ، إِلاَّ عَافَاهُ اللهُ تَعَالَى[(٣)]».

* وروى عكرمة عن ابن عبّاس قال «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُعَلِّمُهُمْ مِنَ الْحُمَّى وَمِنَ الأَوْجَاعِ كُلِّهَا أَنْ يَقُولُوا بِسْمِ اللهِ الْكَبِيرِ، أَعُوذُ بِاللهِ الْعَظِيمِ مِنْ شَرِّ كُلِّ عِرْقٍ نَعَّارٍ، وَمِنْ شَرِّ حَرِّ النَّارِ[(٤)]». (قال) الطّيبى [نعر العرق بالدّم إذا ارتفع وعلا].

* وجاء عند البخارى عن عائشة «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ لِلْمَرِيضِ: بِسْمِ اللهِ تُرْبَةُ أَرْضِنَا بِرِيقَةِ بَعْضِنَا يُشْفَى سَقِيمُنَا بِإِذْنِ رَبِّنَا[(٥)]».

(قال) النّووى: [ومعنى الحديث أنّه يأخذ من ريق نفسه على إصبعه السّبابة ثمّ يضعها على التّراب فيعلق بها منه شيء فيمسح به على الموضع الجريح أو العليل ويقول هذا الكلام فى حال المسح والله تعالى أعلم[(٦)]. و(فى) الفتح: [كأنّ المراد بالتّربة الإشارة إلى فطرة آدم، وبالرّيقة الإشارة إلى النّطفة، كأنّه تضرّع إلى ربّه بلسان الحال إنّك اخترعت الأصل الأوّل من التّراب ثمّ أبدعته منه من ماء مهين، فهيّن عليك سبحانك أن تشفى من كانت هذه نشأته[(٧)]].

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٦٧٥] ومسلم [٢١٩١].
(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٠٢] وأبو داود [٣٨٩١] والتّرمذى [٢٠٨٠].
(٣) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣١٠٦] والتّرمذى [٢٠٨٣].
(٤) أخرجه أحمد بإسناد حسن [٢٧٢٩].
(٥) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٧٤٥] ومسلم [٢١٩٤] وأبو داود [٣٨٩٥].
(٦) انظر نووى مسلم [ج ٧ ص ٤٣٨].
(٧) انظر فتح البارى [ج ١٠ ص ٢١٩].

(٣) الاستعاذة من الجنـون

الجنون زوال العقل واختلاله بحيث يمنع جريان الأفعال والأقوال على نهج العقل إلاّ نادرا، فإن كان حاصلا فى أكثر السَّنة فمُطبق وما دونه فغير مُطبق، (وقال) أبو البقاء فى تعريفه [هو اختلاف القوّة المميّزة بين الأمور الحسنة والقبيحة المُدركة للعواقب بأن لا يظهر أثرها وتتعطّل أفعالها بواحد من ثلاثة:

(١) إمّا بالنُّقصان الذى جُبل عليه دماغه فى أصل الخلقة.

(٢) وإمّا بخروج مزاج الدِّماغ عن الاعتدال بسبب خلط أو آفة.

(٣) وإمّا لاستيلاء الشّيطان عليه وإلقاء الخيالات الفاسدة إليه بحيث يفزع من غير ما يصلح سببا(١)].

ولـمّا كان زوال العقل الذى هو منشأ الخيرات العلميّة والعمليّة للإنسان من أخطر الأمراض التى تصيبه، جاءت استعاذة النّبى ﷺ من هذا المرض تعليما للأمّة وتذكيرا لها برحمة الله تعالى وعفوه كما فى حديث أنس «اللَّهُمَّ إنِّى أَعُوذُ بكَ منَ الْجُنُون وَالْجُذَام وَالْبَرص وَسَيِّىءِ الأَسْقَامِ(٢)». وجاء عند أبى داود بلفظ «اللَّهُمَّ إنِّى أَعُوذُ بكَ منَ الْبَرصِ وَالْجُنُون وَالْجُذَامِ وَسَيِّىءِ الأَسْقَامِ(٣)»

كما يشير إلى ذلك قوله ﷺ فى الحديث «اللَّهُمَّ إنَّا نَعُوذُ بكَ منَ الأَلْسِ وَالأَلْقِ وَالْكِبْرِ وَالسَّخِيمَةِ(٤)». قال أبو عبيد [وقوله «الأَلْس» هو اختلاط العقل، يقال منه قد أُلس الرَّجُلُ فهو مَألُوسٌ، أمّا «الأَلْقُ» فإنّى لا أحسبه أراد إلاّ الأَوْلَق، والأَوْلَقُ الْجُنُونُ، أمّا «السَّخِيمَةُ» فهى الضّغينة والعداوة(٥)]. ومن الجنون: «اللَّمَمُ» فهو طرف منه، يقال رَجُلٌ مَلْمُومٌ: أى به لَمَمٌ. وأصابت فلانا من الجنّ لَمَّةٌ من أثر المسّ [قاله الجوهرى]. ومنه «الْخَبْلُ» مرض عقلى من [خَبَلَهُ وَخَبَّلَهُ واخْتَبَلَهُ]: إذا أفسد المرض عقله أو عضوه.

(٤) الاستعاذة من أرذل العمر

الكِبَرُ والهَرَمُ وصف لحالٍ واحد هو بلوغ أقصى كِبَر السّن والضّعف الذى يحول دون فعل الخير فى أواخر عمر الإنسان، والكِبَرُ والصِّغرُ مَعنَيَان إضافيّان، فقد يكون

(١) انظر دستور العلماء [١ / ٤١١] والكُلّيّات [ص ٣٤٩] والتَّوقيف [ص ٢٥٦].

(٢) حديث صحيح أخرجه النّسائى [٥٥٠٨].

(٣) حديث صحيح أخرجه أبو داود [١٥٥٤] والنّسائى [٥٥٠٨].

(٤) أخرجه أبو عبيد فى غريب الحديث [٣٧٤].

(٥) انظرغريب الحديث [ج ٣ ص ٦٣].

الشّيء كبيرا بالنّسبة لآخر صغيرا لغيره ولكنّ الفقهاء يُطلقون الكِبَر في السّن على:

(١) ما يُراد به الخروج عن حدّ الصِّغر بدخول مرحلة الشّباب فيكون بمعنى البلوغ المصطلح عليه.

(٢) أو ما يبلغ به الإنسان مبلغ الشّيخوخة والضّعف والخَرَف بعد تجاوز مرحلة الكهولة [(١)].

وكما استعاذ رسول الله ﷺ من سُوء الكِبَر استعاذ كذلك من الهَرَم كما في رواية البخاري «وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَرَمِ(٢)». وهو بلوغ الرّجل أقصى الكِبَر والضّعف فهو هَرِمٌ، كما جمع رسول الله ﷺ بين الكِبَر والهَرَم في رواية واحدة لكون كِبَر السّن قريب من الهَرَم كما في قوله ﷺ «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَالْهَرَمِ وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَسُوءِ الْكِبَرِ(٣)».

ولـمّا كان الكِبَرُ والهَرَمُ يؤدّيان في أواخر العمر إلى العجز والخَرَف جاء وصْفُ القرآن لهذه المرحلة من عمر الإنسان «بأَرْذَلِ الْعُمُر» في قول الله تعالى ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [النّحل: ٧٠]. يعنى أرداه وأوضعه وقيل الذى ينقص قوّته وعقله ويصيّره إلى الخَرَف ونحوه. (قال) ابن عبّاس [يعنى إلى أسفل العمر حتّى يصير كالصّبى الذى لا عقل له والمعنى متقارب]. وقوله تعالى ﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ يعنى أنّه يرجع إلى حالة الطّفولة فلا يعلم ما كان يعلم قبل من الأمور لفرط الْكِبَرِ وفيها قولان:

(الأوّل) أنّ هذا لا يكون للمُؤمن لأنّ المؤمن لا ينزع عنه علمه.

(والثّانى) أى لكى لا يعمل بعد علم شيئا، فعبّر عن العمل بالعلم لافتقاره إليه ولأنّ تأثير الْكِبَرِ فى عمله أبلغ من تأثيره فى علمه.

ولذلك تأتى استعاذة رسول الله ﷺ من أرذل العمر بقوله «وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ(٤)». والأرذل من كلّ شيء الرّديء منه، وهو ما ينتقص فيه من القوى الظّاهرة والباطنة فيصير كالطّفل، أمّا العُمْرُ فهو المدّة التى يعيشها الحىّ، أى مدّة حياة الكائن الحىّ وهو ما جاء عند النّسائى من حديث عمر بلفظ «وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ سُوءِ الْعُمُرِ(٥)». ومنه قوله

---

(١) انظر القاموس المحيط [٣/ ١٢٨] والموسوعة الفقهيّة [٨/ ١٨٦].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٣٧١] ومسلم [٢٧٠٦] والتّرمذى [٣٤٨٥].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٢٨٢٣] ومسلم [٢٠٧٩] وأبو داود [١٥٤٠].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٣٦٥] والتّرمذى [٣٥٧٦] والنّسائى [٥٤٦٠].

(٥) حديث صحيح أخرجه النّسائى [٥٥١٢] وفى السُّنَن الكبرى [٧٩١٧].

تعالى ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[الحجر:٧٢]. وفيه قَسَمٌ من الله تعالى بحياة نبيّه المعصوم ﷺ.

أمّا الأجل لغة فهو المدّة المضروبة للشّيء من قوله تعالى ﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ [غافر:٦٧]. ويقال للمدّة المضروبة لحياة الإنسان أجل، فيقال دنا أَجَلُهُ، عبارة عن دنوّ الموت وأصله استيفاء الأجل مدّة الحياة ومنه قول الله تعالى ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾[الأنعام:١٢٨]. أى حدّ الموت وقيل حدّ الهرم والله تعالى أعلم [(١)]. كما يشير ﷺ إلى الهَرَم في قوله «تداووا ياعباد الله فإنّ الله لم يضع داءً إلاّ وضع له شفاءً إلاّ داءً واحدًا الْهَرَمُ(٢)». وجاء فى رواية أحمد «إلاّ الْموْتُ والْهرمُ(٣)».

فاستثناء الهَرَم فى الرّواية الأولى إمّا لأنّه جعله شبيها بالموت والجامع بينهما نقص الصّحة، أو لقُربه من الموت وإفضائه إليه، ويُحتمل أن يكون الاستثناء مُنقطعا والتّقدير: [لَكنَّ الْهَرَمَ لاَ دوَاءَ لَهُ]. أمّا الاستثناء فى قوله «إلاّ الْموْتُ»: فواضح ولعلّ التّقدير: [إلاّ داءُ الْموْت] أى المرض الذى قُدِّر على صاحبه الموت.

وعلى المرء الذى دخل دائرة العجز والهَرَم وقد أعذره الله تعالى حتّى بلغ من العمر السّتين أو أكثر، أن يُعلن المصالحة مع خالقه جلّ وعلا بعدما جاءه «النّذير» كما فى قوله تعالى ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾. وفى تفسيره قال ابن عبّاس وغيره هو الشّيْبُ؛ وسُمّى نذيرا لأنّه يأتى فى سنّ الاكتهال وقد قيل:

رأَيْتُ الشَّيْبَ مِنْ نُذُرِ الْمَنَايَا   لِصَاحِبِهِ وَحَسْبُكَ مِنْ نَذِيرِ

والله عزّ وجلّ لم يترك للمرء عُذرًا بعدما أمهله حتّى بلغ هذه المرحلة المتقدّمة من العمر لقول النّبى ﷺ من حديث أبى هريرة «أَعْذَرَ اللهُ إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً(٤)». فالإنسان لا يزال فى ازدياد إلى كمال السّتين ثمّ يشرع فى النّقص والهرم، فإن كان ابن آدم يُعذر فيما قبل السّتين بغلبة الهوى عليه، وتملّك القوى الجسمانيّة لعقله، فلا عذر له بعد السّتين إذا اتّبع الهوى ومال إلى الشّهوة، واستسلم لغواية الشّيطان فلا عذر له بعد ضعف الأمل وقرب الأجل.

وإنّما كانت «السّتون» حدًّا لهذا لأنّها قريبة من المعترك وهى سنّ الإنابة والخشوع وترقُّب المنيّة، فهذا إعذار بعد إعذار لطفا من الله تعالى لعباده فلم يعاقبهم إلاّ بعد الحجج الواضحة

(١) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ١ ص ٦٦].

(٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣٨٥٥] وأحمد [١٨٣٦٦] وابن ماجه [٢٧٨٩].

(٣) حديث صحيح أخرجه أحمد [١٨٣٦٧].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٤١٩].

وإن فُطروا على حبّ الدّنيا وطول الأمل، لكنّهم أُمروا بمجاهدة النّفس فى ذلك ليمتثلوا ما أُمروا به من الطّاعة وينزجروا عمّا نُهوا عنه من المعصية.

(قال) فى الفتح: [الإعذار إزالة العُذر، والمعنى أنّه لم يبق له اعتذار كأن يقول لو مُدّ لى فى الأجل لفعلت ما أُمرت به، وإذا لم يكن له عذر فى ترك الطّاعة مع تمكّنه منها بالعُمر الذى حصل له، فلا ينبغي له حينئذ إلاّ الاستغفار والتّوبة والإقبال على الآخرة بالعمل الصّالح، ونسبة الإعذار إلى الله تعالى مجازيّة والمعنى أنّ الله لم يترك للعبد سببا للاعتذار يتمسّكُ به[(1)]].

وفى الحديث إشارة إلى أنّ استكمال السّتين مظنّة لانقضاء الأجل أو قُربه، ويتأيّد هذا بقول النّبى ﷺ من حديث أبى هريرة «أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَى السَّبْعِينَ وَأَقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ[(2)]». فينبغى على المرء الإقبال على الآخرة لاستحالة رجوعه إلى الحالة الأُولى من القوّة والنّشاط والهمّة والمسارعة إلى البرّ والخير، وقد استنبط بعض علماء الشّافعية من الحديث أنّ من استكمل [ستّين سنة] من عمره فلم يَحُجّ مع القدرة فإنّه يكون مُقصّرا ويأثم إن مات قبل أن يحجّ بخلاف ما دون ذلك.

طول العمر مع حسن العمل

ولو أمعن المرء النّظر فى قول النّبى ﷺ «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ[(3)]». لتبيّن أهميّة الحرص على العمل الصّالح لآخر لحظة من عمره وملازمة هدى نبيّه ﷺ في سائر الأحوال، والإخلاص لله تعالى فى الأقوال والأعمال ليموت على تلك الحالة الحميدة ويُبعث عليها لما فى توجيه نبيّنا الكريم ﷺ من تحريض على تحسين العمل والازدياد من الطّاعة في سائر الأوقات لاحتمالها للموت وقد قال تعالى ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وطول العمر له أثر عظيم في السّعادة وضدّها لأنّه كلّما طال عمر الإنسان كثُر عمله واطّلع على أحوال الدّنيا وتقلّباتها، فإن اتّعظ بكثرة من مات وما يقع من الشّدائد فزَهد فى الدّنيا وأكثر من عمل الخير والبرّ، كثُرت حسناته وكُفّرت سيّئاته ورُفعت درجاته، وقَبلَهُ مولاه إذ لم يره حيث نهاه، ولم يفقده حيث أمره، فكان سعيدا في الدّنيا والآخرة وبذلك جاء قوله سبحانه ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النّحل: ٩٧].

---

(١) انظر فتح البارى [ج ١١ ص ٢٤٤].

(٢) حديث حسن صحيح أخرجه ابن ماجه [٣٤٣٣] وأورده الألبانى فى الصّحيحة [٧٥٧].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٨٧٨] وأحمد [١٤٤٨٠].

وإن لم يتّعظ المرء ويعتبر بتقلّبات الدّهر وشغلته دُنياه عن طاعة مولاه كان طول عمره وبالا عليه وليس له عذر عند الله بعد أن مدّ فى عمره ومكّنه من الطّاعة فأبي أن يطيع كما فى قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ . وفى قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ : استفهام توبيخي ، أى أو ما عشتم فى الدّنيا أعمارا لو كنتم ممّن ينتفع بالحقّ لعملتم به فى مدّة عمركم . [والمعنى] : أو لم نعمّركم تعميرا يتذكّر فيه من تذكّر وهو مُتناول لكلّ عمر تمكّن فيه المكلّف من إصلاح شأنه فقصّر ، إلاّ أنّ التّوبيخ فى المتطاول أعظم .

وقد ورد فى فضل طُول العُمر وحُسن العمل أحاديث منها :

(*) ما رُوى عن عبد الله بن بسرٍ أنّ أعرابيًّا قال «يَارَسُولَ اللهِ مَنْ خَيْرُ النَّاسِ ؟ فقَالَ ﷺ مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ(١)» .

(*) وقوله ﷺ من حديث أبي هريرة عند أحمد «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِكُمْ ؟ قَالُوا نَعَمْ يَارَسُولَ اللهِ ، قَالَ خِيَارُكُمْ أَطْوَلُكُمْ أَعْمَارًا وَأَحْسَنُكُمْ أَعْمَالاً(٢)» .

(*) وأورد التّرمذى فى جامعه عن عبد الرّحمن بن أبى بَكْرَة عن أبيه أنّ رجلا قال «يَارَسُولَ اللهِ أَىُّ النَّاسِ خَيْرٌ ؟ قَالَ : مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ ، قَالَ : فَأَىُّ النَّاسِ شَرٌّ ؟ قَالَ : مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ(٣)» .

(قال) الطّيبى رحمه الله [إنّ الأوقات والسّاعات كرأس المال للتّاجر فينبغى أن يتجر فيما يربح فيه ، وكلّما كان رأس ماله كثيرا كان الرّبح أكثر ، فمن انتفع من عمره بأن أحسن عمله فقد فاز وأفلح ، ومن أضاع رأس ماله لم يربح وخسر خسرانا مبينا(٤)] .

ثالث عشر - الاستعاذة من شرّ ما خلق

الشّرُّ هو نتاج قهر الشّيطان للإنسان بإيمائه إليه وتسلّطه عليه ، وما ذُكر الشّرُّ فى أمر من الأمور إلاّ وللشّيطان فيه الغَلَبة والقهر ، والشّرُّ فى حياة البشر هو رمز الفساد والفسق والفجور والكفر والعصيان والبأس ، وهو الباب المفتوح على مصراعيه إلى النّار باعتباره مصدر الغواية والفتنة والهوى والمجون والضّياع ، فكلّ ما أمر الله به فى حياة النّاس

(١) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٢٣٢٩] وأحمد [١٧٦١١] .

(٢) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٧٢١١] .

(٣) أخرجه التّرمذى [٢٣٣٠] وقال صحيح بما قبله وفى إسناده على بن زيد بن جدعان ضعيف .

(٤) انظر تحفة الأحوذى [ج ٦ ص ٢٠٢] .

هو الخير، وكلّ ما نُهى عنه هو الشّر.

والشّر فى القاموس السُّوء والفساد وجمعه [شُرُورٌ] ومنه [الشَّرَّةُ]: وهى الحدَّة، يقال [أعُوذُ باللّه من شِرَّة الْغَضَب]. والشِّرِّيرُ: الكثير الشَّرِّ، قال الله تعالى ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ [سورة ص: ٦٢].

ويرتبط الشّر بالنّار وجحيمها باشتقاق مُسَمَّاهُ من [الشّرَر] وهى الأجزاء الصّغيرة المتوهّجة المنفصلة من جسم يحترق ومنه قوله تعالى فى وصف النّار ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ [المرسلات: ٣٢]. وكأنّ الشّر الذى ينبعث من نفس مُتَّقدة بالعداوة والغضبُ كهذا الشّرر المُتطاير من نار مُحرقة ومنه قوله ﷺ «ألاَ وإِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ فِى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، أَمَا رَأَيْتُم إِلَى حُمْرَةِ عَيْنَيْهِ وَانْتِفَاخِ أَوْدَاجِه(١)».

وجاءت كلمة «الشّرّ» فى أكثر من ست وعشرين موضعا قرآنيا تحذيرا من خُطورته وتخويفا من عاقبته وثمرته المريرة والتى منها ما قاله الله تعالى فى وصف الكافرين ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البيّنة: ٦]. وتُخبرنا الآياتِ الكريمة بشرار الخلق عند الله كما فى قوله تعالى ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

ووصف الخالق بُخل البخلاء بقوله تعالى ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠]. وبيّن أنّ الخير ليس كلّ شىء تحبّه النّفس وترغبه بل قال سبحانه ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. وجاء القول واصفا المؤمنين بأنّهم ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

ثمّ أمر المؤمنين بالاستعاذة من شرّ كلّ ذى شرّ فقال تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ١-٢]. أى من شرّ خلقه إطلاقا وإجمالا وهو ما كان يستعيذ منه رسول الله ﷺ بقوله «أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِى شَرٍّ أَنْتَ آخذٌ بِنَاصِيَتِه(٢)».

وللخلائق شرور فى حالات اتصال بعضها ببعض، كما أنّ لها خيرا ونفعا فى حالات أُخرى، والاستعاذة بالله تعالى هنا من شرّها ليبقى خيرها، والله الذى خلقها قادر على توجيهها وتدبير الحالات التى يتّضح فيها خيرها لا شرّها [(٣)].

ونعرض من خلال هذا التّقديم للمسائل التّالية:

(١) أخرجه التّرمذى بإسناد حسن [٢١٩١] وأحمد [١١٠٨٦].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٧١٣] والتّرمذى [٣٤٠٠].

(٣) انظر فى ظلال القرآن [ج ٣٠ ص ٤٠٠٧].

(ا) الاستعاذة من عين الجان

من الجنّ من هم أقوى حسدا للمؤمنين، فكما أنّ العين الحاسدة من الإنس تكون أيضا من الجنّ وبذلك جاء الخبر عن نبينا ﷺ فيما رواه البخارى عن أمّ سلمة قالت «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَأَى فِى بَيْتِهَا جَارِيَةً فِى وَجْهِهَا سَفْعَةٌ فَقَالَ اسْتَرْقُوا لَهَا فَإِنَّ بِهَا النَّظْرَةُ(١)».

وجاء فى رواية مسلم «رَأَى بِوَجْهِهَا سَفْعَةً فَقَالَ بِهَا نَظْرَةٌ فَاسْتَرْقُوا لَهَا، يَعْنى بِوَجْهِهَا صُفْرَةً(٢)». وفسّروا «النّظرة» بالإصابة بالعين كما فى الفائق والنّهاية. (قال) ابن قتيبة: [السَّفْعَةُ لون يُخالف لون الوجه وكلُّها متقاربة وحاصلها: أنّ بوجهها موضعا على غير لونه الأصلى، واختُلف فى المراد بالنّظر، فقال الفرّاء: وقوله «سَفْعَةٌ» أى نظرة يعنى من الجنّ، يقول: بها عين أصابتها من نظر الجنّ أنفذ من أسنّة الرّماح(٣)].

ويُؤيّده ما رواه أحمد فى مسنده عن أبى هريرة يرفعه «الْعَيْنُ حَقٌّ وَيَحْضُرُ بِهَا الشَّيْطَانُ وَحَسَدُ ابْنِ آدَمَ(٤)». أى ويحضر حسد ابن آدم ويُفعِّلُهُ. (قال) أبو عبيد [قوله «سَفْعَةٌ»: يعنى أنّ الشّيطان أصابها وهو من قوله تعالى ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ [العلق: ١٥]. وحديث ابن مسعود رضي الله عنه «أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً فَقَالَ إِنَّ بِهَذَا سَفْعَةً مِنَ الشَّيْطَانِ». وَهُوَ مِنْ هَذَا [(٥)]. كما يتأيّد ذلك بما جاء عن أبى سعيد رضي الله عنه عند النّسائى وابن ماجه قال «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنْ عَيْنِ الْجَانِّ وَعَيْنِ الإِنْسِ، فَلَمَّا نَزَلَتِ الْمُعَوِّذَتَانِ أَخَذَ بِهِمَا وَتَرَكَ مَا سِوَى ذَلِكَ(٦)».

* وجاء عند التّرمذى بلفظ «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنَ الْجَانِّ وَعَيْنِ الإِنْسَانِ حَتَّى نَزَلَتِ الْمُعَوِّذَتَانِ، فَلَمَّا نَزَلَتَا أَخَذَ بِهِمَا وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا(٧)».

* وجاء عند ابن ماجه بلفظ «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنْ عَيْنِ الْجَانِّ ثُمَّ أَعْيُنِ الإِنْسِ. فَلَمَّا نَزَلَ الْمُعَوِّذَتَانِ أَخَذَهُمَا وَتَرَكَ مَا سِوَى ذَلِكَ». أى يقول أعوذ بالله من الجانّ وعين الإنسان، وقوله «وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا» ممّا كان يتعوّذ به من الكلام غير المعوّذتين لما تضمّنتاه من الاستعاذة بالله تعالى من كلّ مكروه.

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٧٣٩] ومسلم [٢١٩٦].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢١٩٧].

(٣) انظر شرح السّنة للبغوى [ج ١٣ ص ١٦٣].

(٤) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٩٦٣١] وصحّحه الهيثمى [٥ / ١٠٧] وقال رجاله رجال الصّحيح.

(٥) انظر غريب الحديث لأبى عبيد [ج ٣ ص ٣٦].

(٦) حديث صحيح أخرجه النّسائى [٥٥٠٩] وابن ماجه [٢٨٤٦].

(٧) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٢٠٥٨] والنّسائى [٥٥٠٩] وابن ماجه [٢٨٤٦].

(٢) الاستعاذة من غلبة الرّجال

غلبة الرّجال شدَّة تسلُّطهم تسلُّط الرِّعاع هَرْجًا ومَرْجًا وذلك بغلبة العوامّ وهو الأمر الذى استعاذ منه رسول الله ﷺ كما فى حديث أنس قال «كَانَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ دعوات لاَ يَدَعُهُنَّ: اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجزِ وَالْكَسَلِ، وَالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ، وَالدَّيْنِ وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ[(١)]».

وقوله «غَلَبَةِ الرِّجَالِ»: أى استعاذ من أن يغلبه الرّجال، لما في ذلك من الوَهن فى النّفس والمعاش، والمعنى ذاته جاء فى رواية النّسائى بقوله ﷺ «وَغَلَبَةِ الْعَدُوِّ». يعنى كثرتهم، وهو من الإضافة إلى الفاعل أو المفعول، وفيه الإشارة إلى التّعوُّذ من أن يكون ظالما أو مظلوما، والتّعوُّذ من الجاه المفرط والذّل المهين.

(٣) الاستعاذة من غلبة العدو

وكما استعاذ رسول الله ﷺ من شماتة العدوّ استعاذ كذلك من غَلَبَته وهو ما جاء في حديث ابن عمر «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْعُو بِهَؤُلاَءِ الْكَلِمَاتِ اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَغَلَبَةِ الْعَدُوِّ وَشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ[(٢)]». ويَقصد بغَلبة العَدو قَهره وانتصاره وكثرة عَدّته وعَتاده. وفى القاموس: [غَلَبَهُ غَلْبًا وغَلَبًا وغَلَبَةً] قَهَرَهُ وهزَمَهُ ومنه [غَلَبَ] على الشّىء أُخذَ منه قهراً، وبذلك جمع ﷺ فى استعاذته بين غلبة الدَّين وغلبة الرَّجال وغلبة العدوّ تحقيقا لمقام العبوديّة الكاملة بين يدى خالقه والتجائه إليه فى طلب الوقاية والنّصرة على الدّوام.

رابع عشر ـ الاستعاذة من سوء القضاء

القضاء لغة الْخَلْقُ والأَمْرُ والْحُكْمُ، من قول الله تعالى﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾[فصلت:١٢]. أى خَلقهُنَّ، وقوله تعالى﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[الإسراء:٢٣]. أى أمَرَ. وعُرفًا: هو الحكم الكلّى الإجمالى فى الأزل، أى وجود الأشياء فى أمّ الكتاب مُجملة، وعند الفلاسفة علم الله تعالى بما ينبغى أن يكون الوجود عليه حتّى يكون على أحسن النّظام وأكمل الانتظام، وهو المسمّى عندهم بالعناية الإلهيّة التى هى مبدأ لفيضان الموجودات من حيث جملتها على أحسن الوجوه وأكملها [(٣)].

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٣٦٩] ومسلم [٢٧٠٦] وأبو داود [١٥٤١].

(٢) حديث صحيح أخرجه النّسائى [٥٤٩٠] وأحمد [٦٦١٨].

(٣) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ٣ ص ٩٨].

أمّا [الْقَـدَرُ] لغة التّقدير وهو جعل كلّ شيء بمقدار يناسبه بلا تفاوت. وعُرفا هو الحكم بوقوع الجزئيّات التي لتلك الكليّات على سبيل التّفصيل في الإنزال [(١)]. من قوله تعالى ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾. ومعناه أنّ الله تعالى قدّر الأشياء في القدم وعلم أنّها ستقع في أوقات معلومة عنده وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدّرها سبحانه وهو بهذا المعنى يعمّ القضاء بالمعنى السّابق.

(قال) الخطّابي [قد يحسب كثير من النّاس أنّ معنى القضاء والقدر إجبار الله تعالى العبد على ما قدّره وقضاه، وليس الأمر كما يتوهّمونه، وإنّما معناه الإخبار عن تقدّم علم الله تعالى بما يكون من اكتسابات العبد وصدورها عن تقدير من الله تعالى وخلقه لها خيرها وشرّها. والْقَدَرُ اسم لما صدر مُقدّرًا عن فعل القادر(٢)].

والرّضا بالقضاء والقدر من حقائق الإيمان اليقيني بالله تعالى لقوله ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر: ٤٩]. ولقول النّبي ﷺ في حديث جبريل عند الشّيخين «وَأَنْ تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ(٣)». وقوله ﷺ عند مسلم «وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ لَكَانَ كَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ(٤)».

هذا ما عليه أهل السُّنّة والجماعة فيجب على المكلّف أن يعتقد أنّ جميع أفعال العباد بقضاء الله تعالى وقدره، وأنّ الله تعالى يريد الكفر من العبد ويشاؤه، لكن لا يرضاه ولا يحبّه له، فيشاؤه [كونًا] ولا يرضاه [دينًا] وأنّ كلّ إنسان مُيسَّر لما خلق له وأنّ الأعمال بالخواتيم، فالسّعيد من سعد بقضاء الله وقدره فيوفّقه تعالى للعمل بالشّريعة الغرّاء إلى أن يموت على ذلك، والشّقي من شقي بقضاء الله وقدره فيموت على الكفر.

وأمّا المقضيّ من أمر الله تعالى فهو ما كان يستعيذ منه رسول الله ﷺ لما في حديث أبي هريرة «كَانَ النَّبيُّ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنْ هَذِهِ الثَّلاثَةِ: مِنْ دَرْكِ الشَّقَاءِ وَشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ وَسُوءِ الْقَضَاءِ(٥)». وجاء عند مسلم بلفظ «كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنْ سُوءِ الْقَضَاءِ وَمِنْ دَرْكِ الشَّقَاءِ وَمِنْ شَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ وَمِنْ جَهْدِ الْبَلاءِ(٦)». (قال) الكرماني [هو بمعنى المقضي إذ حكم الله تعالى من حيث هو حكمه فكلّه حسن لا سوء فيه، أمّا الاستعاذة من سوء القضاء

(١) انظر فتح الباري [ج ١١ ص ١٥٣].

(٢) انظر شرح مسلم [ج ١ ص ١٥٤].

(٣) من حديث صحيح أخرجه البخاري [٥٠] ومسلم [٨] وأبو داود [٤٦٩٥].

(٤) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٦٤] وابن ماجه [٣٣٧٩].

(٥) حديث صحيح أخرجه البخاري [٦٣٤٧] والنّسائي [٥٥٠٧].

(٦) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٧٠٧].

فيدخل فيها سوء القضاء فى الدِّين والدُّنيا والبدن والمال والأهل وقد يكون ذلك فى الخاتمة(١)].

والشّقاء فى قوله «منْ دَرك الشَّقَاء» الشدّة والعُسر وهو ضدّ السّعادة، ويُطلق على السّبب المؤدّى إلى الهلاك، أمّا «شَمَاتَةَ الأَعْدَاء» فهى الحزن بفرح عدوّه والفرح بحزنه، وهى ممّا ينكأ فى القلب ويؤثّر فى النّفس تأثيرا شديدا.

وإنّما دعا النّبى ﷺ بتلك الدّعوة الجامعة تعليما لأمّته، ولأنّ المكروه إمّا أن يلاحظ من جهة المبدأ وهو «سُوءُ الْقَضَاء» أو من جهة المعاد وهو «دَرَكُ الشَّقَاء» إذ شقاوة الآخرة هى الشّقاء الحقيقى، أو من جهة المعاش، وذلك إمّا من جهة غيره وهو «شَمَاتَةُ الأَعْدَاء» أو من جهة نفسه وهو «جَهْدُ الْبَلاَء». وجاء فى الصّحيح عن عائشة قالت «فَقَدْتُ النَّبيَّ ﷺ منَ الْفرَاش فَوقَعتْ يَدى عَلَى بَطْنِ قَدَميْه وَهُوَ سَاجدٌ يَقُولُ اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ برضَاكَ منْ سَخَطكَ، وأعُوذُ بمُعَافَاتكَ منْ عُقُوبَتكَ، وأعُوذُ بكَ منْكَ، لاَ أُحْصى ثَناءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسكَ(٢)».

وفيه تأتى استعاذته ﷺ بصفة الرّضا من صفة السّخط، وبفعل المعافاة من فعل العقوبة، وأنّ ذلك كلّه راجع إليه وحده لا إلى غيره فهو يقول [ما أعوذ منه واقع بمشيئتك وإرادتك، وما أعوذ به من رضاك ومعافاتك هو بمشيئتك وإرادتك، إن شئت أن ترضى عن عبدك وتعافيه، وإن شئت أن تغضب عليه وتعاقبه، فأعذنى ممّا أكره وامنعه أن يحلّ بى، فالمحبوب والمكروه بقضائك ومشيئتك].

ومن المسائل المتّصلة بالقضاء:

(أ) الاستعاذة من المغرم والمأثم

رُوى فى الصّحيح عن عائشة «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ أَكْثَرَ مَا يَتَعوَّذُ منَ الْمَغْرَمِ وَالْمَأْثَم، فَقُلْتُ يَارَسُولَ الله مَا أَكْثَرَ مَا تَتَعوَّذُ منَ الْمَغْرَمِ؟ قَالَ إنَّهُ منْ غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ(٣)». و[الْمَغْرَمُ] ما يقتضى الغرم، و[الْمَأْثَمُ] ما يقتضى الإثم.

ولقد جاء تفسير[المغرم] عند العلماء على قولين:

(الأوّل) أنّ المغرم «كمصدر» إذا وُضع موضع «الاسم» فإنّه يُراد به مغرم الذّنوب والمعاصى ويكون مُرادفا للمآثم ومنه [الْغَرَامُ]: العذاب الدّائم أو الهلاك الملازم ومن ذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٥].

(الثّانى) أنّ المغرم هو الدَّيْنُ ويُراد به ما استُدين فيما يكرهه الله تعالى أو فيما

---

(١) انظر نووى مسلم [ج ٩ ص ٣٨]. (٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٤٨٦] وأبو داود [٨٧٩]. (٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٨٣٢] ومسلم [٥٨٧] والنّسائى [٥٤٦٩].

(الثّانى) أنّ المغرم هو الدَّيْنُ ويُراد به ما استُدين فيما يكرهه الله تعالى أو فيما يجوز ثمّ عجز عن أدائه، وقيل هو ما يُصيب الإنسان فى ماله من ضرر بغير جناية منه.

أمّا [المأثم] فهو الأمر الذى يأثم الإنسان بارتكابه كالزّنا وشرب الخمر وغيرهما من المعاصى؛ أو هو الإثم نفسه وضعا للمصدر موضع الاسم؛ والإثم ما يجب التّحرُّز منه شرعا وطبعا ومنه قوله تعالى:

* ﴿لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٨٨].
* ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة:٢].
* ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة:٦٢].

(٣) الاستعاذة من شرّ السّمع والبصر واللسان

جاء تفسير قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦]. عند العلماء على قولين:

(الأوّل) أنّ كلّ هذه الحواسّ تُسأل عمّا اكتسبت، فالفؤاد يُسأل عمّا فكّر فيه واعتقده والسّمع والبصر عمّا رأى من ذلك وسمع.

(الثّانى) أنّ الله جلّ ثناؤه يسأل الإنسان يوم الحساب عمّا حواه سمعه وبصره وفؤاده، فالإنسان راع على جوارحه فكأنّه قال كلّ هذا كان الإنسان عنه مسئولا فهو على حذف مضاف.

والمعنى [الأوّل] أبلغ فى الحُجَّة لوقوع تكذيبه من جوارحه ذاتها وتلك غاية الخزى وهو ما ذكره قول الله تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس:٦٥]. وقول الله تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت:٢٠].

وعبّر سبحانه عن السّمع والبصر والفؤاد بلفظة «كُلُّ أُولَئِكَ»: لأنّها حواسّ لها إدراك وجعلها فى هذه الآية مسئولة، فهى حالة من يعقل فلذلك عَبّر عنها [بأُولَئِكَ].

وتأتي دلالة ذلك ممّا روى فى الصّحيح عن ابن حميد قال «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ يَارَسُولَ الله عَلِّمْنِي تَعَوُّذًا أَتَعَوَّذُ به؟ فَأَخَذَ بِيَدِي ثُمّ قَالَ قُلْ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي، وَشَرِّ بَصَرِي، وَشَرِّ لِسَانِي، وَشَرِّ قَلْبِي، وَشَرِّ مَنِيِّي[1]». فعلّمه رسول الله ﷺ التّعوّذ من شرّ تلك الحواسّ المسئول عنها أمام الله يوم القيامة، فكان أوّل ما أشار إليه:

* «شرّ السّمع»: بأن لا يسمع حقّا كالأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، أو يسمع

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى فى الأدب المفرد [٦٦٣] والتّرمذى [٣٤٩٢] وأبو داود [١٥٥١].

الزّور والبهتان وسائر أسباب العصيان

* ثمّ ألحق ذلك «بشر البصر»: بأن ينظر إلي ما لا يحل النّظر إليه، ومنه النّظر على وجه الاحتقار لأحد، أو أهمل النّظر فيما يُطلب إليه النّظر.

* ثمّ جمع معهما «شرّ اللّسان»: بأن يتكلّم فيما لا يجوز أو فيما لا يعنى.

وفى قول الله تعالى﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾[البلد:٨-٩]. يُعدّد سبحانه نعمه على الإنسان: [بالْعينين] اللّتين يبصر بهما، و[باللّسان]الذى ينطق به، و[بالشّفَتَيْن] اللّتين يستر بهما ثغره، والمعنى: نحن فعلنا ذلك ونحن نقدر على أن نبعثه ونُحصى عليه ما عمله، وفيه قال قتادة :[نعم الله ظاهرة يقرّرك بها حتّى تشكر، وعن أبى حازم أنّ رسول الله ﷺ أبلغ عن ربّه تعالى «يا ابن آدم إنْ نازعك لسانُك فيما حرَّمْتُ عليك فقد أعنتك عليه بطبقين فأطبق، وإنْ نازعك بصرُك فيما حرَّمتُ عليك فقدْ أعنتُ عليْه بطبقيْن فأطْبق»[1]].

ثمّ يبيّن رسول الله ﷺ أنّ شرّ الجوارح مُرتبط بما هو كامن فى القلب من مخزون الشرّ بقوله «ومنْ شرّ قلْبى»: بأن يُشغله بغير الله تعالى أو بما نهى عنه من حقد وحسد وعداوة وبغضاء ونحو ذلك من الآفات ثمّ أعقب ذلك بالتّعوّذ من «شرّ المنِى». ويراد بذلك واحد من أمرين:

(١) أن يراد بالمنى الفرج الذى هو محلّه.

(٢) أنّه المنى المشهور بمعنى [الماء المعروف] كما أُشير إليه مُضافا إلى ياء المتكلّم بقوله «وشرّ منِيّى».

ويقصد بالتّعوُّذ من «شرِّ الْمنىّ» عدم وضعه فى غير محلّه المشروع له أو أن يجرّ بصاحبه إلى مقدّمات الزّنا من النّظر واللّمس وغير ذلك ممّا نهى عنه الدّين الحنيف والشّرع الشّريف.

(٣) الإستعاذة من شرّ العمل

العمل يعمّ أفعال الجوارح والقلوب [أو] هو إحداث أمر قولا كان أو فعلا بالجارحة أو القلب، [أو] هو كل فعل يكون من الآدمى بقصد فلا يُطلق إلاّ على ما كان عن فكر وروية، ولهذا قُرن بالعلم وهو أخصّ من الفعل ومنه قوله تعالى﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾[الكهف:٣٠].وقوله ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾[الغاشية:٣] .كناية عن التّعب والإجهاد والمشقّة فى العبادة غير الصّحيحة شرعا وغير المقبولة عملا.

ويأتى قول النّبى ﷺ من رواية مسلم «اللّهُمّ إنّى أعوذُ بكَ منْ شرّ ما عملْتُ ومنْ شرّ

(١) انظر تفسيرالقرطبى [ج ٢٠ ص ٦٥].

مَا لَمْ أَعْمَلْ[١]». تعليما للأمّة النّجيبة وأداء لحقّ الرُّبوبيّة وتواضعا للحضرة الإلهيّة، وهو يتضمّن الاستعاذة من شرّ العمل حالا واستقبالا:

(١) فقوله «منْ شَرِّ مَا عَمِلْتُ»: يتضمّن استعاذته بربّه تعالى من أن يعمل في المستقبل من الزّمان ما لا يرضاه الله فإنّه لا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون.

(٢) وفي قوله «منْ شَرِّ مَا لَمْ أَعْمَلْ»: تحصّن بالله سبحانه من أى عمل في المستقبل يقتضى العقوبة في الدّنيا والأخرة، وقيل إن محلّ الاستعاذة هنا من أن يصير معجبا بنفسه في ترك القبائح، وسأل أن يرى ذلك من فضل الله عليه لا بحوله وقوّته.

وكما أنّ الله تعالى ﴿لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ فإنّه يضرب في كتابه بالذَّرَّة التى لا وزن لها مثلاً على أنّه لا يغفل من عمل ابن آدم صغيرة ولا كبيرة كما في قوله تعالى ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[الزلزلة: ٧-٨]. وقيل في تفسيره إنّ الكافر يفعل الخير فيرى ثوابه في نفسه وماله وأهله وولده، حتّى يخرج من الدّنيا وليس له عند الله من خير، ويعمل المؤمن مثقال الذّر من الشّر فيرى عقوبته في نفسه وماله وولده حتّى يخرج من الدّنيا وليس له عند الله من شرّ.

ودليل ذلك ما رواه العلماء الأَثْبَاتُ من حديث أنس «أَنَّ هَذه الآيَةَ نَزَلَتْ عَلَى النَّبيِّ ﷺ وأَبو بَكْرٍ رضي الله عنه يأْكُلُ فَأَمْسَكَ وقَالَ: يَارَسُولَ الله وإنَّا لنرَى مَا عَملْنَا منْ خَيْرٍ وشَرٍّ؟ قَالَ وما رَأَيْتَ ممَّا تكرَهُ فهُوَ مثَاقِيلُ ذَرِّ الشَّرِّ، وَيَدَّخرُ لَكُمْ مثَاقيلَ ذَرِّ الْخَيْرِ حَتَّى تُعطَوْهُ يَوْمَ الْقيَامَة[٢]». وجاء في رواية «فأَمْسَكَ أَبو بَكْرٍ وقَالَ يارَسُولَ الله أَكُلُّ مَا عَملْنَا من سُوءٍ رأَيْنَاهُ؟ فَقَالَ مَا تَرَوْنَ ممَّا تَكْرَهُونَ فَذلكَ مَا تُجزَوْنَ، يُؤَخِّرُ الْخَيْرَ لأَهله فى الأَخرَة».

(قال) مُقاتل [نزلت الآية في رجلين كان أحدهم يأتيه السّائل فيستقلّ أن يعطيه التّمرة والكسرة والجَوْزة، وكان الآخر يتهاون بالذّنب اليسير كالكذبة والنّظرة ويقول: إنّما أوعد الله النّار على الكبائر].

فنزلت الآيات ترغّبهم في القليل من الخير أن يُعطوه فإنّه يُوشك أن يكثر، ويحذّرهم اليسير من الذّنب أن يفعلوه فإنّه يوشك أن يكثر، فالإثم الصّغير في عين صاحبه يوم القيامة أعظم من الجبال، وجميع محاسنه أقل في عينه من كلّ شىء، وروى مالك في الموطأ «أَنَّ مسْكينًا اسْتَطْعَمَ عَائشَةَ وَبَيْنَ يدَيْهَا عنَبٌ، فقَالَتْ لإنْسَانٍ: خُذْ حَبَّةً فأَعْطه إيَّاهَا، فَجعَلَ يَنْظُرُ إلَيْهَا وَيَعْجَبُ! فَقَالَتْ أَتَعْجَبُ! كَمْ تَرَى في هَذه الْحَبَّة منْ مثْقَال ذَرَّةٍ؟[٣]».

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٧١٦] وأبو داود [١٥٥٠] والتّرمذى [٣٣٩٣].

(٢) رواه الحاكم عن أبى أسماء الرّحبى بإسناد صحيح [٤٠١٧].

(٣) أخرجه مالك في الموطأ بإسناد صحيح [١٨١٦].

خامس عشر - الاستعاذة من هول ما بعد الموت

ما بعد الموت هى تلك الحقيقة التى لا تُنكر عندما يردّ الله على المرء روحه وسمعه وبصره، ليواجه أوّل مراحل الآخرة فى قبره بسُؤال الملَكين له عن دينه وربّه ونبيّه ﷺ ثمّ يُنعّم بعد ذلك أو يُعذّب لما ورد من الأحاديث التى تؤكّد هذا كلّه، ومن ذلك ما روى عن عثمان رضي الله عنه قال «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذا فرغ من دَفْنِ الْمَيِّتِ وَقَفَ عَلَيْهِ وَقَالَ اسْتَغْفِرُوا لأَخِيكُمْ وَاسْأَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ فَإِنَّهُ الأَنَ يُسْأَلُ[١]». أى اطلبوا له التثبيت على القول الحقّ والنّطق بالصّواب عند السّؤال، فإنّه الآن يُسْأَلُ عن ربّه ودينه ونبيّه ﷺ، وفيه الدّلالة على أنّ الميت ستحلّه الحياة فى القبر، وعلى ثبوت سؤال الميّت فيه وعلى أنّ السّؤال يكون عقب الدّفن.

ويتعلّق بالتّعوُّذ من هول ما بعد الموت عرض المسائل التّالية:

(أ) الاستعاذة من تخبّط الشّيطان عند الموت

على المؤمن أن يستعيذ بربّه تعالى من تخبُّط الشّيطان له عند موته وإفساد دينه عليه واستيلائه على عقله عند مفارقة الدّنيا، فيضلّه ويحول بينه وبين التّوبة ويعوقه عن إصلاح شأنه أو الخروج من مظلمة تكون عنده، أو توبة من رحمه الله أو يُكرِّهُ له الموتَ لقوله ﷺ «وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنِى الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ[٢]».

وقوله «يَتَخَبَّطَنِى»: من خَبَطَ يَخْبِطُ خَبْطًا: ضربه بشدّة. ومنه [تَخَبَّطَ الشّيطانُ فلانا يتخبَّطُهُ تخبُّطًا]: إذا مسَّهُ وأفسد عقله. و[خُبِطَ فلانٌ]: صُرِعَ بعلّة، وفى القرآن الكريم ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾. أى المصروع الذى لا يعى وكأنّه أُصيب بمسٍّ من الجنون.

(قال) السِّنْدىُّ [فى قوله «يَتَخَبَّطَنِى»: أن يُؤَيِّسَه من رحمة الله تعالى أو يُكرِّهَ له الموت ويؤسّفه على حياة الدّنيا، فلا يرضى بما قضاه الله عليه من الفناء والنّقلة إلى الدّار الآخرة فيُختم له بالسّوء ويلقى الله وهو عليه ساخط]. وقد رُوى عن الخطّابى قوله [إنّ الشّيطان لا يكون فى حال أشدّ على ابن آدم منه فى حال الموت يقول لإخوانه دونكم هذا فإنّه إن فاتكم اليوم لم تلحقوه[٣]]. وجاء فى رواية لابن أبى الدّنيا «إِنَّ الشَّيْطَانَ أَشَدُّ مَا يَكُونُ عَلَى ابْنِ آدَمَ حِينَ الْمَوْتِ، يَقُولُ لأعوانه: دُونَكُمْ هَذَا فَإِنَّهُ إِنْ فَاتَكُمْ لَنْ تَظْفَرُوا بِهِ أَبَدًا[٤]».

---

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣٢٢١]. (٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود [١٥٥٢] والنّسائى [٥٥٤٦]. (٣) انظر سنن أبى داود [ج ١ ص ٥٧٣] وسُنن النّسائى [ج ٤ ص ٦٨٢]. (٤) أخرجه ابن أبى الدّنيا فى مكائد الشّيطان برقم [٣١].

(٢) الاستعاذة من فتنة القبر وعذابه

عقيدة المسلم أنّ فتنة القبر وعذابه حقّ لا ينكره إلاّ الكافر، كما أنّ المُنعَّم فيه والمُعذَّب عند أهل السُّنَّة الجسد والرّوح جميعا، وهو ما دلّت عليه الأحاديث الصّحيحة التي بلغت حدّ الشّهرة والتي منها قول عائشة «سألْتُ النّبيَّ ﷺ عَنْ عَذَابِ الْقَبْرِ فَقَالَ إنَّ عَذَابَ الْقَبْرِ حَقٌّ، وَهُمْ يُعَذَّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ عَذَابًا تَسْمَعُهُ الْبَهَائِمُ[١]».

ولذلك كان تعليم النّبى ﷺ للأُمَّة أن تتعوّذ من عذاب القبر وفتنته وهو ما عبّر عنه رسول الله ﷺ :

* بفتنة القبر فى قوله «إِنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ[٢]».
* وأشار بأنّه «عذاب القبر». بقوله «وَأَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ[٣]»
* وقوله ﷺ عن أبى هريرة رضي الله عنه إِذَا فَرَغَ أَحَدُكُمْ مِنَ التَّشَهُّدِ الأَخِيرِ فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ[٤]». وجاء عند البخارى عن عائشة «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلاَةِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ[٥]». ووقع عند الطّبرانى بلفظ «اسْتَجِيرُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ فَإِنَّ عَذَابَ الْقَبْرِ حَقٌّ[٦]».

وتأتى الإجابة عن الأسباب التى يُعذّب بها أصحاب القبور من وجهين:

(الأوّل مُجمل) فهم يُعذّبون على جهلهم بالله وإضاعتهم لأمره وارتكابهم لمعاصيه، فلا يُعذّب الله روحا عرفته وأحبّته وامتثلت لأمره واجتنبت نهيه ولا بدَنًا كانت فيه أبدا، فإنّ عذاب القبر وعذاب الآخرة أثرٌ لغضب الله وسخطه على عبده، فمن أغضب الله وأسخطه فى هذه الدّار ثمّ لم يتبّ ومات على ذلك كان له من عذاب البرزخ بقدر غضب الله وسخطه عليه، فمستقلٌ ومستكثرٌ ومصدّقٌ ومكذّبٌ.

و(الثّانى مُفصّل) ويتبيّن منه أنّ أكثر «عَذَابِ الْقَبْرِ» لا يكون إلاّ من الغيبة والبول ومخالفة الأمر والنّهى كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ :

* فقال عندما مرّ على القبرين «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ: أَمَّا أَحَدُهُمَا

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٣٦٦] ومسلم [٩٠٣] والنّسائى [٢٠٦٥].

(٢) من حديث صحيح أخرجه النّسائى [٥٥١٩].

(٣) من حديث صحيح أخرجه أحمد [٢٣٤٢] والنّسائى [٥٥٢٠].

(٤) من حديث صحيح أخرجه البخارى [١٣٧٧] وأبو داود [٨٨٠] وابن ماجه [٧٥٠].

(٥) حديث صحيح أخرجه البخارى [٨٣٢] ومسلم [٥٨٧].

(٦) انظر فتح البارى [ج ٣ ص ٢٨٥].

فَكَانَ لاَ يَسْتَنْزِهُ مِن بَوْلِه، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ[1]». وقوله «وَمَا يُعَذَّبان فِي كَبِيرٍ»: أى ليس بكبير في الصّورة لأنّ تعاطى ذلك يدلّ على الدّناءة والحقارة وهو كبير الذّنب، وقيل ليس بكبير في مشقّة الاحتراز، أى كان لا يشقّ عليهما الاحتراز من ذلك، أمّا معنى قوله «لاَ يَسْتَنْزِهُ»: أى لا يستبرئ ولا يتطهّر من بوله ولا يحترز من وقوع رذاذه عليه.

* وجاء في رواية ابن ماجه «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَان وَمَا يُعَذَّبَان فِي كَبِيرٍ: أَمَّا أَحَدُهُمَا فَيُعَذَّبُ فِي الْبَوْلِ وَأَمَّا الآخَرُ فَيُعَذَّبُ فِي الْغِيْبَةِ[2]».

* وجاء في رواية البخارى «وَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِه[3]». أى لا يستتر حال البول عن الأعين ويكون العذاب حينئذ على كشف العورة، والأقرب أنّ معنى «يَسْتَتِرُ»: لا يجعل بينه وبين البول سترا ومانعا يحول دون وصوله إليه حتّى لا يصيبه، فيكون المراد بعدم الاستتار «عَدَمَ التَّنَزُّهِ» عن البول والاستبراء منه فتكون موافقة لباقى الرّوايات.

(قال) ابن المنير :[المراد بتخصيص هذين الأمرين بالذّكر تعظيم أمرهما لا نفى الحكم عمّا عداهما، فعلى هذا لا يلزم من ذكرهما حصر عذاب القبر فيهما، لكنّ الظّاهر من الاقتصار على ذكرهما أنّهما أمكن في ذلك من غيرهما[4]].

ويرجع سبب كونهما كبيرتين إلى:

(١) أنّ عدم التَّنَزُّه من البول يلزم منه بطلان الصّلاة فكان ترك الطّهارة الواجبة لها «كَبِيرَةٌ». وسياق الأحاديث يدلّ على أنّ للبول بالنّسبة إلى عذاب القبر خصوصيّة، وهو ما تشير إليه رواية ابن ماجه من حديث أبي هريرة مرفوعا «أَكْثَرُ عَذَابِ الْقَبْرِ مِنَ الْبَوْلِ[5]». وجاء عن ابن عبّاس بلفظ «إِنَّ عَامَّةَ عَذَابِ الْقَبْرِ مِنَ الْبَوْلِ فَتَنَزَّهُوا مِنْهُ[6]». بسبب ترك التّحرّز منه، وذكر الطّحاوى حديث ابن مسعود في «الَّذِى ضُرِبَ سَوْطًا امْتَلأَ الْقَبْرُ عَلَيْهِ بِهِ نَارًا لِكَوْنِهِ صَلَّى صَلاَةً وَاحِدَةً مِنْ غَيْرِ طُهُورٍ».

(٢) أنّ المشي بالنّميمة والسّعي بالفساد من الأسباب الموقعة للعداوة بين النّاس باللّسان

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٢١٨] وابن ماجه [٢٨٢] وأبو داود [٢٠].

(٢) حديث حسن أخرجه ابن ماجه [٢٨٤].

(٣) من حديث صحيح أخرجه البخارى [١٣٧٨] ومسلم [٢٩٢].

(٤) انظر فتح البارى [ج ٣ ص ٢٨٦].

(٥) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٢٨٣] والحاكم [٦٧٣] وأورده في الإرواء [٢٨٠].

(٦) أورده في صحيح الجامع [٢١٠٢] وصحيح التّرغيب [١٥٢].

وهو «كَبِيرَةٌ» ولا سيّما مع قوله ﷺ «كَانَ يَمْشِي» بلفظ «كَانَ» التي هي للحالة المستمرّة غالبا، وفي هذا تنبيه على أنّ المُوقع بينهم العداوة بالكذب والزّور والبهتان أعظم عذابا وأشدّ نكالا في قبره.

ويُستفاد من الدّلالات التي تحملها الأحاديث الواردة في هذه المسألة:

أوّلا - أنّ عذاب القبر حقّ يجب الإيمان به إيمانا جازما وهو مذهب أهل السُّنّة والجماعة وأنّ الله تبارك تعالى يُحيي العبد ويردّ إليه الحياة والعقل كما نطقت به الأخبار الصّحيحة الصّريحة عن النّبي ﷺ.

ثانيا - أنّ المعذَّب عند أهل السُّنَّة الجسد كلّه بعد إعادة الرّوح إليه، وأنّ لأهل القبور حياة يُدركون بها أثر التّنعيم والتّعذيب ولو تفتّتت أجسادهم، وهو أمر غيبيّ لا ينبغي أن نبحث عن كيفيّته، وحال صاحبه فيه كحال النّائم الذي يرى الملاذ والمؤلمات ولا يرى مَنْ بجواره شيئا، وإنّما سُتر عنّا ذلك رحمة بنا ولضعفنا.

ويأتي دليل ذلك قول النّبي ﷺ من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه «إِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا؛ فَلَوْلاَ أَنْ لاَ تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ(١)». وجاء عند النّسائي من حديث أنس رضي الله عنه «لَوْلاَ أَنْ لاَ تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ عَذَابَ الْقَبْرِ(٢)». من الإسماع أي يسمعكم الصّوت الذي هو أثر التّعذيب.

وفي الحديث معنيان:

(الأوّل) إذا كانت «لاَ» في قوله «أَنْ لاَ تَدَافَنُوا» زائدة فالمعنى لولا الخوف من الموت والدّفن بسبب سماع ذلك لدعوت.

(الثّاني) إذا كانت «لاَ» أصلية فالمعنى لولا خوف ترك دفن موتاكم لما يحصل لكم من الفزع والأهوال لدعوت.

ثالثا - وفيها التّحذير من ملابسة البول قليله وكثيره وهو مذهب عامّة الفقهاء غير أنّه يُعفى عمّا لا يمكن الاحتراز عنه، ويلتحق به غيره من النّجاسات في البدن والثّوب، كما يُستدلّ بها على وجوب إزالة النّجاسة خلافا لمن خصّ الوجوب بوقت إرادة الصّلاة والله تعالى أعلم [(٣)].

رابعا - كما دلّت على أنّ عذاب القبر يكون عن معاصي القلب والعين والأذن والفم واللّسان والبطن والفرج واليد والرّجل والبدن كلّه [(٤)].

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٦٧ / ٢٨٦٧]. (٢) حديث صحيح أخرجه النّسائي [٢٠٥٧] وأحمد [١١٩٤٦] وابن حبّان [٧٨٥] عن أبي سعيد. (٣) انظر فتح البارى [ج ١ ص ٣٨٤]. (٤) انظر انظر كتاب الرّوح لابن القيّم [ص ٧٨].

(القسم الثانى)

ما يُعتصم به من الشّياطين ويُحترز به من شرّهم

إنّ من أعظم ما يُدفع به شرّ الأبالسة ويحفظ من أذى شياطين الجنّ ويُحترز به من شرّ ما خلق وذرأ وبرأ، ما شرعه رسول الله ﷺ للمسلم من ذكره لربّه على كلّ حال لقوله ﷺ «وآمُرُكُم أنْ تذكُرُوا اللّهَ تعالَى، فإنّ مثل ذلكَ كمثلِ رجلٍ خرجَ العدُوُّ في أثرِه سِراعًا حتّى إذا أتى على حصنٍ حصينٍ فأحرزَ نفسَهُ منهُم، كذلكَ العبدُ لا يُحرزُ نفسَهُ منَ الشّيطانِ إلاّ بذكرِ اللهِ تعالَى». وجاء عند أحمد بلفظ «وإنّ العبدَ أحصنُ ما يكونُ منَ الشّيطانِ إذا كانَ في ذكرِ اللهِ عزّ وجلّ(١)».

ويُقصد بالذّكر ما يجرى على «اللّسانِ والقلبِ» معا، وأكمله ما كان فيه استحضار معنى الذّكر، وما اشتمل عليه من تعظيم الله تعالى، ونفى النّقائص عنه سبحانه، وإنشاء الثّناء عليه وتنزيهه وتقديسه عمّا لا يليق بجلاله، ويشمل التّسبيح، والتّحميد، والتّهليل، وقراءة القرآن، والتّعوّذ وغير ذلك من الأذكار التى وردت فى السُّنّة الصّحيحة مُقترنة بالأعمال والأحوال، والذّكر كما قال العلماء نوعان:

(أحدهما) ذكر أسماء الله تعالى وصفاته والثّناء عليه بهما وتنزيهه وتقديسه عمّا لا يليق به وينقسم إلى قسمين :

(١) إنشاء الثّناء عليه بهما من الذّاكر وهو الوارد نحو قوله «سُبْحَانَ الله، وَالْحَمْدُ لله وَلاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَاللهُ أكْبَرُ، وَسُبْحَانَ الله وَبحَمْده». ونحو ذلك، فأفضل هذا الذّكر أجمعه «للثّناء» وأعمّه له ومنه حديث جويرية «أنَّ النّبيَّ ﷺ قَالَ لَهَا: لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أرْبَعَ كَلمَاتٍ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنَتْ بمَا قُلتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ الله وَبحَمْده عَدَدَ خَلْقِه، وَرِضَا نَفْسِه، وَزِنَةَ عَرْشِه، وَمِدَادَ كَلمَاته(٢)».

(٢) الإخبار عن الله تعالى بأحكام أسمائه وصفاته نحو قول المسلم «الله عزّ وجلّ يسمع أصوات عباده ويرى حركاتهم ولا تخفى عليه خافية من أعمالهم، وهو أرحم بهم من آباءهم وأمّهاتهم، وهو على كلّ شىء قدير». وأفضل هذا النّوع الثّناء عليه بما أثنى به على نفسه وبما أثنى به عليه رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تشبيه ولا تمثيل، ويتضمّن هذا الذّكر ثلاثة أنواع: حمد وثناء ومجد.

ولا يتحقّق [الْحَمْدُ] إلاّ بالإخبار عنه بصفات كماله مع محبّته والرّضا به، فلا يكون

---

(١) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٢٨٦٣] وأحمد [١٧١٠٤] والطّبرانى فى الكبير [٣٤٢٧].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٧٢٦] وابن ماجه [٣٠٨٥].

المحبّ السّاكت حامدا ولا المثني بلا محبّة حامدا حتّى تجتمع له [المحبّة والثّناء والمجد].

وقد جمع الله تعالى لعبده هذه الأنواع الثّلاثة في أوّل الفاتحة كما في حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ « .. فإذا قالَ العبدُ الحمْدُ لله ربِّ العَالَمين، قالَ اللهُ تعالى حمدَني عبْدي، وإذا قالَ الرَّحْمنِ الرَّحيم، قالَ اللهُ تعالى أثْنى عليَّ عبْدي، وإذا قالَ مالكِ يَوْمِ الدِّين، قالَ اللهُ تعالى مَجَّدَني عبْدي(1) ».

(الثّاني) ذكر أمره ونهيه وأحكامه وهو أيضا ثلاثة أنواع(2):

(1) ذكره بذلك إخبارا عنه بأنّه سبحانه أمَرَ بكذا ونَهى عن كذا وأحبّ كذا وسخط كذا ورضي كذا.

(2) ذكره عند أمره فيُبادر إليه، وعند نهيه فيهرب منه، فذكر أمره ونهيه شيء، وذكره عند أمره ونهيه شيء آخر.

(3) ذكر آلائه سبحانه وإنعامه وإحسانه وأياديه ومواقع فضله على عبيده وهو من أجلّ أنواع الذّكر.

وأفضل الذّكر ما تواطأ عليه القلب واللّسان وإن كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللّسان وحده، لأنّ ذكر القلب يُثمر المعرفة والمحبّة ويُثير الحياء ويبعث على المخافة ويدعو إلى المراقبة ويزعّ عن التّقصير في الطّاعات، أمّا ذكر اللّسان وحده فلا يوجب شيئا من هذه الآثار [(3)].

كما أنّ حفْظَ الله تعالى لعبده من كيد كلّ شيطان مَريد لا يكون إلاّ بالتّوكّل عليه، والثّقة الكاملة بأنّه الحافظ من كلّ شرّ من قوله تعالى ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: 64]. أي صائنا لعبده حارسا له يوقيه ويحميه من كلّ كيد وشرّ، وقُرِئَ «فالله خَيْرٌ حِفْظًا» أي صيانة ورعاية والمعنى واحد، من حَفِظَ الشّيْءَ يَحْفَظُه حِفْظًا: صَانَهُ ورَعَاهُ، واسم الفاعل: «حَافِظٌ» وصيغته المبالغة: «حَفيظٌ» من أسماء الله الحسنى من قوله تعالى ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود: 57]. أي رقيب مهيمن شديد الحفظ [(4)].

---

(1) من حديث صحيح أخرجه مسلم [395] وأبو داود [821] والتّرمذي [312].

(2) الذّكر ضدّ النّسيان ولذلك عرّفوه بأنّه هيئة للنّفس تُمكّن الإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة؛ والفرق بينه وبين الحفظ أنّ الحفظ يُقال اعتبارا بإحرازه والذّكر يُقال اعتبارا باستحضاره؛ ويُطلق على حضور الشّيء بالقلب أو القول؛ ولهذا قيل: الذّكر ذكران: ذكر بالقلب وذكر باللّسان وكلّ واحد منهما ضربان: ذكر عن نسيان وذكر لا عن نسيان بل من إدامة الحفظ. [انظر بصائر ذوي التّمييز 2 / 9 - 15].

(3) انظر الوابل الصّيّب [ص 83 - 85].

(4) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج 1 ص 578].

ومن الملائكة من هم مسخّرون لحفظ الإنسان من كلّ شرّ بأمر ربّهم كما في قوله سبحانه ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾[الرّعد: ١١]. أى ملائكة يحفظونه بأمر الله من قضاء الله تعالى وأمره، أو يحفظونه من أمر الله لهم بحفظه والدّليل عليه قراءة من قرأ «يحْفَظُونَهُ بأمْرِ الله».

ونظير هذه الآية قول الله تعالى ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٍ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٌ﴾[الطارق: ٤]. والمعنى أنّ كلّ نفس عليها من الله سبحانه حافظ يحفظها ويصونها، وفي أثر عن أبي أمامة رضي الله عنه [وُكِّل بالمُؤمن مائةٌ وستون ملَكًا يذُبُّون عنه ما لم يقدرْ عليه، ولَو وُكِّل العبدُ إلى نَفْسه طرْفَةَ عَيْنٍ لاَخْتطفَتْه الشَّياطين[١]].

وكما أنّ ذكر الله تعالى يُذْهبُ عن القلب مخاوفه كلّها فإنّ له تأثيرا عجيبا فى حصول هذا الأمن وتحقيقه، فليس للخائف الذى قد اشتدّ خوفه أنفع من ذكر الله تعالى إذ بحسب ذكره يجد الأمن ويزول الخوف كما في قوله تعالى ﴿وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفٍۭ﴾[قريش: ٤]. وقوله تعالى في وصف المؤمنين ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾[النّمل: ٨٩]. وقوله جل شأنه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾.

والذّاكر لربّه تعالى قريب منه إذ هو معه معيّة خاصّة تحقق القرب والولاية والمحبّة والنّصرة والتّوفيق كقول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾[النّحل: ١٢٨]. وقول الله تعالى ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[العنكبوت: ٦٩].

فللذّاكر من هذه المعيّة نصيب وافر كما في الحديث القدسي «أنا عند ظَنّ عَبْدى بِي وأنا معهُ حين يذكرني، إنْ ذكرَني في نفسه ذكرتُه في نفْسي، وإن ذكرَني في ملإٍ ذكرته في ملإٍ هُم خيْرٌ منْهُم[٢]». وللمسلم في دفع عداوة الجنّ والشّياطين أن يسلك المسلك الصّحيح الذى جاءه عن نبيّه الأكرم ﷺ من خلال الاعتماد على أمرين:

(الأوّل) إقلاع المرء عن المعاصي والذّنوب وتجنُّب الآثام التي تعتبر مدخلا لتسلُّط وإغواء الشّيطان اللّعين كما في قوله تعالى ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾[البقرة: ٢٦٨]. وقوله تعالى ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾[النّساء: ٦٠].

(الثّاني) إقباله على ذكر الله تعالى والإكثار منه، والاستعاذة به من الشّيطان والاعتصام بحبله وقوّته سبحانه دفعا لشرّ هذا اللّعين وإغوائه، ومنعا لنزغه وعداوته، وهذا من أعظم الجهاد في حربه الدّائرة مع الشّيطان وقد قال الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾[الأعراف: ٢٠١].

---

(١) انظر تفسير القرطبي [ج ٢٠ ص ٣].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٧٥] وافقه البخارى [٧٤٠٥] والتّرمذى [٣٦٠٣].

ولو لم يكن فى ذكر الله تعالى إلاّ الاحتراز من الشّيطان وتوقّيه لكان حقيقا بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر خالقه سبحانه فإنّه لا يحرز نفسه من عدوّه إلاّ به، ونورد فيما يلي بعض ما تضمّنه الهدى النّبوى من الأذكار والدّعوات التى يقولها العبد إذا أصبح، وإذا أمسى، وإذا نام، وإذا خاف شيئا، وأمثال ذلك من الأسباب التى تُبيِّن أهميّة الاحتراز من أذى كلّ ذى أذىً، والوقاية من شرّ كلّ ذى شرّ والتى منها:

(١) التّحصُّن بقراءة آية الكرسى

وقد أمر رسول الله ﷺ بقراءتها لما لها من تأثير عظيم فى دفع كيد الشّياطين وإبطال أحوالهم عن نفس الإنسان، و ممّن تعينه الشّياطين من أهل الظّلم والغضب لحديث أبى هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال «إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ وَلاَ يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ(١)». فإذا قُرئت بصدق وإخلاص دفعت كيدهم وردّت غيظهم وحالت دون أذاهم.

(٢) أثر التّسمية الفعّال فى ردّ كيد الشّيطان

كما أنّ للتّسمية أثرا فعالا فى ردّ كيد الشّيطان لما رواه أبو داود عن أبي المليح قال «كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ فَعَثَرَتْ دَابَّتُهُ فَقُلْتُ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ. فَقَالَ: لاَ تَقُلْ تَعِسَ الشَّيْطَانُ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَعَاظَمَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الْبَيْتِ وَيَقُولُ بِقُوَّتِي، وَلَكِنْ قُلْ بِسْمِ اللهِ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَصَاغَرَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الذُّبَابِ(٢)».

وبيّن رسول الله ﷺ أنّ من خرج من بيته مُعتمدا على ربّه ومتوكّلاً عليه لا يصيبه أذى من جنّ ولا إنس لما رواه التّرمذى عن أنس بن مالك من قوله ﷺ «مَنْ قَالَ يَعْنِي إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ: بِسْمِ اللهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ، يُقَالُ لَهُ كُفِيتَ وَهُدِيتَ وَوُقِيتَ وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ. فَيَقُولُ شَيْطَانٌ آخَرُ كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِىَ وَكُفِىَ وَوُقِىَ(٣)».
وقوله «يُقَالُ لَهُ» أى يُناديه مَلَكٌ بصيغة المجهول: ياعبد الله كُفيت مهمّاتك وحُفظت من شرّ أعدائك، وتباعد عنه الشّيطان.

وللتّسمية فى حياة المؤمنين أثر إيجابى فعّال يُمثّل التّرابط المتواصل بالله تعالى مع كلّ قول وفعل وحركة واتجاه، فهى الشّعار المعلن والحقيقة القائمة عند الشّروع فى أعمال الطّاعة والعبادة، كما علا شأنها عندهم حتّى أصبحت رمزا يدلّل المرء من خلاله على أنّ البدء باسم الله تعالى يمثل:

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٢٧٥].
(٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٤٩٨٢] والنّسائى [٥٥٥] فى عمل اليوم واللّيلة.
(٣) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٣٤٢٦] وأبو داود [٥٠٩٥].

[تمام الانقياد والاستسلام لأمر الله تعالى ومشيئته، وتحصيل توفيقه وبركته، وأنه سبحانه الواجد الحقّ الذى يستمدّ منه كلّ موجود وجوده، ويبدأ منه كلّ مبدوء بدأه، فباسمه سبحانه يكون كلّ ابتداء، وباسمه تكون كلّ حركة وانتهاء].

وللتّسمية فى أوّل الطّعام والشّراب وحمد الله فى آخره تأثير عجيب فى نفعه واستمرائه ودفع مضرّته، ورحم الله الإمام أحمد حين قال [إذا جمعَ الطَّعامُ أربعًا فقدْ كمُلَ: إذا ذُكِرَ اسْمُ الله فى أوّله وحُمِدَ فى آخرِه، وكَثُرت عليْه الأيْدى، وكَانَ منْ كَسْبِ حَلَالٍ(١)].

ولقد سجّل القرآنُ الكريم فى كثير من مواضعه التّوجيهيّة هذا البيان الرّبّانيّ الذى يحضّ على البدء بالتّسمية للدّلالة على أهميتها وتأكيدها فى حياة المسلم فقال تعالى:

* ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾[المائدة: ٤].

ونَهى سبحانه عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه إن كان التّرك للتّسمية عمدًا لا نسيانا﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾[الأنعام١٢١]. وفى سورة هود [٤١]: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وفى سورة النّمل [٣٠]: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ولقد صحّ عن نبيّنا ﷺ أنّه أمر عند إيكاء الإناء بذكر اسم الله، فإنّ ذكر اسم الله عند تخمير الإناء يطرد عنه الشّيطان، وإيكاؤه يطرد عنه الهوامّ، ولذلك أمر بذكر الله فى هذين الموضعين لهذين المعنيين، وتخمير الإناء تغطيته، وإيكاؤه شدّ رءوس الأواني بالخيط حتّي لا يتسرّب إليها شيء، ودليل ذلك قول النّبى ﷺ «إذَا كَانَ جُنْحُ اللَّيْلِ أَوْ أَمْسَيْتُمْ فَكُفُّوا صِبْيَانَكُمْ، فَإِنَّ الشّيَاطِين تَنْتَشِرُ حينَئذ، فَإِذَا ذَهَب ساعَةٌ منَ اللّيْلِ فخلُّوهُمْ وأغْلقُوا الأبْوَابَ وَاذْكُروا اسمَ الله فَإِنَّ الشّيْطَانَ لا يَفتَحُ بَابًا مُغْلَقًا، وأوكُوا قربَكُمْ واذْكُروا اسْمَ الله، وخَمّرُوا آنيَتكُمْ واذْكُروا اسْمَ الله، ولَوْ أنْ تعرضُوا عليْها شيْئًا، وأَطْفئُوا مَصابيحكُمْ(٢)».

وجاء فى رواية جابر «أغْلِقْ بَابَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ الله، وأَطْفِئْ مِصْبَاحَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ الله، وَخَمِّرْ إنَاءَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ الله، وأوْكِ سقَاءَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ الله(٣)». ومن رواية أنس «اذْكُرُوا اسْمَ الله ولْيَأْكُلْ كُلُّ رَجُلٍ ممَّا يَليه(٤)». وقوله «إنَّ الشَّيْطَانَ لَيَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ ألاّ يُذْكَرَ اسمُ الله عَلَيْه(٥)». وقوله ﷺ لعمر بن أبى سلمة عند البخارى «يَاغُلَامُ سَمِّ الله وكُلْ بيَمينكَ وكُلْ

---

(١) انظر زاد المعاد لابن القيّم [ج ٤ ص ٢٣٢].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٦٢٣] ومسلم [٩٧ / ٢٠١٢] وابن ماجه [٢٧٧٠].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٢٨٠] ومسلم [٢٠١].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥١٦٣] ومسلم [١٤٢٨].

(٥) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٠١٧] وأبو داود [٣٧٦٦].

ممَّا يَليكَ(1)». وعن عائشة رضى الله عنها عند أبى داود مرفوعا «إذا أكَلَ أحَدُكُمْ طَعامًا ما فَلْيَقُلْ بِسْمِ الله، فإنْ نَسيَ في أوَّلِه فَلْيَقُلْ بِسْمِ الله في أوَّلِه وآخِرِه(2)». وقال «ما أنْهَرَ الدَّمَ وَذُكِرَ اسْمُ الله فَكُلْ(3)».

وعن أنس قال «مَنْ قالَ - يعني إذا خَرَجَ من بَيْتِه - بِسْمِ الله تَوَكَّلْتُ عَلى الله ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله يُقالُ لَهُ: كُفيتَ ووُقيتَ وهُديتَ وتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطانُ(4)». وعند البخارى «لَوْ أنَّ أحَدَكُمْ إذا أتَى أهْلَهُ قالَ: بِسْمِ الله اللَّهُمَّ جَنِّبْنا الشَّيْطانَ وجَنِّبِ الشَّيْطانَ ما رَزَقْتَنا فَقُضيَ بَيْنَهُما لَمْ يَضُرَّهُ(5)». أى لم يضرّ الشّيطان الولد، وشكا إليه عثمان بن أبي العاص وجعًا في جسده فقال له رسول الله ﷺ «ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذى تَألَّمَ مِنْ جَسَدِكَ وقُلْ بِسْمِ الله ثَلاثًا وقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أعُوذُ بِعِزَّةِ الله وقُدْرَتِه مِنْ شَرِّ ما أجِدُ وأُحاذِرُ(6)».

كما روى ابن ماجه والتّرمذى «سَتْرُ ما بَيْنَ أعْيُنِ الْجِنِّ وعَوْراتِ بَني آدَمَ إذا دَخَلَ أحَدُهُمُ الْخَلاءَ أنْ يَقُولَ بِسْمِ الله(7)». وروى النّسائى عن أبى المليح عن أبيه «إذا عَثَرَتْ بِكَ الدَّابَّةُ فَلا تَقُلْ تَعِسَ الشَّيْطانُ فإنَّهُ يَتَعاظَمُ حَتَّى يَصيرَ مِثْلَ الْبَيْتِ ويَقُولُ بِقُوَّتي صَرَعْتُهُ، ولَكِنْ قُلْ: بِسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحيمِ فإنَّهُ يَتَصاغَرُ حَتَّى يَصيرَ مِثْلَ الذُّبابِ(8)».

(٣) الاحتراز من أذى الجنّ والسّحر بقراءة المعوّذتين

ومن ذلك أيضا قراءة المعوِّذتين قبل النّوم وبعد الصّلاة لما لهما من تأثير عجيب فى الاستعاذة بالله من شر الشّيطان ودفعه والتحصّن منه، ولهذا أوصى رسول الله ﷺ عقبة ابن عامر بقراءتهما عقب كلّ صلاة، وفى هذا سرّ عظيم فى استدفاع الشّرور العالقة بالعين الحاسدة من الصّلاة إلى الصّلاة خمس مرّات فى اليوم واللّيلة وقال «ما سَألَ سائِلٌ بِمِثْلِهِما ولا اسْتَعاذَ مُسْتَعيذٌ بِمِثْلِهِما(9)». أى تحصّن بهاتين السّورتين لأنه ما تحصّن متحصّن بمثلهما؛ واختُصتا بذلك لاشتمالهما على الجوامع فى المستعاذ به والمستعاذ منه.

كما ثبتت أهميّة الاحتراز بهاتين السّورتين حسد الإنس والجان فيما رواه التّرمذى

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٣٧٦] ومسلم [٢٠٢٢] والتّرمذى [١٨٥٧].

(٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣٧٦٧] والتّرمذى [١٨٥٧] وابن ماجه [٣٢٦٥].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٩٦٨] وافقه البخارى [٢٥٠٧].

(٤) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٢٨٦٣] وأبو داود [٥٠٩٥].

(٥) حديث صحيح أخرجه البخارى [١٤١] ومسلم [١٤٣٤] والتّرمذى [١٠٩٢].

(٦) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٠٢] وأبو داود [٣٨٩١] والتّرمذى [٢٠٨٠].

(٧) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٦٠٦] وابن ماجه [٢٤٥] وأورده فى الإرواء [٥٠].

(٨) حديث صحيح أخرجه أحمد [٢٠٤٦٩] وأبو داود [٤٩٨٢].

(٩) من حديث حسن صحيح أخرجه النّسائى [٥٤٥٣] والدّارمى [٣٤٤٠].

من حديث أبى سعيد «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَعوَّذُ من الْجَانِّ وَعَيْنِ الإنْسَانِ حَتَّى نَزَلَتْ الْمُعَوِّذَتَانِ، فَلَمَّا نَزَلَتَا أخَذَ بِهِمَا وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا[1]». وقد جاء فى الصّحيح أنّ من قرأهما مع سورة الإخلاص ثلاثًا حين يمسى وثلاثًا حين يُصبح كفته من كلّ شىء لحديث عبد الله بن خبيب قال «قَالَ لِى رَسُولُ اللهِ ﷺ قُلْ: قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِى وَتُصْبِحُ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ[2]».

(٤) قراءة سورة البقرة تحول دون سحر السّحرة

وهو مدلول الخبر الصّحيح الذى رواه أبو أُمامةُ الباهلىُّ رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال «اقْرَأُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَابَتَانِ، أَوْكَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَأُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلاَ يَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ». قال معاوية بن سلام «بَلَغَنِى أَنَّ الْبَطَلَةَ السَّحَرَةُ[3]».

قالوا [وسُمّيتا الزّهراوين لنورهما وهدايتهما وعظيم أجرهما، أمّا الغمامة والغيابة فهى كلّ شىء أظلّ الإنسان فوق رأسه من سحابة وغبرة وغيرهما والمراد أنّ ثوابهما يأتى كغمامتين[4]].

وجاء عند مسلم عن عبد الرّحمن بن يزيد قال «لَقِيتُ أَبَا مَسْعُودٍ عِنْدَ الْبَيْتِ فَقُلْتُ: حَدِيثٌ بَلَغَنِى عَنْكَ فِى الآيَتَيْنِ فِى سُورَةِ الْبَقَرَةِ، فَقَالَ نَعَمْ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الآيَتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مَنْ قَرَأَهُمَا فِى لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ[5]». وفى معناه: أى كفتاه من شرّ ما يؤذيه من الشّياطين والآفات، وفى التّرمذى عن النّعمان بن بشير رضي الله عنه عن النّبى ﷺ قال «إِنَّ اللهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِأَلْفَىْ عَامٍ، أَنْزَلَ مِنْهُ آيَتَيْنِ خَتَمَ بِهِمَا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَلاَ يُقْرَآنِ فِى دَارٍ ثَلاَثَ لَيَالٍ فَيَقْرَبُهَا شَيْطَانٌ[6]». وفى قوله «فَيَقْرَبُهَا شَيْطَانٌ»: عبّر بنفى القرب ليفيد نفى الدّخول إليها بالأولى.

(٥) التّعوّذ بالله تعالى يحفظ من كلّ شر

والتّعوّذ بالله تعالى يحفظ من شرّ كلّ ذى شرٍّ لحديث أبى هريرة قال «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى

(١) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٢٠٥٨] والنّسائى [٥٥٠٩] وابن ماجه [٣٨٤٦].

(٢) حديث حسن أخرجه التّرمذى [٣٥٧٥] وأبو داود [٥٠٨٢].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٥٢ / ٨٠٤].

(٤) انظر نووى مسلم [ج ٣ ص ٣٥٠].

(٥) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٥٥ / ٨٠٧] وافقه البخارى [٥٠٠٩].

(٦) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٢٨٨٢].

النبيِّ ﷺ فقالَ يارسُولَ الله ما لقيتُ من عقرب لدغتني الْبَارحَة؟ قالَ أما لوْ قُلْتَ حين أمْسيْت أعُوذُ بكلمات الله التَّامَّات منْ شَرِّ مَا خلق، لَمْ تضرَّكَ[1]». وعند الترمذى «مَنْ قَالَ حين يُمسى ثَلاثَ مرَّات: أعُوذُ بكلمات الله التَّامَّات منْ شرِّ ما خلق لَمْ يَضُرُّهُ حمةٌ تلْك اللَّيْلَةَ[2]». و«الْحمَةُ» كثبة السُّمِّ والإبرة يلدغ بها الزنبور والحيَّة ونحو ذلك.

والاستعاذة بالله مُزعِجة للشيطان مُبعدة عن شرّه لقوله تعالى ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت:٣٦]. وفى الصَّحيح أنّ رجلين استبا عندَ النّبي ﷺ حتّى احمرّ وجه أحدهما فقال رسول الله ﷺ «إنِّى لأعْلَمُ كَلمةً لوْ قَالَهَا لَذَهبَ عنْهُ مَا يَجدُ أعُوذُ بالله منَ الشَّيْطَان الرَّجيم[3]».

(٦) الأذان الشّرعى يحول دون أذى الجن وشرّهم

والأذان الشّرعى من أعظم الأذكار التى تدفع أذى الجنّ وشرّهم لما فى رواية مسلم من طريق سهيل قال «أرسلَني أبي إلَي بَني حَارثَة ومَعي غُلامٌ لنَا أوْ صَاحبٌ لنَا، فَنادَاهُ مُنَاد منْ وَرَاء حَائط باسْمه، فَأشْرَفَ الّذى مَعي عَلَى الْحَائط فَلَمْ يرَ شَيْئًا. فَذَكَرْتُ ذَلكَ لأبي فَقَالَ: لَوْ شَعَرْتُ أنَّكَ تَلْقَى هَذَا لَمْ أرْسلْكَ! وَلَكنْ إذَا سَمعْتَ صَوْتًا فَنَاد بالصَّلاة فإنِّي سَمعْتُ أبَا هُرَيْرَةَ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُول الله ﷺ أنَّهُ قَالَ: إنَّ الشَّيْطَانَ إذَا نُودىَ بالصَّلاة وَلَّى وَلَهُ حُصَاصٌ[4]».

وذُكر عن مالك قال «اسْتُعْمِلَ زَيْدُ بْنُ أسْلَمَ عَلَى مَعْدن بَني سُلَيْم، فَكَانَ لاَ يَزَالُ يُصَابُ فيه النَّاسُ منَ الْجنِّ، فَلَمَّا وَليَهُمْ شَكَوْا ذَلكَ إلَيْه، فَأمَرَهُمْ بالأذَان وَأنْ يَرْفَعُوا أصْوَاتَهُمْ به، فَفَعَلُوا فَارْتَفَعَ ذَلكَ عَنْهُمْ فَهُمْ عَلَيْه حَتَّى الْيَوْمَ[5]». ولمّا ذُكرت الغيلان [وَهُمُ الْمَرَدَةُ منَ الْجنّ] عند عمر بن الخطّاب قال «إنَّ شَيْئًا منَ الْخَلْق لاَ يَسْتَطيعُ أنْ يَتَحَوَّلَ في غَيْر خَلْقه، وَلَكنْ للْجنِّ سَحَرَةٌ كَمَا للإنْس سَحَرَةٌ، فَإذا خَشيتُمْ شَيْئًا منْ ذَلكَ فَأذِّنُوا بالصَّلاة[6]».

(٧) التحصّن بذكر الله تعالى

كما أنّ كثرة ذكر الله تعالى من أنفع الحروز التى تحول دون أذى الشّيطان لقوله ﷺ

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٧٠٩].

(٢) حديث صحيح أخرجه الترمذى [٣٦٠٥].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦١١٥] ومسلم [٢٦١٠] والترمذى [٣٤٥٢].

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٨ / ٣٨٩].

(٥) انظر المنهل العذب المورود [ج ٤ ص ١٧٦].

(٦) انظر آكام المرجان للشبلى [ص ٣١].

من حديث الحارث الأشعرى «وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ الْعَبْدُ لاَ يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلاَّ بِذِكْرِ اللَّهِ(١)». و جاء عند أحمد بلفظ «وَإِنَّ الْعَبْدَ أَحْصَنُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ».

[وقد أخبر النبى ﷺ فى هذا الحديث أنّ العبد لا يُحرز نفسه من الشّيطان إلاّ بذكر الله تعالى، وهذا بعينه هو الذى دلّت عليه سورة [قل أعوذ برب النّاس] فإنّه وصف الشّيطان فيها بأنّه الخنّاس، والخناس الذى إذا ذكر العبد ربّه تعالى انخنس وتجمّع وانقبض، وإذا غفل عن ذكر الله التقم القلب وألقى إليه الوساوس التى هى مبادىء الشّر كلّه، فما أحرز العبد نفسه من الشّيطان بمثل ذكر الله تعالى(٢)].

ومن الأدعية التى لا تجتمع معها المضرّة أبدا قول النبي ﷺ من حديث عثمان بن عفّان «مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ فِي صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ وَمَسَاءِ كُلِّ لَيْلَةٍ: بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لاَ يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ(٣)».

والاحتراز الكامل من أذى إبليس وحزبه لا يتحقّق إلاّ بالتّهليل والتّحميد لله تعالى كما فى قول النّبي ﷺ من حديث أبى هريرة عند الشّيخين «مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ - مِائَةَ مَرَّةٍ - كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلاَّ أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ(٤)».

(٨) إمساك فضول النّظر والكلام يحول دون نزغ الشّيطان

وإمساك فضول النّظر والكلام والطّعام ومخالطة النّاس من أهمّ المقاصد الإيمانيّة التى تحول دون تسلّط الشّيطان على المسلم فلا يناله إلاّ من هذه الأبواب الأربعة، و(أولها): فضول النّظر الذى يدعو إلى الاستحسان، و(الثّاني) وقوع صورة المنظور إليه فى القلب و(الثّالث) الاشتغال به، و(الرابع) الفكرة فى الظّفر به.

فمبدأ الفتنة من فضول النّظر، ويتأكّد هذا بقول النّبيّ ﷺ «النَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ فَمَنْ تَرَكَهَا مِنْ مَخَافَةِ رَبِّهِ أَبْدَلَهُ اللَّهُ إِيمَانًا يَجِدُ حَلاَوَتَهُ فِي قَلْبِهِ(٥)».

---

(١) من حديث صحيح أخرجه أحمد [١٧١٠٤] والتّرمذى [٢٨٦٣] والطبرانى فى الكبير [٣٤٢٧].

(٢) انظر تفسير المعوّذتين لابن القيم [ص ٧٧].

(٣) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٣٣٨٨] وابن ماجه [٣١٣٤].

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٩١] وافقه البخارى [٣٢٩٣].

(٥) أخرجه الحاكم بإسناد صحيح [٨٠٤٠].

وجاء قوله ﷺ عند أحمد في المسند من حديث أبي أُمامة بلفظ «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَنْظُرُ إِلَى مَحَاسِنِ امرأَةٍ أَوَّلَ مَرَّةٍ ثُمَّ يَغُضُّ بَصَرَهُ إِلاَّ أَحْدَثَ اللهُ لَهُ عَبَادَةً يَجِدُ حَلاَوَتَهَا(١)».

(٨) الوضوء والصّلاة من أعظم ما يُحترز به

والوضوء والصّلاة من أعظم ما يُتحرَّز به لا سيّما عند ثوران قوّة الغضب والشّهوة فإنّها نار تغلي في قلب ابن آدم كما روى التّرمذي من حديث أبي سعيد «أَلاَ وَإِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، أَمَا رَأَيْتُمْ إِلَى حُمْرَةِ عَيْنَيْهِ وَانْتِفَاخِ أَوْدَاجِهِ، فَمَنْ أَحَسَّ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَلْصَقْ بِالأَرْضِ(٢)».

وجاء في أثر آخر «إِنَّ الشّيطان خُلِقَ مِنْ نَارٍ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ». فما أطفأ العبد جمرة الغضب والشّهوة بمثل الوضوء والصّلاة، فإنّها نار والوضوء يُطفئها، والصّلاة إذا وقعت بخشوعها والإقبال فيها على الله تعالى أذهبت أثر ذلك كلّه، وهذا أمر تجربته تغني عن إقامة الدّليل عليه.

(٩) دوام طهارة المرأة يمنع إيذاء الشّيطان لها

وغُسل المرأة من الحيض فور طهارتها منه من أكبر الموانع التي تحول دون تلبُّس الشّيطان بها وإيذائه لها لما روى عن أنس قال «كانت بنتُ عوف بن عفراء مُضطجعةٌ في بيتها قائلةٌ(٣) إذ استيقظت وزنجيٌّ على صدرها آخذٌ بحلقها، قالت: فأمسكني ما شاء الله وأنا حيئذ قد حَرُمَتْ عليَّ الصَّلاةُ، فبينا أنا كذلك نظرتُ إلى سقف البيت يَنْفَرِجُ، حتّى نظرتُ إلى السّماء فإذا صحيفةٌ صفراء تَهْوِى بين السّماء والأرض حتّى وَقَعَتْ على صدري، فنَشَرَها وأرسل حلقي فقرأها»:

«فإذا فيها: من رَبِّ لُكَيْزٍ إلى لُكَيْزٍ، اجتنب ابنةَ العبد الصّالح إنّه لا سبيل لك عليها، ثمّ ضرب بيده على ركبتي وقال: لولا هذه الصّحيفةُ لكان دمٌ، أي لذبحتُك، فاسودّت ركبتي حتّى صارت مثلَ رأس الشّاة، فأتيت عائشة فذكرتُ لها ذلكَ، فقالت لي يابنة أخي: إذا حضْت فألزمي عليك ثيابكِ فإنّه لا سبيل عليكِ إن شاء الله تعالى. [قال]: فحفظها الله بأبيها وكان استشهد يوم بدر(٤)».

***

(١) أخرجه أحمد بإسناد حسن [٢٢١٧٩].

(٢) من حديث حسن أخرجه التّرمذي [٢١٩١].

(٣) قوله [قائلةٌ] من قَالَ قَيْلاً فهو قائلٌ: نام وَسَط النّهار ومنه: «القائلَةُ» الظَّهيرَةُ، و«القيلولة»: نومة نصف النّهار أو الاستراحة فيه وإن لم يكن نوما. [انظر الوجيز ص ٥٢٣].

(٤) انظر عيون الأخبار لابن قُتيبة [ج ٤ ص ١١٠].

(الكتاب الثانى)

نحو العلاج الأمثل للوقاية من أذى شياطين الإنس والجنّ

(أولا) مقدّمة تعريفية للعلاج النبوى

المرض كما ذكر القرآن الكريم نوعان:

الأول - مرض الأبدان

ومرض الأبدان هو المراد بقول الله تعالى ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾[النور: ٦١]. وقد جاء ذكره فى ثلاثة مواضع هى الحج والصّوم والوضوء لسرّ بديع يبيّن عظمة القرآن والاستغناء به لمن فهمه وعَقَلَهُ عن سواه، عندما بيّن الخالق جلّ شأنه أن «طب الأبدان» يقوم على ثلاثة أصول:

(أوّلها) حفظ الصّحة كما فى آية الصّوم ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾[البقرة: ١٨٤]. فأباح الفطر للمريض لعذر المرض، وللمسافر طلبا لحفظ صحّته وقوّته لئلاّ يُذهبها الصّوم فى السّفر لاجتماع شدّة الحركة وما يُوجبه من التّحلّل، وعدم الغذاء الذى يخلف ما تحلّل، فتخور القوّة وتضعف، فأباح للمسافر الفطر حفظا لصحّته وقوّته عمّا يُضعفها.

(والثّاني) الاحتماء عن المؤذى كما فى آية الوضوء ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾[النّساء: ٤٣]. فأباح للمريض العدول عن الماء إلى التّراب حمْيَةً له أن يصيب جسده ما يؤذيه، وهذا تنبيه على الْحِمْيَة(١) عن كلّ مؤذ له من داخل وخارج.

(الثّالث) استفراغ الموادّ الفاسدة من الجسم كما فى آية الحجّ ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[البقرة: ١٩٦]. فأباح لمن به أذى من رأسه أن يحلقها فى الإحرام استفراغا لمادّة الأبخرة الرّديئة التى سبّبت له الأذى فى رأسه باحتقانها تحت الشّعر، فإذا حلق رأسه تفتّحت المسامّ فخرجت تلك الأبخرة منها [(٢)].

وهذا الاستفراغ يُقاس عليه كلّ استفراغ يُؤذى انحباسه، وما يُؤذى انحباسُه عشرة: الدّم والمنىّ إذا تهيّجا، والبول، والغائط، والرّيح، والقيء، والعُطاس، والنّوم، والجوع، والعطش، وكلّ واحد من هذه العشرة يُوجب حبسه داء من الأدواء بحسبه، وقد نبّه سبحانه

---

(١) الْحِمْيَةُ: الإقلال من الطّعام ونحوه ممّا يضرُّ وفيها القول المشتهر عن الحارث بن كَلَدة طبيب العرب [الْمَعِدَةُ بَيْتُ الدّاءِ وَالْحِمْيَةُ رَأْسُ الدَّوَاءِ]. (٢) انظر زاد المعاد [ج ٤ ص ٦ - ٧].

وتعالى باستفراغ أدناها وهو البخار المحتقن فى الرّأس على استفراغ ما هو أصعب منه كما هى طريقة القرآن فى التّنبيه بالأدنى على الأعلى [(١)].

والمرض كلٌ ما خرج بالكائن الحيّ عن حدّ الصّحة والاعتدال، وهو حالة خارجة عن الطّبع ضارّة بالفعل. (قال) ابن الأعرابىّ [أصل المرض النّقصان، يقال: بَدَنٌ مَرِيضٌ أى ناقص القوّة، وقَلْبٌ مَرِيضٌ: ناقص الدّين. و(قال) ابن عرفة [المرض فى البدن فتور الأعضاء، وفى القلب فتور عن الحقّ، والمرض فى اصطلاح الفقهاء هو ما يعرض للبدن فيخرجه عن الاعتدال الخاص(٢)].

والله تعالى جعل فى قوله ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النّحل: ٦٩]. دليلا على جواز التّعالج بشرب الدّواء وتعاطيه، وخصّ العسل بالذّكر فى هذه الآية لأنّ أكثر الأشربة والأدوية التى يتعالج بها النّاس أصلها من العسل ومشتقّاته، كما أنّ فى قوله تعالى ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ إخبار بأنّ العسل دواء لكثير من الأدواء حتّى صار خليطا لكثير من الأدوية المؤثرة والنّاجعة.

ومن مآثر هذا الدّين العظيم أن جمع بين الطّبّ البشرى والإلهى، وبين طبّ الأبدان وطبّ الأرواح، وبين الدّواء الأرضى والدّواء السّماوى ومن ذلك قوله ﷺ «عَلَيْكُمْ بِالشِّفَائَيْنِ: الْعَسَلِ وَالْقُرْآنِ(٣)». فكان طبّ الأبدان في [العسل] وطبّ الأرواح فى [القرآن]. ويتأيّد هذا بما جاءت به الآثار المروية عن رسول الله ﷺ والتى منها:

* ما جاء عن أمّ قيس «عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْعُودِ الْهِنْدِىِّ فَإِنَّ فِيهِ سَبْعَةَ أَشْفِيَةٍ يُسْتَعَطُ بِهِ مِنَ الْعُذْرَةِ وَيُلَدُّ بِهِ مِنْ ذَاتِ الْجَنْبِ(٤)». والذى يستعمل منه فى الأدوية يسمّى الكُسْت، أخبر عنه ابن القيّم فى الزّاد بأنّه حار يابس يفتح السُّدد ويكسر الرّياح، ويذهب بفضل الرّطوبة، ويقوّى الأحشاء والقلب ويفرحه، ويقوى الحواسّ ويحبس البطن، وينفع من سلس البول الحادث عن برد المثانة.

* وما ثبت فى الصّحيح من حديث أبى هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال «عَلَيْكُمْ بِهَذِهِ الْحَبَّةِ السَّوْدَاءِ، فَإِنَّ فِيهَا شِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ إِلاَّ السَّامَ(٥)». و«السَّامُ»: الموت.

* وما جاء في حديث أبى هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال «أَخْبَرَنِى جِبْرِيلُ أَنَّ الْحَجْمَ أَنْفَعُ مَا تَدَاوَى بِهِ النَّاسُ(٦)».

---

(١) انظر زاد المعاد [ج ٤ ص ٧]. (٢) انظر معجم المصطلحات الفقهيّة [ج ٣ ص ٢٦٢]. (٣) أخرجه الحاكم [٨٣٩٥] وقال صحيح (٤) أخرجه البخارى [٥٦٩٢] ومسلم [٢٢١٤]. (٥) أخرجه البخارى [٥٦٨٧] ومسلم [٢٢١٥]. (٦) أخرجه الحاكم بإسناد صحيح [٨٤٢٨] وأورده فى صحيح الجامع [٢١٨] والصّحيحة [١١٧٦].

* وما جاء عن أنس أنّ رسول الله ﷺ قال «إذا حُمَّ أحدُكُمْ فلْيُسَنَّ عليْه الْماءَ الْبارِدَ ثلاثَ ليالٍ منَ السَّحَر [1]». وجاء قوله ﷺ من حديث ابن عبّاس «الْحُمَّى منْ فَيْحِ جهنَّم فأبْرِدُوها بالْماء [2]».

* وعن ابن مسعود «عَلَيْكُمْ بالشِّفاءيْنِ الْعَسَلِ والْقُرْآن [3]» وقد حملت طائفة من أهل العزم والصّدق لفظة [شِفَآءٌ] : على «العموم» فكانوا يستشفون بالعسل من كلّ الأوجاع، كما كانوا يشفون من عللهم ببركة القرآن وبصحّة التّصديق والإيقان.

وساق آخرون الدّلالة على أنّه «ليس» على العموم لأنّ هذه اللّفظة جاءت نكرة في سياق الإثبات ولا عموم فيها باتّفاق أهل اللّسان ومحقّقي أهل العلم، وإذا كان قد تقرّر في التّنزيل أنّ في العسل شفاء للنّاس للدّلالة على وجوب التّداوي من كلّ داء بما تقرّر له من الدّواء، فقد جاءت السُّنّة بما يُؤكّد أنّ لكلّ داء دواء، وما نزل من داء إلاّ أنزل الله له شفاء لقوله ﷺ من حديث جابر «لِكُلِّ داءٍ دواءٌ، فإذا أُصيبَ دَواءُ الدَّاءِ بَرأَ بإذْنِ الله عزَّ وجلَّ [4]».

وفيه دليل على أنّ الدّاء والدّواء من خلق الله تعالى وأنّ الشّفاء والهلاك من فعله، وأنّ ربط الأسباب بالمسبِّبات من حكمته وحُكمه على ما سبق به علمُه، وكلّ ذلك بقدر لا مَعْدلَ عنه ولا وزر، أمّا قوله «فإذا أُصيبَ دَواءُ الدَّاءِ بَرأَ بإذْنِ الله عزَّ وجلَّ» : فمعناه أنّ الله تعالى إذا شاء الشّفاء يسَّر دواء ذلك الدّاء، ونبّه عليه مُستعمله فيستعمله على وجهه وفي وقته فيشفي ذلك المرض، وإذا أراد إهلاك صاحب المرض أذهل عن دوائه أو حجبه بمانع يمنعه فهلك صاحبه، وكلّ ذلك بحكمته كما سبق في علمه.

وجاء المعنى ذاته في قوله ﷺ عند البخاري عن أبي هريرة «ما أنْزلَ اللهُ داءً إلاَّ أنْزلَ لَهُ شفاءً [5]». وجاء عند ابن ماجه بلفظ «إلاَّ أنْزلَ لَهُ دواءً [6]». وفي المسند عن ابن مسعود رفعه «إنَّ اللهَ لَمْ يُنْزِلْ داءً إلاَّ أنْزلَ لَهُ شفاءً عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ وجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ [7]». وقوله «عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ» : فيه إشارة إلى أنّ بعض الأدوية لا يعلمها كلّ واحد، كما أنّ قوله ﷺ «وجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ» : فيه دليل على أنّه لا بأس بالتّداوي لمن كان به داء قد اعترف

---

(١) أخرجه الحاكم [٨٣٩٦] وأورده في صحيح الجامع [٤٩٧] والصّحيحة [١٣١٠].

(٢) أخرجه الحاكم [٨٣٩٨] وقال صحيح على شرط الشّيخين.

(٣) أخرجه ابن ماجه [٣٥١٥] والحاكم [٨٣٩٥] وقال صحيح على شرط الشّيخين.

(٤) حديث صحيح أخرجه أحمد [١٤٥٣٢] ومسلم [٢٢٠٤].

(٥) حديث صحيح أخرجه البخاري [٥٦٧٨].

(٦) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٢٧٩٠].

(٧) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٣٥٧٨].

الأطبّاء بأنّه لا دواء له وأقرّوا بالعجز عنه.

ثمّ يأتي قوله ﷺ من حديث أبي داود «يَاعِبَادَ اللَّهِ تَدَاوَوْا، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلاَّ وَضَعَ لَهُ شِفَاءً غَيْرَ دَاءٍ وَاحِدٍ: الْهَرَمُ(١)». ليؤكّد به إثبات الطبّ والعلاج وأنّ التّداوى مباح غير مكروه، إلاّ أنّه استثنى الموت من جملة الأدواء وإن لم يكن داء بنفسه، لكن تلازمه الأدواء وهو مُفض بصاحبه إلى الهلاك، وهذا نحوٌ من قوله في الحديث الآخر «كَفَى بِالسَّلاَمَةِ دَاءً(٢)». أى أنّ مصير السّلامة إلى الدّاء.

كما يتأكّد التّحفيز على أنواع التّعالج بقوله ﷺ من حديث جابر «إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ خَيْرٌ فَفِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أَوْ شَرْبَةٍ مِنْ عَسَلٍ، أَوْ لَذْعَةٍ بِنَارٍ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ(٣)». [وفيه يشير النّبى ﷺ إلى جميع ضروب المعاناة القياسيّة وذلك أنّ العلل منها ما يكون مفهوم السّبب ومنها ما لا يكون كذلك، فالأوّل كغلبة أحد الأخلاط التى هى الدّم والبلغم والصّفراء والسّوداء، فمعالجة ذلك باستفراغ ذلك الامتلاء بما يليق به من تلك المذكورات في الحديث، فمنها ما يستفرغ بإخراج الدّم بالشّرط وفى معناه: الفصد والعلَق، ومنها ما يُستفرغ بالعسل وما فى معناه بالأدوة المسّهلة، ومنها ما يُستفرغ بالكىّ فإنّه يجفف رطوبات موضع المرض وهو آخر الطبّ..].

[.. ويمكن أن يقال إنّ هذه المذكورات فى هذا الحديث إنّما خُصّت بالذّكر لأنّها كانت أغلب أدويتهم وأنفع لهم من غيرها بحكم اعتيادهم عليها، ومناسبتها لغالب أمراضهم، ولا يلزم أن تكون كذلك فى حقّ غيرهم ممّن يُخالفهم فى بلادهم وعاداتهم وأهويتهم، ومن المعلوم بالمشاهدة اختلافُ العلاجات والأدوية بحسب اختلاف البلاد والعادات وإن اتّحدت أسباب الأمراض والله تعالى أعلم(٤)].

وقوله ﷺ «وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ». وفى لفظ البخارى «وَأَنَا أَنْهَى أُمَّتِى عَنِ الْكَيِّ(٥)»: إنّما كان ذلك لشدّة ألم الكىّ فإنّه يُربى على ألم المرض، ولذلك لا يرجع إليه إلاّ عند العجز عن الشّفاء بغيره من الأدوية كما فعل رسول الله ﷺ مع أُبيّ بن كعب عندما بعث إليه طبيبا فكواه لما روى عن جابر قال «بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ طَبِيبًا فَقَطَعَ مِنْهُ عِرْقًا ثُمَّ كَوَاهُ عَلَيْهِ(٦)». وفى رواية قال «مَرِضَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ مَرَضًا، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣٨٥٥] والتّرمذى بنحوه [٢٠٣٨].

(٢) قال فى المفهم: رواه القضاعى فى مسند الشّهاب رقم [٨٦١].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٠٥] وافقه البخارى [٥٦٩٧].

(٤) انظر المفهم للقرطبى [ج ٥ ص ٥٩٥].

(٥) من حديث أخرجه البخارى [٥٦٨٠].

(٦) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٠٧] وأبو داود [٣٨٦٤].

النَّبيُّ طَبيبًا فكَوَاهُ عَلَى أَكْحَله[1]». والأكحل عرقٌ معروف، وروى أبو داود عن جابر أيضا «أَنَّ النَّبيَّ ﷺ كَوَى سَعْدَ بْن مُعَاذ منْ رَميَّته[2]». (قال) الخليل: هو عرقُ الحياة، يقال: في كلِّ عضو منه شعبة لها اسم عَلَى حدَة، فإذا قطع في اليد لم يرقأ الدّم، وقيل إنّه يقال له في اليد أكحل، وفي الفخذ النَّسا، وفي الظّهر الأبهر.

وفي أمر النّبي ﷺ بكَيِّ أُبيٍّ بن كعب وسعد ابن معاذ من رميته دليل على جواز الكيِّ والعمل به إذا ظنّ الإنسانُ منفعته ودعت الحاجة إليه، فيُحمل نهيه ﷺ عن الكيِّ على ما إذا أمكن أن يُستغنى عنه بغيره من الأدوية، فمن فعله في محله وعلى شرطه لم يكن ذلك مكروها في حقّه ولا مُنقصا له من فضله.

كما يُستفاد من إرسال النّبي ﷺ الطّبيب إلى أبيّ بن كعب أنّ الواجب في عمل العلاج ألاّ يباشره إلاّ من كان معروفا به، خبيرا بممارسته، ولذلك أحاله النّبي ﷺ على الحارث ابن كَلَدَة ووصف له النّبي ﷺ الدّواء وكيفيّة العمل به، ويؤكّد ذلك ما أخرجه مالك عن زيد بن أسلم مرسلا «أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ لرَجُلَيْن أيُّكُمَا أَطَبُّ؟ قَالاَ يَارَسُولَ الله أَوَ فِي الطِّبِّ خَيْرٌ؟ قَالَ أَنْزَلَ الدَّوَاءَ الَّذى أَنْزَلَ الأَدْوَاءَ[3]». وفي قوله «أَيُّكُمَا أَطَبُّ؟» دليل على أنّه ينبغي اختيار الحاذق في الطِّب الحكيم فيه.

والذى يُطبِّب النّاس ويُعالجهم ولم يُعلم منه طبٌّ فهو ضامنٌ لما يحدث من نتائج لما رواه ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو أنّ رسول الله ﷺ قال «مَنْ تَطَبَّبَ وَلَمْ يُعلَمْ منْهُ طبٌّ قَبْلَ ذَلكَ فَهُوَ ضَامنٌ[4]». (قال) الخطّابيُّ [لا أعلم خلافا في المُعالج إذا تعدَّى فتَلف المريض كان ضامنا، والمتعاطى علماً أو عملاً لا يعرفه: مُتَعدٍّ، فإذا تولّد من فعله التّلف ضَمن الدّية وسقط عن القوْد، لأنّه لا يستبدُّ بذلك دون إذن المريض، وجناية الطّبيب في قول عامة الفقهاء علي عاقلته[5]].

والطِّبُّ علم يُعرف به حفظ الصّحة وبُرء المرض وهو علاج الجسم والنّفس من [طَبَّبَ المريضَ طَبًّا]: دَاوَاهُ وعَالَجَهُ. و[طَبَّبَهُ]: أحكَمَ علاجه ومُداواته. و[الطِّبَابَةُ]: حرفة الطّبيب وهو الذى يعالج المرضى ونحوهم، وجمع القلّة منه أَطبّةٌ، والكثرة أطبَّاء. (قال) أبو السّعادات [الطّبيب في الأصل الحاذق بالأمور العارف بها[6]].

(١) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٢٨٣١].

(٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣٨٦٦].

(٣) أخرجه مالك في الموطأ [١٦٩٥] وروى موصولا عن الشّيخين.

(٤) حديث حسن أخرجه أبو داود [٤٥٨٦].

(٥) انظر زاد المعاد [ج ٤ ص ١٣٩].

(٦) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ٢ ص ٤٢٤].

ولا يكون التّداوى إلاّ بالطّاهر الحلال ولا يجوز بالنّجس والحرام، والدّواء الخبيث قد يكون خبثه لنجاسته وحرمته كالخمر والبول والعَذرَة ولحم غير المأكول لقوله ﷺ من حديث ابن مسعود «إنَّ اللّهَ لَمْ يَجْعَلْ شِفَاءَكُمْ فيمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ[(١)]». وفى السُّنَن عن أبى هريرة قال «نَهَى رَسُولُ اللّه ﷺ عَنِ الدَّوَاءِ الْخَبِيثِ[(٢)]». ولمّا سُئل رسول الله ﷺ عن الخمر يُجعل فى الدّواء قال «إنَّهَا دَاءٌ وَلَيْسَتْ بالدَّوَاءِ[(٣)]».

وفى قوله ﷺ من حديث زيد بن أسلم رضي الله عنه «أنْزَلَ الدَّوَاءَ الَّذى أنْزَلَ الأدْوَاءَ». إثبات الأسباب والمسبّبات، وأنّ كلّ داء له ضدّ من الدّواء يعالج بضدّه، وأنّ النّبى ﷺ علَّقَ البُرء بموافقة الدّاء للدّواء، وهذا قدر زائد على مجرّد وجوده، فإنّ الدّواء متى جاوز درجة الدّاء فى الكيفيّة، أو زاد فى الكميّة على ما ينبغى، نقله إلى داء آخر، ومتى قصر عنها لم يف بمقاومته وكان علاجا قاصرا [(٤)].

ومتى لم يقع المُداوى على الدّواء أو لم يقع الدّواء على الدّاء لم يحصل الشّفاء، ولم يكن الزّمان صالحا لذلك الدّواء لم ينفع، ومتى كان البدن غير قابل له أو القوّة عاجزة عن حمله أو ثمّ مانع يمنع من تأثيره، لم يحصل البُرء لعدم المصادفة، ومتى تمّت المصادفة حصل البُرء بإذن الله تعالى ولابدّ.

وإذا كان البُرء من أمراض البدن يترتّب على مدى فاعلية الدّواء وأثره فى مجابهة الدّاء، فلا تتأكّد هذه الفاعلية ولا يتحقّق تمامها إلاّ باليقين الرّاسخ فى القلب أنّ «الشّافى» من كلّ مرض هو الخالق سبحانه وهو المعنى الإيمانى الذى سجّله القرآن على لسان إبراهيم عليه السّلام ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[الشُّعَراء: ٨٠].

إنّه القول الذى يحمل مضمون الكفالة الحانية الرّفيقة التى يستشعرها نبىّ الله إبراهيم فى الصّحّة والمرض، ويتأدّب من خلالها بأدب النُّبوّة الرّفيع السّامى، فلا ينسب مرضه إلى ربّه تعالى وخالقه وهو يعلم أنّه بمشيئته سبحانه يمرض ويصحّ، فيأتى قوله ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾على حسب مُقتضى الأدب فى لغة الخطاب للتّأكيد على عدّة معان جليلة:

(أوّلها) أنّ كثيرا من أسباب المرض تحدث بتفريط من الإنسان ذاته فى مطعمه ومشربه، فكان لابدّ وأن ينسب المرض إلى نفسه بقوله ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾.

---

(١) أخرجه البخارى مُعلقا قبل رقم [٥٦١٤].

(٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣٨٧٠] والتّرمذى [٢٠٤٥].

(٣) حديث حسن صحيح أخرجه أبو داود [٣٨٧٣].

(٤) انظر زاد المعاد [ج ٤ ص ١٤ ـ بتصرّف].

(والثّانى) أنّ المرض إنّما يحدُث باستيلاء بعض الأخلاط على بعض، ويحصل هذا بسبّب ما بينهما من التّنافر الطّبيعى، أمّا الصّحة فإنّها تحصل عند بقاء الأخلاط على اعتدالها، ولهذا السّبب أضاف إبراهيم ﷺ الشّفاء إلى معبوده وخالقه جلّ شأنه بقوله تعالى ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ .

(الثّالث) أنّ الشّفاء محبوب وهو أصل من أصول النّعم، والمرض مكروه لكونه ابتلاء واختبار، لذلك كان مقصود إبراهيم ﷺ تعديد النّعم وإظهارها، فجاء ذكره لربّه تعالى فى مقام الإنعام والإفضال أنّه هو الذى يُطعمه ويسقيه، وإذا مرض فهو بقدرته سبحانه يشفيه، ولم يذكره فى مقام الابتلاء تأدّبا منه حين يبتليه .

الثّانى - أمراض القلوب

ولا يتمّ الشّفاء من أمراض القلوب إلاّ بالرُّكون إلى جناب الله تعالى وعفوه وما سنّهُ نبيُّنا الأكرم ﷺ وشرّعه من الأدوية الإلهيّة الدّاعية إلى الاستعانة فى البُرء بالله وحده وتحقيق التّوكُّل عليه، وحُسن التّفويض إليه، وكمال الاعتراف بأنّ ناصية المرء فى يده سبحانه وتعالى يصرِّفه كيف شاء، والبراءة من الحول والقوّة وتفويضهما إلى من هما بيده، فيتعزّى به عن كلّ مصيبة، ويستشفى به من أدواء صدره، فيكون جلاء حزنه وشفاء همّه وغمّه وبذلك جاء قوله ﷺ من حديث عائشة «عَالجيهَا بـكتَاب الله» . فكان من أوّل ما يُشْفَى به من عمى الضّلالة وظلمة الجهالة ويُهتدَى به من حَيْرَة القَلب وضيق النّفس المعالجات التّالية :

{أولا} - الصّلاة التى هى شفاء ونور

وذلك لكونها أمر إلهى مُتعبَّد به فهى تدفع الأمراض ببركتها وبما فيها من المظاهر التّعبُّدية المتمثّلة فى الرّكوع والسّجود والقراءة والذّكر وبما تشتمله من الخشوع والتّضرُّع وتجمع ذلك أو أكثره إذ يحضر العبدَ فيها الخوف والرّجاء والأمل والتّذكُّر لأمور الآخرة وأحوالها .

وكثيرا ما تَسُرُّ الصّلاةُ النّفسَ وتُذهب عنها الهمَّ والحزَن؛ وتُذيب الآمال الخائبة؛ ونكشف عن الأوهام الكاذبة؛ ويصفو فيها الذّهن؛ وتُطفىء نار الغضب؛ وتُحقق الحبّ للخلق والتّواضع للخالق سبحانه؛ وترقّق القلب؛ وتحبّب فى العفو؛ وتعمّق محاسبة النّفس؛ لا سيّما إن طال التّهجُّد وصدقت المناجاة ليلا عندما تهجع العيون وتهدأ الأصوات كما فى حديث سالم بن أبى الجعد أنّ رجلا قال :[لَيتنى صَلَّيتُ فَاستَرحْتُ !] . فكأنّهم عابوا ذلك عليه فقال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول «يَا بلاَلُ أَرِحْنَا بِالصَّلاَةِ[1]» . ولفظه عند أبى داود «قُمْ

---

(١) حديث صحيح أخرجه أبوداود [٤٩٨٦] .

يَابلالُ فَأرِحْنَا بالصَّلاَة». وقوله ﷺ «وَجُعلَتْ قُرَّةُ عَيْنِى فِى الصَّلاَة[1]». وجاء عند أحمد بلفظ «وجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِى فِى الصَّلاَة[2]»

والصَّلاة مُجلبة للرّزق؛ حافظة للصحّة؛ دافعة للأذى؛ مُطردة للأدواء؛ مُقوّية للقلب؛ مبيّضة للوجه؛ مُذهبة للكسل؛ مُنشّطة للجوارح؛ شارحة للصّدر؛ مُغذّية للرّوح؛ منوّرة للقلب؛ حافظة للنّعمة؛ دافعة للنّقمة؛ جالبة للبركة؛ مُبعدة من الشّيطان؛ مقرّبة من الرّحمن؛ مُزيلة للهموم والأحزان؛ ودليل ذلك ما روى عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال «كَانَ النَّبِىُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى[3]». أى إذا نابه أمر واشتدّ عليه قام إلى الصّلاة.

ومن هذا ندَب بعضهم صلاة ركعتين عقب المصيبة وكان ابن عبّاس يفعل ذلك ويقول: نفعل ما أمرَنَا الله به فى قوله ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾. وعلى الجملة فللصّلاة تأثير عجيب فى دفع شرور الدّنيا وجلب خيرى الدّنيا والآخرة لا سيّما إذا أُعطيت حقّها من التّكميل ظاهرا باستيفاء هيئاتها وسُننها وباطنا باستحضار روحها وخشوعها.

{ثانيا} ـ الصّيام تهذيب للنّفوس

هو جُنَّة من أدواء الرّوح والقلب والبدن؛ منافعه كثيرة وتأثيره عجيب فى حفظ الصّحة وإذابة الفضلات وحبس النّفس عن تناول مؤذيّاتها، لا سيّما إذا كان باعتدال وقصد؛ وفى الصّيام من إراحة القوى والأعضاء ما يحفظُ عليها قُواها؛ فإذا راعى الصّائم فيه ما ينبغى مراعاته طبعا وشرعا عَظُمَ انتفاعُ قلبه وبدنه به وحبَس عنه المواد الغريبة الفاسدةَ، وأزال الموادَّ الرّديئة الحاصلةَ كلٌّ بحسب كماله ونقصانه.

ولـمّا كان الصّوم جُنَّةً بين العبد وبين ما يُؤذى قلبه وبدنه عاجلا وآجلا فإنّ قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣]. يشير إلى أمرين:

(الأوّل) أنّ أحد مقصودى الصّيام الجُنّةُ والوقاية وهى حمْيَة عظيمة النّفع لقوله ﷺ من حديث أبى هريرة «الصِّيَامُ جُنَّةٌ وَحِصْنٌ حَصِينٌ مِنَ النَّارِ[4]». وقوله ﷺ من حديث عثمان بن أبى العاص رضي الله عنه «الصَّوْمُ جُنَّةٌ مِنَ النَّارِ كَجُنَّةِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْقِتَالِ[5]». كما أمر ﷺ من اشتدّت عليه شهوة النّكاح ولا قُدرة له عليه بالصّيام وجعله [وِجَاءً] لهذه الشّهوة

---

(١) حديث صحيح أخرجه النّسائى [٣٩٥٠].

(٢) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١٢٩٩١].

(٣) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢٣١٩٢].

(٤) أخرجه أحمد بإسناد حسن [٩١٩٧] والطّبرانى بلفظ قريب [٧٦٠٨].

(٥) حديث صحيح أخرجه النّسائى [٢٢٣٠] وأحمد [١٦٢٣١].

فقال «وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْه بالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ[1]» . أى يُذهب بالشّهوة ويمنع منها ؛ ولـمّا كانت مصالح الصّوم مشهودة بالعقول السّليمة والفطر المستقيمة شرعه الله تعالى لعباده رحمة بهم وإحسانا إليهم وحِمْيَةً لهم وجُنَّةً .

(والثّانى) أنّ المقصود من الصّيام حبس النّفس عن الشّهوات وفطامَها عن المألوفات وتعديل قوّتها الشّهوانيّة لتستعدّ لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها ؛ وقبول ما تزكو به ممّا فيه حياتها الأبديّة ؛ ويكسر الجوع والظّمأ من حِدَّتِها وسَوْرَتِها .

[ثالثا] ـ القرآن الكريم شفاء ورحمة

ويتأكّد ذلك بقوله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[يونس:٥٧] . وقول الله تعالى ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾[فصّلت : ٤٤] . وقوله تعالى ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[الإسراء:٨٢] . واختلف العلماء فى كون القرآن الكريم شفاء على ثلاثة أقوال :

(أحدها) أنّه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها ، وإزالة الرّيب وكشف غطاء القلب من مرض الجهل لفهم المعجزات والأمور الدّالة على وجود الله تعالى .

(والثّانى) أنّه شفاء من الأمراض الظّاهرة بالرُّقى والتّعوُّذات ونحوها .

(والثّالث) أنّ فى قراءته شفاء ورحمة للمؤمنين ، وتفريجا لكروبهم ، وتطهيرا لعيوبهم وهو مدلول قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ : أى بما فيه من البيان للفرائض والأحكام .

ولـمّا كان من أعظم أمراض القلب الشّرك والذّنوب ، والغفلة ، والاستهانة بمحابّه ومراضيه ، وترك التّفويض إليه سبحانه ، وقلّة الاعتماد عليه ، والرّكون إلى ما سواه ، والسّخط بمقدوره ، والشّك فى وعده ووعيده ، جاء القرآن شفاء من ذلك كلّه ورحمة لهؤلاء الذين خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان ، فأشرقت وتفتّحت لتلَقّى ما فى هذا القرآن من روح وطمأنينة وأمان ، كما أنّ فى تلاوته الشّفاء من الوسوسة والقلق والحيْرة ، فهو يصل القلب بالله تعالى فيسكن ويطمئن ، فالقلق مرض ، والحيْرة نصب ، والوسوسة داء ، ومن ثمَّ فهو شفاء ورحمة للمؤمنين .

وفى القرآن شفاء من الهوى والدّنس ، والطّمع والحسد ، ومن نزغات الشّيطان الرّجيم ، وهى من آفات القلب التى تُصيبه بالمرض والضّعف والوهن ، وتدفع به إلى التّحطُّم والانهيار ،

---

(١) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٠٦٥] ومسلم [١٤٠٠] وأبو داود [٢٠٤٦] .

ومن ثمّ فهو شفاء ورحمة للمؤمنين.

فالقرآن هو الشّفاء التّام من جميع الأدواء القلبيّة والبدنيّة، وأدواء الدّنيا والآخرة، وإذا أحسن العليل التّداوى به ووضعه على دائه بصدق وإيمان وقبول تامّ واعتقاد جازم، واستيفاء لشروطه لم يقاومه الدّاء أبدا، وكيف تقاوم الأدواء كلام ربّ العالمين الذى لو نزل على الجبال لصدّعها أو على الأرض لقطّعها، فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلاّ وفى كتاب الله تعالى سبيل للدّلالة على دوائه وسببه والحِمْيَة منه، ولا يتحقّق ذلك إلاّ لمن رزقه الله فَهْمًا فى قرآنه ويقينا فى تنزيله.

أمّا الأدوية القلبيّة فإنّه يذكرها مُفصَّلة ويذكر أسباب أدوائها وعلاجها كما فى قول الله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥١]. فمن لم يشفه القرآن فلا شفاه الله، ومن لم يكفه فلا كفاه الله.

وإذا تأمّلت أمراض القلب وجدت هذه الأمور وأمثالها هى وأسبابها لا سبب لها سواها، فدواؤه الذى لا دواء له سواه ما تضمنّته هذه العلاجات النّبوية من الأمور المضادّة لهذه الأدواء، فإنّ المرض يُزَال بالضّدّ والصّحة تُحفظ بالمثل.

ثمّ يتفرّع من القرآن الكريم الوقاية والعلاج بأمّ الكتاب والشّافية التى هى من أعظم سُوَرالقرآن قدْرًا وأرفعها أجرا وأكثرها مثوبة وهى:

{١} ـ سورة الفاتحة

وهى الشّفاء التّام والدّواء النّافع والرّقية النّاجعة ومفتاح الغنى والفلاح؛ وحافظة القوّة ودافعة الهمّ والغمّ والخوف والحزن لمن عرف مقدارها وأعطاها حقّها وأحسن تنزيلها على دائه، وعرف وجه الاستشفاء والتّداوى بها والسّر الذى لأجله كانت كذلك.

وجاء في فضلها ما أخرجه البخارى عن أبى سعيد بن المعلّى أنّ رسول الله ﷺ قال «ألاَ أُعلِّمُكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِى الْقُرْآن قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ منَ الْمَسْجد؟ فَأَخَذَ بيدى؛ فَلَمَّا أَرَدْنَا أَنْ نَخْرُجَ قُلْتُ يَارَسُولَ الله إِنَّكَ قُلْتَ لأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِى الْقُرْآن! قَالَ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ هِىَ السَّبْعُ الْمَثَانِى وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِى أُوتِيتُهُ»(١).

والمراد بالعظيم فى قوله «أَعْظَمَ سُورَةٍ»: عظم القدر بالثّواب المترتّب على قراءتها وإن كان غيرها أطول منها؛ وذلك لاعتبارها مبدأ القرآن ومجمع علومه؛ ولاحتوائها على الثّناء على الله تعالى والإقرار بعبادته والإخلاص له؛ وسؤال الهداية منه والإشارة إلى الاعتراف بالعجز عن القيام بنعمه؛ وإلى شأن المعاد وبيان عاقبة الجاحدين؛ إلى غير ذلك ممّا يقتضى

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٠٠٦] وأبو داود [١٤٥٨].

أنها كلها موضع الرّقية [(١)].

ويتأكّد هذا بما جاء في حديث أبي سعيد عن الرّجل الذى رَقى سَيِّدَ الْحَيِّ بالفاتحة قال «فجعل يَقْرأُ بأُمِّ القرآن ويجمعُ بزاقه ويتفل فبرأ الرّجلُ، فأتوا بالشاء فقالوا لا تأخُذهُ حتّى نسألَ النّبيَّ ﷺ فسألُوه فضحك وقال وما أدراك أنّها رُقيةٌ؟ خذوها واضربوا لي بسهم(٢)». وفي رواية للبخارى «فانطلق يتفلُ عليه ويقرأُ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَكأنَّمَا نشطَ من عقال، فانطلق يمشي وما به قَلَبةٌ». أى أنّه نشط وحلّ ما به وقام بسرعة، وقيل للعلّة «قَلَبة» لأنّ الذى تصيبه يُقلّبُ من جنب إلي جنب ليُعلم منه موضع الدّاء [قاله ابن الأعرابى]. وفي رواية مسلم قال الرّجل «ما رقيتُ إلاّ بفاتحة الكتاب، فتبسّم رسول الله ﷺ وقال وما أدراك أنها رُقيةٌ». وفى رواية «فأتينا النّبيَّ ﷺ فذكرنا ذلك له، فقال ما كان يُدريه أنّها رُقيةٌ».

وقوله «وما أدراك أنّها رُقيةٌ؟» أى من أعلمك أنها رُقية، وهى كلمة تقال عند التّعجُّب من الشّىء وتُستعمل في تعظيم الأمر أيضا، وزاد سليمان بن قتّة فى روايته بعد قوله: وما يدري أنّها رقية «قُلْتُ أُلقي في رُوعي»: أى فى نفسى. وعند الدّارقطنى من هذا الوجه «فقُلْتُ يارسولَ الله شئٌ أُلقي فى رُوعى». وهو الظّاهر فى أنه لم يكن عنده علم مُتقدّم بمشروعيّة «الرُّقي بالفاتحة». ولهذا قال له أصحابه لـمّا رجع على سبيل التّعجُّب من إقدامه على الرّقية «ما كُنتَ تُحسنُ الرُّقيةَ!».

(قال) النّووى [قوله ﷺ «وما أدراك أنّها رُقيةٌ؟». فيه التّصريح بأنّها رقية فيستحبّ أن يُقرأ بها على اللّديغ والمريض وسائر أصحاب الأسقام والعاهات(٣)]. وفيه جواز الرّقية بكتاب الله تعالى، والاجتهاد عند فقد النّص، وبيان عظمة القرآن فى صدور الصّحابة خصوصا الفاتحة، ولم يُذكر في الحديث عدد ما قُرىء من الفاتحة لكنّ ذلك جاءت الإشارة إليه فى رواية الأعمش وأنّه «سبع مرّات». ووقع فى حديث جابر «ثلاث مرّات» والحكم فيه للزّائد.

وقد قيل [إنّ موضع الرّقية منها قوله تعالى﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. ولا ريب أنّ الكلمتين من أقوى أجزاء هذا الدّواء؛ فإنّ فيهما من عموم التّفويض والتّوكّل؛ والالتجاء والاستعانة؛ والافتقار والطّلب؛ والجمع بين أغلى الغايات وهى عبادة الله وحده وأشرف الوسائل وهى الاستعانة به على عبادته ما ليس فى غيرهما(٤)]. وحقيق بسورة هذا بعضُ شأنها أن يُستشفى بها من كلّ داء والله أعلم.

---

(١) انظر فتح البارى [ج ٨ ص ٦٧١]. (٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٧٤٩] ومسلم [٢٢٠١] وأبو داود [٣٩٠٠]. (٣) انظر نووى مسلم [ج ٧ ص ٤٤٥]. (٤) انظر زاد المعاد [ج ٤ ص ١٧٨].

ثمّ جاء الهدى النّبوى بالتّرغيب فى التّحصّن بسورة جليلة وبعض آياتها وهى:

(٢) - ســورة البقرة سنام القرآن

وهذه السّورة فضلها عظيم وثوابها جسيم ويقال لها فُسطاط القرآن وذلك لعظم ثوابها وبهائها؛ وكثرة أحكامها ومواعظها؛ ومن ذلك ما رواه مسلم عن أبى أُمامة الباهلى قال «سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: اقْرَأُوا سُورَةَ الْبَقَرَة فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَلاَ يَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ(١)». قَالَ مُعَاوِيَةُ «بَلَغَنِى أَنَّ الْبَطَلَةَ: السَّحَرَةُ».

كما جاء فى فضلها قوله ﷺ «لاَ تجعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِى تُقرأُ فيه سُورَةُ الْبَقَرَةِ(٢)». وفى مسند الإمام أحمد «وَإِنَّ الْبَيْتَ الَّذِى يُقْرَأُ فِيه سُورَةُ الْبَقَرَةِ لاَ يَدْخُلُهُ الشَّيْطَانُ(٣)». وأخرج الحاكم عن عبد الله بن مسعود قَالَ «إِنَّ لِكُلِّ شَىْءٍ سَنَامًا؛ وَسَنَامُ الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَة؛ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا سَمِعَ سُورَةَ الْبَقَرَة تُقْرَأُ خَرَجَ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِى يُقْرَأُ فيه سُورَةُ الْبَقَرَةِ(٤)». وسَنَامُ كلّ شىء أعلاه وخياره من قوله ﷺ «وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ(٥)»: وهو أعلى ما فى الإسلام وأرفعه.

ثمّ يتفرّع من سورة البقرة فى الفضل ما ذُكر عن سيّدة آى القرآن وهى:

(٣) آيـة الكرسى الحافظة من كلّ شئ

وهى قول الله تعالى ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقيل فى شرفها أنّ اسم الله تعالى تكرّر فيها بين مضمر وظاهر ثمانى عشرة مرّة وأنّها تضمّنت التّوحيد والصّفات العلا؛ ومن ذلك قوله ﷺ لأُبَىّ بن كعب «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِى أَىُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله مَعَكَ أَعْظَمُ؟ قَالَ قُلْتُ اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ! قَالَ يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِى أَىُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله مَعَكَ أَعْظَمُ؟ قَالَ قُلْتُ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ. قَالَ فَضَرَبَ فِى صَدْرِى وَقَالَ وَالله لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ(٦)».

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٨٠٤] والحاكم [٢١١١].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٧٨٠].

(٣) حديث صحيح أخرجه أحمد [٨٩٠١] والتّرمذى [٢٨٧٧].

(٤) حديث صحيح أخرجه الحاكم [٢٠٩٨] وأورده فى الصّحيحة [٥٨٨].

(٥) من حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٢٦١٦] وأحمد [٢١٩١٥].

(٦) حديث صحيح أخرجه مسلم [٨١٠] وأبوداود [١٤٦٠].

وقوله ﷺ ذلك فيه منقبة عظيمة لأبيٍّ رضي الله عنه ودليل على كثرة علمه؛ وفيه تبجيل العالم فضلاء أصحابه وتكنيتهم؛ وجواز مدح الإنسان في وجهه إن كان فيه مصلحة ولم يُخف عليه إعجابا ونحوه لكمال نفسه ورسوخه في التّقوى.

كما يتعلّق بالآية الكريمة:

(١) إنّما تميّزت بكونها «أعظم» لما جمعت من أصول الأسماء والصّفات من الإلهيّة والوحدانيّة والحياة والعلم والقدرة والإرادة وهذه السّبعة أصول الأسماء والصّفات.

(٢) أنّ قوله «أيُّ آيَة منْ كتَاب الله مَعَكَ أَعْظَمُ ؟»: فيه حجّة للقول بجواز تفضيل بعض آيات القرآن على بعضٍ وتفضيله على سائر كتب الله تعالى.

(٣) أنّ ما ورد من إطلاق [أعظم وأفضل] على بعض الآيات والسّور يرجع إلى عظم أجر قارئيء ذلك وجزيل ثوابه، وأنّ الثّواب المتعلّق بها أكثر وهو معنى الحديث [(١)].

وممّا جاء في فضل هذه الآية الكريمة ما رُوى عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال «سُورَةُ الْبَقَرَة فيهَا آيَةٌ سَيِّدُ أَي الْقُرْآن؛ لاَ تُقْرأُ في بَيْت وَفيه شَيْطَانٌ إلاَّ خَرَجَ مِنْهُ؛ آيَةُ الْكُرْسيِّ(٢)». وجاء في رواية الجنّيّ الذى كان يسرق من جرين التّمر عن أُبَيّ بن كعب قال «مَا يُجيرُنَا منكُمْ ؟ قَالَ تَقْرأُ آيَةَ الْكُرْسيِّ من سُورَة الْبَقَرَة [اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ] قَالَ نَعَم، قَالَ إذَا قَرأْتَهَا غُدْوَةً أُجِرْتَ منَّا حَتَّى تُمْسى؛ وَإذَا قَرأْتَهَا حين تُمْسي أُجِرْتَ منَّا حَتَّى تُصْبح؛ قَالَ أُبَيٌّ: فَغَدَوْتُ إِلَى رَسُول الله ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ بذَلكَ فَقَالَ صَدَقَ الْخَبيثُ(٣)». وفي رواية «صَدَقَ الْخَبيثُ وَهُوَ كَذُوبٌ».

(٤) ـ خواتيم سورة البقرة حصن حصين

وهي قول الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة ٢٨٥ ـ ٢٨٦].

ولقد بيّن النّبي ﷺ عظم شأن التّحصّن من الشّرور قبل وقوعها بالآيتين من آخر سورة

---

(١) انظر نوى مسلم [ج ٣ ص ٣٥٤].

(٢) أخرجه الحاكم [٢٠٩٧] ووافقه الذّهبي في التّلخيص: صحيح.

(٣) أخرجه الحاكم [٢١٠٣] ووافقه الذّهبي صحيح.

البقرة بقوله عند الشيخين «مَنْ قرأ الآيتين من آخر سُورة الْبَقرة في لَيْلَة كَفتاهُ[1]». وجاء في روايةابن مسعود «الآيَتَان من آخرِ سُورة الْبَقرة مَنْ قَرأهُما في لَيْلَة كَفَتاهُ[2]». أى دفعتا عنه شرّ الإنس والجنّ؛ وحفظته من شرّ الآفات فلا تضرّه؛ ومن الشّيطان فلا يكون له عليه سلطان. [قال] في الفتح: [وكأنهما اختصتا بذلك لما تضمّنتاه من الثّناء على الصّحابة الأخيار بجميل انقيادهم إلى الله تعالى وابتهالهم ورجوعهم إليه وما حصل لهم من الإجابة إلى مطلوبهم[3]].

(٥) - المعوّذات رقية السّماء لأهل الأرض

المعوّذات [بكسر الواو] جمع مُعوِّذة أى محصّنة والمراد بها سورة الإخلاص والفلق والنّاس وسُمِّيت بذلك لأنها تُحَصِّنُ صاحبها من كلّ سوء وشرّ ويُحترز بقراءتها من كلّ عين وحسد وسحر؛ لما رواه عروة عن عائشة «أنَّ النَّبىَّ ﷺ كَانَ إذَا أوَى إلَى فِراشه كُلَّ لَيْلَة جَمعَ كَفَّيْه ثُمَّ نَفثَ فيهمَا فقرأ فيهمَا ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾. ثُمَّ يمْسَحُ بهمَا ما اسْتطَاعَ مِنْ جَسَده؛ يبْدأُ بهمَا عَلى رأسه ووَجْهه ومَا أقْبَلَ من جَسَده؛ يفْعَلُ ذلكَ ثَلاثَ مرَّات[4]».

ويأتى ذكر سورة الإخلاص مع المعوّذتين تغليبا لما اشتملت عليه من صفة الله تعالى وإن لم يصرّح فيها بلفظ التّعويذ، وقد أخرج أصحاب السُّنَن من حديث عبد الله بن خبيب قال «قَالَ لى رَسُولُ الله ﷺ قُلْ: قُلْ هو الله أحَدٌ والْمُعوِّذَتَيْن حينَ تُمْسِى وتُصْبِحُ ثَلاثَ مرَّات تَكْفيكَ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ[5]».

والله عزّ وجلّ جعلَ سورة الإخلاص جزءا من أجزاء القرآن إذ جعله على ثلاثة أقسام: قصص وأحكام وصفات لله تعالى؛ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾: متمحّضة للصّفات فهى الثّلث لقوله ﷺ من حديث قتادة رضي الله عنه «إنَّ الله جزَّأ الْقُرْآنَ ثَلاثَةَ أجْزَاء؛ فَجعَلَ قُلْ هُوَ اللهُ أحَدٌ جزْأً منْ أجْزَاء الْقُرْآن[6]». وقوله ﷺ من حديث أبى سعيد رضي الله عنه «والَّذى نَفْسى بيَده إنَّهَا لَتَعْدلُ ثُلُثَ الْقُرْآن[7]». وقيل معناه أنّ ثواب قراءتها يضاعف بقدر ثواب قراءة ثلث القرآن بغير تضعيف.

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٠٥١] ومسلم (٨٠٨) وأبو داود [١٣٩٧].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٠٠٩] ومسلم (٨٠٧).

(٣) انظر نووى مسلم [ج ٨ ص ٦٧٢].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٠١٧].

(٥) حديث حسن أخرجه الترمذى [٣٥٧٥] وأبو داود [٥٠٨٢].

(٦) حديث صحيح أخرجه مسلم [٨١١] وأبو داود [١٤٦١].

(٧) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٠١٣].

وفي الأحاديث دلالة على فضل هذه السّورة لما تضمّنته من تنزيه الله تعالى عن كلّ ما لا يليق به، ولأنّها مع قصرها جامعة لصفات الله الأحديّة، ومتضمّنة لنفي كلّ ما لا يليق بجلاله سبحانه من الوالد والولد والنّظير؛ فليس هناك من يمنعه كالوالد؛ ولا من يساويه كالكفء؛ ولا من يعينه كالولد؛ وهذه أصول مجامع التّوحيد الاعتقاديّة؛ وفيها أنّ الله تعالى يُعطى على العمل القليل ما لا يُعطيه على العمل الكثير.

أمّا سورتا [الفلق والنّاس] فقد أخبر رسول الله ﷺ بأنّه لم ير مثلهن قط في الفضل لقوله ﷺ «أُنْزِلَ أَوْ أُنزِلَتْ عَلَيَّ آيَاتٌ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ الْمُعَوِّذَتَيْنِ(١)». ويتأيّد هذا بحديث أبي سعيد رضي الله عنه «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنْ عَيْنِ الْجَانِّ وَمِنْ عَيْنِ الإِنْسَانِ، فَلَمَّا نَزَلَتِ الْمُعَوِّذَتَانِ أَخَذَهُمَا وَتَرَكَ مَا سِوَى ذَلِكَ(٢)». وفيه دليل على أنّ العين الحاسدة تقع من الجنّ كما تقع من الإنس، فالتّعوُّذات والأذكار إمّا أن تمنع وقوع هذه الأسباب، وإمّا أن تحول بينها وبين كمال تأثيرها بحسب كمال التّعوُّذ وقوّته وضعفه.

[فسورة النّاس مشتملة على الاستعاذة من الشّر الذى هو سبب الذّنوب والمعاصى كلّها، وهو الشّر الدّاخل فى الإنسان الذى هو منشأ العقوبات فى الدُّنيا والآخرة، كما تضمنت الاستعاذة من الشّر الذى هو سبب ظُلم العبد لنفسه وهو شرّ من داخل، أمّا سورة الفلق فقد تضمنّت الاستعاذة من الشّر الذى هو ظُلم الغير له بالسّحر والحسد وهو شرّ من خارج.

فالشّر الأوّل لا يدخل تحت التّكليف ولا يُطلب منه الكفّ عنه لأنّه ليس من كسبه، أمّا الشّر الثّانى فى سورة النّاس فيدخل تحت التكليف ويتعلّق به النّهى، فهذا [شرّ المعائب] والأوّل [شرّ المصائب] والشّر كلّه يرجع إلى العيوب والمصائب ولا ثالث لهما، فسورة الفلق تتضمّن الاستعاذة من شرّ المصيبات، وسورة النّاس تتضمّن الاستعاذة من شرّ العيوب التى أصلها كلّها نابع من الوسوسة].

ومقصود الكلام عن هاتين السّورتين بيان عظيم منفعتهما وشدّة الحاجة إليهما وأنّه لا يستغنى عنهما أحد قطُّ، وأنّ لهما تأثيرا خاصّا فى دفع السّحر والعين وسائر الشّرور، وأنّ حاجة العبد إلى الاستعاذة بهاتين السّورتين أعظم من حاجته إلى الطعام والشّراب واللّباس عندما تضمّنت هاتان السّورتان ثلاثة أصول هى:

* [نفس الاستعاذة] وما تصرّف منها يدلّ على التحرّز والتحصُّن والنّجاة، وحقيقة معناها الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه.

* [والمستعاذ به] وهو سبحانه الذى لا ينبغى الاستعاذة إلاّ به، ولا يستعاذ بأحد من

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦٥ / ٨١٤] والتّرمذى [٢٩٠٢].

(٢) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٣٥١١].

خلقه، بل هو الذى يُعيذ المستعيذين ويعصمهم من شرّ ما استعاذوا منه.

* [والمستعاذ منه] تعمّ كلّ مخلوق فيه شرّ وكلّ شرّ فى الدّنيا والآخرة، وشرّ شياطين الإنس والجنّ، وشرّ السّباع والهوام وغير ذلك ممّا أشارت إليه الآيات.

وبمعرفة ذلك تُعرف شدّة الحاجة والضّرورة فى حياة المسلم إلى هاتين السّورتين، ولهذا جعل رسول الله ﷺ الاستعاذة بهاتين السُّورتين وقاية من شرّ الوسواس ومن شرّ ما تحمله النّفوس الخبيثة المؤذية بحسدها ونظرها عندما أوصى عقبة بن عامر بقراءتهما عقب كلّ صلاة، وفى هذا سرّ عظيم فى استدفاع الشّرور العالقة بالعين الحاسدة من الصّلاة إلى الصّلاة خمس مرّات فى اليوم واللّيلة وقال «مَا سَأَلَ سَائِلٌ بِمِثْلِهِمَا وَلاَ اسْتَعَاذَ مُسْتَعِيذٌ بِمِثْلِهِمَا(١)». أى تحصّن بهاتين السّورتين لأنّه ما تحصّن متحصّن بمثلهما؛ واختُصتا بذلك لاشتمالهما على الجوامع فى المستعاذ به والمستعاذ منه.

ويُستفاد ممّا سبق عرضه من خلال هذا البحث أنّ ما نشره الدّجّالون والمشعوذون تحت مسمّى [علاج بالقرآن] مستغلّين أوجاع النّاس وآلامهم من ناحية، وضعف دينهم وعقيدتهم من ناحية أخرى، يبيعون لهم الوهم ويستنزفون أموالهم ويفسدون عليهم إيمانهم، إنّ مسمّى العلاج بالقرآن له بريق مغرٍ مؤثّر فى قلوب النّاس، وما دام الأمر كذلك فما أسهل الادّعاء بما لم يقرّه شرع الدّين نصبا واحتيالا.

نعم القرآن يعالج كما بيّنت الآيات وأنّه شفاء ورحمة للمؤمنين، ولكنّه العلاج الذى يشفى همّ الصّدور وفساد النّفوس وقساوة القلوب وخراب الضّمائر فقط، وليس العلل والأوجاع والأسقام العضوية كما يدّعى هؤلاء المشعوذون، ولعلّ ما يؤكّد ذلك أن جعل الله تعالى للأمراض العضويّة أدوية وعلاجات فى غير القرآن عندما جاءت السّنّة بما يؤكّد أنّ لكلّ داء دواء، وما نزل من داء إلاّ أنزل الله له شفاء لقوله ﷺ من حديث جابر رضي الله عنه «لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ، فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بِإِذْنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ(٢)». فهناك تداوٍ وهناك دواء لا يقرّره إلاّ المتخصّصون بما أفاء الله عليهم من علم ويقين.

إنّ إسناد النّاس كلّ ما يُعانونه من مُشكلات نفسيّة أو اجتماعيّة أو صحيّة إلى السّحر والمسّ الشّيطانى والأعمال السُّفلية هو محض أوهام وأباطيل تتعارض مع صحيح العقيدة وتُوقِعُ أصحابها فى الشّرك دون أن يعلموا، فالأمراض والمشكلات الاجتماعية واقع مُعاش، والعلاج منها يكمن فى إزالة أسبابها بما يوافق شرع الله تعالى وليس بالدّجل والشّعوذة والنّصب والاحتيال كما يزعم المبطلون.

---

(١) حديث حسن صحيح أخرجه النّسائى [٥٤٥٣].

(٢) حديث صحيح أخرجه أحمد [١٤٥٣٢] ومسلم [٢٢٠٤].

(ثانيا)

السّحر بين الحقيقة والتّخييل

(أ) مقدّمة تعريفيّة

السّحر قراءة قديمة فى حياة البشر سطّرت الشّياطين عزائمه الشّركيّة ورسمت طلاسمه الكُفريّة كذبا وزورا ؛ وألقت إلى بنى آدم أنّ ما فعله نبى الله في مُلكه من ركوب البحر وتسخير الرِّيح والطّير كان سحرا ، وانساق لهذا الخداع السِّفْلةُ من اليهود وأحبارهم فأقبلوا على تعليمه وإشاعته بين النّاس ، ولمّا بعث الله رسولنا محمّدا ﷺ أنزل عليه عذر سليمان وأظهر براءته ممّا رُمِىَ به ونسبته إليه اليهود من اكتساب السّحر ، وسجّل عليهم نوعا آخر من قبائحهم وأفعالهم الدَّنيئة ، وهو اشتغالهم بالسّحر واستعماله وإقبالهم عليه ودعاؤهم النّاس إليه فقال تعالى :

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة:١٠٢].

وفى قوله تعالى﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾ إخبار منه سبحانه بهؤلاء الذين نبذوا الكتاب واتبعوا ما تقوّلته الشّياطين كذبا وافتراء على مُلك سليمان لأنّهم كانوا يقرءون من كتب السّحر ويقولون إنّما وجُد ذلك المُلك بسبب هذا العلم ، فكانت تلاوتهم لتلك الكتب كالافتراء على مُلك سليمان الذى يتضمّن النبوّة وتحت النبوّة الكتاب المنزّل عليه والشّريعة ، وفى قوله تعالى﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ تنزيه له عليه السّلام من الكُفر وذلك يدلّ على أنّ القوم نسبوه إلى الكُفر والسّحر ومن ذلك :

(١) ما رُوى عن بعض أحبار اليهود أنّهم قالوا ألا تعجبون من محمّد ﷺ يزعم أنّ سليمان كان نبيًّا وما كان إلاّ ساحرا فأنزل الله هذه الآية .

(٢) أنّ السّحرة من اليهود زعموا أنّهم أخذوا السّحر عن سليمان فنزّهه الله تعالى عنه ، ثمّ بيّن سُبحانه أنّ الذى برّأه منه لاصق بغيره فقال﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ .

وفى إضافة اليهود السّحر إلى سليمان ذكر العلماء عدّة وجوه :

(أحدها) أنهم أرادوا ذلك تفخيما لشأن السّحر وتعظيما لأمره وترغيبا للقوم في قبول ذلك منهم حتّى زعموا أنّ السّحر أُنزل على لسان الملَكين إلى سليمان فردّ الله تعالى عليهم ذلك وكشف كذبهم فيه.

(والثّاني) أنّ اليهود ما كانوا يُقرُّون بنبوّة سليمان بل كانوا يقولون إنّما وجد ذلك المُلْك بسبب السّحر إشارة إلى ما كتبته الشّياطين من السّحر ودفنته تحت كرسي سليمان، فلمّا مات انتزعوه وقالوا لأوليائهم من الإنس: إن كان تسلّط سليمان بهذا فتعلّموه! فأبطل الله تعالى هذا القول منهم.

(والثّالث) أنّ الله تعالى لمّا سخّر الجنّ لسليمان كان يُخالطهم ويستفيد منهم أسرارا عجيبة فغلب على الظّنون أنه عليه السّلام استفاد السّحر منهم [(١)].

وإعمالا لما جاء به الذّكر الحكيم فإنّك ترى الدّجاجلة إلى اليوم يتلون أقساما وعزائم ويخُطّون خطوطا وطلاسم، ويُسمّون ذلك خاتم سليمان وعهوده. ويزعمون أنها تقي حاملها من اعتداء الجنّ ومسّ العفاريت، ولاشكّ أنّ ما قالوه على سليمان وملكه من خبر السّحر والكفر مكذوب افتراه أهل الأهواء وقد قصّه الله تعالى علينا لنعتبر بما افتراه هؤلاء النّاس على أنبياء الله ورسله صلوات الله عليهم أجمعين.

وإذا قال أهل الجهل بالدّين أليس السّحر قد ذُكر في القرآن؟ نقول نعم! ولكن هذا الذّكر قد جاء للموعظة والاعتبار لا لبيان التّاريخ وحكايته، ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيّات الأخبار عند الغابرين، وإنّما يحكي من عقائدهم الحقّ والباطل، ومن نقائدهم الصّادق والكاذب، ومن عاداتهم النّافع والضّار، لتتأكّد الأمّة الرّاشدة بعد ذلك أنّ [حكاية القرآن] عن السّحر لا تعدو موضع العبرة ولا تتجاوز موطن الهداية [(٢)].

والسّياق القرآني الكريم يقف بنا أمام أكثر من دلالة تكشف حقيقة هذا الخداع. وتبيّن أنّ حكاية السّحر لا يتبنّاها في عالم النّاس إلاّ الشّياطين وأقرانهم من اليهود الذين يُمثّلون محور الشّر والإيذاء في حياة البشر، فليس [الشّرّ] إلاّ إلحاق الضّرر والألم بالغير عن طريق السّحر، وليس [الإيذاء] إلاّ ترجمة مريرة لما يعانيه المرء من اضطراب نفسه وانفعال مشاعره، فحقيقة الضّرر كلّ ألم لا نفع يوازيه، وحقيقة النّفع كلّ لذّة لا يتعقّبها عقاب ولا تلحق فيه ندامة، والضّرر وعدم المنفعة في السّحر متحقّق [(٣)].

---

(١) انظر تفسير الفخر الرّازي [ج ٣ ص ٢٢١].

(٢) انظر تفسير المنار [ج ١ ص ٣٣٠].

(٣) انظر أحكام القرآن لابن العربي [ج ١ ص ٣٢].

(٣) السّحر في القرآن الكريم

وجاء ذكر السّحر في مواضع متعدّدة في القرآن وأكثره في قصّة موسى وفرعون كما ذُكر في الكلام عن اليهود، وإذا أردنا فهمه من عُرْف اللّغة وجدنا أنّ السّحر عند العرب: كلّ ما لَطُفَ مأخذُهُ ودَقّ وخَفِيَ، وقالوا: سَحَرَهُ بمعنى خَدَعَهُ وعلّله، أو هو كلّ أمر يُتَخَيَّلُ على غير حقيقته من [سَحَرَ يَسْحَرُ سَحْرًا]: سلبه لُبَّهُ واستماله، وفسّره «جمهور العلماء» بأنّه أمر خارق للعادة يظهر من «نفس شرّيرة» بمباشرة أعمال مخصوصة.

وعليه فإنّ لفظ «السِّحْرِ» في عُرف الشّرع مختصّ بكلّ أمر يخفى سببه ويُتَخَيَّلُ على غير حقيقته ويجري مجرى التّمويه والخداع، ومتى أُطلق ولم يقيّد أفاد ذمّ فاعله [(١)]. وحكى الأزهري عن الفرّاء وغيره أنّ أصل السّحر في اللّغة «الصَّرْفُ» أي صرف الشّيء عن جهته إلى غيرها ومنه قوله تعالى ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]: أي مَوَّهُوا عليهم وخَيَّلُوا لهم وقلبوا أعينهم عن صحّة إدراكها بما يُتَخَيَّلُ من التّمويه الذي جرى مجرى الشّعوذة وخفّة اليد.

فكأنّ السّاحر لمّا رأى الباطل في صورة الحقّ وخيّل الشّيء على غير حقيقته قد سحر الشّيء عن وجهه أي صَرَفَه [(٢)]. (قال) القرطبي [وقيل أصله الاستمالة وكلّ من استمالك فقد سحرك]. ومنه قوله تعالى ﴿بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٥]: أي سُحِرْنَا فَأُزِلْنَا بالتّخييل عن معرفتنا. (وقال) الجوهري [السِّحْرُ الأُخْذَةُ، وكلّ ما لَطُفَ مأخذه ودَقّ فهو «سحر». وسَحَرَهُ بمعنى خَدَعَهُ]. وقال ابن مسعود [كُنَّا نُسَمّي السِّحْرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْعِضَهُ، وَالْعِضَهُ عِنْدَ الْعَرَبِ شِدَّةُ الْبَهْتِ وَتَمْوِيهُ الْكَذِبِ(٣)].

ومن السّحر البيان في فِطْنَةٍ لقول النّبي ﷺ «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا(٤)». أي السّحر الكلامي وهو غرابته ولطافته وعُذوبته المؤثّرة في القلوب المحوّلة إيّاها من حال إلى حال. [أو] هو الذي يُميل من يسمعه إلى قبول قوله وإن كان بغير حقّ، وهو في الحديث بمعنى الخديعة وإخراج الباطل في صورة الحقّ [(٥)] من قولهم «سَحَرَهُ بِكَلَامِه»: استماله برقّته وحسن تركيبه؛ وفيه قولان:

---

(١) انظر المصباح المنير [ص ٢٦٨].

(٢) انظر تفسير القرطبي [ج ٧ ص ٢٥٩].

(٣) انظر تفسير القرطبي [ج ٢ ص ٤٤].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخاري [٥٧٦٧] ومسلم [٨٦٩].

(٥) معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ٢ ص ٢٤٩] والموسوعة الفقهيّة [٢٣/ ٩٦].

(الأوّل) أنّه ذمّ لأنّه إمالة القلوب وصرفها بمقاطع الكلام إليه حتّى يكسب من الإثم به كما يكسب بالسّحر.

(الثّاني) أنّه مدح لأنّ الله تعالى امتنّ على عباده بتعليمهم البيان وشبّهه بالسّحر لميل القلوب إليه، وأصل السّحر الصّرف؛ فالبيان يصرف القلوب ويُميلها إلى ما يدعو إليه وهذا هو الصّحيح المختار [(١)].

واختلفت تعريفات الفقهاء للسّحر نظرا لاختلاف تصوّراتهم لحقيقته، فمن قائل أنّ السّحر عمل «تُقُرِّبَ» فيه إلى الشّيطان وبمعونة منه [(٢)]. وسُمِّيَ السِّحْرُ سحْرًا لأنّه يُزيل الصّحة إلى المرض. [أو] هو إخراج الشّيء في أحسن معارضه حتّى يفتن. [أو] هو علم يُستفاد به حصول مَلَكَة نفسانيّة يُقتدر بها على أفعال غريبة. [أو] هو مزاولة النّفوس الخبيثة لأقوال أو أفعال ينشأ عنها أمور خارقة للعادة [(٣)]. (قال) ابن القيّم في الزّاد [والسّحر مركّب من تأثيرات الأرواح الخبيثة وانفعال القوى الطَّبيعيّة عنها، وهو أشدّ ما يكون من السّحر ولا سيّما في الموضع الذى انتهى السّحر إليه(٤)].

(٣) سحر اليهودى للنّبى ﷺ

لمّا استعملت اليهود السّحر مع رسول الله ﷺ كانت ظواهر ذلك من جنس ما كان يعتريه من الأسقام والأوجاع باعتباره مرض من الأمراض وإصابته به كإصابته بالسُّمّ لا فرق بينهما، وقد جاء في ذلك عدّة روايات عن عائشة رضى الله عنها:

(الأولى) رواية ابن عيينة عند البخارى «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سُحِرَ حَتَّى كَانَ يَرَى أَنَّه يَأْتِي النِّسَاءَ وَلاَ يَأْتِيهِنَّ، قَالَ سُفْيَانُ - أَحَدُ رِجَالِ السَّنَدِ - وَهَذَا أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنَ السِّحْرِ إِذَا كَانَ كَذَا، قَالَ يَاعَائِشَةُ أَعَلِمْتِ أَنَّ اللهَ قَدْ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ؟ أَتَانِي رَجُلاَنِ، فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ، فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رَأْسِي لِلآخَرِ مَا بَالُ الرَّجُلِ؟ قَالَ مَطْبُوبٌ، قَالَ وَمَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَمِ، رَجُلٌ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ حَلِيفٌ لِيَهُودَ كَانَ مُنَافِقًا، قَالَ وَفِيمَ؟ قَالَ فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ، قَالَ وَأَيْنَ؟ قَالَ فِي جُفِّ طَلْعَةِ ذَكَرٍ تَحْتَ رَعُوفَةٍ فِي بِئْرِ ذَرْوَانَ، قَالَتْ فَأَتَى النَّبِيُّ ﷺ الْبِئْرَ حَتَّى اسْتَخْرَجَهُ، فَقَالَ هَذِهِ الْبِئْرُ الَّتِي أُرِيتُهَا وَكَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحِنَّاءِ وَكَأَنَّ نَخْلَهَا رُءوسُ الشَّيَاطِينِ، قَالَ فَاسْتُخْرِجَ، قَالَتْ فَقُلْتُ أَفَلاَ - أَيْ تَنَشَّرْتَ؟ - فَقَالَ أَمَا وَاللهِ فَقَدْ شَفَانِي وَأَكْرَهُ أَنْ أُثِيرَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ شَرًّا(٥)».

---

(١) انظر نووى مسلم [ج ٣ ص ٤٢٦]. (٢) انظر لسان العرب [٤ / ٣٤٨]. (٣) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ٢ ص ٢٤٩]. (٤) انظر زاد المعاد [ج ٤ ص ١٢٦]. (٥) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٧٦٥] ومسلم [٢١٨٩].

(والثانية) رواية البخارى عن هشام «سَحَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَجُلٌ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ يُقَالُ لَهُ لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَمِ، قَالَتْ حَتَّى كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ كَانَ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا فَعَلَهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَهُوَ عِنْدِي، لَكِنَّهُ دَعَا وَدَعَا، ثُمَّ قَالَ يَاعَائِشَةُ أَشَعَرْتِ أَنَّ اللهَ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ؟ أَتَانِي رَجُلَانِ فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قَالَ مَطْبُوبٌ، قَالَ مَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَمِ، قَالَ فِي أَيِّ شَيْءٍ قَالَ فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ، قَالَ وَجُفِّ طَلْعِ نَخْلَةٍ ذَكَرٍ؛ قَالَ وَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ فِي بِئْرِ ذَرْوَانَ، فَأَتَاهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي نَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَجَاءَ فَقَالَ يَاعَائِشَةُ: لَكَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحِنَّاءِ؛ وَكَأَنَّ رُؤُوسَ نَخْلِهَا رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ، قُلْتُ يَارَسُولَ اللهِ أَفَلَا أَسْتَخْرَجْتَهُ؟ قَالَ: قَدْ عَافَانِي اللهُ وَكَرِهْتُ أَنْ أُثِيرَ عَلَى النَّاسِ فِيهِ شَرًّا فَأَمَرْتُ بِهَا فَدُفِنَتْ(1)». وقال اللَّيث وابن عُيينة عن هشام «في مُشْط ومُشَاطَة»: يقال: الْمُشَاطَةُ مَا يَخْرُجُ مِنَ الشَّعْرِ إِذَا مُشِطَ، وَالْمُشَاطَةُ: مِنْ مُشَاطَةِ الْكَتَّانِ».

(الثالثة) ما جاء في رواية أبي أُسامة عن عائشة «قُلْتُ يَارَسُولَ اللهِ: أَفَأَخْرَجْتَهُ؟ قَالَ لَا، أَمَّا أَنَا فَقَدْ عَافَانِي اللهُ وَشَفَانِي، وَخَشِيتُ أَنْ أُثَوِّرَ عَلَى النَّاسِ مِنْهُ شَرًّا، وَأَمَرَ بِهَا فَدُفِنَتْ(2)».

وقوله ﷺ «جَاءَنِي رَجُلَانِ»: أى ملَكان في صورة رجلين، وظاهره أنّ ذلك كان في اليقظة ويُحتمل أن يكون مناماً ورؤيا الأنبياء وحي.

ويُشار من خلال هذه الرّوايات إلى الدّلالات التّالية:

(1) أنّ مُجمل ما لحق بالنّبى ﷺ من مرض السّحر أنّه كان يُخَيَّلُ إليه أنّه وَطيء زوجاته ولم يكن وطأهنّ لرواية البخارى «حَتَّى كَانَ يَرَى أَنَّهُ يَأْتِي النِّسَاءَ وَلَا يَأْتِيهِنَّ». وجاء في رواية مسلم «كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا يَفْعَلُهُ». وفي رواية الكشميهنى «أَنَّهُ فَعَلَ الشَّيْءَ وَمَا فَعَلَهُ». وجاء من طريق هشام عن عائشة «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُحِرَ حَتَّى كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ صَنَعَ شَيْئًا وَلَمْ يَصْنَعْهُ(3)». وكلّ الرّوايات تحمل الدّلالة على أنّ الذى اعترى رسول الله ﷺ شيء من التّخيُّل وأنّ الذى ناله من ضرر السّحر قدر ما ينال المريض من ضرر الحمّى.

(2) أنّ مقصود قول أمّ المؤمنين للنّبى ﷺ «أَفَلَا أَحْرَقْتَهُ؟». وفي الرّواية الثّانية «أَفَأَخْرَجْتَهُ». طلب إخراج السّحر وإحراقه، إلاّ أنّ رسول الله ﷺ أمر بدفنه وأخبر أنّ الله تعالى قد عافاه وأنّه يخاف من إخراجه وإحراقه وإشاعة هذا ضررا وشرّا على المسلمين من تذكُّرِ

---

(1) حديث صحيح أخرجه البخارى [5763] وأحمد [24228] وابن ماجه [2872].

(2) أخرجه البخارى [5766] ومسلم [2189] وأحمد [24229].

(3) أخرجه البخارى [3175] وأحمد [24119].

السّحر أو تعلّمه أو شيوعه والحديث فيه أو إيذاء فاعله، وهذا من باب ترك مصلحة لخوف مفسدة أعظم منها وهو من أهم قواعد الإسلام [(١)].

(٣) أنّ حصول اليهود على بعض آثار النّبى ﷺ من مُشْط ومُشَاطَة، قد تمّ عن طريق الدّسّ والمكر والخديعة وهو الأمر الذى أشار إليه القشيرى فى تفسيره «أَنَّ غُلامًا من الْيَهُود كَانَ يَخْدُمُ النَّبىَّ ﷺ فَدَسَّتْ إِلَيْه الْيَهُودُ ولَمْ يزَالُوا به حَتَّى أَخَذَ مُشَاطَةَ رأْس النَّبىِّ ﷺ وأَخذَ عدَّةَ أَسْنَان من مُشْطه، فأعْطَاهَا الْيَهُود فَسَحَرُوهُ بِهَا، وكَانَ الَّذى تَولّى ذَلكَ لَبيدُ ابْنُ الأَعْصَم الْيَهُودِىّ (٢) ».

(٤) أنّ ما جاء عن استخراج «المُشط والمشاطة» التى احتوت سحر اليهودى فى الرّواية الأولى، والإشارة إلى عدم استخراجها فى الرّواية الثّالثة فإنّه لا تنافى بينهما إذ قد يُظن فى الظّاهر تعارضهما :

* فالرّواية الأولى تشير إلى أنّه تم استخراجه من البئر حتّى رآه ﷺ وعلمه ثمّ دفنه بعد أن شُفى.

* والرّواية الثّالثة تضمنّت قول عائشة «أَفَلاَ اسْتَخْرَجْتَهُ» : أى هلاّ أخرجته للنّاس حتّى يروه ويعاينوه، فأخبرها ﷺ بالمانع له من ذلك وهو أنّ المسلمين لم يكونوا ليسكتوا عن ذلك فيقع الإنكار ويغضب للسّاحر قومه فيحدث الشّر، وقد حصل المقصود بالشّفاء والمعافاة، فأمر بها فدفنت ولم يستخرجها للنّاس.

فالاستخراج الواقع غير الذى سألت عنه عائشة، والذى يدلّ عليه أنّ رسول الله ﷺ إنّما جاء إلى البئر ليستخرجها منه ولم يجىء لينظر إليها ثمّ ينصرف إذ لا غرض له فى ذلك والله تعالى أعلم [(٣)].

ورغم أنّ الرّوايات التى جاءت فى سحر اليهودى للنّبى ﷺ من الصّحيح المتّفق عليه فقد ذهب البعض إلى القول بأنّ هذه الرّوايات تخالف أصل العصمة النّبويّة فى العقل والتّبليغ، ولا تستقيم مع الاعتقاد الصّحيح بأنّ كلّ فعل من أفعاله ﷺ وكلّ قول من أقواله سُنَّة وشريعة، وأنّ ذلك يُنقص من مقام النُّبوّة ويُشكّك فيها، كما أنّها تصطدم بنفى القرآن عن الرّسول ﷺ أنّه مسحور، وقالوا أنّ أحاديث الآحاد لا يُؤخذ بها فى أمر العقيدة والمرجع فى ذلك هو القرآن الكريم، كما أنّ التّواتر شرط للأخذ بالأحاديث فى أصول الاعتقاد.

---

(١) انظر نووى مسلم [ج ٧ ص ٤٣٣].

(٢) نقلا عن تفسير القرطبى [ج ٢٠ ص ٢٥٤].

(٣) انظر تفسير المعوّذتين [ص ٢٨].

وهذا كلّه مردود عليهم لأنّ الدّليل قد قام على صدق النّبى ﷺ فيما يُبلّغه عن الله تعالى وعلى عصمته في التّبليغ، والمعجزات شاهدات بتصديقه، فتجويز ما قام الدّليل على خلافه باطل وذلك لكثير من الوجوه منها :

(١) أنّ الله تعالى أثبت في القرآن أنّ السّحر الذى حصل لموسى عليه السّلام هو التّخييل كما فى قول الله تعالى ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾[طه:٦٦]. وهكذا خُيِّلَ للنبي ﷺ أنه فعل الشّيء ولم يفعله، لقول عائشة عند أحمد «سُحِرَ النَّبِىُّ ﷺ فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ قَدْ صَنَعَ شَيْئًا وَلَمْ يَصْنَعْهُ(١)». وبعض الرّوايات تبيّن أنّ هذا الشّيء هو إتيان الزّوجة.

(٢) ثمّ لبث النّبى ﷺ على ذلك أيّامًا وقيل أشهرًا حتّى أعلمه جبريل عليه السّلام بأمر الله تعالى بمكان السّحر فاستخرجه كما أُخبر فى رُؤياه، وقرأ المعوّذتين فانحلّت عُقَدُهُ وذهب عنه السّوء بفضل الله وحفظه.

(٣) أنّ هذه الأحداث وقعت قبل نزول المعوّذتين وقبل أن يُعْلِمَ النّبىُّ ﷺ الأُمَّةَ أنّ من قرأ آية الكرسيّ أو المعوّذتين لم يقربه شيطان أبدا يومه ذاك، وكان هذا من التّحصينات الكبرى التى لم يستطع اليهود بعدها أن يفعلوا شيئا.

(٤) أنّ ما وقع من السّحر إنّما تسلّط على جسده الشّريف وظواهر جوارحه لا على تمييزه ومعتقده، لكونه ﷺ عُرضة لما يعترض البشر من طوارىء، فغير بعيد أن يخيّل إليه أمر من أمور الدّنيا ما لا حقيقة له مع عصمته عن مثل ذلك فى أمور الدّين.

وإذا كان المراد بالحديث أنّه كان ﷺ يُخَيَّلُ إليه أنه وطىء زوجاته ولم يكن وطأهنّ، فإنّ كثيرا من هذا يقع تخيُّله للإنسان فى المنام فلا يبعد أن يُخيّل إليه فى اليقظة ولا حقيقة له، وقيل إنّه كان يُخَيَّلُ إليه أنّه فعله وما فعله، ولكن لا يعتقد صحّة ما يتخيّله.

(٥) أنّ ما وقع للنّبى ﷺ من السّحر إنّما هو أمر عارض كسائر الأعراض البشرية الجائزة فى حقّ الأنبياء عليهم السّلام فلا ينافي العصمة، وقد تدارك الله تعالى نبيّه ﷺ وأرسل إليه الملَكَين الكريمين فأخبراه بمكان السّحر واسم صانعه فلم ينل منه ما قصده السّاحر وقد قال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[المائدة:٦٧].

والسّحر الذى أصابه كان مرضا عارضا من الأمراض شفاه الله منه ولا نقص فى ذلك ولا عيب بوجه ما، فإنّ المرض يجوز على الأنبياء وكذلك الإغماء، فقد أُغمى عليه ﷺ

---

(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢٤١١٩].

فى مرضه، ووقع حين انفكت قدمه وجُحش شقُّه، وهذا من البلاء الذى يزيده الله تعالى به رفعة فى درجاته ونيل كرامته، فأشدّ النّاس بلاء الأنبياء، وليس ببدع أن يُبتلى النّبى ﷺ من بعض أعدائه بنوعٍ من السّحر كما ابتُلى بالذى رماه فشجّه، بل كان هذا من كماله وعلوّ شأنه عند الله تعالى.

(٦) كما أنّ كشف السّماء لسحر لبيد بن الأعصم معجزة من معجزات النُّبوّة لما وقع فى مرسل عبد الرّحمن بن كعب عند ابن سعد «فَقَالَتْ أُخْتُ لَبِيد بْن الأَعْصَم إِنْ يَكُن نَبِيًا فَسَيُخبَر، وَإِلاَّ فَسَيُذهِلُهُ هَذَا السِّحْرُ حَتّى يَذْهَبَ عَقْلُهُ[١]». فوقع الشّقّ الأوّل كما فى هذا الحديث الصّحيح بإخبار جبريل عليه السّلام له بذلك لما جاء عن زيد بن أرقم قال «سَحَرَ النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُود، فَاشْتَكَى لِذَلِكَ أَيَّامًا، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَقَالَ: إِنَّ رَجُلاً مِنَ الْيَهُودِ سَحَرَكَ، عَقَدَ لَكَ عُقَدًا فِي بِئْرِ كَذَا وَكَذَا[٢]».

(قال) المهلّب [صون النّبى ﷺ من الشّياطين لا يمنع إرادتهم كيده، فقد مضى فى الصّحيح أنّ شيطانا أراد أن يُفسد عليه صلاته فأمكنه الله منه، فكذلك السّحر وما ناله من ضرره فإنّه لا يُدخل نقصًا على ما يتعلّق بالتّبليغ، بل هو من جنس ما كان يناله من ضرر سائر الأمراض من ضعف عن الكلام، أو عجزٍ عن بعض الفعل، أو حدوث تخيُّل لا يستمر، بل يزول ويبطل الله كيد الشّيطان، واستُدلّ على أنّ الذى أصابه كان من جنس المرض بقوله ﷺ فى آخر الحديث «أَمَّا أَنَا فَقَدْ شَفَانِي اللَّهُ»].

(٧) كما أجمع الرّواة على أنّ هذا السّحر لم يكن له أىّ أثر على عقله ﷺ بل كان تأثيره فى جسمه كغيره من الأمراض الجسميّة، وقد وقع السّحر لموسى عليه السّلام فكان يُخيَّل إليه فى رأى العين كما قال تعالى ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾[طه:٦٦]. فكان هذا السّحر من الأعراض التى لا تؤدّى إلى نقص فى مرتبته العليّة ودرجته الرّفيعة بدليل:

* أنّه ﷺ لمّا اشتدّت به وطأة المرض لجأ إلى الدّعاء كما فى حديث مسلم «حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ دَعَا ثُمَّ دَعَا». أى إظهار العجز والافتقار وعلما منه بأنّ الله هو الكاشف للكُرَب والأضرار، وقياما بعبادة الدُّعاء عند الاضطرار.

* ثُمَّ إنّه ﷺ فوّض أمره إلى الله فى مبدأ المرض ثمّ تداوى لقوله ﷺ «يَاعَائِشَةُ أَعَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيه». أى أجابنى فيما دعوته، فسمّى الدّعاء: استفتاء، والجواب: فتيا لأنّ الدّاعى طالبٌ والمُجيبُ مُسعفٌ فاستُعير أحدهما للآخر.

---

(١) نقلا عن فتح البارى [ج ١٠ ص ٢٣٨].

(٢) من حديث صحيح أخرجه أحمد [١٩١٦٣] والنّسائى [٤٠٩١].

* أنّ كلّ ما جاء في الرّوايات من أنّه يُخيَّل إليه فعل شيء لم يفعله ونحوه فمحمول على التّخيُّل بالبصر لا لخلل تطرّق إلى العقل، وليس في ذلك ما يُدخل لبسًا على الرّسالة ولا طعنًا لأهل الضّلالة [(١)].

(٨) أمّا عن قولهم [إنّ سحر الأنبياء ينافي حماية الله تعالى لهم فإنّه سبحانه كما يحميهم ويصونهم ويحفظهم ويتولاّهم، فإنّه يبتليهم بما شاء من أذى الكفّار لهم ليستوجبوا كمال كرامته، وليتسلّى بهم مَنْ بعدَهم من أممهم وخلفائهم إذا أُذوا من النّاس فرأوا ما جرى على الرّسل والأنبياء صبروا ورضوا وتأسوا بهم، أمّا الكفّار فيستوجبون ما أُعدّ لهم من النّكال العاجل والعقوبة الآجلة، فيمحقهم بسبب بغيهم وعدوانهم فيُعجِّل تطهير الأرض منهم، فهذا من بعض حكمته تعالى في ابتلاء أنبيائه ورسله بإيذاء قومهم، فله الحكمة البالغة والنّعمة السّابغة ولا إله غيره ولا ربّ سواه(٢)].

ماذا عن مصير لبيد بن الأعصم بعد فعلته الشّنعاء؟

اختلفت الرّوايات التي جاءت في هذه المسألة وعمّا أنزله رسول الله ﷺ بساحر اليهود لبيد بن الأعصم في مُقابل فعلته هل قُتل أم لم يُقتل! فذهب الأكثرون إلى أنّه لم يُقتل لما وقع في حديث عَمرة عن عائشة «فَقيلَ يارَسولَ الله لَوْ قَتَلْتَهُ؟ قَالَ: مَا وَرَاءَهُ مِنْ عَذَاب اللهِ أَشَدُّ». وجاء في رواية «فَأَخَذَهُ النَّبيُّ ﷺ فَاعْتَرَفَ فَعَفَا عَنْهُ». وفي حديث زيد بن أرقم «فَمَا ذَكَرَ لِذَلكَ الْيَهُوديَ وَلاَ رَآهُ فِي وَجْهِه قَطُّ حَتَّى مَاتَ(٣)». وجاء في تفسير القرطبي «قَالُوا «يَارَسُولَ الله أَلاَ نقْتلُ الْخَبِيثَ؟ فَقَالَ أَمَّا أَنَا فَلَقَدْ شَفَانِي اللهُ وَأَكْرَهُ أَنْ أُثِيرَ عَلَى النَّاسِ شَرًّا(٤)».

وقد عنون البخاري لهذا في صحيحه بقوله [هل يُعفي عنِ الذِّمِّيِّ إذا سَحَرَ؟]. ثمّ أورد قول ابن وهب موصولا عن ابن شهاب عندما «سُئل: أَعَلَى مَن سَحَر من أَهْلِ الْعَهْد قَتْل؟ قَالَ: بَلَغَنَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ صُنِعَ لَهُ ذَلكَ فَلَمْ يَقْتُلْ مَنْ صَنَعَهُ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَاب(٥)». (قال) ابن بطال [لا يُقتل ساحر أهل العهد لكن يُعاقب إلاّ إن قَتل بسحره فيُقتل، أو أحدث حدَثًا يؤخذ به وهو قول الجمهور(٦)].

وكان رسول الله ﷺ لا يحبّ أن ينتقم لنفسه فجاء عدم قتله للبيد من جنس ما راعاه من منع قتل المنافقين حيث قال «لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ». وعندما استفهمته عائشه عمّا سيوقعه به من عقاب على ما صنع من السّحر فأجابها بالامتناع ونبّه

---

(١) انظر زاد المسلم [ج ٤ ص ٢٢٥]. (٢) انظر تفسير المعوّذتين لابن القيّم [ص ٣١]. (٣) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١٩١٦٣]. (٤) نقلا عن تفسير القرطبي [ج ٢٠ ص ٢٥٤]. (٥) ذكره البخاري موصولا قبل رقم [٣١٧٥]. (٦) انظر الفتح [ج ٦ ص ٣١٩].

على سببه وهو خوف وقوع شرّ بينهم وبين اليهود لأجل العهد، فلو قتله لصارت فتنة وهو الأمر الذى حكم به رسول الله ﷺ.

هديه ﷺ فى علاج مرضه بالسّحر

لـمّا ثقُل على رسول الله ﷺ المرض حتّى جعله يُنكر بصره بحيث أنه كان إذا رأى الشّيء يخيَّل له أنّه على غير صفته؛ فإذا تأمّله عرف حقيقته لما ورد فى مرسل سعيد بن المسيّب «حَتَّى كَادَ يُنْكِرُ بَصَرَهُ». وما جاء فى رواية عمرة عن عائشة عند البيهقى «فَكَانَ يَدُورُ وَلا يَدْرِى مَا وَجَعُهُ». وفى حديث ابن عبّاس عند ابن سعد «مَرِضَ النَّبِىُّ ﷺ وَأُخِذَ عَنِ النِّسَاءِ وَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فَهَبَطَ عَلَيْهِ مَلَكَانِ» الحديث، وجاء عند النّسائى «فَاشْتَكَى لِذَلِكَ أَيَّامًا». عندئذ سلك ﷺ فى مسألة العلاج من هذا السّحر مسلكين:

(أوّلهما) تفويض الأمر لربّه تعالى والرّكون إلى جنابه.

(والثّانى) تعاطى الأسباب التى تؤدّى إلى شفائه بعدما احتسب أجره فى صبره على بلائه.

ثمّ لـمّا استمرّ الأمر وخشى من تماديه أن يضعفه عن عبادة ربّه عمَد إلى ثلاثة أمور كلّ منها فى غاية الكمال:

(أوّلها) عندما جنح رسول الله ﷺ إلى التّداوى ممّا أصابه بالحجَامَة لما أخرجه أبو عبيد من مرسل ابن أبى ليلى قال «أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ احْتَجَمَ عَلَى رَأْسِهِ بِقَرْنٍ حِينَ طُبَّ[(1)]». (قال) الأصمعى: [وقوله «طُبَّ» يعنى «سُحِرَ» ومنه رجلٌ مطْبوب، وكانَ استعمالُ الحجامة مناسبا لما قد يكون من انفعال الطّبيعة إذا ما هيّجت الأخلاط وظهر أثر ذلك فى عضو من الأعضاء، وكان النّبى ﷺ قد بنى الأمر أوّلا على أنّه مرض وأنّه عن مادّة مالت إلى الدّماغ وغلبت على البطن المقدّم منه فغيّرت مزاجه فرأى أنّ استعمال الحِجَامَةَ إذ ذاك من أبلغ الأدوية وأنفع المعالجة فاحتجم[(2)]].

(الثّانى) ثمّ لـمّا اشتبه عليه الأمر لجأ ﷺ إلى ربّه تعالى بالدُّعاء والرّجاء أن يُطلعه على حقيقة ما هو فيه لما وقع فى رواية ابن نمير عند مسلم «حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ دَعَا ثُمَّ دَعَا». وجاء عند البخارى من حديث عائشة «لَكِنَّهُ دَعَا وَدَعَا». وفيها بيان استحباب الدُّعاء عند حصول الأمور المكروهات وتكريره والالتجاء إلى الله تعالى فى دفع ذلك؛ فاستجاب الله له وكشف ما به لما وقع فى رواية عمرة عن عائشة من قوله ﷺ «إِنَّ اللهَ أَنْبَأَنِى بِمَرَضِى». أى أخبرنى، وقوله ﷺ «أَنَّ اللهَ أَفْتَانِى فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ»: أى أجابنى بما سألته عنه.

---

(١) انظر غريب الحديث [٥٠٥] والفائق [٣/ ١٧٩].

(٢) انظر زاد المعاد [ج ٤ ص ١٢٦].

(الثالث) لمّا أخبر الوحيُ رسولَ الله ﷺ أنّه قد سُحرَ عدَل إلى العلاج الحقيقي وهو استخراج السّحر وإبطاله، فدلّه الملَكان الكريمان على مكانه فاستخرجه كما في رواية ابن عيينة «فَأَتَى النَّبِيُّ ﷺ الْبِئْرَ حَتَّى اسْتَخْرَجَهُ». والمُثبت استخراج الجُفّ والمنفي استخراج ما حواه لما جاء في رواية عمرة «فاسْتَخْرَجَ جُفَّ طَلْعَةٍ مِنْ تَحْتِ رَاعُوفَةٍ». وجاء في المسند «فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيًّا رَضِيَ اللهُ عنه فَاسْتَخْرَجَهَا فَجَاءَ بِهَا فَحَلَّلَهَا[1]». أي عرف عناصر الجُفّ وكشف خباياها ثم تخلّص منها؛ وكأنّ السّر في ذلك أن لا يراه النّاس فيتعلّمه من أراد استعمال السّحر.

(٤) حقيقة السّحر في الكتاب والسُّنّة

مذهب أهل السُّنّة وعلماء الأمّة على إثبات السّحر وأنّ له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء لدلالة الكتاب والسُّنّة على ذلك، وقد ذكره الله تعالى في كتابه الكريم وأنزل سورة الفلق للاحتراز منه، وأنّه يُتعلَّم، وأنّه ممّا يُكفَّر به، وأنّه ممّا يُفرَّق بين المرء وزوجه، وجاء في حديث سحر النّبي ﷺ أنّ أشياء قد دُفنت واستُخرجت، وهذه كلّها أمور لا تكون فيما لا حقيقة له وكيف يُتعلَّم ما لا حقيقة له وقد جاء في التّنزيل ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾.

وغير بعيد في العقل أن يخرق الله تعالى العادة عند النّطق بكلام مُلفّق أو تركيب أجسام أو المزج بين قوى على ترتيب لا يعرفه إلاّ السّاحر، ومن شاهد من الأجسام ما هو قتّال كالسّموم، وما هو مُسقم كالأدوية الحارّة، وما هو مُصحّح كالأدوية المضادّة للمرض، لم يبعد في العقل أن ينفرد السّاحر بعلم قوى فعالة أو كلام مهلك أو يؤدّي إلى التّفرقة [[2]]. ولكن ثبت وراء ذلك أمور جوّزها العقل وورد بها السّمع منها:

(١) ما جاء في آية البقرة من ذكر السّحر وتعليمه ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ ولو لم يكن له حقيقة لم يمكن تعليمه ولا أخبر تعالى في قرآنه أنّهم يعلّمونه النّاس ومنه قوله ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١]. فدلّ على أنّ للسّحر حقيقة لا يُدركها إلاّ العارف بها كقوله تعالى ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشّعراء: ٣٧].

(٢) ما جاء في قوله تعالى ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ والاستثناء فيه يدلّ على حصول الآثار بسببه.

(٣) ماجاء من قوله تعالى في قصة سحرة فرعون ﴿قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ

---

(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١٩١٦٣].

(٢) انظر نووي مسلم [٧ ص ٤٣١].

ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾[الأعراف: ١١٦]. لأنّه كان كثيرا عندهم وليس بعظيم على الحقيقة.

(٤) تأثّر رسول الله ﷺ بالسّحر ومرضه منه حتّى جاء في الحديث «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُخَيَّلُ إِلَيهِ أَنَّهُ يَفعَلُ الشَّيْءَ وَمَا يَفْعَلُهُ».

(٥) اتّفاق المفسّرين على أنّ سبب نزول [سُورتا الفلق والنّاس] ما كان من سحر لبيد بن الأعصم لقوله ﷺ من حديث عقبة «أنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ آيات لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ[(١)]». فذكر السّورتين، وكان من حكمة ذلك أنّ من تحصّن بهما لن يقربه شيطانٌ ولا يُؤذيه حسد ولا سحر.

(٦) قوله ﷺ لـمّا حُلَّ السّحرُ «أَمَا وَاللهِ فَقَدْ شَفَانِي[(٢)]». والشّفاء إنّما يكون برفع العلّة وزوال المرض.

وهذه هي طبيعة السّحر كما ينبغي لنا أن نسلّم بها، وهو بهذه الطّبيعة يؤثّر في النّاس، ويُنشيء لهم مشاعر وفق إيحائه؛ مشاعر تُخيفهم وتُؤذيهم وتُوجّههم الوجهة التي يريدها السّاحر، وعند هذا الحدّ نقف في فهم طبيعة السّحر والنّفث في العُقد، وهي شرّ يُستعاذ منه بالله تعالى ويُلجأ منه إلى حماه.

ومجموع النّصوص القرآنيّة تشير إلى أنّ السّحر هو كلّ ما دقّ ولطف وخَفِيَ سببه، وأنّه عَقْدٌ ورُقًى وكَلَام يتكلّم به فاعله،أو يكتبه، أو يعمل شيئا يُؤثّر في بدن المسحور أو قلبه أو عقله من غير مباشرة له، وهو أنواع مختلفة وحكم الإقدام عليه يختلف باختلاف هذه الأنواع، كما يختلف الحكم بوجود حقيقة له في الواقع وعدم وجودها باختلاف أنواعه، ومن السّحر ما يقتل ومنه ما يُمرض، ومنه ما يأخذ الرّجل عن امرأته فيمنعه عن وطئها، ومنه ما يُفرّقُ بين المرء وزوجه وما يُبغّض أحدهما في الآخر أو يحبّب بين الاثنين [(٣)].

ويُطلق السّحر أيضا على التّخييل وإيهام النّاظر إلى الشّيء أنّه يتحرّك مثلا مع أنّه لا يتحرّك حتّى يراه الحاضر رؤية وهميّة تختلف عن حقيقته ويعتقد على خلاف واقعه، ومثال ذلك ما فعله السّحرة بمشهد من موسى عليه السّلام وفرعون لعنه الله، ورميهم بالحبال والعصى حتّى خيّل للحاضرين أنّها تسعى مع أنّها ثابتة لم تتحرّك، فهذا لا حقيقة له بل هو إيهام وتدجيل، فالحبال والعصى لم تتحوّل عن حقيقتها وإن رآها النّاظرون في مرأى

---

(١) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٨١٤] وأبو داود [١٤٦٢] والتّرمذى [٢٩٠٢].

(٢) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٧٦٥] ومسلم [٢١٨٩].

(٣) انظر معجم المغنى ٧١٢٥ [ج ١٠ ص ١٠٤].

العين حيّات تسعى لقوله تعالى فى الآية ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[طه.٦٦]. ولم يقل أنّها تسعى على الحقيقة ولكن قال ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾.

وهذا لا حجّة لهم فيه لأنّه لا يُنكر أنّ التّخييل وغيره من جملة السّحر ،ويعتقد البعض أنّ السّحر صناعة علمية خفيّة يعرفها بعض النّاس ويجهلها الأكثرون منهم، فيسمّون العمل بها «سحْرًا» لخفاء «سَبَبِه» ولطف «مَأْخذه»، وأنّ السّحر كان يُؤخذ بالتّعليم وقد كان المصريّون يُطلقون لقبَ السّاحر على «اَلْعَالِم» كما فى قول الله تعالى﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾[الأعراف:١٠٩].

[ورغم اختلاف العلماء فى تعريف السّحر والوقوف على حقيقة القوى المؤثّرة فيه فإنّه من المكابرة أن يقف إنسان لينفى ببساطة مثل هذّ القوى المجهولة فى الكائن البشرى لمجرّد أنّ العلم لم يهتد بعد إلى وسيلة تجريبيّة يكتشف بها هذه القوى، وليس معنى هذا هو التّسليم بكلّ خرافة والجرى وراء كلّ أسطورة، إنّما الأسلم والأحوط أن يقف العقل الإنسانى أمام هذه المجاهيل موقفا مرنا لا ينفى على الإطلاق ولا يثبت على الإطلاق، حتّى يتمكّن بوسائله المتاحة له بعد ارتقاء هذه الوسائل من إدراك ما يعجز الآن عن إدراكه، أو يسلّم بأنّ فى الأمر شيئا فوق طاقته، ويعرف حدوده ويحسب للمجهول فى هذا الكون حسابه..].

[.. والسّحر من قبيل هذه الأمور، وتعليم الشّياطين للنّاس من قبيل هذه الأمور، وقد تكون صورة من صوره: القدرة على الإيحاء والتّأثير، إمّا فى الحواسّ والأفكار، وإمّا فى الأشياء والأجسام، وإن كان السّحر الذى ذكر القرآن وقوعه من سحرة فرعون كان مجرّد تخييل لا حقيقة له:﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾. فلا مانع أن يكون مثل هذا التّأثير وسيلة للتّفريق بين المرء وزوجه، وبين الصّديق وصديقه، فالانفعالات تنشأ من التّأثّرات، وإن كانت الوسائل والآثار والأسباب والمسبّبات لا تقع كلّها إلاّ بإذن الله تعالى(١)].

(٥) بعض أنواع السّحر

السّحر حيَل وأعمال يُتوصّل إليها بالاكتساب غير إنّها لدقّتها لا يتوصّل إليها إلاّ آحاد النّاس، ومادّته الوقوف على خواصّ الأشياء والعلم بوجوه تركيبها وأوقاته، وأكثرها تخييلات وإيهامات فيعظم أمره عند من لا يعرف ذلك كما فى قوله تعالى عن سحرة فرعون ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾. مع أنّ حبالهم وعصيّهم لم تخرج عن كونها حبالا وعصيّا. ومن المعروف أنّ لبعض أصناف السّحر تأثيرا فى القلوب كالحبّ والبغض، وإلقاء

(١) انظر فى ظلال القرآن [ج ١ ص ٩٧].

الخير والشّر، وفي الأبدان بالألم والسّقم [(١)].

لذلك نذكر من أنواعه ما يلي:

(١) فِعْلُ ما يجمع بين المرء وزوجه ويسمّى «التِّوَلَة»: وهي ضرب من الحرز تحبّب المرأة إلى زوجها، ومن أعراضه الشّغف والمحبّة الزّائدتان والرّغبة الشّديدة في كثرة الجماع والتّلهُّف إليها، وهذا من الأمور التي نهى عنها رسول الله ﷺ بقوله «إنّ الرُّقَى والتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ(٢)». و«التِّوَلَةُ» ما يُحبّب المرأة إلى زوجها من السّحر وغيره، وجعَله من الشّرك لاعتقادهم أنّ ذلك يُؤثّر ويفعل خلاف ما قدّره الله تعالى[(٣)].

(قال) أبو عبيد [وإنّما أراد بالرُّقَى والتّمائم عندى ما كان بغير لسان العربية ممّا لا يُدرى ما هو؛ فأمّا الذى يُحَبِّبُ المرأة إلى زوجها فهو عندنا من السِّحر(٤)].

(٢) ومنه فِعْلُ ما يُفرّق به بين المرء وزوجه أو يبُث البغض والكراهية بين صديقين أو شريكين، ومن أعراضه انقلاب الأحوال من حبّ إلى بغض، وكثرة الشّكوك والظّنون، وتعاظم أسباب الخلاف، وكراهية المسحور لكلّ عمل يقوم به الطّرف الآخر، وهو المشار إليه في قوله تعالى﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾. (قال) ابن كثير [وسبب التّفريق بين الزّوجين بالسّحر ما يُخيّل إلى الرّجل أو المرأة من الآخر من سُوء منظر أو خُلق أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفُرقة(٥)].

(٣) ومنه سحْرُ التّخييل مثل ما خُيِّلَ إلى رسول الله ﷺ من شدّة وطأة السّحر أنّه كان يفعل الشّيء وما فعله كما في حديث عائشة رضى الله عنها «حتّى كَانَ يَرَى أَنَّهُ يَأْتِي النِّسَاءَ وَلاَ يَأْتِيهِنَّ». فظهر بهذا أنّ السّحر إنّما تسلّط على جسده الطّاهر وظاهر جوارحه لا على تمييزه ومعتقده.

(٤) ومنه ما اشتُهر بين النّاس من أخذ الرّجل عن امرأته حين يبنى بها فلا يقدر على إتيانها، فإذا حُلّ عقده استطاع ذلك بعد عجزه عنه حتّى صار هذا الأمر متواترا لا يُمكن جحده [(٦)].

(٥) ومنه ما يُمرض ودليله قوله ﷺ لمّا حُلّ عنه السّحر «أَمَا وَاللهِ فَقَدْ شَفَانِي». وفيه

(١) نقلا عن فتح البارى [ج ١٠ ص ٢٣٣].

(٢) حديث صحيح أخرجه أحمد [٣٦١٥] وأبو داود [٣٨٨٣].

(٣) انظر النّهاية [ج ١ ص ٢٠٠].

(٤) انظر غريب الحديث [ج ٥ ص ٦٢].

(٥) انظر تفسير ابن كثير [ج ١ ص ١٤٤].

(٦) انظر المغنى لابن قدامة [ج ١٠ ص ١٠٦].

تأكيد أنّ سبب المرض الذى زال كان سببه سحر اليهودى للنّبىﷺ .

(٦) الاستعانة بخواصّ الأدوية مثل أن يجعل فى طعامه بعض الأدوية المبلّدة المزيلة للعقل كتلك التى إذا تناولها الإنسان تبلّد عقله وقلّت فطنته .

(٧) ما يسمّى بتعليق القلب وهو أن يدّعى السّاحر أنّه قد عرف الاسم الأعظم وأنّ الجنّ يُطيعونه وينقادون له فى أكثر الأمور، فإذا اتّفق أن كان السّامع لذلك ضعيف العقل قليل التّمييز، اعتقد أنّه حقّ وتعلّق قلبه بذلك وحصل فى نفسه نوع من الرّعب والمخافة، فإذا حصل هذا الخوف ضعفت القوى الحسّاسة عنده فحينئذ يتمكّن السّاحر من أن يفعل ما يشاء، وإنّ من جرّب الأمور وعرف أحوال أهل العلم أدرك أنّ لتعلّق القلب أثرا عظيما فى تنفيذ الأعمال وإخفاء الأسرار [(١)] .

(٦) تأثير السّحر على المسحور

ولا يؤثّر السّحر فى المسحور إلاّ بإرادة الله تعالى وفى ذلك جاء قوله ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾. والمعنى المستخلص من الآية يقف بنا أمام أمرين :

(الأوّل) أنّه سبحانه أطلق الضّرر ولم يقصره على التّفريق بين المرء وزوجه، فدلّ ذلك على أنّه تعالى إنّما ذكره لأنّه من أعلى مراتبه .

(الثّانى) أنّ المراد بقوله ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾. أنّ ذلك بإرادته وقضائه لا بأمره، لأنّه تعالى لا يأمر بالفحشاء ولكنّه يقضى على الخَلق بها [(٢)]. فكلّ خير أو شرّ أو طاعة أو معصية أو إيمان أو كفر منزّل من عند الله لقوله ﷺ فى الحديث «سُبْحَانَ الله ! مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْفِتْنَة؛ وَمَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الْخَزَائِنِ (٣)». والمراد بالإنزال إعلام الملائكة بالأمر المقدور، أو أن النّبى ﷺ أُوحِىَ إليه فى منامه ذاك بما سيقع بعده من الفتن فعبّر عنه بالإنزال [(٤)] .

والإذن الوارد فى الآية حقيقة فى الأمر، والله تعالى لا يأمر بالسّحر ولأنّه أراد إظهار عيبهم وذمّهم، ولو كان قد أمرهم به لما جاز أن يذمّهم عليه، وجاء فى ذلك وجوه :

(أوّلها) أنّ المراد منه التّخلية، فإذا سُحِرَ الإنسان فإن شاء الله منعه من هذا السّحر وإن شاء خلّى بينه وبين ضرر السِّحر وهو قول الحسن.

---

(١) انظر تفسير الرازى [ج٣ ص ٢٣٠].

(٢) انظر تفسير القرطبى [ج ٢ ص ٥٥].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [١١٢٦].

(٤) انظر فتح البارى [ج ١ ص ٢٥٤].

(والثانى) أنّ المراد بالإذن في الآية علم الله تعالى ومنه قوله ﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنبياء: ١٠٩]: يعنى (أَعْلَمْتُكُمْ).

(الثّالث) أنّ الضّرر الحاصل عند فعل السّحر إنّما يحصل بخلق الله تعالى وإيجاده وإبداعه، وما كان كذلك فإنّه يصحّ أن يُضاف إلى إذن الله تعالى كما فى التّنزيل الحكيم ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النّحل: ٤٠ (١)].

وهذا يبيّن أنّ الأسباب تُنشيء آثارها وتُحقّق نتائجها بإذن الله تعالى ومشيئته، فالذى يفرّقون به بين المرء وزوجه لا ينشأ أثره إلاّ بإذن الله، وهو قادر على أن يُوقف هذه الخاصيّة فيه حين لا يأذن به سبحانه لحكمة خاصّة يريدها، فهو يعمل بهذا الإذن ويمكن أن يُوقف مفعوله كما يُعطيه هذا المفعول حين يشاء.

ويؤكّد القول الكريم ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ﴾ أنّهم ليس لهم قوّة غيبيّة وراء الأسباب التى ربط الله بها المسبّبات، فهم يفعلون بها ما يُوهمون النّاس أنّه فوق استعداد البشر، وفوق ما مُنحوا من القُوى والقُدَر، فإذا اتّفق أن أُصيب أحد بضرر من أعمالهم فإنّما ذلك بإذن الله أى بسبب من الأسباب التى جرت العادة بأن تحصل المسبّبات من ضرّ ونفع عند حصولها بإذن الله تعالى [(٢)].

واختلف النّاس فى القدر الذى يقع به السّحر ولهم فيه اضطراب، فقال بعضهم لا يزيد تأثيره على قدر التّفرقة بين المرء وزوجه، لأنّ الله تعالى إنّما ذكر ذلك تعظيما لما يكون عنده وتهويلا به فى حقّنا، فلو وقع به أعظم منه لذكره، لأنّ المثل لا يُضرب عند المبالغة إلاّ بأعلى أحوال المذكور [(٣)].

ومن ذلك ما جاء فى الحديث أنّ رسول الله ﷺ كان يُخَيَّلُ إليه أنّه وطىء زوجاته ولم يكن وطأهن، وهو ما ورد صريحا فى رواية ابن عيينة عند البخارى ولفظه «حَتَّى كَانَ يرى أَنَّه يَأْتِي النِّسَاءَ وَلاَ يَأْتِيهِنَّ». وقول سفيان فيه «وَهَذَا أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنَ السِّحْرِ إِذَا كَانَ كَذَا(٤)». وقال آخرون أنّه يجوز أن يقع به أكثر من ذلك وما يقع منه فهو عادة أجراها الله تعالى ولا تفترق الأفعال فى ذلك، وذِكْر «التَّفرِقَة» بين الزّوجين فى الآية ليس بنصّ فى منع الزّيادة [(٥)].

(١) انظر تفسير الفخرالرّازى [ج ٣ ص ٢٣٩].

(٢) انظر تفسير المنار [ج ١ ص ٣٣٤].

(٣) انظر نووى مسلم [ج ٧ ص ٤٣١].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٧٦٥] ومسلم [٢١٨٩].

(٥) انظر نووى مسلم [ج ٧ ص ٤٣١].

ولا يُنْكَرُ عند العلماء أن يظهر على يد السّاحر خرق العادات بما ليس في مقدور البشر من مرض وتفريق وزوال عقل، إلى غير ذلك ممّا قام الدّليل على استحالة كونه من مقدورات البشر، ومع ذلك فلا يكون السِّحر موجبا لذلك ولا علّة لوقوعه ولا سببا مولّدا ولا يكون السّاحر مستقلا به.

وإنّما يخلق الله تعالى هذه الأشياء ويُحدثها عند وجود السّحر، كما يخلق الشِّبَع عند الأكل والرِّيَّ عند شرب الماء، وقال آخرون أنّ ذلك خرج على الأغلب، ولا يُنكر أنّ السّحر له تأثير على القلوب بالحبّ والبغض، وبإلقاء الشّرور حتّى يُفرِّق بين المرء وزوجه، ويحول بين المرء وقلبه، وذلك بإدخال الآلام، وعظيم الأسقام، وكلّ ذلك مُدرك بالمشاهدة [(١)].

(٧) السّاحر والشّيطان قرينان متلازمان

السّاحر والشّيطان قرينان اتّفقا على معصية الله تعالى وإلحاق الأذى بخلقه، وإيقاع الضّرر بهم، فيقوم السّاحر بفعل بعض المحرّمات أو الشّركيات في مقابل طاعة الشّيطان له فيما يطلبه منه، ومن ذلك ما يكون كُفرا من فاعله إلى أن يصل الحدّ إلى قتله إذا تسبّب في قتل أحد بسحره. ويتّصل ذلك بأمرين:

(الأمر الأوّل)

أنّ «للسِّحْر» عند أهل السُّنّة والجماعة وجودًا وحقيقةً وأنّ العمل به كفر إذا اعتُقد أنّ للكواكب تأثيرا في قلب الأعيان، كما أنّ حُرمته ثابتة باعتباره من الكبائر بل وعَدَّهُ النّبي ﷺ من السّبع الموبقات بقوله «اجْتَنبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَات، قَالُوا: يَارَسُولَ الله وَمَا هُنّ؟ قَالَ الشِّرْكُ بالله، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْس الّتى حَرّمَ اللهُ إلاّ بالْحَقّ، وأَكْلُ الرِّبَا، وأَكْلُ مَال الْيَتيم، والتَّولّي يومَ الزّحْف، وقَذْفُ المُحصَنَات الْمُؤْمنَات الْغَافلات(٢)». وفي رواية «اجْتَنبُوا الْمُوبقَات الشِّرْكُ بالله وَالسِّحْرُ(٣)». والشّاهد منه أنّ النّبي ﷺ أمر باجتناب السّحر وبيّن أنّه من الكبائر المهلكات.

وجاء عن أبي هريرة كما في رواية النّسائي أنّ «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمّ نَفَثَ فيهَا فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحرَ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعلّقَ شَيْئًا وُكِلَ إلَيْه(٤)». وهو الأمر المستعاذ منه في قول الله تعالى ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾، وهذا الشّر هو شرّ السّحر فإنّ النّفّاثات في العُقد هُنّ السّواحر اللاتي يعقد الخيوط، وينفثن على كلّ عُقدة حتّى ينعقد ما يردن من السّحر

(١) انظر تفسير القرطبي [ج ٢ ص ٥٥].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري [٢٧٦٦] ومسلم [٨٩].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخاري [٥٧٦٤].

(٤) أورده النّسائي بإسناد فيه ضعف [٤٠٩٠].

الموجب لسريان شرّهنّ في الرّوح على أبلغ وجه وإخفائه، وقد جاء خبر تلك العُقد فيما رواه أحمد والنّسائي عن زيد بن أرقم من قول جبريل عليه السّلام لرسول الله ﷺ «إِنَّ رَجُلاً مِنَ الْيَهُودِ سَحَرَكَ، عَقَدَ لَكَ عُقَدًا فِي بِئْرِ كذا وكَذَا[(١)]».

أمّا النّفث فهو فعل الساحر وهو النّفخ مع ريق وهو دون التفل، فإذا تكيّفت نفسه بالخبث والشّر الذى يريده بالمسحور ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة، نفخ في تلك العُقد نفخا معه ريق، فيخرج من نَفْسه الخبيثة نَفَسٌ مُمازج للشّر والأذى مُقترن بالرِّيق المُمازج لذلك، وقد تساعد هو والرّوح الشّيطانية على أذى المسحور فيقع فيه السّحر بإذن الله الكونى القدرى لا الأمر الشّرعى.

وتفصيل ذلك أنّ «النَّفْثُ» هو ممّا تستعين به الأرواح الطّيبة والخبيثة، فكما يفعله أهل الإيمان فى الرُّقَى والتّعوُّذات، فإنّ السّحرة يفعلونه كذلك عند عقدهم السّحر وعمله، وذلك لأنّ «النّفْسَ» تتكيّف بكيفيّة الغضب والمحاربة وترسل أنفاسها سهاما لها، وتمدّها بالنّفث والتَّفْل الذى معه شيء من الرِّيق مصاحب لكيفيّة مُؤثّرة، والسّواحر تستعين بالنّفث استعانة بيّنة وإن لم تتّصل بجسم المسحور، بل تنفث على العقدة وتعقدها وتتكلّم بالسّحر، فيعمل ذلك فى المسحور بتوسُّط الأرواح السُّفليّة الخبيثة فتقابلها الرّوح الزَّكيّة الطّيّبة بكيفية الدّفع والتّكلُّم بالرُّقية وتستعين بالنّفْث، فأيّهما قَوِىَ كان الحكم له [(٢)].

واختُلف فى تعريف «النّفّاثات» على قولين:

(الأوّل) أنّ «النَّفَّاثَاتُ» هُنَّ السّواحر السّاعيات بالأذى عن طريق خداع الحواسّ وخداع الأعصاب، والإيحاء إلى النّفوس والتّأثير فى المشاعر، وهُنَّ يعقدن العقد فى نحو خيط أو منديل وينفُثن فيها كتقليد من تقاليد السّحر، ثمّ شبّه النّفخ كمن يعمل من يرقى كقول الشّاعر [(٣)]:

أَعُوذُ بِرَبِّى مِنَ النَّافِثَاتِ ... فِى عُقَدِ الْعَاضِهِ الْمُعْضِهِ

و[العضَه]: كالكذب والسّحر والبهتان، و[الْعَاضِهُ]: السّاحر.

أمّا (الثّانى) فهو أنّ النّفّاثات هنا هُنَّ الأرواح والأنفس النّفّاثات لا النّساء النّفّاثات، لأنّ تأثير السّحر إنّما هو من جهة [الأنفس الخبيثة والأرواح الشّريرة] وسلطانه إنّما يظهر منها، فلهذا ذكرت النّفّاثات فى الآية بلفظ التّأنيث دون التّذكير، أمّا قولهم أنّ «النّفّاثات» هن بنات لبيد بن الأعصم فهذا مخالف لما ورد فى صحيح الحديث من قول جبريل عليه

---

(١) من حديث صحيح أخرجه أحمد [١٩١٦٣] والنّسائى [٤٠٩١]. (٢) انظر زاد المعاد [ج ٤ ص ١٧٩].

(٣) البيت من المتقارب وجاء برواية غريب الحديث [٣/ ٢١].

السّلام لرسول الله ﷺ «إِنَّ رَجُلاً مِنَ الْيَهُودِ سَحَرَكَ(١)» . ثمّ أثبتت الرّوايات بعد ذلك أن هذا اليهودى هو لبيد بن الأعصم وليس غيره.

الشّيطان يسحر للإنسان

وكما تسحر النّفّاثات فى العُقَد كذلك يعقد الشّيطان على ابن آدم ويسحر له كلّما نام، ليضيّع عليه صلاته ويجعله طول يومه خبيث النّفس كسلان لقوله ﷺ من حديث أبى هريرة «يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ ثَلاثَ عُقَدٍ إِذَا نَامَ، بِكُلِّ عُقْدَةٍ يَضْرِبُ عَلَيْكَ لَيْلاً طَوِيلاً، فَإِذَا اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، وَإِذَا تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عَنْهُ عُقْدَتَانِ، فَإِذَا صَلَّى انْحَلَّتِ الْعُقَدُ، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلاَّ أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلاَنَ(٢)». والقافية آخر الرّأس، وقافية كلّ شىء آخره ومنه قافية الشّعر، واختلف العلماء فى هذا العَقْد على قولين:

(الأوّل) هو عَقْدٌ حقيقي بمعنى عقد السّحر للإنسان ومنعه من القيام للطّاعة، فعلى هذا فهو قول يقوله الشّيطان يؤثّر فى تثبيط النّائم كتأثير السّحر، ويحتمل أن يكون فعلا يفعله كفعل النفّاثات فى العقد كما فى قوله تعالى ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ [الفلق: ٤].

(والثّاني) هو من عقد القلب وتصميمه، فكأنّه يُوسوس فى نفسه ويحدّثه بأنّ عليك ليلا طويلا فتأخر عن القيام؛ أو هو مجاز كَنَّي به عن تثبيط الشّيطان له عن قيام اللّيل فلا يجمع بين الذّكر والوضوء والصّلاة [(٣)].

(الأمر الثّانى)

أنّ تعلّم السّحر وتعليمه حرام، فإن تضمّن ما يقتضى الكفر كفر، وإذا لم يكن فيه ما يقتضى الكفر عُزِّرَ واستتيب منه، فإن تاب قُبلت توبته [(٤)]. وفى قوله «مَنِ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنَ النُّجُومِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ زَادَ مَا زَادَ(٥)». يُبيّن رسول الله ﷺ إحدى الطّرق المؤدّية إلى تعلّم السّحر كي يحذره المسلمون، وفيه دليل على أنّ السّحر علم حقيقى يُتَعَلّم كعلم من العلوم له أصوله التى يقوم عليها، إلاّ أنّ حرمة تعلّم السّحر وتعليمه قد قامت بقوله تعالى ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ وفيه

---

(١) من حديث صحيح أخرجه أحمد [١٩١٦٣] والنسائى [٤٠٩١].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [١١٤٢] ومسلم [٧٧٦].

(٣) انظر نووى مسلم [ج ٣ ص ٣٢٣].

(٤) انظر المصدر السّابق [ج ٧ ص ٤٣٢].

(٥) أخرجه فى صحيح الجامع [٦٠٧٤] والصّحيحة [٧٩٣].

اعتبار تعلُّم السّحر واستخدامه من الكفر، وإذا كان قد تأكّد أنّ السّحر لا يتمّ تحصيله إلاّ بالتّعلُّم فإنّه لا يُستعان في تحصيله كذلك إلاّ بالتّقرُّب إلى الشّيطان بارتكاب القبائح :

(١) - [قولا] كالرُّقى التى فيها ألفاظ الشّرك ومدح الشّيطان وتسخيره.

(٢) - [وعملا] كعبادة الكواكب والتزام الجنابة وأنواع النّجاسة والفسوق.

(٣) - [واعتقادا] كاستحسان ما يُوجب التّقرُّب إلى الشّيطان ومحبّته وذلك لا يستقرّ إلاّ فيمن يُناسبه في الشّر وخُبث النّفس.

وكما أنّ التّناسُب شرط للتّوافق والتّعاون، فإنّ الشّياطين لا تعاون إلاّ الأشرار المماثلين لهم فى الخباثة والنّجاسة قولا وعملا واعتقادا [(١)].

(٨) حكم العمل بالسحر

مباشرة السّحر كفر وارتداد عن الإسلام سواء كانت المباشرة من جهة تعلُّمه أو تعليمه أو العمل به، لأنّ السّحر كلام يُعَظَّم به غَيْرُ الله تعالى وتنسب إليه المقادير وهو قول «المالكية». كما أنّ تعلُّم السِّحر حرام بلا خلاف عند «الشّافعيّة والحنبليّة». وقال «الأحناف» بكفر السّاحر بتعلُّمه السّحر وفعله سواء اعتقد تحريمه أم لا، وقد «رُوِىَ هذا» عن عمر ابن الخطّاب وعثمان بن عفّان وعبد الله بن عمر رضى الله عنهم.

وإذا أتى السّاحر في سحره بمكفِّر قُتِلَ لردَّته حدًّا، وإن ثبت أنه قَتَلَ بسحره نَفْسًا معصومة قُتِلَ قصَاصًا، وإن لم يأت فى سحره بمكفّر ولم يقتل نفسا ففى قتله بسحره خلاف، والصّحيح أنّه يُقتل حدًّا لردّته وهذا هو قول أبى حنيفة ومالك وأحمد لكفره لسحره لدلالة قوله تعالى﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾. على كُفر السّاحر مُطلقا، وأورد البخارى فى صحيحه عن بجالة بن عبده قال «كَتَبَ عُمرُ بْنُ الْخَطَّاب رضي الله عنه أن اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَة، فَقَتَلْنَا ثَلاثَ سَوَاحِرَ(٢)». ولما ثبت عن جندب رضي الله عنه أنه قالَ «حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ(٣)».

كما جاء في الموطأ «أنَّ حفصَةَ زَوجَ النَّبيِّ ﷺ قَتَلتْ جارِيَةً لَها سَحرَتْها وقَدْ كَانَتْ دبَّرتْها فَأمَرَتْ بهَا فَقُتِلَتْ(٤)». وقوله «دبَّرَتْهَا» أى علَّقت حَفصةُ عتْقَهَا على موتها، وعلى هذا فحكم السّاحر أنّه يقتل على الصّحيح من الأقوال؛ والذى يتولّى إثبات السّحر وتلك

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣١٥٦] وأبو داود [٣٠٤٣]

(٢) رواه التّرمذى وقال الصّحيح أنّه موقوف [١٤٦٠] والبيهقى فى السُّنن [٨ / ١٣٦]

(٣) انظر المنهل العذب [ج ٨ ص ١٢٠].

(٤) أخرجه مالك بإسناد صحيح [١٥٦٧].

العقوبة هو الحاكم المعنيّ بشئون المسلمين درءا للمفسدة وسدًّا لباب الفوضى .

وعن تعلُّم السّحر قال أبو حيّان في البحر المحيط [وأمّا حكم تعلُّم السّحر فما كان منه يُعَظَّمُ به غير الله تعالى من الكواكب والشّياطين وإضافة ما يُحدثه الله إليها فهو كفر إجماعا لا يحلّ تعلُّمه ولا العمل به، وكذا ما قصد بتعلّمه سفك الدّماء والتّفريق بين الزّوجين والأصدقاء، وأمّا إذا كان لا يعلم منه شيء من ذلك بل يُحتمل، فالظّاهر أنّه لا يحلّ تعلُّمه ولا العمل به.

وما كان من نوع التّخييل والدَّجل والشَّعبذة فلا ينبغي تعلّمه لأنّه من باب الباطل، وإن قصد به اللّهو واللّعب وتفريج النّاس على خفّة صنعته فيكره]. و(قال) النّووي [عمل السّحر حرام وهو من الكبائر بالإجماع، وقد يكون كفرا، وقد لا يكون كفراً بل معصية كبيرة، فإن كان فيه قول أو فعل يقتضي الكُفر كَفَرَ وإلاّ فلا، وأمّا تعلُّمه وتعليمه فحرام[1]].

وحاصل المسألة أنّ السّحر إذا كان أقوالا وأفعالا تُنافي الدّين وتُوجب تكفير صاحبها كان كُفْراً بصرف النّظر عمّا يترتّب عليه من الآثار، وإن كانت هذه الأقوال أو الأفعال مُحَرَّمة كان حراما، أمّا إن كانت جائزة فإنّه ينظر لما يترتّب عليها من الآثار، فإن كانت مُحَرَّمة كان حراما وإلاّ فلا.

حرمة الذّهاب إلى السّحرة

الذّهاب إلى السّحرة أمر ممنوع في الإسلام لحُرمة تعاطيه وحُرمة طلبه وحُرمة تصديق أهله بل هو من أنواع الكُفر الأكبر الذي أمرنا رسول الله ﷺ باجتنابه لعموم قوله ﷺ «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطِيِّرَ لَهُ؛ أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ؛ أَوْ تَسَحَّرَ أَوْ تُسُحِّرَ لَهُ[2]». وقوله ﷺ في رواية البخاري عن أبي هريرة «اجْتَنِبُوا الْمُوبِقَاتِ الشِّرْكُ بِاللَّهِ وَالسِّحْرُ[3]».

وجاء النّهي في قوله [اجتنبوا] لكونه أبلغ من لفظ التّحريم والتّرك لأنّه يفيد عدم وجود القصد والتّعاطي والفعل، كما أنّ مُقارنة السّحر بالشّرك في الحديث يشير إلى غلظة فعله وفظاعة شأنه لا سيّا وقد كُنِّيَ عنه بالكُفر في قوله [فلاَ تَكْفُرْ]. ثمّ يأتي قول سحرة موسى ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ : ليُدلل على أنّ ما أُكرهوا عليه من السّحر وما تعلّموه منه كان على درجة واحدة من الكُفر الذي يستوجب التّوبة والمغفرة والرّجوع إلى الله تعالى.

---

(١) انظر نووي مسلم [ج ٧ ص ٤٣٢].

(٢) أخرجه في صحيح الجامع [٥٤٣٥] وأورده في الصّحيحة [٢١٩٥] عن عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٣) حديث صحيح أخرجه البخاري [٥٧٦٤] ومسلم [٨٩].

ويتّصل بذلك أمران :

(الأوّل) أنّ التّسبُّب بإيذاء الغير وإيصال المضرّة إليه عن طريق السّحر من الأعمال المحرّمة شرعا ؛ ومن تسبّب في ذلك فعليه من الإثـم بقدر مايقع من الأذى ؛ كما يحرُم الذّهاب إلى السّاحر لإصابة شخص مُعيَّن لكون ذلك من أعمال الكُفر .

(الثّاني) أنّ تعاطي السّحر بكلّ صوره حرام بل هو الكُفر الأكبر فلا يجوز أن يُستعمل السّحر لإبطال سّحر مثله من استعانة بالشّياطين واستغاثة بهم وهو مقصود قوله ﷺ لـمّا سُئل عن النُّشْرَة «هُوَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ[(١)]». ولكن المُبتلى به يُعالج بالرّقى والأدعية الشّرعية الواردة في القرآن والثّابتة في صحيح السُّنَّة.

(٩) الوقاية من السّحر

يندفع شرّ السّحر بالتّعوُّذ بالله تعالى والتّحصُّن بذكره واللُّجوء إليه وبتقوى الله عزّ وجلّ وأداء حقوقه ومراقبته، فمن اتّقى الله تعالى تولّى حفظه ولم يكله إلى نفسه أو إلى غيره كما جاء قوله ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾[آل عمران:١٢٠]. وحفظ الله للمرء لا يكون إلاّ بحفظه لدينه وأوامره سبحانه ومنه قول النّبي ﷺ لابن عبّاس «احْفَظ اللهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ[(٢)]».

كما يندفع شرّ السِّحر بقوّة الإيمان وصدق اليقين وثبات العزيمة والتّوكّل على الله حقّ التّوكّل، وأنّ السِّحر مهما كانت صفته فلا يضرّه إلاّ بإذن الله تعالى كما في قوله سبحانه ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فإن شاء الله لسحرهم أن يُؤثّر كان ذلك ابتلاء منه سبحانه واختبارا، أو جاء ذلك عقابا للمسحور على عصيانه لربّه سبحانه وبُعْده عن الطّاعة والدّين، وإذا شاء أن يُبطل سحرهم حفظ المسحور من شرّهم وعَصمَهُ من كيدهم بفضله ورحمته، ويشتمل هذا الباب على عدّة مسائل :

أولها - الاحتراز من السّحر

الاحتراز هو التّحَفُّظُ الكامل، ومنه حَرُزَ حَرازَةً امتنع وتَحَصَّنَ، واحْتَرَزَ من كذا وتَحَرَّزَ منه: تَوَقَّاهُ وجعل نفسه منه في حِرْزٍ ووقاية، والاحتراز من السّحر وتوقّي شروره يقوم على أمرين :

(الأول) التّحصُّن بذكر الله تعالى و آياته

أمّا [التَّحَصُّنُ] فهو اتّخاذ الحِصْن والوقاية والحصن هو الحفظ والحياطة والحرز، وحَصُنَ الشَّيْءُ حَصَانَةً فَهُوَ حَصِينٌ أي مُحْكَمٌ مَنِيعٌ، والْحَصَانَةُ [المَنَعَة[(٣)]] . والتَّحَصُّنُ

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣٨٦٨] . (٢) من حديث صحيح أخرجه التّرمذي [٢٥١٦] .

(٣) انظر معجم مقاييس اللّغة [ص٢٦٧] .

بذكر الله من أنجع الأدوية التي تحفظ من تأثير الأرواح الخبيثة، وتدفع السّحر بما يعارضه من الآيات، ويقاومه من الأذكار التي تُبطل مفعوله وتمنع المراد منه، ويتأكّد ذلك بمسألتين:

(الأولى) أنّ دخول الإنسان تحت مظلّة الذّكر والطّاعة يحول بينه وبين تأثير السّحر فيه أو تأثّره هو بالسّحر، لكونه محفوظا منه بأمر الله تعالى، وإذا كان القلب مُمتلئا بحبّ الله تعالى مغمورا بذكره وشُكره، وله من التّوجّهات والدّعوات والأذكار والتّعوّذات ما لا يخلّ به ويطابق فيه قلبه لسانه، كان هذا من أعظم الأسباب التي تمنع نيل السّحر منه وإصابته له [(١)].

(الثّانية) أنّ رسول الله ﷺ جعل في سورة الإخلاص والمعوّذتين الكفاية لمن أراد أن يتحصّن من شرّ السّحر والاستعاذة بهنّ من كلّ مكروه جملة وتفصيلا، بل وجعلهنّ مادّة مُؤثّرة وفعّالة للاستعاذة من شرّ النّفّاثات في العقد، ومن شرّ السّواحر وسحرهنّ وأخبر أنّ لهذه السّور شأن عظيم فى الاحتراز والتّحصّن من الشّرور قبل وقوعها:

* ولهذا أوصى رسول الله ﷺ عبد الله بن خُبيب بقراءتهنّ حين يمسي وحين يصبح وقال له «قُلْ: قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِي وَحِينَ تُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ(٢)»: أى تدفع عنك كلّ سوء وشرّ وتُغنيك عمّا سواهنّ.

* وقوله ﷺ لعقبة بن عامر «يَاعُقْبَةُ قُلْ؟. فَقُلْتُ مَا أَقُولُ يَارَسُولَ الله؟ فَقَالَ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ، فَقَرَأَ السُّورَةَ حَتَّى خَتَمَهَا، ثُمَّ قَرَأَ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَقَرَأْتُ مَعَهُ حَتَّى خَتَمَهَا، ثُمَّ قَرَأَ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ فَقَرَأْتُ مَعَهُ حَتَّى خَتَمَهَا، ثُمَّ قَالَ مَا تَعَوَّذَ بِمِثْلِهِنَّ أَحَدٌ(٣)».

* وقوله «مَا سَأَلَ سَائِلٌ بِمِثْلِهِمَا وَلَا اسْتَعَاذَ مُسْتَعِيذٌ بِمِثْلِهِمَا(٤)».

* وقد ذُكر أنه ﷺ سُحر فى إحدى عشرة عقدة وأنّ جبريل عليه السّلام نزل عليه بالمعوّذتين فجعل كلّما قرأ آية منهما انحلّت عُقدة حتّى انحلّت العُقد كلّها «فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ كَأَنَّمَا نَشَطَ مِنْ عِقَالٍ(٥)».

* وآية الكرسى ممّا أخبر رسول الله ﷺ أنّها من أعظم ما يُتحصّن به من شرّ السّحر والشّياطين لقوله من حديث أبى هريرة «إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ(٦)». وقوله «لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ» أى ملائكة يحفظونه بأمر الله تعالى من قوله ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا

---

(١) انظر زاد المعاد [ج ٤ ص ١٢٦]. (٢) حديث حسن أخرجه أبو داود [٥٠٨٢]. (٣) حديث صحيح أخرجه النّسائى [٥٤٤٥]. (٤) حديث حسن صحيح أخرجه النّسائى [٥٤٥٣]. (٥) من حديث أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١٩١٦٣]. (٦) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٢٧٥].

عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾[الطّارق : ٤].

* وقال الأكثرون بالاسترقاء للصّحيح المعافى لما يخاف أن يغشاه من المكروهات والهوامّ ودليلهم فيه حديث عائشة «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوى إِلَى فِرَاشِه كُلَّ لَيْلَة، جَمَعَ كَفَّيْه ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِه(١)».

ولا يكون للسّحر فاعلية وتأثير إلاّ على أصحاب القلوب الضّعيفة المنفعلة، والنّفوس الشّهوانية المتعلّقة بالسُّفليّات، ولهذا فإنّ غالب ما يُؤثّر فى النّساء والصّبيان والجُهّال ومن ضَعُفَ حظُّه من الدّين والتّوكّل والتّوحيد، ومن لا نصيب له من الأوراد الإلهيّة والدّعوات والتّعوّذات النّبويّة [(٢)].

والمسحور هو الذى يُعِينُ على نفسه لتعلُّق قلبه بأشياء شيطانيّة يكثر الالتفات إليها والاهتمام بها، فيُتسلَّط على قلبه بما فيه من الميل والزّيغ، والأرواح الخبيثة إنّما تتسلّط على أرواح تجدها مُستعدّة لتسلُّطها عليها بميلها إلى ما يناسب تلك الأرواح، وبفراغها من الإيمان واليقين والرّكون إلى جنب الله، وعدم أخذها للعُدَّة التى تحاربها بها من قراءة وذكر، فتجدها فارغة لا عُدَّةَ معها فتتسلّط عليها ويتمكّن تأثيرها فيها بالسّحر وغيره.

(الثّانى) الاحتراز من السّحر ببعض الأعمال اليقينيّة

إذا كان ذكْرُ المرء لربّه تعالى فى كلّ ظروفه وأحواله من أعظم الأسباب التى تمنع إصابته بالسّحر، ومن أقوى علاجاته له بعدما يصيبه، فإنّ توقّيه لذلك يرتبط ارتباطا مباشرا بتعاطى الأسباب التى تحول دون تحقيق ضرره وفاعليته والتى منها :

(ا) الاصطباح بالتّمر

ويتوثّق الحديث عن هذه المسألة بالهدى الصّحيح المنقول عن النّبى ﷺ عند البخارى ومسلم وغيرهما من أئمّة الحديث :

* فجاء قوله ﷺ عن سعد بن أبى وقّاص «مَنِ اصْطَبَحَ كُلَّ يَوْمٍ تَمَرَاتٍ [(٣)] عَجْوَةً لَمْ يَضُرَّهُ سُمٌّ وَلاَ سِحْرٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ(٤)».

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٠١٧] وأبوداود [٥٠٥٦].

(٢) انظر زاد المعاد [ج ٤ ص ١٢٧].

(٣) التَّمْرُ : اليابس من ثَمر النّخيل ويُجمع على [تُمُورٍ] وواحدته [تَمْرَةٌ] وتُجمع على [تَمَرَات]. أمّا الْعَجْوَةُ فهى ما يُخْلَطُ من التّمْر بعضه ببعض ويُطَرّى بالعسل حتّى يأخذ شكل الكُتْلَة المتماسكة ونخلتها تسمّى [اللّينَة] من قوله تعالى﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٧٦٨] ومسلم [٢٠٤٧].

* وجاء في رواية بلفظ «مَنْ تَصَبَّحَ بِسَبْعِ تَمَرَاتٍ عَجْوَةً لَمْ يَضُرُّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ سُمٌّ وَلاَ سِحْرٌ[١]». أى يأكلها على الرّيق قبل أن يطْعَمَ شيئا.

* وفى رواية مسلم «فِى عَجْوَةِ الْعَالِيَةِ شِفَاءٌ، أَوْ إِنَّهَا تِرْيَاقٌ، أَوَّلَ الْبُكْرَةِ[٢]». ويُقصد «بالتِّرْيَاقِ» ما يمنعُ امتصاصَ السُّمِّ في المَعدة والأمعاء.

وكما جاء العدد «مُطْلَقًا» في رواية وقع «مُقَيَّدًا» بالسَّبْعِ في غيرها، وكما قُيِّد المكان «بالمَدينَة» فى رواية أُطلق في «غيرها»، ثمّ كان التّقييد بالعدد والمكان فيما رواه أبو ضمرة ولفظه «مَنْ تَصَبَّحَ بِسَبْعِ تَمَرَاتٍ عَجْوَةً مِنْ تَمْرِ الْعَالِيَةِ[٣]». و«الْعَالِيَةُ»: هى القرى التى فى الجهة العالية من مدينة رسول الله ﷺ وهى جهة نجد.

ويُستفاد من دلالة الرّوايات ما يلى:

(١) أنّ السِّرّ الذى فى العجوة من دفع ضُرِّ السّحر والسُّم يرتفع إذا دخل اللّيل فى حقّ من تناوله أوّل النّهار، ويُستفاد منه إطلاق اليوم على مابين طلوع الفجر أو الشّمس إلى غروبها ولا يستلزم دخول اللّيل.

(٢) أنّ خصوصيّة ذلك مرتبطة بالتّناول أوّل النّهار لأنّه حينئذ يكون الغالب أنّ تناوله يقع على الرّيق، فيُحتمل أن يلحق به من تناول اللّيل على الرّيق كالصّائم، وظاهر الإطلاق أيضا المواظبة على ذلك.

(٣) أنّ كون العجوة تنفع من السُّم والسِّحر إنّما هو من بركة دعوة النّبى ﷺ لتمر المدينة لا لخاصيّة فى التّمر وهو قول الخطّابى.

(قال) القرطبى: [ظاهر الأحاديث خصوصيّة عجوة المدينة بدفع السُّمّ وإبطال السّحر والمُطلق منها محمول على المقيّد، وهو من باب الخواصّ التى لا تُدرك بقياس ظنّى، ومن الأئمّة من تكلّف لذلك فقال إنّ السُّموم إنّما تقتل لإفراط برودتها، فإذا داوم على التّصبُّح بالعجوة تحكّمت فيه الحرارة وأعانتها الحرارة الغريزية فقاوم ذلك برودة السُّم ما لم يستحكم[٤]].

أمّا عن خصوصيّة التّمر فيقول ابن القيّم فى الزّاد: [عجوة المدينة من أنفع تمر الحجاز، وهو صنف كريم ملذّذ متين الجسم والقوّة، وهو من ألين التمر وألذّه، والتّمْر فى الأصل من أكثر الثّمار تغذية لما فيه من الجوهر الحارّ الرّطب، وأكله على الرّيق يقتل الدّود

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٧٦٩].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٠٤٨]

(٣) انظر فتح البارى [ج ١٠ ص ٢٤٩].

(٤) انظر فتح البارى [ج ١٠ ص ٢٥١].

لما فيه من القوّة التّرياقيّة، فإذا أُديمَ أكْلُهُ على الرّيق خفّف مادّة الدّود وأضعفه وقلّله أو قتله[(١)]. وفيه إشارة إلى أنّ المراد نوع خاصّ من السُّمّ وهو ما ينشأ من الدّيدان التى فى البطن لا كلّ السّموم، لكنّ سياق الخبر يقتضى التّعميم لأنّه نكرة فى سياق النّفى [(٢)].

خصوصية السّبْع من الأعداد

جاء عدد التّمرات فى أكثر الأحاديث مُقيّدا بالسّبْع كما فى رواية البخارى «مَنْ أَكَلَ سَبْعَ تَمَرَاتٍ». وجاء عند أبى داود بلفظ «فَلْيَأْخُذْ سَبْعَ تَمرَاتٍ». وهذا يؤكّد أنّ خاصّية «السّبْع» قد وقعت قدَرًا وشرعا، فالله تعالى خلق السّماوات سبعا، والأرضين سبعا فى قوله تعالى ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾[الطّلاق:١٢]. وأنزل الله على نبيّه ﷺ ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾[الحجر:٨٧].

ومَثّلَ التّنزيل الحكيم ما يُضاعف به صدقة المتصدّق بحبّة،﴿أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾[البقرة:٢٦١]. والسّنابل التى رآها صاحب يوسف ﷺ سبعا: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾[يوسف:٤٣]. وسخّر الله الرّيح على قوم عاد سبع ليال، ويدخل الجنّة من هذه الأمّة بغير حساب سبعون ألفا.

ثمّ شرع الخالق سبحانه لعباده الطّواف سبعا، والسّعى بين الصّفا والمروة سبعا، ورمى الجمار سَبْعًا سَبْعًا، وتكبيرات العيدين سبعا فى الأولى وخمسا فى الثّانية، ومن لم يجد الهدى صام بعد الحجّ سبعًا، وقال رسول الله ﷺ «مُرُوا أَوْلادَكُمْ بِالصَّلاةِ لِسَبْعٍ». وأمر ﷺ فى مرضه أن يُصبّ عليه من سبع قِرَب لما ذكره البخارى من قوله «هَرِيقُوا عَلَيَّ مِنْ سَبْعِ قِرَبٍ لَمْ تُحْلَلْ أَوْكِيَتُهُنَّ، لَعَلِّى أَعْهَدُ إِلَى النَّاسِ[(٣)]». والوكاء هو ما يُشدّ به فم القربة على ما فيها من ماء، (قال) الخطّابى [يشبه أن يكون خصّ السّبع تبرّكا بهذا العدد لأنّ له دخولا فى كثير من أمور الشّريعة وأصل الخلقة[(٤)]].

[ولا ريب أنّ لهذا العدد خاصّيّة ليست لغيره من الأعداد، والسّبعة جمعت معانى العدد كلّه وخواصه، فإنّ العدد شفع ووتر، والشّفع أوّل وثان، والوتر كذلك، فهذه أربع مراتب: شفع أول وثان ووتر أوّل وثان، ولا تجتمع هذه المراتب فى أقلّ من سبعة، وهى عدد كامل جامع لمراتب العدد الأربعة، أى الشّفع والوتر والأوائل والثّوانى، ونعنى بالوتر

---

(١) انظر زاد المعاد [ج ٤ ص ٢٩٢].

(٢) انظر فتح البارى [ج ١٠ ص ٢٥١].

(٣) من حديث صحيح أخرجه البخارى [١٩٨ و٥٧١٤] ومسلم [٤١٨].

(٤) انظر فتح البارى [ج ١ ص ٣٦٣].

الأوّل الثّلاثة، وبالوتر الثّاني الخمسة، وبالشّفع الأول الاثنين، وبالثّاني الأربعة..].

[..كما أنّ للأطبّاء اعتناء عظيما بالسّبعة، والله تعالى أعلم بحكمته وشرعه وقدره في تخصيص هذا العدد هل هو لهذا المعنى أو لغيره؟. ونفع هذا العدد من هذا التّمر، من هذا البلد من هذه البقعة بعينها من السّم والسّحر، بحيث تمنع إصابته من الخواصّ التى لو قالها بقراط وجالينوس وغيرهما من الأطباء، لتلقّاها عنهم النّاس بالقبول والانقياد.

فكيف الحال وقد قال هذا الكلام صاحبُ الوحي والرّسالة ﷺ والذى كلامه هو اليقين والبرهان، وعلاجه هو أنجع الأدوية والأشفية، وأنفعها للقلوب والأبدان والمعاش والمعاد، فإنّ في أمره وعلاجه الشّفاء الكامل الذى لا يغادر سَقَمًا إلاّ أبرأه ولا مَرَضًا إلاّ شُفى بأمر ربّه تعالى [(١)].

(٢) دفن الشّعر وقلامات الأصابع

لمّا كان من مركّبات السّحر وعمله الحصول علي بعض الآثار الخاصّة بمن أُريد سحره، مثل شعره أو ثوبه، كما تحصّل عليه اليهودى من [مُشْط ومُشاطَة] رسول الله ﷺ وعقد عليها سحره، فإنّه يُستحبّ أن يُتحفّظ على ما يُزَالُ من هذه الشّعور والأظفار و.. اراتها عن الأنظار لكونها أجزاء من الآدمي ينبغى احترامها وتكريمها وذلك لاعتبارين مهمّين:

(الأوّل) أنّ جسد المؤمن ذو حرمة فما سقط منه وزال عنه فحظُّه من الحُرمة قائم، فيحقّ أن يدفنه كما لو أنّه مات، فإذا مات بعضه فأيضا تقوم حُرمته ويتمّ دفنه، أو التّحفّظ عليه بوسائل أخرى كي لا يتفرّق أو يقع في مزابل القذارة، كما أمر النّبي ﷺ بدفن دمه حيث احتجم، ويُقاس هذا علي قول عائشة «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْمُرُ بدَفْنِ سَبْعَةِ أَشْيَاءِ منَ الإِنْسَانِ: الشَّعْرِ وَالظُّفْرِ والدَّمِ وَالْحَيْضَةِ وَالسِّنِّ وَالْقُلْفَةِ والْمَشِيمَةِ(٢)».
و«الْمَشِيمَةُ»: هي الطّبقة الخارجيّة لغشاء الجنين.

(الثّاني) عدم تعريض ما يُزال من جسد الإنسان للأيدى حتّى لا يتمّ استخدامه فيما يضرّ من أعمال السّحر، والحيلولة دون وصول السّاحر إلى شيء من ذلك، لما ورد من قوله ﷺ «حتّى لاَ يَتَلعَّبَ به سَحَرَةُ بَنِي آدَمَ(٣)». كي لا تكون عرضة لأعمال السّحر وغيرها.

(قال) النّووى [يَستحبّ دفن ما أُخذ من الشّعور والأظفار ومواراته في الأرض، نُقل ذلك عن ابن عمر واتّفق عليه أصحابنا(٤)]. كما يُمكن التّخلّص من هذه الآثار بالوسائل

---

(١) انظر زاد المعاد [ج ٤ ص ٩٨ ـ ١٠٠]. (٢) رواه هشام بن عروة عن عائشة رضى الله عنها [انظر تفسير القرطبى ج ٢ ص ١٠٣]. (٣) أخرجه البيهقى من حديث وائل بن حجر. (٤) انظر المجموع شرح المهذّب [١ / ١٢٨٩].

الأخرى المُتاحة بما لا يلوّث البيئة أو يضرّ أحدا من النّاس.

الثّانية ـ العلاج من السّحر

والعلاج من السّحر يتضمّن استخراج السّحر وإبطاله واستفراغ المحلّ الذى يصل إليه أذى السِّحر، كما يشمل ذلك حلّ السِّحر عن المسحور والتَّعريف بالنُّشْرَة الجائزة وغير الجائزة، ويأتى ذكر ذلك تفصيلا على النّحو التّالى:

(أ) استخراج السّحر وإبطاله

يُقصد بالسّحر هنا [العمل] الذى هو أثر المسحور له من شعر أو ثوب وهو الذى عقد عليه السّاحر ونفث فيه بسحره ودفَنه فى مكان غير معلوم للنّاس، والحديث عن ذلك يتطلّب استدعاء الرّواية الصّحيحة التى أوردها الإمام أحمد في مسنده عن زيد بن أرقم قال «سَحَرَ النَّبىَّ ﷺ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُود، قَالَ: فَاشْتَكَى لِذَلِكَ أَيَّامًا، قَالَ: فَجَاءَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَقَالَ: إِنَّ رَجُلاً مِنَ الْيَهُودِ سَحَرَكَ، عَقَدَ لَكَ عُقَدًا فِى بِئْرِ كَذَا وَكَذَا، فَأَرْسِلْ إِلَيْهَا مَنْ يَجِىءُ بِهَا، فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيًّا رضي الله عنه فَاسْتَخْرَجَهَا، فَجَاءَ بِهَا فَحَلَّلَهَا، قَالَ: فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَأَنَّمَا نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ(١)».

ومن دلالات الحديث:

١ ـ أنّ السّاحر يستعين فى سحره بأثر من آثار المسحور له ويتمثّل ذلك فى بقايا بعض شعره أو جزء من ملابسه، لذلك جاء سحر اليهودى لرسول الله ﷺ فى [مُشْط ومُشَاطَةٍ وَجُفِّ طَلْعِ نَخْلَةِ ذَكَرٍ]. أمّا المُشط فمعروف والمُشاطة هى الشّعر الذى يسقط من الرّأس أو اللّحية عند تسريحه، أمّا الجُفُّ فهو وعاء طلعة النّخل وهو الغشاء الذى يكون عليه ويُطلق على الذّكر والأُنثى، ولذا قيّده فى الحديث بقوله «طَلْعَة ذكرٍ(٢)». وهو ممّا ذُكر فى الكتاب بقوله تعالى ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [سورة ق: ١٠].

والطَّلْعُ ما يطلع من النَّخلة ثمّ يصير ثَمرًا إذا كانت أنثى، وإن كانت ذكرًا لم يصر ثَمرًا بل يؤكل طَريًا، ويُترك على النّخلة أياما معلومة حتّى يصير فيه شىء أبيض مثل الدّقيق وله رائحة ذكيّة فيلُقّح به الأنثى. وفى القاموس الطَّلْعُ غُلاَفُ الْعُنْقُود وهو ما يبدو من ثَمر النَّخْلِ فى أوّل ظهوره، وطَلْعُ النَّخْلِ من يَطْلُعُ طُلُوعًا وأَطْلَعَ وطَلَعَ: بَدَا طَلْعُهُ وهو الرَّطْنُ أوّل ما يَنْشَقُّ عنه بالجُفِّ، وإزالة ذلك عنه وجعلُ الفُحَّالَ [(٣)] فيه

---

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد [١٩١٦٣] والنّسائى [٤٠٩١].

(٢) «طَلْعَة ذكرٍ»: جاءت فى المحكم [٧٠/ ١٦٠] بتنوين «طَلْعَة» واختار السّيرافى فى ذات العبارة إضافة «طلْعة» إلى ذكرٍ.

(٣) الفُحَّالُ» بضمّ الفاء وتشديد الحاء: ذَكَرُ النّخل وجمعه فحاحيل. [انظر تحرير التّنبيه ص ٤٠٣].

هو التَّلقيحُ، فإذا انعقد فهو البلح [(١)].

٢ - كما أنّ السّاحر يحتاج إلى أن يُخفى سحره فيما يصعب الوصول إليه من الأماكن، ولذلك جاء اختيار اليهودى لموضع إخفاء السِّحر «أَسْفَلَ» بئر ذروان فى بنى زُرَيق إمعانًا فى تخبئته والحيلولة دون الوصول إليه، كما استغلّوا ماء البئر وتغيّر لونها للتّمويه على ذلك إمّا لردائته بطول مُكثه، وإمّا لما خالطه من الأشياء التى أُلقيت فيه، ولقد ذكر رسول الله ﷺ هذه البئر بقوله «هَذِه الْبِئْرُ الَّتِى أُرِيتُهَا وَكَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحِنَّاءِ وَكَأَنَّ نَخْلَهَا رُءوسُ الشَّيَاطِينِ».

ونقاعة الحنَّاء: الماء الذى خرج فيه لونها إذا نقعت فيه، وتشبيهه نخلها برؤوس الشّياطين يعني أنّها مُستكرهةٌ مُستقبحة المنظر والمخبر، وهذا على عادة العرب إذا استقبحوا شيئا شبَّهوه بأنياب أغوالٍ أو رؤوس الشّياطين، ويعني ذلك والله أعلم أنّ هذه الأرض التى فيها النّخل والبئر خرابٌ لا تعمر لرداءتها، فبئرها معطّلة ونخلها مقطوع الأغصان ومقشّر اللّحاء، وتغيّر ماء البئر إمّا لطول إقامته وإمّا لما خالطه ممّا أُلقى فيه.

٣ - يتسنى للمسحور إذا ما عرف بذلك أن يبحث عن مكان السّحر أو يكلّف من يستطيع استخراجه وهو ما صحّ عن رسول الله ﷺ عندما سأل ربّه تعالى فى ذلك، فَدُلَّ عليه فاستخرجه من «بئرِ ذَروَانَ» كما فى حديث عائشة قالت «فَأَتى النَّبِيُّ ﷺ الْبِئر حَتَّى اسْتَخْرَجَهُ». فالمُثبت فيه استخراج الجفّ والمنفي استخراج ما حواه، فلمّا استخرجه رسول الله ﷺ ذهب ما به حتّى كأنّه أُنْشِطَ من عقالٍ.

٤ - إذا ما أُتيحت له فرصة وجود السّحر وجب عليه أن يحلّله لقوله «فَجَاءَ بِهَا فَحَلَّلَهَا». أى أنّ عُقَدَه لا تُحلُّ إلاّ بالتّعوُّذ عليه ثمّ تفكيك عناصره أو حرقه حتّى يتلاشى أثره ثمّ يُدفن لما ورد فى الحديث من قوله ﷺ «فَأَمَرْتُ بِهَا فَدُفِنَتْ(٢)». وهذا من أبلغ ما يُعَالَجُ به المسحور من سحره، وهو بمنزلة إزالة المادّة الخبيثة وقلعها من الجسد [(٣)].

أمّا الذى استُخرج من البئر فقد ذكرت فيه روايتان:

(الأولى) ما جاء فى رواية عمرة عن عائشة «فَنَزَلَ رَجُلٌ فَاسْتَخْرَجَهُ». وفيه من الزّيادة أنّه «وَجَدَ فى الطَّلْعَة تمْثَالاً من شَمْعٍ، تمْثَال رَسُول الله ﷺ وَإِذَا فيه إِبَرٌ مَغْرُوزَةٌ، وَإِذَا وَتَرٌ فيه إِحْدَى عَشرةَ عُقْدَةً، فَنَزَلَ جبْرِيلُ بالْمُعوِّذَتَيْن، فَكُلَّمَا قَرَأَ آيةً انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، وَكُلَّمَا نَزَعَ إِبرَةً وَجَدَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَلَمًا ثُمَّ يَجدُ بَعْدَهَا رَاحَةً(٤)».

(١) انظر الإفصاح فى فقه اللّغة [٢ / ١١٤٤].

(٢) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٧٦٣] ومسلم [٢١٨٩].

(٣) نقلا عن فتح البارى [ج ١٠ ص ٢٤٥].

(٤) أخرجه البيهقى فى دلائل النّبوّة [ج ٦ ص ٢٤٨].

وجاء في حديث زيد بن أرقم عند أحمد «سَحَرَ النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ فَاشْتَكَى لِذَلِكَ أَيَّامًا ؛ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ إِنَّ رَجُلاً مِنَ الْيَهُودِ سَحَرَكَ ، عَقَدَ لَكَ عُقَدًا فِي بِئْرِ كَذَا وَكَذَا ، فَأَرْسِلْ إِلَيْهَا مَنْ يَجِيءُ بِهَا ؛ فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيًّا رضي الله عنه فَاسْتَخْرَجَهَا فَجَاءَ بِهَا فَحَلَّلَهَا ؛ قَالَ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَأَنَّمَا نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ[1]» . (قال) في النّهاية [إنّما هو أُنْشِطَ أي حُلَّ[2]] .

(الثّانية) ما جاء عند البخاري من رواية عروة عن عائشة رضي الله عنها أنّ سحر لبيد كان «فِي جُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ تَحْتَ رَاعُوفَةٍ فِي بِئْرِ ذَرْوَانَ» . و(قال) أبو عبيد [في حديث النّبي ﷺ حين سُحِرَ «أَنَّهُ جُعِلَ سِحْرُهُ فِي جُفِّ طَلْعَةٍ وَدُفِنَ تَحْتَ رَاعُوفَةِ الْبِئْرِ[3]» . «قال» : أمّا قوله «رَاعُوفَةِ الْبِئْرِ» فإنّها صخرة تُترك في أسفل البئر إذا احتُفِرَتْ تكون ظاهرة هناك فإذا أرادوا تنقية البئر جلس المنقّي عليها[4]] .

ومن الدّلالات التي يحملها حديث عائشة :

(١) أنّ الله عزّ وجلّ بإعلامه ملائكته وإخباره نبيّه ﷺ مكان السِّحر وكشفه له أراد أن يردّ كيد الكافرين ويكشف له حقد الحاقدين ويدفع عنه بغض الكارهين ويحفظه من شرّ المعاندين الظّالمين من قوله ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ .

(٢) أنّ الأشياء التي دفنها ساحر اليهود وأَمْرُ النّبي ﷺ لبعض الصّحابة بنزح ماء البئر ، ورفعهم الرّاعوفة واستخراجهم للجُفّ الذي يحتوي المشاطة والوَتَر الذي عقدوا عليه سحرهم من تحتها ، تؤكّد أنّ استخراج عمله وحلّه من أهم علاجات السّحر التي صرّح بها الشّارع الحكيم ﷺ من قوله «فَاسْتَخْرَجَهَا فَجَاءَ بِهَا» .

(٣) أنّ في قوله ﷺ «وَأَكْرَهُ أَنْ أُثِيرَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ شَرًّا» الخشية من إخراجه وإشاعته فيتعلّمه من أراد استعمالَ السّحر ونشرَه والحديث فيه ، وهو من باب ترك مصلحة لخوف مفسدة أعظم منها وهذا من أهمّ قواعد الإسلام التي تُؤكّد أنّ درء المفاسد مقدّم على جلب المصالح .

(٣) استفراغ المحل الذي يصل إليه أذى السّحر

من المعروف أنّ للسّحر تأثيره الفاعل في طبيعة الإنسان وتهييج أخلاطها وتشويش مزاجها بإذن الله تعالى ، فإذا ظهر أثره في عضو وأمكن استفراغ المادّة الرّديئة ولا

---

(١) حديث صحيح أخرجه النّسائي [٤٠٩١] وأحمد [١٩١٦٣] .

(٢) انظر سُنن النّسائي [ج ٤ ص ٣١ ـ هامش] .

(٣) أخرجه أبوعبيد في غريب الحديث [ج ٢ رقم ١٧٧ ص ١١٢] .

(٤) انظرغريب الحديث [ج ٢ ص ١١٦] .

سيّما فى الموضع الذى انتهى السّحر إليه وذلك عن طريق الاحتجام فإنّ ذلك من أنفع المعالجات إذا استُعملت على القانون الذى ينبغى [(١)].

ويتأيّد هذا بما ذكره أبو عبيد فى «غريب الحديث» بإسناده عن عبد الرّحمن بن أبى ليلى «أنَّ النَّبيَّ ﷺ احْتَجَمَ عَلَى رَأْسِه بقَرْنٍ حِينَ طُبَّ(٢)». (قال) الأصمعى: قوله «طُبَّ» يعنى «سُحِرَ» ومنه رَجُلٌ مَطْبُوبٌ، وإنّما كُنِّىَ عن السّحر بالطّبِّ تفاؤلا كما كُنِّىَ عن اللّديغ بالسّليم(٣)].

(قال) القرطبى: [إنّما قيل للسّحرِ طبٌّ لأنّ أصل الطّبِّ الحَذَق بالشّىء والتّفطُّن له، فلمّا كان كلٌّ من علاج المرض والسِّحر إنّما يتأتى عن فطنة وحَذَق أُطلق على كلٍّ منهما هذا الاسم(٤)].

وعلّلوا سبب الْحِجَامَة بأنّ مادّة السّحر الذى أصيب به رسول الله ﷺ انتهت إلى أنّه كان يُخَيَّلُ إليه أنّه فعلَ الشّىء [ولم يفعله] ظنّ أنّ ذلك عن مادّة دمويّة أو غيرها مالت إلى جهة الدِّماغ وغلبت على البطن المقدَّم منه فأزالت مزاجه عن الحالة الطّبيعية له، وكان استعمال الحِجَامَة إذ ذاك من أبلغ الأدوية وأنفع المعالجات فاحتجم، وكان ذلك قبل أن يُوحى إليه أنّ ذلك من السِّحر.

فلمّا جاءه الوحىُ من الله تعالى وأخبره أنّه قد سُحِرَ عدل إلى العلاج الحقيقى وهو استخراجُ السّحر وإبطالُهُ، فسأل الله تعالى فَدلَّهُ على مكانه فاستخرجه فقام كأنّما أُنشط من عِقَال، وكان غاية هذا السِّحر فيه إنّما هو فى جسده وظاهر جوارحه لا على عقله وقلبه، ولذلك لم يكن يعتقد صحّة ما يُخَيَّلُ إليه من إتيان النّساء بل يعلم أنّه خيال لا حقيقة له، ومثلُ هذا قد يحدث من بعض الأمراض [(٥)].

وتتمّ الْحِجَامَة بامتصاص الدّم بالمِحْجَم بعد تشريط الجلد وقد تكون جافّة دون دماء، وهى علاج قديم عرفته العرب [استفراغا للدّم] من بعض المواضع العرقية وتبريدا للمزاج، ومن الصّحيح الذى جاء فيها ما أخرجه البخارى عن ابن عبّاس «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ احْتَجَمَ وَهُوَ مُحْرِمٌ فِى رَأْسِهِ مِنْ شَقِيقَةٍ كَانَتْ بِهِ(٦)».

---

(١) انظر زاد المعاد [ج ٤ ص ١٢٦].

(٢) انظر غريب الحديث [٥٠٥].

(٣) انظر غريب الحديث [ج ٣ ص ١١].

(٤) انظر فتح البارى [ج ١٠ ص ٢٣٩].

(٥) انظر زاد المعاد [ج ٤ ص ١٢٦].

(٦) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٧٠١] ومسلم [١٢٠٢] مختصرا.

الأمراض المزمنة وسببه أبخرة مرتفعة أو أخلاط حارة أو باردة ترتفع إلى الدّماغ، فإن لم تجد منفذا أحدث الصّداع فإن مال إلى أحد شقّي الرّأس أحدث الشّقيقة، وفي قول النّبي ﷺ عن جابر «إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ خَيْرٌ فَفِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أَوْ شَرْبَةٍ مِنْ عَسَلٍ، أَوْ لَذْعَةٍ بِنَارٍ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ(١)».

(قال) النّووى [وهذا من بديع الطّب عند أهله، لأنّ الأمراض الامتلائيّة إمّا أن تكون دمويّة أو صفراويّة أو سوداويّة أو بلغميّة، فإن كانت دمويّة فشفاؤها إخراج الدّم، وإن كانت من الثّلاثة الباقية فشفاؤها بالإسهال المسهّل اللاّئق لكلّ خلط منها، فكأنّه نبّه فى الحديث بالعسل على المسهّلات وبالحجامة على إخراج الدّم بها، وبالفصد ووضع العلق وغيرها ممّا فى معناها، وذكر الكيّ لأنّه يُستعمل عند عدم نفع الأدوية المشروبة ونحوها فآخِرُ الطِّبِّ الْكَيُّ(٢)].

كما جاء عن جابر بن عبد الله «أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ اسْتَأْذَنَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي الْحِجَامَةِ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَبَا طَيْبَةَ أَنْ يَحْجُمَهَا(٣)». قَالَ حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ «كَانَ أَخَاهَا مِنَ الرَّضَاعَةِ أَوْ غُلاَمًا لَمْ يَحْتَلِمْ». أمّا الحديث عن كيفية الحجامة ومواضعها من الجسد وأوقاتها المستحبّة فيها ومنافعها فيُرجع فيه إلى كتب السُّنَّة وأهل التّخصّص فى هذا العلم.

(٣) حلّ السّحر عن المسحور

وهذا الباب يتضمّن الإشارة إلى ثلاث مسائل:

(الأولى) حكم حلّ السّحر عن المسحور

اختلف أكثر العلماء فى سؤال السّاحر [حلّ السّحر] عن المسحور، فأجازه سعيد ابن المسيّب على ما ذكره البخارى معلّقًا عن قتادة «قُلْتُ لِسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ ـ أَوْ يُؤَخَّذُ عَنِ امْرَأَتِهِ ـ أَيُحَلُّ عَنْهُ أَوْ يُنَشَّرُ؟ قَالَ لاَ بَأْسَ بِهِ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الإِصْلاَحَ، فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ فَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ(٤)». كما جاء موصولا عن قتادة بلفظ «يَلْتَمِسُ مَنْ يُدَاوِيهِ فَقَالَ إِنَّمَا نَهَى اللهُ عَمَّا يَضُرُّ وَلَمْ يَنْهَ عَمَّا يَنْفَعُ». وقال الشّعبى «لاَ بَأْسَ بِالنُّشْرَةِ الْعَرَبِيَّةِ(٥)».

وقد سُئل الإمام أحمد عمّن يُطلق السّحر عن المسحور فقال [لا بأس به وهو المعتمد]. وأخرج الطّبرى في التّهذيب عن قتادة عن سعيد بن المسيب «أَنَّهُ كَانَ لاَ يَرَى بَأْسًا إِذَا كَانَ بِالرَّجُلِ سِحْرٌ أَنْ يَمْشِيَ إِلَى مَنْ يُطْلِقُ عَنْهُ؟ فَقَالَ هُوَ صَلاَحٌ». و(قال) ابن قدامة

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٧٠٢] ومسلم [٢٢٠٥]. (٢) انظر نووى مسلم [ج ٧ ص ٤٥٣].
(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٠٦] وأبو داود [٤١٠٥]. (٤) ذكره البخارى مُعلّقًا عن قتادة قبل رقم [٥٧٦٥]. (٥) انظر تفسير القرطبى [ج ٢ ص ٤٨].

[أمّا من يحلّ السّحر فإن كان بشيء من القرآن أو بشيء من الذّكر والأقسام أو الكلام الذى لا بأس به فلا بأس به، وإن كان بشيء من السّحر فقد توقّف أحمد ابن حنبل عنه[1]].

(الثّانية) كيفية حلّ السّحر

وفى ذلك ذكر العلماء أنّ من وسائل حلّ السِّحر ما يُسمَّى «بالنُّشْرَة» وهى رُقية يُعالج بها من يظنّ أنّ به سحرا أو مسًّا من الشّيطان، وقيل لها ذلك لأنّه يكشف بها عنه ما خالطه من الدّاء، يقال [نَشَّرَ عَنِ الْمَرِيضِ] رَقَاهُ حَتَّى يَفِيقَ، والتَّنْشِيرُ: التَّعوِيذَةُ بالنُّشْرَةِ أى الرّقية.

والنُّشْرَةُ عند أهل العلم نوعان:

(الأوّل) النُّشْرَةُ الجائزة وهى حلّ السّحر بالقرآن والتّعوُّذ والأذكار المشروعة والدّعوات المباحة، وتأتي مشروعيّتها من حديث جابر رضي الله عنه عند مسلم مرفوعا «مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَفْعَلْ[2]». كما ورد مُسمَّاها والإشارة إليها في بعض الرّوايات والتى منها ما ذكره البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت «فَقُلْتُ أَفَلاَ -أَىْ تَنَشَّرْتَ- فَقَالَ أَمَا وَاللهِ فَقَدْ شَفَانِي[3]». وجاء عند أحمد في المسند بلفظ «فَقَالَتْ عَائِشَةُ لَوْ أَنَّكَ؟ كَأَنَّهَا تَعْنِي أَنْ يَتَنَشَّرَ[4]». أى يُعالج من السّحر.

وفى النُّشْرَة قال الشّافعي: لا بأس بالنُّشرة وهى ضرب من الرُّقية والعلاج لأنّه يُنَشَّرُ بها عنه ما خامره من الدَّاء فيُكشَف أو يُزال، وممّن صرّح بالنُّشرة كذلك المزني والطّبرى وغيرهما. (قال) أبو عبيد [فى حَدِيث النَّبىّ ﷺ حينَ قَالَ «فَلَعَلَّ طِبًّا أَصَابَهُ ثُمَّ نَشَّرَهُ بـقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ[5]». أى رَقَاهُ بالقرآن والتّعوُّذ.

(والثّانى) النُّشْرَةُ المحرّمة وهى حلّ السّحر بالسّحر من استعانة بالشّياطين واستغاثة بهم وإرضائهم، فيتقرَّب النّاشر والمنتشر إلى الشّيطان بما يحبّ فيبطل عمله عن المسحور، ولعلّ هذا الذى قصده رسول الله ﷺ من قوله «النُّشْرَةُ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ[6]».

وفيه يُضيف النّبى ﷺ النُّشْرَةَ إلى الشّيطان وهى معروفة مشهورة عند أهل التّعزيم، وقال الحسن [هى من السّحر، وهذا محمول على أنّها أشياء خارجة عن كتاب الله تعالى وأذكاره

---

(١) انظر المغنى لابن قدامة [ج ١٠ ص ١١٤].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم (٢١٩٩).

(٣) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٧٦٥].

(٤) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢٤٢٢٨].

(٥) انظر غريب الحديث لأبى عبيد [رقم ٣٣٢] والفائق [٢ / ٣٥٣].

(٦) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣٨٦٨] والبيهقى [٩ / ٣٥١].

وعن المداواة المعروفة التي هي من جنس المباح[1]]. (قال) في الفتح :[ويُجاب عنه بأنه إشارة إلى أصل النُّشْرة ويختلف الحكم فيها بالقصد، فمن قصد بها خيرا كان خيرا وإلاّ فهو شرّ، ولكن أن تكون النُّشْرَةُ نوعين فهذا هو الصّواب[2]].

أمّا إذا تُحُصِّلَ على [العملِ] بعد استخراجه فإنَّ عُقَدَهُ لا تُحَلُّ إلاّ بالتَّعوُّذ عليها لما في رواية ابن عبّاس «وأَخْرجوا الْجُفَّ فإذا مُشَاطَةُ رَأْسِ إِنْسَانٍ وأَسْنَانٍ من مُشْطٍ، وإذا وَتَرٌ مَعْقُودٌ فيه إِحْدَى عَشْرَةَ عُقْدَةً مُغرَزَةً بالإبرِ فأنزلَ اللّهُ الْمُعوِّذَتَيْنِ وَهُمَا إِحْدَى عَشْرَةَ آيةً عَلَى عَدَدِ تلْكَ الْعُقَدِ وأَمر أَنْ يَتَعوَّذَ بهمَا، فَجَعَلَ كُلَّمَا قَرأَ آيةً انحلَّتْ عُقْدَةٌ وَوَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ خِفَّةً حَتَّى انْحلَّتَ الْعُقْدَةُ الأَخِيرَةُ فَكَأَنَّمَا أُنْشِطَ مِنْ عِقَالٍ[3]». أي تحرّر من أثر السّحر بعد فكِّ عُقَده.

وجاء في تفسير القرطبي [فَأَنْزَلَ اللّهُ تَعَالَي هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ وَهمَا إِحْدَى عَشْرَةَ آيَةً عَلَى عَدَدِ تلْكَ الْعُقَدِ، وأَمر أَنْ يَتَعوَّذَ بهما، فَجَعَلَ كُلَّمَا قَرأَ آيَةً انْحلَّتْ عُقْدَةٌ وَوَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ خِفَّةً، حَتَّي انْحلَّتِ الْعُقْدَةُ الأَخِيرَةُ فَكأَنَّمَا أُنْشِطَ مِنْ عِقَالٍ، وَقَالَ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ، وَجَعلَ جبريل يرقِي رَسُولَ اللهِ ﷺ فَيقُولُ «بِسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ حَاسِدٍ وَعَيْنٍ وَاللّهُ يَشْفيكَ». فَقَالُوا «يَارَسُولَ اللهِ أَلاَ نَقْتُلُ الْخَبِيثَ؟ فَقَالَ أَمَّا أَنَا فَلَقَدْ شَفَانِي اللّهُ وَأَكْرَهُ أَنْ أُثِيرَ عَلَى النَّاسِ شَرًّا[4]].

المأخوذ عن زوجته المشكلة والحلّ

من الظواهر المرضية المنتشرة في الكثير من الأوساط ما يسمّى «بالرَّبط» ويتمثّل هذا في عجز الرّجل المستو الخلقة عن إتيان زوجته ولا يصل إلى جماعها فإنّ ذلك يُسمَّى «مَرْبوطًا». فإن أُعتقد أنّ هذا من نتيجة السّحر سمّي بالأُخْذَة - بضمّ الهمزة - وهي الكلام الذى يقوله السّاحر أوهي الرُّقية نفسها، و«الأُخْذَةُ» التى تأخذ العين حتّي يظنّ أنّ الأمر كما هو وليس كذلك، و«الْمُؤْخذُ» المحدثُ للبغضة بالسِّحر، ومنه «رَجُلٌ مُؤْخَذٌ» ممنوع عن النّساء محبوس عنهنّ [[5]].

والمأخوذ إذا ما اقترب من زوجته وأراد ها تعطّلت مراكز الإثارة الجنسيّة في المخّ عنده فلا يتهيّأُ لذلك ويصعب عليه مزاولة الأمر؛ وللأطبّاء المتخصّصين تفسير لهذه الظّاهرة يُخالف تفسير العامّة من النّاس، عندما شخّصوا هذا «الرّبط» على أنّه ضعف جنسي مُؤقت ناجم عن كثير من الضّغوط المؤثّرة في هذا الجانب ثمّ قسّموا هذه الأسباب إلى قسمين:

(الأوّل) أسباب نفسيّة منها:

---

(١) نقلا عن نووى مسلم [ج ٧ ص ٤٢٦]. (٢) انظر فتح البارى [ج ١٠ ص ٢٤٤]. (٣) أخرجه البيهقى في الدّلائل. (٤) نقلا عن تفسير القرطبى [ج ٢٠ ص ٢٥٤]. (٥) انظر الموسوعة الفقهيّة [٢٣ / ٩٦].

(١) الاستسلام للوَهْم الذى يكون سببا للعجز عندما يخاف معظم الشّباب ليلة البناء من صعوبة فضّ البكارة فيخشون عدم التّوفيق فى تلك الفترة الحاسمة ممّا يؤدّى إلى حدوث هذا العجز نتيجة للأعصاب المرتجفة والإرشادات الخاطئة.

(٢) إنّ للتخوُّف من الإخفاق أثره المباشر فى افتقاد الثقة بالنّفس ممّا يسبّب ضعف قدرة الرّجل فى تهيئة نفسه لهذا الظّرف!.

(٣) إنّ الاكتئاب النّفسى واحد من أهم أسباب ضعف الانتصاب ومن علاماته فقدان الشّهية للطعام والإمساك والإرهاق.

وعلاج هذه الحالات يكمن فى انتظام وظيفة الرّوادع العصبيّة للإنسان لأنّ هذا العجز لا علاقة له بتركيبه العضوى، وعلى المصاب أن ينظر إلى داخل نفسه ويبحث عن السّبب الحقيقى الذى أوقعه فى العجز، وفى أكثر الأحيان تمثّل الرّهبة من الموقف والخوف من الإقدام على المسائل والتّعب الذّهنى والجسدى والأرق النفسى عوامل ضاغطة تحول دون تحقيق الأمانى المرغوبة ساعتها، وذلكُ لأنّ النّاحية الجنسية هى محصّلة لعوامل كثيرة أهمّها صحّة المرء النّفسية والجسمانيّة.

(الثّانى) أسباب مرضيّة منها:

(١) عجز ناجم عن ضعف الغُدد التناسليّة وهو من الأسباب الرّئيسية فى هذه المشكلة، لأنّ قلّة إفراز الهرمون يؤخّر وظيفة الدّم فى إجراء الانتصاب،

(٢) عجز ناجم عن التّدخين الذى يُؤثّر سلبا على انقباض الأوعية الدّموية المغذية للعضو الذّكرى، ذلك لأنّ النّيكوتين يزيد من إفراز مادّة الأدرينالين التى تساعد على انقباض العضلات المحيطة بالكهوف فى الجسم الكهفى للعضو الذّكرى فيمنع دخول الدّم إليه مسبّبا عدم الانتصاب، فالتّدخين قاتل للعضو الذّكرى.

(٣) كما أنّ الإصابة بمرض السّكر تؤدّى إلى التهاب العصب اللاإرادى المغذى للأعضاء التّناسلية وبالتّالى يضعف الانتصاب.

وفى هذه الحالات يُعالج الطبيب مريضه فيفحص سبب العجز، فإذا كان ناشئا عن تشويش فى نظام الرّوادع العصبيّة يزيله فى الحال، وإذا كان ناجما عن وهن فى الجهاز العصبى يصف له فترة من الراحة، وفى حالة كون المهيّجات ضعيفة قليلة ينصح بزيادة حساسيتها، أمّا إذا كان العجز ناجما عن نقص فى الهرمون أو فى إفراز الغُدد الصّماء وليس عجزا عرضيًّا فإنّه يعالجه بتنشيط وظيفة الخصيتين.

هذا ما وصل إليه أهل الطبّ والمعرفة فى مسألة [الرّبط] أو افتقاد الرّجل لقدراته الجنسية سواء كان ذلك نفسيًّا أو عضويًّا، أمّا ما سطّره الأقدمون عن هذه الظاهرة

فلم يخرج عن كونه عمل من أعمال السّحر يريد السّاحر من خلاله أن يسلب المرء رجولته ويحكم ذلك عند أهل هذا الاعتقاد كثير من الشّعوذة والمتاجرة بعيدا عن حقائق العلم الحديث.

ولقد أشار بعض العلماء فى كتبهم إلى طرق تستوعب بعض الأعمال اليقينيّة التى يمكن من خلالها علاج مثل هذه الحالات نذكرها هنا على عهدتهم ومنها:

(١) ما أخرجه عبدالرزّاق من طريق الشّعبىّ قال [لاَ بَأْسَ بالنُّشْرَةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتى إِذَا وَطِئَتْ لاَ تَضُرُّهُ، وَهِيَ أَنْ يَخْرُجَ الإِنْسَانُ فى مَوْضِعِ عِضَاهٍ فَيَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ مِنْ كُلٍّ ثُمَّ يَدُقُّهُ وَيَقْرَأُ فِيهِ ثُمَّ يَغْتَسِلُ بِهِ(١)]: يقصد «بِمَوْضِعِ عِضَاهٍ»: كُلُّ شَجَرٍ لَهُ شوك صغُرَ أو كبُرَ، والواحدة [عِضَاهَةٌ]. وهو ما جاء ذكره في حديث جابر عند مسلم قال «غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ غَزْوَةً قِبَلَ نَجْدٍ فَأَدْرَكْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِى وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ(٢)» الحديث. وهو شجر عظيم له شوك وقيل أعظم الشّجر، ويُقصد «بِالْقِرَاءَةِ» المعوّذتين وآية الكرسى والله تعالى أعلم.

(٢) ما ذكره ابن بطّال عن وهب بن منبّه قال «يَأْخُذُ سَبْعَ وَرَقَاتٍ مِنْ سِدْرٍ ـ نبق ـ أَخْضَرَ فَيَدُقُّهُ بَيْنَ حَجَرَيْنِ ثُمَّ يَضْرِبُهُ بِالْمَاءِ وَيَقْرَأُ فيه آيَةَ الْكُرْسِيِّ، ثُمَّ يَحْسُو مِنْهُ ثَلاَثَ حَسَوَاتٍ ثُمَّ يَغْتَسِلُ بِهِ فَإِنَّهُ يَذْهَبُ عَنْهُ كُلُّ مَا بِهِ، وَهُوَ جَيِّدٌ لِلرَّجُلِ إِذَا حُبِسَ عَنْ أَهْلِهِ(٣)». وقوله «ثُمَّ يَحْسُو مِنْهُ»: أى يشرب منه ثلاث جُرْعَاتٍ، والحُسْوَةُ مصدر بمعنى المرَّة بملء الفم ممّا يُحْسَى.

الفرق بين المعجزة والكرامة والسّحر

ذكر العلماء أنّ الفرق بين المعجزة والكرامة والسّحر عدّة أمور:

(أحدها) أنّ السّحر إنّما يظهر من نفس شرّيرة خبيثة، والكرامة إنّما تظهر من نفس كريمة مُؤمنة دائمة الطاعات المتجنّبة عن السّيّئات.

(الثّانى) أنّ السّحر أعمال مخصوصة معيّنة من السّيئات وإنّما يحصل بذلك، وليس فى الكرامة أعمال مخصوصة وإنّما تحصل بفضل الله تعالى بمواظبة الشّريعة.

(الثّالث) أنّ السّحر لا يحصل إلاّ بالتّعليم والتّلمذة والكرامة ليست كذلك.

(الرابع) أنّ السّحر لا يكون مُوافقا لمطالب الطّالبين بل مخصوص بمطالب معيّنة محدودة، والكرامة موافقة لمطالب الطالبين وليس لها مطالب مخصوصة.

---

(١) انظر فتح البارى [ج ١٠ ص ٢٤٤]. (٢) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٨٤٣].

(٣) انظر تفسير القرطبى [ج ٢ ص ٥٠].

(الخامس) أنّ السّحر مخصوص بأزمنة معيّنة أو أمكنة معينة أو شرائط مخصوصة، و الكرامة لا يتعيّن لها زمان ولا مكان ولا شرائط.

(السّادس) أنّ السّحر يحصل ببذل جهد السّاحر في الإتيان به، والكرامة ليس فيها بذل الجهد والمشقّة وإن ظهرت ألف مرّة.

(السّابع) أنّ السّاحر يفسق ويتّصف بالرّجس فربّما لا يغتسل من الجنابة ولا يستنجي من الغائط ولا يطهّر الثّياب الملبوسة بالنّجاسات لأنّ له تأثيرا بليغا بالاتصاف بتلك الأمور، وهذا هو الرّجس في الظّاهر، وأمّا في الباطن فهو إذا سَحَر كَفَر، فإنّ العامل بالسّحر كافر.

(الثّامن) أنّ السّاحر لا يأمر إلاّ بما هو خلاف الشّرع والملّة، وصاحب الكرامة لا يأمر إلاّ بما هو مُوافق له، إلى غير ذلك من وجوه المفارقة، فإذا ظهر الفرق بين الكرامة والسّحر ظهر بينه وبين المعجزة أيضا [(١)].

(ثالثـا)

الحسد تلك العداوة الفاجرة للإنسان

الحسد هو شدّة الأسى على شيء يكون لغير الحاسد، ويأتي ذلك باختلاف القلب على النّاس وكراهية نعم الله عليهم، وهو بخلاف الغبطة فإنّه تمنّي مثلها من غير حبّ زوالها من المغبوط، والتّحقيق أنّ الحسد هو البغض والكراهة لما يراه الحاسد من حُسْن حال المحسود وهو عند العلماء قسمان:

(أحدهما) حقيقي وهو تمنّي زوال نعمة الله تعالى عن المسلم وهذا حرام بإجماع الأمّة مع النّصوص الصّحيحة وهو الذى ذمّه الله في كتابه بقوله جلّ شأنه ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[النّساء: ٥٤].

وإنّما كان ذلك مذموما لأنّ فيه تسفيه الحقّ سبحانه وأنّه أنعم على من لا يستحقّ، وإذا أبغض الحاسد نعم الله على عباده فإنّه يتألّم ويتأذّى بوجود ما يبغضه فيكون ذلك مرضا في قلبه، فيلتذّ بزوال النّعمة عنه وإن لم يحصل له نفع بزوالها، لكن نفعه يتحقّق بتمنّي زوال النّعمة عن غيره بقلبه وهو ما أمر الله نبيّه ﷺ أن يستعيذ منه بقوله تعالى﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾.

(١) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ٢ ص ٢٥٠] ودستور العلماء [٢ / ١٦٥].

(والثّاني) مَجَازي وهو ما جاء تعريفه في قوله ﷺ «لاَ حَسَدَ إلاَّ في اثْنَتَيْن: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْقُرآنَ فَهُوَ يَقُومُ به آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَار، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَهُوَ يُنْفقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ(١)». أي لا حسد محمودا في شيء إلاّ في خصلتين، والحسد فيه بمعنى الغبطة وحقيقتها أن يتمنّى المرء أن يكون له ما لأخيه المسلم من الخير والنّعمة، ولا يُزال عنه هذا الخير، وقد يجوز أن يُسمّى هذا منافسة ومنه قوله تعالى ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطفّفين: ٢٦].

والتّنافس نزعة فطريّة تدعو إلى بذل الجهد في سبيل التّفوّق، يقال: نَافَسَ في الشَّيْء: بَالَغَ فيه ورغب، وتَنَافَسَ الْقَوْمُ في كذا: تَسَابَقُوا فيه وَتَبَارَوْا دون أن يُلْحق بَعْضُهُم الضَّرَرَ ببعض، ومن هذا قولهم: «شَيْءٌ نَفِيسٌ» أي هو أهل أن يُتنافس ويُرغب فيه، وقد كان الصّحابة يُسابق بعضهم بعضا بالقُرُبات ولا يُؤْثر الرّجل منهم غيره بها، ومن ذلك قول عمر رضي الله عنه «وَاللهِ مَا سَابَقَنِي أَبُو بَكْرٍ إِلَى خَيْرٍ إِلاَّ سَبَقَنِي إِلَيْهِ، حَتَّى قَالَ وَاللهِ لاَ أُسَابِقُكَ إِلَى خَيْرٍ أَبَدًا».

ومن الحسد أن يكره المرء تميُّز غيره عليه فيحبّ أن يكون مثله أو أفضل منه، وهذا الذي سمّاه ﷺ حسدا في الحديث المتّفق عليه «لاَ تَحَاسُدَ إلاَّ في اثْنَتَيْنِ». وفيه «فَهُوَ يَقُولُ لَوْ أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ هَذَا لَفَعَلْتُ كَمَا يَفْعَلُ(٢)». وسُمّي ذلك حسدا لأنّ مبدأ هذا الحبّ هو نظره إلى إنعام الله على الغير وكراهته أن يتفضّل عليه، ولولا وجود ذلك الغير لم يحبّ ذلك، وهذا يترتّب على واحد من أمرين [(٣)]:

(١) لو كان مبدأ ذلك كراهته أن يتفضّل عليه الغير كان حسدا، لأنّها كراهة تتبعها محبّة.

(٢) أمّا من أحبّ أن يُنعم الله عليه مع عدم التفاته إلى أحوال النّاس فهذا ليس عنده من الحسد شيء.

وقول النّبي ﷺ في الحديث «لاَ حَسَدَ إلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ»: يقف بنا أمام خصلتين عظيمتين من خصال الإيمان:

(الأولى) عن رجل «آتَاهُ اللهُ الْقُرآنَ فَهُوَ يَقُومُ به آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ». أي يقوم به تلاوة وتعبُّدا داخل الصّلاة وخارجها، وتعلُّمه وتعليمه والحكم والفتوى بمقتضاه، والعمل

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري [٧٥٢٩] ومسلم [٨١٥] وابن ماجه [٣٤١٢].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري [٧٢٣٢].

(٣) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية [ج ١٠ ص ١١١].

بشرعه وأحكامه، والتّمسُّك بحلاله وحرامه، واتّباع أمره ونهيه، وهو منطوق قوله ﷺ من رواية أحمد عن يزيد بن الأخنس «ورَجُلٌ أَعْطَاهُ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهارِ وَيَتَّبِعُ مَا فِيهِ(١)».

(الثّانية) عن رجل «آتَاهُ اللّهُ مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ». وفي رواية مسلم «فَتَصَدَّقَ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهارِ، وجاءت رواية ابن مسعود بلفظ «فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ». وعبّر فيه «بالتَّسْلِيط» لدلالته على قهر النّفس المجبولة على الشُّحّ، كما جاء لَفَظ «هَلَكَتِه» ليدلّ على أنّه لا يبقى من ماله شيئا بعد إنفاقه، وكمّله ﷺ بقوله «فِي الْحَقِّ» أى في الطّاعات المُكسبات ليُزيل عنه إيهام الإسراف والتّبذير.

ووجه «الحصر» في الحديث أنّ الطّاعات إمّا بدنيّة أو ماليّة أو كائنة عنهما، وقد أشار إلى البدنيّة بإتيان «القرآن» والعمل به مطلقا، ثمّ جعل طاعة «المال» في إنفاقه على الوجه الشّرعى بالبذل والعطاء.

وكان من أعظم ما يُتّقى به شرّ الحاسد إذا حسد التّحصّن والتّعوّذ بقول الله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾. وفيها يأمر الله نبيّه ﷺ أن يتعوّذ من جميع الشّرور فقال ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ وجعل خاتمة ذلك التّعوّذُ من الحسد تنبيها على خطورته وكثرة ضرره كما في قوله تعالى ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ أى إذا حاول أن يزيل نعمة الله تعالى بمختلف الوسائل.

والحسد في القاموس من حَسَدَ يَحْسُدُ حَسَدًا: تمنّى أن تتحوّل إليه نعمة غيره أو أن يُسْلَبَهَا ومنه قولهم: «لَيْسَ لِلْحَاسِدِ إِلاَّ مَا حَسَدَ» أى لا يحصل على شيء سوى الحسد، يقال [حَسَدَهُ النِّعْمَةَ] فهو حَاسِدٌ، و[الْحَسُودُ]: مَنْ طَبْعُهُ الْحَسَدُ ذكرًا كان أو أنثى، يقال أَكَلَ الْحَسَدُ قَلْبَهُ: أى غَالَى في حَسَدِه، ومنه رَجُلٌ حَمِيُّ الْعَيْنِ: شَدِيدُ الْحَسَدِ والإصابة بالعين. وفي تعريفه (قال) أبو البقاء: [«الْحَسَدُ» اختلافُ القلب على النّاس لكثرة الأموال والأملاك(٢)].

ولا شكّ أنّ الحسد من أضرّ الشّرور وأخطرها لما يحمله من كراهية تُثير البغض ونار تحرق الأخضر واليابس، واعتراض على فضل الله في عطائه لخلقه كما في قوله تعالى ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[النّساء: ٥٤]. وفيه الإشارة إلى أنّ الحسد لا يحصل إلاّ عند اكتمال الفضيلة، فكلّما كانت فضيلة الإنسان أتمّ وأكمل كان حسد الحاسدين عليه أقوى وأعظم، ومعلوم أنّ النّبوّة أعظم المناصب في الدّين ثمّ إنّه تعالى

(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١٦٩٠٣] والطّبراني في الكبير [٦٢٦].

(٢) انظر المعجم الوجيز [ص ١٤٩] والمعجم العربي «لاروس» [ص ٣١٥].

أعطاها لنبيّنا محمّد ﷺ وضمّ إليها ما جعله كلّ يوم أقوى دولة وأعظم شوكة وأكثر أنصارا وأعوانا ممّا كان سببا فى حسد اليهود له ﷺ وحقدهم عليه [(١)].

والحسد شرّ مركوز فى طبع صاحبه لا يصدر عنه إلاّ الحقد الأسود الدّفين والتّدابر والعداوة، وكلّها من الأمور التى نهى عنها رسول الله ﷺ فى قوله «لاَ تحاسَدُوا، وَلاَ تَنَاجَشُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا(٢)».

ولـمّا كان الحسد مرضا من أمراض النّفس فلا يخلص منه إلاّ القليل من النّاس، ولهذا يقال [مَا خَلاَ جَسَدٌ مِنْ حَسَدٍ لَكِنَّ اللَّئِيم يُبْدِيه وَالْكَرِيمَ يُخْفِيه]. وإذا كان قوله تعالى ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾. قد ذكر شرَّ الحاسد فى وقت التهاب نار حسده بتمنّى زوال نعمَ الله علَى خلقه، فإنّ ربّ الفلق قادر على أن يُزيل ما يحصل بضيق الحاسد وشُحّه بالاستعاذة به ودوام اللُّجوء إليه بقوله سبحانه ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾.

وما تعوّذ المتعوِّذون من شرّ الحسد بمثل سُورتي الفلق والنّاس لقوله ﷺ من حديث عقبة بن عامر «يَاعُقْبَةُ أَلاَ أُعَلِّمُكَ خَيْرَ سُورَتَيْنِ قُرِئَتَا!، فَعَلَّمَنِي قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ(٣)». وقوله ﷺ عند النّسائى «مَا سَأَلَ سَائِلٌ بِمِثْلِهِمَا وَلاَ اسْتَعَاذَ مُسْتَعِيذٌ بِمِثْلِهِمَا(٤)». وقوله ﷺ لابن عابس الجهنى «أَلاَ أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلِ مَا يَتَعَوَّذُ بِهِ الْمُتَعَوِّذُونَ؟ قَالَ بَلَى يَارَسُولَ اللهِ، قَالَ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ(٥)». وقال لعقبة «لَنْ تَقْرَأَ شَيْئًا أَبْلَغَ عِنْدَ اللهِ مِنْ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ(٦)».

والحاسد ممقوت من الله تعالى مبغوض من خلقه من خمسة أوجه:

(أحدها) أنّه أبغض كلّ نعمة ظهرت علي غيره وهو المنهى عنه فى قوله ﷺ عند مسلم «لاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَقَاطَعُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا كَمَا أَمَرَكُمُ اللهُ(٧)». وقوله «لاَ تَبَاغَضُوا»: أى لا تتعاطوا أسباب البغض لأنّ البغض لا يُكتسب ابتداء، وقيل المراد النّهى عن الأهواء المضلّة المقتضية للتّباغض والعداوة، والبغضاء شدّة الكراهية والمقت من بَغِضَ الشَّيْءَ بُغْضًا: أى مَقَتَهُ وَكَرِهَهُ فهو بَاغِضٌ وبَغُوضٌ، من قول الله تعالى ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [آل عمران: ١١٨].

---

(١) انظر فتح البارى [ج ١٠ ص ٤٩٦].
(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٠٦٥] ومسلم [٢٥٥٩].
(٣) حديث صحيح أخرجه النّسائى [٥٤٥١] وأبو داود [١٤٦٢] وابن خُزيمة [٥٣٤].
(٤) حديث صحيح أخرجه النّسائى [٥٤٥٣] والدّارمى [٣٤٤٠].
(٥) حديث صحيح أخرجه النّسائى [٥٤٤٧] وأورده الألبانى فى الصّحيحة [٣/٩٤].
(٦) حديث صحيح أورده فى صحيح الجامع [٥٢١٧] والمشكاة [٢١٦٤].
(٧) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٥٦٣] وافقه البخارى [٦٠٦٦].

(الثّانى) أنّه ساخط لنعمة ربّه تعالى مُعترض عليها، وقسمة الله للخلق فى رزقه عادلة، فلا يتورّث من سخطه إلاّ التّدابر والجفاء وهو المنهى عنه فى قوله ﷺ «ولاَ تدَابَرُوا». والتّدابُر المصارمة والهجران، مأخوذ من أن يولّى الرّجل صاحبه ظهره ويُعرض عنه بوجهه هجرا وبُعدا ومخاصمة.

(الثّالث) أنّ فضل الله تعالى واسع يُؤتيه من يشاء، والحاسد بحسده حاقد على هذا الفضل مُحَقِّرٌ لنعمة ربِّه على خلقه مُبْخِلٌ بها عليهم.

(الرّابع) أنّه بحسده يخذل إخوانه عند زوال النّعم عنهم وتخلّيه عن نصرتهم والسّرور لهم وتمنّى زوال ما أفاض الله به عليهم.

(الخامس) أنّ الحاسد ظالم لنفسه بتغلّب شيطانه عليه، وظالم لغيره بحسده وبُغضه وتدابره وخُذلانه له، وهو ما نهى عنه رسول الله ﷺ فى قوله «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ، وَلاَ يَخْذُلُهُ، وَلاَ يَحْقِرُهُ[1]». والظُّلم الْجَوْرُ ومجاوزة الحدّ.

والحسد يسرى إلى القلب بخفّة وسهولة كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ بقوله «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ، هِيَ الْحَالِقَةُ لاَ أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ! وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ[2]». وفيه يُبيّن ﷺ أنّ الحسد هو أصل البغضاء التى تُذهب بالدِّين كالموسى تُذهب بالشّعر، ولأنّ البغضاء أكثر تأثيرا فى ثُلْمَة الدّين وإن كانت نتيجة مباشرة من نتائج الحسد، ولذلك أخبر رسول الله ﷺ كما فى رواية النّسائى عن أبى هريرة أنّ «الإِيمَانَ وَالْحَسَدَ لاَ يَجْتَمِعَانِ فِى قَلْبِ عَبْدٍ[3]».

وفى قول الله تعالى ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾[فصّلت: ٢٩]. قال المفسّرون: إنّه إنّما أراد بالذى من الجنّ إبليس، والذى من الإنس قابيل، وذلك أنّ إبليس كان أوّل من سنّ الكفر، وقابيل كان أوّل من سنّ القتل، وإنّما كان أصل الكفر والقتل من الحسد [[4]].

والحاسدون فى كراهيتهم الخير للنّاس أقسام:

(١) فمنهم من يسعى فى زوال نعمة المحسود بالبغى عليه بالقول والفعل.

(٢) ومنهم من يسعى فى نقل ذلك إلى نفسه.

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٥٦٤].

(٢) حديث حسن لغيره أخرجه التّرمذى [٢٥١٠].

(٣) انظر تفسير القرطبى [ج ٥ ص ٢٥٢].

(٤) أخرجه فى صحيح النّسائى [٢٩١٢].

(٣) ومنهم من يسعى فى إزالة عين المحسود فقط من غير نقل إلى نفسه وهو شرّها وأخبثها وهو الأمر المذموم المنهى عنه.

(٤) ومنهم من إذا حسد غيره لم يعمل بمقتضى حسده، ولم يبغ على المحسود بقول ولا بفعل، وهؤلاء على نوعين [(١)]:

(أحدهما) أنّه لا يمكنه إزالة ذلك الحسد عن نفسه ويكون مغلوبا على أمره فى ذلك فلا يأثم به.

(والثّانى) من يُحدّث نفسه بذلك اختيارا ويُعيده فى نفسه مستروحا إلى تمنّى زوال نعمة أخيه فهذا شبيه بالعزم المصمّم على المعصية، وفى العقاب على ذلك اختلاف بين العلماء، لكن هذا يبعد أن يسلم من البغى على المحسود بالقول فيأثم بذلك.

وفى مُقابل هذين النّوعين نجد قسما آخر من النّاس إذا وجد الحسد فى نفسه، سَعَى فى إزالته وفى الإحسان إلى المحسود بإسداء التّبريك إليه، والدّعاء له، ونشر فضائله، وفى إزالة ما وجد له فى نفسه من الحسد حتّى يبدله بالمحبّة، وهذا من أعلى درجات الإيمان، وصاحبه هو المؤمن الكامل الذى يُحبّ لأخيه ما يُحبّ لنفسه.

وفى الفتح [الحسد تمنّى الشّخص زوال النّعمة عن مستحقّ لها أعمّ من أن يسعى فى ذلك أوْ لاَ، فإن سَعَى كان باغيا، وإن لم يسع فى ذلك ولا أظهره ولا تسبّب فى تأكيد أسباب الكراهة التى نهى المسلم عنها فى حقّ المسلم نظر: فإن كان المانع له من ذلك العجز بحيث لو تمكّن لفعل فهذا مأزور، وإن كان المانع له من ذلك التّقوى فقد يُعذر لأنّه لا يستطيع دفع الخواطر النّفسيّة فيكفيه فى مجاهدتها أن لا يعمل بها ولا يعزم على العمل بها(٢)].

(قال) ابن تيمية [فمن اتّقى الله تعالى وصبر ولم يدخل فى الظّالمين نفعه الله بتقواه كما جرى لزينب بنت جحش، فإنّها كانت هى التى تسامى [(٣)] عائشة من أزواج النّبى ﷺ وحسد النّساء بعضهن لبعض كثير غالب لا سيّما المتزوّجات بزوج واحد، فإنّ المرأة تغار على زوجها لحظّها منه، فإنّه بسبب هذه المشاركة يفوت عليها بعض حظّها].

[وهكذا الحسد يقع كثيرا بين المتشاركين فى رئاسة أو مال إذا أخذ بعضهم قسطا من ذلك وفات الآخر، ويكون بين النّظراء لكراهة أحدهما أن يفضل الآخر عليه كحسد إخوة يوسف، وكحسد ابنى آدم أحدهما لأخيه، فإنّه حسده لكون أنّ الله تقبّل قربانه ولم يتقبّل

---

(١) انظر جامع العلوم والحكم [ص ٥٣٦] بتصرّف. (٢) انظر فتح البارى [ج١٠ ص ٤٩٨]. (٣) قوله «تُسَامِى» من التّفاخر و[سَامَاه] عالاه وباراه (القاموس).

قُربان هذا، فكان حسده على ما فضّله الله به من الإيمان والتقوى، ولهذا قيل إنّ أوّل ذنب عُصيَ الله به ثلاثة: الحرص والكبر والحسد، فالحرص من آدم، والكبر من إبليس، والحسد من قابيل حيث قتل هابيل[(١)]].

وقد أخرج عبد الرّزاق عن إسماعيل بن أميّة رفعه «ثَلاثٌ لاَ يَسْلَمُ مِنْهَا أَحَدٌ: الطِّيَرَةُ وَالظَّنُّ وَالْحَسَدُ، قيلَ: فَمَا الْمَخْرَجُ منها يارسُولَ الله؟ قال إذا تطيَّرْتَ فلا ترجعْ، وإذا ظننتَ فلا تُحقِّقْ، وإذا حَسَدْتَ فلا تَبْغِ[(٢)]». وجاء في رواية «قالَ: فَيُنجيكَ من الطِّيرَةِ ألاَّ تعمل بِهَا، ويُنْجِيكَ مِنْ سُوءِ الظَّنِّ ألاَّ تَتَكلَّمَ بِهِ، ويُنْجِيكَ مِنَ الْحَسَدِ ألاَّ تَبْغي أَخَاكَ سُوءًا[(٣)]».

وفارق بين الحسد والغبطة، فالأوّل تمنّي زوال نعمة الغير، أمّا الثاني فهو السّعي في اكتساب مثل فضائل هذا الغير، وتمنّي مثل ما عنده دون تمنّي زواله، فإن كانت الفضائل دنيوية فلا خير في ذلك كهؤلاء الذين تمنوا زخرفها فقالوا ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[القصص:٧٩] . وإن كانت فضائل دينية فهو أمر حسن كما تمنّى النّبي ﷺ الشّهادة في سبيل الله تعالى.

والحسد مذموم وصاحبه مغموم وحسده يأكل حسناته كما تأكل النّار الحطب لما رُوي عن أبي هريرة قال «إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ، فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ، أَوْ قَالَ الْعُشْبَ[(٤)]». وقوله «إِيَّاكُمْ»: منصوب على التّحذير وعلّل النّهي فيه بقوله «فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ». أي يُذهبها، ففيه استعارة مكنيّة تتبعها استعارة تخييلية بقوله «كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ». والمراد هنا: الكلأ أي حشيش المرعى، وهذا إيماء إلي سرعة إبطاله الحسنات كما في المشبّه، وفي رواية أبي داود عن أنس قال «إِنَّ الْحَسَدَ يُطْفِيءُ نُورَ الْحَسَنَاتِ وَالْبَغْيَ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ[(٥)]».

وفي ذلك قال الحسن [مَا رَأَيْتُ ظَالِمًا أَشْبَهَ بِمَظْلُومٍ مِنْ حَاسِد: نَفَسٌ دائِمٌ وحُزْنٌ لاَزِمٌ وعَبْرَةٌ لاَ تَنْفَدُ]. ولمّا قال ابن مسعود [لاَ تُعَادُوا نعمَ الله، فَقِيلَ لَهُ وَمَنْ يُعَادِي نعم الله؟ قَالَ الَّذِينَ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِه]. فالحسود عدوّ لنعمة الله، مُتسخّط على قضائه، غير راض بقسمته، ولمنصور الفقيه [(٦)]:

---

(١) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية [ج ١٠ ص ١٢٥-١٢٦]

(٢) ذكره ابن عبد البرّ في التّمهيد [٦ / ١٢٥].

(٣) أخرجه عبد الرّزاق في مصنّفه [١٩٦٧٣].

(٤) أورده أبو داود بإسناد ضعيف [٤٩٠٣].

(٥) أورده أبوداود بإسناد ضعيف [٤٩٠٤].

(٦) انظر تفسير القرطبي [ج ٥ ص ٢٥١].

ألاَ قُلْ لمَنْ ظَلَّ لِى حَاسِدًا أَتَدْرِى عَلَى مَنْ أَسَأْتَ الأَدَبْ
أَسَأْتَ عَلَى اللهِ فِى حُكْمِهِ إذَا أَنْتَ لَمْ تَرضَ لِى مَا وَهَبْ

وإذا كان الحسد لا يُدرك حسيًّا من الحاسد لكونه آفة قلبية فما على المحسود إلاّ أن يتحصّن منه عند النوم كلّ ليلة لحديث عائشة «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ نَفَثَ فِي يَدَيْهِ وَقَرَأَ بِالْمُعَوِّذَاتِ وَمَسَحَ بِهِمَا جَسَدَهُ[١]». والنَّفْثُ من نَفَثَ يَنْفُثُ نَفْثًا ونَفَثَانًا: نَفَخَ. و[الشَّيْءَ] مِنْ فِيهِ: رَمَى بِهِ، وقال أهل اللُّغة: النَّفْثُ نفخ لطيف بلا ريق.

والنّفث ينبغى أن يكون بعد التّلاوة مباشرة ليُوصِّل بركة القرآن إلى بشرة القارىء والمقروء له، لما جاء عند البخارى من حديث عائشة «ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ وَمَا بَلَغَتْ يَدَاهُ مِنْ جَسَدِه[٢]». والمعوّذتان هما خير سورتين قرئتا، ويزيدان على غيرهما من السّور فى باب التّعويذ من الحسد وغيره، إذ لم توجد سورة كلّها تعويذ إلاّ هاتان السّورتان ومنه قول النّبى ﷺ لعقبة «يَاعُقْبَةُ تَعَوَّذْ بِهِمَا فَمَا تَعَوَّذَ مُتَعَوِّذٌ بِمِثْلِهِمَا[٣]». وعند أبى داود عن علىّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رفعه «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ عِنْدَ مَضْجَعِهِ اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِوَجْهِكَ الْكَرِيمِ وَكَلِمَاتِكَ التَّامَّةِ مِنْ شَرِّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ[٤]».

ليس أسوأ من حسد اليهود للإسلام والمسلمين

ولمّا كان الشّىء بالشّىء يُذكر فإنّه ليس هناك حسد أسوأ من حسد اليهود لرسول الله ﷺ على النُّبوّة، وحسدُهم لأصحابه على الإيمان به، وحسدُهم لقريش لأنّ النُّبوّة فيهم، وقد كشف القرآن حقدهم هذا فى قوله تعالى ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾.

والآية تكشف ذلك الانفعال الأسود الخسيس الذى فاضت به نفوسهم تجاه الإسلام ونبىّ الإسلام ﷺ، وما زالت تفيض سموما نتيجة للحقد الذى ترسّب فى نفوسهم، وانبعثت منه دسائسهم وتدبيراتهم كلّها ولا تزال، والحسد هو الأمر الذى يكشفه القرآن للمسلمين ليعرفوا أنّه السّبب الكامن وراء كلّ تدبيرات اليهود لزعزعة العقيدة فى نفوسهم وردّهم إلى الكفر فقال تعالى ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٦٣١٩].
(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٧٤٨].
(٣) حديث صحيح أخرجه أبو داود [١٤٦٣] والنّسائى [٥٤٥٣].
(٤) حديث حسن أخرجه أبو داود [٥٠٥٢] والنّسائى [٧٦٧].

أى أنهم يتمنّون ارتدادكم عن دينكم حسدا من عند أنفسهم، فجعل الحسد هو الموجب لذلك التّمنّى من بعد ما تبيّن لهم الحقّ لأنّهم لمّا رأوا أنّكم قد حصل لكم من النّعمة ما حصل ممّا لم يحصل لهم مثله حسدوكم حقدا وعداوة، ولقد كشف لنا رسول الله ﷺ النّفسيّة المريضة لهذا العدوّ وسلوكه الإجرامى المتأصّل فى حسده وحقده وعداوته لدين الله تعالى فيما جاء عنه فى كتب الصّحيح:

(١) عن عائشة أنّ رسول الله ﷺ قال «إِنَّهُمْ لاَ يَحْسُدُونَنَا عَلَى شَيْءٍ كَمَا يَحْسُدُونَنَا عَلَى الْجُمُعَةِ الَّتِى هَدَانَا اللهُ لَهَا وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَى الْقِبْلَةِ الَّتِى هَدَانَا اللهُ لَهَا وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَى قَوْلِنَا خَلْفَ الإِمَامِ آمِينَ[(١)]».

(٢) وجاء عند الطّبرانى بلفظ «إِنَّ الْيَهُودَ قَدْ سَئِمُوا دِينَهُمْ وَهُمْ قَوْمٌ حُسَّدٌ، وَلَمْ يَحْسُدُوا الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَفْضَلَ مِنْ ثَلاَثٍ رَدِّ السَّلاَمِ، وَإِقَامَةِ الصُّفُوفِ، وَقَوْلِهِمْ خَلْفَ إِمَامِهِمْ فِى الْمَكْتُوبَةِ آمِينَ[(٢)]».

(٣) وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال «مَا حَسَدَتْكُمُ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ مَا حَسَدَتْكُمْ عَلَى السَّلاَمِ وَالتَّأْمِينِ[(٣)]». والأحاديث تشير إلى أنّهم حسدونا على:

* اجتماع الجمعة ويومها الذى ضلّوا عنه ومنّ الله به علينا.

* وعلى التّحيّة التى هى السّلام المفتقد عندهم، فهى تقلق مضجعهم وتحرّك حقدهم لكونها سببا فى تعميق أواصر المحبّة والوحدة بين أبناء الإسلام.

* وعلى إقامة الصّفوف فى الصّلاة خلف الإمام الواحد لكونها تأكيدا لمعنى التّضامن والتّماسك فى مواجهة الباطل وزيفه مهما كان عدده وعدّته.

* وعلى قول آمين فى صلاتنا لله تعالى عندما أدركوا أنّ قرب المسلمين من ربّهم لا يكون إلاّ بالذّكر والدّعاء، وما تمنّت اليهود مثل ما تمنّت زوال الثّواب والعطاء والإجابة عند قولنا آمين، فالمؤمن يَغْبِطُ والعدو اللّئيم يَحْسُدُ.

ما يندفع به شرّ الحاسد عن المحسود

الحسد انفعال نفسى إزاء نعمة الله على بعض عباده مع تمنّى زوالها، وسواء اتبع الحاسد هذا الانفعال بسعى منه لإزالة النّعمة تحت تأثير الحقد والغيظ، أو وقف عند حدّ الانفعال النّفسى فإن شرّا يمكن أن يعقب هذا الانفعال [(٤)]. وتكمن دوافع الحسد

(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢٤٩١٠].

(٢) أخرجه الطّبرانى بسند رجاله ثقات.

(٣) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٧٠٤] وأورده الألبانى فى الصّحيحة [٦٩١].

(٤) انظر فى ظلال القرآن [ج ٣٠ ص ٤٠٠٨].

عند من ابتلى به من عدم الرّضى بقسمة الله تعالى لخلقه وحقده على ما أنعم الله به عليهم، وقد وضع نفسه فى خندق الحرب والعداء لرزق الله وفيضه على النّاس.

ويعتبر حبّ النّفس والأنانية المفرطة التى ينعكس أثرها السّيىء فى تعامل البشر حقدا على الآخرين، من أشدّ أسباب الحسد وأخطرها على مجتمع النّاس، عندما لا يحبّ الحسود أن يرى أثر نعمة الله على من يبغضه، بل قد يدفعه حقده إلى إلحاق الضّرر بمن يحسده على تفاوت فى درجاته، كما أنّ خُبث النّفس وشُحّها بالخير على الآخرين، من الدّوافع التى تُؤدّى بالحاسد إلى تمنّيه زوال النّعمة عن غيره بل وتؤجّج صدره على من يحسده، ولا يقع هذا إلاّ من نفس خبيثة حاقدة.

وإذا كنّا قد قدّمنا هذا الاستقراء لطبيعة هذه النّفس المريضة، فإنّ ديننا الحنيف قد وضع الضّوابط الإيمانيّة التى تدفع شرّ هذا الحاسد عن محسوده، وتحول دون الحصول على مأموله، فلا يبقى من حسده بعد ذلك إلاّ الأثر الذى يكتوى به فؤاده، ولا ينتهض من حقده إلاّ كوامن الشّر التى تشعل نار الأسى فى قلبه.

ولمّا كان كلّ ذى نعمة محسود كما أخبر بذلك سيّد الخلق ﷺ كما فى حديث معاذ بن جبل «اسْتَعِينُوا عَلَى إِنْجَاحِ الْحَوَائِجِ بِالْكِتْمَانِ، فَإِنَّ ذِى نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ(١)». فكان من أهمّ العوامل التى تدفع شرّ الحاسد عن المحسود ما يلى:

(١) التّعوُّذ بالله تعالى من شرِّ الحاسد

الحاسد ـ وكما يقرّر القرآن الكريم ـ شرّ يُستعاذ منه بالله تعالى ويستجار منه بحماه، فهو سبحانه الذى وجّه رسوله ﷺ وأمّته من ورائه إلى الاستعاذة به من شرّ الحسد، ومن المقطوع به أنّهم إذا ركنوا إلى جنابه والتزموا بكريم خطابه، أعاذهم من شرّ كلّ حاسد، وحماهم من كلّ كيد ماحق، وبسط لهم كنفه، وفتح لهم باب عفوه ورضاه بعدما أدركوا أنّ مأمنهم عنده فى تعوّذهم بقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾. وأنّ لياذهم بحماه عند تحصّنهم بقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾.

وقد روى البخارى عن عائشة «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِه نَفَثَ فِى كَفَّيْهِ بِقُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ، وَبِالْمُعَوِّذَتَيْنِ جَمِيعًا، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ وَمَا بَلَغَتْ يَدَاهُ مِنْ جَسَدِهِ، قَالَتْ عَائِشَةُ فَلَمَّا اشْتَكَى كَانَ يَأْمُرُنِى أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ بِهِ(٢)». وقوله ﷺ من حديث عقبة «مَا سَأَلَ سَائِلٌ بِمِثْلِهِمَا، وَلاَ اسْتَعَاذَ مُسْتَعِيذٌ بِمِثْلِهِمَا(٣)». وقوله ﷺ لابن عابس الجهنى

(١) حديث صحيح أورده فى الصّحيحة [١٤٥٣] وصحيح الجامع [٩٤٣].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٧٤٨].

(٣) حديث صحيح أخرجه النّسائى [٥٤٥٣] والدّارمى [٣٤٤٠].

«أَلاَ أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلِ مَا يَتَعَوَّذُ بِهِ الْمُتَعَوِّذُونَ ؟ قَالَ بَلَى يَارَسُولَ اللهِ ، قَالَ : قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ(١)» .

(٢) تقوى الله تعالى

تقوى الله تعالى وحفظه عند أمره ونهيه من أعظم ما يتّقى به المرء شرّ الحاسد وعداوته ، فمن اتّقى الله تولّى الله حفظه ولم يكله إلى غيره ، وقد قال جلّ شأنه ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾[آل عمران : ١٢١] . ولا يتحقّق هذا إلاّ بالوقوف عند أوامره بالامتثال ، وعند نواهيه بالاجتناب وعند حدوده بالانتهاء ، فلا يتجاوز ما أمر به وأذن فيه إلى ما نهى عنه ، فمن فعل ذلك فهو من الحافظين لحدود الله وأوامره لقوله ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾[ق :٣٢] . ومدار ذلك كلّه قائم على منطوق قوله ﷺ لابن عبّاس «احْفَظ اللهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ(٢)» . فإنّ من حفظ حدود الله تعالى وراعى حقوقه حفظه الله في الدّنيا من الآفات والمكروهات وفي الآخرة من أنواع العقاب والدّركات .

ويعني قوله «احْفَظ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ» أنّ من حفظ الله تعالى وتحرّ رضاه وجد الله معه في كلّ أحواله ، يحوطه وينصره ويحفظه ويوفقه ويسدّده ، فمن حفظ الله حفظه الله ووجده أمامه أينما توجّه ، ومن كان الله حافظه وأمامه فمن يخاف ومن يحذر ، وقد قال تعالى ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾[آل عمران : ١٢٠] . قال قتادة [من يتّق الله تعالى يكن معه ، ومن يكن الله معه فمعه الفئة التى لا تُغلب ، والحارس الذى لا ينام ، والهادى الذى لا يضلّ] . بل كتب بعض السّلف إلى أخ له قائلا [أمّا بعد ـ فإن كان الله معك فمن تخاف ؟ وإن كان عليك فمن ترجو ؟] .

وحفظ الله تعالى لعبده يدخل فيه نوعان :

(أحدهما) حفظه له في مصالح دنياه كحفظه في بدنه وولده وأهله وماله ، كما في قوله ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾[الرّعد:١١] .

(والثّاني) حفظ الله للعبد في دينه وإيمانه فيحفظه في حياته من الشّبهات المضلّة ومن الشّهوات المحرّمة ، ويحفظ عليه دينه عند موته فيتوفّاه على الإيمان .

(٣) التّسليم بأنّ ما أصاب المرء لم يكن ليخطئه

ومراده أنّ ما يصيب العبد في دنياه ممّا يضرّه أو ينفعه ، فكلّه مقدّر عليه ولا يصيب

---

(١) حديث صحيح أخرجه النّسائي[٥٤٤٧] وأورده الألباني في الصّحيحة [٣ / ٩٤] .

(٢) حديث صحيح أخرجه أحمد [٢٧٦٣] .

العبد إلاّ ما كتب له من مقادير ذلك فى الكتاب السّابق، ولو اجتهد على ذلك الخلق كلّهم جميعا. وقد دلّ القرآن الكريم على مثل هذا فى قوله تعالى ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١]. وهو ما يُبيّن معناه رسول الله ﷺ بقوله «واعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لو اجْتَمعتْ عَلى أَنْ يَنفعُوكَ بشَيء، لَمْ يَنفَعُوكَ إلاّ بشَيءٍ قَدْ كَتبَهُ اللّهُ تَعالَي لَكَ، ولَو اجْتَمعُوا عَلى أَنْ يَضُرُّوكَ بشَيءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إلاّ بشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهُ تَعالَى عَلَيْكَ، رُفعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ[١]».

فإذا أدرك العبد أنّه لن يصيبه إلاّ ما كتب الله له من خير وشرّ ونفع وضرّ، وأنّ اجتهاد الخلق جميعا على خلاف المقدور غير مفيد ألبتّة، علم حينئذ أنّ الله تعالى وحده هو الضّار النّافع المعطى المانع، فأوجب ذلك للعبد توحيد ربّه سبحانه وإفراده بالطّاعة والخضوع والاستكانة والخشوع.

ولا يتأكّد ذلك من المسلم إلاّ بالإيمان المطلق بقضاء الله تعالى وما قدّره له لقوله ﷺ من حديث زيد بن ثابت «لَوْ أَنَّ اللّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاواته وأَهْلَ أَرضه لَعذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالمٍ لَهُمْ، ولَوْ رَحمَهُمْ لَكانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْراً لَهُمْ مِنْ أَعْمَالهم، ولَوْ كَانَ لَكَ جَبَلُ أُحُد ذَهَباً ـ أَوْ مثْلُ جَبَلِ أُحُد ذَهَباً ـ تُنْفقُهُ في سَبيلِ اللّهِ مَا قَبلَهُ منْكَ حَتَّى تُؤْمنَ بالْقَدَر كُلّه، فَتَعلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ ليُخْطئَكَ، ومَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ ليُصيبَكَ، وأَنَّكَ إنْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا دَخَلْتَ النَّارَ[٢]».

(٤) التوكُّل على الله تعالى

التوكُّل من أقوى الأسباب التى يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظُلمهم وعُدوانهم، فمن يتوكّل على الله فهو حسبه أى كافيه، ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوّه ولا يضرّه إلاّ أذى لابدّ منه كالحرّ والبرد والجوع والعطش، وأمّا أن يضرّه بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبدا.

وفرق بين الأذى الذى هو فى الظاهر إيذاء له وهو فى الحقيقة إحسان إليه وإضرار بنفسه، وبين الضّرر الذى يتشفّى به منه، ولذلك قال بعض السّلف [إنّ الله جعل لكلّ عمل جزاء من جنسه، وجعل جزاء التوكُّل عليه نفس كفايته لعبده]. فقال سبحانه ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]. ولم يقل: نُؤته كذا وكذا من الأجر كما قال فى الأعمال، بل جعل نفسه سُبحانه كافى عبده المتوكّل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكّل

---

(١) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٢٥١٦].

(٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٤٦٩٩] وأحمد [٢٢٦٠٤] وابن ماجه [٦٢].

العبد على الله حقّ توكّله وكادته السّموات والأرض ومن فيهنّ لجعل له ربّه مخرجا من ذلك وكفاه ونصره.

ولا يصدّق بهذا إلاّ النّفوس المطمئنة الوادعة اللّينة التي رضيت بوكالة الله لها، وعلمت أنّ نصره لها خير من انتصارها هي لنفسها، فوثقت بالله تعالى وسكنت إليه واطمأنّت به، وعلمت أنّ ضمانه حقّ ووعده حقّ، وأنّه لا أوفى بعهده من الله ولا أصدق منه قيلا، فعلمت أنّ نصره لها أقوى وأثبت وأدوم وأعظم فائدة من نصرها هي لنفسها أو نصر مخلوق لها مثلها.

(٥) التّوبة إلى الله من الذنوب

إنّ تجريد التوبة إلى الله تعالى من الذّنوب التي سلّطت عليه أعداءه من أهم الموانع التي تحول دون حسد الحاسدين وعداء الكارهين وحقد الحاقدين ودليل ذلك قوله تعالى ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشّورى: ٣٠]. وقال لخير الخلق وهم أصحاب نبيّه ﷺ ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. فما سُلّط على العبد من يؤذيه إلاّ بذنب يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها، وما ينساه ممّا عمله أضعاف ما يذكره.

وجاء في الدّعاء المشهور «اللّهُمَّ إنّي أعُوذُ بكَ أنْ أُشْرِكَ بكَ وأَنا أعْلَمُ، وأَسْتَغفِرُكَ لمَا لاَ أعْلَمُ». فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه ممّا لا يعلمه أضعاف أضعاف ما يعلمه، فما سُلّط عليه مؤذٍ إلاّ بذنب، فإذا عُوفي العبد من الذُّنوب عُوفي من مُوجباتها، فليس للعبد إذا بُغي عليه وتسلّط عليه خصومه شيء أنفع له من التّوبة النّصوح إلى الله تعالى واللُّجوء إليه كلّ وقت وحين.

(٦) كثرة الصّدقة والإحسان

للصّدقة تأثير عجيب في دفع البلاء وردّ العين وشرّ الحاسد، فلا يكاد الحسد يتسلّط على مُحسن مُتصدّق، وإن أصابه شيء من ذلك كان معاملا فيه باللّطف والمعونة والتّأييد، وكانت له فيه العاقبة الحميدة ودليل ذلك قوله ﷺ «وآمُرُكُم بالصَّدَقَة، فَإنَّ مَثَلَ ذَلكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسرَهُ الْعَدُوُّ فَأَوْثَقُوا يَدَهُ إلَي عُنُقه وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ فَقَالَ أَنَا أَفْتَدي منْكُمْ بِالْقَلِيلِ وَالْكَثيرِ فَفَدَى نَفْسَهُ مِنْهُمْ[١]».

وهذا أيضا من المسائل التي بُرهانها وجودها ودليلُها وقوعها، فإنّ الله تعالى يدفع

---

(١) حديث صحيح أخرجه التّرمذي [٢٨٦٣] وأحمد [١٧١٠٤].

بالصّدقة أنواعا من البلاء، وقد روى الترمذى من حديث معاذ «وَالصَّدَقَةُ تُطفيءُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِيءُ الْمَاءُ النَّارَ(١)». أى تُذهبها وتمحو أثرها إذا كانت متعلّقة بحقّ الله تعالى، وإذا كانت من حقوق العباد فتدفع تلك الحسنة إلى خصمه عوضًا عن مظلمته.

* وجاء عند مسلم «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيه إِلاَّ مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا(٢)».

* وقوله ﷺ عن حكيم بن حزام «إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِطِيبِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيه، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيه، وَكَانَ كَالَّذِى يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى(٣)». وقال فى رواية أخرى «وَالْيَدُ الْعُلْيَا الْمُنْفِقَةُ، وَالسُّفْلَى السَّائِلَةُ(٤)».

والمتصدّق فى خفارة إحسانه وصدقته عليه من الله جُنّة واقية وحصن حصين، فشكر الله تعالى على نعمه حارس من كلّ ما يكون سببا لزوالها، ومن أقوى الأسباب حسد الحاسد، فإنّه لا يفتر ولا يني ولا يبرد قلبه حتّى تزول النّعمة عن المحسود، فما حرس العبد نعمة الله عليه بمثل شكرها، ولا عرّضها للزّوال بمثل العمل فيها بمعاصى الله تعالى، وهذا من كُفران النّعمة الذى يقود إلى كُفران المُنعم.

(٧) الإحسان إلى الحاسد

وهذا الأمر من أصعب الأسباب على النّفس وأشقّها عليها، ولا يُوفّق له إلاّ من عظم حظّه من الله تعالى، وهو إطفاء نار الحاسد بالإحسان إليه، فكلّما ازداد أذى وشرّا وبغيا وحسدا، ازددت إليه إحسانا وله نصيحة وعليه شفقة كما جاء قول الله تعالى فى ذلك ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[فصّلت: ٣٤]. أى ادفع بحلمك جهل من يجهل عليك، وأحسن عشرة من أساء إليك، واحتمل أذى من أراد النّيل منك.

(قال) ابن عبّاس: [أمره الله تعالى فى هذه الآية بالصّبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعل النّاس ذلك عُصموا من الشّيطان وخضع لهم عدوّهم]. والمعنى ذاته يتضمّنه قوله تعالى ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٤]. والدّرء هو الدّفع، أى يدفعون الأذى بالاحتمال والصّبر والكلام الحسن

(١) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٢٦١٦] وأحمد [٢١٩١٥].
(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٠١٠] وافقه البخارى [١٤٤٢].
(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٠٣٥] وافقه البخارى [١٤٧٢] والتّرمذى [٢٤٦٣].
(٤) من حديث صحيح أخرجه مسلم [١٠٣٣] وافقه البخارى [١٤٢٩].

ومنه قوله ﷺ لمعاذ بن جبل «اتّقِ اللهَ حيثما كُنْتَ، وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تمحُها، وخالقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حسَنٍ(١)».

وفيه يبيّن رسول الله ﷺ للصّحابى الجليل أنّ تقوى الله عزّ وجلّ هى العُروة الوُثقى التى يرتقى بها المرء إلى أعلى مراتب اليقين، وأنّها ينبغى أن تكون ملازمة له فى النّعماء والبلاء، والسّراء والضّراء، ولمّا وعظ رسول الله ﷺ النّاس قال «أُوصيكُمْ بتقْوى الله والسَّمْعِ والطَّاعَة». وفى التّرمذى عن أنس عن النّبى ﷺ فى قوله تعالى ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦]. قال الله تعالى «أنا أهْلٌ أنْ أُتّقى، فمنِ اتّقانى فلَمْ يجْعل معى إلهًا فأنا أهْلٌ أنْ أغْفر له(٢)».

فهو سبحانه أهل لأن يُخشى ويُهاب ويُجلّ ويُعظّم فى صدور عباده حتّى يعبدونه ويُطيعونه لما يستحقه من الإجلال والإكرام وصفات الكبرياء والعزّ والعظمة وقوّة البطش وشدّة البأس، ولمّا كانت وصية نبيّنا ﷺ لمعاذ بتقوى الله تعالى سرًّا وعلانية أرشده ﷺ إلى ما يعينه على ذلك بأمرين:

(الأول) أمرَه أن يُتبع السّيئة إذا ما اقترفها بالحسنة ولا يكون ذلك إلاّ بالرّجوع والإنابة، والتّوبة والطّاعة، فإنّ الحسَنة تدفع السّيئة وترفعها ويمحو الله بها آثارها من القلب، ذلك لأنّ المرض لا يُعالج إلاّ بضدّه، فالحسنات يُذهبن السّيئات، وقد قال فى التّنزيل ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]. ومنه قوله ﷺ «ألاَ أدُلّكُمْ على ما يمحُو اللهُ به الخطَايا ويرفَعُ به الدّرجات؟ قالُوا بلَى؛ قال: إسْباغُ الوُضُوءِ على المكارِهِ، وكثْرَةُ الخُطَا إلى المساجِدِ، وانتظارُ الصّلاةِ بعْدَ الصّلاةِ(٣)».

(الثّانى) أمرَه أن يُخالق النّاس بخُلُق حسَن بقوله «وخالقِ النّاسَ بخُلُقٍ حسَنٍ». وما أُعطى المسلم أفضل من الخُلق الحسَن من نحو طلاقة الوجه، ورحابة الصّدر، وخفض الجانب، والتّلطُّف، والإيناس، وبذل النّدى، وتحمّل الأذى، ودفع المكروه، والصّبر على البلاء، وحسن المعاملة، ولطف المعاشرة، وطيب الكلام، وصدق القول، وحفظ الودّ، وصفاء العهد، وصدق اللّسان، ونصرة الحقّ، والنّفور من الباطل، والإعراض عن الجاهلين.

ولمّا كان الحاسد قد افتقد مقوّمات الإيمان فى قلبه فإنّ الشّرع قد جوّز إعطاء من يخاف على إيمانه لقوله ﷺ «إنّ صدَقَةَ السِّرِّ تُطفِئُ غضَبَ الرَّبِّ، وإنّ صنَائعَ المعْرُوفِ تقِى مصَارِعَ السُّوءِ(٤)».

(١) حديث حسن لغيره أخرجه التّرمذى [١٩٨٧] وأحمد [٢١٢٥١]. (٢) حديث حسن لغيره أخرجه الترمذى [٣٣٢٨]. (٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٥١]. (٤) حديث صحيح أورده فى الإرواء [٨٨٥].

كما يأتي ذلك قياسا على مارواه سعد بن أبي وقّاص عندما شفع لبعضهم عند النّبي ﷺ في العطاء فقال له تذكيرا «مَالَكَ عَنْ فُلاَن ؟ فوالله ! إنِّي لأَرَاهُ مُؤْمِنًا ، أَوْ مُسْلِمًا ؟ فَقَالَ ﷺ إنِّي لأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ خَشْيَةً أَنْ يُكَبَّ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ(١)» .

ومعناه أنّي أُعطي ناسا مؤلّفة في إيمانهم ضعف ، لو لم أعطهم كفروا فيكبّهم الله تعالى في النّار ، ورغم هذا فقد نبّه رسول الله ﷺ إلى أنّ أخذ المال لا يكون بالتّطلّع إليه والحرص عليه والطّمع فيه بقوله ﷺ «وَمَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلاَ سَائِلٍ ، فَخُذْهُ ، وَمَا لاَ فَلاَ تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ(٢)» .

(رابعا)

عين الإنس والجان والرّقية منهما

ويتضمّن:

الإصابة بالعين حقيقة قائمة في حياة النّاس

العين هي نظر باستحسان مشوب بحسد من خبيث الطّبع يحصل للمنظور منه ضرر وهو الأمر الذى عصم الله تعالى منه نبيّه ﷺ عندما أراد القوم من قريش أن يصيبوه بأعينهم في مقتل عداوة منهم وحقدا فقال ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾[القلم : ٥١] .

ومعنى قوله « لَيُزْلِقُونَكَ » : أى [يَعِينُونَكَ بأبصارهم] ليزيلونك عن مقامك الذى أقامك الله فيه ، يقال : أَزْلَقَهُ إذا عَانَهُ ولَفَعَهُ بعينه ، وفى القاموس : زَلَقَ وأَزْلَقَ فلانا ببصره زَلْقًا : نظر إليه نظر المتسخّط حتّى كاد يزيله من موضعه [(٣)] . [أو] أَحَدَّ النَّظَرَ إليه حتّى كاد يَصْرَعُهُ ، وفى معنى الآية وجوه [(٤)] :

(أحدها) أنّهم من شدّة تحديقهم ونظرهم إليك شَذَرًا بعيون العداوة والبغضاء يكادون يزلّون قدمك ، من قولهم [نَظَرَ إِلَيَّ نظرًا يَكَادُ يَصْرَعُنِي] أى لو أمكنه بنظره «الصَّرْعَ» لفعَله .

(والثّاني) تأكيد الآية على أنّ الإصابة بالعين حقيقة قائمة في الشّرع ؛ لأنّه لا يمتنع اختلاف النّفوس في جواهرها وماهيّاتها ، كما لا يمتنع أيضا اختلافها في لوازمها وآثارها ، فلا يُستبعد أن يكون لبعض النّفوس خاصيّة في هذا التّأثير كما في قوله ﷺ «الْعَيْنُ حَقٌّ وَنَهَى

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٥٠] .

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٠٤٥] وافقه البخاري [٧١٦٣] .

(٣) انظر المعجم الوجيز [ص٢٩٠] .

(٤) انظر تفسير الفخر الرّازي [ج ٣ ص ١٠٠ - بتصرّف] .

عَنِ الْوَشْمِ(١)». وجاء عند مسلم بلفظ «الْعَيـنُ حَقٌّ(٢)». أي أنّ الإصابة بالعين شيء ثابت موجود، أو هو من جملة ما تحقّق كونه.

وإذا كان قد قيل إنّ الإصابة بالعين تنشأ عن استحسان الشّيء وما كان القوم ينظرون إلى رسول الله ﷺ على هذا الوجه، بل كانوا يمقتونه ويبغضونه والنّظر على هذا الوجه لا يقتضي الإصابة بالعين، إلاّ أنّهم كانوا يستحسنون فصاحته، ويعجبون بقوّة حُجَّته وجميل بيانه وإيراده للدّلائل القويّة والبراهين الصّادقة، حتّى أنزل الله عليه قوله تعالى ﴿لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾. وهو تعبير يترجم ما تحمله هذه النّظرات من غيظ وحَنَق، وما تختزنه نفوسهم من نقمة وضَغَن، ويدلّل كذلك على ما ينبعث من قلوبهم وعيونهم من حقد ذميم وغيظ محموم.

وفي الآية دليل على أنّ العين وتأثيرها على المعين حقّ بأمر الله تعالى وأنّها تستنزل الفارس عن فرسه لقوله ﷺ من حديث ابن عبّاس «الْعَيْنُ حَقٌّ وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ(٣)». أي لو أمكن أن يسبق شيء القدَر في إفناء شيء وزواله قبل أوانه المقدّر له لسبقته العين لكنّها لا تسبق القدَر. (قال) الحافظ [جرى الحديث مجرى المبالغة في إثبات العين لا أنّه يمكن أن يردّ القدَرَ شَيءٌ].

كما يشير رسول الله ﷺ إلى أنّ العين تصيب الرّجل فتؤثّر فيه حتّى إنّه ليصعد الجبل فيسقط من أعلاه من أثر العين لقوله من حديث أبي ذرّ رضي الله عنه «إنَّ الْعَيْنَ لَتُولَعُ الرَّجُلَ بِإِذْنِ اللهِ تعالَى حَتَّى يَصْعَدَ حَالِقًا ثُمَّ يَتَرَدَّى مِنْهُ(٤)». وقوله «لَتُولَعُ»: من الْوَلَع بالشّيء وهو شدَّةُ التّعلّق به.

ويأتي المعنى ذاته في قوله ﷺ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما «الْعَيْنُ حَقٌّ تَسْتَنْزِلُ الْحَالِقَ(٥)». و«الْحَالِقُ» المكان المرتفع المنيف، ويروى أبو سَلَمَةَ عن عائشة قال «كَانَ إِذَا اشْتَكَى رَسُولُ اللهِ ﷺ رَقَاهُ جِبْرِيلُ قَالَ بِاسْمِ اللهِ يُبْرِيكَ، وَمِنْ كُلِّ دَاءٍ يَشْفِيكَ، وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ، وَشَرِّ كُلِّ ذِي عَيْنٍ(٦)». وكأنّ رُقية جبريل للنّبي ﷺ من شرّ كلّ ذي عين حاسد هي «لَفْظٌ ربّانيٌّ» قد جاء «باختيار» السّماء.

والحديث عن «العين» يتضمّن الإشارة تفصيلا إلى المسائل التّالية:

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري [٥٩٤٤].
(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢١٨٧].
(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢١٨٨].
(٤) حديث صحيح أخرجه أحمد [٢١٣٦٣] وصحيح الجامع [١٦٨١].
(٥) حديث صحيح أخرجه أحمد [٢٤٧٨].
(٦) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢١٨٥].

(أ) نظـرة الجـنّ

والعين عينان عين جنيّة وأُخرى إنسيّة، وقد جمع بينهما ما وقع عند أحمد من حديث أبى هريرة رفعه «الْعَيْنُ حَقٌّ وَيَحْضُرُهَا الشَّيْطَانُ وَحَسَدُ ابْنِ آدَمَ[(١)]». وكأنّ عين العائن قد جمعت بين الحسدين فى وقت واحد كلاهما يمدّ الآخر بحنقه وحسده، وليس أخطر من الجمع بين حقد الشّيطان وحسد الإنسان فى معيّة واحدة تُهلك بظُلمها الحرث والنّسل.

ذلك لأنّ من الجنّ من هو [أَقْوَى حَسَدًا] للإنسان من بنى جنسه، ودليل ذلك حديث أمّ سلمة عند البخارى «أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ رَأَى فِى بَيْتِهَا جَارِيَةً فِى وَجْهِهَا سَفْعَةٌ فَقَالَ اسْتَرْقُوا لَهَا فَإِنَّ بِهَا النَّظْرَةَ[(٢)]». وجاء عند مسلم بلفظ «رَأَى بِوَجْهِهَا سَفْعَةً فَقَالَ بِهَا نَظْرَةٌ فَاسْتَرْقُوا لَهَا[(٣)]». يَعْنِى بِوَجْهِهَا صُفْرَةً.

واختلف العلماء فى المراد «بِالنَّظْرَةِ» على قولين:

(الأوّل) أنها «عَيْنٌ» من نظر الجنّ أو هى «أُخْذَةٌ» من الشّيطان.

(الثّانى) أنّها «نَظْرَةٌ» من الإنس وبه جزم أبو عبيد الهَرَوى.

والأَوْلَى أنّ المسألة أعمّ من ذلك وأنّها أصيبت بالعين، فلذلك أذن النّبى ﷺ فى الاسترقاء لها وهو دالّ على مشروعية الرُّقية من العين. (قال) أبوعبيد [قوله «سَفْعَةً» يعنى أنّ الشّيطان أصابها[(٤)]. [أو] بها عين أصابتها من نظر الجنّ أنفذ من أسنّة الرّماح وهو قول الفرّاء [(٥)]. و«السَّفْعُ» فى اللُّغة سَوادُ الْخَدَّيْنِ من المرأة الشّاحبة ومنه [سَفْعَاءُ الْخَدَّيْنِ] وتُطلق «السَّفْعَةُ» على العلامة، من قولهم «بِوَجْهِهَا سَفْعَةُ غَضَبٍ» وهو راجع إلى تغيُّر اللّون أو هو لون يُخالف لون الوجه [(٦)].

وهذا يتوافق مع ما أورده أبو عبيد من حديث ابن المبارك عن عبد الله بن مسعود «أَنَّ رَجُلاً أَتَاهُ فَقَالَ عَبْدُ اللهِ حِينَ رَآهُ: إِنَّ بِهَذَا سَفْعَةً مِنَ الشَّيْطَانِ. فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: أَلَمْ أَسْمَعْ مَا قُلْتَ؟ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ: نَاشَدْتُكَ بِاللهِ هَلْ تَرَى أَحَدًا هُوَ خَيْرًا مِنْكَ؟ قَالَ لاَ، قَالَ عَبْدُ اللهِ: فَلِهَذَا قُلْتُ مَا قُلْتُ[(٧)]». فالذى أراد ابن مسعود أنّ الشّيطان قد

(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٩٦٣١] وصحّحه البيهقى [٥ / ١٠٧].
(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٧٣٩] ومسلم [٢١٩٦].
(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢١٩٧].
(٤) انظر غريب الحديث [ج ٣ ص ٣٧].
(٥) انظر شرح السّنّة [ج ١٣ ص ١٦٣].
(٦) انظر فتح البارى [ج ١٠ ص ٢١٢].
(٧) انظر غريب الحديث لأبى عبيد [٧٨٤].

استحوذ على هذا الرّجل وأخذ بناصيته، فهو يذهبُ به في الْعُجْبِ كُلَّ مَذْهَبٍ حتّى لا يَرى أَنّ أَحَدًا خَيرٌ مِنْهُ [(١)].

ويتأيّد هذا بحديث أبي سعيد «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَعوَّذُ من عَيْنِ الْجَانِّ وَمِنْ عَيْنِ الإِنْسَانِ، فَلَمَّا نزلَتِ الْمُعوِّذَتَان أَخَذَهُمَا وَتَرَكَ مَا سِوَى ذَلِكَ(٢)». وفيه دليل على أنّ العين الحاسدة تقع من الجنّ كما تقع من الإنس.

(٢) عين الإنس وكيف تؤثر في المَعين

أمّا عين الإنس فإنّ تأثيرها بالغ في النّفوس عندما يقع ضررها بعادة أجراها الله تعالى في نظر العائن عند مشاهدته للمَعين وإعجابه به، إلاّ أنّ الخلاف قائم بين العلماء حول كيفيّة تأثير العين على أقوال منها:

(١) أنّ النّفس الحاسدة إذا تكيّفت بكيفيّة خبيثة وقابلت المحسود فإنّها تُؤثّر فيه بتلك الخاصّية، وأشبه الأشياء بهذا السُّمّ الكامن في الأفعى بالقوّة، فإذا قابلت عدوّها انبعثت منها قوّة غضبيّة مُؤذية تؤثّر في إسقاط الجنين، ومنها ما يُؤثّر في طمس البصر كما قال رسول الله ﷺ في الأبتر وذي الطّفيتين من الحيّات «فَإِنَّهُمَا يَسْتَسْقِطَانِ الْحَبَلَ وَيَلْتَمِسَانِ الْبَصَرَ(٣)». وقد نُقل عن بعض من كان معيانا أنّه قال [كُنْتُ إِذَا رَأَيْتُ شَيْئًا يُعْجِبُنِي وَجَدْتُ حَرَارَةً تَخْرُجُ مِنْ عَيْنِي(٤)].

(٢) أنّ من العين ما يُؤثّر في البدن بمجرّد الرّؤية من غير اتصال به لشدّة خُبث تلك النّفس وهيئتها الخبيثة، والحاصل أنّ التّأثير بإرادة الله تعالى وخلقه يكون تارة بالمقابلة وتارة بمجرّد الرّؤية، وتارة بالتّوهّم والتّخيُّل، كما أنّ نفس العائن لا يتوقّف تأثيرها على الرُّؤية، بل قد يكون أعمى فيوصف له الشّيء فتُؤثّر نفسه فيه وإن لم يره، وكثير من العائنين يُؤثر في المعين بالوصف من غير رُؤية [(٥)].

والحقّ أنّ الله تعالى يخلق عند نظر العائن إلى المعين وإعجابه به إذا شاء ما شاء من ألم أو هَلَكة، وقد يصرفه قبل وقوعه إمّا بالاستعاذة أو بغيرها، وقد يصرفه بعد وقوعه بالرُّقية أو بالاغتسال أن بغير ذلك [(٦)].

---

(١) انظر غريب الحديث [ج ٥ ص ١٢٤].

(٢) حديث صحيح أخرجه التّرمذي [٢٠٥٨].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخاري [٣٣١٠] ومسلم [٢٢٣٣] وأبو داود [٥٢٥٢].

(٤) انظر فتح الباري [ج ١٠ ص ٢١٠].

(٥) انظر زاد المعاد [ج ٤ ص ١٦٦ بتصرّف].

(٦) انظر فتح الباري [ج ١٠ ص ٢١١].

ومهما اختلفت الأقوال فى ذلك فإنّ ضرر العين وخطورتها قائم على إعجاب العائن بالشّىء ثمّ تتبعه كَيْفِيَّةُ نفسه الخبيثة، ثمّ تستعين على إنفاذ سُمِّهَا بنظرة تتحوّل إلى سهم مسموم يُصيب المَعين مرّة ويُخطئه أُخرى، فإن صادفه مكشوفا لا حرز له من ذكر الله تعالى ولا وقاية له من استعاذة أثّر فيه ولابدّ.

(٣) الفرق بين العين والحسد

من الأئمّة الكرام من فرّق بين العين والحسد كابن الجوزى وابن القيّم وابن حَجَر العسْقلانى والنّووى وغيرهم وبنوا ذلك على ما يلى:

(١) الحاسد أعمّ من العائن، فالعائن حاسد خاصّ، فكلّ عائن حاسد وليس كلّ حاسد عائنا، ولذلك جاء ذكر الاستعاذة فى سُورة الفلق من الحاسد، فإذا استعاذ المسلم من شرّ الحاسد دخل فيه العائن.

(٢) الحسد يتأتّى عن الحقد والبُغض وتمنّى زوال النّعمة، أمّا العين فيكون سببُها الإعجاب والاستعظام والاستحسان.

(٣) الحسد والعين يشتركان فى الأثر حيث يُسبّبان ضررا للمَعين والمحسود، ويختلفان فى المصدر، فمصدر الحسد تحرّق القلب واستكثار النّعمة على المحسود وتمنّى زوالها عنه، أمّا العائن فمصدره انقداح نظرة العين، لذا فقد يصيب من لا يحسده من جماد أو حيوان أو زرع أو مال، وربّما أصابت عينُه نفسَه، فرُؤيته للشّىء رُؤية تعجُّب وتطلّع وتحديق مع تكيّف نفسه بتلك الكيفيّة تُؤثر فى المعين، والحاسد يمكن أن يحسد فى الأمر المتوقَّع قبل وقوعه، بينما العائن لا يعين إلاّ الموجود بالفعل.

(٥) لا يحسد الإنسان نفسه ولا ماله ولكنّه قد يعينهما عينا.

(٦) لا يقع الحسد إلاّ من نفس خبيثة حاقدة، ولكنّ العين قد تقع من رجل صالح من جهة إعجابه بالشّىء دون إرادة منه إلى زواله، كما حدث من عامر بن ربيعة عندما أصاب سهل ابن حُنيف بعين، رغم أنّ عامر رضى الله عنه من السّابقين إلى الإسلام بل ومن أهل بدر الأعزّة الكرام [(١)].

[فإذا حَسَدَ الحاسد ووجّه انفعالا نفسيًّا مُعيّنًا إلى المحسود فلا سبيل لنفى أثَر هذا التّوجيه لمجرّد أنّ ما لدينا من العلم وأدوات الاختبار لا تصل إلى سرّ هذا الأثر وكيفيّته، فنحن لا ندرى إلاّ القليل من هذا الميدان، ثمّ يستقرّ حقيقة واقعة بعد ذلك، فهذا شرٌّ يُستعاذ منه بالله ويُستجار منه بحماه(٢)].

---

(١) انظر بدائع الفوائد [ج ٢ص ٢٣٢]. (٢) انظر تاريخ التّاريخ لابن عقيل الظّاهرى [ص ٨٩].

(٤) دفع شرّ العين وغيرها بالرّقيــة

في حديث عائشة زوج النّبي ﷺ «كَانَ إِذَا اشْتَكَى رَسُولُ اللهِ ﷺ رَقَاهُ جبْرِيلُ». دليل على استحباب الرُّقية بأسماء الله تعالى وبالعُوذ الصّحيحة المعنى، وأنّ ذلك لا يناقض التّوكُّل على الله تعالى ولا يُنقصه، إذ لو كان شيءٌ من ذلك لكان النّبي ﷺ أحقَّ النّاس بأن يجتنبَ ذلك، فإنّ الله تعالى لم يزل يُرَقّي نبيّه ﷺ في المقامات الشّريفة والدّرجات الرّفيعة إلى أن قبضه الله على أرفع مقام وأعلى حال، وقد رُقي في أمراضه حتّى في مرض موته ﷺ عندما رقته عائشة رضي الله عنها في مرض موته ومسحته بيدها وبيده وهو مُقرٌّ لذلك غير منكر لشيء ممّا هنالك.

والرّقية لغة اسم من الرُّقى، يقال رَقَاهُ يَرقِيه رُقْيَةً: بمعنى الْعَوْذَة والتَّعْوِيذَةُ، وهي ألفاظ خاصّة يحدث عند قولها الشّفاء من المرض إذا كانت من الأدعية المأثورة التي يُتعوَّذُ بها من الآفات والحُمَّى وغير ذلك لأنّه يُعاذُ بها، من [أعاذَهُ باللهِ وَعَوَّذَهُ به]: حَصَّنَهُ به وبأسمائه تعالى.

والرّقية الْعُوذَةُ التي يُرْقَى بها المريض من رَقَى الْمَرِيضَ يَرْقِيه رَقْيًا: عَوَّذَهُ بالله تعالى ونفث في عوذته، ورجل رَقَّاء: صاحب رُقًى، واسترقاه: طلب منه أن يرقيه، ومنه قول الله تعالى ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ [القيامة: ٢٧]. أى من يرقيه تنبيها على أنّه لا راقي يرقيه فيحميه [(١)]. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: هو من الرّقية، وروى عن ميمون في تفسيرها أى هل من طبيب يشفيه؟ [(٢)].

والرُّقى الشّرعيّة الثّابتة هي القراءة القرانيّة المُجملة بعُموم نصوص القرآن أو المفصّلة بالآيات والسُّوَر الوارد فضلُها في السُّنّة المشرَّفة وآثار السّلف الصّالح، كما أنّ المنهج الواضح والصّريح للرُّقية الشّرعيّة هو التّوجُّه إلى مُسبِّب الأسباب سبحانه بصدق ونيّة، والدّعاء أن يزيل السّبب أيا كان هذا السّبب، وليس مطلوبا من الرّاقي أن يُشخِّص ويتعرَّف ويؤوِّلَ، فآيات الرُّقية معروفة مأثورة والأهمّ في ذلك صدق التّوجُّه والدُّعاء والرّجاء والرّضى بما قضاه الله تعالى، فما أصابك لم يكن ليُخطئك وما أخطأك لم يكن ليُصيبَك.

وإنّما جُعلت الرّقية بالقرآن والمأثور من السُّنّة وسيلة للتّقرُّب إلى الله مسبّب الأسباب، ولأنّها كذلك فهي من الدّعاء الذي لابدّ وأن يلتزم الرّاقي فيها عند توجُّهه بشروط الدّاعي ومنها التّيقُّن بالإجابة وطيب المأكل والمشرب واختيار أوقات

(١) انظر الإفصاح في فقه اللّغة [ج ١ ص ٥٤٩].

(٢) انظر تفسير القرطبي [ج ١٩ ص ١١١].

الإجابة والتى منها الثّلث الأخير من اللّيل وفى السُّجود وبين الأذانين وغيرها ممّا هو معروف ومتداول فى كتب الأذكار.

والرُّقى على ثلاثة أقسام:

(أحدها) ما كان يُرقى به في الجاهلية ممّا لا يُعقل معناه، فيجب اجتنابه لئلاّ يكون فيه شرك، أو يُؤدّى إلى الشّرك لحديث عوف بن مالك الأشجعي قال «كُنّا نَرْقِى فِى الْجَاهِلِيَّة فَقُلْنَا يَارَسُولَ اللهِ كَيْفَ تَرَى فِى ذَلِكَ؟ فَقَالَ اعْرِضُوا عَلَىَّ رُقَاكُمْ، لاَ بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ(١)».

(والثّانى) ما كان بكلام الله أو بأسمائه فيجوز، فإن كان مأثورا فيستحبّ ومنه ما فى حديث أبى سعيد «أنَّ جبْريلَ أَتى النَّبىَّ ﷺ فَقَالَ: يا مُحمَّدُ اشْتَكَيْتَ؟ فَقَال نَعَم، قَالَ باسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ اللهُ يَشْفِيكَ، بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ(٢)».

(والثّالث) ما كان بأسماء غير الله من مَلَك أو صالح أو مُعَظَّم من المخلوقات، فهذا ليس من الواجب اجتنابه، ولا من المشروع الذى يتضمّن الالتجاء إلى الله تعالى، والتّبرُّك بأسمائه، فيكون تركه أوْلَى إلاّ أن يتضمّن تعظيم المرقى به فينبغى أن يُجتنب كالحلف بغير الله تعالى [(٣)].

(قال) القَرافىُّ: [الرُّقية ما يُطلب به النّفع، أمّا ما يُطلب به الضّرر فلا يُسمّى رُقية بل هو سحر، والرّقية قد تكون بقراءة شىء من القرآن والمعوّذات والأدعية المأثورة، وعرّفها بعض الفقهاء بأنّها ما يُرقى به من الدّعاء بطلب الشّفاء، فالرُّقية أخصّ من التّعويذ، لأنّ التّعويذ يشمل الرّقية وغيرها، فكلّ رُقية تعويذ ولا عكس، ولا يخرج اصطلاح الفقهاء للرُّقية عن المعنى اللُّغوى(٤)].

وشموليّةالحديث عن الرُّقية والتّعريف بأحكامها يتطلّب الإشارة إلى عناصرها المؤثّرة فيها وهى:

أولا ـ الراقــى

من المؤثّرات الإيجابيّة فى علاج العين والرُّقْيَة صلاح الرّاقى وورعه وتقواه، لما فى ذلك من أثر فاعل فى نفس المرقى وما يقع بينهما من تجاوب وانفعال، وما يتحدّد بينهما من

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٠٠] وأبو داود [٣٨٨٦].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢١٨٦] والتّرمذى [٣٧٢].

(٣) انظر نيل الأوطار [ج ٨ ص ٢٤١].

(٤) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ٢ ص ١٧٣].

علاقة مباشرة كتلك التى تقوم بين الدّاء والدّواء، فإذا ما خرجت الرُّقية من قلب الرَّاقي وصَاحَبَهَا شيء من النَّفث والتَّفل، كانت أقوى تأثيرا وأكثر نفاذا لما حصل بالمزاوجة بينهما من كيفيَّة مُؤثِّرة فيما يشتكى منه المرقى فتدفعه الرُّقية بأمر الله تعالى وتذهبه:

* فكان النّبي ﷺ إذا اشتكي وَجَعًا نزل عليه جبريل فرَقَاهُ بقوله «باسْم الله أرْقيكَ من كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذيك، من شرِّ كلِّ نفسٍ أو عَين حَاسد الله يَشْفيك، باسْم الله أَرْقيكَ(١)».

* كما كان ﷺ يقرأ على نفسه بالمعوِّذات لحَديث عائشة «أنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ إذَا اشْتَكَى يَقْرأُ عَلَى نَفْسه بالْمُعَوِّذَات ويَنْفُثُ، فَلَمَّا اشْتَدَّ وَجَعُهُ كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَيْه وأَمْسَحُ عَنْهُ بيَده رَجَاء بَرَكَتهَا(٢)».

وكذلك قال معمر عن الزّهرى عن عروة عن عائشة «أنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ يَنفثُ عَلَى نَفْسه في مَرَضه الَّذى قُبضَ فيه بالْمُعَوِّذَات، فَلَمَّا ثَقُلَ كُنْتُ أَنَا أَنْفثُ عَلَيْه بهنَّ، فَأَمْسَحُ بيَد نَفْسه لبَرَكَتهَا، فَسَأَلْتُ ابنَ شهَابٍ: كَيْفَ كَانَ يَنفثُ؟ قَالَ: يَنْفثُ عَلَى يَدَيْه ثُمَّ يَمْسَحُ بهمَا وَجْهَهُ(٣)».

وقوله «بالْمُعَوِّذَات» أى السُّوَر الثَّلاث [الإخلاص والفلق والنّاس]. و «يَنْفُثُ» أى يُخرج الرِّيح من فمه الطَّاهر في يده مع شيء من ريقه ويمسح جسده الشَّريف المقدّس، وعن عائشة رضى الله عنها قالت «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إذَا اشْتَكَى منَّا إنْسَانٌ مَسَحَهُ بيَمينه ثُمَّ قَالَ أَذْهب الْبَاسَ رَبَّ النَّاس وَاشْف أَنْتَ الشَّافي لاَ شفَاءَ إلاَّ شفَاؤُكَ، شفَاءً لاَ يُغَادرُ سَقَمًا(٤)»

ثانيا - المرْقىُّ به

أجمع العلماء على جواز الرُّقْيَة عند توفر ثلاثة شروط:

(أوّلها) أن تكون بكلام الله تعالى أو بأسمائه وصفاته

إذا كان لبعض الأذكار من الخواصّ المميّزة والمنافع المحقّقة فى الرّقية من العين والحسد وغيرهما، فإنّ ذلك يُؤكّد أنّ فى كلام ربّ العالمين والمأثور من أقوال النّبى الكريم ﷺ ما يُحقّق العصمة من كلّ كيد وشرّ، والحفظ من كلّ مكروه، والشّفاء من كلّ مرض، والوقاية من أذى كلّ عين وحسد، وهو الذى نزل به الوحى من السّماء فى قوله تعالى ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[الإسراء: ٨٢].

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢١٨٦].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٤٤٣٩].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٧٥١] ومسلم [٢١٩٢].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٦٧٥] ومسلم [٢١٩١].

وإذا كانت السُّنَّة قد أشارت إلى مشروعيّة الفزع إلى الله تعالى والالتجاء إليه فى كلّ ما وقع وما يُتوقَّع، وبرهنت على وجود الأدوية الإلهيّة التى تنفع من الدّاء بعد حصوله، فإنّ هناك من الأدعية والتّعوّذات والأذكار التى تمنع من وقوع هذه الأسباب أو أن يحول بينها وبين كمال تأثيرها بحسب كمال التّعوّذ وقوّته وضعفه، لذلك اشترط العلماء أن تكون الرُّقى بكلام الله تعالى أو بأسمائه وصفاته.

وفى[الموطأ] أنّ أبا بكر رضي الله عنه قال لليهوديّة التى كانت ترقى عائشة وهى تشتكى «ارْقيهَا بكتَاب الله». وهو يؤكّد أنّ فى الاستشفاء بما شرعه الله تعالى ورسوله ﷺ ما يُغنى عَن الشّركَ وأهله، والمسلمون وإن اختلفوا فى جواز التّداوى بالمحرّمات فلا يتنازعون فى أنّ الشّرك والكُفر لا يجوز التّداوى به لأنّ ذلك مُحَرَّم فى كلّ حال.

حكم تعليق التّمائم والتّحويطة والحجاب

لمّا «أذنَ» رسول الله ﷺ في الرُّقية اشترط أن تكون بالقرآن والأذكار والأدعية ما لم تكن شركا أو كلاما لا يُفهم معناه لما رواه مسلم فى صحيحه عن عوف بن مالك قال «كُنَّا نَرْقِي فِي الْجَاهِليَّة فَقُلْنَا يَارَسُولَ الله كَيْفَ تَرَ ذَلكَ ! فَقَالَ ﷺ «اعرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ؛ لاَ بَأْسَ بِالرُّقَى مَالَمْ يَكُنْ فِيه شِرْكٌ(٢)». ولفظه عند أبى داود «لاَ بَأْسَ بِالرُّقى مَا لَمْ تَكُنْ شِرْكًا».

وقد أجمع العلماء على جواز الرُّقَى إذا كانت على الوجه المذكور مع الاعتقاد أنّها سبب لا تأثير له إلاّ بتقدير الله تعالى، أمّا تعليق شىء فى العنق أو ربطه بأى موضع بالبدن فهو من الشّرك بدليل قوله ﷺ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه «إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ(٣)». (قال) ابن الأثير [جعل ذلك كلّه من الشّرك لاعتقادهم أنّ ذلك يؤثّر ويفعل خلاف ما قدّره الله تعالى.

وقوله «إِنَّ الرُّقَى» ما كان بغير العربية ممّا لا يُدرى ما هو، أو تلك التى يستعملها المعزّمون ممّن يدّعون تسخير الجان فيأتون بأمور مشبّهة مركّبة من حقّ وباطل يُجمع إلى ذكر الله تعالى وأسمائه وما يشُوبه من ذكر الشّياطين ومردتهم، فلذلك كره من الرّقى ما لم يكن بذكر الله وأسمائه خاصّة، وباللّسان العربى الذى يُعرف معناه ليكون بريئا من شوب الشّرك والكفر.

و«التّمائم» جمع تميمة وهى ما كان يسترقون بها فى الجاهليّة ويظنّون بضروب منها

---

(١) رواه مالك فى الموطأ [١٦٩٤] بإسناد صحيح.

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٠٠] وأبو داود [٣٨٨٦].

(٣) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣٨٨٣] وأورده فى الصّحيحة [٣٣١] وابن حبّان [١٤١٢].

أنّها تدفع عنهم الآفات فأبطل الإسلام كلّ ذلك. والتّميمة من «تَمَّ» وهى فى الأصل دليل الكمال، يقال «تمّ الأَمْرُ» إذا كَمُلَ فهو تامٌّ وتَميمٌ، ومن هذا الباب تأتى التّميمة كأنّهم يريدون أنّها تُمثّل لهم تمام الشّفاء والدّواء المطلوب.

والتّميمة لغة خيط أو خَرَزَات كان العرب يُعلّقونها علي أولادهم يمنعون بها من العين فى زعمهم فنهى الإسلام عنها؛ ومعناها عند أهل العلم ما عُلِّق فى الأعناق من القلائد خشية العين أو غيرها وفى الحديث «مَنْ تَعلَّقَ تَميمَةً فَلاَ أَتَمَّ اللهُ لَهُ(١)». وفيه الدّعاء على من اعتقد فى التّمائم وعلّقها علي نفسه بضدّ قصده وهو عدم التّمام لما يقصده من التّعليق، وهى عند الفقهاء «الْعُوذَةُ» التى تُعلّق على المريض والصّبيان وقد يكون فيها القرآن وذكر الله تعالى إذا خَرَزَ عليها جلد؛ فهى عندهم نوع من التّعويذ؛ وعرّفها بعضهم بأنّها ورقة يُكتب فيها شيء من القرآن أو غيره وتُعلّق على الإنسان، والفرق بين التّميمة والرُّقية أنّ:

(الأُولى) تعويذ يُعلّق على المريض ونحوه. و(الثّانية) تعويذ يُقرأُ عليه.

ثمّ يأتى من مسمّيات التّعويذة:

* [النُّشْرَة] وهى خَرَزة تُحبِّب بها المرأة إلي زوجها؛ والتّنشير التّعويذ بالنُّشْرَة، وفى الاصطلاح هى أن يكتب شيئا من أسماء الله تعالى أو من القرآن، ثمّ يغسله بالماء ثمّ يمسح به المريض أو يسقيه، أو يُكتب قرآن وذكر لعسر الولادة أو لمريض يُسقيانه [(٢)]. وليس ثمّة دليل من كتاب أو سُنَّة يبرهن على صحّة ذلك أو قبوله.

* [الْحقَابُ]: وهو خيط يُشَدُّ فى خَصْرِ الصّبى تُدفع به العين.

* [الرَّصْعُ]: وهى خرزة تدفع العين من رَصَّعَ الصَّبِيَّ وشدّها فى يده أو رجله.

* [الْحِجَابُ]: من السّتر لأنّه يمنع المشاهدة وإطلاقه على التّعويذة مجاز سائغ لما فيه من منع الضّرر عن المريض فى زعمهم.

* [التَّحْوِيطَةُ]: وهى خيط مفتول من لونين أسود وأحمر فيه خَرَزَات وهلال من فضَّة تشُدُّه المرأة فى وسطها لئلا تُصيبها العين.(٣)

* أمّا [التِّوَلَةُ] بكسر التّاء وضمّها شبيهة بالسّحر الذى يحبّب المرأة إلي زوجها وقد جاء فى تفسيرها عن ابن مسعود ما أخرجه الحاكم وابن حبّان وصحّحاه «أنّ امرأتَهُ أَصابَها

---

(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١٧٣٣٥].

(٢) انظر الموسوعة الفقهيّة [٢٤ / ٢٦٠].

(٣) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ١ ص ٤٩١].

حُمْرَةٌ في وَجْهِهَا ؛ فَدَخَلَتْ عَلَيْهَا عَجُوزٌ فرقتها في خيط فعلّقته عليها فدخل ابْن مَسْعُودٍ فرآه عَلَيْهَا فَقَالَ ما هَذَا؟ فَقَالَتْ اسْتَرْقَيْتُ من الْحُمْرَةِ ؛ فَمَدَّ يده فقطعها ثُمّ قَالَ إِنَّ آلَ عَبْدِ اللهِ لأَغْنِيَاءُ عَنِ الشِّرْكِ ، قَالَتْ ثُمّ قَالَ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَدَّثَنَا «إنَّ الرّقى وَالتَّمَائِمِ وَالتّوَلَةَ شِرْكٌ ، قَالُوا يا أَبَا عَبْدَ اللهِ هذه التّمائم والرُّقى قَدْ عرفناها فما التّوَلَةُ ؟ قَالَ شَيْءٌ يَصْنَعُهُ النِّسَاءُ يَتَحَبَّبْنَ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ يَعْنِي مِنَ السِّحْرِ (١)». وقيل [هى خيط يُقرأ فيه من السِّحر أو قرطاس يُكتب فيه شيء منه يتحبب به النّساء إلى قلوب الرّجال أو الرّجال إلى قلوب النّساء (٢)].

وترتيبا على ذلك فإنّ الإجماع عند أهل الشّرع قد قام على ما يلى :

أوّلا - إن كان ما يُعلّق من الرّقى مكتوب بآيات القرآن فالصّحيح أنّ ذلك ممنوع لثلاثة أمور :

(١) أنّ عموم الأحاديث قد جاءت بالنّهى عن تعليق التّمائم ولا مخصّص لها .

(٢) سدّ الذّريعة فإنّه يُفضى إلى تعليق ما ليس كذلك .

(٣) أنّ ما يُعلّق من هذه الرُّقى يكون عُرضة للامتهان بحمله حال قضاء الحاجة والاستنجاء والجماع ونحو ذلك .

ثانيا - أنّ كتابة سُوَر أو آيات من القرآن الكريم في لوح أو طبَق أو ورق وغسله بماء أو زعفران أو غيرهما وشُرب تلك الغُسالة رجاء البرَكة أو الاستشفاء ، أو استفادة علم ونحو ذلك فلم يثبُت عن النبى ﷺ أنّه فعله لنفسه أو لغيره ، ولا أنّه أذنَ فيه لأحد من أصحابه أو رخّص فيه لأمّته مع وجود الدّواعى التى تدعو إلى ذلك وأنّ اتّخاذ التّمائم من القرآن الكريم لا يجوز فى أصحّ قولى العلماء .

ثالثا - أن يُستغنى عن ذلك كلّه بما ثبت فى الشّريعة من الرُّقية بالفاتحة والمعوّذات وما صحّ من الأدعية والأذكار النّبويّة ونحوها ممّا يُعرَف معناه والله تعالى أعلم .

ومن الرُّقى والتّعوُّذات التى جاءت فى الهدى المنقول عن نبىّ الإسلام ﷺ :

(ا) الرُّقية بالمعوِّذتين

تستحبّ الرُّقية بقراءة «الْمُعَوِّذَتَيْنِ» لما تضمّنتاه من الاستعاذة من كلّ مكروه جملة وتفصيلا ، فإنّ الاستعاذة من شرّ ما خلق تعمُّ كلّ شرّ يُستعاذ منه سواء كان فى الأجسام أو الأرواح ، ولما لهما من عظيم الشّأن فى الاحتراز والتّحصُّن من الشّرور قبل وقوعها ،

(١) أخرجه الحاكم بإسناد صحيح [٨٤٦١] وافقه الذّهبى على شرط البخارى ومسلم .

(٢) انظر نيل الأوطار [ج ٨ ص ٢٣٩] .

ولهذا أوصى النّبى ﷺ عقبة بن عامر رضي الله عنه بقراءتهما عقب كلّ صلاة، كما أنّ ما جاء في حديث أبي سعيد رضي الله عنه من قوله «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتعوَّذُ مِنَ الْجانِّ وَعَيْنِ الإنْسَانِ حَتَّى نَزَلَت الْمُعَوِّذَتَان، فَلَمَّا نزلَتا أَخَذ بِهِمَا وَتَرَكَ مَا سِواهُمَا[(١)]». لا يدلّ على المنع من التّعوّذ بغير هاتين السّورتين الكريمتين بل يدلّ على الأولوية ولا سيّما مع ثبوت التّعوّذ بغيرهما، وإنّما اجتزأ بهما لما اشتملتا عليه من جوامع الاستعاذة من كلّ مكروه وأذى وشرّ [(٢)].

(٣) أمّ القرآن رُقيةٌ من كلّ شيء

كما قام الدّليل على جواز الرُّقية بالفاتحة لما تشتمل عليه من إخلاص العبوديّة والثّناء على الله تعالى، وتفويض الأمر كلّه إليه، والاستعانة به والتّوكّل عليه، وسؤاله سبحانه جامع النّعم كلّها لحديث أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه قال:

«أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانُوا في سَفَرٍ، فَمَرُّوا بِحَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ فَاسْتَضَافُوهُمْ فَلَمْ يُضَيِّفُوهُمْ، فَقَالُوا لَهُمْ: هَلْ فِيكُمْ رَاقٍ فَإِنَّ سَيِّدَ الْحَيِّ لَدِيغٌ - أَوْ مُصَابٌ - فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ نعمْ. فَأَتَاهُ فَرَقَاهُ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، فَبَرَأَ الرَّجُلُ، فَأُعْطِيَ قَطِيعًا مِنْ غَنَمٍ، فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهُ!. وَقَالَ: حَتَّى أَذْكُرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: يَارَسُولَ اللهِ! وَاللهِ مَا رَقَيْتُ إِلاَّ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ! فَتَبَسَّمَ وَقَالَ: وَمَا أَدْرَاكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟». ثُمَّ قَالَ «خُذُوا مِنْهُمْ وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ مَعَكُمْ». وجاء في رواية «فَجَعَلَ يَقْرَأُ أُمَّ الْقُرْآنِ، وَيَجْمَعُ بُزَاقَهُ، وَيَتْفُلُ، فَبَرَأَ الرَّجُلُ[(٣)]».

وقد قيل إنّ موضع الرّقية منها قول الله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. ولا ريب أنّ هذه الآية من أقوى أجزاء هذا الدّواء لما تضمّنته من عموم التّفويض، والتّوكّل، والالتجاء، والاستعانة، والافتقار، والطّلب، والجمع بين أعلى الغايات وأعظم المقاصد، والمرجّح عند القرطبى أنّ السّورة كلّها موضع الرُّقية لقوله ﷺ «وَمَاأَدْرَاكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟». ولم يقلْ: إنّ فيها رُقيةٌ!.

وقوله ﷺ «وَمَا أَدْرَاكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟». أى: أىُّ شيء أعلمك أنها رُقيةٌ! تعجُّبا من وقوعه على الرُّقى بها، ولذلك تبسّم النّبى ﷺ عند قوله هذه العبارة، وكأنّ هذا الرّجل علم أنّ هذه السّورة قد خُصّت بهذا الأمر لما رواه الدّارقطنى عن أبى سعيد مرفوعا وفيه «فَقَالَ وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟ فَقُلْتُ يَارَسُولَ اللهِ شَيْءٌ أُلْقِيَ فِي رُوْعِي[(٤)]».

---

(١) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٢٠٥٨] والنّسائى [٥٥٠٩].

(٢) انظر فتح البارى [ج ١٠ ص ٢٠٦].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٢٢٧٦] ومسلم [٢٢٠١] وأبوداود [٣٤١٨].

(٤) ذكره القرطبى فى المفهم [٥ / ٥٨٦] وقال رواه الدّارقطنى [٣ / ٦٣].

(٣) الرّقية بالمأثور عن النبى ﷺ

ويلتحق به ما كان بالذّكر والدّعاء المأثور ومنها الرُّقية بما كَانَ النَّبىُّ ﷺ يُعَوِّذُ بها الْحُسَنَ وَالْحُسَيْنِ يَقُولُ «أُعيذُكُمَا بكَلِمَات الله التَّامَّة من كُلِّ شَيْطَان وَهَامَّة، وَمنْ كُلِّ عَيْنٍ لاَمَّة(١)». وَيَقُولُ «هَكَذَا كَانَ إبْرَاهِيمُ يُعَوِّذُ إسْحَاقَ وإسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ». وقوله «هَامَّة»: واحدة الهوامّ ذوات السّموم، وقيل كلّ ما له سُمٌّ يقتل، فأمّا ما لا يقتل سُمُّه فيقال له السّوامّ، وقيل كلّ نسمة تهمّ بسوء، أمّا المراد بقوله «وَمنْ كُلِّ عَيْنٍ لاَمَّة»: كلّ داء وآفة تلُمّ بالإنسان من جنون وخَبَلٍ.

ومنها الرُّقية التى نزل بها جبريل من السّماء فرقَى بها النّبى ﷺ قال «باسْمِ الله يُبْرِيكَ وَمنْ كُلِّ دَاءٍ يَشْفيكَ، وَمنْ شَرِّ حَاسدٍ إذَا حَسَدَ وَشَرِّ كُلِّ ذى عَيْنٍ(٢)». وفيه دليل على جواز الرُّقى لما وقع من الأمراض ولما يتوقّع وقوعه، وعلى أنّ الحسد يؤثّر فى المحسود ضررا يقع به إمّا فى جسمه بمرض، أو فى ماله وما اختصّ به بضرر، وذلك بإذن الله تعالى ومشيئته كما قد أجرى عادته وحقّق إرادته، فربط الأسباب بالمُسبِّبات وأجرى بذلك العادات ثمّ أمرنا فى دفع ذلك بالالتجاء إليه وأحالنا بفضله إلى الاستعانة بالعُوَذ والرُّقى والدّعوات.

ودليل ذلك كلّه ما جاء فى الصّحيح عن عائشة أنّ النّبى ﷺ كان يُعوِّذُ بعض أهله فيمسح بيده اليمنى ويقول «اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ أَذْهِبِ الْبَاسَ وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِى لاَ شِفَاءَ إلاَّ شِفَاؤُكَ شِفَاءً لاَ يُغَادِرُ سَقَمًا(٣)». ومعنى «لاَ يُغَادِرُ سَقَمًا»: أى لا يترك مرضا، وفائدة التّقييد بذلك أنّه قد يحصل الشّفاء من ذلك المرض فيخلفه مرض آخر يتولّد منه فكان يدعو له بالشّفاء المطلق لا بمطلق الشّفاء.

(الشّرط الثّانى) أن تكون باللّسان العربى

وهو يبيّن أنّ جميع الرُّقى جائزة إذا كانت بكتاب الله تعالى أو بذكره أو بالمأثور عن النّبى ﷺ، وينهى عنها إذا كانت بلغة أخرى، أو بما لا يُعرف معناه ولا يُفهم مضمونه، خشية أن يكون مشتملا على كفر ومعصية لقوله ﷺ فى حديث عوف بن مالك «لاَ بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكًا(٤)».

فلذلك كره من الرُّقى ما لم يكن بذكر الله وأسمائه خاصّة، وباللّسان العربى الذى يُعرف

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٣٧١] والتّرمذى [٢٠٦٠].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢١٨٥].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٦٧٥] ومسلم [٢١٩١].

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٠٠].

معناه ليكون بريئا من الشّرك. (قال) المازرى [جميع الرّقى جائزة إذا كانت بكتاب الله تعالى أو بذكره؛ ومنهى عنها كذلك إذا كانت باللّغة الأعجميّة أو بما لا يُدرى معناه لجواز أن يكون فيه كفر(١)].

(الشّرط الثّالث) اليقين فى أنّ الرُّقية لا تؤثّر بذاتها

وهو يقوم على صدق الاعتقاد بأنّ الرُّقية لا تؤثّر بذاتها بل بذات الله تعالى، وأنّ الأشياء كلّها لا تكون إلاّ على حسب ما قدّره سبحانه وسبق به علمه، فلا يقع ضرر العين ولا غيره من الخير والشّر إلاّ بمشيئته تعالى لحديث أسماء بنت عُميس قالت «يَارَسُولَ الله إنّ وَلَدَ جعفر تُسْرِعُ إليهمُ الْعَينُ أَفَأَسْتَرْقِى لَهُمْ؟ فقال ﷺ: نعمْ. فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ(٢)». وجاء عند مسلم بلفظ «الْعَيْنُ حَقٌّ وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ(٣)».

وفيه تأكيد وتنبيه على سُرعة نُفوذ العين وتأثيرها فى الذّات، كما يشير إلى أنّ الذى يصيب من الضّرر بالعادة عند نَظَر «النَّاظر» إنّما هو بقدر الله السَّابق لا بشىء يُحدثه النّاظر فى المنظور.

(قال) فى الفتح: [إنّ الحديث ظاهر فى المغايرة بين الْقَدَرِ وبين العين وإن كان يُعتقد أنّ العين من جملة المقدور، لكنّ ظاهره إثبات العين التى تصيب إمّا بما جعل الله تعالى فيها من ذلك وأودعه فيها، وإمّا بإجراء العادة بحدوث الضّرر عند تحديد النّظر، وإنّما جرى الحديث مجرى المبالغة فى إثبات العين، لا أنّه يُمكن أن يردّ الْقَدَرَ شَىْءٌ إذ القَدر عبارة عن سابق علم الله تعالى وهو لا رَادَّ لأمره(٤)].

وحاصل قوله «لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ»: أنّه لو فُرض أنّ شيئا له قوّة بحيث يسبق القَدَرَ لكانت العين لكنّها لا تسبق لأنّ القَدَرَ أسْبَق؛ وقد أخرج البزّار من حديث جابر بسند حسن عن النّبى ﷺ «أَكْثَرُ مَنْ يَمُوتُ مِنْ أُمّتى بَعْدَ قَضَاءِ الله وَقَدَرِه بالأَنْفُس(٥)». قالَ الرّاوِى: يَعْنِى بالْعَيْنِ، فلا يقع ضرر العين ولا غيره من الخير والشّر إلاّ بقدَر الله تعالى.

ثالثا - المَرْقِىُّ منه

من الأمور التى رخّص رسول الله ﷺ فى الرّقية منها العين والمرض ولسع كلّ ذى

(١) انظر نووى مسلم [ج ٧ ص ٤٢٥].

(٢) أخرجه التّرمذى [٢٠٥٩].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢١٨٨] والتّرمذى [٢٠٦٢].

(٤) انظر فتح البارى [ج ١٠ ص ٢١٤].

(٥) أورده ابن أبى عاصم فى السّنّة [١ / ١٣٦].

سُمٍّ ومنه ما روى عن أنس رضي الله عنه قال «رَخَّصَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الرُّقْيَةِ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحُمَةِ وَالنَّمْلَةِ[1]». وما جاء عن الشفاء بنت عبد الله قالت «دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنَا عِنْدَ حَفْصَةَ فَقَالَ أَلاَ تُعَلِّمِينَ هَذِهِ رُقْيَةَ النَّمْلَةِ كَمَا عَلَّمْتِيهَا الْكِتَابَةَ[2]». وجاء عند ابن ماجه عن بُريدة بلفظ «لاَ رُقْيَةَ إِلاَّ مِنْ عَيْنٍ وَحُمَةٍ[3]».

والْحُمَةُ بالتخفيف السُّمُّ ويُطلق على إبرة العقرب للمجاورة لأنّ السُّمَّ يخرج منها، و«النَّمْلَةُ» قُروح تخرج في الجنب وغيره من الجسد وهو داءٌ معروف، وسُمِّيَ بذلك لأنّ صاحبه يحسّ في مكانه كأنّ نملة تدبّ عليه وتؤذيه.

ويتّصل بحديث أنس رضي الله عنه أمران:

(الأوّل) أنّ معنى الحصر فيه لا رُقية أحقّ وأولى من رُقية العين والحُمة والنّملة لشدّة الضّرر بها، وقيل المراد بالحصر معنى الأفضل.

(الثّانى) أنّ في رُقية العين والحُمَة أصل كلّ محتاج إلى الرّقية فيلحق «بالعين» جواز رقية من به خَبَلٌ أو مَسٌّ لاشتراكها في كونها تنشأ عن أحوال شيطانيّة، ويلتحق «بالسُّمِّ» كلّ ما عرض للبدن من قُروحٍ ونحوه من المواد السُّمِّيَّة، وقد وقع عند أبي داود في حديث أنس مثل حديث عمران رضي الله عنه وزاد «أَوْ دَمٍ يرْقأُ».

ثمّ أجمل رسول الله ﷺ ذلك كلّه بقوله من حديث جابر عند مسلم «مَا أَرَى بَأْسًا مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنفَعَ أَخَاهُ فَلْيَنْفَعْهُ[4]». وقد تمسّك قوم بهذا العموم فأجازوا كلّ رُقية جُرّبت منفعتها ولو لم يُعقل معناها، إلاّ أنّ قوله ﷺ من حديث عوف «لاَ بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ[5]» دلّ على منع ما يُؤدّى من الرُّقى إلى الشّرك.

ولـمّا سُئل رسول الله ﷺ عن الذين يدخلون الجنّة بغير حساب قال «هُمُ الَّذِينَ لاَ يَتَطَيَّرُونَ وَلاَ يَكْتَوُونَ وَلاَ يَسْتَرْقُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ[6]»: وفيه نفى عنهم الاسترقاء وهو سُؤال النّاس أن يرقوهم، لكمال توحيدهم، واعتصامهم بربّهم، ولأنّهم عليه يتوكّلون وإيّاه يسألون، فهُم لكمال توكّلهم على ربّهم وسُكونهم إليه، وثقتهم به، ورضاهم عنه، وإنزال حوائجهم به لا يعرفون الاكتواء ولا يبحثون عن الاسترقاء، والرّاق مُتصدّق مُحسن والمُسترقى سائل والنّبى ﷺ رقى ولم يسترق وقال «مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَنْفَعْهُ».

أمّا عن التّعريف بالرُّقى فإنّنا نفرد له التّفصيل التّالى:

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢١٩٦] والتّرمذى [٢٠٥٦] وابن ماجه [٢٨٥٠]. (٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣٨٨٧] وأحمد [٢٦٩٧٤]. (٣) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٢٨٤٨]. (٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢١٩٩]. (٥) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٠٠] وأبو داود [٣٨٨٦]. (٦) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٧٥٢] ومسلم [٢٢٠] عن ابن عبّاس رضي الله عنهما.

(أ) - الرّقية من العين

خُصَّت «العين» في أكثر الرّوايات «بالرُّقْيَة» لخطورة ضررها على الإنسان وأنّ الإصابة بها قد تقتل، وهو ما جاء وصفه من النّبي ﷺ بقوله لعامر بن ربيعة عند ابن ماجه «عَلامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ، هَلاَّ إِذَا رَأَيْتَ مَا يُعْجِبُكَ بَرَّكْتَ(١)». كما أُطلق مسمّى «النَّفْس» على «الْعَيْنِ الْحَاسِدَةِ». من قولهم [أَصَابَتْ فُلاَنًا نَفْسٌ] أي عَيْنٌ، وهو التّعبير الذى تضمّنه قوله ﷺ من حديث أبى داود «لاَ رُقْيَةَ إِلاَّ فِى نَفْسٍ أَوْ حُمَةٍ أَوْ لَدْغَةٍ(٢)».

كما جاءت استعاذته ﷺ من العين بقوله «مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ». (قال) النّووى [يُحتمل أن يُراد بها «العين». فإنّ «النَّفْسَ» تُطلق على العين ومنه قولهم [رَجُلٌ نَفُوسٌ] إذا كان يُصيب النّاس بعينه(٣)]. ويأتي ذلك من قوله في رواية مسلم «وَشَرِّ كُلِّ ذِى عَيْنٍ(٤)». وفى رواية أبى سعيد «مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ(٥)».

وعن جابر بن عبد الله أنّ رسول الله ﷺ قال لأسماء بنت عُميس «مَا لِى أَرَى أَجْسَامَ بَنِى أَخِى ضَارِعَةً تُصِيبُهُمُ الْحَاجَةُ؟ قَالَتْ لاَ وَلَكِنِ الْعَيْنُ تُسْرِعُ إِلَيْهِمْ. قَالَ ارْقِيهِمْ(٦)». وقوله «ضَارِعَةً» أى واهنة نحيفة. وعن عائشة قالت «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْمُرُنِى أَنْ أَسْتَرْقِىَ مِنَ الْعَيْنِ(٧)».

أمّا قوله ﷺ من حديث عمران بن حصين «لاَ رُقْيَةَ إِلاَّ مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ(٨)». فليس معناه أنّه لا يجوز الرُّقية من غيرهما، لأنّه قد ثبت الرّقية من غيرهما، وإنّما معناه لا رُقية أولى وأنفع منهما. (قال) فى النّهاية: [«يقال أَصَابَتْ فُلاَنًا عَيْنٌ» إذا نظر إليه عدوٌ أو حسود فأثّرت فيه فمرض بسببها، يقال [عَانَهُ يَعِينُهُ عَيْنًا] فهو عَائِنٌ إذا أصابه بالعين، فالعائِنُ الذى يُصيب بالعين والمعينُ المصابُ العين] من قول عائشة رضى الله عنها «كَانَ يُؤْمَرُ الْعَائِنُ فَيَتَوَضَّأُ ثُمَّ يَغْتَسِلُ مِنْهُ الْمَعِينُ(١٠)»].

---

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد [١٥٩٢٢] وابن ماجه [٣٥٠٩].

(٢) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١٥٩٢٠].

(٣) انظر نووى مسلم [ج ٧ ص ٤٢٦].

(٤) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٣٩ / ٢١٨٥].

(٥) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٤٠ / ٢١٨٦].

(٦) حديث صحيح أخرجه مسلم [٦٠ / ٢١٩٨].

(٧) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٧٣٨] ومسلم [٢١٩٥].

(٨) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٢٠٥٧] وأبو داود [٣٨٨٤].

(٩) انظر تحفة الأحوذى [ج ٥ ص ٤٧٣].

(١٠) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣٨٨٠].

وكان رسول الله ﷺ يستعيذ بربّه تعالى من «الْعَيْنِ اللاَّمَّةِ»: من اللَّمَم وهو طرف من الجنون يلمّ بالإنسان ويعتريه ومنه حديث ابن عبّاس رضي الله عنه قال «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَوِّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ وَيَقُولُ إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهِمَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لاَمَّةٍ[(١)]». و«الْكَلِمَاتُ التَّامَّةُ»: الخالية عن العيوب والوافية في دفع ما يتعوّذ منه، وفيه يصف ﷺ العين بأنّها «لاَمَّةٌ» وهي العين الْمُصِيبَةُ بسوء، واللَّمَّةُ: الشِّدَّة، والْمُلِمَّةُ: النّازلة الشّديدة من شدائد الدّهر.

(٣) ـ رقيـــة المريـــض

جاء في الصّحيح عن عائشة «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا عَادَ مَرِيضًا قَالَ أَذْهِبِ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي لاَ شِفَاءَ إِلاَّ شِفَاؤُكَ شِفَاءً لاَ يُغَادِرُ سَقَمًا[(٢)]». وفي رواية «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا اشْتَكَى مِنَّا إِنْسَانٌ مَسَحَهُ بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ أَذْهِبِ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي لاَ شِفَاءَ إِلاَّ شِفَاؤُكَ شِفَاءً لاَ يُغَادِرُ سَقَمًا[(٣)]». وفي هذه الرّقية توسّلٌ إلى الله تعالى بكمال ربوبيّته وعظيم رحمته بالشّفاء، وأنّه وحده الشّافي من كلّ مرض.

ومن ذلك أيضا ما رواه مسلم «أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ أَبِي الْعَاصِ اشْتَكَى إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَجَعًا يَجِدُهُ فِي جَسَدِهِ مُنْذُ أَسْلَمَ، فَقَالَ له رسول الله ﷺ ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ وَقُلْ: بِسْمِ اللهِ ثَلاَثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ[(٤)]».

وفي هذا الحديث من الذّكر والتّفويض لله تعالى والاستعاذة بعزته وقدرته ما يذهب به شرّ المرض والألم، كما يبيّن أنّ تكرار الدّعاء فيه يأتي كتكرار الدّواء ليكون أقوى فاعليّة وأبلغ تأثيرا في إخراج المرض والبرء منه بإذن الله تعالى.

وفي البخاري عن عائشة «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ لِلْمَرِيضِ بِسْمِ اللهِ تُرْبَةُ أَرْضِنَا وَرِيقَةُ بَعْضِنَا، يُشْفَى سَقِيمُنَا بِإِذْنِ رَبِّنَا[(٥)]». وأخرجه مسلم بلفظ «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَى الإِنْسَانُ الشَّيْءَ مِنْهُ، أَوْ كَانَتْ بِهِ قُرْحَةٌ أَوْ جُرْحٌ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ بِإِصْبَعِهِ هَكَذَا ـ وَوَضَعَ سُفْيَانُ سَبَّابَتَهُ بِالأَرْضِ ثُمَّ رَفَعَهَا ـ بِاسْمِ اللهِ تُرْبَةُ أَرْضِنَا بِرِيقَةِ بَعْضِنَا لِيُشْفَى بِهِ سَقِيمُنَا بِإِذْنِ رَبِّنَا[(٦)]».

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري [٣٣٧١] والتّرمذي [٢٠٦٠].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري [٥٦٧٥].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢١٩١].

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٠٢] وأبو داود [٣٨٩١] والتّرمذي [٢٠٨٠].

(٥) حديث صحيح أخرجه البخاري [٥٧٤٥].

(٦) حديث صحيح أخرجه مسلم [٥٤ / ٢١٩٤].

ومعنى الحديث أنّه يأخذ من ريق نفسه على أصبعه السّبّابة، ثمّ يضعها على التُّراب فَيَعلَقُ بها شيء منه، فيمسح به على الجُرح ويقول هذه الرّقية لما فيها من بركة ذكر الله وتفويض الأمر إليه وحسن التّوكُّل عليه، فينضمّ العلاج إلى الآخر فيقوى التّأثير، وفي الحديث الدّلالة على [(١)] :

(١) جواز الرُّقَى من كلّ الألام وأنّ ذلك كان أمرا منتشرا معلوما بينهم.

(٢) أنّ وضع النّبى ﷺ سبّابته بالأرض ووضعها على مكان الألم يدلّ على استحباب ذلك عند الرُّقية، وأنّ ذلك مُعلّلٌ بأنّ تراب الأرض لبرودته ويُبوسته يُقوّى الموضع الذى به الألم ويمنع انصباب الموادّ إليه بيُبسه مع منفعته فى تجفيف الجراح واندمالها.

(٣) كما يُدلّل على أن للرِّيق مدخلا فى النُّضج وتعديل المزاج، وأنّ لتراب الوطن تأثير قوى فى حفظ المزاج ودفع الضّرر [(٢)].

(٥) أمّا النّفث ووضع السّبابة على الأرض فلا يتعلّق منها بالمرْقيّ شيءٌ له بال ولا أثر، وإنّما يأتى هذا من باب التّبرُّك بأسماء الله تعالى وبآثار رسوله الكريم ﷺ، وأمّا الرّيق ووضعُ الإصبع وما أشبه ذلك فإمّا أن يكون ذلك لخاصيّة فيه، وإمّا أن يكون ذلك لحكمة إخفاء آثار القُدرة الإلهيّة بمباشرة الأسباب المعتادة والله تعالى أعلم.

(قال) التُّورِبْشْتِيُّ [أنّ المراد «بالتُّربة» الإشارة إلى فطرة الدّم، وفى «الرِّيق» إشارة إلى النُّطفة، فكأنّه تضرّع بلسان الحال: إنّك اخترعت الأصل الأول من «التُّراب» ثمّ أبدعته منه من «مَاءٍ مَهِينٍ»، فهيّن عليك وأنت القادر أن تشفى من كانت هذه نشأته [(٣)].

(٣) ـ الرّقية من كلّ ذى سُمٍّ

لمـّا تعدّدت الرُّقَى وتنوّعت بحسب موقع كلّ منها فى الصّحيح الوارد عن النّبى ﷺ جاءت الإشارة إلى الرُّقية من كلّ ذى سُمٍّ فيما رواه أصحاب السّنن عن أنس بن مالك «رَخَّصَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِى الرُّقْيَةِ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحُمَةِ [(٤)] وَالنَّمْلَةِ(٥)». وعن جابر قال «أَرْخَصَ النَّبِىُّ ﷺ فِى رُقْيَةِ الْحَيَّةِ لِبَنِى عَمْرٍو(٦)». وعن عائشة قالت «رَخَّصَ

---

(١) انظر زاد المعاد [ج ٤ ص ١٦٨].

(٢) نقلا عن فتح البارى [ج ١٠ ص ٢١٩].

(٣) نقلا عن فتح البارى [ج ١٠ ص ٢١٩].

(٤) المراد بالحُمَةِ السُّمُّ من ذوات السُّموم وقد تسمّى إبرة العقرب والزّنبور «حُمَة» لأنّ السُّمَّ يخرج منها فهو من المجاز والعلاقة المجاورة.

(٥) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢١٩٦] والتّرمذى [٢٠٥٦].

(٦) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢١٩٩].

النَّبيُّ ﷺ فِي الرُّقْيَةِ مِنْ كُلِّ ذِي حُمَةٍ». أي من لسع كلّ دابّة ذات سُمٍّ.

ثمّ جاء الأمر بذلك على إطلاقه عندما سُئل رسول الله ﷺ عن رُقية العقرب كما في حديث جابر قال «كَانَ لِي خَالٌ يَرْقِي مِنَ الْعَقْرَبِ. فَنَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الرُّقَى، قَالَ فَأَتَاهُ فَقَالَ يَارَسُولَ اللهِ إِنَّكَ نَهَيْتَ عَنِ الرُّقَى وَأَنَا أَرْقِي مِنَ الْعَقْرَبِ؟ فَقَالَ ﷺ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَفْعَلْ(١)». وفي رواية «مَا أَرَى بَأْسًا، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَنْفَعْهُ». أمّا قول الرّجل «إِنَّكَ نَهَيْتَ عَنِ الرُّقَى؟». فأجاب العلماء عنه بأجوبة منها:

(١) أنّ الأصل في الرُّقى كان ممنوعا كما صرّحت به رواية مسلم «فَنَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الرُّقَى». لأنّهم كانوا يرقون في الجاهليّة برُقًى هي شركٌ وبما لا يُفهم ولا يُعقل معناه، ثمّ إنّهم لمّا أسلموا وزال ذلك عنهم نهاهم عن ذلك عموما، ليكون أبلغ في المنع وأسدَّ للذّريعة.

(٢) ثمّ إنّهم لمّا سألوه وأخبروه أنّهم ينتفعون بذلك رخّص لهم في بعضها وقال «اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، لاَ بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ(٢)».

فجازت الرّقية من كلّ الآفات، والأمراض، والجراح، والقروح، والحُمَة، والعين وغير ذلك إذا كانت الرُّقَى بما يُفهم ولم يكن فيها شرك ولا شيء ممنوع، وأفضل ذلك وأنفعه ما كان بأسماء الله تعالى وكلامه وكلام رسوله الأكرم ﷺ.

وتأتي الرُّقَى والتعوُّذات من كلّ ذي سُمٍّ على قسمين:

(الأوّل) ما يمنع من وقوع هذه الأسباب كما في حديث أبي هريرة قال «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ يَارَسُولَ اللهِ مَا لَقِيتُ مِنْ عَقْرَبٍ لَدَغَتْنِي الْبَارِحَةَ فَقَالَ أَمَا لَوْ قُلْتَ حِينَ أَمْسَيْتَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ تَضُرَّكَ(٣)». وجاء عند ابن ماجه عن أنس «أَمَا إِنَّهُ لَوْ قَالَ حِينَ أَمْسَى أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، مَا ضَرَّهُ لَدْغُ عَقْرَبٍ حَتَّى يُصْبِحَ(٤)».

(قال) في النّهاية: [إنّما وُصف كلامه تعالى بالتّمام لأنّه لا يجوز أن يكون في شيء من كلامه نقص أو عيب كما يكون في كلام النّاس، وقيل معنى التّمام ههنا أنّها تنفع المتعوِّذ بها وتحفظه من الآفات وتكفيه].

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٦٢ / ٢١٩٩].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٧٠٩].

(٣) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٠٠].

(٤) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٢٨٥٢] وأورده في التّعليق الرّغيب [١ / ٢٢٥].

(الثّانى) أنّ الرّقية كما تمنع من وقوع الضّرر تنفع كذلك من الدّاء بعد حصوله، أو أن تحول بينه وبين كمال تأثيره بحسب كمال الرُّقية وقوّتها لحديث شعبة عن أبي بشر عند مسلم عن سيّد الحى الذى لُدغ أو أصيب قال «فَجَعَلَ يَقْرأُ أُمَّ الْقُرآنِ وَيَجْمَعُ بُزَاقَهُ وَيَتْفُلُ فَبرأَ الرَّجُلُ(١)».

(قال) فى المُفهم [وجميع أحاديث الرُّقية الواقعة فى كتاب مسلم إنّما تدلُّ على جواز الرّقى بعد وقوع الأسباب الموجبة للرُّقية من الأمراض والآفات، وأمّا قبل وقوع ذلك ففي البخارى عن عائشة «أَنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِه نَفَثَ فى كَفِّه بقُلْ هُوَاللّٰهُ أَحَدٌ وبالْمُعَوِّذَتَيْن جَمِيعًا، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ وَمَا بَلَغَتْ يَدُهُ مِنْ جَسَدِه(٢)». فكان هذا دليل على جواز استرقاء ما يُتوقَّع من الطّوارق والهوامِّ وغير ذلك من الشّرور(٣)].

العلاج من العيـــن

إذا كانت خُطورة العين قد تمثّلت فيما روى عن نبيّنا ﷺ من أنّ «الْعَيْنَ تُدْخِلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ، وَتُدْخِلُ الْجَمَلَ الْقِدْرَ(٤)». قد أشار علماء الأمّة إلى أنّ العلاج منها والاحتراز من تأثيرها السّلبى يتحقّق من خلال ثلاث مسائل:

(أولها) التّحصُّن بالآيات القرآنية والأذكار النّبويّة

تضمّنت الآداب النّبويّة الكثير من الأذكار التى تُحصِّن المسلم من العين وتحفظه من شرّها وتمنع وصول أثر العائن إليه وتدفعه بعد وصوله بحسب قوّة إيمان قائلها وقوّة نفسه، واستعداده وقوّة توكُّله وثبات قلبه، فالنّفس الخبيثة السُّمِّيَّة التى تكيّفت بكيفيّة غضبيّة واستمدّت ذاتها من ذوات السُّموم والحُمَات المهلكة تُدخلُ بعينها الرّجل النّضير القبر والجمل الظّهير القدْر إذا ما اشتدّ حسدها وزاد إعجابها وقابلت المعين على حين غرّة منه وغفلة وهو أعزل من الوقاية والذّكر.

وإذا كان العائن حسودا بطبعه فإنّ المعين هو الذى يتحمّل النّتائج السّلبيّة لغفلته عن حمل سلاحه الذى يتحصّن به كلّ وقت؛ فالعائن لا يُؤثّر فى حامل السّلاح كالحيّة إذا قابلت درعًا سابغا على جميع البدن ليس فيه موضع مكشوف؛ فحقّ على من أراد حفظ نفسه وحمايتها من كلّ عين وحسد أن يتحصّن بالقرآن تلاوة والأدعية ذكرا والله سبحانه خيرٌ حافظا وهو أرحم الرّاحمين.

---

(١) من حديث أخرجه مسلم [٢٢٠١].

(٢) حدث صحيح أخرجه البخارى [٥٧٤٨]

(٣) انظر المفهم للقرطبى [ج ٥ ص ٥٨٢-٥٨٣].

(٤) حديث حسن أورده فى الجامع الصّغير [٤١٤٤] والصّحيحة [١٢٤٩].

ونعرض فيما يلي لبعض هذه الأدعية والتّحصينات والتى منها:

(١) ما رواه التّرمذى عن عقبة بن عامر عن النّبى ﷺ قال «قَدْ أَنْزَلَ اللهُ عَلَىَّ آيات لَمْ يُر مِثْلُهُنَّ: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ إِلَى آخرِ السُّورَة، وقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَق إِلَى آخرِ السُّورَة[١]». وما جَاء في الصّحيح عن عائشة رضى الله عنها «أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ كَانَ أَوى إِلَى فِرَاشِه كُلَّ لَيْلَة جَمعَ كَفَّيْه ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقرأَ فِيهِمَا قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ وقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاس، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِه، يَبْدأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِه وَوَجْهِه وَمَا أَقْبَلَ بِهِمَا مِن جَسَدِه، يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلاثَ مَرَّات[٢]».

(٢) وعن عثمان بن عفّان «قَالَ رَسُولُ اللهِ مَا مِنْ عَبْد يَقُولُ فِى صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ وَمَسَاء كُلِّ لَيْلَة بِسْمِ اللهِ الَّذى لاَ يَضُرُّ مَعَ اسْمِه شَىْءٌ فِى الأَرْضِ وَلاَ فِى السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ثَلاَثَ مَرَّات، لَمْ يَضُرَّهُ شَىْءٌ[٣]».

(٣) وعن أبى هريرة أنّ أبا بكر قال «يَارَسُولَ اللهِ مُرْنِى بِشَىْءٍ أَقُولُهُ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أَمْسَيْتُ؟ قَالَ قُلِ اللّهُمَّ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَة، فَاطِرَ السَّمواتِ وَالأَرْضِ، رَبَّ كُلِّ شَىْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِى وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِه، قَالَ قُلْهُ إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ[٤]».

(٤) وعن أبى هريرة قال «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْمُرُنَا إِذَا أَخَذَ أَحَدُنَا مَضْجَعَهُ أَنْ يَقُولَ اللّهُمَّ رَبَّ السَّمواتِ وَرَبَّ الأَرْضِ، وَرَبَّ كُلِّ شَىْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، مُنْزِلَ التَّوْرَاة وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرآن، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِى شَرٍّ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِه، أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَىْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَىْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَىْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَىْءٌ، اقْضِ عَنِّى الدَّيْنَ وَأَغْنِنِى مِنَ الْفَقْرِ[٥]».

(الوسيلة الثّانية)

الاستغسال للمعين

لمّا قال العلماء أنّ للنّفس البشرية آثار يخلقها البارى سُبحانه فى الشّىء عند تعلّقها به ومنها تلك العين الحاسدة التى تُدخل الرّجل الفارغ القبر وتُلحق الجمل بالقدر، كان لابدّ من التّعريف بهذا المعنى الذى يحدث بقدرة الله تعالى على جرى العادة فى المعين إذا أعجبت هيئته العائن فيأخذ به ذلك إمّا إلى المرض الذى يُقعده وإمّا إلى الخير الذى

(١) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٣٣٦٧].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٠١٧] وأبو داود [٥٠٥٦] وابن ماجه [٣١٣٩].

(٣) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٣٣٨٨] وابن ماجه [٣١٣٤].

(٤) حديث صحيح أخرجه التّرمذى [٣٣٩٢] وأبو داود [٥٠٦٧].

(٥) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٧١٣] وأبو داود [٥٠٥١].

يُحرمه بحسب ما يقدّره الله تعالى .

ولهذا المعنى نُهى العائن عن التّلفُّظ بالإعجاب بالشّىء لأنّه إن لم يتكلّم لم يضرّ اعتقاده عادة ، وكما أنفذ البارى من حُكمه أن يخلق فى بدن المعين ألما أو فناء ، فكذلك سبق من حكمته أنّ العائن إذا برّكَ أسقط قولُه بالبركة قولَه بالإعجاب ، فإن لم يفعل سقط حُكمه بالاغتسال ، فهذا الذى نقلته الرّوايات الصّحيحة عن صاحب الشّريعة ﷺ من الخواصّ الشّرعية والحكم الإلهيّة البليغة الذى يشهد لصدقها وجودها كما وُصفت يجعل العائن إذا برّكَ متنع ضَرره وإن اغتسل شُفِى مَعِينُه .

وكان هذا الأمر من المسائل المتعارف عليها عند الصّحابة الكرام ومَنْ بعدهم من المسلمين ، فمتى خُشى الضّرر من أثر العين كان اغتسال العائن ممّا جرت به العادة لشفاء المعين ، وهو العلاج الذى عضّدته التّجربة وصدّقته المعاينة :

* لقوله ﷺ من حديث ابن عبّاس «وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا(١)» .

* وقول عائشة «كَانَ يُؤْمَرُ الْعَائِنُ فَيَتَوَضَّأُ ثُمَّ يَغْتَسِلُ مِنْهُ الْمَعِينُ(٢)» .

* وقوله ﷺ من حديث أبى أمامة عند مالك «أَلاَ بَرَّكْتَ ؟ إِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ ، تَوَضَّأْ لَهُ ! فَتَوَضَّأَ لَهُ عَامِرٌ(٣)» .

* وما ذكره عبد الرزّاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه مرفوعا «الْعَيْنُ حَقٌّ وَلَوْ كَانَ شَىْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ ، وَإِذَا اسْتُغْسِلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَغْتَسِلْ(٤)» .

وكلُّ هذه الرّوايات تحمل معنى واحدا وهو إذا طُلبتم للاغتسال «فَاغْسِلُوا» أطرافكم عند طلب المعيون ذلك من العائن ، كما تشير إلى أنّ هذا الغَسْل كان معلوما عندهم فأمَرَهُم أن لا يمتنعوا منه إذا أُريد منهم ، وأدنى ما فى ذلك رفع الوَهْم ، واقتصر النّووى فى «الأذكار» على قوله [الاستغسال أن يُقال للعائن اغسل داخلة إزارك ممّا يلى الجلد ، فإذا فعله صَبَّهُ على المنظور إليه] .

والعائن إذا أصاب بعينه ولم يُبَرِّك فإنّه يُؤمر بالاغتسال ويُجْبَرُ على ذلك إن رفضه لأنّ الأمر فيه [على الوجوب] لا سيّما إذا خيف على المَعين الهلاك ، كما لا ينبغى لأحد أن يمنع أخاه ما ينتفع به ويحول دون أذاه خصوصا إذا كان ذلك بسببه والجانى عليه ، والمعالجة بالاغتسال من العين لا تأباها العقول الصّحيحة ولا ينتفع بها من أنكرها ، ولا من سَخرَ

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢١٨٨] والتّرمذى [٢٠٦٢] .

(٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣٨٨٠] .

(٣) أخرجه مالك فى الموطأ [١٦٨٤] ووصله الشّيخان.

(٤) أخرجه عبد الرّزاق فى المصنّف [١٩٧٧٠] ووصله مسلم فى صحيحه [٢١٨٨] .

منها ولا من شكّ فيها، أو فعلها مجرّبا غير معتقد بعلاجها.

وقد وقعت صفة الاستغسال للمَعين فى حديث سهل بن حنيف عند أحمد وابن ماجه كما جاءت روايته عند مالك عن أبي أمامة قال:

«رأى عامرُ بنُ ربيعةَ سَهْلَ بْنَ حُنَيْف يغتسلُ، فقالَ واللهِ ما رأيتُ كاليومِ ولاَ جلْدَ مُخَبَّأة! قالَ: فلُبطَ سهلٌ، فأُتي رسولُ اللهِ ﷺ فقيلَ: يارسولَ اللهِ هلْ لكَ في سهلِ بنِ حُنَيف؟ واللهِ ما يرفعُ رأسَه، فقالَ هلْ تتهمونَ لهُ أحدًا؟ قالُوا: نتَّهمُ عامرَبنَ ربيعةَ». «قالَ فدعا رسولُ اللهِ ﷺ عامرًا فتغيَّظَ عليْه وقالَ: علامَ يقتُلُ أحدُكُم أخاهُ؟ ألاَ هلْ بركْتَ! اغْتسلْ لهُ، فغسلَ عامرٌ وجْههُ ويديْه ومرفقيه وركْبتيه وأطْرافَ رجليْه وداخلةَ إزارِه في قدحٍ ثمَّ صُبَّ عليْه، فراحَ سهلٌ معَ النَّاسِ ليسَ بهِ بأسٌ[١]».

ومن مفردات الحديث:

* قوله «ولاَ جلْدَ مُخبَّأة»: أى أنّ لونه كلون الجارية المكنونة فى خدرِها لا تراها العيون ولا تغيّر الشّمس لونها إذا تعرّضت لها.

* وأراد «بداخلة إزاره[٢]»: طَرفَ إزاره الدّاخل الذى يلى جَسدَهُ من الجانب الأيمن، واختُلف فى معنى غَسْل داخلة الإزار على قولين:

(الأوّل) أنّ المراد غسل موضعه الذى يليه من الجسد وذهبوا فى ذلك إلى الورِك إذ هو معقد الإزار، وذهب وَهْمُ بعضهم إلى المذاكير وكأنّه كَنّى عنها بداخلة الإزار.

(الثّانى) أنّه الطّرَف الذى يُباشر جَسَده من الجانب الأيمن من الإزار فهو الذى يُغسل.

(قال) أبو عبيد [ولا أعلمه إلاّ وقد جاء مُفسّرا فى بعض الحديث هكذا]. وفى عارضة الأحوذى قال ابن العربى [الظّاهر والأقوى بل الحقّ ما يلى الجسد من الإزار[٣]]. لأنّ المؤتزر إنّما يبدأ إذا ائتزر بجانبه الأيمن، فذلك الطّرَف يباشر جسده فهو الذى يُغسَلُ [[٤]]. والطّرَف من كلّ شىء مُنتهاه.

ولقد وقفتُ خلال مراجعتى لمادّة هذا البحث على الحديث المروىّ فى الصّحيح عن أبي هريرة من قوله ﷺ «إذَا أرادَ أحدُكُمْ أنْ يضْطجعَ علَى فراشه فلْينْزعْ داخلَةَ إزاره ثُمَّ لِيَنْفُضْ بِهَا فراشَهُ[٥]». والمراد بداخلة الإزار فيه طرَفه الذى ينفض به الفراش لئلا

(١) حديث صحيح أخرجه مالك [١٦٨٥] وأحمد [١٥٩٢٢].

(٢) الإزار هو الثّوب الذى يحيط بالنّصف الأسفل من البدن.

(٣) انظر عارضة الأحوذى [٨/٢١٧].

(٤) انظر غريب الحديث [ج ٤ ص ٧٠].

(٥) حديث أخرجه البخارى [٦٣٢٠] ومسلم [٢٧١٤].

يحصل فى يده مكروه إن كان هناك، وهو ما يعضّد القول الثّانى ويثبت أنّ الدّاخلة هى الطَّرَف الذى يلى الجسد من الإزار.

وقوله «فَلُبِطَ سَهْلٌ» يعنى صُرِعَ، يُقال لُبِطَ بالرَّجُلِ يُلْبَطُ لَبْطًا: إذا سقط ومنه حديث النّبى ﷺ «أنَّهُ خَرَجَ وقُرَيْشٌ مَلْبُوطٌ بِهِم(١)». يعنى أنّهم سُقُوطٌ بَيْنَ يدَيْه، كما أشير إلى تأثير العين [عَلَى سَهْلٍ] عند ابن ماجه بقوله «أُدْرِكَ سَهْلاً صَرِيعًا». والصَّرْع فيه هى وطأة المرض الشّديد ويفسّره قوله ﷺ من حديث أبى أُمامة «مَا مِنْ عَبْدٍ يُصْرَعُ صَرْعَةً مِنْ مَرَضٍ إلاَّ بَعَثَهُ اللّهُ مِنْهَا طَاهِرًا(٢)». ويتأيّد هذا بما جاء فى رواية أحمد «وَاللّهِ مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ وَمَا يُفِيقُ». وما جاء عند أبى عبيد «فَلُبِطَ به حَتَّى مَا يَعْقِلُ مِنْ شِدَّةِ الْوَجَعِ». وفى رواية لمالك «فَوُعِكَ سَهْلٌ مَكَانَهُ وَاشْتَدَّ وَعْكُهُ(٣)».

(قال) أبو عبيد [ومّما يبيِّن ذلك «أَنَّ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ رَكِبَ فَرَسًا فَنَظَرَتْ إِلَيْهِ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: إِنَّ أَمِيرَكُمْ هَذَا لَيَعْلَمُ أَنَّهُ أَهْضَمُ الْكَشْحَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَى مَنْزِلِهِ فَسَقَطَ، فَبَلَغَهُ مَا قَالَتِ الْمَرْأَةُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا فَغَسَلَتْ لَهُ(٤)»]. وقوله «أَهْضَمُ الْكَشْحَيْنِ»: أى خَمُصَ بطنُه ولَطُفَ خَصْرُه وقلّ اتّساعُ جنبيه فهو «أَهْضَم». والْكَشْحُ وجمعه كُشُوحٌ وهو فى الجسم ما بين الخاصرة والضّلوع الخلفيّة للإنسان.

كيفية غسل العائن

من العلاج المؤثّر فى العين أن يُؤمر العائن بغسل مغابنه وأطرافه وداخلة إزاره الذى يلى جسده من الجانب الأيمن، وقد ذكر أبو عبيد كيفيّة غَسْل العَائن للمَعين عن الزُّهْرى قال:

(١) يأتى الرّجل العائن بقدح فيه ماء فَيُدْخِلُ كفّه فيه فيمضمض ثمّ يمجّه فى القدح.

(٢) ثمّ يغسلُ وجهه وكذلك كفّه ويده ومرفقه الأيمن، ثم كفّه ويده ومرفقه الأيسر، ثمّ قدميه اليمنى واليسرى ثمّ ركبتيه اليمنى واليسرى، كلّ ذلك صبًّا للماء من القدح واسترجاعه إليه حال الغسل.

(٣) ثمّ يغسل داخلة الإزار بذات الماء الذى فى القدح ولا يضع القدح على الأرض أثناء صبّ الماء منه لحكمة لا يعلمها إلاّ الله تعالى [(٥)].

كيفية صبّ الماء على المعين

يتطلّب صبّ الماء على المعين عدّة ضوابط مهمّة استنبطها الأئمّة الأعلام من نصوص الأحاديث الصّريحة الواردة فى ذلك:

---

(١) انظر الفائق [٣ / ٢٩٣] والنّهاية [٤ / ٢٢٦]. (٢) أورده فى صحيح الجامع [٥٧٤٣] والصّحيحة [٢٢٧٧]. (٣) أخرجه مالك [١٦٨٤] ووصله الشّيخان. (٤) أورده أبو عبيد فى غريب الحديث [ج ٤ ص ٦٩]. (٥) انظر غريب الحديث [ج ٤ ص ٦٨] وسُنن البيهقى [ج ٩ ص ٣٥٢].

* منها ما جاء في رواية أحمد عن أبي أُوَيس قال «غَسَلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْه وَمِرْفَقَيْه وَرُكْبَتَيْه وأَطْرافَ رِجْلَيْه وَداخِلَةَ إزاره فى قَدَحٍ، ثُمَّ صَبَّ ذَلكَ الْماءَ عَلَيْه، يَصُبُّهُ رَجُلٌ عَلَى رَأْسِه وَظَهْرِه من خَلْفِه، ثُمَّ يُكْفِيءُ الْقَدَحَ وراءَهُ، فَفَعَلَ بِه ذَلكَ فَراحَ سَهْلٌ مَعَ النَّاسِ لَيْسَ بِه بَأْسٌ[١]».

* ومنها ما جاء عند ابن ماجه من حديث سُفيان عن الزُّهرى قال «وَأَمَرَهُ أَنْ يَصُبَّ عَلَيْه، قَالَ مَعْمَرُ عَنِ الزُّهْرِيِّ: وَأَمَرَهُ أَنْ يَكْفَأَ الإِنَاءَ مِنْ خَلْفِه[٢]».

* ومنها ما جاء فى رواية مالك من حديث أبى أمامة قال «فَغَسَلَ عامرٌ وَجْهَهُ وَيَدَيْه وَمِرْفَقَيْه وَرُكْبَتَيْه وَأَطْرافَ رِجْلَيْه وَداخِلَةَ إزارِه فى قَدَحٍ ثُمَّ صُبَّ عَلَيْه[٣]».

ونعرض لبعض الدّلالات التى تضمّنتها الرّوايات المذكورة على النّحو التّالى:

(١) أنّ ظاهر أمر الاستغسال للمَعين فيها للوجوب. (قال) المازرى [والصّحيح عندى الوجوب، ويبعد الخلاف فيه إذا خُشى على المَعين الهلاك، وكان وضوء العائن ممّا جرت العادة بالبُرء به، أو كان الشّرع أخبر به خبرا عامّا ولم يكن زوال الهلاك إلاّ بوضوء العائن، فإنّه يصير من باب من تَعَيَّنَ عليه إحياء نفس مُشرفة على الهلاك، وقد تقرّر أنّه يُجبر على بذل الطّعام للمضطر فهذا أولَى[٤]].

(٢) يقوم الذى يأخذ القدح فيصبّه على رأس المعين من ورائه على جميع جسده يستغفله به.

(٣) يُطلب حال الاستغسال ألاّ يوضع القدح على الأرض وأن يُكفأ وراء المَعين بعد صبّ الماء عليه من قوله عند أحمد «ثُمَّ يُكْفَأُ الْقَدَحُ وراءَهُ» وزاد فى رواية «عَلَى الأَرْضِ» وفيه (قال) المازرى [هذا المعنى ممّا لا يمكن تعليله ومعرفة وجهه من جهة الفعل، فلا يُردُّ لكونه لا يُعقل معناه]. و(قال) ابن العربى [إن توقّف فيه مُتشرّع قلنا له الله ورسوله أعلم وقد عضّدته التّجربة وصدّقته المعاينة[٥]].

الحكمة من استغسال العائن للمعين

تأتى حكمة غسل مغابن العائن وأطرافه بالماء لعدّة أمور:

(أوّلها) أنّ الكيفيّة الخبيثة التى تصدر من عين الحاسد تظهر فى المواضع الرّقيقة

---

(١) من حديث صحيح أخرجه أحمد [١٥٩٢٢].

(٢) من حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٣٥٧٤].

(٣) أخرجه مالك فى الموطأ بإسناد صحيح [١٦٨٥].

(٤) نقلا عن نووى مسلم [ج ٧ ص ٤٢٧].

(٥) انظر فتح البارى [ج ٨ ص ٢٤٣].

من الجسد لشدّة النّفوذ فيها، فلا تجد أَرَقَّ من المغابن وداخلة الإزار، فإذا غُسلت بالماء بطُل تأثيرها وضعُف عملها بفضل الله تعالى.

(والثّاني) أنّ وصول أثر غسل هذه المواضع إلى القلب يعمل على إطفاء تلك النّارية ويذهب بِسُمِّيَّتِهَا القاتلة فيُشفى المعيون.

(الثّالث) أنّ ذوات السّموم إذا قُتِلَتْ بعد لسعها للإنسان خَفَّ أثر اللّسعة عنده ووجد راحة لذلك، فإنّ أنفاسها تمدّ أذاها بعد لسعها وتوصّله إلى الملسوع فإذا قُتِلَتْ خَفَّ الألم، وإن كان من أسباب ذلك أيضا فَرَح الملسوع واشتفاء نفسه بقتل ما أذاه فتقوى المناعة على الألم فتدفعه [(١)].

(الرّابع) أنّ صبّ الماء الذى اغتسل به العائن على المَعين يُطْفِيءُ تلك النَّاريّة التى أصابه بها، ووسيلة ذلك هو ذات الماء الذى أطفأ به تلك الكيفيّة الرّديئة عند غسل مغابنه وأطرافه، فكما أطفئت النَّاريّة القائمة بالعائن عند وضوئه أبطلت أثر ذلك بالمَعين عند صبّه عليه على حين غفلة منه.

ومن دلالات حديث سهل بن حنيف [إجبار العائن على الوضوء المذكور على الوجه المذكور، وأنّ من اتُّهم بأمر أُحضر للحاكم وكُشف عن أمره، وأنّ العين تقتل! لقوله ﷺ «عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ ؟». وأنّ الدُّعاء بالبَركة يُذهب أثر العين بإذن الله تعالى، وأنّ أثر العين هو من حسد كامن فى القلب، وأنّ من عُرف بالإصابة بالعين مُنع من مُداخلة النّاس دفعا لضرره (٢)].

بعض الآداب المتّصلة بالرّقية

وحتّى تتمّ الرُّقية على الوجه الأكمل وتكون سببا فى تقليص الألم وإزالته بإرادة الخالق جلّ وعلا، أو تحول بين الشّر وأسبابه، فلا بدّ وأن يستقيم أمرها على الهدى الذى جاء به رسول الله ﷺ وبيّنه الأئمّة العظام والذى نذكر بعضا منه على النّحو التّالى:

(أ) النّفث والمسح باليد

ذكر العلماء أنّ تأثير الأدوية والأدواء على الفعل والانفعال يتحقّق بخروج الرُّقية من قلب الرّاقى وفمه وقد صاحبها شيء من الرِّيق والهواء والنَّفَس، لتكون أتمّ تأثيرا وأقوى تفاعلا ونفاذا، ويحصل بالمزاوجة بينهما كيفيّة مُؤثّرة شبيهة بالكيفيّة الحادثة عند تركيب الأدوية وتفاعلها بالسّلب والإيجاب، والنَّفْثُ من [نَفَثَ نَفْثًا ونَفَثَانًا]: نَفخٌ لطيف بلا ريق فهو نَافِثٌ، وقد أجمع العلماء على جوازه واستحبّه الجمهور من الصّحابة

(١) انظر فتح البارى [ج ١٠ ص ٢١٥].

(٢) انظر المفهم للقرطبى [ج ٥ ص ٥٦٨].

والتّابعين ومن بعدهم، إلاّ أنّهم اختلفوا في النّفْث والتّفْل فقيل هما بمعنى واحد ولا يكونان إلاّ بريق.

(قال) أبو عبيد [يُشترط في التّفل ريق يسير ولا يكون في النّفث، وقيل عكسه].

ولمّا سُئلت عائشة عن نفث النّبي ﷺ في الرّقية قالت «فجعلْنا نُشبِّهُ نفْثَه نفْث آكل الزّبيب[١]». (قال): ولا اعتبار بما يخرج عليه من بلّة ولا يقصد ذلك لما جاء في حديث الذي رَقَى بفاتحة الكتاب «فَجَعَلَ يَجْمَعُ بُزَاقَهُ ويَتْفُلُ[٢]».

وقد روى البخاري في صحيحه عن عروة عن أمّ المؤمنين عائشة «أنّ رسول الله ﷺ كَانَ يَنْفثُ عَلَى نَفْسه -في الْمَرَض الّذى مَاتَ فيه- بالْمُعَوِّذَات، فلمّا ثقُلَ كُنْتُ أَنفثُ عَلَيْه بهنّ وَأَمْسَحُ بيده نَفْسَهُ لبَرَكَتها[٣]». قَالَ مَعْمَرٌ: فَسَأَلْتُ الزُّهْرِيَّ: كَيْفَ يَنفثُ؟ قَالَ: كَانَ يَنْفثُ عَلَى يَدَيْه ثُمَّ يَمْسَحُ بهمَا وَجْهَهُ[٤]».

وليس بين قوله في هذه الرّواية «كَانَ يَنْفثُ عَلَى نَفْسه». وبين الرّواية الأخرى «فَلَمَّا اشْتَكَى كَانَ يَأْمُرُنى أَنْ أَفْعَلَ ذَلكَ به[٥]». مُعارضة لأنّه محمول على أنّه في ابتداء المرض كان يفعله بنفسه، وفي اشتداده كان يأمرها به وتفعله هي من قبل نفسها [[٦]]. وقوله «وَأَمْسَحُ بيَده نَفْسَهُ» أي أمسح جَسَدَهُ الشّريف بيده الطّاهرة.

وكان رسول الله ﷺ إذا رَقَى أحداً من أهله نفث عليه بالمعوّذات كما في حديث عائشة قالت «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إذَا مَرضَ أَحَدٌ منْ أَهْله نَفَثَ عَلَيْه بالْمُعَوِّذَات[٧]». وفيه دليل على أنّ محلّ التّفلَ يكون بعد القراءة. (قال) ابن أبي جمرة: [محل التّفل في الرّقية يكون بعد القراءة لتحصُل بركة القراءة في الجوارح التي يمرّ عليها الرّيق فتحصل البركة في الرّيق الذي ينقله[٨]].

حكمة النّفث حال الرُّقية

ممّا ينبغي للرّاقي أن يفعلَه النّفْث والتّفْل وهما نفخ مع ريق وهو الأصحّ عند أهل اللّغة، وقد كثرت الإشارة إلى ذلك في الأحاديث المتقدّمة وغيرها، فلا يُعدل عنه بحال،

(١) من حديث صحيح أخرجه أحمد [٢٣٩٨٥].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٠١].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخاري [٥٧٣٥] ومسلم [٢١٩٢].

(٤) حديث موصول بإسناد ما قبله.

(٥) حديث صحيح أخرجه البخاري [٥٧٤٨].

(٦) انظر فتح الباري [ج ١٠ ص ٢٠٨].

(٧) حديث صحيح أخرجه البخاري [٤٤٣٩].

(٨) انظر نووي مسلم [ج ٧ ص ٤٧٩].

فكلّ ذلك فيه أسرارٌ يدفع الله تعالى بها الأضرار، ولقد أشار العلماء إلى أنّ حكمة النَّفث حال الرُّقية ترجع إلى أمرين:

(أوّلهما) أنّ نَفْس الرَّاقى تقابل تلك النُّفوس الخبيثة وتزيد بكيفيّة نفسه وتستعين بالرُّقية وبالنَّفث على إزالة أثر العين أو المرض، وكلّما كانت كيفيّة نَفْس الرّاقى أقوى، كانت الرّقية أتمّ، واستعانته بنفثه حينئذ كاستعانة تلك النّفوس الرّديئة بلسعها.

(الثّانى) أنّ من فائدة النَّفْث التبرُّك بتلك الرُّطوبة أو الهواء الذى ماسّه الذِّكْر، والنَّفَسُ المباشر للرُّقية الحسنة، وقد تكون على سبيل التّفاؤل من زوال ذلك الألم وانفصاله عن المريض كانفصال ذلك النَّفْث عن الرَّاقى [(١)].

(٢) المسح فى الرّقية باليد اليمنى

من الآداب المرعيّة في الرُّقى استحباب مسح الرَّاقى بيمينه على موضع الألم من المرقى مع الدّعاء لما ورد فى الصّحيح من حديث:

* عائشة قالت «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا اشْتَكَى مِنَّا إِنْسَانٌ مَسَحَهُ بِيَمِينِه ثُمَّ قَالَ أَذْهِب الْبَاسَ وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لاَ شِفَاءَ إِلاَّ شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لاَ يُغَادِرُ سَقَمًا(٢)». وفى رواية «كَانَ يُعَوِّذُ بَعْضَ أَهْلِه يَمْسَحُ بِيَدِه الْيُمْنَى».

* وقولها رضى اللهُ عنها عند البخَارى «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِه نَفَثَ فِي كَفَّيْه بِقُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ، وَبِالْمُعَوِّذَتَيْنِ جَمِيعًا، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ وَمَا بَلَغَتْ يَدَاهُ مِنْ جَسَدِه، قَلَتْ عَائِشَةُ: فَلَمَّا اشْتَكَى كَانَ يَأْمُرُنِى أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ بِه(٣)». ودلالة الحديث أنّه كَانَ يقرؤُهَا وَيَنْفُثُ حالة القراءة.

* وجاء عند مسلم عن عائشة رضى الله عنها «وَأَمْسَحُهُ بِيَدِ نَفْسِه لأَنَّهَا كَانَتْ أَعْظَم بَرَكَةً مِنْ يَدِى(٤)». وقولها فى رواية البخارى «فَلَمَّا ثَقُلَ كُنْتُ أَنَا أَنْفُثُ عَلَيْه بِهِنَّ فَأَمْسَحُ بِيَدِ نَفْسِه لِبَرَكَتِهَا(٥)».

* وقول النّبى ﷺ لعثمان بن أبى العاص «ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِى تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ ثُمَّ قُلْ أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ وَقُدْرَتِه مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ(٦)». وجاء فى رواية بلفظ «ضَعْ يَمِينَكَ عَلَى الْمَكَانِ الَّذِى تَشْتَكِى فَامْسَحْ بِه سَبْعَ مَرَّاتٍ(٧)».

---

(١) انظر فتح البارى [ج ١٠ ص ٢٠٨]. (٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٧٥٠] ومسلم [٢١٩١]. (٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٧٤٨]. (٤) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٢١٩٢]. (٥) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٧٥١]. (٦) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٠٢] وأبو داود [٣٨٩١] والتّرمذى [٢٠٨٠]. (٧) أخرجه فى صحيح الجامع [٣٨٩٤] وأورده فى الصّحيحة [١٤١٥].

ويأتي قول النّبي ﷺ لعثمان رضي الله عنه «ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِى تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ»: على سبيل التّعليم والإرشاد إلى ما ينفع من وضع يد الرّاقى على المريض ومسحه به، وأنّ ذلك لم يكن مخصوصا بالنّبى ﷺ بل ينبغي أن يفعل ذلك كلّ راقٍ، وقد تأكّد أمره بفعل النّبى ﷺ وأصحابه ذلك بأنفسهم وبغيرهم، فلا ينبغي للرّاقى أن يعْدل عنه للمسح بشيء آخر ففعْل ذلك تمويه لا أصل له فى الدّين.

وفى الأحاديث بيان مشروعيّة المسح باليد اليمنى على المرقى، وأنّ هذا المسح يأتى على طريق التّفاؤل لزوال ذلك الوجَع، كما يُقصد بالمسح التّبرُّك بالرَّجُل الصّالح الورع وسائر أعضائه وخصوصا اليد اليمنى.

(٣) التّبريك على الشّىء عند رؤيته

ينبغي على المسلم إذا أعجبه شيء أن يُبادر إلى الدُّعاء للّذى يُعجبه بالبركة ويكون ذلك رُقية منه لهذا الشّىء لقوله ﷺ من حديث أبى أمامة «إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مِنْ أَخِيهِ أَوْ مِنْ نَفْسِهِ أَوْ مِنْ مَالِهِ مَا يُعْجِبُهُ فَلْيُبَرِّكْهُ فَإِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ(١)».

والتّبريك أن يقول المرء [تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ اللَّهُمَّ بَارِكْ فِيهِ]. يقال «بَرَّكْتُ عَلَيْهِ تَبْرِيكًا» أى قلت له: بارك اللّه الشّىء وبارك فيه وعليه، بمعنى وَضَعَ اللّه فيه البركة، ويكونُ التّبريك على هذا: الدّعاء للإنسان أو غيره بالبركة وهى النّماء والزّيادة والسّعادة.

والتّبريك اصطلاحا طلب ثبوت الخير في الشّىء بالدّعاء والبركة وهو الخير الإلهى الفيّاض الذى يصدر من حيث لا يُحسّ وعلى وجه لا يُحصى ولا يُحصر، ولذا قيل لكلّ ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة: «هو مبروك». و(قال) الرّاغب [«البركة»: ثبوت الخير الإلهى فى الشّىء، وفى التّنزيل الحكيم ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾[الأنعام: ٩٢]: أى بورك فيه والبركة الخير والنّماء والزّيادة].

ويحمل حديث أبى أمامة الدّلالة على ثلاثة أمور:

(الأوّل) على المسلم إذا رأى شيئا يُعجبه وجب عليه أن يدعو له بالبركة، حتّى لا تسبق العينُ هذا التّبريك وتستحكم فيه فتصيبُه وتضرّه.

(الثّانى) إذا خَشىَ العائنُ ضرر عينه وإصابتها للمَعين فليدفع شرّها بقوله «اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَيْهِ» أو «اللَّهُمَّ بَارِكْ فِيهِ». كما قال النّبى ﷺ لعامر بن ربيعة لَمَّا عَانَ سَهْلاً «أَلاَ بَرَّكْتَ عَلَيْهِ؟». وقوله «أَلاَ هَلْ بَرَّكْتَ؟».

(الثّالث) أنّ المرء إذا دعا للشّىء بالبَركة صُرف المحذور لا محالة فإنّ العين لا تضرّ ولا تعدو إذا بَرَّكَ العائنُ.

---

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد [١٥٦٤٠] وابن ماجه [٢٨٤٤] وصحيح الجامع [٥٥٦].

ويأتى قول النّبى ﷺ عند ابن حبّان «هَلاَّ إذَا رَأَيتَ مَا يُعجِبُكَ برَّكْتَ ؟». وفى رواية ابن ماجه «فَلْيَدْعُ بِالْبَرَكَة». أى قوله [اللَّهمَّ بَارِكْ فيه] ليدفع تلك الكيفيّة الخبيثة بالدّعاء الذى هو إحسان إلى المعين فإنّ دواء الشّىء بضدّه.

وممّا تُدفع به إصابة العين قول المرء «مَا شَاءَ اللّهُ لاَ قُوَّةَ إلاَّ باللّه». لما أخرجه البزّار وابن السُّنّى من حديث أنس رضي الله عنه رفعه «مَنْ رَأى شَيْئًا فَأَعْجَبَهُ فَقَالَ: مَا شَاءَ اللّهُ لاَ قُوَّةَ إلاَّ باللّه، لَمْ تَضُرُّه عَيْنٌ(١)».

كما روى هشام بن عروة عن أبيه «أنَّهُ كَانَ إذَا رَأى شَيْئًا يُعْجِبُهُ أَوْ دَخَلَ حَائطًا مِنْ حيطَانه قَالَ: مَا شَاءَ اللّهُ لاَ قُوَّةَ إلاَّ باللّه(٢)». وهو المعنى الذى تضمّنه قوله الله تعالى ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[الكهف: ٣٩]. أى أنّ ما أُشاهده من فضل ونعمة سابغة فهو من فيض الله وعطائه وقدرته لا من قدرة صاحبه أو قوّته.

(٤) ماذا يُفعل بالعائن

من عُرف بالإصابة بالعين مُنع من مداخلة النّاس دفعا لأذاه لأنّ العائن الذى يُصيب النّاس بعينه أشدّ ضررا من آكل الثّوم والبصل الذى منعه النّبى ﷺ من دخول المسجد لئلاّ يُؤذى المسلمين، بل هو أكثر خطرا كذلك من ضرر المجذوم الذى منعه عمر بن الخطّاب رضي الله عنه من الاختلاط بالنّاس.

لذلك قال بعض العلماء إنّه إذا عُرف أحد بالعين أن يُجتنب ويُتحرَّز منه، وعلى الإمام أنّ يأمره بلزوم بيته، فإن كان فقيرا رزقه ما يكفيه فيكفُّ ضرره وأذاه عن النّاس. (قال) النّووى [وهذا القول صحيح مُتيقّن لا يعرف عن غيره تصريح بخلافه(٣)].

ولمّا كان من الإصابة بالعين ما يقتل فقد اختُلف فى جريان القصاص بذلك فقال القرطبى [لو أتلف العائن شيئا ضمنه، ولو قتل فعليه القصاص أو الدّيَة إذا تكرّر ذلك منه بحيث يصير عادة. ولم يتعرّض الشّافعية للقصاص فى ذلك بل منعوه وقالوا: إنّه لا يقتل غالبا ولا يُعدّ مُهلكا]. (قال) النّووى: [ولا ديّة ولا كفّارة، لأنّ الحكم إنّما يترتّب على منضبط عام دون ما يختصّ ببعض النّاس فى بعض الأحوال ممّا لا انضباط له، كيف ولم يقع منه فعل أصلا، وإنّما غايته حسد وتمنٍ لزوال نعمة، وأيضا فالذى ينشأ عن الإصابة بالعين حصول مكروه لذلك الشّخص ولا يتعيّن ذلك المكروه فى زوال الحياة، فقد يحصل له مكروه بغير ذلك من أثر العين(٤)].

---

(١) نقلا عن نيل الأوطار للشّوكانى [ج ٨ ص ٢٤٤].

(٢) أورده ابن القيّم فى زاد المعاد [ج ٤ ص ١٧٠].

(٣) انظر نووى مسلم [ج ٧ ص ٤٢٨].

(٤) انظر نيل الأوطار [ج ٨ ص ٢٤٤].

(الوسيلة الثّالثة)

ستر محاسن من يُخَافُ عليه من العين

ممّا يُحترز به من العين سَتْرُ محاسنِ من يُخافُ عليه شرّهَا بما يردّها عنه، ومن ذلك ما ذكره البغوى في كتابه شرح السُّنّة «أَنَّ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَأَى صَبِيًّا مَلِيحًا فَقَالَ دَسِّمُوا نُونَتَهُ لِئَلاَّ تُصِيبَهُ الْعَيْنُ[١]». ثمّ قال في تفسيره: ومعنى «دَسِّمُوا نُونَتَهُ» أى سَوِّدُوا نُونَتَه، والنُونَة النُّقْرَةُ التى تكون فى ذَقَنِ الصّبى الصّغير.

وذكر الخطّابى ذات الرِّواية فى «غريب الحديث» له عن عثمان «أَنَّهُ رَأَى صَبِيًّا تَأْخُذُهُ الْعَيْنُ فَقَالَ دَسِّمُوا نُونَتَهُ». فقال أبو عمرو: سألت أحمد بن يحيى عنه فقال [أراد بالنُّونة «النُّقْرَةُ» التى فى ذَقَنه، والتَّدْسيم: التَّسْوِيدُ، أراد: سَوِّدُوا ذلك الموضع من ذقَنه ليَرُدَّ العين[٢]]. و«الذَّقَنُ» مجتمع اللّحيين من أسفلهما.

ولعلّ هذا يتّصل اتصالا مباشرا بما رواه البخارى عن أبى هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال «الْعَيْنُ حَقٌّ وَنَهَى عَنِ الْوَشْمِ[٣]». والمناسبة بين العين والوشم اشتراكهما فى أنّ كلاًّ منهما يُحدث فى العضو لونا غير لونه الأصلى:

(١) فَالْوَشْمُ يتمّ بغرز إبرة أو نحوها فى موضع من البدن حتّى يسيل الدّم ثمّ يُحشى ذلك الموضع بالكُحل أو غيره فيخضرّ مكانه وهو الأمر المنهى عنه، ويظهر من فقه الحديث أنّ الباعث على عمل الْوَشْمِ تغيّر صفة الموشوم لئلا تُصيبه العين، فنهى رسول الله ﷺ عن الوَشْم مع إثبات العين، وأنّ التّحيُّل بالوشم وغيره ممّا لا يستند إلى تعاليم الشّرع الحكيم لا يُفيد شيئا وأنّ الذى قدّره الله تعالى سيقع لا محالة.

(٢) أمّا الْعَيْنُ فإنّها تُحدث تغيُّرا فى الجسم كذلك لحديث أمّ سلمة أنّ النّبى ﷺ رأى فى بيتها جارية فى وجهها سَفْعَةٌ فقال «اسْتَرْقُوا لَهَا فَإِنَّ بِهَا النَّظْرَةَ[٤]».

ومراده أنّ السَّفعة أدركتها من قبَلِ النّظرة، ولفظه عند مسلم «بِهَا نَظْرَةٌ فَاسْتَرْقُوا لَهَا، يَعْنِي بِوَجْهِهَا صُفْرَةً[٥]». وقوله ﷺ عن أولاد جعفر «مَالِي أَرَى أَجْسَامَ بَنِي أَخِي ضَارِعَةً تُصِيبُهُمُ الْحَاجَةُ؟ قَالَتْ: لاَ وَلَكِنِ الْعَيْنُ تُسْرِعُ إِلَيْهِمْ قَالَ ارْقِيهِمْ[٦]». وقوله «ضَارِعَةً» أى

(١) انظر شرح السُّنّة للبغوى [ج ١٣ ص ٦١١].

(٢) انظر زاد المعاد لابن القيّم [ج ٤ ص ١٧٣].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٧٤٠] ومسلم [٢١٨٧] دون ذكر الوشم.

(٤) من حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٧٣٩] ومسلم [٢١٩٦].

(٥) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٢١٩٧].

(٦) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢١٩٨].

نحيفة ضعيفة هازلة.

ويُعلم من دلالات الأحاديث:

(١) أنّ الرُّقى مما يُستدفع بها البلاء، وأنّ العين تؤثر فى الإنسان وتضرعه أى تضعفه وتهزله ولذلك يقال إنّ العين أسرع إلى الصّغار منها إلى الكبار وذلك بقضاء الله تعالى وقدره سبحانه.

(٢) إنّما يُسترقى من العين إذا لم يُعرف العائن، أمّا إذا عُرف الذى أصابه بعينه فإنّه يُؤمر بالاغتسال على حديث أبى أمامة والله أعلم.

ولـمّا عزم أخوة يوسف الخروج إلى مصر وكانوا أهل بَسطة وجمال خشى عليهم أبوهم حَسَد العين على قول ابن عبّاس وقتادة والضّحّاك وغيرهم، وأمَرهم ألاّ يدخلوها من بابٍ واحد كما فى قوله تعالى ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ﴾[يوسف: ٦٧]. وجاء فى ذلك أقوال أظهرها أنّه قَصد تُقاةَ العين، ولا خلاف بين أهل التّوحيد أنّ العين حقّ ودلالة الآية تبيّن أنّه عليه السّلام حملهم على التّفرّق مخافة شرّها.

ثمّ يُؤكّد فى سياق الآية الكريمة أنّ دخولهم من أبواب متفرّقة لا يردّ القدر إنّما هو أمر تأنس به النّفوس وتتعلّق به القلوب إذا خُلقت ملاحظة للأسباب وهو معنى قوله تعالى ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾[يوسف: ٦٨]. وفيها دليل على أنّ المسلم يجب عليه أن يحذّر أخاه والقريب منه مما يخاف عليه ويرشده إلى ما فيه طريق السّعادة والنّجاة فإنّ الدّين النّصيحة.

العلاقة بين العين الحاسدة والنّفس الحاقدة

تأثيرات النّفس بعضها فى بعض أمر لا يُنكره ذو حسّ سليم ولا عقل مستقيم، ولا سيّما عند تجرُّدها عن العلائق والعوائق البدنية، فإنّ قُواها تتضاعف وتتزايد بحسب ذلك ولا سيّما عند مخالفة هواها وحملها على الأخلاق العالية من العفّة والشّجاعة والعدل والسّخاء وتجنُّبها سفاسف الأخلاق.

وتأثير النّفس فى هذا العالم من القوّة التى يعجز أمامها البدن وأعراضه، كأن ينظر إنسان إلى حَجَر عظيم فيشقّه، أو حيوان كبير فيقتله، أو إلى نعمة فيزيلها، وهذا أمر قد شاهَدته الأمم على اختلاف أجناسها وأديانها، وهو الذى سُمّى «بإصابة العين». فيضيفون الأثر إلى «الْعَيْن» وليس لها فى الحقيقة شىء، وإنّما هى النّفس المتكيّفة بكيفيّةَ رديئة سُمِّيَّة، وقد تكون بواسطة نظر العين وقد لا تكون، بل يوصف لهذا الإنسان الشّىء من بعيد

فتتكيّف عليه «نَفْسُهُ» بتلك الكيفيّة فتفسده.

لذلك أُطلق مُسمّى «النّفسُ» على «الْعيْنِ الحَاسدَة». فيقال [أصابتْ فُلانًا نفسٌ] أى «عَيْنٌ». وهو التّعبير الذى تضمّنه قوله ﷺ «لا رُقْيَةَ إلاّ من نَفْسٍ أوْ حُمَة أوْ لدْغة[1]». كما جاءت استعاذته من العين بقوله «مِنْ شَرِّ كُلِّ نفْسٍ».

(قال) النّووى [يُحتمل أن يراد بها العين]. فإنّ «النَّفْسَ» تُطلق على العين ومنه قولهم [رَجُلٌ نَفُوسٌ] إذا كان يُصيب النّاس بعينه وقد جاء بيان ذلك فى:

* قوله ﷺ من رواية مسلم «مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أوْ عَيْنِ حَاسِدٍ[2]».
* وقوله ﷺ عند ابن ماجه «مِنْ كُلِّ نَفْسٍ أوْ عَيْنٍ أوْ حَاسِدٍ اللّهُ يَشْفيكَ[3]».
* وقوله ﷺ من حديث جابر رضي الله عنه «أكْثَرُ مَنْ يَمُوتُ مِنْ أُمَّتى بَعْدَ قَضَاءِ اللّهِ تعالى وَقَدَرِه بالْعَيْن[4]».

والأظهر فى ذلك [أنّك تستشعر تأثير «النّفس» فى الأجسام صُفَرَةً وحُمْرَةً وارتعاشا بمجرّد مُقابلتها لها، وهذه وأضعافها آثار خارجة عن تأثير البدن وأعراضه، فإنّ البدن لا يُؤثّر إلاّ فيما لاقاه وماسّه تأثيرا مخصوصا.

وقد أمر رسول الله ﷺ أن يغسل العائنُ مغابنَه ومواضِع القَذَر منه، ثمّ يُصَبُّ ذلك الماء على «الْمَعين» فإنّه يزول عنه تأثير نفسه فيه، وذلك يُسبّبه أمر طبيعى اقتضته حكمة الخالق جلّ شأنه، فإنّ «للنّفس الأمّارة الشّريرة» بهذه المواضع تعلّق وأُلف، والأرواح الخبيثة الخارجيّة تساعدها وتألف هذه المواضع غالبا للمناسبة بينها وبينها، فإذا غُسلت بالماء طُفئت تلك النّارية منها كما يُطفأ الحديد المحمى بالماء، فإذا صُبَّ ذلك الماء على المعين طفأ عنه تلك النّارية التى وصلت إليه من العائن، وقد وصف الأطبّاء الماء الذى يُطفأُ فيه الحديد لآلام وأوجاع معروفة وقد جرّب النّاس من تأثير الأرواح بعضها فى بعض عند تجرّدها فى المنام عجائب تفوق الحصر.

فالآثار النّفسية النَّاتجة من «العين» إنّما هى من تأثير النُّفوس الحاسدة بواسطة البدن ذاته، فالنّفوس والأبدان يتعاونان على التّأثير تعاون المشتركين فى الفعل، وتنفر النّفس بآثار لا يشاركها فيها البدن، ولا يكون للبدن تأثير لا تشاركه فيه النَّفس[5]].

---

(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١٥٩٢٠].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢١٨٦].

(٣) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٢٨٥٦].

(٤) حديث حسن أورده فى الصّحيحة [٧٤٧] وصحيح الجامع [١٢٠٦].

(٥) انظر كتاب الرُّوح لابن القيّم [ص ٢١٤ ـ ٢١٥].

(خامسا)

المسّ الشيطانى والتّوقى منه

لا خلاف بين عُلماء الأمّة على وجود ما يسمّى بالمسّ الشّيطانى لورود تعريفه والإشارة إليه على الحقيقة والمجاز فى أكثر من آية كريمة منها قول الله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٥] . وهو نصّ يستحضره القرآن العظيم لصورة معروفة معهودة عند النّاس ليؤكّد بها على أمرين:

(الأوّل) أن تؤدّى دورها الإيمائى فى إفزاع الحسّ الإنسانى عند من يأكلون الرّبا لتحريك مشاعرهم وهَزّهَا هزًّا عنيفًا قويًّا، يُخرجهم من مألوف عادتهم فى تعاملهم بالرّبا باعتباره شُحًّا وقذارة ودَنسا.

(الثّانى) أن تجسّم هذه الصُّورة الحيَّة المتحرّكة لهذا الممسوس المصروع المتخبِّط، لتبيِّن للأمّة الرّاشدة أنّ المسّ الشّيطانى يُؤدِّى إلى الجنون القاتل المُميت، وما كان ليمسّ أحدًا إلاّ بابتعاده عن المنهج الذى رسمه له الخالق جلّ وعلا.

والخلاف القائم بين النّاس لا يدور حول حقيقة المسّ - وهى أمر مسلّم به - وأنّه من الشّيطان ويكون منه الجنون لتوافق ذلك مع النّص القرآنى، وإنّما يدور حول أسباب المسّ وكيفيّته وهل هو ظاهرى أم داخلى بالمفهوم المشتهر على غير الحقيقة، والذى يعنى ولوج الجان جسد الإنسان وهو الأمر الذى انقسم الباحثون فيه إلى فريقين:

(أوّلهما) الذين تمسّكوا بدلالة الآيات التى تشير إلى أنّه مسّ ظاهرى لا يتعدّى معنى الوسوسة والغواية التى تنتهى بالمُوسوس إلى الاختلال العقلى والجنون، وما خرج «تفسير» المُحْكَم من الكتاب عن هذا المعنى بحال.

(والثّانى) هؤلاء الذين ساقوا المؤوّل غير الرّاجح من القول بدخول الجانّ بدن الإنسان وأنّه أمر مشهور محسوس لمن تدبّره، فيدخل فى جسد المصروع ويتكلّم بكلام لا يعرفه بل ولا يدرى به، ودليلهم فى ذلك «شهرة هذه الأخبار وظهورها عند العلماء» وهى أقوال تدخل فى انعدام الدّليل عند الأصوليين.

والحقيقة أنّ مسألة ولوج الجنّ فى الإنس مسألة تتعارض مع المفهوم الذى جاء به القرآن على أنّه «مَسٌّ» وليس «وُلُوجٌ» والفارق بين المعنَيَين يُمثّل الحدّ الفاصل بين حقيقة مُؤكّدَة بالقطع هى «الْمَسُّ» وتأوُّلٌ منكور لا يُصادف دليلا هو «الْوُلُوجُ» من وَلَجَ الشَّىْءُ فى غيره [يَلِجُ] ولُوجًا: دَخَلَ فيه فهو [وَالِجٌ].

والْمَسُّ في اللُّغة من [مَسَّ الشَّيْءَ مَسًّا] و[مَاسَّهُ مُمَاسَّةً ومِسَاسًا]: لَمَسَهُ بيده، ومَسَّهُ المَرَضُ [على المجاز]: أَصابَهُ، ومنه قوله تعالى ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٣]. و[تماسّا الزّوجان]: تلاقت بشرتاهما ومسّ جلدُ كلّ منهما جلدَ الآخر، ويُكْنَى بذلك عن الاتصال الجنسي أو مقدّماته كالقُبلة ونحوها، وفُسّر بذلك قوله تعالى في كفّارة الظّهار ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ [المجادلة:٣[(١)]].

وفي غريب الحديث [وقول الثّامنة «زَوْجِي الْمَسُّ مَسُّ أَرْنَب، والرِّيحُ رِيحُ زَرْنَب» فإنّها تصفه بحُسن الخُلُق ولين الجانب كمسّ الأرنب إذا وَضَعْتَ يدكَ على ظهرها، وقولها «رِيحُ زَرْنَبٍ» أي تعطُّره بالزّرنب وهو نوع من أنواع الطِّيب معروف[(٢)]].

وفي حديث فتح خيبر «فَمَسَّهُ عَذَابٌ». أي عاقبه، وفي حديث قتادة والميضاءة «فَأَتَيْتُهُ بِهَا فَقَالَ: مَسُّوا منهَا». أي خذوا منها الماء وتوضؤا، واستُعير للجماع لأنّه لمس، وللجنون كأنّ الجنّ مسّته، يقال: به مسٌّ من جنون، وفيه «فَأَصَبْتُ مِنْهَا مَا دُونَ أَنْ أَمَسَّهَا». يريد أنّه لم يُجامعها، وفي حدث موسى عليه السّلام «وَلَمْ يَجِدْ مَسًّا مِنَ النَّصَبِ». هو أوّل من يحسّ به من التّعب[(٣)]].

ومن الْمَسِّ الجنون على تخيّلُ أنّ الشّيطان قد مَسَّهُ كقوله تعالى ﴿كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾: أي المجنون لذى «لاَ يعى» كأنّ الشّيطان قد مَسَّهُ[[٤]]. يقال: مُسَّ الرَّجُلُ فهو مَمْسُوس وبه مَسٌّ، كَأَنَّ الشّيطان يمسّ الإنسان فَيُجِنُّهُ، و[الْمِسَاسُ]: الْمُمَاسّةُ والتَّماسُّ، ويقال في النّهي «لاَ مِسَاسَ» أي لاَ تَمَسَّ من قوله تعالى ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ [طه:٩٧]: أي لاَ أَمَسُّ ولاَ أُمَسُّ[(٥)]].

وفي قوله تعالى [مِنَ الْمَسِّ] ثلاثة أوجه أحدهما: أنّه مُتعلّق بتخبُّطه من جهة الجنون فيكون في موضع نصب[(٦)]. والثّاني: أنّه يتعلّق بقوله [لاَ يَقُومُونَ] أي لا يقومون من المسّ الذى بهم إلاّ كما يقوم المصروع. أمّا الثّالث: أنّه يتعلّق بقوله [يَقُومُ] أي كما يقوم الممسوس من جنونه[(٧)]].

وما جاء بيان «الْمَسِّ» في «القرآن» إلاّ وقد اقترن «بالضَّرَر» المتمثّل في السّوء والعذاب

---

(١) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ٣ ص ٢٨٢].

(٢) انظر غريب الحديث [ج ٢ ص ١٧٦] والحديث عند البخارى [٥١٨٩] ومسلم [٢٤٤٨].

(٣) انظر النّهاية في غريب الحديث [ج ٤ ص ٣٢٩ - ٣٣٠].

(٤) انظر القاموس القويم للقرآن الكريم [ج ٢ ص ٢٢٦].

(٥) انظر التّوقيف [ص ٦٥٦].

(٦) قاله أبو البقاء في الإملاء [ج ١ ص ١١٦].

(٧) ذَكَر الوجهين الأخيرين الزّمخشرى في الكشّاف [١ / ٣٩٩].

والنَّصَبَ والضَّرَّاء ، وما تحدّثت الآيات عن «مَسٍّ» إلاّ وكان مصدره الابتلاء والمعصية والفساد والمخالفة لأوامر الله ومُعاداة شرعه، وفي «الكلّيات» لأبي البقاء [المسّ: يقال فيما معه إدراك بحاسّة السّمع، ويكنى به عن النّكاح والجنون، ويُقال في كلّ ما ينال الإنسان من أذى: مَسٌّ[1]]. ورغم أنّ هذا كلّه قد جاء في أكثر من ستّين آية في كتاب الله تعالى إلاّ أنّها تقف بنا أمام عدّة أمور:

(الأمر الأوّل)

هل المسّ هو الصّرع؟

يتلاحظ للقارىء في تفسير العلماء لقوله تعالى﴿يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ أنهم أطلقوا مسمّى [الصَّرْع] على هذا التّخبُّط الذي يُصاب به المريض من المسّ، فكأن الصّرع عندهم هو نتيجة هذا التّخبُّط الذي عرّفوه بعد ذلك أنّه الجنون، الأمر الذي نتج عنه الخلط بين تعريف الأمراض التي تنشأ عن المسّ وبين الصّرع رغم اختلاف الطّبيعة المرضيّة والظواهر النَّفسية لكلّ منهما.

وفارق بين التّخبُّط الذي يكون مصدره مسّ الشّيطان ونتائجه المترتّبة عليه وبين الصّرع الذي هو [علّة في الجهاز العصبي تتميّز بنوبات غيبوبة وتشنُّج في العضَلات ويُصاحبها عادة اضطراب عقلي]. إذ المَعْنيُّ في تفسير الآية الوقوف على النّتائج السّلبية لمسّ الشّيطان هل هو هذا التّخبُّط الذي يقع فيه الممسوس أم هو هذا الصّرع الذي دَرَج المفسّرون على ذكره عند حديثهم عن هذا التّخبُّط؟.

والذي يفصل في المسألة هو هذا الفارق العضوي والنّفسي بين الحالتين، كما أنّ مُفردات اللُّغة تكشف حقيقة العلاقة بين الهستيريا النّاتجة من المسّ وهذا الصّرع الذي ترجموه بالتّخبُّط!:

* فالصّرع في تعريف الطبّ الحديث هو نوبات تصيب بعض النّاس نتيجة خلل مؤقت في وظيفة الجهاز العصبي، وما يظهر على مريض الصّرع من أعراض ليس سوى النتيجة النهائية لهذا الاضطراب، فقد يفقد المريض الوعي بما حوله أو يسقط بصورة مُفاجئة في أي مكان، فما يُقال في الصَّرْع لا يُقال في المسّ لاختلاف العوامل المؤثّرة لكلّ منهما [[2]].

* أمّا التّخبُّط فهو من علامات الجنون وهو يعني فقدان الإدراك الصّحيح من الإنسان ممّا ينتج عنه خروج حركته عن النّظام المألوف على غير اتساق يخبط فيها كخبط

---

(1) انظر الكلّيّات لأبي البقاء [ص ٥٧٢].

(2) انظر كتاب مرض الصّرع للدكتور لطفي عبد الغني [ص ٩].

العشواء من الجنون.

ومن الفروق الواضحة بين المسّ والصّرع:

(١) أنّ الممسوس لا يمنعه مسّه من الحركة أو القيام لقوله ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ﴾. إلاّ أنه لا يستطيع التّحكّم في سيره فيسير وكأنّه يترنّح من دُوار أصابه ويشعر كأنّ الأرض تميد به من تحته، وعندما يتكلّم فإنّه لا يعي ما يقول ولا يستطيع أن يربط بين ما قال وما يقوله وما يجب أن يقوله بعد ذلك، وبديهي أنّ هذا كلّه من الأمراض التي تنشأ عن المسّ مثل الهستيريا والأمراض التّشخيصية الأُخرى النّاتجة عنها.

(٢) أنّ الصَّرْع العضوي هو مرض عصبي يحدث على شكل نوبات من التّشنُّج والاختلاج القوي تستمر لعدّة دقائق يتبعها نوم عميق، ولا يستطيع المصروع خلال النّوبة الصّرعية أن يتحدّث مع أحد.

(٣) أنّ الصَّرْع العضوي غالبا ما يُكتشف أو يتم تشخيصه بواسطة تخطيط الدّماغ الكهربائي أمّا المرض النّفسي فإنّه يتمّ التعرُّف عليه عندما يتحوّل إلى صور متعدّدة من الاضطرابات النّفسية يكون مظهرها الأساسي تغيُّرا عقليا لا يفقد معه المريض إحساسه وشعوره تماما.

(٤) يكونَ فقدان الوعي في الصَّرْع كاملا مع توفُّر الأدلّة العصبية على اكتماله، بينما لا يكون الوعي مفقودا كليًّا في الهستيريا.

(٥) في الصَّرْع قد يصكّ المريض أسنانه ويعضّ لسانه أو شفتيه، وقد يؤذي نفسه أثناء الوقوع على الأرض، أمّا مريض المسّ فقد يغلق فكّيه ولكنه لا يدمي لسانه أو شفتيه، ويكون وقوعه تدريجيا ومُحاذرا للخطر.

(٦) يخرج الزَّبَد من فم المصروع كما يتحوّل وجهه إلى الزُّرقة وقد يتبوّل أثناء النّوبة، وكلّ هذه الأمور لا تحدث عند الممسوس.

(٧) النّوبة الصّرعية تستجيب في مُعظم الحالات للعلاج بالأدوية المقاومة للصّرع بينما لا تتأثر النّوبة الهستيرية إلاّ بالتّأثير الإيحائي من الطّبيب المُعالج.

(٨) الحركة الدّماغية في الصَّرْع حركة صرعيّة أثناء النّوبة وربّما تكون مضطربة وغير طبيعيّة بين النّوبات الصّرعية، بينما تظل الحركة الكهربائية للدّماغ طبيعية في النّوبات الهستيرية وما بين هذه النّو بات.

(٩) إنّ من يكون مريضا بالوسوسة يحتاج إلى علاج يعتمد على الإيحاء النّفسي، بينما المصاب بالصّرع لا يحتاج إلى إيحاء نفسي ولا يؤثّر فيه هذا الإيحاء بحال.

(١٠) أنّ المصاب بحالة الوسوسة عندما يُشفى بعد عدّة جلسات نجده بعد مدّة يعود إلى نوع آخر من الوسوسة، بينما الذى كان مُصابا بحالة الصَّرْع إذا شُفى فنادرا ما يعود إلى الصَّرْع إذا حافظ على نصائح الطبيب المعالج.

ثمّ يأتى تفسير ابن القيّم للصّرع فاصلا جوهريًّا فى المسألة عندما قال فى تعريفه أنّه [علّة تمنع الأعضاء النّفسية عن الأفعال والحركة والانتصاب منعا غير تام، وسببُه خلط غليظ لزج يسدّ منافذ بطون الدّماغ سدّة غير تامّة فيمتنعُ نفوذ الحسّ والحركة فيه وفى الأعضاء نفوذا تامًّا من غير انقطاع بالكُليّة، وقد تكون لأسباب أُخر كريح غليظ يحتبس فى منافذ الرّوح، أو بخار ردىء يرتفع إليه من بعض الأعضاء، فينقبض الدّماغ لدفع المؤذى، فيتبعه تشنُّج فى جميع الأعضاء ولا يُمكن أن يبقى الإنسان معه منتصبا بل يسقط، ويظهر فى فمه الزّبد غالبا(١)].

وتقف بنا هذه الفروق أمام مسألتين:

(الأول) أنّه مع هذا الاختلاف فى طبيعة كل من الصّرع والمرض النّفسى الذى تعدّدت مسمياته عند العلماء، كان لابدّ من ضرورة التّصحيح اللّفظى والتّعريفى لكلّ من العلّتين، ليستقيم الفهم الصّحيح أمام تفسيرات الأئمّة لمعنى كلمة [الصّرع] ومفارقتها للأمراض النّفسية الأُخرى وعدم الخلط بينها.

(الثّانى) أنّ أكثر فقهاء الأمّة قد اتفقوا على أنّ المقصود بقوله ﴿مِنَ ٱلْمَسِّ﴾. هو الجنون الذى يمثّل أعلى درجات المسّ، (قال) الإمام البقَاعىُّ [يتخبَّطُه: أى يتكلّف خبطه ويكلِّفُه إيَّاه ويشقُّ به عليه، ولمّا كان ذلك قد يُظَنُّ أنّه تخبُّط الفكر بالوسوسة مثلا قال «مِن» أى تخبُّطا مبتدئا منشؤُه وأساسه من «المسّ» أى الجنون(٢)].

(الأمر الثّانى)

معنى المسّ فى كتاب الله تعالى

قد يرد المسّ بمعنى تخبُّط الشّيطان وقد يرد بمعنى الوسوسة وقد يعبّر عنه بالنّزغ أو البلاء، إلاّ أنّ اقتران «الْمَسِّ» بالشّيطان إنّما جاء فى آيتين اثنتين من مجموع هذه الآيات الكريمة التى تضمّنت عبارة «المسّ»:

{فالآيـة الأولى منها} قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ

---

(١) انظر زاد المعاد [ج ٤ ص ٧٠].

(٢) انظر كتاب نظم الدُّرر للبقاعى [٤ / ١١٠].

ٱلْمَسِّ﴾[البقرة:٢٧٥] . فإذا كان «الجنون» الذى يصاب به الإنسان من «مَسِّ الشَّيْطَان» وتخبيطه، فإنّ الإنكار إنّما يقع على ولوج الجان بدن الإنسان وهو ما تؤكّده حقيقة تفسير أئمّة المسلمين لمعنى «الْمَسّ» فى الآية الكريمة :

(١) فجاء عن ابن كثير في تفسيره للآية الكريمة [أى لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلاّ كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبّط الشّيطان له وذلك أنّه يقوم قياما منكرا، وقال ابن عبّاس رضي الله عنه «آكِلُ الرِّبَا يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَجْنُونًا يُخْنَقُ». و[قال] رواه ابن أبى حاتم(١)] .

(٢) كما جاء في تفسير الفخر الرّازى قوله [الْمَسُّ الْجُنُونُ، يُقَالُ مُسَّ الرَّجُلُ فهو «مَمْسُوسٌ» وبه مَسٌّ، وأصله من المسّ باليد كأنّ «الشّيطان» يمسّ الإنسان فَيُجَنُّ(٢)] .

(٣) وقال الطّبرى [لا يقومون في الآخرة من قبورهم إلاّ كما يقوم الذى يتخبّطه الشّيطان «منَ الْمَسِّ» يعنى من الجنون(٣)]. وروى فيه عن قتادة قال [هو التّخبُّل الذى يتخبّله الشّيطان من الجنون(٤)]. (قال) وتلك علامة أهل الرّبا يوم القيامة بعثوا وبهم خَبَلٌ من الشّيطان.

(٤) وجاء فى تفسير الكشّاف للزّمخشرى [والمعنى أنّهم يقومون يوم القيامة مُخَبَّلِينَ كالمصروعين، تلك سيماهُمْ يعْرَفُونَ بها عند أهل الموقف(٥)] .

(٥) وفى تفسير البحر المحيط لأبى حيّان [معناه كالسّكران الذى يَسْتَجِرُّهُ الشّيطانُ فيقعُ ظهراً لبطْنٍ، ونَسَبَهُ للشّيطان لأنّه مُطيع له فى سُكره. وظاهر الآية أنّ الشّيطان يتخبّط الإنسان بتمكين الله تعالى له من ذلك(٦)] .

(٦) وجاء فى تفسير القرطبى: والمعنى [منْ قُبُورِهِمْ]. قاله ابن عبّاس ومجاهد وابن جُبير وقَتادة والرّبيع والضّحّاك والسُّدّى وابن زيد: يجعل معه شيطان يخنقه، وقالوا: يُبْعَثُ كالمجنون عقوبة له وتمقيتا عند جميع أهل المحْشَر، ويُقَوِّى هذا التّأويل الْمُجْمَع عليه أنّ فى قراءة ابن مسعود رضي الله عنه [لاَ يَقُومُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ(٧)] .

(١) انظر تفسير ابن كثير [ج ١ ص ٣٠٨].

(٢) انظر تفسير الفخر الرّازى [ج ٧ ص ٩٥].

(٣) انظر تفسير الطّبرى [ج ٣ ص ١٠٢].

(٤) انظر المرجع السّابق رقم [٦٢٤٤].

(٥) انظر تفسير الكشّاف للزّمخشرى [ج ١ ص ١٦٤].

(٦) انظر تفسير البحر المحيط لأبى حيّان [ج ٢ ص ٧٠٣].

(٧) انظر تفسير القرطبى [ج ٣ ص ٣٥٤].

(٧) وقال ابن عطيّة في المحرّر الوجيز [وأمّا ألفاظ الآية فكانت تحتمل تشبيه حال القائم بحرص وجشع إلى تجارة الرّبا بقيام المجنون، لأنّ الطّمع والرّغبة تستفزّه حتّى تضطرب أعضاؤه، وهذا كما تقول لمسرع في مشيه يخلط في هيئة حركاته إمّا من فزع أو غيره قد جُنَّ هذا ! والمراد تشبيه المرابى في حرصه وتحرّكه في اكتسابه في الدّنيا بالمتخبّط المصروع، وهذا هو المتبادر، وذهب بعض العلماء إلى خلافه فقالوا إنّ المراد بالقيام [القيام من القبر عند البعث وأنّ الله تعالى جعل من علامة المرابين يوم القيامة أنهم يُبعثون كالمصروعين[١]]. ورُوى ذلك عن ابن عبّاس وابن مسعود رضى الله عنهما.

(٨) وقال الألوسي في تفسير قوله ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ : أى إلاّ قياما كقيام المتخبِّط المصروع في الدُّنيا، والتّخبُّط تفعُّل بمعنى فعل وأصله ضَربٌ مُتوال على أنحاء مختلفة، ثمّ تجوّز به عن كلّ ضرب غير محمود، وقيام المرابى يوم القيامة كذلك ممّا نطقت به الآثار.

بل روى الطّبراني من حديث عوف بن مالك مرفوعا «إيّاكَ وَالذُّنُوبُ الَّتِى لاَ تُغْفَرُ: الْغُلُولُ، فَمَنْ غَلَّ شَيْئًا أَتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالرِّبَا، فَمَنْ أَكَلَ الرِّبَا بُعِثَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَجْنُونًا يَتَخَبَّطُ». ثمّ قرأ الآية، وهو ممّا لا يحيله العقل ولا يمنعه، ولعلّ الله تعالى جعل ذلك علامة لآكل الرِّبا يُعرف بها يوم الجمع الأعظم عقوبة له كما جعل لبعض المطيعين أمارة تليق به يُعرف بها كرامة له، ويشهد لذلك أنّ أبناء هذه الأمّة يُبعثون يوم القيامة غُرًّا مُحجَّلين من آثار الوضوء - وإلى هذا ذهب ابن عبّاس وابن مسعود وقتادة واختاره الزّجاجُ [[٢]].

(٩) و(قال) في تفسير المنار [والمتبادر إلى جميع الأفهام ما قاله ابن عطيّة، لأنّه إذا ذكر القيام انصرف إلى النّهوض المعهود في الأعمال، فإذا كان ما شُنّع به على المرابين من خروج حركاتهم عن النّظام المألوف هو أثر اضطراب نفوسهم وتغيّر أخلاقهم، كان لابدّ أن يبعثوا عليه [[٣]]، فإنّ المرء يُبْعثُ على ما مات عليه لأنّه يموت على ما عاش عليه، وهناك تظهر صفات النّفس الخسيسة في أقبح مظاهرها كما تتجلّى صفات النّفس الزّكية في أبهى مجاليها[٤]].

(١٠) وقال ابن حزم [وأمّا الصَّرْع فإنّ الله تعالى قال ﴿ يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾

---

(١) انظر المحرر الوجيز لابن عطيّة [ج ١ ص ٣٧٢].

(٢) انظر تفسير روح المعانى للألوسى [ج ٣ ص ٤٩].

(٣) ويتأيّد هذا بقوله ﷺ عند مسلم «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ». أى يُبْعثُ على الحالة التى مات عليها. ومثله قوله ﷺ عند البخارى «ثُمَّ بعثُوا عَلَى أعْمَالِهِمْ».

(٤) انظر تفسير المنار [ج ٣ ص ٨٠].

فذكر أنّ تأثير الشّيطان في المصروع إنّما هو بالمماسّة، فلا يجوز لأحد أن يزيد على ذلك شيئا، ومن زاد على هذا شيئا فقد قفَا ما لا علم له به، وهو حرام لا يحلّ وقد قال تعالى ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[الإسراء: ٣٦].

(قال) وهذه الأمور لا يمكن أن تُعرف البتّة إلاّ بخبر صحيح عن رسول الله ﷺ ولا خبر عنه بغير ما ذكرنا، فصحّ أنّ الشّيطان يمسّ الإنسان الذي يسلّطه الله عزّ وجلّ عليه «مَسًّا» يُثير من طبائعه السّوداء والأبخرة الصّاعدة إلى الدّماغ كما يُخبر به عن نفسه كلّ مصروع، فيُحدث الله عزّ وجلّ له الصَّرْع والتّخبُّط حينئذ كما نشاهده وهذا هو نصّ القرآن وما توجبه المشاهدة، وما زاد على هذا فخُرافات من توليد العزّامين والكذّابين(١)].

ثمّ إنّ «التّشبيه» مبنى على أنّ المصروع الذي يُعبَّر عنه «بالممسوس» إنّما يتخبّطه الشّيطان، أي أنّه يُصرع بمسّ الشّيطان له وهو ما كان معروفا عند العرب وجاريا في كلامهم مجرى المثل.

(قال) البيضاوي: [لاَ يَقُومُونَ] إذا بُعثوا من قبورهم [إلاّ كما يقوم الذي يتخبّطه الشّيطان] إلاّ قياما كقيام المصروع، وهذا وارد على ما يزعمون أنّ الشّيطان يخبط الإنسان فَيُصْرَعُ، والْخَبْطُ ضرب على غير اتساق كَخَبْطِ الْعَشْوَاء [مِنَ الْمَسِّ] أي الجنون، وهذا من زعمهم أنّ الْجِنَّ يَمَسُّهُ فيختلط عليه عقله، ولذلك قيل جُنَّ الرَّجُلُ، وهو متعلّق بـ﴿لاَ يَقُومُونَ﴾ أي لا يقومون من المسّ الذي بهم بسبب أكل الرّبا [(٢)].

والخلاصة عند أهل العلم تتمثّل في عدّة أقوال:

(الأوّل) أنّ آكل الرّبا يُبعث يوم القيامة مجنونا وذلك كالعلامة المخصوصة بآكل الرّبا، فيعرفه أهل الموقف بتلك العلامة أنّه آكل الرّبا في الدّنيا، فعلى هذا يكون معنى الآية: أنّهم يقومون مجانين كمن أصابه الشّيطان بجنون.

(الثّاني) وفيه قال ابن منبّه: يريد إذا بُعث النّاس من قبورهم خرجوا مسرعين لقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾. إلاّ أكلة الرّبا فإنّهم يقومون ويسقطون كما يقوم الذي يتخبطه الشّيطان من المسّ، وذلك لأنّهم أكلوا الرّبا في الدّنيا فأرباه الله تعالى في بطونهم يوم القيامة حتّى أثقلهم فهم ينهضون ويسقطون، ويريدون الإسراع ولا يقدرون.

(الثّالث) أنّ الشّيطان يدعوا إلى طلب اللّذات والشّهوات والاشتغال بغير الله، فهذا هو المراد من مسّ الشّيطان، ومن كان كذلك كان في أمر الدّنيا مُتخبِّطا، فتارة

---

(١) انظر الفصَل في الملل والأهواء والنّحل لابن حزم [٥ / ١١٣].

(٢) انظر تفسير البيضاوي [ج ١ ص ١٤٢].

يجرّه الشّيطان إلى النّفس والهوَى، وتارّة يجرّه المَلَكُ إلى الدِّين والتّقوى، فحدثت فى مقابل ذلك حركات مضطربة وأفعال مختلفة، فهذا هو الخبط الحاصل بفعل الشّيطان.

(الرّابع) أنّ آكل الرّبا لاشكّ يكون مُفرطا فى حبّ الدّنيا مُتهالكا فيها، فإذا مات على ذلك الحبّ صار ذلك الحبّ حجابا بينه وبين الله تعالى، فالخبط الذى كان حاصلا فى الدّنيا بسبب حبّ المال أورثه الخبط فى الآخرة وأوقعه فى ذلّ الحجاب[(١)].

فالآية على هذا لا تُثبت أنّ الصّرع المعروف يحصل بفعل الشّيطان حقيقة ولا تنفى ذلك، وفى المسألة خلاف بين العلماء، إذ أنكر المعتزلة وبعض أهل السُّنَّة أنّ يكون للشّيطان فى الإنسان غير ما يُعَبَّرُ عنه [بالوسوسة]. وقال بعضهم: إنّ سبب الصَّرْع مسّ الشّيطان كما هو ظاهر التّشبيه وإن لم يكن نصًّا فيه.

أمّا {الآية الثانية} فهى قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. والطّائف فى اللّغة على قولين:

(الأوّل) مَنْ يدور على الإنسان يطلب اقتناصه من: طَافَ حَوْلَهُ وبه وعَلَيْه طَوْفًا وطَوَافًا: دَارَ وحَامَ إذا أقبل وأدبر، من طَافَ يَطُوفُ طَوْفًا: إذا جعل يستدير بالقوم ويأتيهم من كلّ ناحية، وفى «التّهذيب» للتّبريزى [أطاف به: إذا ألَمَّ به وطاف حول الشّىء وطوفا إذا دار حوله(٢)]

(الثّاني) ما كان كالخيال يَلُمُّ بالشّخص. و«الطَّوْفُ» من قولهم طاف به: أى أَلَمَّ به وأَحَاطَ، [قال] الفرّاء: فى هذه الآية الطَّائفُ والطَّيْفُ سواء، وهو ما كان كالخيال الذى يَلُمُّ بالمرء فى المنام أو اليقظة، ومنهم من قال الطَّيْفُ كَالْخَطْرَةِ والطَّائِفُ كَالْخَاطِرِ، وكلاهما ما يخطر بالقلب أو النّفس من أمر أو معنى.

ويسمّى الجنون والغضب «طَيْفًا» لأنّه «لَمَّةٌ» من الشّيطان تُشَبَّهُ بلَمَّة الخيال. و(قال) الأزهرى: [الطَّيْفُ فى كلام العرب: «الْجُنُونُ». ثمّ قيل للغضب «طَيْفٌ» لأنّ الغضبان يشبه المجنون الذى استولى الشّيطان على عقله وألقى الخيالات الفاسدة إليه].

ويُستدلّ من الآية أنّ لهذا المسّ أثر مباشر على أصحاب النّفوس غير السَّوية التى تستجيب لهذا المسّ الشّيطانى عند تعرُّضها لأيّة ضغوط أو استفزازات لكونها غير مُبصرة فيعتادُها عندئذ بأفعال خارجة عن الإرادة، سواء كان ذلك فى صورة معاصٍ أو

---

(١) انظر تفسير الفخر الرّازى [ج ٧ ص ٩٧].

(٢) انظر تهذيب اصلاح المنطق للتّبريزى [ص ٥٧٧].

هستيريا أو تصرّفات أخرى تدلّل على خطورة هذا المسّ، إذ أنّ هناك نفوس ذات سمات مُعيّنة تستجيب لتخبُّط الشّيطان لها عند تعرُّضها للابتلاء بمثل هذه الضّغوط وهو ما يُسَمَّى بعنصر القابليّة والاستعداد.

وتشير كذلك إلى أنّ «المسّ» في الآية الكريمة يأتي من هذا الطّائف الشّيطاني الذي يُعمي القلب ويطمس البصر والبصيرة في لحظة استقطابه للإنسان، إلاّ أنّ تقوى الله ومراقبته والخشية من عقابه وغضبه ـ تلك الوشيجة التي تصل القلوب بخالقها وتُوقظها من الغفلة عن هداه ـ تذكّر المتّقين وتجذبهم إلى طريق الطّاعة وتحميهم من كيد الشّيطان وحزبه، فإذا تذكّروا تفتّحت بصائرهم، وتكشّفت الغشاوة عن عيونهم، وانزاح الْهَمُّ عن قلوبهم كما أشار بذلك قوله تعالى ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾.

والمعنى الحقيقي للآية يؤكّد أنّ الذين اتّقوا المعاصي وخافوا ربّهم إذا لحقهم شيء من غوايات الشّيطان وطيفه تذكّروا عقاب الله تعالى وثوابه ووعده ووعيده، وأنابوا إليه واستعانوا به واستقاموا على أمره واتّبعوا نهجه وصراطه، وتفكّروا في قدرة الله تعالى وفي إنعامه عليهم، فتركوا غيَّهُ ووسوسته وانتهوا عنها.

لقد أدركوا أنّ مَسَّ الشّيطان عَمًى وأنّ تذكُّر الله تعالى إبصار، وأنّ مسّ الشّيطان ظُلمة وأنّ الالتجاء إلي الله هداية ورحمة ونُور، فإذا حضرت هذه التّذكُّرات في العقول فإنّ «طَائفَ» الشّيطان و«مَسّه» يزول في الحال ويتحقّق للمرء الاستبصار والانكشاف والتّجلي، ويحصل الخلاص من وسوسَة الشّيطان وحقده وإفساده [(١)]. ويُستَخْلَصُ من ذلك أنّ مسّ الشّيطان للإنسان لا يخرج عن حالات ثلاثة جاء ذكرها في الكتاب والسُّنَّة على النّحو التّالي:

أولا ـ مسّ الإغواء والإضلال

ويتحقّق هذا المسّ بوسوسة الشّيطان ونزغه إذ أصبح من المسلّمات أنّ «المسّ» الذي يُمرض الإنسان ويصل به إلي الجنون فيُهلكه هو هذا «الوسواس» الذي يتحكّم الشّيطان من خلاله في البشر في شكل خواطر تزيّن لهم الإثم والمعصية، وتشدّهم للانحراف عن سواء السّبيل، وتدفعهم إلي الغواية والشّر وارتكاب الخطيئة، وبرهان ذلك قول الله تعالى ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾[النّاس:٤]. وهو ما كان يتعوّذ رسول الله ﷺ بربّه تعالى من فتنة وسوسته كما في حديث عمر «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنْ خَمْسٍ ـ منها ـ: فِتْنَةُ الصَّدْرِ». وجاء عند النّسائي بلفظ «وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الصَّدْرِ[(٢)]».

ثمّ تأمّل حكمة القرآن وجلالته كيف أوقع الاستعاذة من شرّ الشّيطان الموصوف

---

(١) انظر تفسير الفخر الرّازي [ج ١٥ ص ١٠٤].

(٢) من حديث صحيح أخرجه أبو داود [١٥٣٩].

بأنه [الوسواس الخنّاس] لتعمّ الاستعاذة شرّه جميعه، ووصفه بأعظم صفاته وأشدّها شرًّا وأقواها تأثيرا وأعمّها فسادا، وهي «الوسوسة» التي هي مبدأ الإرادة، فإنّ القلب يكون فارغا من الشّر والمعصية، فيُوسوس إليه ويخطر الذّنب بباله، فيصوّره لنفسه ويمنّيه ويشهيه فيصير شهوة، ويزيّنها له ويُحسنّها ويُخيّلها له في خيال تميل نفسه إليه، فيصير إرادة.

ثمّ لا يزال يمثل ويُخيّل ويُمنّي ويُشهّي وينسي علمه بضررها ويطوى عنه سوء عاقبتها، فيحول بينه وبين مُطالعته فلا يرى إلاّ صورة المعصية والتّلذاذ بها فقط وينسى ما وراء ذلك حتّى تصير الإرادة عزيمة جازمة، فيشتدّ الحرص عليها من القلب، فيبعث الشّيطان مددا له وعونا، فإن فتروا حرّكهم وإن تأخرّوا أزعجهم كما قال الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[مريم: ٨٣].

أي كلّما فتروا أو ونوْا أزعجتهم الشّياطين وأثارتهم إلى المعاصي ودفعتهم إلى الفتن والمنكرات، فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذّنب وتنظّم شمل الاجتماع بألطف حيلة وأتمّ مكيدة حتّى صارت الشّياطين قوّادون لكلّ من عصى الله تعالى ورسوله ﷺ.

لقد بيّن العلماء أنّ لهذه الوسوسة حدّ أدنى يزول أثره بالذّكر والصّلاة وقراءة القرآن كما تتعدّد توجّهاتها تدريجيّا بقدر إيمان المرء وصبره واحتسابه، ثمّ يكون من هذا المسّ:

(أ) وسوسة الصّلاة

وهي الإلقاء الخفيّ الذى يحاول الشّيطان من خلاله أن يُفسد على المرء صلاته ويُلَبِّسَ عليه قراءته وينتزع منه خشوعه، فلا يدرى كم صلّى:

* كهذا الذى كان يحُول بين عثمان بن أبي العاص الثّقفي وبين صلاته يَلْبسُهَا عليه، فاشتكي ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال «إنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلاَتِي وَقِرَاءَتِي يَلْبسُهَا عَلَيَّ؟. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خنزَبٌ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بالله مِنْهُ وَاتْفُلْ عَنْ يَسَارِكَ ثَلاَثًا، قَالَ فَفَعَلْتُ فَأَذْهَبَهُ اللهُ عَنِّي(١)».

وقوله «يَلْبسُهَا»: من اللَّبس وهو الخلط ويأتي بمعني الاشتباه والإشكال أي يُخلّطها عليّ من قوله تعالى ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾. إذا مزجت بيّنه ومُشكله وحقّه بباطله، وعُرِّف الالتباس في الاصطلاح بأنّه صيرورة شيء مُشتبها بآخر بحيث لا يكون بينهما تفاوت أصلا.

* وفي الصّحيح عن النّبى ﷺ قال «إنَّ الشَّيْطَانَ عَرَضَ لِي فَشَدَّ عَلَيَّ يَقْطَعُ الصَّلاَةَ عَلَيَّ فَأَمْكَنَنِي اللهُ مِنْهُ(٢)». أى تعرّض لي بغتة، وهدف الشّيطان من ذلك إفساد صلاة المرء وتلبيسه

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٠٣] وأحمد [١٧٨٢٣].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٣٢٨٤] ومسلم [٥٤١] مُطولّا.

عليه قراءتها بنزغه الشّاغل عن ذكر الله تعالى.

* وجاء في السُّنن عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْتِى أَحَدَكُمْ فِى صَلَاتِه فَيَدْخُلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِه حَتَّى لاَ يَدْرِى زَادَ أَمْ نَقَصَ[(١)]».

* وفي رواية ابن ماجه «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ بَيْنَ ابْنِ آدَمَ وَبَيْنَ نَفْسِه[(٢)]».

* وفي رواية البخارى «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ يُصَلِّى جَاءَهُ الشَّيْطَانُ فَلَبَسَ عَلَيْهِ حَتَّى لاَ يَدْرِى كَمْ صَلَّى[(٣)]».

* وجاء في رواية عند مسلم «فَهَنَّاهُ وَمَنَّاهُ وَذَكَّرَهُ مِنْ حَاجَاتِه مَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ[(٤)]».

وكلّ الأحاديث تحمل معني تلبيس الشّيطان على المصلّي بالشّك فيما صلّى من ركعات فيُخلّط عليه أمرها ويُشوّش قراءتها، والدّاخلة من الإنسان فكره ونيّته.

(٢) وسوسة الشّكّ والتّردُّد

وهى تلك الخواطر الرّديئة التى تتسلّط على ذهن المصاب بها وتتحصّل من همز الشّيطان له بكلام خفىّ يصل مفهومه إلى القلب، وهى نوع من العُصاب القهرى يقع بها السّلوك تحت صورة [قهرية إجباريّة] لا يعرف المريض سببا لها شخّصها الأطبّاء بما يعرف بالأفعال القسريّة [Compulsive Reactions] ومنه يقال [رَجُلٌ مُوَسْوَسٌ]: إذا اعترته الوساوس وغلبت عليه، ومثاله غسل اليدين باستمرار وتكرار كلّما لمس الفرد شيئا أو صافح شخصا، أو كهذا الذى يحكم بنجاسة الشّىء من غير علاقة تُعارض أصل طهارته، فيغسل الثّوب لمجرّد سقوط رذاذ الماء عليه، فهو يتخيّل ما لم يكن كائنا ثمّ يحكم بحصوله.

ومنهم من يُلبّس عليه أمر النّيّة فتراه يعيد تكبيرة الإحرام عند دخوله الصّلاة مرّة بعد مرّة، ونيّة العبادات بالقلب لا باللّفظ فتكلُّف اللّفظ أمر لا يُحتاج إليه فى مقتضيات العبادة ولا معنى لتكرار اللّفظ سوى تأكيد وسوسة الشّيطان ونزغه.

(٣) وسوسة النّزغ والإغراء

ويقصد بها التّكفير والإفساد من قول الله تعالى ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ [يوسف: ١٠٠]. أى أفسد. وقوله [يَنْزَغَنَّكَ] أى يُصيبنّكَ ويعرض لك وسوسة تقود إلى الضّلال وتُؤدّى إلى الهلاك، ونظير ذلك ما جاء فى صحيح مسلم من قوله ﷺ عن

---

(١) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [١٠١٠] وأورده الألبانى فى صحيح أبى داود [٩٤٣].

(٢) من حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [١٠١١].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [١٢٣٢] ومسلم [٣٨٩].

(٤) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٨٤ / ٣٨٩].

أبى هريرة «يأْتِي الشَّيْطَانُ أَحدكُمْ فيقُولُ لَهُ: مَنْ خلقَ كَذَا وكَذا حتَّى يقُولَ لَهُ مَنْ خلقَ ربَّكَ ؟. فإذا بلَغَ ذلكَ فلْيستعِذْ باللهِ ولْينْتَهِ(١)».

ولمّا سُئل رسول الله ﷺ عن هذا الحال قال «تلْكَ مَحْضُ الإيمَان(٢)». وفى حديث أبى هريرة «ذلكَ صَرِيحُ الإيمَان(٣)». وفيه قال ابن الأثير [أى كراهتكم له وتفاديكم منه هو صريح الإيمان، والصّريح الخالص من كلّ شىء وهو ضدّ الكناية، يعنى أنّه صريح الإيمان الذى يمنعكم من قبول ما يُلقيه الشّيطان فى أنفسكم حتّى يصير ذلك وسوسة لا تتمكّن فى قلوبكم ولا تطمئن إليه نفوسكم، وليس معناه أنّ الوسوسة نفسها صريح الإيمان لأنّها إنّما تتولّد من فعل الشّيطان وتسويله(٤)].

فسمّى رسول الله ﷺ ما استشعروه من خطورة هذه الوسوسة «إيمانا» عندما كان دفعُها والإعراض عنها والرّد لها وعدم قبولها والجزع منها كلّه صادرا عن الإيمان وهو المعنى الذى تضمّنه قولهم «يَارسُولَ الله إنَّا نَجدُ فى أَنْفُسنَا مَا يَتعَاظَمُ أَحدُنَا أَنْ يَتكَلَّم به ؟ قَالَ أَوَ قَدْ وَجدْتُمُوهْ ! قَالُوا نَعمْ، قَالَ ذَلكَ صَرِيحُ الإيمَان(٥)». ومعنى الحديث أنّ الشّيطان إنّما يُوسوس لمن أيس من إغوائه فيُنكّد عليه بالوسوسة لعجزه عن إغوائه، وأمّا الكافر فإنّه يأتيه من حيث شاء ولا يقتصر فى حقّه على الوسوسة بل يتلاعب به كيفما أراد.

ومقصود الوسوسة فى قوله تعالى ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: ٢٠]. إنّما هى استدراجهما إلى الزّلل بالوقوع فى المعصية والانحراف عن الصّواب، وجاء تفسير ذلك على قولين:

(الأوّل) أنّه استزلّهما بالخطيئة فأوقعهما فيها من: استزلَّ يستزلُّ استزلالاً: استدرجه إلى الزّلل، ودلّ على هذا قوله تعالى ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: ١٥٥]. يقال منه أَزْلَلْتُه فزَلَّ، و[الزَّلَّةُ] السَّقْطَةُ والخطيئةُ.

(الثّانى) أنّه صرفهما عمّا كانا عليه من الطّاعة إلى الذّنب والمعصية من قول الله تعالى ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦]. والمعنى نحّاهما عنها بإدخالهما فى الزّلل والمعصية فيكون ذلك سببا إلى زوال المرء من مكان إلى مكان بذنبه ومعصيته.

ويُطلق العلماء على مثل هذه النّزغات الوساوس المتسلّطة [Obsessive Reactions] وهى نوع من العُصاب القهرى ـ السّيكاثينيا ـ وهى الأفكار والخواطر

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٣٤] وافقه البخارى [٣٢٧٦] وأبو داود [٤٧٢١]. (٢) من حديث صحيح أخرجه مسلم [١٣٣]. (٣) انظر النّهاية لابن الأثير [٣/٢٠]. (٤) من حديث صحيح أخرجه مسلم [١٣٢]. (٥) من حديث صحيح أخرجه أبو داود [٥١١١].

المتسلّطة على ذهن المريض والتي يصعب عليه التخلّص منها ويتولّد من خلالها الشّكوك المريبة التي يُعاني منها، وعندما تتجلّى إصابة الإنسان بهذه الوسوسة ويستسلم لقهر الشّيطان ونزغه وتضعف إرادته وتغلب السّوداء عليه وتُؤثّر فيه تأثيرا مباشرا تكون النّتيجة استسلامه لهوى الشّيطان وتركه لإرادته تُسلب أمام عينيه وهو راض حتّى يتحوّل هذا الوسواس إلى [مسّ شيطانى] يؤدّى إلى إصابته بما يُسمّى:

بالصّرْع النّفسى

ولقد عرّف العلماء هذا النّوع من المرض بأنّه اضطراب وظيفى فى الشّخصية يبدو فى صورة أعراض جسميّة ونفسيّة منها القلق والوساوس والأفكار المتسلّطة التى تدفع إلى المخاوف الشّاذة والاضطرابات الجسميّة والحركيّة المتعدّدة، ويتحقّق ذلك بفعل مشترك من مادّة «إرسال الشّر» وهو [الشّيطان اللّعين] ومن «مادة استقباله» وهو [الإنسان] بإرادة حازمة من الاثنين، ممّا يُؤدّى إلى خروج عمل الشّيطان من طور «الوسوسة» إلى طور «التّخبُّط» والجنون.

وعلّة أكثر الذين يُصابون بهذا «المرض النّفسى» تكمن فى قلّة دينهم وخراب قلوبهم، وجفاف ألسنتهم من حقائق الذّكر والتّعاويذ الإيمانيّة، وبُعدهم عن طاعة الخالق جلّ وعلا، فتلقى الرّوح الخبيثة الواحد منهم «أعزلا» لا سلاح له من الاحتراز والطّاعة فتؤثّر فيه وتذهب بعقله، فمنهم من أطبق به الجنون، ومنهم من يفيق أحيانا قليلة ثمّ يعود إلى جنونه مرّة أخرى.

والذى يساعد على الإصابة بذلك هو الانحراف عن السّلوك القويم الذى رسمه الخالق تبارك وتعالى للإنسان، وبُعده عن الصّراط المستقيم، واتّباع خُطُوات الشّيطان، ووجود محيط وسطى من الشّهوات والدّوافع التى يلتقى عندها الإنسان والشّيطان، فتضعف الإرادة وتتجلّى الإصابة وينعكس أثر المرض وتتعدّد صوره.

وعلاج هذا النّوع يكون بأمرين:

(الأوّل) أن يكون المرء صادقا فى توجُّهه إلى فاطر الأرواح وبارئها، وأن يقترن فعله بما وقر فى قلبه من «الإيمان» بربّه تعالى «والتّمسُّك» بهدى نبيّه ﷺ وأن تكون الجنّة والنّار نُصب عينيه وقبلة عقله وقلبه ووجدانه.

(الثّانى) أن يحترز من شرّ ما هو فيه بقراءة «المعوّذتين» ويستعين عليه بالصّلاة و«الذّكر»، كما أنّ من أعظم ما ينتصر به المريض قراءته «آية الكرسى» لما لها من قوّة فى «دفع الشّياطين» وإبطال «أحوالهم» ما لا ينضبط من كثرته وقوّته، وتأثير ذلك وفعله يكون أعظم من تأثير أيّة أدوية أخرى إذا ما توفّر لتحقيقه عاملان مُهمّان:

(١) أن «يُواطىء» القلب اللّسان عند توجُه الدَّاعى إلى ربّه بالدُّعاء والرَّجاء .

(٢) أن «يجتنب» الذُّنوب والمعاصى التى يستطيل بها على ربّه تعالى، ويتغلَّب على هوى نفسه باتبّاع وحيه وشرعه ومحاربة نزغات الشّيطان، وهذا من أعظم الأمور التى تحول دون إصابته بأى مرض نفسى كان .

ثانيا ـ مسّ الشّيطان بالمرض

لا شكّ أنّ وسوسة الشّيطان ونزغه تُؤدّى إلى الإصابة ببعض الأمراض التى لا يفلح فى تشخيصها إلاّ أهل العلم والطّبِّ ومن ذلك قول أيوب ﷺ ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾[ص: ٤١] . وعبّر بقوله ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ﴾ عمّا لحقه من المسّ وهو ما أسماه العلماء «بوطأة الوسوسة». وقالوا فى تفسير الآية أنّ القراءة إذا جاءت فى قوله [بنُصْب] : كان مقصودها [الشّرُّ والْبَلاَء] . وإذا جاءت بلفظة [بنَصَب] : كان مقصودها [التَّعَبُ والإِعْيَاءُ] . وقرأها أبو جعفر [بنُصُبٍ] بضم النّون والصّاد، وهذا كلّه عند النَّحويّين بمعنى [النَّصَبِ] : وهو التّعب والمرض والإعياء . وجاء فى معنى الآية ثلاثة أقوال :

(الأوّل) أنّ المسّ فيها ليس إلاّ الوسوسة له فى مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء والإغراء على الجزع واليأس، فكان الشّيطان يوسوس إليه بذلك وهو يجاهده فى دفع ما يستشعره من أذاه حتّي تعب وتألم على ما هو فيه من البلاء فنادى ربّه يستصرفه عنه ويستعينه عليه بقوله ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ .

(الثّانى) أنّ مقصود المسّ هو هذا البلاء الجسمانى الذى نتج من تأثير الشّيطان على جسم أيّوب عليه السّلام مع أنّ ذلك إنّما كان بقدَر الله ولحكمة أرادها .

(الثّالث) أنّ ما أصاب أيّوب عندئذ من المرض بفعل الشّيطان كما هو ظاهر القرآن لا يتعارض مع عصمة الأنبياء، لأنّ عصمتهم من الشّياطين إنّما تكون باستبعاد تسلُّطهم على عقولهم وقلوبهم بشتّى أنواع الوساوس والغواية فهذا ما عصم الله أنبياءه منه .

وللمُفسّرين فى مسّ المرض قولان :

(الأوّل) أنّ الألام والأسقام الحاصلة فى جسمه إنّما حصلت بفعل الشّيطان .

(الثّانى) أنّها إنّما حصلت بفعل الله تعالى والعذاب المضاف فى هذه الآية إلى الشّيطان هو عذاب الوسوسة وإلقاء الخواطر الفاسدة .

فجاء عن القول الأول روايات لا سند لها ، أمّا القول الثّانى فإنّه يفيد أنّ الشّيطان لا قُدرة له على إيقاع النّاس فى الأمراض والآلام والدّليل عليه وجوه :

(١) أنا لو جوّزنا حصول الموت والحياة والصّحة والمرض من الشّيطان فلعلّ

الواحد منّا إنّما وجد الحياة بفعل الشّيطان، ولعل كلّ ما حصل عندنا من الخيرات والسّعادات قد حصل بفعل الشّيطان!، وحينئذ لا يكون لنا سبيل إلى أن نعرف أنّ مُعطى الحياة والموت والصّحة والسّقم هو الله تعالى.

(٢) أنّ الشّيطان لو قدر على ذلك فلم لا يسعى فى قتل الأنبياء والأولياء! ولما لم يخرّب دورهم ولما لا يقتل أولادهم !!.

(٣) أنّ الله تعالى حكى عن الشّيطان أنه قال ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢]. فصرّحت الآية بأنه لا قدرة له في حقّ البشر إلاّ على إلقاء الوساوس والخواطر الفاسدة، بل الحقّ أنّ المراد من قوله ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ أنّه بسبب إلقاء الوساوس الفاسدة والخواطر الباطنة كان يلقيه فى أنواع العذاب والعناء ترتيبا على العوامل التّالية:

(*) أنّ علّته كانت شديدة الألم ثمّ طالت مدّة تلك العلّة مع استمرار الشّيطان فى تذكيره بالنّعم التى كانت والآفات التى حصلت، وكان يحتال فى دفع تلك الوساوس، فلمّا قويت نزغاتها فى قلبه خاف وتضرّع إلى الله تعالى، فكلّما كانت تلك الخواطر أكثر كان ألم قلبه منها أشدّ.

(*) أنّه لما طالت مدّة المرض بأيّوب عليه السّلام جاءه الشّيطان يُقنّطه من رحمة ربّه ويُزيّن له أن يجزع فخاف من تأكّد خاطر القنوط فى قلبه فتضرّع إلى الله تعالى وقال ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

(*) وكان الشّيطان يوسوس لخلصائه القلائل الذين بقوا على وفائهم له ومنهم زوجته، بأنّ الله لو كان يحبّ أيّوب ما ابتلاه، وكانوا يحدّثونه بهذا فيُؤذيه فى نفسه أشدّ ممّا يُؤذيه الضّر والبلاء، فلمّا حدّثته امرأته ببعض هذه الوسوسة حلف لئن شفاه الله تعالى ليضربنّها عددا عيّنه، وعندئذ توجّه إلى ربّه بالشّكوى ممّا يلقى من إيذاء الشّيطان اللّعين ومداخله إلى نفوس خُلصائه ووقع هذا الإيذاء فى نفسه فقال ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

(*) ثمّ لمّا علم الله تعالى من أيّوب صدقه وصبره وقوّة عزيمته، ونفوره من محاولات الشّيطان وتأذّيه بها، أدركه سبحانه برحمته وأنهى ابتلاءه وردّ عليه عافيته، إذ أمره أن يضرب الأرض بقدمه فتتفجّر عين باردة يغتسل منها ويشرب فيشفى ويبرأ بإذن الله تعالى ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢].

(*) وعندما نعت القرآن أيوب بقوله ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾: قيل كيف وجده

صابرا وقد شكى إليه؟ وجاء الجواب على ذلك من وجوه [(١)] :

(١) أنّه شكى من الشّيطان إليه وما شكى منه إلى أحد.

(٢) أنّ الألم حين كان على الجسد لم يذكر شيئا فلمّا عظُمت الوساوس خاف على القلب والدِّين فتضرّع إلى ربّه تعالى.

(٣) أنّ الشّيطان عدوّ والشّكاية من العدوّ إلى الحبيب لا تقدح في الصّبر.

كما جاءت السُّنَّةُ بما يُثبت أنّ مسّ الشّيطان يُحدث تغيُّرا وأثرا في الجسم ودليل ذلك حديث أمّ سلمة عند البخارى «أنَّ النَّبيَّ ﷺ رَأى في بَيْتِهَا جَارِيَةً في وَجْهِهَا سَفْعَةٌ فَقَالَ اسْتَرْقُوا لَهَا فَإِنَّ بِهَا النَّظْرَةَ(٢)». وفي لفظ مسلم «رأى بوَجْهِهَا سَفْعَةً فَقَالَ بِهَا نَظْرَةٌ فَاسْتَرْقُوا لَهَا(٣)». يَعْني بوَجْهِهَا صُفْرَةً، واختلف في المراد «بالنَّظْرَة» فقيل إنّها «عَيْنٌ» من نظر الجنّ أو هي «أُخْذَةٌ» من الشّيطان.

و(قال) أبو عبيد [قوله «سَفْعَةً» يعني أنّ الشّيطان أصابها(٤)]. [أو] بها عين أصابتها من نظر الجنّ أنفذ من أسنّة الرّماح وهو قول الفرّاء [(٥)]. و«السَّفْعُ» في اللّغة سَوَادُ الْخَدَّيْنِ من المرأة الشّاحبة ومنه سَفْعَاءُ الْخَدَّيْنِ، وتُطلق «السَّفْعَةُ» على العلامة، يقال [بِوَجْهِهَا سَفْعَةُ غَضَبٍ] وهو راجع إلى تغيُّر اللّون أو هو لون يُخالف لون الوجه [(٦)].

والشّيطان إذا ما تمكّن من الإنسان وهو في غفلة من الذّكر والطّاعة استطاع أن يمسّه بالأذى والمرض إذا قدّر الله ذلك، وهو ما تشير إليه رواية زينب امرأة عبد الله مسعود لمّا قال «سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ». قَالَتْ قُلْتُ «لِمَ تَقُولُ هَذَا! وَالله لَقَدْ كَانَتْ عَيْنِي تَقْذِفُ، فَكُنْتُ أَخْتَلِفُ إِلَى فُلَانٍ الْيَهُودِيِّ يَرْقِينِي فَإِذَا رَقَانِي سَكَنَتْ، فَقَالَ عَبْدُ الله: إِنَّمَا ذَلِكَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ، كَانَ يَنْخُسُهَا بِيَدِهِ فَإِذَا رَقَاهَا كَفَّ عَنْهَا، إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكِ أَنْ تَقُولِي كَمَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ أَذْهِبِ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ أَنْتَ الشَّافِ لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا(٧)».

وقوله «يَنْخُسُهَا» من النّخس وهو الدّفع والإيذاء.

---

(١) انظر تفسير الفخر الرّازى [ج ٢٦ ص ٢١٥].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٧٣٩] ومسلم [٢١٩٦].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢١٩٧].

(٤) انظرغريب الحديث [ج ٣ ص ٣٧].

(٥) انظر شرح السّنة [ج ١٣ ص ١٦٣].

(٦) انظر فتح البارى [ج ١٠ ص ٢١٢].

(٧) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٣٨٨٣] وابن ماجه [٢٨٦١] والصّحيحة [٣٣١].

والمسلم إذا جاز أن يطعنه عدوُّه بالرُّمح والسَّيف مرّة، فكذلك يجوز أن يطعنه عدوُّه من الجنّ عندما يُمكَّنُ من وخزه، فطعن الإنس نافذ وطعن الجنّ غير نافذ، فسمّى النّبى ﷺ النّافذ [طَعْنًا] والطّعن غير النّافذ [طَاعُونًا] وأخبر أنّ فى كلّ ذلك شهادة، وقد ورد الجمع بين هذين اللّفظين في الحديث الذى أخرجه أحمد عن أبى موسى أنّ رسول الله ﷺ قال «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فَنَاءَ أُمَّتِى قَتْلاً فى سَبِيلِكَ بِالطَّعْنِ وَالطَّاعُونِ(١)».
وقوله ﷺ «وَخْزُ أَعْدَائِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَهُوَ لَكُمْ شَهَادَةٌ(٢)».

و«الْوَخْزُ» عند أهل اللّغة هو الطّعن إذا كان غير نافذ، ووصف طعن الجنّ بأنّه [وَخْزٌ] لأنّه يقع من الباطن إلى الظّاهر فيؤثّر بالباطن أوّلا ثمّ يؤثّر فى الظّاهر بخلاف طعن الإنس فإنّه يقع من الظّاهر إلى الباطن فيؤثر فى الظّاهر أوّلا ثمّ يؤثّر فى الباطن.

والطّاعون يُعَبَّرُ به عن ثلاثة أمور:

أحدها ـ هذا الأثر الظّاهر من القروح والأورام التى تصيب الأماكن الرّخوة والمغابن الضّعيفة من الجسم وسببه دم ردىء مائل إلى العفونة والفساد ويستحيل إلى جوهر سُمّى يُفسد العضو ويُغيّر ما يليه من الأعضاء.

والثّانى ـ الموت الحادث من آثار هذا المرض وهو المراد بالحديث الصّحيح في قوله ﷺ «الطَّاعُونُ شَهَادَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ(٣)». وقوله ﷺ «هُوَ عَذَابٌ أَوْ رِجْزٌ أَرْسَلَهُ اللهُ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ(٤)».

والثّالث ـ السّبب الفاعل لهذا الدّاء وهو وخزُ الجنّ لما روى عن أبى موسى أنّ النّبىّ ﷺ ذكرَ الطَّاعُونَ فَقَالَ «وَخْزٌ مِنْ أَعْدَائِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَهِىَ شَهَادَةُ الْمُسْلِمِ(٥)».

والله سبحانه جعل لهذه الأرواح تصرّفا فى أجسام بنى آدم عند حدوث الوباء وفساد الهواء، كما جعل لها تصرّفا عند بعض المواد الرّديئة التى تُحدث للنّفوس هيئة رديئة، فتتمكّن من فعلها ما لم يدفعها دافع أقوى من هذه الأسباب، من التّحصّن بالذّكر والدُّعاء والابتهال والتّضرُّع والصّدقة وقراءة القرآن [(٦)].

ومن مسّ المرض أيضا ما ذُكر من قوله ﷺ «إِنَّمَا هَذِه رَكْضَةٌ مِنْ رَكَضَاتِ الشَّيْطَانِ». وأصل

---

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد [١٥٥٤٥] والطّبرانى فى الكبير [٧٩٢].

(٢) حديث صحّحه الحاكم [١٥٨] ووافقه الذّهبى وأورده الهيثمى مجمع الزّوائد [٢ / ٣١١].

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [١٩١٦] ووافقه البخارى [٢٨٣٠] عن عاصم به.

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٩٥ / ٢٢١٨] والتّرمذى [١٠٦٥].

(٥) حديث صحيح أخرجه أحمد [١٩٥٩٦].

(٦) انظر زاد المعاد [ج ٤ ص ٤٠].

الرَّكْضَة في الحديث الضّرب بالرّجل والإصابة بها، يُريد به الإضرار والأذى، ولمّا قيل «يارَسُولَ اللّٰه إنّ فاطمَةَ بنْتَ أَبى حُبَيْشٍ استُحيضَتْ مُنْذُ كذا وكذا فلَمْ تُصلّي؟ فقَالَ: سُبْحَانَ اللّٰه إنَّ هذَا منَ الشَّيْطَان(١)». أى أنّ هذه الاستحاضة رَكْضَةٌ من رَكَضَاته.

والرَّكْضُ [في اللُّغة] الضَّرْبُ بالرِّجْل والإصابة بها والمشى والجرى من قول اللّٰه تعالى ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾[ص:٤٢]. أى اضرب بها، ومنه قول اللّٰه تعالى ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾[الأنبياء:١٢]. أى يفرّون كناية عن الخوف والفزع الشّديدين.

وتأتى المرأة لتستفتي رسول اللّٰه ﷺ في أمر «الْحَيْضَة الشَّديدَة الْكَثيرَة فيَقُولُ لها فاتّخذى ثوبًا. قَالَتْ: هُوَ أَكْثَرُ من ذَلكَ؟ قَالَ فتلجّمى، قَالَتْ إِنَّمَا أَثُجُّ ثَجًّا، فقَالَ لَهَا: سَآمُرُك بأَمْرَيْنِ أَيُّهُمَا فعلت فَقَدْ أَجزأ عَنْك الآخَر، فإنْ قَوَيْت عَلَيْهمَا فأَنْت أَعْلَمُ، فقَالَ إِنَّمَا هَذه رَكْضَةٌ منْ رَكَضَات الشَّيْطَان، فتَحيَّضي ستَّةَ أَيَّامٍ أَوْ سَبْعَةَ في علْم اللّٰه ثُمَّ اغتسلي، فإذا إِأَيت أَنَّك قَدْ طَهُرْت واسْتَنْقَأْتَ، فَصَلِّي أَرْبَعًا وعشْرينَ لَيْلَةً أَوْ ثَلاثًا وعشْرين لَيْلَةً وأَيَّامها وصُومِي وَصَلِّي فإنَّ ذَلكَ يُجزِئُك(٢)». وجاء عند أحمد بلفظ «لَيْسَتْ بالْحَيْضَة ولَكنَّها رَكْضَةٌ منَ الرَّحم(٣)».

وجاء في تفسير ذلك عند العلماء قولان:

(الأوّل) أنّ هذه الثَّجّة وهى نزول الدّم بكثرة سبب فى تسلُّط الشّيطان وتلبيسه عليها بواحد من أمرين:

(١) أنّ الشّيطان قد وجد سبيلا إلى التّلبيس عليها فى أمر دينها ووقت طُهرها وصلاتها حتّى أنساها ذلك عادتها وصارت فى التّقدير كأنّها ركضة منه.

(٢) أنّها ركضة نالتها من ركضاته على الحقيقة وأنّ الشّيطان ضربها حتّى انفجر عرقها. (قال) الصّنعانى [الأظهر أنّها رَكْضَةٌ منه حقيقة إذ لا مانع من حملها عليه(٤)].

(الثّانى) أنّ جريان الدّم فى غير أيّام الحيض يكون لعلّة المرض ويسيل من عرق فى أدنى الرّحم يسمّى [العاذل] ولا انقطاع له إلاّ عند البُرء منه لقوله ﷺ «إنَّ هَذه لَيْسَتْ بالْحَيْضَة ولَكنْ هَذا عرْقٌ، فاغْتَسلي وَصَلّي(٥)». وفى رواية «فإذَا رَكَض ذَلكَ الْعرْقُ وَهُوَ جَارٍ فيه سَالَ منْهُ». وجاء عند النَّسائى بلفظ «إنَّهُ عرْقٌ عَاندٌ». (قال) فى النّهاية [شبّه به لكثرة ما يخرج منه على خلاف عادته، وقيل: العاند الذى لا يرقأ].

---

(١) حديث صحيح انفرد به أبو داود [٢٩٦]. (٢) حديث حسن أخرجه التّرمذى [١٢٨] وأبو داود [٢٨٧] وابن ماجه [٥١٦]. (٣) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢٤٨٥٣] والنّسائى [٢٠٩]. (٤) انظر سُبل السّلام للصّنعانى [ج ١ ص ١٠٢]. (٥) حديث صحيح أخرجه مسلم [٣٣٤] وأبو داود [٢٨٨].

وللوقوف على بعض المعلومات التى تيسّر للقارىء معرفة الحقائق العلميّة التى تتّصل بهذه المسائل وفهم أبعادها وطبيعتها فإنّنا نعرض للتبويبات التّالية مستندين فى ذلك إلى المراجع العلميّة المهمة فى هذا الشّأن [(١)] وهو مشمول :

(الأمر الثّالث)

تعريف الأمراض النّفسية

يأتى تعريف الأمراض النّفسية من منظور إسلامى على أنّها مجموعة الاضطرابات ا لنّاتجة من الانحراف عن السّلوك القويم الذى رسم الخالق سبحانه للإنسان والتى تنتج بفعل مشترك من مادة إرسال الشّر وهو الشّيطان ومن مادة استقباله وهو الإنسان ، بإرادة حازمة من الاثنين ممّا يؤدّى إلى خروج عمل الشيطان من طور الوسوسة إلى طور المسّ .

أمّا أعراضها فهى انحرافات سلوكيّة وجنسيّة تؤدّى إلى خلل فى المعتقدات ، والاستغراق فى الشّهوات ، والإحساس بالخوف ، والشّعور بالعدوانيّة ، والنّسيان والجدل ، وكثرة الكلام ، والاستسلام لأيّة أفكار تطرق انتباهه ثمّ تصل فى ذروتها إلى المرض النّفسى .

أمّا عن أسبابه فهى استجابة الإنسان إلى وسوسة الشيطان الأمر الذى يجعله متبرّما بما حوله من ظروف بيئيّة واجتماعيّة ، غير مُتجانس مع من حوله ، يائسا من رحمة الله تعالى ، وكلّ ذلك يكون بدرجات مُتفاوتة من شخص لآخر حسب ظروف مجتمعه المحيط به ، وتكون النّتيجة هى تركه لإرادته تُسلَب أمام عينيه حتّى يتحوّل الوسواس إلى مرض نفسى مع اختلاف صور هذا المرض .

والمريض فى هذه الحالة يمرّ بمرحلتين :

(الأُولى) مرحلة [الاستدراج] وتتمثّل فى تلقيه دعوة الشّيطان اللّعين بالقبول بعد تزيينه هذه الدعوة تهيئة لاستدراجه ، ويساعد على ذلك ابتعاد الإنسان عن الصّراط المستقيم والصّد عن سبيل الهُدى ، وتواجده فى المحيط الضّاغط من الشّهوات والملذّات والدّوافع المشتركة التى يلتقى عندها الإنسان والشّيطان .

(الثانية) مرحلة [القبول] بالأمر والانصياع له ويتحقّق ذلك بعد أن يصير الإنسان تابعا ومُؤتمرا بأمر الشّيطان ، وهنا يأخذ المسّ شكله المستقرحتّى تصل تأثيراته إلى أبعاد خطيرة فى حياة الإنسان ، وعند ذلك تنعكس حالة المريض على نفسيّته بأشكال مختلفة ممّا يعمّق من أثر المرض .

---

(١) انظر كتاب علم النّفس الطّبى للدكتور عبد الرّحمن العيسوى [٩٤ ـ ١٠٥] . وكتاب) الطبّ النّبوى والعلم الحديث للدكتور محمود ناظم النّسيمى [١٣٤ ـ ١٣٧] . وكتاب الصّحة النّفسية والعلاج النّفسى للدكتور حامد عبد السّلام زهران [٤١٦] .

أمّا من حيث التّعريف العلمي للأمراض النّفسية عند الأطبّاء فهي عبارة عن «مجموعة الانحرافات التي لا تنجم عن علّة عضويّة أو تلف في تركيب المخ، بل هي اضطرابات وظيفيّة ومزاجيّة في الشّخصية، وترجع إلى الخبرات المؤلمة أو الصّدمات الانفعاليّة أو اضطرابات في علاقة الفرد مع الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه ويتفاعل معه».

أمّا أعراضها فإنّها تتمثّل في اضطراب وظيفي في الشّخصية يبدو في صورة أعراض [SYMPTOMS] جسميّة ونفسيّة شتّى منها القلق والوساوس والأفكار المتسلّطة والمخاوف الشّاذة واضطرابات جسميّة وحركيّة مُتعدّدة.

أمّا من حيث الأسباب فهي اضطراب وظيفي ينشأ من تضافر عدّة عوامل بيئيّة واجتماعيّة مُتشابكة وصفات اكتسابيّة في الشّخصية، وأمّا من حيث الهدف فهي محاولة شاذّة للتخلُّص من صراعات واضطرابات وتستهدف حلاّ لأزمة نفسيّة، ومحاولة لتجنُّب القلق أو إيقافه، ومن حيث الأبعاد فإنّ الأمراض النّفسية ليست مقتصرة على النّواحي السُّلوكية والعُصابيّة وإنّما تتّسع لتشمل الانحرافات الجنسيّة والفكريّة والأمراض الجسميّة [السّيكوسوماتية] ذات المنشأ النّفسي.

المدخل إلى المرض النّفسي

إنّ من أهم الضّغوط التي تؤدّي إلى الإصابة بالمرض النّفسي ما يسمّى [بالْوَهْم] وهو ما يقع في الذّهن من الخواطر الرّديئة والظنون، أو هو تمثُّل الشّيء وتخيُّله كان في الوجود أو لم يكن، وهو مرض نفسي مؤثِّر، والإنسان إذا ما تسلّطت عليه هذه الأوهام فإنّه من الصّعب أن يخرج منها، بل إنّ حياة بعض النّاس في كثير من الأمور تقوم على أوهام يتصوّرها وظنون يتخيّلها.

وقد يصل الأمر إلى الحدّ الذي يكون تأثير هذه الأوهام أكبر بكثير من تلك الحقائق التي يعيشها المريض نفسه، فإذا تملّك الوهْم بإنسان فإنّه يصيبه بالقلق المصحوب بالخوف الشّديد الذي يدبّ في حياته فيضطرب جهازه العصبي وتتوتّر عضلات قلبه وتظهر أعراض مرضيّة أخرى نتيجة للنّشاط المضطرب للجهاز العصبي.

ومن السّمات الأساسيّة للشّخصية الهستيرية القابليّة الشّديدة للإيحاء وتصديق ما يُقال له دون نقد أو مناقشة أو تمحيص، وهو في هذه الحالة واقع تحت تأثير أمرين:

(الأوّل) الإيحاء الذّاتي الذي يعكس للمريض في ذهنه الصّورة المَرضية التي داعبت فكره في الحاضر، وبالنّظر لسرعة الانطباع التي يتصف بها صاحب هذه الشّخصية فإنّ من السّهل أن يُوحي لنفسه بالمرض وبأعراضه التي ركّز اهتمامه وانتباهه عليها.

(الثّانى) الإيحاء الخارجى ويأتى هذا من مصدرين :

(١) الطَبيب المعالج للحالة ومُتابعته لها وهو المصدر الطبيعى للعلاج واستكشاف طبيعة المرض ومُراقبته ، والإحاطة بالعوامل المؤثّرة بالسّلب فيه .

(٢) تأثّره النّفسى من جلسات التّحضير المزعومة التى يتحوّل المريض فيها إلى شخصيّة سلبية ليس لديها أيّة دوافع أو إرادة للتّغيير إلى الأحسن ، فالمريض فى هذه الحالة يكون بانتظار من يُخرج له الجنّى أو يفكّ له العمل دون أدنى جهد منه

وفى كتابه [علم النّفس الإكلنيكى] يقدّم الدّكتور عطوف محمود ياسين تعريفا لبعض الأمراض النّفسية التى يتأثّر بها بعض الذين يدْعون أن بهم مسّ من الجنّ وهم فى حقيقة الأمر أسرى لاضطراب نفسى أو عقلى مسيطر ، حيث أشار من خلال بحثه إلى أنواع عديدة منها فكان أوّلها تعريفا :

(١) العُصاب [NEUROSIS]

هو اضطراب وظيفى [FUNCTIONAL DISORDER] دينامى انفعالى وهو نفسى المنشأ [OF PSCHOLOGICAL ORIGIN] ويتّصف بأعراض عامّة تؤدّى إلى اضطراب فى العلاقات الشّخصية وحالة عدم كفاية وعدم سعادة وله أنواع متعدّدة ، ومن الأعراض الإكلينيكيّة العامّة للعُصاب [GENERAL SYMPTOMS] أن الفرد المريض يعيش فى إطار الواقع ويحسّ به ، فهو على هذا [CONSCIOUS] ولكنّ نفسه تعيش بسجن داخلى يشعر فيه بانقباض داخلى شديد وضيق مؤلم ضاغط تظهر على شكل توتّر عصبى [NEUROTIC TENSION] لا يعرف خلالها أسباب عصابه ولا يجد لها حلا ، ومع هذا فهو مستعد لقبول العلاج المقرر والتّعاون مع الأخصّائى النّفسى على عكس الذّهانى [PSYCHOTIC] أى المريض العقلى .

الأعراض الجسميّة والسّيكوباثولوجيّة للقلق العُصابى

يُعانى المصاب بالقلق العُصابى أعراضا [جسميّة وفيزيولوجيّة] كبرودة الأطراف وتصبّب العرق ، واضطرابات معدية وسرعة ضربات القلب ، والإصابة بالصّداع وفقدان الشّهية واضطرابات فى التنفُّس .

وهذا ما يعزوه أدعياء العلاج على أنّه تلبُّس الجنّ بالمكان المُصاب ، أمّا الأعراض السّيكوباثولوجيّة فتتمثّل بالخوف الشّديد وتوقّع الأذى والمصائب وعدم القُدرة على تركيز الانتباه ، والإحساس الدّائم بتوقُّع الهزيمة والعجز والاكتئاب وعدم الثّقة والطُمأنينة والرّغبة فى الهرب من الواقع عند مواجهة أى موقف من مواقف الحياة ،

ويتميّز الخوف في حالة القلق العُصابي عن المخاوف المرضيّة، بأنّه خوف عام غامض غير متعلق بشيء معيّن في حين أنّه في حالة المخاوف المرضيّة عادة يخاف المريض من شيء معين كالخوف من الحيوانات أو الأماكن المغلقة أو المظلمة أو المرتفعة وغيرها.

(٢) الهستريا [Hysteria] أو العُصابي التحوّلي [Or Conversion Reaction]

لقد بيّن أطبّاء النّفس أنّ هناك أُناسا معيّنين لديهم هذا الاستعداد وهذه القابليّة للإصابة بالهستيريا {HYSTERIA} وتسمّى النّفس التي لديها هذه القابليّة عندهم [بالنّفس الهستيريّة] وهي تتميّز بالذّبذبة في العلاقات وعدم الصّبر والسّطحيّة والتّسرُّع في اتخاذ المواقف وعدم التّحكُّم في الانفعالات، ممّا يجعلها عرضة للذّبذبات الوجدانيّة والشّحنات الانفعاليّة، وعندما يتعرّض صاحب هذه النّفس للضُّغوط أو الصّراع أو الإحباط فإنّه تظهر عليه أعراض الهستيريا، وقد ينفصل مُؤقتا عن الواقع وتصبح المعادلة: نفس هستيريّة (+) ضغوط أو صراع أو إحباط = أعراض هستيريّة.

ومن المناسب أن نعرض ضمن هذا التّبويب لتلك الحالة التي يظنّ البعض أنّ الجنّ قد تلبّسها، ثمّ عند القراءة عليها وإشباعها ضربا كوسيلة من وسائل العلاج يتكلّم الجِنّيُّ على لسانها!. فمثل هذه الحالة لا تخرج عن كونها [حالة مرضية] تعاني من اضطراب نفسي انفعالي يُصنَّف علميا تحت مُسمّى الهستيريا أو العُصَابي التّحوّلي: [HYSTERIA OR CONVERSION REACTION].

وفي كتابه [علم النّفس في حياتنا اليوميّة(١)] يعرّف الدّكتور محمّد نجاتي الهستيريا أو [العُصَاب التّحَوُّلي] بأنّه مرض نفسي يتميّز بتحوّل الصّراع النّفسي إلى صورة اضطراب بدني أو عقلي دون أن تكون هناك علل يمكن أن تسبّب هذه الاضطرابات، وتأتي هذه الاضطرابات بمثابة محاولات للهروب من الصّراع النّفسي وللتّخلص من القلق الذي تنشأ عنه.

ويشير الدّكتور أحمد عزّت راجح في كتابه [الأمراض النّفسية والعقليّة] إلى أنّ الهستريا قد تقتصر على الاضطرابات الحركيّة والحسيّة التي يجني من ورائها المريض ربحا كالهروب من موقف مادّي أو معنوي صعب، أو استدرار عطف النّاس أو التنصّل من تحمّل بعض التّبعات ويرافق هذا المرض أعراض جسميّة ونفسيّة، وفي كتابه [علم النّفس الفيزيولوجي] يعرّف الدّكتور أحمد عكاشة الهستريا بأنّها [مرض نفسي لا شعوري يتميّز بظهور علامات وأعراض جسميّة الغرض منها الحصول على نفع ذاتي أوالهروب من موقف مُؤلم].

---

(١) انظر كتاب علم النّفس في حياتنا اليوميّة للدّكتور محمّد عثمان نجاتي.

وهناك من يرى أنّ [الهستيريا] نمط سُلوكى مرضى نفسى معيّن يعكس حالات من الاضطرابات ولا تخلوا أحيانا من عرَض سيكوسوماتى يدعى الهستيريا التّحوُلية [Conveesion Hysteria] فهو على هذا اضطراب عصابى، ولقد استبعد الباحثون أن تكون الهستيريا مجرّد تعبير تعود إلى جملة أعراض [Syndrome] واتجهوا إلى وضعها وتسمية مظاهرها المختلفة بأنّها ردود أفعال تحويليّة وتفككية، ويرى الدكتور محمّد غالى فى كتابه [القلق وأمراض الجسم] بأنّ الاضطراب الهستيرى عموما تكون له صورة كاملة قائمة بذاتها وأنّ ظاهرة التفكك أو التحوُّل إن هى إلاّ أوصاف لما يحدث للسّلوك أثناء الإصابة بهذا الاضطراب.

ولقد ركّز الكثير من العلماء على الأعراض الجسميّة للهستيريا ومنها التّوقف العضوى للإحساسات [Inactivation] وفى بعض حالات فقدان الإحساس الجلدى [Anesthesia] بينما تأخذ الهستيريا اللاإراديّة أشكال الارتعاد والخلجات والتقلُّصات ثم قسّموا اضطرابات الهستيريا إلى ثلاثة أنماط:

(١) الهستيريا التحوّلية [Conversion Reaction].

(٢) حالات التّفكّك الهستيرى [Dissaciative States].

(٣) النّوبات الهستيريّة التّشنُّجية [Convulsive Hysteria].

أمّا العالم (كاميرون: Cameron) فقد قسّمها إلى قسمين رئيسين:

(الأول) الهستيريا التّوقفية التى تتعرّض لها أيّة حاسّة بما فى ذلك الكلام.

(الثانى) الهستيريا اللاإراديّة وهى التى تتناول أى جزء فى الجسم أو السلوك.

أعراض مرض الهستيريا

أعراض مرض الهستريا كثيرة ولا يوجد من عارض مرضى فى الجسم أو فى العقل إلاّ ويمكن وروده كعارض مرضى فى حالات الهستيريا، وقد تظهر على المريض أعراض متعدّدة فى آن واحد أو بالتّتابع فى الحالة المرضيّة الواحدة، إلاّ أنّ علماء النّفس أجمعوا على أنّ أعراض [الهستيريا] تشتمل على أربعة أبعاد أساسيّة:

(أ) أعراض حسّية

وهذه يمكن أن تظهر فى أى من وظائف الأعصاب الحسّية العامّة وفى الأحاسيس الخاصّة فتجعلهم يفقدون الإحساس بالألم وهو ما يفسّر تحمُّل المريض للضّرب المُبَرِّح الذى يتعرّض له ممّن يدّعون العلاج بالقرآن، ومن هنا جاء تركيز العلماء على دراسة الأعراض الجسمية للهستيريا وأسباب فقدان الإحساس الجلدى [ANESTHESIA]. ويمكن أن يظهر

هذا في أي من وظائف الأعصاب الحسّية العامّة عندما يشكو المريض من انعدام الإحساس [الْخَدَر] أو من حدود مختلفة من قلّة الإحساس، كما يشكو من إحساسات طارئة كالتّنميل والوخز والحرارة والبرودة والألم، أمّا اضطرابات الأحاسيس الخاصّة فهي التي تصيب حاسّة البصر والسّمع والشّم والذّوق

(٢) أعراض نفسيّة وعقلية

وتتمثّل هذه الأعراض في خلل الذّاكرة كلّيا أو جزئيا وفي تشتّت الانتباه وعدم القدرة على التّركيز وفي ضعف الدّافع الذاتي، كما أفادت الدّراسات العلميّة أنّ ازدواج الشّخصية هي حالة من حالات الهستيريا التي تظهر وتتطوّر كرد فعل لما يشعر به المريض من قلق نفسي ضاغط، وهي وسيلة يعتدى بها الفرد على نفسه لا شعوريّا كوسيلة للعقاب ولتخليصها من القلق بعد صراع شديد يعيشه.

وهناك من العلماء من يرى أنّ ازدواج الشّخصية هو مجرّد وسيلةهروبيّة يحاول المريض من خلالها أن يحقّق لذاته العناية والاهتمام، فهو وسيلة لجذب انتباه الآخرين إليه، ومن هذه الأعراض فقدان القدرة على الكلام كلّية أو فقدان القدرة على الكلام بصوت مرتفع وهو ما يفسّر تغيُّر طبقات الصّوت عندما يهرب المريض من شخصيته الأولى إلى تلك الشّخصية التي اخترعها داخل ذاته.

(٣) أعراض حركيّة

وهي التي تظهر في أي جزء من الجسم على شكل شلل في أحد الأطراف وقد يقتصر ذلك على جزء صغير في الجسم، بالإضافة إلى تشنُّج الأعضاء وتقلُّصها والارتعاش والارتجاف والحركات التّلقائية، وفقدان التّوازن في أداء الحركات الطّبيعية أثناء العمل أو المشي أو الوقوف أو اللعب أو الكتابة، ومن ذلك أيضا تلك الحركات اللاإرادية الهستيرية كتقطيب الوجه والضّحك بدون سبب وبلّ الشّفاه وتسليك الحلق عن طريق النّحنحة وكلّها حركات عصابية لا إراديّة.

(٤) أعراض جسميّة

كالصّداع والقيء والآلام المختلفة في الجسم وفقدان الشّهية والحمل الكاذب عند النّساء، والخفقان وسرعة التنفُّس واختلاف وتيرته وانحباس البول وتكراره، وتوقّف الصّوت وتعذّر بلع الطعام، ومن أهمّ الأعراض التي يعاني منها المريض ما يسمّى بالنَّوبات التّشنُّجيّة الهستيرية وهي مُتعدّدة الأنواع وتشمل حالات اضطراب السُّلوك والانفعالات العاطفية والتّهيّج العقلي، وتستمرّ هذه النّوبات بضعة دقائق أو ساعات وأحيانا أياما يتشنّج

الجسم كلّه بها، وتكون مصحوبة بصيحات ذعر وتنهّدات دون أى دموع، والمصاب فى حالة حيرة وذهول Confusion+Trance ولا يتكلّم ولا يجيب على أى سُؤال وإنّما يجلس ويحملق بمن حوله وقد يغمض عينيه، لذلك جاء التّأكيد على الفوارق المميّزة بين نوبات الهستيريا ونوبات الصّرع على النّحو التّالى:

(١) أنّ المصاب بنَوبات الصَّرْع غير واع لما يدور حوله بينما المصاب بنوبات الهستيريا واع تماما لما يعيشه من أحداث.

(٢) فى نَوبات الهستيريا تكون الشّدة الانفعالية أقوى مّما هى عليه فى نَوبات الصَّرْع.

(٣) فى نَوبات الهستيريا يقوم المصاب بمحاولات الدّفع والشّد والقبض على ما حوله وكلّ ما يقع فى يده، بينما المصاب بالصَّرْع لا يفعل ذلك.

(٤) النّوبات الهستيريَّة تكون نفسانيّة انفعالية ولا تنتج عن تلف فى الدّماغ بينما يكون هذا التّلف الدّماغى فى الصّرع ثابت ومُؤكّد [CorexDisorder] ولذلك يستخدم العلماء الموجات الكهربية للكشف عن الصَّرْع وتمييزه عن الهستيريا.

(٥) النّوبات الهستيريَّة وسائل هروبية من متاعب نفسية يُعانى منها المصاب فى أعصابه ونفسه، أمّا نَوبات الصَّرْع فهى إصابة عُضوية دماغية عقلية.

ثالثا - مسّ الخَبَل والجنون

وفى تعريفه قال ابن منظور [استعير المسّ للجنون كأنّ الجنّ قد مسّته، يقال «به مسّ من جنون»[١]]. وجاء فى التّوقيف [المسُّ ملاقاة ظاهر الشّىء ظاهرَ غيره، وكُنِّىَ بالمسِّ عن الجنون، والمسُّ يقال فى كلّ ما ينال الإنسان من أذى بخلاف اللّمس[٢]]. والأمراض التى تنشأ عن المسّ تشمل الهستيريا وبدرجاتها المختلفة، مّا الجنون فهو زوال العقل واختلاله من [جُنَّ الرَّجلُ] جُنُونًا وَجِنَّةً وَمَجَنَّةً: زَالَ عقله، ومنه يقال: مُسَّ وأُلِسَ فهو مَمْسُوسٌ ومَأْلُوسٌ إذا كان مجنونا.

واختلفوا فى «مَسِّ الْجُنُون» فقال بعضهم هو من فعل الله تعالى بما يُحدثه من علله السّوداء فيمرضه، ويُنسب إلى الشّيطان مجازا تشبيها بما يفعله من إغوائه ونزغه الذى يمسّه به، وقال آخرون: بل هو من فعل الشّيطان بتمكين الله تعالى له من ذلك فى بعض النّاس دون بعض لأنّه ظاهر القرآن وليس فى العقل ما يمنعه.

وقال الألوسى فى قول الله تعالى ﴿مِنَ ٱلْمَسِّ﴾. أى الجنون، يقال مُسَّ الرَّجُلُ فهو ممسوس إذا جُنَّ، وسُمِّىَ به لأنّ الشّيطان قد يمسّ الرّجل وأخلاطه مستعدّة للإفساد فتفسد

---

(١) انظر لسان العرب [٦ / ٢١٨].

(٢) انظر التّوقيف للمناوى [ص ٦٥٥].

ويحدث الجُنون، وهذا لا ينافي ما ذكره الأطبّاء من أنّ ذلك من غلبة مرّة السّوداء لأنّ ما ذكروه سبب قريب ـ وما تشير إليه الآية سبب بعيد ـ وليس بمطّرد أيضا بل ولا منعكس، فقد يحصل مسٌ ولا يحصل جنون كما إذا كان المزاج قويًا، وقد يحصل جنون ولم يحصل مسٌ، كما إذا فسد المزاج من دون عروض أجنبى، والجنون الحاصل بالمسّ قد يقع أحيانا وله عند أهله الحاذقين أمارات يعرفونه بها(١)].

والجنون من الأمور التى كان النّبى ﷺ يتعوّذ من شرّها لقوله «اللّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُنُونِ وَالْجُذَامِ وَالْبَرَصِ وَسَيِّءِ الأَسْقَامِ(٢)». أمّا اللّمم فهو طرف من الجنون ومنه «رَجُلٌ مَلْمُومٌ» أى به لَمَمٌ، ويقال أيضا: أصابت فلانًا من الْجِنّ لَمَّةٌ، وأصل اللّفظة من المقاربة، وذهب البعض إلى تعريف الجنون بأنّه زوال العقل أو اختلاله بحيث يمنع جريان الأفعال والأقوال على نهج العقل إلاّ نادرا، فإن كان حاصلا فى أكثر السّنة فمُطبق، وما دونه فغير مُطبق.

وجاء فى «الكلّيّات» [هو اختلاف القوّة المميِّزة بين الأمور الحسنة والقبيحة المدركة للعواقب بأن لا يظهر أثرها وتتعطّل أفعالها إمّا بالنّقصان الذى جُبل عليه دماغه فى أصل الخلقة، وإمّا بخروج مزاج الدّماغ عن الاعتدال بسبب خلط أو آفة، وإمّا لاستيلاء الشّيطان عليه وإلقاء الخيالات الفاسدة إليه بحيث يفزع من غير ما يصلح سببا لذلك(٣)].

[وقال] في لسان العرب: [وفى حديث ماعز أنّه ﷺ سأل أهلَه عنه فقال «أَيَشْتَكِى أَمْ به جِنَّةٌ؟ قَالُوا لاَ». والْجِنَّةُ بالكسر: الْجُنُونُ. وجاء في الحديث «اللّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنْ جُنُونِ الْعَمَلِ». أى من الإعجاب به، ويؤكّد ذلك «أَنَّهُ رَأَى قَوْمًا مُجْتَمِعينَ عَلَى إِنْسَانٍ فَقَالَ مَا هَذَا؟ فَقَالُوا مَجْنُونٌ. قَالَ: هَذَا مُصَابٌ! إِنَّمَا الْمَجْنُونُ الَّذِى يَضْرِبُ بِمَنْكِبَيْهِ وَيَنْظُرُ فِى عِطْفَيْهِ وَيَتَمَطَّى فِى مِشْيَتِه(٤)». وعِطْفُ الإنسان جانبه.

أمّا التّخبُّط من خَبطَ يَخْبِطُ خَبْطًا؛ فهو الذى يقوم صاحبه ويسقط نتيجة مسّ الشّيطان له، وخُبِطَ فُلاَنٌ: صُرِعَ بعلّة، والْخُبَاطُ: الصَّرْعُ، وتَخَبَّطَهُ الشَّيْطَانُ: إذا مَسَّهُ بخَبَلٍ أو جُنُونٍ لأنّه كالضّرب على غير الاستواء فى الإدهاش، ومنه قيل فُلاَنٌ يَخْبِطُ خَبْطَ عَشْوَاء أى يأتى ما يأتى بجهالة وبغير تبصّر.

(١) ذكره الألوسى فى روح المعانى [ج ٣ ص ٤٩].

(٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٢٥٥٤].

(٣) انظر الكلّيّات لأبى البقاء [ص ٣٤٩].

(٤) انظر لسان العرب لابن منظور [ج ٢ ص ٣٨٩].

وتسمي إصابة الشيطان للإنسان بالجنون والخبل خبطة، يقال: تخبط الشيطان فلانًا: مسه وأفسده، فالمس باليد والتخبط بالرجل [(١)]. وقول الله تعالى ﴿يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ﴾ صريح في أن يتخبطه الشيطان بسبب مسه وهو الأمر المستعاذ منه في قول النبي ﷺ «وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت(٢)». أي من أن يمسني الشيطان بنزغاته التي تزل الأقدام وتصارع العقول والأوهام، ومقصوده إفساد العقل والدين عند الموت.

وكما أن الشيطان يتخبط الإنسان فيمرضه فإنه يطؤه برجله فيخبله من «خبل يخبل خبالاً». يقال فلان به خبل أي فسد عقله وجن. والخبال الهلاك والفساد والأراجيف ومنه قول الله تعالى ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧]. والخبل في الطب: اختلال العقل. (أو) هو ضعف عقلي مزمن من أخص ظواهره عدم تماسك التفكير. (قال) ابن الأثير في النهاية [يكون الخبل بمعنى الفساد والجنون في الأفعال والأبدان فيؤثر فيها(٣)].

وإذا كان الحديث عن «المس» قد تضمن الإشارة إلى تلك النتائج السلبية التي قد يصادفها بعض الناس من وسوسة الشيطان ونزغه، فإن استكمال البحث في هذه المسألة يتطلب إلقاء الضوء على ما يسمى:

بالصرع العضوى

وهل هناك ثمة علاقة بين هذا الصرع ومس الشيطان! أم أنه مرض عضوى لا يتكلم في تشخيصه وعلاجه إلا الأطباء المتخصصون باعتباره مرض عقلي لا دخل للمس فيه، وكما أشار أهل العلم فإن الصرع هو الطرح بالأرض من صرعه صرعًا ومصرعًا: طرحه على الأرض فهو مصروع. وصرع فلان أصابه الصرع [(٤)]. وعرف قديما بأنه علة تمنع الأعضاء النفيسة عن أفعال الحركة والحس والانتصاب منعا غير تام [(٥)].

(قال) في الفتح: [انحباس الريح قد يكون سببا للصرع وهو علة تمنع الأعضاء الرئيسية عن انفعالها منعا غير تام، وسببه ريح غليظة تنحبس في منافذ الدماغ أو بخار ردىء يرتفع إليه من بعض الأعضاء وقد يتبعه تشنج في الأعضاء فلا يبقى الشخص معه منتصبا بل يسقط ويقذف بالزبد لغلظ الرطوبة(٦)].

---

(١) انظر تفسير الفخر الرازى [ج ٧ ص ٩٦]. (٢) من حديث صحيح أخرجه أبوداود [١٥٥٢] والنسائى [٥٥٤٦] عن أبى اليسر. (٣) انظر المعجم العربى [ص ٣٨٠] والنهاية لابن الأثير (٤) انظر لسان العرب [٨ / ١٩٧]. (٥) ذكره ابن سينا فى القانون [٢ / ٧٦]. (٦) انظر فتح البارى [ج ١٠ ص ١٢٠].

ويُعَرِّفُ الطِّبُّ الحديث الصَّرْعَ بأنّه نوبات متكرّرة من اضطراب بعض وظائف المخّ الحركيّة أو الحسيّة أو الحشويّة تبدأ فجأة وتتوقّف فجأة، وقد تكون مصحوبة بنقص في درجة الوعي إلى حدّ الغيبوبة أحيانا، وتأتي نوبات الصَّرْع على نوعين:

(الأوّل) نَوْبات تشنُّج عضوية تبدأ من مراكز الحركة بالمخ نتيجة تغيُّرات فسيولوجية عضويّة يفقد معها المريض إحساسه وشعوره تماما.

(الثّاني) نَوبات تشنُّج نفسية تبدأ من مراكز الإحساس على شكل إحساسات مختلفة يكون مظهرها الأساسي تغيُّرا عقليا لا يفقد معها المريض إحساسه وشعوره تماما، وهذا النّوع من النَّوبات الصَّرْعية هو ما يمكن استشفاؤه بالدّعوات والرُّقى [(١)].

ولعلّ صَرْعَ المرأة التي ذكرها ابن عبّاس رضي الله عنهما في حديثه كان من النّوع الأوّل المتّصل بنوبات التّشنّج العضوى لما جاء في الصّحيح من حديث عطاء بن أبي رباح قال «قَالَ لي ابنُ عبَّاسٍ أَلاَ أُرِيكَ امْرَأَةً من أَهْلِ الْجَنَّة ؟ قُلْتُ بَلَى. قَالَ هَذه الْمَرْأَةُ السَّوْدَاءُ أَتَت النَّبيَّ ﷺ فَقَالَتْ إِنِّي أُصْرَعُ وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللهَ لي، قَالَ إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ، وإِنْ شئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَكِ. فَقَالَتْ أَصْبِرُ، قَالَتْ إِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللهَ لي أَنْ لاَ أَتَكَشَّفَ؟ فَدَعَا لَهَا(٢)».

وجاءت رواية أحمد عن أبي هريرة بلفظ «جَاءَت امْرَأَةٌ إِلَى النَّبيِّ ﷺ بهَا لَمَمٌ، فَقَالَتْ يَارَسُولَ اللهِ: ادْعُو اللهَ أَنْ يَشْفِيَني! قَالَ إِنْ شئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يَشْفِيَكِ، وَإِنْ شئْتِ فَاصْبِرِي وَلاَ حسَابَ عَلَيْكِ، قَالَتْ: بَلْ أَصْبِرُ وَلاَ حسَابَ عَلَيَّ(٣)».

فوعدها النّبي ﷺ الجنّة بصبرها على هذا المرض ودعا لها أن لا تتكشّف، والمراد أنّها خشيت أن تظهر عورتها وهي لا تشعر، وخيَّرَهَا بين الصّبر والجنّة وبين الدّعاء لها بالشّفاء من غير ضمان فاختارت الصّبر والجنّة لقوله ﷺ «إِنْ شئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ» وفيه الدّلالة على عدّة أمور:

(١) أنّ مرضها هذا مرض عضوى مزمن كما تأكّد من طلب لزوم الصّبر عليه، ولو كان ما أصابها من الشّيطان فمن الممكن أن تُشفى في أيّة لحظة بالأذكار الرَّبانيّة وإلاّ ففيم الصّبر إذن ؟.

(٢) أنّ مريض التّخبُّط الشّيطاني يكون شاعرا بكلّ شيء فكيف تترك نفسها تتكشّف وهي لا تشعر.

(٣) أنّ المراد بقولها «إِنِّي أَتَكَشَّفُ؟» أنّها خشيت أن تظهر عورتها وهي لا تشعر

---

(١) انظر كتاب الطبيب المسلم [ص ٢١٢ - ٢١٥]. (٢) حديث صحيح أخرجه البخاري [٥٦٥٢] ومسلم [٢٥٧٦]. (٣) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٩٦٥٠].

بذلك لأنّها تجد نفسها كذلك حين تقوم من صَرْعِهَا الذى يُفاجئها على أيّة حال تكون فيه وقتئذ وهذا هو الصَّرْع العضوى.

(٤) لـمّا كان التّكشُّف راجعا لحقّ الله تعالى إذ هى مأمورة بستر جميع بدنها لكونه عورة سألته ﷺ أن يدعو لها ألاّ تتكشّف.

(٥) ويأتى معنى قوله «إنْ شئْت صَبَرْت ولَك الْجَنَّةُ»: أى فاصبرى. قالت - وقد اختارت البلاء والصّبر عليه لجزيل الثّواب المترتّب عليه - «أَصْبِرُ» أى على الصَّرْع لأنّه يرجع إلى النّفس، وفيه أنّ الصّبر على بلايا الدّنيا يورّث الجنّة، وأنّ الأخذ بالشِّدّة أفضل من الأخذ بالرُّخصة لمن علم من نفسه الطّاقة ولم يضعف عن التزام الشّدّة.

(٦) كما يبيّن قوله «فَدَعَا لَهَا» أنّ الالتجاء إلى الله تعالى بالدُّعاء من أنجع وسائل العلاج، وأنّ تأثير الدُّعاء لا يتحقّق إلاّ بأمرين:

(أحدهما) من جهة المريض وهو «صدْقُ الْقَصْد[١]».

(الثّانى) من جهة المداوى وهو «قُوَّةُ تَوَجُّهِهِ إِلَى الله تعالى» وتحصيل قلبه للتّقوى والتّوكُّل.

أمّا ما ورد عند البزّار من وجه آخر عن ابن عبّاس فى نحو هذه القصّة أنّها قالت «إِنِّي أَخَافُ الْخَبِيثَ أَنْ يُجَرِّدَنى، فَدَعَا لَهَا، فَكَانَتْ إِذَا خَشِيَتْ أَنْ يَأْتِيَهَا: تَأْتِي أَسْتَارَ الْكَعْبَةِ فَتَتَعَلَّقُ بِهَا[٢]». فإنّ هذا الحديث ضعيف لروايته من طريق فَرْقد السَّبَخىِّ عن سعيد بن جبير وقول البخارى: [فرقد عن سعيد فى أحاديثه مناكير]!. «كذا قال ابن حنبل. و(قال) النّسائى[فرقد السَّبَخِي ليس بثقة]. وهذا الذى حدا بالعلاّمة أحمد شاكر والألبانى لتضعيف حديث المرأة والصّبى والشّجر والجَمَل من نفس طريق فرقد.

أعراض مرض الصَّرْع

ولمزيد من التّعرُّف على أعراض هذا المرض كما يقول رئيس الجمعية المصرية لجراحة المخّ والأعصاب فإنّها تأتى فى شكل نوبات متكرِّرة نتيجة لاضطراب بعض وظائف المخّ، حيث تتأثّر الخلايا المجاورة ببعضها عن طريق العمليّات الكيماويّة التى تمرّ عبر الغشاء المحيط بها، وعند تعرُّض هذه الخلايا للتّلف يكون ذلك سببا فى تحرّر الخلايا المجاورة لها ممّا يجعلها تطلق شحنات منبّهة بدون ضابط، وتسرى هذه الشّحنات الشّاذة فى المخّ سريان النّار فى الهشيم، فتُؤدّى لاضطراب وظائفها وتولّدُ أنماطا مُختلفة من النَّوبات الصّرْعية والتى منها [[٣]]:

(١) انظر فتح البارى [ج ١٠ ص ١٢٠]. (٢) أورده فى مختصر الزّوائد [١ / ٣٣٦] وأخرجه عبد الرزّاق عن ابن جريج. (٣) انظر تقرير جريدة الأهرام [طبّ وعلوم فى ٢٩ / ٦ / ٢٠٠٤م].

(١) النّوبات الصّغرى

وهى التى تُصيب الأطفال دون غيرهم ولا تستغرق سوى بضع ثوان، حيث تأخذ الطّفل على حين غرّة، فيتوقّف عن الأكل والكلام ويحدق بعينيه فى الفضاء بوجه شاحب، وقد يصاب الطّفل بعشرات النّوبات الصّغرى كلّ يوم، وتكثر هذه الحالات بين المصابين بالتّشوّهات وأورام المخّ، خاصّة من تربط والديهم صلة قرابة، كما تُؤدّى الولادة العسرة والإصابة بالالتهاب السّحائى ونقص الأكسجين والتّوقّف اللّحظى للقلب، والتّعرّض لخبطات الرّأس لتلف خلايا المخّ والإصابة بهذه النّوبات.

(٢) الصّرع العام

ومن أعراضه تقلّص عضلات الجسم بقوّة ويُطلق المريض صرخات مدوّية مع بدء النّوبة نتيجة للانقباض العنيف لعضلات التّنفّس، وقد يؤدّى تقلّص عضلات الفكّ لعضّ اللّسان بعنف، وتغيّر لون الوجه نتيجة لنقص الأكسجين بالدّم، وتتجمّع الرّغاوى حول الفم وتتّسع حدَقة العينين، ويتصفّد المريض عرقا وتستمرّ هذه الحالة دقيقتين، تتبعها نفضات منتظمة فى عضلات الأطراف والجزع تخمد تدريجيا.

وقد يشكو المريض من صداع شديد يُلازمه باقى اليوم، ويحفّز نَوْبات الصَّرْع الحرمان من النّوم والإحساس بالقلق والكرب والتّوتّر والاكتئاب، بجانب بعض الأكلات ومنتجات الكاكاو والتّعرّض للضّوء المبهر الذى يزيد من كهرباء المخّ.

وتحدث نوبات الصّرع فجأة وتتوقّف فجأة ويصاحبها اضطراب فى الوعى وذهول، ويتبع ذلك حركات لا إرادية فى أجزاء الجسم مع رعشة شديدة، وتُعرف هذه الحالة بالنَّوْبات الصّرعية البؤرية، وهناك نوع آخر يعرف بصرع الفصّ الصّدغى، ويشعر المريض فيه بهلاوس غريبة وروائح كريهة.

وقد يتوهّم مريض الصَّرْع أنّ علاجه مستحيل بَيْدَ أنّ العلم قد توصّل لعلاجات تبشر بالأمل، فهناك تشخيص يتمّ بالنّظائر المشعّة والرّنين المغناطيسى الوظيفى أو بالتّحليل الطّيفى الكيميائى.

هذا ما كتبه أهل العلم والتّخصّص فى هذا المجال، وهو الأمر الذى يتأكّد معه أنّ الصَّرْع العضوى من الأمراض العصبيّة التى تُعالج كأمثالها بالعقاقير وغيرها من طرق العلاج الحديثة، أمّا أنّ بعضها يُعالج بالأوهام، فهذا ليس برهانا قطعيا على أنّ هذه المخلوقات الخفيّة التى يعبّر عنها بالجنّ يستحيل أن يكون لها نوع اتصالٍ بالنّاس المستعدّين لمثل هذا الصَّرْع.

الفروق العلميّة بين نوْبة الصّرع ونوْبة الهستيريا

واستكمالا لهذا المبحث الذى استقيناه من مصادره العلميّة نورد فيما يلى الفروق الأساسيّة بين نوبة الصّرْع والنّوبة الهستيريّة :

(١) نوبات الصّرْع أكثر وقوعا فى الأطفال والأحداث بينما يقلّ وقوع نوبات الهستيريا قبل سنّ المراهقة .

(٢) نوبة الصّرع تُصيب الجنسين فى حدود متساوية تقريبا بينما مرض الهستيريا وخاصّة النوبات الهستيرية تصيب الأنثى بنسبة تزيد كثيرا عليها فى الذّكور .

(٣) تقع نوبة الصّرع فى اللّيل أو النّهار فى اليقظة أو فى النّوم ، بينما يتحدّد وقوع النوبة الهستيرية فى ساعات اليقظة فقط أو قبيل النّوم أو فى حالة الاستيقاظ من النّوم .

(٤) تحدث نوبة الصّرع أمام النّاس أو فى وحدة تامّة ، أمّا النّوبة الهستيريّة فهى تحدث دائما فى حضور الغير وخاصّة من لهم علاقة بالمريض .

(٥) تحدث نوبة الصّرع تلقائيا وبدون ارتباطها بموقف عاطفى مُعيَّن ، أما النّوبة الهستيرية فتحدث دائما على أثر موقف مشحون بالانفعال العاطفى .

(٦) لا تستهدف النوبة الصّرعية أى فائدة أو منفعة للمريض بينما ترمى النوبة الهستيرية إلى اكتساب الاهتمام والعطف والتّبرير لموقف معيّن أو لتجنّب مسئوليّة معيّنة ، وليس من الضّرورى أن تكون الرّغبة هذه واعية أو مُدركة من المريض .

(٧) النوبة الصّرعية تحدث فجأة ربّما بإنذار حسّى قصير الأمد [AURA] بينماالنوبة الهستيرية تحدث تدريجيًّا وربّما بمقدّمات طويلة ، وتستمر النوبة الصّرعية دقيقة أو أكثر قليلا وتتلاحق فيها الانقباضات العضليّة فى الأطراف بشكل معيّن ، أمّا النوبة الهستيرية فقد تستمر مدّة طويلة تتراوح من دقائق إلى ساعات وتكون الانقباضات العضليّة غير متوازنة بمثل ما يُشاهز فى نوبة الصّرْع .

(٨) يكون فُقدان الوعى فى الصّرع كاملا مع توفر الأدلة العصبية على اكتماله ، بينما لا يكون الوعى مفقودا كليًّا فى الهستيريا ، ولا تتوفّر الأدلّة العصبية على فقدان الوعى ، ومعظم المرضى فى الهستيريا يفيدون عند السّؤال بأنّهم يسمعون ما يُقال ولكنهم لا يستطيعون الجواب ، وفى الحالات التى يُنكرون فيها السّماع أو الرُّؤيا فإنّ ذلك يحدث بسبب النّسيان الهستيرى الذى يشمل زمن النّوبة الهستيرية فى بعض المرضى ، ولعلّ فى النّسيان تبريرا بعدم المسئولية .

(٩) فى الصّرع قد يصكّ المريض أسنانه ويعضّ لسانه أو شفتيه وقد يُؤذى نفسه أثناء الوقوع على الأرض أو فى النّار أو فى الماء أو أثناء قيادة السّيارة أو الدرّاجة، أمّا مريض الهستيريا فقد يغلق فكّيه ولكنّه لا يُدمى لسانه أو شفتيه، ولا يقع بمثل ما يقع به المصروع من المفاجأة، وإنّما يكون وقوعه تدريجيا ومُحاذرا للخطر.

(١٠) يخرج الزّبد من الفم فى المصروع كما يزرقّ وجهه وقد يتبوّل أثناء النّوبة، وكلّ هذه الأمور لا تحدث فى النّوبة الهستيرية.

(١١) النّوبة الصّرعية تستجيب فى معظم الحالات للعلاج بالأدوية المقاومة للصّرع، بينما لا تتأثّر النوبة الهستيرية بالدّواء إلاّ بسبب تأثير الدّواء الإيحائى.

(١٢) الحركة الدّماغية فى الصّرع حركة صرعية أثناء النوبة، وربّما تكون مضطربة وغير طبيعية بين النّوبات الصّرعية، بينما تظل الحركة الكهربائية للدّماغ طبيعية فى النوبات الهستيرية وما بين النوبات.

(١٣) قد يُصاب المريض بالصّرع بالتهيُّج بعد انتهاء النّوبة الصّرعية الفعليّة، أمّا المريض المصاب بالهستيريا فإنّ التهيّج بالحركة أو الكلام إذا حدث فإنّما يحدث أثناء النوبة لا بعدها [(١)].

هل يستطيع الشّيطان أن يصرع النّاس؟

والذى يدلّ على أنّ الشّيطان ضعيف لا يقدر على صرع النّاس وجوه [(٢)]:

(أحدها) قوله تعالى حكاية عن الشّيطان ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾[إبراهيم: ٢٢]. وهذا نصّ صريح فى أنّه ليس للشّيطان قدرة على الصّرع أو القتل أو الإيذاء. [وإذا كان الشّيطان يعترف بضعفه فيما أُتيح له، فكيف يزعمون له القدرة على ما لم يُتح له؟ وما ادّعى الشّيطان القُدرة على شىء ممّا نسبتم إليه، فكيف تدّعون له ما لم يدّعِ لنفسه؟!.

[والسّلطان المنفى فى هذا الموضع هو الحُجّة والبرهان، أى ما كان لي من حُجّة ولا برهان أَحتجّ به عليكم، كذا قال ابن عبّاس: إنّى ما أظهرت لكم حُجّة إلاّ أن دعوتكم فاستجبتم لى وصدّقتم مقالتى واتبعتمونى بلا برهان ولا حُجّة].

(والثّانى) أن يقال عن الشّيطان واحد من أمرين:

(١) إمّا إنّه كثيف الجسم، فإن كان كذلك وجب أن يُرى ويُشاهد، إذ لو جاز فيه أن يكون كثيفا ويحضر ثمّ لا يُرى لجاز أن يكون بحضرتنا جبال وأنهار ونحن لا نراها.

---

(١) انظر كتاب الصّحة النّفسية للدكتور حامد عبد السّلام. (٢) انظر تفسير المنار [ج ٣ ص ٨٠].

(٢) أو يقال إنّه من الأجسام اللّطيفة كالهواء، فمثل هذا يُمتنع أن يكون فيه صلابة وقوّة، فيُمتنع أن يكون قادرا على أن يصرع الإنسان ويقتله.

(والثّالث) لو استطاع الشّيطان أن يقتل ويصرع لصحّ له أن يفعل مثل معجزات الأنبياء عليهم السّلام، وذلك يجرّ إلى الطّعن في النّبوّة، ويدلّل على هذا ما جاء في الصّحيح أنّ رسول الله ﷺ قال «مَا من عَبْدٍ يُصْرعُ صَرْعَةً من مَرَضٍ، إلاّ بَعَثَهُ اللّهُ منها طَاهرًا[١] ». والدّلالة التي يحملها الحديث أنّ الصَّرْع مرض يخضع لعلاج الأطبّاء ولا علاقة له بما يسمّى بالمسّ أو غيره.

(الرّابع) أنّ الشّيطان لو قدر على ذلك فَلِمَ لا يصرع جميع المؤمنين، ولِمَ لا يخبطهم مع شدّة عداوته لأهل الإيمان والتّقوى والصّلاح .

واحتجّ القائلون بأنّ الشّيطان يقدر على هذه الأشياء بأمرين :

(١) ما رُوى بأنّ الشّياطين فى زمن سليمان كانوا يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات وهى من الأعمال الشّاقة.

(٢) أنّ قول الله تعالى ﴿يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ صريح فى أنّ تخبّط الإنسان يكون بسبب مَسّه لـه.

والجواب عن (الأوّل) أنّ الله تعالى كلّفهم فى زمن سليمان، فعند ذلك قدروا على هذه الأفعال بإقدار الله تعالى لهم عليها، وكان ذلك من المعجزات التى أيّد الله تعالى بها نبيّه عليه السّلام. أمّا (الثّانى) فإنّ الشّيطان يمسُّه بوسوسته المؤذية التى يحدث عندها الصَّرْع [[٢]].

{حديث إفاقة المصروع موضوع}

ومن الأحاديث التى يعتمد عليها المعالجون لحالات الصّرع ما نُسب إلى ابن مسعود من قوله «بَيْنَمَا أنَا وَالنّبىُّ ﷺ فى بَعْضِ طُرُقَاتِ الْمدِينَة، إذْ برجُلٍ قَدْ صُرِعَ، فَدَنَوتُ منْهُ وقَرأْتُ فى أُذُنه فَاسْتَوَى جَالسًا، فَقَالَ النَّبىُّ ﷺ مَاذَا قَرَأْتَ فى أُذُنه؟ قُلْتُ قَرَأْتُ قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥]. فَقَالَ ﷺ وَالّذى بَعَثَنِى بِالْحَقِّ نَبيًّا لَوْ قَرأَهَا مُوقِنٌ عَلَى جَبَلٍ لَزَالَ[٣] ».

ولـمّا كان مدار هذا الحديث ـ من ثلاثة طرق ـ يدور على [ابن لهيعة] وهو «ضعيف»

---

(١) أورده فى صحيح الجامع [٥٧٤٣] والصّحيحة [٢٢٧٧] عن أبى أُمامة.

(٢) انظر تفسير الفخر الرّازى [ج ٧ ص ٩٦].

(٣) أورده الكنانى فى تنزيه الشّريعة [١ / ٢٩٤] ورواه العقيلى فى الضّعفاء الكبير [٢ / ١٦٣ ت ٦٧٣].

بخلاف وجود [الوليد بن مسلم] في أحد الطرق وهو «مُدلّس». ومن طريق رابع عن [سلاّم ابن رزين] وهو «مجهول» لا يُعرف وحديثه «باطل». فهذا الحديث يكون «ضعيف جداً» من بعض طرقه و«ضعيف» من طرق أخرى. و[قال] عبد الله بن أحمد بن حنبل [حدّثت أبى هذا الحديث فقال موضوع، وهذا حديث الكذّابين[١]].

ومن العجيب أن يشير ابن القيّم في كتابه: «زاد المعاد» إلى أنّ شيخه [كان كثيرا ما يقرأ في أُذن المصروع ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ وحدّثني أنه قرأها مرّة في أذن المصروع فقالت الرّوح نعم ومدّ بها صوته، قال فأخذتُ له عصا وضربته بها في عروق عنقه حتّى كلّت يداى من الضّرب! قالت أنا أحبّه.. الخ[٢]]. ومن المؤسف أنّ المدوّن في زاد المعاد ليحكى تلك المأساة التي يعيشها بعض أفراد هذه الأمّة بكلّ تفاصيلها عندما نُكبوا بما يسمّى «بولوج الجنّ جسد الإنس» وحادوا عن الصّراط المستقيم ولاحول ولا قوّة إلاّ بالله.

والمتأمّل لهذه القصّة الواهية يجد أنّها تحمل [لَمْزاً] في الصّحابي الجليل عبد الله

---

(١) [الحديث الموضوع]: لغة مأخوذ من وَضَعَ الشّيء يَضَعُهُ وَضْعًا: إذا حطّه وأسقطه. وقيل: هو مأخوذ من الضِّعَة وهي الانحطاط في الرُّتبة، واصطلاحا هو الحديث المُختلق المصنوع المكذوب على رسول الله ﷺ وقد سُمّي بالحديث رغم كونه ليس بحديث إمّا بإرادة القدر المشترك وهو يحدّث به، أو بالنّظر لما في زعم واضعه بأن يضع كلاما من عند نفسه ثمّ ينسبه إلى النّبى ﷺ مُتعمّدا ذلك، والحديث الموضوع هو شرّ الأحاديث كما قال أهل العلم ولا تحلّ روايته في الفضائل أو غيرها ويجب التّحذير منه واجتنابه.

وقال العلماء بحرمة رواية الحديث «الموضوع» على من عرف كونه «موضوعا» أو غلب على ظنّه وضعه، فمن روى حديثا عَلِمَ أو ظنّ وضعه ولم يبيّن حال روايته ووضعه فهو داخل في جملة وعيده ﷺ عند البخارى [١١٠] ومسلم [٣]: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». وفي رواية «مَنْ تَعَمَّدَ عَلَيَّ كَذِبًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». كما وأنّه مندرج في جملة الكاذبين على رسول الله ﷺ، والكذب هو الإخبار بالشّيء على خلاف ما هو عليه سواء كان عمدا أو خطأ وسواء كان في اليقظة أو في المنام.

(قال) في فتح البارى [واغترّ قوم من الجهلة فوضعوا أحاديث في التّرغيب والتّرهيب وقالوا: نحن لم نكذب عليه بل فعلنا ذلك لتأييد شريعته، وما دروْا أن تقويله ﷺ ما لم يقُل يقتضى الكذب على الله تعالى لأنّه إثبات حكم من الأحكام الشّرعية، سواء كان في الإيجاب أو النّدب، وكذا مقابلهما وهو الحرام و الحلال، وجوّز الكرَاميّة وضع الكذب في التّرغيب والتّرهيب في تثبيت ما ورد في القرآن والسُّنّة وما دروْا أنّه كذب عليه لا له، وجهلهم باللّغة العربيّة «فَلْيَلِجِ النَّارَ» فقد جعل الأمر بالولوج مسبّبا عن الكذب.

لذلك أجمع علماء المسلمين على أنّ من تعمّد الكذب على رسول الله ﷺ في حديث واحد رُدّتْ رواياته كلّها وبطَل الاحتجاج بها حتّى لو تاب وحسُنت توبته، لأنّ الكذب على رسول الله ﷺ يترتّب عليه تشويه معالم الإسلام وقلب معاني الدّين القويم. [المستدرك للنّيسابورى ج ١ ص ٤٠ - وفتح البارى ج ١ ص ١٩٩].

(٢) انظر زاد المعاد [ج ٤ ص ٦٨].

ابن مسعود رضي الله عنه وتضعه فى موضع سوء الأدب الذى نربأ أن يحدث منه فى خطابه للنبى ﷺ الذى هو رحمة الله للعالمين، فتنسب إليه قوله «بيْنَما أنَا والنَّبىُّ ﷺ» : وفيه يشير إلى تقدُّمه على رسول الله ﷺ فى الذّكر، ثمّ يشير مرّة أخرى إلى تقدّمه عليه فى مباشرة علاج المصروع بقوله «فَدَنَوْتُ مِنْهُ وَقَرَأْتُ فِى أُذُنِه» ! !.

ثمّ تضع هذه القصّة الواهية ابن مسعود موضع المسئول العارف فى حضرة رسول الله ﷺ بعدما تجعله وهو أكرم الخلق على الإطلاق فى موقع السّائل المتلقّى والذى حشاه أن يكون من الجاهلين بقوله لـه «مَاذَا قَرَأْتَ فِى أُذُنِه ؟».

وقد جاء النّهى الصّريح فى القرآن الكريم عن أن يُقدِّم أيًّا من كانت نفسه على رسول الله ﷺ لا بالقول ولا بالفعل وهو مشمول قول الله تعالى ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]. فجاء قوله ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟﴾ : فى قراءة الضّحّاك ويعقوب بفتح التّاء والدّال بمعنى [لا تَتَقَدَّمُوا] أى لا تضعوا أنفسكم فى موضع مُتقدِّم على رسول الله ﷺ أيا كان هذا الموضع، ثمّ تأتى قراءتها عند الباقين بضمّ التّاء وكسر الدّال [من التّقديم] والتّقدير: لا تقدّموا أنفسكم فى حضرة النّبى ﷺ أى فلا تجعلوا لأنفسكم تقدّما ورأيا عنده والمعنى فى القراءتين واضح وظاهر :

ومقصوده لا تُقدِّموا قولا ولا فعلا بين يدى الله وقول رسوله ﷺ وفعله فيما سبيلُه أن تأخذوه عنه من أمر الدّين والدُّنيا، ومن تقدَّم قوله أو فعله على رسول الله ﷺ فقد قدّمه على الله تعالى لأنّ الرّسول ﷺ إنّما يأمر عن أمر الله عزّ وجلّ، وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما فى سبب نزول الآية [نُهُوا أن يتكلّموا بين يدى كلامه ﷺ]. ونُقل عن مجاهد [لا تفتاتوا على الله ورسوله حتّى يقضى الله على لسان رسوله ﷺ]. أى لا تتقوّلوا فى حضرته ولا تبتدعوا، وافتات الكلام: ابتدعه، وافتات برأيه: استبدّ به [(١)].

ولا شكّ أنّ مثل هذه القصّة تفتقد أدنى مراتب الأدب الأخلاقى فى مراعاة أُبَّهة النّبوّة وكمال رفعتها وجلالة مقدارها وانحطاط سائر الرُّتب وإن جلّت عن رُتبتها وقد قال الله تعالى ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾. لقد تربّى الصّحب الكرام بأدب نبيّهم ﷺ وتعاملوا معه بتلك الأخلاق السّامية الرّفيعة التى أرسى قواعدها وحى السّماء إذ قال لهم ربّهم سبحانه:

* ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟﴾ : وفيه نهى عن أى فعل يُنبىء عن كونهم جاعلين لأنفسهم فى حضرة النّبى ﷺ وزنا أو مقدارا أو مدخلا فى أمر من أوامر الدّين أو نهى من نواهيه.

---

(١) انظر أحكام القرآن لابن العربى [ج ٣ ص ١٧١٢] وتفسير القرطبى [ج ١٦ ص ٣٠١]..

* ثمّ يأتي قوله ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ﴾ . وقد تضمّن النّهي عن كلّ قول يُنبيء عن ذلك الأمر لأنّ من يرفع صوته عند غيره يجعل لنفسه اعتبارا وعظمة وهما الأمران اللّذان لا محلّ لهما أبدا في حضرة النّبي الأكرم محمّد ﷺ .

(الأمر الرّابع)

أنّ الجنّ لا يمسّ الإنسان بنصّ القرآن

الشّيطان وقبيله وليس الجنّ هو الذي اختصّه القرآن بالمسّ الذي انحصر أمره بين النّزغ والوسوسة، فكما أنّ في «عالم الجنّ» من هو مؤمن ومن هو كافر، ومن هو مُطيع ومن هو زنديق، فإنّ فيهم كذلك أصحاب الأهواء المتباينة والملل المختلفة كما جاء وصفهم في التّنزيل الكريم ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾[الجنّ: ١٤] .

فالمسلمون منهم والصّالحون لا يتعرّضون للمسلم بشرٍّ في كلّ الأحوال، فكما أنّ إبليس عدوٌّ لنا فهو عدوٌّ لهم يُعادي مُؤمنهم ويُوالي كافرهم، أمّا الشّر كلّ الشّر فإنّه يتبدّى ممّن أسماهم القرآن «بالقاسطين» وهم الجائرون العادلون عن طريق الحقّ من الجنّ، وممّن أشار إليهم بقوله سبحانه ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ : أي الكافرون منهم .

فهؤلاء وأولئك هم «عُصاةُ الْجنّ ومَرَدَته» الذين خاطبهم الخالق بقوله ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾[الأنعام: ١٢٨] .

فعُصاةُ الجنّ لا يكون منهم للإنسان إلاّ الاستكثار من الغي ودفعه إلى الباطل وتزيينه له، ومُخالفته شرع الله ودينه كما في قوله ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم﴾ . أي رغبتم الإنس وزيّنتم لهم طريق الغواية والضّلال ودعوتموهم إلى الفجور والمعصية، فصادفت دعوتكم لهم قبولا للباطل ونزوعا إلى الهوى والضّلال واستمتاعا بالحرام .

وتأتي الآية الكريمة في معرض التّقريع لهؤلاء الضّالين من الإنسِ والجنّ على أعين الخلق جميعا يوم الدّين، فكما كان التّقريع والتّعنيف للجنّ استهزاء وتبكيتا فكذلك كان للإنس لوما وتوبيخا ،لأنّ الدّعوة إلى الإثم والفجور جاءت من الجنّ أولاً فتلقّاها الإنس بالإيجاب والقبول، فتأكّد بذلك أنّ المشاركة حاصلة بين الفريقين وهو مراد قوله تعالى﴿ ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ .

إنّه الجواب الذي يكشف طبيعة الغفلة والخفّة في هؤلاء الأتباع، كما يكشف عن مدخل الشّيطان إلى نفوسهم في دار الخداع، لقد كانوا يستمتعون بإغواء الجنّ لهم

وتزيينه ما كان يُزيّن لهم من التّصوُّرات والأفكار، ومن المكابرة والاستهتار، ومن الإثم ظاهره وباطنه، فمن منفذ الاستمتاع دخل إليهم الشّيطان، كانت الشّياطين تستهويهم وتسخّرهم لتحقيق هدف إبليس في عالم الإنس! وهؤلاء الأغرار المستخفون يحسبون أنّه كان استمتاعا متبادلا وأنّهم كانوا يمتّعون فيه ويتمتّعون! ومن ثمّ يقولون ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾.

وفي الجملة فإنّ استمتاع الإنس بالجنّ، والجنّ بالإنس يشبه استمتاع الإنس بالإنس ومقصود ذلك من الآية الكريمة:

(١) أنّ استمتاع الإنس بعصاة الجنّ يتحقّق عندما ينقادون لإغوائهم وإضلالهم بكلّ أنواع الشّهوات والملذّات، ويزيّنون لهم المعصية والبعد عن الطّاعات وانتهاك الحرمات، وأنّ الجنّ يقدرون أن يدفعوا عنهم ما يحذرون، فكان الرّجل منهم إذا مرّ بوادٍ في سفره وخاف على نفسه استعاذ بهم وقال أعوذ بسيّد هذا الوادي من شرّ سفهاء قومه فيبيت في جواره حتّى يصبح، كما أخبر بذلك قول الله تعالى ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

وفي الآية إشارة إلى ما كان متعارفا عليه في الجاهلية - وما يزال متعارفا إلى اليوم في بيئات كثيرة - من أنّ للجنّ سلطانا على الأرض وعلى النّاس، وأنّ لهم قدرة على النّفع والضّر، وأنّهم محكّمون في مناطق من الأرض أو البحر أو الجوّ، إلى آخر هذه التّصوُّرات ممّا كان يقتضي القوم إذا باتوا في فلاة أو مكان موحش أن يستعيذوا بسيّد الوادي من سفهاء قومه ثمّ يبيتون بعد ذلك آمنين [(١)].

ولمّا كانت الاستعاذة بغير الله تعالى كفر وشرك فما ازداد المستعيذ بهم إلاّ إثما وخطيئة، «فالرَّهَقُ» في كلام العرب هو الإثم وغشيان المحارم. ورجل «رَهِقٌ» إذا كان كذلك ومنه قوله تعالى ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾. وفي قوله تعالى ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أضيفت الزّيادة إلى الجنّ إذ كانوا سببا لها، أي إنّ الإنس زادوا الجنّ طغيانا بهذا التّعوُّذ حتّى قالت الجنّ سُدْنَا الإنس والجنّ.

(٢) أمّا استمتاع عصاة الجنّ بالإنس فيتحقّق بطاعة الإنس لهم وتلذُّذهم بما يلقون إليهم من الأراجيف والكهانة والسّحر، كما يجدون هذا الاستمتاع عند تعظيم الإنس لهم فيما يزيّنون لهم من الضّلالة والمعاصي إمّا في شرك، وإمّا في فاحشة، وإمّا في أكل حرام، وإمّا في قتل بغير حقّ، فالشّياطين لهم غرض فيما نهى الله تعالى عنه من الكفر والفسوق والعصيان، ولهم لذّة في الشّر والفتن فيأمرون به فيما لا منفعة لهم فيه، كما

---

(١) انظر في ظلال القرآن [ج ٢٩ ص ٣٧٢٨].

فعل إبليس بآدم لـمّا وسوس له وكما أُمر بالسّجود له فامتنع.

وقوله فى الآية الكريمة ﴿ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾: يردّ قول من قال [إنّ الجنّ هم الذين استمتعوا من الإنس، لأنّ الإنس قبلوا منهم]. والصّحيح أنّ كلّ واحد منهم مستمتع بصاحبه والتّقدير فى العربيّة: استمتع بعضنا بعضا، فاستمتاع الجنّ من الإنس إنّهم تلذّذوا بطاعة الإنس إيّاهم، وتلذُّذ الإنس بقبولهم من الجنّ حتّى زَنَوْا وشربوا الخمور بإغواء الجنّ لهم.

ثمّ يأتى قوله تعالى فى الآية التّالية لهذه الآية ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩]. ليؤكّد النّهاية المحتومة لهذا الاستمتاع عندما يَكِلُ الخالق سبحانه بعضهم إلى بعض فيما يختارونه من الكُفر فلا يستطيعون تخليصهم يوم القيامة من العذاب.

المسّ لا يكون بولوج الجنّ جسد الإنس

إنّ كلمة «الْمَسِّ» التى توقّف عندها أصحاب القول «بالولوج» أضافوا لها ما لم يكن موجودا فى اللّغة التى أجمع أهل المعرفة بها، على أنّ المقصود بالمسّ الإصابة بالجنون وهذا ما لا خلاف فيه، وإنّما يأتى الاختلاف بين الفريقين فى الكيفيّة والهيئة لأنّ ظاهر الآية هو «المسّ» الذى يكون من الخارج وهذا يتعارض مع القول بأنّه كناية عن «الدّاخل» وهو لا يرجع إلى معنى صحيح فى الاعتبار.

وتأكيدا لذلك فإنّه يتبيّن عدم إمكان دخول الجنّ بدن المصروع من عدّة وجوه:

(الوجه الأوّل) أنّ «الْمَسَّ» إذا كان مُتَّفَقًا عليه بين الفريقين فإنّ ذلك يؤكّد عدم استحالة ظاهر النّص ليكون مسّا من الخارج فيُؤدّى إلى الصَّرْع، ويُؤخذ المثل عن ذلك من الكهرباء عندما تُصعق المماسّ لها من الخارج، وكذلك البروق والصّواعق إذا نزلت على الدّابة لتقتلها فى التوّ واللّحظة.

وهو ما يُبيّن أنّ المماسّة تكفى من الخارج لانتشار الأثر داخل كلّ الجسد، ممّا لا يلزم معه دخول الشّيطان فى الإنس لصرعه، بل يتمّ ذلك بالمماسّة عن طريق الوسواس الذى يكون أنكى وأشدّ أثرا من الصَّرْع لكونه أصل المصائب كلّها فى حياة النّاس.

(الوجه الثّانى) لـمّا أخبر الله تعالى أنّ هؤلاء الذين اتّقوا ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟﴾ [الأعراف: ٢٠١]. فإنّ هذا لا يعنى أنّه اخترقهم بل إنّ المقصود بذلك دعوة الشّيطان إليهم لطلب اللّذات والشّهوات والاشتغال بغير ذكر الله تعالى وهو المراد من مسّ الشّيطان.

ومَنْ كان كذلك كان فى أمر الدّنيا مُتَخَبِّطًا : فتارّة يجرّه الشّيطان إلي النّفس والهوى، وتارّة يجرّه الملَك إلي الدِّين والتَّقْوى، فينتج عن ذلك «حركات» مُضطربة و«أفعال» مختلفة وهذا هو «الْخَبْطُ الْحَاصِلُ» بفعل «الشّيطان» وتأثيره.

(الوجه الثّالث) إنّ الذين تأوّلوا النّص «بالدُّخول» فى الجسد ليس عندهم من الأدلّة على ذلك سوى أن يقولوا «بالضّعيف» من الرّوايات التى أوردوها على سبيل الحُجَّة وهى «لا تصلح» لدليل، ولا ينبغى أن يرتكن إليها «تأويل» حيث يبقى النَّص على ما هو عليه من ظاهره ومُوافقته لبقية النّصوص ثـمّ تطابقه مع المعنى الرّاسخ فى اللُّغة، وهذا يتطلّب الإشارة إلى مسألتين:

(الأولى) مُخالفة تأويل كلمة «الْمَسّ» لحقيقة اللّفظ

أشار علماء الأصول إلى أنّ التّأويل الذى يتوافق مع ما دلّت عليه النّصوص وجاءت به السُّنَّة ويُطابقها هو التّأويل الصّحيح، أمّا الذى يُخالف ما دلّت عليه النّصوص وجاءت به السُّنَّة هو التّأويل الفاسد، ولا فرق بين باب الخبر والأمر فى ذلك، وكلّ تأويل وافق ما جاء به النّبى ﷺ فهو المقبول وما خالفه فهو المردود،ومن معانى التّأويل تفسير ما يؤول إليه الشّىء ومصيره وهو فى الأصل التّرجيع ومنه [تأوّلت الآية] : إذا نظرت فيها برجع معناها، واصطلاحا صرف اللّفظ عن معناه الظّاهر إلى معنى يحتمله إذا كان المحتمل الذى يراه مُتوافقا مع الكتاب والسُّنّة:

* فعرّفه ابن حزم فى الأحكام [(١)] : بأنّه نقل اللّفظ عمّا اقتضاه ظاهره وعمّا وضع له فى اللُّغة إلى معنى آخر.

* وقال ابن الحاجب فى مختصر المنتهى [(٢)] :أنّه حمل الظّاهر على المحتمل المرجوح بدليل يُصيِّره راجحا.

* وجاء فى الإحكام للآمدى [(٣)] :أنّه حمل اللّفظ على غير مدلوله الظّاهر منه مع احتماله له.

* وقال الغزالى فى المستصفى [(٤)] : بأنّه احتمال يعضّده دليل يصير به أغلب على الظّن من المعنى الذى يدلّ عليه الظّاهر.

(١) انظر كتاب الإحكام فى أصول الأحكام لابن حزم [ج ١ ص ٤٢].

(٢) انظر كتاب مختصر المنتهى الأصولى [ص ١٤٩].

(٣) انظر كتاب الإحكام فى أصول الأحكام للآمدى [ج ١ ص ٥٣].

(٤) انظر كتاب المستصفى للإمام الغزالى [١ / ٣٨٧].

وعليه فإنّ كلّ تأويل يعود على أصل النّص بالإبطال فهو باطل، كذلك كلّ ما أُلف استعماله فى ذلك المعنى لكن فى غير التّركيب الذى ورد به النّص، فإذا ما طُبِّقت تلك القواعد على تأويلهم «للْمَسِّ» أنّه «ولوج» لتبيّن الآتى:

(أوّلا) أنّ تأويل لفظة «المسّ» على أنّه «ولوج» ودخول فى بدن الإنسان «تأويل باطل» لأنّ اللّفظ لم يحتمل ذلك ولم يعرف على هذا النّحو فى لغة العرب وذلك:

* لأنّ «المعنى» الذى قصدوا إليه لم «يُؤْلَف» استعماله فى لغة المخاطب وإن أُلفَ فى الاصطلاح «الحادث» وأنّ اللّفظ لم «يُعهد» استعماله فى المعنى «المؤوَّل» فيكون «تأويله» وحمله على خلاف «المعهود» من استعماله باطلا.

* ولأنّ «الولوج» بخلاف «المسّ» من الخارج فيكون بذلك إبطالا لمعناه ويعود بذلك على أصل النّص، وأنّ هذا التّأويل لم يدلّ عليه دليل من السّياق ولا معه قرينة تقتضيه، ولو قصد المخاطب ذلك لأحاط بالكلام قرائن تدلّ على المعنى المخالف لظاهره حتّى لا يُوقع السّامع فى اللّبس والخطأ.

(ثانيا) لمّا كان الأصل فى الكلام هو الحقيقة والظّاهر، كان العدول به عن حقيقته وظاهره مُخْرِجًا له عن الأصل، فاحتاج مُدَّعى ذلك إلى دليل يُسَوِّغُ له إخراجه عن أصله لا أن يعدل عن الحقيقة بتأويلها ثمّ يجعل هذا التّأويل نفسه دليلا، فهذا تخبُّط واضح وحياد عن الجادّة وزيغ عن الحقّ من وجوه:

(١) أنّ عدم احتمال اللّفظ للمعنى الذى تأوّله المتأوّل كذب على اللُّغة وإنشاء لوضع من عنده فيكون ضربا من الأوهام.

(٢) إذا خرج المعنى عن حقيقة اللّفظ فقد يكون له وجوه، فتعيين ذلك المعنى يحتاج إلى دليل، فإن لم يتوفّر الدّليل صار وجها من وجوه الأوهام أيضا.

(٣) إقامة الدّليل الصّارف للّفظ عن حقيقته وظاهره، فإن كان دليل المدّعى للحقيقة والظّاهر قائما فلا يجوز العدول عنه إلاّ بدليل صارف يكون أقوى منه، وقد تواترت الآيات التى توضّح أنّ كيد الشّيطان لا يتعدّى الوسوسة وأنّها باستجابة الإنسان تصير مَسًّا وخضوعا للشّيطان الذى يتعدّى بعد ذلك مرحلة التّزيين والاستدراج إلى مرحلة الأمر والنّهى، وكذلك تواترت أدلّة السُّنّة على أنّ كيد الشّيطان لا يعدو مجرّد الوسوسة، فإذا ما اتّحد الوسواس مع خذلان الإنسان صار مسًّا فلم يعد هناك مجال لصرف ظاهر الآية إلى معان لم ينزل الله تعالى بها من سُلطان.

(٤) أنّ مدّعى الحقيقة قد أقام الدّليل العقلى والسّمعى على إرادة الحقيقة مدعما

اعتقاده بحشد من الآيات والأحاديث وعمل وإجماع الصّحابة والعلماء عملا بقاعدة البراءة الأصلية وظواهر النّصوص فأين ما ادّعوه من هذا.

(ثالثا) أنّ الأسباب الواجبة للتّأويل تنقسم إلى أربعة منها اثنان من جهة المتكلّم وهذا لا يتوفّر هنا لأنّ الخطاب من الشّارع سبحانه وتعالى، وهو مُنَزَّهٌ عن نقص البيان وسوء القصد، ويتبقّى الذى هو من جهة السّامع وهو سُوء الفهْم وسُوء القصد.

(رابعا) أنّ من تيسير القرآن للذّكر تيسير معانيه للفهْم، وهذا غير مُطابق لهذه الحالة، فلو كان كذلك لجاء اللّفظ بدلا من كلمة «المسّ» المعروفة فى اللّغة بأنّها من الخارج بـ(الدّخول) مثلا وهو لفظ عربى واضح يقطع المسألة تماما خصوصا أنّ:

* لفظ [دَخَلَ] قد ورد بمشتقّاته فى القرآن حوالى (١٢٠) مائة وعشرين مرّة.
* أو لفظ [سَلَكَ] وقد ورد حوالى (١٢) اثنتى عشرة مرّة.
* أو [وَلَجَ] وقد ورد حوالى (١٣) ثلاث عشرة مرّة.

(خامسا) لمّا كان الكلام ينقسم إلى:

(١) نصّ صريح لا يحتمل التّأويل وهذا شأن عامة نصوص القرآن.

(٢) ونصّ ظاهر في مراده وإن احتمل أنّه يريد غيره.

(٣) وما ليس بنصّ ولا ظاهر في المراد بل هو مُجمل يحتاج إلى بيان [(١)].

فلو قلنا أنّ موضوعنا يخضع (للقسم الأوّل) لانتهينا إلى أنّ «المسّ» يكون من الخارج، ولو أحلناه إلى (القسم الثّانى) فننظر فى وروده، فإن اطّرد استعماله على وجه واحد استحال «تأويله» بما يخالف ظاهره.

وجاء استعمال كلمة «المسّ» فى مواضع كثيرة من القرآن منها قوله تعالى:

﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾. وقوله ﴿مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾. وقوله ﴿أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾. وقوله ﴿وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ﴾. وقوله ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا﴾. وقوله ﴿مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾. وقوله ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ﴾.

ثمّ قيِّدت «بمسّ الشّيطان» فى عدّة مواطن منها قوله تعالى:

* ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾[ص: ٤١].
* ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾[الأعراف: ٢٠١].

وجاءت فى مواضع أُخرى بخلاف مسّ الشّيطان مثل قوله تعالى:

* ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾[النّور :٣٥].

* ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[الواقعة:٧٩].

والمعنى المطّرد فى هذه الآيات أنّ «المسّ» من الخارج وإلاّ فهل تلج النّار فى الزّيت ليضىء؟ وهل يلج المطهّرون فى الكتاب ؟. ولو قلنا أنّ موضوعنا يخضع (للقسم الثّالث) مجازا فهذا أيضا لا يجوز تأويله، لأنّه ليس فى كلام الله ورسوله ﷺ من هذا النّوع شىء من الجُمَل المركّبة وإنّما يقوم البيان القرآنى على ثلاثة أنواع :

(الأوّل) نوع معه بيانه فهو مع بيانه يُفيد اليقين بالمراد منه.

(الثّانى) نوع جاء بيانه فى آية أُخرى، فإنّ البيان فى الآيات الأُخرى يعضّد قولنا ويثبت للنّص حقيقته.

(الثّالث) نوع بيانه موكول إلي الرّسول ﷺ فيُستفاد اليقين من المراد منه ببيان الرّسول ﷺ له، وهدى رسول الله مُطابق لظاهر الآيات وعملا بالبراءة الأصلية.

وممّا سبق يتّضح [(١)] :

(١) أنّ الْمَسَّ ينتج عنه [صَرْعٌ نفسى] بلا خلاف.

(٢) أنّ الْمَسَّ يكون من الخارج.

(٣) أنّ التّوقُّف عند ظاهر الآيات شأن المؤمنين خاصّة فيما يتعلّق بالغيبيّات.

ويتبقى فى بحث هذه المسألة أن نشير إلى الفرق بين التّفسير والتّأويل:

وفى ذلك قال العلماء [أنّ التّفسير أعمّ من التّأويل، وأكثر استعمال التّفسير فى الألفاظ ومفرداتها، وأكثر استعمال التّأويل فى المعانى والجُمل، وأكثر ما يستعمل التّأويل فى الكتب الإلهيّة، أمّا التّفسير فيستعمل فيها وفى غيرها.

و(قال) آخرون: ما وقع مبيّنًا فى كتاب الله عزّ وجلّ ومبيّنًا فى صحيح السُّنّة سُمِّىَ تفسيرا، لأنّ معناه قد ظهر وليس لأحد أن يتعرّض له باجتهاد ولا غيره، بل يحمله على المعنى الذى ورد ولا يتعدّاه، أمّا التّأويل فهو ما استنبطه العلماء العالمون بمعانى الخطاب، الماهرون بآلات العلوم(٢)].

(قال) الماتريدى [التّفسير القطع على أنّ المراد من اللّفظ هو هذا، والشّهادة على الله تعالى أنه عنى باللّفظ هذا المعنى، فإن قال: دليل مقطوع به فصحيح، وإلاّ فتفسير بالرأى وهو المنهى عنه، والتّأويل: ترجيح أحد الاحتمالات بدون القطع والشّهادة(٣)].

---

(١) انظر كتاب استحالة دخول الجان بدن الإنسان [ص ١٠٦-١٠٨]. (٢) انظر معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة [ج ١ ص ٤١٩]. (٣) انظر روضة النّاظر [ص ٩٢].

(الثّانية) نقض ما ادعوا أنه أدلّة من السُّنّة

حينما يأتي الكلام على أمر غيبي مثل موضوع الجنّ والشّياطين فليس لأحد مهما كان من هو أن يُضيف أمرا أو تفصيلا لم ينزل الله بها سُلطانا، أو أن ينتقص ما ثبت بالدّليل أو أن يفسّر ظاهر الآيات وفق هواه أو بلا دليل، فمن تأوّل فيهم تأويلا يخرجهم به عن هذا الظّاهر فإنّه يكون بذلك قد خالف النّصوص الشّرعية الصّحيحة التي وردت بشأنهم.

ولقد استدلّ القائلون بولوج الجنّ جسد الإنس بروايات عديدة تراوحت درجاتها ما بين الضّعيف [(١)] لانقطاعه مرّة لإرساله، ومرّة لضعف راوٍ فيه، ومرّة لجهالة آخر وما بين الضّعيف جدًّا ومنها ما جاء عن الْجَرْوِ الأَسْوَدِ وغيره ممّا نبيّنه على النّحو التّالي:

[الرّواية الأولى]

وهي التي تحكي ما رُوِي عن حماد بن سلمة عن فَرْقَد السَّبَخيّ عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس قال «أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ بِوَلَدِهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ يَارَسُولَ اللهِ إِنَّ ابْنِي بِهِ لَمَمًا وَإِنَّهُ يَأْخُذُهُ عِنْدَ طَعَامِنَا فَيُفْسِدُ عَلَيْنَا طَعَامَنَا؟ قَالَ فَمَسَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ صَدْرَهُ وَدَعَا لَهُ فَثَعَّ ثَعَّةً فَخَرَجَ مِنْ فِيهِ مِثْلُ الْجَرْوِ الأَسْوَدِ، فَشُفِي (٢)».

وجاء عند الدّارمي بلفظ «فَقَالَتْ يَارَسُولَ اللهِ إِنَّ ابْنِي بِهِ جُنُونٌ وَإِنَّهُ يَأْخُذُهُ عِنْدَ غَدَائِنَا وَعَشَائِنَا فَيُخَبِّثُ عَلَيْنَا، فَمَسَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ صَدْرَهُ وَدَعَا، فَثَعَّ ثَعَّةً، وَخَرَجَ مِنْ جَوْفِهِ مِثْلُ الْجَرْوِ الأَسْوَدِ فَسَعَى (٣)». و«الثَّعَّةُ»: هي الْقَيْئَةُ أي قَاءَ شيئا مُتتابعا على أثر بعض.

[وهذه القصّة أخرجها أحمد (١-٢٣٩) ح (٢١٣٣) عن يزيد بن هارون (١-٢٥٤) ح (٢٢٨٨) عن عفّان (١-٢٦٨) ح (٢٤١٨) عن أبي سلمة. والدّارمي (١-٢٤) ح (١٩) عن الحجّاج بن منهال. وأبو نعيم في الدّلائل عن الحجّاج أيضا كلّهم عن حمّاد بن سلمة عن فرقد السّبخي عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس فذكر القصّة]:

---

(١) [الحديث الضّعيف]: هو ما افتقد صفة من صفات القبول السّتّة عند ابن الصّلاح وهي الاتّصال والعدالة والضّبط والمتابعة وعدم الشّذوذ وعدم العلّة، ويتفاوت ضعف الحديث بحسب شدّة ضعف رواته، ومنه ما له لقب خاص: كالموضوع والشّاذ والمقلوب والمعلّ والمضطرب والمرسل والمنقطع والمعضل والمنكر. (قال) ابن العربي وغيره: لا يجوز العمل بالحديث الضّعيف مُطلقا لا في فضائل الأعمال ولا في غيرها لأنّه اختراع عبادة في الدّين وتشريع لم يأذن الله عزّ وجلّ به. [راجع علوم الحديث ص ٣٩ - ٤٠] و [التّدريب والتّقريب ١ / ٩١ - ٩٢]. ولقد أورد مسلم [٧] عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ نهى عن الرّواية عن الضّعفاء والاحتياط في تحمّلها فقال «يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ، يَأْتُونَكُمْ مِنَ الأَحَادِيثِ بِمَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ، فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ، لاَ يُضِلُّونَكُمْ وَلاَ يَفْتِنُونَكُمْ».

(٢) أورده أحمد بإسناد ضعيف [٢١٣٣ و ٢٢٨٨].

(٣) أورده أبو عبيد في غريب الحديث [١ / ١٤٧].

والتّحقيق يدلّ على أنّ هذه القصّة [واهية] والحديث الذى جاءت به غريب وعلّته هو فرقد السّبخى :

(١) قال ابن حبّان في المجروحين (٢ - ١٠٥) فرقد السّبخى كان فيه غفلة ورداءة حفظ فكان يَهِمُ فيما يروى فيرفع المراسيل وهو لا يعلم، ويسند الموقوف من حيث لا يفهم، فلمّا كثُر ذلك منه وفحشت مُخالفته للثّقات [بَطُلَ] الاحتجاج به.

(٢) أورده البخارى فى «الضّعفاء الصّغير» ترجمة (٢٩٨) قال: فرقد السّبخى أبو يعقوب عن سعيد بن جبير فى حديثه [مناكير].

(٣) أورده النّسائى فى «الضّعفاء والمتروكين» ترجمة [٤٩٠] وقال ضعيف.

(٤) وقال الشّيخ الألبانى فى تحقيق المشكاة [ضعيف].

والمتبادر إلى الذّهن من هذه القصّة بالإضافة إلى بُطلانها فإنّها لا تصلح دليلا يقول به أصحاب دعوى الولوج على صحّة دعواهم للبراهين التّالية:

أولا - إقرار المرأة للنّبى ﷺ أنّ الذى أصاب ابنها هو «الجنون» وهو ما يؤكّد طبيعة الحالة التي تعرضها الأحاديث وأنّها ليست تَلَبُّسًا للجنّ أو وُلُوجًا لها فيه.

ثانيا - أنّ ذكر المرأة لمضاعفات هذا الجنون وتأثيره على ابنها بقولها عند أحمد فى المسند «فَيُفْسِدُ عَلَيْنَا غَذَاءَنَا». وعند الدّارمى «فَيُخَبِّثُ عَلَيْنَا» يضعنا أمام حالة مرضيّة بعيدة كلّ البعد عن دعوى الولوج أو المسّ.

ثالثا - أمّا عن مسألة «الجرو الأسود» فقد اتفقت روايات المسند على أنّ الذى «تَقَيَّأَهُ» الصّبى هو «مِثْلُ الْجَرْوِ الأَسْوَدَ». ثمّ جاءت رواية الدّارمى مُوافقة لذلك، والمِثْلُ فى اللُّغة «الشّبيهُ». فلا هو جرو ولا هو أسود وإنّما هو [شيء آخر] شُبِّه بالجرو الذى يسعى!. وفى القاموس المحيط عُرِّفَ [الْجَرْوُ] بأنّه صغير كلّ شيء حتّى الحنظل والبطيخ وكذا ولد الكلب والسّباع [[1]].

وإذا كان قد تقرّر فى لغة العرب أنّ [الْجَرْوَ] هو صغير كلّ شيء، فليس بمُستغرب أن يكون الذى «تَقَيَّأَهُ» الصّبى هو نوع من «ديدان المعدة»، إذ يُعلم من أهل الطّبّ أنّ أمعاء الإنسان يُمكن أن ينمو فيها بعض هذه الدّيدان ومنها دود البطن المسمّى [بالصُّغار] ودودة الإسكارس التى ينشأ منها مرض [الإسكاريّة] والدّودة الشّريطيّة وهى من أخطر الدّيدان التى تصيب الأمعاء ويترتّب على وجودها هلاك الإنسان، وفى معظم الأحيان تستطيع هذه الدّيدان أن تعيش داخل جسم الإنسان لعدّة سنوات ومن أخطرها [[2]]:

(١) انظر القاموس المحيط [ص ١٦٣٩].

(٢) انظر كتاب أمراض الجهاز الهضمى للدكتور عماد تركى [ص ٢٠٩ - ٢١٥]

(أولا) الدّيدان الاسطوانية - [النّيماتودا]: وهى ديدان ملساء إسطوانيّة الشّكل لولبيّة أو مسحوبة الأطراف، ويتراوح طولها من عدّة ملليمترات إلى عدّة سنتيمترات، وتختلف هذه الدّيدان عن البكتيريا والطّفيليّات الأُخرى وحيدة الخليّة بأنّها مُتعدّدة الخلايا ولكنّها غير مُقسّمة، ومن أهم أنواع الدّيدان الاسطوانيّة:

(١) الأسكارس وتعدّ من أشهر وأكثر أنواع الدّيدان الاسطوانيّة انتشارا، وهى تعيش فى الأمعاء الدّقيقة ويبلغ أقصى طول للدّودة البالغة الأُنثى ٣٥ سم والذّكر ٣٠سم، ومن مضاعفاتها أعراض سوء التّغذية وتأخّر النّمو فى الأطفال، ويتم فقس هذه الدّودة بعد ابتلاع البويضات أثناء تناول الطّعام الملوّث فى الأمعاء الدّقيقة، ثمّ تأخذ اليرقة مسارا معقّدا باختراق الغشاء المخاطى للأمعاء لتصل إلى الأوعية الدّموية ومنها إلى الرّئتين ثم القصبة الهوائيّة ومنها إلى الحلق مرّة أُخرى ثمّ إلى الأمعاء الدّقيقة.

(ثانيا) الدّيدان المسطّحة - [السّيستودا]: وهى ديدان شريطيّة الشّكل مخنّثة حيث تحتوى على أعضاء ذكرية وأنثوية معا، وتعيش فى الأمعاء الدّقيقة وتحتاج عادة لعائل وسيط من الثّدييات آكلة اللّحوم، وقد يحدث أحيانا أن يصبح الإنسان عائلا وسيطا لبعض هذه الدّيدان مثل الدّودة الشريطيّة للخنزير والدّودة الشّريطية للكلاب وذلك عند تناوله طعام مُلوّث ببويضات هذه الدّيدان، فينتج عن ذلك إصابة أعضاء مُختلفة باليرقة منها الكبد والرّئة وأحيانا المخّ، ومن أهم أنواع الدّيدان المسطّحة [(١)]:

(١) الدّودة الشّريطيّة وهى تعيش فى الأمعاء الدّقيقة ويبلغ طولها عدّة أمتار، وتتكون من رأس به عدّة ممصّات تستخدمها فى التّغذية والتعلّق بجدار الأمعاء، ثمّ جسم شريطى الشّكل مُقسّم، ويوجد نوعان من هذه الدّودة:

* نوع تكون الخنازير هى العائل الوسيط له ويمكن أن يكون الإنسان عائلا رئيسيا عند تناوله لحم الخنزير الذى يحتوى على اليرقة.

* ونوع آخر تكون الأبقار هى العائل الوسيط له ويكون الإنسان عائلا رئيسيا.

ومع افتراض صحّة الحديث فإنّ هذا كلّه يؤكّد أنّ الذى «تقيّأه» الصّبى هو شىء من هذا القبيل حسب منطوق هذه الرّوايات التى لم تسلم من ضعف فلا ينبنى عليها حُكم بحال ولا يتحقّق من خلالها منطق أو استدلال.

[الرّواية الثّانية]

وهى التى رواها معمر عن عطاء بن السّائب عن عبد الله بن حفص عن يعلى بن مرّة قال «أنّ امرأَةً أتت النّبىَّ ﷺ بابنٍ لها به جنّةٌ، فأخذَ النّبىُّ ﷺ بمنْخرِه فقالَ

(١) انظر كتاب أمراض الجهاز الهضمى للدكتور عماد تركى [ص ١١٦]

اخْرُجْ إنِّي مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ[1]». والحديث ضعيف لضعف عطاء بن السّائب وجهالة عبد الله بن حفص وفيه قال النّسائى [عبد الله بن حفص مجهول، لم يرو عنه غير عطاء بن السّائب]: انظر الجرح والتّعديل [٥ / ٣٦] وتهذيب الكمال [٢ / ٦٥٧] وتاريخ البخارى الكبير [٥ / ٧٥].

أمّا عطاء بن السّائب فقد قال عنه يحى بن معين [لا يُحتجّ به] وقال البخارى [أحاديثه القديمة صحيحة وزاد: من سمع منه حديث لم يكن بشىء]. وقال شُعبة وعنه ابن قطن [ثلاثة فى القلب منهم هاجس وذكره]. كما ذكره ابن عدى فى الكامل فى الضّعفاء]. والحديث من هذا الطريق أخرجه البغوى فى شرح السُّنّة [٧ / ٧٠] ومصابيح السُّنّة [٤ / ١١٧] ودلائل النّبوة للبيهقى [٦ / ٢٣ـ٢٤] والمسند [١٧٤٩٥]

[الرّواية الثّالثة]

وهى ممّا رُوِى عن أمّ أبان بنت الوازع عن أبيها «أنّ جدّها الزّارع انطلق إلى رسول الله ﷺ فانطلق معه بابن له مجنون أو ابن أخت له، قال جدّى: فلمّا قدمنا على رسول الله ﷺ المدينة قلت يارسول الله إنّ معى ابنا لى أو ابن أخت لى مجنون أتيتك به تدعو الله عزّ وجلّ له فقال «ائتنى به» فانطلقت به إليه وهو فى الرّكاب فأطلقت عنه وألقيتُ عنه ثياب السّفر وألبستُه ثوبين حسنيين وأخذت بيده حتّى انتهيت به إلى رسول الله ﷺ فقال «ادْنُهْ منّى اجْعَلْ ظَهْرَهُ ممَّا يَلِيَنى». قال: فأخذ بمجامع ثوبه من أعلاه وأسفله، فجعل يضربُ ظهره حتّى رأيتُ بياض إبطيه وهو يقول «اُخْرُجْ عَدُوَّ اللهِ». فأقبل ينظر نظر الصّحيح ليس بنظره الأوّل، ثمّ أقعده رسولُ الله ﷺ بين يديه فدعا له بماء فمسح وجهَهُ ودعا له، فلم يكن فى الوفد أحدٌ بعد دعوة رسول الله ﷺ يفضل عليه[2]».

والخبر الذى جاءت به هذه القصّة أورده الطّبرانى فى المعجم الكبير [٥ / ٢٧٥ـح / ٥٣١٤] قال: حدّثنا العبّاس بن الفضل الأسفاطى، حدّثنا موسى بن إسماعيل، حدّثنا مطير بن عبد الرحمن، حدّثتنى أمّ أبان بنت الوازع عن أبيها أنّ جدّها الزّارع انطلق فذكر القصّة، وهى قصّة واهية والخبر الذى جاءت به لا يصحّ وهو غريب لا يروى عن الزّارع إلاّ بهذا الإسناد وعلّته أمّ أبان بنت الوازع:

(١) لانفراد راوٍ واحد بالرّواية عنها وهو مطير بن عبد الرحمن الأعنق وهذا واضح بتصريح الإمام الذّهبى بالانفراد، بعد أن أورد الإمام الهيثمى الخبر الذى جاءت به هذه القصّة فى مجمع الزّوائد [٩ ـ ٣] قال: رواه الطّبرانى وأمّ أبان لم يرو عنها غير مطير.

---

(١) أورده أحمد بإسناد ضعيف [١٧٤٩٥] وذكره ابن الجوزى [٢ / ١٧٦] فى الضّعفاء.

(٢) أورده الطّبرانى فى المعجم الكبير [٥٣١٤].

(٢) بالتّحقيق نجد أنّ أمّ أبان لم يوثّقها أحد من علماء الجرح والتّعديل وبذلك يتبيّن أنّها [مجهولة العين] ويكون حُكم الخبر الذى جاءت به القصّة [عدم القبول] كما هو مُبيّن فى شرح النُّخبة. (قال) السّخاوى فى «فتح المغيث بشرح ألفيّة الحديث للعراقى [٢-٤٣] » [«مجهول عين» وهو كما قاله غير واحد (من له راوٍ) واحد فقط ولكن قد (ردّه) أى مجهول العين الأكثر من العلماء مطلقا[١]].

لقد استنبط بعض النّاس من هذه القصّة دليلا واهيا على ضرب المرضى والمجانين، وهذا الاستنباط كان له أثره السّيىء حيث تمادى المعالجون ومنهم جهلة مُقصّرون فاعتبروا أنّ كلّ الأمراض تلبّسا من الجان وأنّ أنفع الوسائل لذلك هى الضّرب المبرّح أو الخنق أو إيذاء المريض بحجّة أنّه يؤذى الجنّ المتلبّس وكلّها من الأمور المحدثة التى تخالف الشّرع الحنيف كما فى قوله ﷺ من حديث جابر عند مسلم «وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُها وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ[٢]».

[الرّواية الرّابعة]

وتتضمّن ما جاء فى رواية ابن ماجه عن أبى ليلى قال «كُنْتُ جَالسًا عنْدَ النَّبىِّ ﷺ إذْ جَاءَهُ أَعْرَابِىٌّ فَقَالَ إنَّ لى أخًا وَجِعًا، قَالَ مَا وَجَعُ أَخِيكَ؟ قَالَ بِهِ لَمَمٌ، قَالَ اذْهَبْ فَأْتنى به. قَالَ فَذَهَبَ فَجَاءَ به، فَأَجْلَسَهُ بينَ يَدَيْه، فَسمعْتُهُ عَوَّذَهُ بفَاتحَة الْكتَاب، وَأَرْبَعِ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ الْبَقَرَة وَآيَتَيْنِ مِنْ وَسَطِهَا ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ﴾. وَآيَةَ الْكُرْسِىِّ وَثَلاثَ آيَاتٍ مِنْ خَاتِمَتِهَا..».

«.. وآية من آل عمران - أحسبه قال - [شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ]. وآية من الأعراف: [إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ]. وآية من المؤمنون: [وَمَن يَدْعُو مَعَ اللهِ]. وآية من سورة الجنّ: [وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا]. وعشر آيات من أوّل الصّافّات، وثلاث من آخر سورة الحشر، وسورة [قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ]. والمعوذتين، فَقَامَ الأَعْرَابِىُّ قَدْ بَرأَ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ[٣]». و«اللَّمم: طرف من الجنون يلمّ بالإنسان أى يقرب منه ويعتريه.

وحكم الأئمّة فى هذه الرّواية أنّ فيها مجهولين ومُدلّس وهو أبو جناب، والتّحقيق فيها أنّ قصّتها واهية والحديث الذى جاءت فيه منكر [[٤]] وأورده ابن ماجه (ح / ٣٦١٥)

---

(١) انظر مجلة التّوحيد القاهريّة [العدد ٣٩٨ ص ٥٨].

(٢) من حديث صحيح أخرجه مسلم [٨٦٧].

(٣) أورده فى ضعيف ابن ماجه [٧١٥] وقال الألبانى [مُنْكَرٌ].

(٤) [الحديث المنكر]: جعله ابن حَجَر فى المرتبة الثّالثة بعد الموضوع والمتروك، وهو لغة اسم مفعول من: أنكره أى جحده ولم يعرفه، وقيل: هو الذى رواه الضّعيف مُخالفا للثّقات ويُطلق على ما تفرّد به الضّعيف وإن لم يخالف غيره، وقيل: هو الذى فى إسناده راوٍ كثُرت غفلته أو فحُش غلطه أو ظهر فسقه.

وأبو يعلى فى المسند (٣-١٧٦) ح-١٥٩٤ والحاكم فى المستدرك (ح-٨٤٤٠). وقال الألبانى فى التعليق على ابن ماجه [حديث مُنْكَر] وقال أهل العلم أنّ مصطلح الاضطراب ينطبق على هذا الحديث لروايته على أوجه مُختلفة مُتقاربة كما قال النّووى فى التّقريب [١-٢٦٢]. والعلّة الأساسية فيه فوق هذا الاضطراب هو أبو جناب الكلبى:

(١) فأورده ابن حبّان فى المجروحين [٣-١١١] وقال: كان ممّن يُدلّس على الثّقات ما سمع من الضّعفاء فالتزق به المناكير التى يرويها عن المشاهير، فوهاه يحى بن سعيد القطّان وقال لا أستحلّ أن أروى عنه.

(٢) وعنه قال أحمد: أحاديثه أحاديث مناكير ثمّ أورد له حديثا وقال: والرّواية فى هذا الباب فيها اضطراب وضعف.

(٣) وتعقّبه الذّهبى فى (التّلخيص) وقال: أبو جناب الكلبى ضعّفه الدّارقطنى والحديث منكر [انظر المستدرك-ج ٥ ص ٢٣٥٢].

فنعلم ممّا سبق أنّ هذه القصّة واهية والخبر الذى جاءت به منكر وعلّته واضحة ظاهرة، كما يتبيّن للمطّلع فرية «إحضار الجان» وبُطلان ما نسبوه إلى النّبى ﷺ من أنّه حدّد آيات يحضر الجان عند قراءتها فى أذن المجنون وأنّ كلّ ذلك كذب وافتراء على صاحب الشّريعة الغرّاء ﷺ وابتداع فى شرع الدّين القويم.

العلاج بالقرآن انحراف به عن وجهته الصّحيحة

لمّا سُئل الإمام الأكبر محمود شلتوت شيخ الأزهر رحمه الله تعالى عن حقيقة أمر التّداوى ببعض آيات القرآن الكريم وما ينشره أدعياء العلاج عن استخدامها فى كشف مسّ الجنّ وتلبُّسه جسد الإنسان أجاب فضيلته بما يلى:

[ليس من شكّ فى أنّ القرآن أُنزل على نبّينا محمد ﷺ لغرض هو أسمى الأغراض وأنبلها، وهو هداية النّاس إلى الحق عن طريقه وإخراجهم ممّا هم فيه من الظّلمات إلى النّور، كما أنزله ليطهّر القلوب من رجس الخضوع لغيره ويرشد النّاس إلى العبادة الصّحيحة وإلى العلوم النّافعة وإلى الأخلاق الفاضلة، التى تحفظهم وتحفظ المجتمع الإنسانى من مزالق الهوى والشّهوة، وأنزله أيضا ليرشد النّاس إلى الأعمال الصّالحة التى تسمو بالفرد والجماعة إلى مكانة العزّة والكرامة.

وقد أرشد القرآن الكريم إلى هذه الغايات فى كثير من الآيات فقال سبحانه وتعالى ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة ١٥ -

١٦]. وقوله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[يونس: ٥٧]. وبذلك كان القرآن شافيا لأمراض القلب التى تفسد على الإنسان حياته من الجهل بالحقّ، والشّبهة التى تضعف الإيمان، والشّهوة التى تغرى بالفساد، وقد تضمّن القرآن الكريم بنصوصه وإرشاداته ما عالج البشرية من جهلها وشبهها وشهواتها.

ولم يختلف المسلمون الأوّلون فى هذه الحقيقة بل آمنوا بها وحدّدوا الغاية التى لأجلها نزل القرآن، فأقبلوا على حفظه ودرسه يستخرجون نفائسه ويتعرّفون أحكامه، ثمّ أخذوا يعالجون به القلوب من رجس العقائد الباطلة والأخلاق الفاسدة ويدفعون به مجتمع النّاس إلى سبل الخير والفلاح.

ومن هذا نعلم ما كان للقرآن الكريم من أثر وتوجيه فى حياة المسلمين الأوّلين، بيد أنّ المسلمين بعد ذلك ما لبثوا أن انحرفوا بالقرآن عمّا أُنزل لأجله، واستخدم لأغراض لا تمتّ بأوهى الأسباب إليه، ولا هى ممّا ينبغى أن تُستخدم أو تُتّخذ طريقا إليه، عندما جعله بعضهم وسيلة لاستخراج الجنّ من بدن الإنس فى الوقت الذى أثبت فيه القرآن بآياته المعجزات أنّ الجنّ لا يقدرون على إلحاق الإيذاء الاتصالى أو التّلبّس بالإنسان.

لقد انحرف المسلمون بالقرآن إلى جهة أُخرى لم يتّجه بها أحد من المسلمين الأوّلين، والسّبب فى ذلك جهلهم بمفردات هذا الكتاب الخالد وغرسهم أوهام التّلبيس والشّعوذة فى عقول النّاس ووضعوا فى نفوسهم أنّ الجنّ يلبس الإنسان، وأنّ لهم قدرة على استخراجه، ومن ذلك كانت بدعة العلاج بالقرآن والتّحويطة والمندل وخاتم سليمان، فكما استخدموا الجنّ فى إظهار الغيب من مسروق ضائع أو مستقبل مخبوء استغلّوه كذلك فى العلاج من الصّرْع وكشف المسّ من الشّيطان.

إنّ الادّعاء باستخدام القرآن فى تحضير الجان والعلاج من أمراض الأبدان أمر يُخالف كتاب اللّه تعالى من الجهة التى أنزل لأجلها، ويعتبر فى الوقت نفسه عنوانا سيّئا على إيمان المسلمين من حيث لا يشعرون بمكانة تلك المعجزة الخالدة التى جعلها الله سبيلا لإنقاذ البشرية من الأوهام والخرافات.

وكان مع هذا وذاك عُنوانا على الجهل بنظام الأسباب والمسبّبات الذى نظّم الله تعالى عليه العالم وهدى النّاس إلى السّير فى سبيله فهو سبحانه ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[طه: ٥٠]. وعندما يجعل الله القرآن سبيلا لإنقاذ البشرية من كلّ الأوهام والخرافات يعكس نفر من المسلمين القضيّة فيجعلونه سبيلا من سُبل الأوهام وعنوانا على الجهل بأسرار الله تعالى ونظامه المبدع فى هذا الكون الذى نعيش فيه.

وفى الوقت الذى لا يقبل فيه الدّين والعقل هذا الانحراف يقوم مُدّعى العلاج بكتابة الآيات القرآنية الحكيمة فى إناء ثمّ يمحوها بالماء ثمّ يأمر المريض بشربه، أو يقوم بكتابة الآيات فى قطع صغيرة من الورق ثمّ تلفّ كالبرشام ويأمر الملبوس بابتلاعها، أو يقوم بحرق تلك القطع ويبخّر المريض بها على مرّات، أو يأمر بوضعها فى مكان معيّن من جسم المريض؟.

وبهذا ونحوه اتّخذ الدّجّالون القرآن الكريم وسيلة لكسب العيش عن طريق يأباه الإيمان ويرفضه الدّين القويم، وذلك فضلا عن أنّه انحراف بالهدى القويم عمّا أُنزل لأجله، لما فى ذلك من إفساد للعقول الضّعيفة وصرف لأربابها عن طريق العلاج الصّحيح وتغيير لسُنّة الله تعالى فى الأسباب والمسبّبات، واحتيال على أكل أموال النّاس بالباطل، وهذا تصرُّف لا يقرّه دين ولا يرضى به عقل سليم.

إنّ الأمراض البدنية قد خلق الله لها عقاقير طبيّة فيها خاصيّة الشّفاء وأرشد إلى البحث عنها والتّداوى بها، وقد صحّ عن النّبى ﷺ أنه قال «لكُلِّ داءٍ دواءٌ، فإذا أُصيب دواءُ الدّاء برأ بإذن الله عزَّ وجلَّ[١]». وقوله ﷺ عند البخارى عن أبى هريرة «ما أنزلَ الله داءً إلاَّ أنزلَ لهُ شفاءً[٢]». وجاء عند ابن ماجه بلفظ «إلاّ أنزلَ لهُ دواءً». وفى المسند عن ابن مسعود رفعه «إنّ الله تعالى لمْ يُنْزِلْ داءً إلاَّ أنْزلَ لهُ شفاءً، علِمهُ منْ علِمهُ، وجهِلهُ منْ جهِلهُ[٣]».

كما يتأكّد ذلك بقوله ﷺ من حديث جابر «إنْ كانَ فى شىْءٍ منْ أدْويَتكُمْ خيْرٌ: ففى شرْطةِ محْجمٍ، أوْ شربةٍ من عسلٍ، أوْ لذْعةٍ بنارٍ، وما أُحبُّ أنْ أكْتوىَ[٤]». وعن عائشة أنّ رسول الله ﷺ قال «الْحُمّى منْ فيْحِ جهنّم فأبْردوها بالْماءِ[٥]». وأخرج مالك عن زيد ابن أسلم مرسلا «أنَّ النّبىَّ ﷺ قال لرجلين: أيُّكُما أطبُّ؟ قالا: يارسُولَ الله أوَ فى الطِّبِّ خيْرٌ؟ قالَ: أنْزلَ الدّوَاءَ الّذى أنْزلَ الأدْواءَ[٦]».

وتأتى أقوال النّبى ﷺ على هذا النّحو إرشادا لأمّته إلى أنّ التّداوى من الأمراض البدنيّة إنّما تكون من طريق الطّبِّ البشرى الذى يشخّص الأمراض ويعرف الدّواء، أمّا القرآن فلم ينزله الله دواء لأمراض الأبدان وإنّما أنزله كما قال دواء لأمراض القلوب

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٠٤].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٦٧٨] وابن ماجه [٣٤٣٩].

(٣) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٣٥٧٨].

(٤) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٠٥] وافقه البخارى [٥٦٩٧].

(٥) أخرجه مسلم [٢٢٠٩] وافقه البخارى [٣٢٦٤].

(٦) أخرجه مالك فى الموطأ [١٦٩٥] ورُوِى موصولا عند الشّيخين وغيرهما.

وشفاء لما في الصّدور، وإذا كانت أمراض الأبدان أمراضا ماديّة وشفاؤها بأدوية ماديّة فإنّ أمراض القلوب أمراض معنويّة وشفاؤها بأدوية معنويّة، والقرآن قد عالج مرض الجهل بالعلم، ومرض الشّبهة بالبرهان، ومرض الشّهوة بالحكمة.

وما التّداوي في الأمراض البدنية بالقرآن إلاّ كقراءة البخاري وختمات النّصر على الأعداء في ميدان القتال، وإلاّ كقراءة ما يُسَمّيه العامّة [عديّة يس] تحصيلا للرّغبات وتحقيقا للأماني والغايات، وكلاهما وضع للعلاج المعنوي مكان العلاج المادي وكلاهما قلب لنظام الله في خلقه وعُروج بالقرآن عمّا أُنزل لأجله.

إنّنا ندعو المسلمين إلى أن ينظروا للقرآن النّظرة اللائقة بمكانته، وأن يضعوه في المرتبة السّامية التي وضعه فيها المسلمون الأوّلون، وأن يمحوا من أذهانهم أنّ آياته نزلت لدواء الأبدان أو لشفاء العلل، وإنّما هو هدى ورحمة وتشريع، وتنوير للبصائر، وسموّ بالإنسانية، وتقويض للشّرك، وهدم للباطل، ونصرة للحقّ، فعلينا أن نبذل قصارى جهدنا في صيانة كتاب الله تعالى عن الابتذال وأن نوجّه النّاس إلى الانتفاع الصّحيح به، وإلى ما يحفظ كرامتنا بين الأمم عن عريق الأسباب التي وضعها سبيلا للمجد والكرامة والله تعالى أعلم[1]].

(الأمر الخامس)

اعتقاد «الولوج» مؤامرة شيطانية ضدّ المسلمين

بيّن أهل العلم أنّ الحديث عن الغيبيّات لا يتوثّق إلاّ بالدّليل القطعي الثّابت من كتاب الله تعالى أو سنّة رسوله ﷺ، وما قرأه النّاس منسوبا إلى بعض أئمة السّلف بدخول الجنّ بدن الإنس هو كلام يُخالف حقيقة ما جاء في كتاب الله تعالى من بيان، وما شرّعه رسول الله ﷺ من هدى ورشاد، ومن أمثلة ذلك:

(١) ما نُسب إلى الإمام ابن تيمية من قوله [وكذلك دخول الجنّ في بدن الإنسان ثابت باتّفاق أئمّة أهل السُّنّة والجماعة!!]. ثمّ تقوّلوا عليه ما نصّه [وليس في أئمة المسلمين من يُنكر دخول الجنيِّ في بدن المصروع وغيره، ومن أنكر ذلك وادّعى أن الشّرع يُكذِّب ذلك، فقد كَذَبَ على الشّرع وليس في الأدلّة الشّرعية ما ينفي ذلك[2]].

(٢) وما نُقل عن ابن القيّم قال [شَاهَدْتُ شَيْخَنَا يُرْسِلُ إِلَى الْمَصْرُوعِ مَنْ يُخَاطِبُ الرُّوحَ الَّتي فيه ويَقُولُ: قَالَ لَكَ الشَّيْخُ اخْرُجي، فَإِنَّ هَذَا لاَ يَحِلُّ لَك، فَيُفِيقُ الْمَصْرُوعُ، وَرُبَّمَا خَاطَبَهَا بنَفْسه، ورُبَّمَا كَانَتِ الرُّوحُ مَارِدَةً فَيُخْرِجُهَا بِالضَّرْب فَيفِيقُ الْمَصْرُوعُ وَلاَ يُحِسُّ بِأَلَمٍ![4]].

---

(١) انظر كتاب الفتاوى للإمام الأكبر محمود شلتوت شيخ الأزهر رحمه الله [ص ٢١-٢٧]. (٢) انظر مجموع الفتاوى [ج ٢٤ ص ٢٧٦-٢٧٧]. (٣) انظر زاد المعاد [ج ٤ ص ٦٨].

إنّ ما يفعله الكثير من الأدعياء من ضرب للمصروع أو خنقه أو كيّه بدعوى استخراج الجنّيّ من جسده يأتي بالمخالفة للشّرع والدّين مُستدلّين في ذلك بما لا يصلح دليلا لدعواهم، وأنّ الكلام المنسوب إلى الشّيخين الجليلين في مسألة «الولوج» على هذا النّحو يفتقر إلى «الحُجّة والبُرْهَان» ولا يقال فيه «بالرّأى»، لكونه لم يرد في كتاب ولا سُنّة، وإنّما يلزمه دليل صحيح، وأنّ مثل هذا الكلام إمّا أن يكون موضوعا عليهم أو مردودا إليهم، ولم لا والوضع جرى على كلام من هو أفضل منهما سيّدنا رسول الله ﷺ، فإن قال قائل أنّ هذا موجود بكتبهم فإنّنا نقول أنّ ما يلزمنا في ذلك هو الدّليل المستقى من كتاب الله تعالى وسُنّة رسوله ﷺ ولا شيء غير ذلك.

والحقّ الذى يقال إنّه ليس في الأدلّة الشّرعية ما يُثبت صحّة هذه التصوّرات، والذين نسبوا هذه الأقوال إلى هؤلاء الأئمة العظام إنّما استدلّوا عليها:

(أولا) بتأويل قوله تعالى ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

والإجماع الصّحيح لمقصود الآية الكريمة قائم على أنّ المُرابى يُبعث كالمجنون عقوبة لجُرمه وتمقيتا لإثمه على رءوس الخلائق يوم القيامة، وأنّ الآية تُشبِّهُ حال المُرابى القائم بحرص وجشع إلى تجارة الدّنيا بقيام المجنون الذى فقد عقله.

ذلك لأنّ الطّمع والرّغبة تستفزّه حتّى تضطرب أعضاؤه فيُبعث كالمصروع المتخبّط، لأنّه إذا ذكر القيام انصرف إلى النُّهوض المعهود في الأعمال، فإذا كان ما شُنّع به على المرابين من خروج حركاتهم عن النّظام المألوف هو أثر اضطراب نفوسهم وتغيُّر أخلاقهم، كان لابدّ أن يُبعثوا عليه، فإنّ المرء يُبعث على ما مات عليه لأنّه يموت على ما عاش عليه، وهناك تظهر صفات النّفس الخسيسة في أقبح مظاهرها، كما تتجلّى صفات النّفس الزّكية في أبهى مجاليها، وعليه فإنّ مدلولات الآية الكريمة تقف بنا أمام أمرين:

(الأوّل) أنّ المسّ المقصود في الآية هو الجنون الذى يلحق بالمُرابى فلا يقوم يوم القيامة إلاّ كما يقوم الذى يتخبَّطُهُ الشّيطان من المسّ، وقد روى ابن أبى حاتم عن ابن عبّاس قال «آكلُ الرِّبَا يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَجْنُونًا[1]». وعن قتادة في تفسيره للآية [هو التّخبيل الذى يتخبّله الشّيطان من الجنون].

(الثّاني) أنّ توظيف مضمون الآية الكريمة ومحاولة ربطها بين «مَسِّ الشّيْطَان» و«التّخَبُّط» الذى فسّروه على أنّه من أثر «الولوج»، هو تأويل يفتقد صدق البرهان وصحّة الدّليل.

(١) أورده ابن كثير في تفسيره [ج١ ص ٣٠٨].

(ثانيا) تأويلهم على غير الوجه الصّحيح لبعض أحاديث النّبى ﷺ والتى منها:

(أ) - حديث صفيّة أمّ المؤمنين

ولا يستقيم «تأويل سقيم» مع «نص ثابت صحيح» عندما يقولون أنّ «الولوج» بمثابة مجرى الشّيطان من الإنسان مجرى الدّم، فإذا كان ذلك كذلك فما أسهل أن يلج الجنىّ جسد الإنسان بنص الحديث كزعمهم، وهذا ما يتنافى وتلك الحقائق التى حملتها هذه الرّواية بأكثر من لفظ منها:

* ما رواه مسلم من حديث صفيّة زوج النبىّ ﷺ قالَتْ «كَانَ النَّبىُّ ﷺ مُعْتَكِفًا فَأَتَيْتُهُ أَزُورُهُ لَيْلاً فَحَدَّثْتُهُ، ثُمَّ قُمْتُ لأَنْقَلِبَ فَقَامَ مَعِى لِيَقْلِبَنِى، وَكَانَ مَسْكَنُهَا فِى دَارِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْد، فَمَرَّ رَجُلاَنِ مِنَ الأَنْصَارِ، لَمَّا رَأَيَا النَّبِىَّ ﷺ أَسْرَعَا، فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَىٍّ. فَقَالاَ سُبْحَانَ اللهِ يَارَسُولَ اللهِ!». قَالَ «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِى مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ وَإِنِّى خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِى قُلُوبِكُمَا شَرًّا، أَوْ قَالَ شَيْئًا(١)». وقوله «فَقَامَ مَعِى لِيَقْلِبَنِى»: أى لِيَرُدَّنِى إلى منزلى.

* وجاءت رواية الزّهرى عند البخارى بلفظ «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنَ ابْنِ آدَمَ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّى خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِى قُلُوبِكُمَا شَيْئًا(٢)».

* وجاء فى رواية ابن شهاب عند البخارى «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِى مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ وَإِنِّى خَشِيتُ أَنْ يُلْقِىَ فِى أَنْفُسِكُمَا شَيْئًا(٣)».

ومعناه أنّ القلب إذا كان يدفق الدّم دفقا إلى الشّرايين والأوردة فإنّ الشّيطان إذا تمكّن من الإنسان فإنّه يقذف بالسّوء والشّر إلى قلبه ليجرى فى مسالك البدن كما يُدفَقُ الدّم من القلب إلى تلك الأعضاء وهذه الشّرايين.

وللعلماء فى هذه المسألة قولان:

(الأوّل) أنّ قوله «يَبْلُغ» و«يَجْرِى» يُبيِّن أنّ الله تعالى جعل للشّيطان قدرة على أن يُلقى كلاما خفيّا فى القلب تُدركه كلّ الحواسّ فيسرى فى مسامّ البدن كما يسرى الدّم فى العروق.

(الثّانى) أنّ ذلك ورد على سبيل الاستعارة من كثرة إغوائه ووسوسته فكأنّه لا يُفارق الإنسان كما لا يفارقه دمه، وقيل إنّ وسوسته تجرى منه هذا المجرى فلا تُفارقه

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢١٧٥] وافقه البخارى [٣٢٨١] وأبو داود [٢٤٧٠].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٢٠٣٥].

(٣) حديث صحيح أخرجه البخارى [٢٠٣٨].

كالدّم الذى يجرى فى الأوعية والشّرايين فاشتركا فى أمرين :
(الأوّل) فى شدّة الاتصال .
(الثّانى) وفى عدم المفارقة أو الانفكاك .
وهو ذات المعنى الذى يشير إليه قوله ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة:٩٣] . أى أُشربت قلوبهم حُبَّه، وهو تشبيه ومجاز يُعبِّر عن تمكُّن أمر العجل فى قلوبهم، كما عبّر عن حبّ العجل بالشُّرب دون الأكل لأنّ شرب الماء يتغلغل فى الأعضاء حتّى يصل إلى باطنها، وكذلك وسوسة الشّيطان إذا ما تملّكت الإنسان فإنّها تجرى فى جسمه وتتمكّن منه لا أن يدخل فيه ويجرى منه مجرى الدّم .

(قال) القرطبى فى المُفهم [قوله «يَجْرى منَ الإِنْسَان مَجْرَى الدَّمِ» حمله بعض العلماء على ظاهره فقال إنّ الله تعالى جعل للشّيطان قوّة وتمكُّنا من أن تسرى وسوسته فى باطن الإنسان ومجارى دمه، والأكثرُ على أنّ معنى هذا الحديث : الإخبارُ عن ملازمة الشّيطان للإنسان واستيلائه عليه بوسوسته وإغوائه وحرصه على إضلاله وإفساد أحواله، فيجب الحذر منه والتّحرزُ من حيَله وسدِّ طرق وسوسته وإغوائه وإن بَعُدَت[1]] .

والمحصّل من هذه الرّوايات أنّ النّبى ﷺ لم ينسب إلى الصّحابيّين أنّهما يظنّان به سوءا لـمّا تقرّر عنده ﷺ من صدق إيمانهما، ولكن خشى عليهما أن يوسوس لهما الشّيطان ذلك لأنّهما غير معصومين خصوصا فى مثل هذا الذى يُفضى بالإنسان إلى الكفر فإنّ ظنّ السّوء والشّر بالأنبياء كفر وضلال .

فبادر رسول الله ﷺ إلى إعلامهما حسما للمادّة وتعليما لمن بعدهما إذا وقع له مثل ذلك، وعن الشّافعى قال [إنّما قال لهما «ذلك» لأنّه «خاف» عليهما «الكفر» إن ظنّا به التّهمة فبادر إلى إعلامهما نصيحة لهما قبل أن يقذف الشّيطانُ فى نفوسهما شيئا يهلكان به[2]] . ويستفادُ من الرّبط بين المترادفات فى هذه الأحاديث الوقوف على البون الشّاسع الذى يفصل بين مقاصدها الصّحيحة وتأويلها على غير مدلولاتها الواردة فيها من خلال البيان التّالى :

(أوّلا) أنّ قوله «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِى مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ» : يعنى وصول وسوسته إلى الإنسان كاندفاع وسرعة وصول الدّم من القلب إلى أعضاء الجسم، وأنّ معنى قوله «يَبْلُغ مِنَ ابْنِ آدم مَبْلَغَ الدَّمِ» : أى يصل إلى غايته بالوسوسة بسرعة بلوغ الدّم من القلب إلى أعضاء الجسم، وفارق كبير بين وسوسته التى تجرى من الإنسان مجرى الدّم وجريانه

(١) انظر المُفْهِم للقرطبى [ج ٥ ص ٥٠٥] .
(٢) انظر فتح البارى [ج ٤ ص ٣٢٨] .

هو [أى الشّيطان] داخل العروق والأبدان ! ! .

(ثانيا) إذا ما اعتبرنا أنّ قوله «يجْرِى» و«يَبْلُغ» و«يُلْقِى» يحمل الدّلالة على دخول الشّيطان جسد الإنسان دخولا حقيقيا ، فإنّ هذا المعنى يتعارض تماما مع مقصود عبارات أخرى فى ذات الأحاديث تنفيه وتخالفه بل وتدحضه مثل :

(١) قوله ﷺ فى الحديث «وإنّى خشيتُ أنْ يَقْذفَ فى قُلوبكُما شرًّا» : والقذف لغة الرّمى البعيد بقوّة ، واستُعير القذف فيه للوسوسة والنّزغ ، ومن القذف الرّمى بالشّر ومنه [الْقذّافُ] : أداة للقذف يُرمى بها الشّىء فيبْعُد مداهُ . وجاء فى التّنزيل قول الله تعالى ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾[الأنبياء : ١٨] . أى نرميه به فيمحقه .

ومن الدّلالات التى تُستنبط من السّياق أنّ [الْقَذْفَ] المشار إليه لا يكون إلاّ من الخارج حتّى يصير قذفا ، أمّا الدّاخل فلا يتسنى معه قذف لفرضية قيام التّوحُّد الكامل فيما بين الشّيطان والجسم الذى بات يجرى فيه مجرى الدّم بزعمهم ، وهو الأمر الذى يتناقض تماما مع ترابط المعانى ومقاصدها الصّحيحة التى تبيّن أنّ الشّيطان هو الذى يقذف بوساوسه ونزغانه فتندفع إلى القلب اندفاع الدّم فى العروق .

(٢) وهكذا الحال مع قوله ﷺ عند البخارى «وَإِنّى خَشيتُ أنْ يُلْقِىَ فى أَنْفُسكُمَا شَيْئًا» : من قوله «أَلْقى الشَّىْءَ» : طَرحَهُ ، وألقى الله الشّىء فى القلوب : قَذَفَهُ . من قول الله تعالى ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾[الأنفال : ١٢] . وعندما لا يخرج الإلقاء عن هذا المعنى فإنّ ذلك يدحض مقولة ولوج الشّيطان جسد الإنسان ! .

ثمّ يأتى القرآن الكريم بالمعنى الصّحيح الصّريح لإلقاء الشّيطان فى قول الله تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[الحجّ : ٥٢ - ٥٣] . وفى الآية تنبيه إلى أنّ الشّيطان يتربّص بأمانى النّاس لينفذ منها إلى صميم الدّين .

وإذا كان الله تعالى قد عصم أنبياءه ورسله فلم يمكّن الشّيطان أن ينفذ من خلال رغباتهم الفطريّة إلى دعوتهم كما تشير الآية ، فغير المعصومين فى حاجة إلى الحذر الشّديد من هذه النّاحية والتحرُّج البالغ خيفة أن يدخل الشّيطان عليهم من ثغرة الرّغبة الجامحة والأمانى الكاذبة والانحراف عن النهج الإلهى الذى اختاره الله تعالى لعباده .

وإلقاء الشّيطان لا يكون إلاّ لصنفين من النّاس أشارت إليهما الآية الكريمة فى قول الله تعالى ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾[الحجّ : ٥٣] . وإلقاء الشّيطان قد يكون تلك الفتنة التى يقذف بها فى قلوب الذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ، وللشّيطان

في هذا الإلقاء وسائل كثيرة منها الوسوسة والنّزغ والنّزغ والنّسغ والإغواء والكيد والفتنة والتّخبّط والتّخويف والتّزيين والخُذلان والاستحواذ والتّسويل، ثمّ إنّ هذا الإلقاء يأتي:

(*) مرّة على لسان المرء عندما يتحدّث به إثمه وفجوره كما في قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[الأنعام: ١١٢]. وهو الذى سمّاه فى الآية [إلقاء الشّيطان].

(*) ومرّة بالخاطرة التى يلقى بها فى قلبه من قول الله تعالى﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾.

وقد يكون من إلقاء الشّيطان التّمويه على الحقيقة ومُحاولة طمسها من خلال هؤلاء الذين يُدافعون عن الباطل، وقد يكون تلك البدع المُنكرة التى ينسبها أهل الباطل إلى الدّين وما ينضمّ إليها من الأهواء والانحرافات التى تشوّه وجه الحقيقة فيه، والشّيطان كثيرا ما يجد فى تلك الأهواء البشريّة وفى بعض ما يترجم عنها من تصرّفات أو كلمات فرصة للكيد والنّيل من دعوة الحقّ وتحويلها عن قواعدها وإلقاء الشّبهات حولها إلاّ أنّ الله تعالى قد قضى أمره وأنفذ مشيئته بقوله ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢].

(٣) أنّ الشّر فى قوله «يَقْذفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَرًّا أَوْ قَالَ شَيْئًا»: هو الكُفر الذى يلزم عن ظنّ السّوء بالنّبى ﷺ وفيه قال القاضى عياض [فى هذا الحديث من الفقه إنّ من قال فى النّبى ﷺ شيئا من هذا أو جوّزه عليه فهو كافر مُستباحُ الدّم].

(٤) ثمّ يأتى قوله ﷺ فى المسند عند أحمد من حديث أنس بن مالك «أَنَّ رَجُلاً مرَّ برَسُول الله ﷺ وَمعَهُ بعضُ أزْواجه فقالَ يافلانَةُ، يُعلمُهُ أنَّها زوْجتُه، فَقالَ الرَّجُلُ: يارَسُولَ الله أَتَظُنُّ بى! قَالَ فقَال: إنِّي خَشيتُ أنْ يَدْخُلَ عَلَيْكَ الشَّيْطَانُ(١)». أى يدخل عليك بوسوسته ونزغه ويلبّس عليك الأمر.

---

(١) علّق الشّيخ الألبانى فى سلسلة الأحاديث الصّحيحة [المجلّد ٦ ص ١٠٠٩] على حديث عثمان ابن أبى العاص رقم [٢٩١٨] بقوله: أنكر أشدّ الإنكار على الذين يستغلّون هذه العقيدة ويتّخذون من استحضار الجنّ ومُخاطبتهم مهنة لمعالجة المجانين والمصابين بالصّرْع، ويتّخذون فى ذلك من الوسائل التى تزيد على مُجرّد تلاوة القرآن ممّا لم يُنزل الله به سلطانا، كالضّرب الشّديد الذى قد يترتّب عليه أحيانا قتل المُصاب كما وقع هنا فى عمّان وفى مصر ممّا صار حديث الجرائد والمجالس، لقد كان الذين يتولّوْن القراءة على المصروعين أفرادا قليلين صالحين فيما مضى، فصاروا اليوم بالمئات وفيهم بعض النّسوة المتبرّجات فخرج الأمر عن كونه وسيلة شرعيّة لا يقوم بها إلاّ الأطبّاء عادة إلى أمور ووسائل أُخرى لا يعرفها الشّرع ولا الطّب معًا، فهى عندى نوع من الدّجل والوساوس يُوحى بها الشّيطان إلى عدوّه الإنسان، بل هو نوع من الاستعاذة بالجنّ التى كان عليها المشركون فى الجاهلية المذكورة فى قوله تعالى﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[الجنّ: ٦].

(٢) ـ حديث عثمان بن أبي العاص الثّقفي

ثمّ يأتي حديث عثمان بن أبي العاص الذى رواه الحاكم وصحّحه الألباني عند ابن ماجه قال «لمَّا اسْتَعْمَلَنى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الطَّائف جعَل يعْرضُ لى شَىْءٌ فِى صَلاَتى حَتَّى مَا أَدْرى مَا أُصَلِّى، فَلَمَّا رأيْتُ ذَلكَ رحَلْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ ابْنُ أَبى الْعَاص ! قُلْتُ نَعَمْ يَارَسُولَ اللهِ، قَالَ مَا جَاءَ بِكَ ؟ قُلْتُ يَارَسُولَ اللهِ عَرَضَ لِى شَىْءٌ فِى صَلَوَاتِى حَتَّى مَا أَدْرِى مَا أُصَلِّى !».

«قَالَ ذَاكَ الشَّيْطَانُ، ادْنُهْ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ، فَجَلَسْتُ عَلَى صُدُورِ قَدَمَىَّ، قَالَ: فَضَرَبَ صَدْرِى بِيَدِهِ وَتَفَلَ فِى فَمِى وَقَالَ اخْرُجْ عَدُوَّ اللهِ، فَفَعَلَ ذَلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ الْحَقْ بِعَمَلِكَ، قَالَ فَقَالَ عُثْمَانُ فَلَعَمْرِى مَا أَحْسَبُهُ خَالَطَنِى بَعْدُ[1]». وقوله «فَضَرَبَ صَدْرِى»: أمسك به وقبض.

إلاّ أنّ دلالات هذا الحديث لا تشير من قريب أو من بعيد إلى دعوى الولوج أو تلبُّس الجنّ للإنس وإنّما تحدّد «العلّة» وهى الشّىء الذى كان يعرض للصّحابى الجليل فى صلاته، ثمّ تبيّن «مصدر» هذه العلّة وهى مُخالطة الشّيطان له فى هذه الصّلاة وتلبيسه عليه قراءتها بقوله ﷺ «ذَاكَ الشَّيْطَانُ». ثمّ تشير إلى «أثر العلّة» بأنه كان لا يدرى ما صلّى وهى الأمور التى نعرض لبيانها على النّحو التّالى:

(١) أنّ ما فعله النّبى ﷺ مع عثمان بضرب صدره بيده الشّريفة وتفله بصاقه الطّاهر فى فمه يُؤكّد خصوصيّة هذه الرُّقية بالصّحابى الجليل لقوله «فَلَعَمْرِى مَا أَحْسَبُهُ خَالَطَنِى بَعْدُ». ويُقصد بالمخالطة هنا الالتباس والإشكال ومنه يقال «خَالَطَهُ الدَّاءُ» أى خامرهُ، و«خُولِطَ فُلاَنٌ فِى عَقْلِهِ» اضْطَرَبَ عَقْلُهُ، وخَلَّطَ فى أمره: أَفْسَدَ فيه.

(٢) كما تبيّن أنّ محلّ الوسوسة والتّلبيس هو الصّدر باعتباره مُحتوى القلب ووعائه بدليل قوله تعالى ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾. وهو معنى قول عثمان بن أبى العاص: «فَضَرَبَ صَدْرِى بِيَدِهِ».

(٣) ثمّ يأتى قوله ﷺ «اُخْرُجْ عَدُوَّ اللهِ» للدّلالة على قطع وسوسة الشّيطان وتخليطه عليه والحيلولة دون تسلُّطه ونزغه، كما يتضمّن الإشارة إلى سموّ رقية النّبى ﷺ وتأكيد فاعليتها فى تخليص ابن أبى العاص ممّا كان يعرض له حتّى قال «مَا أَحْسَبُهُ خَالَطَنِى بَعْدُ».

(٤) أنّ قوله ﷺ «اُخْرُجْ عَدُوَّ اللهِ» قد جاء على وجه التّخصيص فى محلّ الرُّقية ودعائها ليقف بنا أمام حالة فريدة لا تخصّ إلاّ عثمان وحده، وتبيّن أنّها لا تصلح أن تكون دليلا

(١) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [٢٨٧٤].

لمن قالوا بدخول الجنّ جسد الإنس لتحديدها العلّة ومصدرها وأثرها .

(٥) كما أنّ الذى يقطع بخصوصيّة هده الرّواية ما جاء عند مسلم وغيره من قوله ﷺ لعثمان «ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خنزبٌ فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْهُ وَاتْفُلْ عَنْ يَسَارِكَ ثَلاثًا ، قَالَ فَفَعَلْتُ فَأَذْهَبَهُ اللهُ عَنِّي[١]» .

فرواية ابن ماجه اقتضت [الرُّقية الخاصّة] التى جاءت [باللّفظ الخاصّ] من النّبى ﷺ لعثمان وتفرّده بها ، ثمّ جاءت رواية مسلم وغيره لتنقل الأمر من الخصوص إلى العموم عندما يستشعر المسلم تلبيس الشّيطان عليه أمر الصّلاة أن يتعوّذ بالله تعالى منه ويتفل عن يساره ثلاث مرّات فيذهب الله عنه كيده وتخليطه [[٢]] .

(٣) ـ حديث أبى سعيد الخدرى

جاء هذا الحديث فى الصّحيح عن أبى سعيد أنّ رسول الله ﷺ قال «إِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فِى الصَّلاَةِ فَلْيَكْظِمْ مَا اسْتَطَاعَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ[٣]» . والتّثاؤب هو التنفّس الذى ينفتح منه الفم لدفع البخارات المحتقنة فى عضلات الفكّ ، وينشأ من امتلاء البطن وثقل النّفس وكدورة الحواسّ ممّا يؤدّى إلى الكسل وسوء الفهم ولا يكون ذلك إلاّ بواسطة الشّيطان الذى يُزيّن للنّفس شهواتها ولذلك أضيف إليه .

ويستقى أصحاب الفكر الولوجى من تأويلهم لقول النّبى ﷺ «فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ» : على أنّه دليل على تلبُّس الجنّ جسد الإنس وأنّ الشّيطان يتمكّن من الدّخول فيه حقيقة ، إلاّ أنّنا إذا أعملنا النّظر فى الرّبط بين الكلمات المختلفة لفظا المتّحدة معنى لوجدنا أنّ الدّلالة الوحيدة التى تعبّر عنها الرِّواية تعنى مُداخلة الشّيطان بين المرء ونفسه بالنَّزغ والوسوسة وهو ما تُشير إليه القرائن التّالية :

أوّلا ـ أنّ الحديث جاء مُقيّدا بحالة الصّلاة وللشّيطان غرض قوى فى التّشويش على المصلّى ، فكان لابدّ من كظم التّثاؤب لإفساد مراده من تشويه صورته ودخول فمه ، وإنّما خصّ الصّلاة لأنّها أولى الأحوال بدفع التَّثاؤب لما فيه من الخروج عن اعتدال الهيئة واعوجاج الخلقة .

(قال) القرطبى فى المُفهم :[قوله «فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ» : يعنى فى الفم إذا لم يكظم ، ويحصل من هذه الرّواية أنّ من لم يكظم تثاؤبه ضحك الشّيطان منه ودخل فى فمه ، وكلّ هذا يشعر بكراهة التّثاؤب وكراهة حالة المتثائب إذا لم يكظم[٤]] .

---

(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١٢٢٠٢] وهو عند البخارى بلفظ قريب . (٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٠٣] . (٣) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٩٩٥] . (٤) انظر المُفهم للقرطبى [ج ٦ ص ٦٢٦] .

ثانيا - أنّ كلمة «يَدْخُلُ» قد جاءت صريحة فى أنّ هذا الدّخول لا يتعدّى الفم ويُؤيّد ذلك ما جاء عن أبى سعيد عند أحمد من قول النّبى ﷺ «إِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فى الصَّلاَةِ فَلْيَكْظِمْ مَا اسْتَطَاعَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ فِى فِيهِ(١)». وهو صريح فى أنّ الدّخول لا يكون إلاّ فى الفم فيؤدّى إلى تشنّج أعصاب الوجه وتغيُّر الخلقة، أو قيام الشّيطان بتهييج بعض الذّباب فيدخله فى فمه ممّا يُؤدّى إلى وقوع الضّرر.

ثالثا - أنّ مقصود كلمة «يَدْخُلُ» حيلولة الشّيطان بين المرء وبين نفسه حال الصّلاة ليضيّع خشوعه ويشوّش عليه صلاته وقراءته فيكون مُرادها هنا التّمكّن من الوسوسة وتحقيق كسل المصلّى وتهاونه فيها وافتقاده نشاطه فتثقل عليه فيملّها فيستعجل فيها أو يخلّ بها.

رابعا - أنّ اتّفاق اللّفظ والمعنى حول كلمة «يَدْخُلُ» قائم بين كثير من الرّوايات التى تشير إلى مدلول واحد هو دخول الشّيطان بين المرء وبين نفسه بالوسوسة والنّزغ والتى منها ما جاء فى الصّحيح:

(١) قوله ﷺ عند ابن ماجه «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْتِى أَحَدَكُمْ فِى صَلاَتِه فَيَدْخُلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ حَتَّى لاَ يَدْرِى زَادَ أَوْ نَقَصَ(٢)». وجاء فى رواية بلفظ «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ بَيْنَ ابْنِ آدَمَ وَبَيْنَ نَفْسِهِ(٣)». والمعنى أنّه يدخل عليه بالشّك فيما صلّى من ركعات، والدّاخلة من الإنسان فكره ونيّته، فيكون الدّخول هنا بمعنى التّداخل وهو التّلبيس والاشتباه.

(٢) ثمّ يأتى قوله ﷺ عند البخارى «فَإِذَا قُضِىَ التَّثْوِيبُ أَقْبَلَ - أى الشَّيْطَانُ - حَتَّى يَخْطِرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ(٤)». وقوله «يَخْطِرَ» يلقى فى قلبه الخواطر التى تشغله ويذكّره بما لم يكن يذكر، والخاطر والخاطرة ما يخطر بالقلب أو النّفس من أمر.

(٣) قوله ﷺ من حديث أبى هريرة «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ يُصَلِّى جَاءَ الشَّيْطَانُ فَلَبَسَ عَلَيْهِ حَتَّى لاَ يَدْرِى كَمْ صَلَّى(٥)». أى خلّط عليه وشوّش فكره من قولهم [لَبَسَ عَلَيْهِ الأَمْرَ لَبْسًا]: أى خلّطه عليه وعمّاه وأبهمه وجعله مُشكلاً مُحيّرا، وقوله «فَلَبَس»: يُروى مخفّف الباء ومشدّدها وهى مفتوحة فى الماضى مكسورة فى المستقبل، فأمّا بكسر الباء فى

---

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد [١١٢٠١].

(٢) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [١٠١٠] وأورده الألبانى فى صحيح أبى داود [٩٤٣].

(٣) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه [١٠١١].

(٤) حديث صحيح أخرجه البخارى [١٢٣١].

(٥) حديث صحيح أخرجه البخارى [١٢٣٢].

الماضى وفتحها فى المستقبل فهو من لباس الثوب أو غيره ومنه قول الله تعالى ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾[الكهف: ٣١].

وعلى ذلك فإنّ الاشتراك اللفظى بين قوله «يَدْخُلُ» و «يَخْطِرُ» و «لَبسَ عَلَيْه» يشير إلى حقيقة واحدة تقوم على التوحُّد الكامل بينها فى المعنى المقصود وهو دخول الشيطان بين المرء ونفسه بالوسوسة والخلط والإبهام. (قال) التوربشتى فى تعليقه على حديث أبى سعيد وغيره: الأدب ألاّ يتكلّم فى هذا الحديث وأمثاله بشىء، فإنّ الكلمة النبويّة هى خزائن أسرار الرّبوبيّة ومعادن الحكم الإلهيّة، وقد خصّ الله تعالى رسوله ﷺ بغرائب المعانى وكاشفه بحقائق الأشياء التى يقصر عن إدراكها باعُ الفهيم [(١)].

(٤) - حديث أنس رضى الله عنه

ومن الأحاديث التى جاءوا بها دليلا على تلبُّس الجنّ جسد الإنس ما رواه مسلم فى صحيحه عن أنس رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال «لَمَّا صَوَّرَ اللهُ آدَمَ فى الْجَنَّة تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَتْرُكَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِه يَنْظُرُ مَا هُوَ! فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لاَ يَتَمَالَكُ(٢)». ودلالة الحديث تنفى هذا الزّعم الذى يخالف حقيقة منطوقه لاعتبارين:

(الأوّل) أنّ معنى قوله «يُطِيفُ بِه» أى استدار حواليه من طاف بالشّىء يطوف طوفا وطوافا وأطاف يطيف إذا استدار حواليه، كما أنّ النّظر لم يكن ليتأتى له إلاّ من حوله الذى هو خارجه فلا مبرّر للدّخول المزعوم.

(الثّانى) أنّ معنى قوله «خُلِقَ خَلْقًا لاَ يَتَمَالَكُ»: أى لا يملك نفسه بحبسها عن الشّهوات كما لا يملك دفع الوسواس عنها، والمراد جنس بنى آدم وهو قول النّووى [(٣)].

(قال) القرطبى فى المُفْهِم [وقوله «فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِه»: يعنى أنّ الله تعالى لمّا صوّر طينة آدم وشكّلها بشكله على ما سبق فى علمه، فلمَّا رَآهَا إبليسُ أطاف بها أى دار حولها وجعل ينظر فى كيفيّتها وأمرها، فلمّا رآها ذات جوف وقع له أنّها مُفتقرة إلى ما يسُدُّ جوفَها وأنّها لا تتمالك عن تحصيل ما تحتاج إليه من أغراضها وشهواتها فكان الأمر على ما وقع(٤)].

---

(١) نقله الأُبىُّ فى إكمال المعلّم [ج ٢ ص ٣٧].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٦١١] وأحمد [١٣٤٥٠].

(٣) انظر نووى مسلم [ج ٨ ص ٤١١].

(٤) انظر المُفْهِم للقرطبى [ج ٦ ص ٥٩٦].

(٥) ـ حديث أبى اليَسَر رضى الله عنه

ثمّ أوردوا قوله ﷺ من حديث أبى اليَسر رضي الله عنه «وأَعُوذُ بكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنى الشَّيْطَانُ عِنْدَ المَوتِ[١]». دلالة على المسّ الحقيقى والتّخبّط البدنى الذى يصيب المصروع! وهل يكون عند الموت صرع؟.

والمعنى المقصود الذى قاله الخطّابى عن التّخبُّط فيه هو أن يستولى الشّيطان على المرء عند مفارقة الدّنيا فيضلّه ويحول بينه وبين التّوبة، أو يعوقه عن إصلاح شأنه والخروج عن مظلمة تكون قبَلَه، أو يُؤيِّسه من رحمة الله تعالى وعفوه، أو يكرّه له الموت ويؤسفه على الحياة الدّنيا، فلا يرضى بما قضاه الله عليه من الفناء والنّقلة إلى الدّار الآخرة فيختم له ويلقى الله وهو ساخط عليه، وهذا من الأدلّة التى تنفى تلبّس الجنّ جسد الإنس من غير تأويل ولا تعطيل ولا اختراع ولا ابتداع!!.

(الأمر السّادس)

التّعامل مع الجنّ ضلالة عصرية

إنّ الحديث عن هذا الموضوع بشيء الاستفاضة يقتضى منّا الاطلاع على بعض صفحات الكتب التى انتشرت فى الأونة الأخيرة للدّعوة إلى فكرة الولوج والعلاج واستخراج الجنّى من جسد الإنسى، وكان من بين هذه المؤلفات كتاب:

(المنهج القرآنى فى علاج السّحر والمسّ الشّيطانى)

* ويتحدّث فيه مُؤلفه عن العلاج بصورة متكاملة كمنهج عملى تطبيقى، ويتكون من عشرة فصول بعد المقدّمة.

* لم يحظى الكتاب بموافقة مجمع البحوث الإسلامية بالنّشر إلاّ أنّه يحمل رقم الإيداع بدار الوثائق القوميّة [٧٠٤٧ / ٩٢].

ثمّ ليأتى عرض قضيّة العلاج والمعالجين على النّحو التّالى:

(أ) وهم اسمه تحضير الجنّى

لـمّا استنبط البعض من الأحاديث الواهية دليلا على احتراف مهنة التّعامل مع الجان وتأثروا بما نُسب إلى بعض العلماء الأجلاء وهم منه براء، فانتشرت من جديد فتنة العرافة والكهانة بصورة جديدة فى مجتمعات النّاس وكانت هذه المرّة وراء ادعياء العلاج بالقرآن الكريم الذين يمارسون هذا التّعامل فى حماية رسم القرآن من أجل أن تزداد قوّة تأثيرهم ونفوذهم.

---

(١) من حديث صحيح أخرجه أبو داود [٢٥٥٢].

والعامّة لا يفرّقون بين الرُّقى الشّرعيّة الثّابتة عن النّبى ﷺ وبين هذه المخالفة العصريّة والتى يدّعى فيها المعالجون اعتمادهم على القرآن والسُّنّة فى إحضار الجان والتّعامل معه ويتّخذون من القصص الواهية دليلا لاحتراف هذه المخالفة مهنة وكسبا للمال الحرام، وتأصيلا لبدعة ممقوتة فى الدّين، تلك المخالفة التى سمّاها الشّيخ الألبانى رحمه الله [ضلالة] عندما سُئل فى فتاويه المسجّلة عن التّعامل مع الجنّ وسُؤال الجنّى هل أنت مسلم؟ هل أنت نصرانى؟ أجاب قائلا [التّعامل مع الجنّ ضلالة عصرية ولا يجوز لمسلم أن يزيد على الرّقية الشّرعية كما هى ثابتة فى الكتاب والسُّنّة وأدعية رسول الله ﷺ].

وما فعله الشّيطان بهؤلاء الذين يلجأون إلى أصحاب هذه الضّلالة إلاّ إعراضهم عن ذكر الله تعالى إعراض تلاوة أو إعراض عمل أو هما معا، فوقعوا فى فتنة العلاج المزعوم الذى اعتمد المعالجون فيه على تحضير «الجنّى» بقراءة القرآن وصرفه به، حتّى وصل الأمر إلى تعذيبه به وحرقه مالم يترك جسد الملبوس! وأوهموا المرضى أنّ كلّ حالة من هذه الحالات تحمل داخلها بالعشرة والعشرين «جنيّا» ما بين يهودى ونصرانى أو حتّى بوذى، وراح هؤلاء يشخّصون الحالة من أفواه الشّياطين بتصوّرهم فإن قال: «جئتُ سحرا» فهو كذلك، وإن قال: «أُحبُّ المريض» صار عشقًا، وإن قال «آذانى» صار انتقاما، وصُنِّفت كتب المعالجين على هذا الأساس وأصبح الأمر بين أيديهم كأنّه «علم» وليس «وهما» ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلىّ العظيم.

والحقيقة التى ينبغى أن تُعرف أنّ فكرة «الولوج» التى سيطرت على كثير من العقول الضّعيفة، كانت وسيلة من وسائل الشّيطان كى يُلَبِّسَ على النّاس من خلالها أمر دينهم، ويفتنهم فى عقيدتهم، فألقى فى روعهم «أنَّ الصَّرْعَ» هو سُكون الجنّ فى الجسد، حتّى قال أحد «علماء» الخلف فى أشهر كتبه:

[ومن الظّواهر المشهورة أنّهم قد يتلبَّسون أجسام بعض النّاس وينطقون بألسنتهم»!. ويقول: «ومن آثارهم التى يُستأنس بها على وجودهم الصَّرْع الذى لم يزل موجودا، وتكلُّم الجانّ على لسان شخص يتلبّس به وظهورهم لبعض النّاس ومخاطبتهم إيّاهم]. وعندما يقرأ العامّة من النّاس مثل هذا الكلام فى «كتب الدّين» لهؤلاء الأئمّة المعتمدين فليس لهم إلاّ أن ينقسموا إلى فريقين: فريق يعالج وآخر يبحث عن العلاج، ولم تكن العلّة فى انتشار الصَّرْع هى تلبّس الجنّ لأجساد الإنس، وإنّما ارتبط ذلك:

(١) بضعف العلاقة بينهم وبين خالقهم، وتخلّيهم عن عقيدتهم.

(٢) وتقطيعهم أواصر دينهم، وبعدهم عن الهدى الذى جاء به نبيّهم ﷺ.

(٣) كما ساعد على ذلك كثرة الفتن والبدع، واستغراق النّاس فى الشّهوات،

وفساد الاعتقاد واتّباع الهوى، وغوايات الشّيطان، والانكباب على جمع المال، والانشغال بمفاتن النّساء، والولع بالموسيقى والرّقص والغناء.

(٢) كيف يكتشف الدّجّالون أنّ المريض ملبوس بالجنّ؟

في كثير من الأحيان يلجأ المبتدع إلى وسائل خادعة يُحاول من خلالها إيهام المريض أنّه قادر على اكتشاف [المسّ الشّيطاني] بواحدة من الوسائل المتعدّدة التي يمتلكها، وفي هذا السّياق يقول مُؤلف كتاب [المنهج القرآني(١)]:

[الكشف على المريض من أهم مراحل العلاج لأنّك به تستطيع أن تعرف مرضه إن كان سحرا أو حسدا أو لمسا، بل تستطيع بفضل الله أن تتعرّف على نوع الجنّ من ذكر أو أُنثى! وتستطيع كذلك التّعرُّف على نوع هذا العارض أو خلوّ البدن منه]!.

ثمّ يشير المؤلف إلى أهم طرق مناظرة الحالة وهي [طريقة الكشف بالنّظر] حيث عرّفها بقوله [وهذه الطّريقة فريدة قد [علّمني إيّاها] ربِّي سبحانه وتعالى، وقد جاءت بنتائج عجيبة حتّى أنّني أعتمد عليها في كثير من الأحيان في الكشف ولا تكاد تخطىء بفضل الله تعالى، وهي أن تأمره بأن يضع يده اليمنى على عينه اليمنى أولا ثمّ ينظر بعينه اليسرى إلى «عين المُعالج» ثمّ يقرأ المُعالج بعض آيات القرآن الكريم والأفضل آية الكرسي ثلاثا(٢)].

ثمّ ينتقل المؤلف إلى ما هو أغرب من ذلك فيقول [وقد لا يلاحظ المعالج على المريض شيئا فيأمره بتبديل يده بأن يضع يده اليُسرى على العين اليُسرى وينظر بعينه اليمنى، والسّبب في ذلك أنّ الجنّ الكافر ينظر بالعين اليُسرى أولا، وأنّ الجنّ المسلم ينظر بالعين اليمنى، وقد عَلَّمْتُ كثيرا من الأخوة المعالجين هذه الطّريقة فجاءت بالنّتائج المبهرة!!(٣)].

وهناك وسائل أُخرى للكشف ذَكَرَها صاحب كتاب «الاستحالة» مثل:

(١) كتابة لفظ الجلالة على قطعة من القماش ثمّ حرقها ووضعها تحت أنف المريض لكي يستنشقها فيختنق الجنّي ويضطر أخيرا للظُّهور.

(٢) كتابة آيات من القرآن الكريم تحت سُرَّة المريض لاستدعاء الجنِّي.

(٣) كتابة حرف [ن] و [ق] على جبهة المريضة أو المريض وعلى يديها ورجليها

---

(١) انظر كتاب المنهج القرآني في علاج المسّ الشّيطاني [ص ٤٧].

(٢) انظر كتاب المنهج القرآني في علاج المسّ الشّيطاني [ص ٥١].

(٣) انظر كتاب المنهج القرآني في علاج المسّ الشّيطاني [ص ٥٣].

ثم يخاطب الجنّي قائلا : [حَبَسْتُك بنون والقلم وما يسطرون، وحَبَسْتُك بقاف والقرآن المجيد]. و كتابة آية الكرسى على حبل يُوثَّق به المريض، كما يُضرب المريض بعصا مكتوب عليها بعض الآيات القرآنيّة فى حالة عدم انصياع الجنّيّ !.

(٤) حقن المريض بجلوكوز أو كالسيوم مقروءا عليه آيات من اختيارهم، والقراءة على شمعة وتنقيطها على وجه الحالة بعد توثيقها بالحبال !، وكتابة آيات من القرآن الكريم على شكل دائرة ووضعها أمام المريض فيضطر الجنّى للخروج وينحبس داخل الدّائرة فيضطر لكشف نفسه واسمه وديانته ![(١)].

(٥) بالإضافة إلى اختبار آخر يتم بتناول المريض البيض المقروء عليه لاكتشاف تلبُّس الحالة، والمستحدث بخلاف هذا كثير ولا مجال لحصره فى عالم التّحضير !.

وفى تعريفه لأنواع الجنّ وأهميّة وقوف المُعالج عليها يقول المؤلف :

[إنّ من أهم الأسباب التى تساعد على قطع المرض وعلاجه هى التعرُّف على نوع الجنّ الذى يتلبّس البدن فيسهل التّعامل معه، [وقد وفقنى] الله عزّ وجلّ إلى وضع بعض الصّفات المشتركة بين أنواع الجنّ المتلبّس بالإنسان ووضع أوصاف مُحدّدة تساعد على معرفة نوع الجنّ الموجود بالبدن وتحديد الأسلحة الواجبة لمحاربته(٢)].

وفى هذا السّياق أشار المؤلف إلى أنواع الجن والتى منها [الجنّ العاشق، والجنّ الغوّاص، والجنّ الطيّار، وخادم الحَمَّام، وجنّ المقابر، وعامر البيت، وجنّ الجلب والتّحضير، والطفل من الجنّ، وجنّ اللّمسة والمسّة، وجنّ التبدُّل، وخادم السّحر]. ولم يفت المؤلف أن يتحدّث عن أسباب اقتران كلّ نوع من هذه الأنواع بالإنسان وعلاقته به والأدعية والأوراد التى يستخدمها المُعالج فى تحضير كلّ نوع منها وطرق الوقاية والعلاج من أذاها ! [(٣)].

ثمّ يشير المؤلف إلى الأسباب التى جعلت الإنسان هدفا لتلك الجيوش الجياشة من الجن واستعمارها لأجسادهم فيقول [إنّ الأصل فى تعرّض الجنّ للإنس أنّه نوع من الاستمتاع كما قال تعالى ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ : واستمتاع الجنّ بالإنس يكون بالاستحواذ عليهم وطاعة الإنس لهم، واستمتاع الإنس يكون باطلاعهم على بعض الغيوب !! وقد يكون الاستمتاع بينهما عن طريق الزّواج والمباضعة كما قال الله تعالى ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ﴾ . ومن المعلوم أنّ الجنّ فى حياتهم الطبيعيّة يعيشون فى الظُّلمة وفى الأماكن القذرة، وكذلك يأكلون الأوساخ والقاذورات، ولذلك إذا تلبّس الجنّيُّ بالإنسيّ

(١) انظر كتاب استحالة دخول الجان جسد الإنسان [ص ١٩٧].

(٢) انظر كتاب المنهج القرآنى فى علاج السّحر والمسّ الشّيطانى [ص ٦٠].

(٣) انظر كتاب المنهج القرآنى فى علاج السّحر والمسّ الشّيطانى [ص ٦٢ - ١١٢].

نال من الكرامة التى كرّم الله بها ابن آدم خاصّة كما قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]. فيأكل من الطّعام أطيبه، ويعيش معه فى بيته فى النّظافة والنّور، ويبيت على فراشه بجوار زوجته، لذلك تجد الجنّىّ إذا تلبّس بالإنسى لا يكاد يتركه إلاّ مرغما مقهورا لأنّه يعلم أنّه سوف يعود إلى المهانة والظّلمة وهذا هو سرّ تمسّك الجنّ بالإنس[(١)]. وهكذا يُفسَّر الكتاب بالهوى وهكذا تُهدر المعانى السّامية لآياته الكريمة!!.

لقد عزّ على المؤلف وهو يخطّ هذا الكتاب أن تكون ثقافة الشّعب المقهور بالجنّ ثقافة ناقصة فكان من المحتّم عليه أن يشير إلى تلك الأسلحة التى لابدّ وأن يتسلّح بها المعالج فى ميدان حربه مع هذه القوى الغيبيّة فخلُص فى الفصل السّابع من كتابه إلى الحديث عمّا أسماه [بباب الحرق والقتل] ويقصد بذلك حرق الجنّى المتلبّس جسد الإنسان إن لم يخرج منه بسلام!! والحرق فى مضمونه عام وخاصّ ولكلّ واحد منهما وسائل وطرق وأدعية وقراءات، فالعقاب الصّارم للجنّى المتمسّك بالجسد الإنسانى إمّا الحرق وإمّا القتل!!.

ومن السّهولة أن يعرف المرء الفرق بين الشّعوذة والشّعبذة ولكن يصعب عليه فى بعض الأحيان أن يتعرّف على الفرق بين التّوليف والتّأليف عندما يقف بنا صاحب [المنهج القرآنى] أمام ما أسماه بألوان الجن فيقول [إنّ كلّ نوع من أنواع الجنّ يعتمد المُعالج فى حرقه على أمرين: معرفة دينه ومعرفة لونه، فكلّ فصيل من الجنّ له لون معيّن، فإذا استطاع المُعالج أن يعرف دين الجنّى ولونه سهلت مهمّة حرق العارض[(٢)]].

ثمّ يذكر المؤلف ألوان الجنّ موضّحة مُفسَّرة فيقول [الجنّ سبعة ألوان: أسود - أبيض - رمادى - أحمر - أزرق - أصفر - أخضر، ولكلّ نوع من هذه الألوان أوراد معيّنة للحرق والقتل]. وعلى سبيل المثال يذكر لنا طريقة حرق الجنّ الأصفر فيقول [تُقرأ سورة الدّخان ٣ مرّات، والزلزلة ٧ مرّات، وآية الكرسى ١٠٠ مرّة، والصّلاة على النّبى ﷺ ١٠٠ مرّة[(٣)]]. كلّ هذا من أجل حرق جنّىٍّ واحد؟!.

{لقد اضطررتُ آسفًا لنقل هذه اللّقطات حتّى أجعل من الواقع الفكرى الذى يعيشه البعض دليلا على خطورة هذه القضية التى تحتاج من الأئمّة والعلماء التّرشيد والتّصحيح من أجل أن تسير الأمّة على النّهج الأقوم لدين الإسلام العظيم بلا افتراءات أو اختراعات أو تصوّرات تنافى الحقيقة وتجافيها وتؤثر فى وجدان البسطاء من النّاس وتُخالف الهدى النّبوى القويم}.

---

(١) انظر كتاب المنهج القرآنى فى علاج السّحر والمسّ الشّيطانى [ص ٦١]. (٢) انظر المصدر السّابق [ص ١٨٩]. (٣) انظر المصدر السّابق [ص ١٩٠].

(٣) أكذوبة قراءة القرآن على الماء لحلّ السّحر وكشف المسّ

لقد انتشرت بين النّاس بدعة كتابة السّورة أو الآيات من القرآن الكريم في لوح أو طبق أو قرطاس ثمّ غسله بماء أو مسك أو زعفران، وشرب تلك الغسالة رجاء البركة أو الاستشفاء أو استفادة علم أو كسب مال دون الاعتماد على نصّ صريح أو أثر مقبول تقوم عليه شرعيّة هذا العمل.

واستدلوا على هذا بروايات ضعيفة لا تبلغ درجة القبول ونتيجة لذلك شاع عند المُعالجين أن تُكتب للمريض بعض الآيات من القرآن الكريم ثمّ تُمحى بالماء وتُشرب بقصد الاستشفاء وإخراج الجنّي من الملبوس، وكذلك الوقاية من السّحر، ولقد توقّف الكثير من علماء المسلمين أمام هذه المسألة لاعتبارات عديدة أهمّها:

(أوّلا) أنّه لم يثبت عن النّبي ﷺ فعل هذا الأمر لنفسه أو لغيره ولا أنّه أذن فيه لأحد من أصحابه، أو رخّص فيه لأمّته مع وجود الدّواعي التي تدعو لذلك.

(ثانيا) أنّه لم يثبت في ذلك أثر صحيح عن أحد من الصّحابة رضي الله عنهم أنّه فعل ذلك أو رخّص فيه.

(ثالثا) أنّ فهم البعض لنصّ الحديث الذي يقول «خَيْرُ الدَّوَاءِ الْقُرْآنُ(١)». إنّما جاء مُخالفا لمقصوده الذي يتضمّن استحباب رُقية المريض ببعض سوره كالفاتحة والمعوّذتين وآية الكرسي، ورغم تضعيف العلماء لهذه الرّواية فإنّ من يُسَمَّوْن بالمعالجين قد جعلوا منها دليلا لهذا الصّنيع الذي يُخالف هدى رسول الله ﷺ.

(رابعا) أنّ المراد بدواء القرآن هو ما عدا دواء الأجسام بدليل أنّ النّبي ﷺ أخبر أنّ لكلّ داء دواء إلاّ الموت، وأمر بالتّداوي عند المختصين، والقرآن هو الذي أرشد إلى ذلك بسؤال أهل الذّكر والأمر بالتعلّم والاستفادة، مع الإيمان بفاعليّته في العلاج القلبي والنّفسي إذا كان القارىء لكتاب الله صالحا ترجى بركته.

(خامسا) أنّ هذا العمل يحول دون تحرّز آيات القرآن من أن تلاقي نجاسة الباطن وبالتّالي تعرّض غُسالته للنّجاسة والإهانة. (قال) القرطبي [ومن حُرمته ألاّ يمحوه من اللّوح بالبصاق ولكن يغسله بالماء، ومن حرمته إذا غسله بالماء أن يتوقّى النّجاسات من المواضع والمواقع التي تُوطأ، فإنّ لتلك الغُسالة حُرمة(٢)].

(سادسا) أنّه ليس للمسلم الذي يُؤمن بالله واليوم الآخر أن يستعمل القرآن في غير ما أُنزل له، وليس لمسلم أن يستحلّ كتابة الآيات أو السّور ثمّ يمحوها ليتجرّع المريض

(١) أخرجه في ضعيف ابن ماجه [٧٠٤] وأورده في الضّعيفة [٣٠٩٣].

(٢) انظر تفسير القرطبي [ج ١ ص ٢٨].

غُسالتها بقصد الشّفاء من الأمراض أو التّعامل مع الجن وخلافه.

أمّا ما اشتهر أنّه حديث وعبارته [خذ من القرآن ما شئت لما شئت] فإنّه غير صحيح إذ لم يرد في أي كتاب من كتب السُّنّة، ويصدق علي من يقول به ويتحدّث عنه ويعمل به قوله من حديث أنس «مَنْ تعمَّدَ عَلَيَّ كذبًا فَلْيتبوَّأْ مقعَدَهُ منَ النَّارِ[1]». وفى رواية «مَنْ يَقُلْ عَلَيَّ ما لَمْ أَقُلْ فَلْيَتَبوَّأْ مقعَدَهُ منَ النَّارِ».

والسُّؤال الذى يطرح نفسه أمام هذا الادعاء يشير إلى كيفيّة حدوث هذا التّفاعُل بين أمرين مُختلفين:

(الأوّل) القراءة القرآنيّة التى تمثّل الأمر المعنوى فى المسألة.

(الثّانى) الماء الذى يُقرأ عليه ويمثّل الجانب المادى فيها.

وإذا كان هناك تأثير لهذه القراءة على الماء - حسبما يتصوّرون - فما هى العلاقة التى يمكن أن تربط بين ما هو معنوى وبين ما هو مادى حتّى يحدث هذا التّواؤم بين القراءة والماء لظهور أثرها المباشر على المريض؟.

ويختلف هذا الأمر اختلافا بيِّنًا مع النَّفْث حال الرُّقية وقد صَاحَبها شيء من الرّيق والنَّفَس لتكون أتمّ تأثيرا وأقوى تفاعُلا ونفاذا، ويحصل بالمزاوجة بينهما كيفيّة مُؤثّرة تزيل الألم وتفصله عن المريض كانفصال ذلك النَّفْث عن الرّاقى، ودليل ذلك ما رواه البخارى فى صحيحه عن عروة عن أمّ المؤمنين عائشة «أنَّ رسول الله ﷺ كَانَ يَنفثُ عَلَى نَفْسه - فى الْمَرَضِ الَّذى مَاتَ فيه - بالْمُعوِّذَات، فَلمَّا ثَقُلَ كُنْتُ أَنْفثُ عَلَيه بهنَّ وأَمسَحُ بيده نَفْسَهُ لبركتها[2]». قَالَ مَعْمَرٌ: فَسأَلْتُ الزُّهْرِيَّ: كَيْفَ يَنْفثُ؟ قالَ: كَانَ يَنْفثُ عَلَى يَدَيْه ثُمَّ يَمْسَحُ بهمَا وَجْهَهُ[3]». ومن هنا يظهر الاختلاف بين الأمرين، بين ما هو شرعى وما هو بدعى والله تعالى أعلم.

وعندما يكون الاحتمال قائم عند من يقولون أنّ ذلك يُفيد فى كشف المسّ وطرد الجنّ وعلاج المرض، فإنّ التّعامل مع هذا العَالَم المتمثّل في شياطين الجنّ لا يكون إلاّ بالرُّقى والتّحصينات كما وردت بذلك نصوص السُّنّة ومُحكم الآيات، ودليل ذلك ما جاء به بلاغ الجنّ ذاته عندما نطق بالقول الحكيم ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ وقولهم ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾[الجنّ: ١٣]. وجاء قولهم فى الأحقاف ﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[الأحقاف: ٣٠].

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [١٠٨و١٠٩] ومسلم [٢].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٧٣٥] ومسلم [٢١٩٢].

(٣) حديث موصول بإسناد ما قبله.

ومعنى ذلك أنّ رسالة السّماء لم تصل للجنّ إلاّ من خلال الإسماع والاستماع فكذلك الرُّقى والتّحصينات التى يتسلّح بها المؤمن لا تتحقّق إلاّ بالقراءة التى تأتى في محلّ الإبلاغ، لا تلك التّلاوات التى يظنّ الظّان أنّها ستؤتى أثرها المباشر على الماء، فيضاف رصيد جديد من الهوَس النّفسى إلى رصيد البدعة الحمقاء حيث لا أمل يُرجى فى ذهاب مسّ أو خروج جنّيّ أو اكتساب علاج !!.

والمشكلة فى هذا الأمر تتمثّل فى تعامل البعض مع الأحاديث الضّعيفة أو الموضوعة تلك التى جعلوا منها دليلا يعتمدون عليه فيما صنّفوه فى كُتُبهم للعلاج من غير سند أو دليل ومن ذلك نذكر ما يلى:

(١) ما انفرد به أبو داود عن الكُتبِ السِّتَّة عن ثابت بن قيس بن شمَّاسٍ عن أبيه عن جدّه عن النّبى ﷺ «أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى ثَابِت بْنِ قَيْسٍ - قَالَ أَحْمَدُ وَهُوَ مَرِيضٌ - فَقَالَ: اكْشِفِ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ عَنْ ثَابِت بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، ثُمَّ أَخَذَ تُرَابًا مِنْ بَطْحَانَ، فَجَعَلَهُ فِي قَدَحٍ ثُمَّ نَفَثَ عَلَيْهِ بِمَاءٍ وَصَبَّهُ عَلَيْهِ[١]». وهذا الحديث أورده الألبانى فى الضّعيفة [٣ / ٥٥] برقم [١٠٠٥] وقال ما نصّه:

قوله [اكشف الباس ربّ النّاس عن ثابت بن قيس بن شمّاس] حديث ضعيف أخرجه أبوداود وابن حبّان برقم [١٤١٨-موارد] ولفظه [فجعله فى قدح فيه ماء فصبّه عليه] ولم يذكر النَّفْث !. (قلتُ) وهذا سند ضعيف علّته يوسف بن محمّد وهو مجهول العين، وقال الذّهبى في الميزان «لا يُعرف حاله». وأعلم أنّنا إنّما أوردنا هذا الحديث لما فى آخره من جعل البَطْحَان «وهو الحص الصّغار» فى القَدَح .إلخ فإنّه غريب منكر، وأمّا الدُّعاء «اكشف الباس ربّ النّاس» فهو ثابت من حديث عائشة رضي الله عنها بلفظ «أَنَّ النّبى ﷺ كَانَ إِذَا عَادَ مَرِيضًا قَالَ أَذْهِبِ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا[٢]». أخرجه الشّيخان وغيرهما].

(٢) ما أورده مصنّف كتاب [فتح المجيد شرح كتاب التّوحيد] فى صفة النُّشرة الجائزة عن [ليث بن أبي سُليم] قال «بلغنى أنّ هؤلاء الآيات شفاء من السّحر بإذن الله، تُقرأ فى إناء فيه ماء ثمّ يُصبُّ على رأس المسحور:

* قوله تعالى ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ﴾. إلى قوله ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨١-٨٢].
* قوله تعالى ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾. إلى قوله ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الأعراف: ١١٨-١٢٥].
* قوله تعالى ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ﴾. إلى قوله ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩].

---

(١) أخرجه أبو داود بإسناد ضعيف [٣٨٨٥] وأورده الألبانى فى الضّعيفة [١٠٠٥].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٥٦٧٥] ومسلم [٢١٩١].

وكان أن علّق الشّيخ محمّد حامد الفقى رحمه الله مُحقق الكتاب بهذا التّعليق فقال: [مثل هذا لا يُعْمَلُ فيه برأى ليث بن أبى سليم ولا برأى ابن القيّم ولا غيرهما، وإنّما يُعمل بالسُّنّة الثّابتة عن رسول الله ﷺ، ولم يجىء عنه ﷺ شىء ممّا يقول ابن أبى سليم ولا ابن القيّم وما نُقل عن وهب بن منبّه فعلى سُنّة الإسرائيليين لا على هدى خير المرسلين، ومن هذا التّساهل دخلت البدع ثمّ الشّرك الأكبر، وعلى المؤمن النّاصح لنفسه أن يَعَضَّ بالنّواجذ على هدى رسول الله ﷺ والخلفاء الرّاشدين رضى الله عنهم ويتجنّب المُحدثات وإن كانت عمّن يكون، فكلُّ أحد يؤخذ من قوله ويُردُّ عليه إلاّ رسول الله ﷺ]. والمقرّر أنّ صاحب هذه الرّواية متروك، فما قاله ليس بحديث ولا فعل صحابى ولا هو معروف مصدره ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلىّ العظيم!!.

(٣) من المسائل التى أوردها ابن القيّم فى كتابه زاد المعاد والمتعلّقة بالكتابة للشّفاء من بعض الأمراض عن طريق القراءة فى الماء نذكر ما يلى:

* يُكتب لعُسْر الولادة فى إناء نظيف من قوله ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ١ / ٤(١)]. وتشرب منه الحامل، ويُرشُّ على بطنها!.

* للوقاية من الحمّى المثلّثة [يُكتب على ثلاث ورقات لطاف: بسم الله فَرَّتْ، بسم الله مَرَّتْ، بسم الله قَلَّتْ، ويأخذ كلّ يوم ورقة ويجعلها فى فمه ويبتلعها بماء(٢)]!!.

* لوجع الضّرس [يُكتب على الخدّ الذى يلى الوجع: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١٣(٣)]!!.

* يكتب على الخُراج قوله تعالى ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧(٤)].

وما ذُكر فى [زاد المعاد] ليس هو الأمر المُسلّم به لا عقلا ولا نقلا لكونه لا يخضع حتّى لمجرّد التّجريب الفردى المفتقد لصحّة الدّليل، الدّليل القائم على صحّة المنقول، والمنقول المرتبط بالصّحيح من المعقول والله تعالى أعلم.

(٣) عدم جواز تخصيص آيات بعينها لعلاج مرض معيّن

امتلأت كتب المعالجين بالكثير من الأوراد والأقوال التى تضمّنت تخصيص آيات مُعيّنة من كتاب الله تعالى، وأنّ لهذه الآيات تأثير فى كذا وكذا، وأمّا هذه فلكذا! ولقد خصّص صاحب كتاب [المنهج القرآنى] فصلا كاملا فى علاج أمراض الجنّ، بدأ فيه

(١) انظر كتاب زاد المعاد [ج ٤ ص ٣٥٧]. (٢) انظر كتاب زاد المعاد [ج ٤ ص ٣٥٩].
(٣) انظر كتاب زاد المعاد [ج ٤ ص ٣٥٩]. (٤) انظر كتاب زاد المعاد [ج ٤ ص ٣٥٩].

بقوله [ومن واقع [ما علّمَنى اللهُ] ووفقنى لممارسته أن أصبحْتُ علي دراية تامّة بهذه الألاعيب الخبيثة وسوف أذكرُ الحالة التى تصيب المريض وكيفيّة صُنع الشّيطان لها ثمّ أذكر علاجها بما يسّر الله لى علم لتعمّ الفائدة إن شاء الله :

١ ـ [**علاج ممسوك العين**]: قد يلجأ الجنّ الخبيث إلى إمساك عين المريض أو عينيه قبل مرحلة العلاج أو إصابتها بعشى اللّيل، فإذا كانت هناك علامات لوجود الاقتران به وعجز الطبيب المعالج عن معرفة سبب إصابة المريض بالمرض فيكون العلاج كالأتى: قراءة آيات الزّجر وقراءة آيات الإبصار، وقراءة سورة الرّعد على ماء ثمّ يُبَخُّ في العين ثلاث مرّات ـ ثمّ قال: تكرّر هذه الطريقة وسوف يُشفى بإذن الله ويُزاد عليها آيات فك السّحر إذا استشعر المعالج أنّه بفعل السّحر]. [انظر الكتاب ـ ص ١١٦]

٢ ـ [**علاج حل العمى**]: يمكن عمل ضمادة يكتب فيها سورة ق والرّحمن والحشر والإخلاص والمعوّذتين وتبقى على عين المَريض مدّة ويُسأل عن الرُّؤى والأحلام وعن شعوره وهي على عينه ! !]. [انظر الكتاب ـ ص ١١٧]

٣ ـ [**علاج الأصم**]: ويلجأ الجنّ كذلك إلى سدّ أُذن المريض إمّا سدًّا مُؤقتا أو سدًّا دائما ويرجع سبب ذلك إلى مكر الجن الذى يقوم بسدّ الأذن بأصبعه، واللّعب في مركز السّمع فى المخّ ـ وعلاج ذلك قراءة آيات الزّجر وقراءة آيات السّمع ودهن الأُذُن من الدّاخل بمسك (ويُفضل المسك الإنجليزى الأسود السّائل ! !) ، وبعد ذلك تقرأ سورة الزّلزلة فى الأُذُن]. [انظر الكتاب ـ ص ١١٨]

٤ ـ [**علاج حبس الصّوت أو منعه / الأبكم**] : يمنع الجنّ بعض الحالات عن النّطق وذلك بواحدة من ثلاث: يسكن الجنّى الحنجرة عند الأحبال الصّوتية، واللّعب فى مركز النّطق فى العقل، أن يكون الشّيطان نفسه أخرسًا ! ! !]. ويتمثّل علاج هذه الحالة فى قراءة الآيات القرآنيّة ثمّ يضع المعالج في فم المريض (زيت الورد) ويكون قد قرأ عليه آية الكرسى ٧مرّات بنيّة النّطق فيشفى بإذن الله تعالى]. [انظر الكتاب ـ ص ١١٩]

٥ ـ [**علاج المشلول من الجنّ**]: قد يعمد الشّيطان لخبثه وشراسته إلى شلّ المريض إمّا شللا كلّيا أو جُزئيا، أو يشلّ نصف المريض فقط، وغالبا فإنّ الذى يفعل ذلك هو جنّ المقابر وجنّ الاعتداء، وعلاج ذلك قراءة آيات المشى وآيات الخلق، وكتابة الأذان على اليد أو الرِّجل، وقراءة سورة الرّعد على الماء ثمّ يُشرب ويُغتسل به، وعمل الحجامة للعضو المصاب لاستخراج الدّم الفاسد منه ! !]. [انظر الكتاب ـ ص ١٢١]

٦ ـ [**العلاج الشّفيقة**]: تقرأ سورة الإخلاص ثلاث مرّات وتقرأ قوله تعالى من

سورة الحشر (آية ١٢) سبع مرّات على كوب ماء زمزم أو ماء مطر وتشرب نصفه وتغسل بالنّصف الآخر النّصف المصاب من الرّأس بالشّقيقة !!. ومن المعلوم أن الشّقيقة هي ألم شديد يُصيب جانبا مُعيَّنا من شرايين الرّأس.

٧ ـ [**لعلاج الصّدر**] : تقرأ سورة الانشراح والآيات من ٢٥ ـ ٢٨ من سورة طه وأثناء القراءة تمسح بيدك اليُمنى على صدر المريض كالمساج !!.

٨ ـ [**لعلاج الأمراض القلبيّة والخفقان و آلام المعدة وأمراض الكبد**] : وهي حُزمة متكاملة من الأمراض : تكتب آية الكرسي ثلاث مرّات بزعفران وماء ورد في إناء أبيض وتمحى بماء زمزم [وهو الأفضل] وإلاّ فأيّ ماء ويُشرب على الرّيق لمدّة أسبوع، وتقرأ فاتحة الكتاب سبع مرّات على ماء زمزم [بدون قول آمين] لأنّها تُقال في الفاتحة فقط، ثم يُشرب الماء على الرّيق !!! [هكذا قال].

٩ ـ [**علاج النّزيف**] : بعض أنواع الجنّ يصيب المرأة بالنّزيف الرّحمي القاتل وتذهب المرأة إلى الأطبّاء راجية أن يجدوا أعراضا لأمراض عضويّة ولا ينجحون في علاجه، أو يأتي العلاج بنتائج عكسيّة غير متوقّعة، وأحيانا لا يجدون لها سببا، والجنّ يسبّب للمرأة النزيف بسببين أو ثلاثة : أن تكون المرأة مسحورة ويكون هذا بتكليف من السّاحر، أو أن تكون المرأة معشوقة من الجنّ وهو يَغَار عليها من زوجها، وهو يحاول منعها من الذّكر والصّلاة حتّى لا تحاربه]. [انظر الكتاب ـ ص ١٢٢]

ويُحيل مُؤلف كتاب [المنهج القرآني] شفاء هذه الحالة بعد التأكُّد من وجود بعض علامات اقتران الشّيطان بها وكذلك بعد عجز الأطباء من العلاج الطبي الدّوائي إلى أربعة عوامل هي :

* تكتب لها إحدى النّساء كأختها تحت السُّرَّة من أوّل قوله [وقيل يا أرض] إلى قوله تعالى [وقضي الأمر] فقط مع رقيتها بالرُّقية الشّرعية.

* أو كتابة هذه الآية في ورقة مع الفاتحة وآية الكرسي والكافرون والإخلاص والمعوّذتين ثمّ تُطوى وتُربط بحزام تحت السُّرَّة !!.

* يمكن أن يُزاد على ذلك كتابة قوله تعالى [وله ما سكن في الليل والنّهار].

* يُحضر المُعالج ورقة بيضاء غير مسطّرة يكتب عليها بمداد طاهر [زعفران] قوله تعالى [لكل نبأ مستقر] على الورقة كلّها ثمّ يمحوها وتشربها المريضة !!!.

وخروج الجنّي من جسد الإنس ليس كدخوله وذلك يعتمد اعتمادا مباشرا على فطنة المعالج ومدى تمكّنه من السّيطرة الكاملة على تلك المصيبة التي يتعامل معها خصوصا

إذا كان من الجنّ الأبيض أو الأسود أو الأحمر، وهي من أخطر أنواع الجنّ، ولقد ذكر مؤلف كتاب [المنهج القرآني] على سبيل التّنبيه أنّ هناك بعض الأماكن التي إذا خرج منها الجنيّ فإنّه يُؤذي المريض ! كما أنّ هناك أماكن إذا خرج منها لم يفسدها، ومن الأماكن التي يُسمح له بالخروج منها: أصابع اليد أو الرِّجل خاصّة الأصبع الأصغر من القدم !!، وأن يخرج من الفم أو الأنف !!، ولا يسمح له المُعالج بالخروج من البطن أو العين أو الأذن !، ويطلب منه أن يُلقي السّلام قبل الخروج إن كان مسلما أو أي تحيّة أخرى إن كان غير مسلم !!. [انظر الكتاب - ص ١٩٧]

وعندما يقرأ المرء مثل [هذا الكلام] فإنّه بلا شكّ يأخذ بنا إلى دائرة اللا معقول تلك التي تسلمنا إلى خيال يُجافي الواقع، وتدفع بنا إلى صور باهتة تقوم على الوَهْم والخيال، وحتّى وإن سلّم البعض بمعقوليّته وتأثيره، فإنّهم لا يستطيعون أبدا أن يصُمّوا آذانهم عن قوله تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]:

وتحمل الآية التّحذير من التّغيير والزّيادة في الشّرع، فكلّ من بدّل أو غيّر أو ابتدع في دين الله تعالى ما ليس منه ولا يجوز فيه، فهو داخل تحت هذا الوعيد الشّديد، كما حذّرتهم من أن يحدثوا من تلقاء أنفسهم في الدّين خلاف كتاب الله أو سُنّته ﷺ فيُضلّوا به النّاس، وقد وقع ما حذّر منه وشاع، وكثر وذاع ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

فليس هناك أعظم من ذنب يتجرّأ المرء فيه على الله ورسوله، وحسبنا في ذلك قول النّبي الكريم ﷺ «مَنْ صَنَعَ أَمْراً عَلَى غَيْرِ أَمْرِنَا فَهُوَ رَدٌّ(١)». ومن المعلوم أن هذا كلّه زيف باطل وافتراء يفقد مصداقيته بمجرّد عرضه على حقائق الكتاب والسُّنّة المطهّرة والتي منها:

(١) أنّه ليس معنى قول رسول الله ﷺ «اعرضوا عليَّ رُقَاكُمْ، لاَ بَأْسَ بالرُّقَى مَا لَمْ تَكُنْ شِرْكًا(٢)». أن يقول قائل أنّ هذه الآيات تنفع لكذا، وأمّا هذه فهي لكذا ! ومثل هذا التّخصيص لا يجوز إلاّ بدليل، فإن جاء مثل ما جاء عن فضل الفاتحة في علاج الملدوغ فبها ونعمت، وإن لم يأتنا مثل ذلك فالتّخصيص غير جائز.

(٢) إنّ الإتيان بآيات غير متتابعة يعتبر تقطيعا لسُوَر القرآن الكريم لمخالفة ذلك لهدي رسول الله ﷺ لمّا قال لبلال رضي الله عنه «إِذَا قَرَأْتَ السُّورة فَأنْفِذْهَا(٣)». وفيه أن يقرأ السُّورة على وجهها كما هي في المصحف. (قال) القرطبي [ومن حرمة القرآن

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٤٦٠٦].

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم [٢٢٠٠] وأبو داود [٣٨٨٦].

(٣) انظر كتاب البرهان [ج ١ ص ٤٦٩] والإتقان للسّيوطي [ج ١ ص ١١١].

إذا قرأه ألاّ يلتقط الآى من كلّ سورة فيقرأها، فإنّه رُوى لنا عن رسول الله ﷺ أنّه مرّ ببلال وهو يقرأ من كلّ سورة شيئا، فأمره أن يقرأ السّور كلّها[١]].

(٣) ورغم أنّ بلال رضي الله عنه قد ساق حُجّته وهى أنّه يخلط طيّبًا بطيّب ولكنّ حُجّته لم تغيّر فى الحكم شيئا، فما بال هؤلاء القوم وقد ذهبوا يقطّعون الآيات كما يحلوا لهم، ثمّ يقولون هذه المجموعة تفيد المسحور، وهذا المجموعة تُقرأ على الجنّ النّاكث لعهده، وهذه للجنّ الأحمر وأُخرى للأزرق، ثمّ تجد مثل هذه المقولات من يُصغى إليها بل وتجد من يدافع عنها ضاربين بقاعدة سدّ الذّرائع عرض الحائط !!.

(٤) إنّ مثل تخصيص آيات معيّنة بأنّ لها تأثير فى كذا وكذا: فهذا أمر لم يثبت العمل به عند المتقدّمين ولكونها مُخصّصة بدون دليل شرعى، فكما أنّ تخصيص العام يحتاج إلى دليل فإنّ تقييد المطلقات بدون دليل سواء كان عبادات أو أحكام أو خلافه يعتبر حياد عن هدى سيّد المرسلين ﷺ.

وليت الذى اخترع علاج أمراض الأجساد بقراءة الآيات البيّنات وأفرد لها الشّروح والمؤلفات دون ما سند من دليل شرعي أو أثر نبوى أن يقول ما قاله أبو بكر الصّديق رضي الله عنه ساعة أن سُئل عن آية في كتاب الله جلّ وعلا فقال «أيُّ أرضٍ تُقلّني، وأىُّ سماء تُظلّني، وأين أذهبُ، وكيفَ أصنعُ، إذَا أنا قُلتُ فِي كتَابِ اللّهِ بغيرِ ما أرادَ اللّهُ بهَا[٢]». وياليته قد قال !!.

(٤) الآثار السلبية من شيوع بدعة الولوج

إنّ من أخطر نتائج هذا الشّيوع تلك الآثار العكسية التى جناها المجتمع من شيوع فكرة «الولوج» وكأنّ الشّيطان قد نجح كلّ النّجاح فى تسويق «الفكرة» حتّى لاقت هذا الرّواج العجيب لدى النّفوس المريضة من كلا الجانبين، وليست العلّة فى هؤلاء المرضى الذين تضيع عليهم فرصة العلاج الصّحيح عند الأطباء وقد تعلّقوا بأمل إخراج الجنّى من البدن المسكون، وإنّما تكمن أغراضها عند هؤلاء الذين تلقوا الفكرة الشّيطانية لتحقيق الرّغبات الكامنة فى نفوسهم دون ما اعتبار لحفظ الأعراض وصيانة الأموال والالتزام بآداب الدّين، وحتّى يتّضح لكلّ مسلم أبعاد تلك المؤامرة الشّيطانية، ويتبيّن له مدى المصائب التى نتجت عن هذا الاعتقاد الخاطىء الذى روّج له أصحاب المصلحة فيه، نعرض فيما يلى لبعض الجوانب السّلبية التى أصابت المسلمين فى الصّميم:

(أوّلا) إضعاف العقيدة والابتداع فى الدّين من خلال تجهيل المسلمين بما ليس فى

(١) انظر تفسير القرطبى [ج ١ ص ٢٨].

(٢) أورده فى أعلام الموقعين [ج ٢ ص ١٨٤] من رواية أبى أيّوب عن ابن أبى مُليكة.

الدّين من خرافات تتنافى وقيمه الأصيلة، ونشر الأحاديث الضّعيفة والموضوعة للتّأثير في عقيدة النّاس بما ليس بصحيح، والضّرب بظاهر الآيات عرض الحائط وإضفاء الأوهام عن قوّة الشّياطين وتأثيرهم، والالتفاف حول الأحاديث النّبويّة لاختيار ما يُوافق أهواءهم منها.

(ثانيا) مُخالفة مدّعى العلاج للقواعد الشّرعية والآداب القرآنيّة المرعيّة من خلال مسّ المرأة الأجنبية وملامستها دون داع من ناحية الطّب والشّرع، وذلك أثناء جلسات التّحضير المزعوم، والخلوة بها أثناء العلاج وهو ما يتعارض والقواعد الشّرعيّة التى تؤكّد حرمة ذلك وتمنعه.

(ثالثا) هدم كيان الأسرة الواحدة وتخريبها وخلخلة أركانها بإثراء العداوة والبغضاء بين الأرحام وتقطيعها بادعاء عمل السّحر من البعض للبعض كذبا وبهتانا فتتقطع الوشائج والصّلات، ويتمكّن الشّيطان من الأفراد وتتحقق العصبية والخلافات التى تُباعد بين الزّوجين من خلال ادعاءات باطلة تخالف شرع الله تعالى، ويقع الكثير من النّساء فى حبائل الشّرك الخفى للشّيطان عند إرادة الإنجاب أو الزّواج أو لفكّ السّحر السّفلى على حدّ زعم المعالجين العاملين فى ميدان الجهالة والتّشرذم!.

(رابعا) امتهان آدمية المريض والتّعدى عليه من خلال العلاج المزعوم بضربه وإيذائه ممّا يؤدّى إلى إصابته بالعديد من العاهات والأمراض، وموت بعض المرضى أثناء عملية العلاج وهو ما تُؤكّده أخبار الصّحف ووسائل الإعلام.

(خامسا) تحقيق المآرب الدّنيئة لمدعيى العلاج ماديّا ونفسيّا بإيجاد المبرّر للمرضى ضعاف النّفوس للاستمرار فى غيّهم دون مداخلة لأى رغبة في الإصلاح. وأكل المال بالباطل بتزيين من الشّيطان وإضاعة أموال المسلمين فى الأوهام وتفشّى البدع.

(سادسا) المعاناة النّفسيّة للمرضى من الأثر السّلبى لدعوى العلاج وتعويد المريض على الكذب مع تكرار ما يسمّى بالتّحضير، إذ أن المريض يشعر بكلّ شيء ولكنّه يصبح فى هذا الموقف ضعيف الإرادة فيسهل عليه الكذب، وتحويلهم للظواهر الطّبيعية والمعروفة طبيّا عند المرضى، وجعلها عوارض لوجود الجنّ والسّحر وخلافه من التّلبيس على خلق الله بلا دليل صحيح يسوقونه بين أيديهم، وإخافة النّاس من الأوهام واختراق عقولهم وتأهيلهم لتأثير الشّياطين.

(سابعا) المساهمة الفاعلة فى تشويه الصّورة الحقيقية لقيم الإسلام الخالد العظيم من خلال إظهار الدّين أمام أصحاب الملل الأخرى بمظهر التّخلّف والخزعبلات، ورميهم بالتّهم الباطلة على مُنكرى هذا الوهم سواء من العلماء أو الأطباء طالما خالف

مذهبهم، وهذه كلّها من الأمور التى تأتى مُنافية لهدى الدّين القويم ومتناقضة مع المنهج الذى ارتضاه لنا ربّ العالمين سبحانه.

(٥) عقيدة ابن تيمية فى الولوج بين الحقيقة والتلفيق

عندما يلائم الحائك بين طرفي الثّوب بالخياطة يسمّى هذا «تَلْفيقًا» من لَفَقَ الشَّفَتَيْنِ يَلْفقُ لَفْقًا وتَلْفيقًا: إذا ضَمَّ إحداهما إلي الأُخرى «فَخَاطَهُمَا». ومنه أُخذ التّلفيق في المسائل. (يقال) «لَفّقَ الْحَديثَ يُلَفِّقُ تَلْفيقًا»: زَخْرَفَهُ ومَوَّهَهُ بالباطل فهو «مُلَفَّق» ومنه: أحاديثُ مُزَخرفةٌ أى أكاذيب مزخرفة، والتّلفيق فى المسائل يهدف صاحبه من خلاله أن يُلبس الباطل ثوب الحقيقة والحقيقة منه براء (أو) ينسب أمرا من الأمور أو مقولة من المقولات التى تخالف الشّرع والدّين إلى عالم من العلماء.

وهذا هو الأمر الذى يتّفق تماما مع ما نُسب إلي الإمام ابن تيمية رحمه الله فى كتابه [مجموع الفتاوى] عن علاج «المصروع بالجنّ» بما يخالف عقيدته الصّحيحة وفكره الملتزم بهدى الكتاب والسُّنّة، بل لا يتصوّر عاقل بحال أن يقرأ النّاس تلك الخرافات التى ترتدى ثوب الحقيقة على أنها ممّا كتبه الشّيخ وسطّره؛ كما أنّ الأسلوب الرّخيص الذى صيغ به هذا الفكر بما يمثله من قيّم هابطة إنّما قصد به من لَفَّقَهُ واحدا من أمرين:

(الأوّل) النّيل من مكانة هذا العالم بما نُسب إليه من أضاليل وخُرافات مكذوبة.

(الثّانى) استغلال مدوّنات الشّيخ الجليل وكُتبه لكى تكون وسيلة سهلة لنشر هذا الفكر الهابط الرّخيص.

وهل يتصوّر عاقل عندما يتكلّم ابن تيمية عن مسألة استمتاع الجنّ بالإنس فى تفسيره لقول الله تعالى ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: ١٢٨]. أن يقول [والإنس تطيع الجنّ، فتارّة تسجد له، وتارّة تسجد لما يأمره بالسّجود له، وتارّة تمكّنه من نفسه فيعمل به الفاحشة، وكذلك الجنيّات منهنّ من يريد من الإنس الذى يخدمنه ما يريد نساء الإنس من الرّجال، وهذا كثير فى رجال الجنّ ونسائهم!! فكثير من رجالهم ينال من نساء الإنس ما يناله الإنسى؟ وقد يفعل ذلك بالذّكران!!(١)].

وعن صرع الجنّ للإنس زوّروا عليه قولهم:

[وصرع الجنّ للإنس هو لأسباب ثلاثة: تارّة يكون الجنّى يحبّ المصروع فيصرعه ليتمتع به، وهذا الصّرع يكون أرفق من غيره وأسهل، وتارّة يكون الإنسى آذاهم إذا

---

(١) انظر التّفسير الكبير [ج ٤ ص ٢٦٤].

بال عليهم أو صبَّ عليهم ماء حارًا، أو يكون قد قَتَل بعضهم أو غير ذلك من أنواع الأذى، وهذا أشد أنواع الصّرع، وكثيرا ما يقتلون المصروع، وتارة يكون بطريق العَبْث به كما يعبث سُفهاء الإنس بأبناء السّبيل[1]].

ومّما لا يتصوّره عقل تلفيقهم للشّيخ الجليل وتزويرهم عليه ما نصّه:

[وصرعهم للإنس قد يكون عن شهوة وهوى وعشق، كما يتّفق للإنسي مع الإنسي، وقد يتناكح الإنس والجنّ (!!) ويُولد بينهما ولد، وهذا كثير معروف (!!) وقد ذكر العلماء ذلك وتكلّموا عليه، وكَرِه أكثرُ العلماء مُناكحة الجنّ[2]] !!.

ثمّ يأتي الحديث عن كيفيّة علاج المصروع ودفع الأذى عنه بأيسر السُّبل التي لا تُؤدّى إلى العلاج بل إلى القتل فيتقوّلون عليه ما نصّه:

[ولهذا يُحتاج في إبراء المصروع ودفع الجنّ عنه إلى [الضّرب] فيُضرب ضربا كثيرا جدًّا (!) والضّرب إنّما يقع على الجنّي ولا يحسّ به المصروع حتّى يفيق، فنجد أنّه لم يحسّ بشيء من ذلك، ولا يؤثّر في بدنه ويكون قد ضرب بعصا قويّة على رجليه نحو ثلاثمائة أو أربعمائة ضربة وأكثر وأقلّ[3]].

نَخْلُصُ ممّا سبق إلى أنّ ما نُسب إلى الشّيخ الجليل في [مجموع الفتاوى] عن هذه المسائل ينحصر فيما يلى:

(١) إنّ من أهم أسباب صَرْع الجنّ للإنس حبّ الجنّى للمصروع فيصرعه ليتمتّع به تمتّع الشّهوة والهوى والعشق !!.

(٢) أنّ الإصابة بالصَّرْع تتحقّق نتيجة أذى الإنس للجنّ إمّا ببوله عليهم أو إصابتهم بالماء السّاخن أو التّسبُّب في قتل أحدهم !!.

(٣) التّسليم بالتّناكح المتبادل بين الجنّ والإنس ممّا يؤدّى إلى وجود التّناسل المشترك بينهما وهذا كثير معروف على حدّ قول من لَفَّقَ هذا الكذب والافتراء.

(٤) وجود الاستمتاع الجنسي بين الجنّ والإنس، فيقرّر أنّ الكثير من رجالهم ينال من نساء الإنس وكثير من رجال الإنس ينال من نساء الجنّ !!.

(٥) التّعامل بالإيحاء القهرى مع نظرية دخول الجنّ جسد الإنس واختراع ما يسمّى ببدعة العلاج بالقرآن.

---

(١) انظر مجموع الفتاوى [المجلّد ١٣ ص ٨٢].

(٢) انظر مجموع الفتاوى [المجلّد ١٩ ص ٣٩].

(٣) انظر مجموع الفتاوى [المجلّد ١٩ ص ٦٠].

فإذا سلّمنا بصحّة هذه الدّعاوى فلا شكّ أنّها ستؤدّى بنا إلى واحد من أمرين :

(١) إمّا أن تقودنا إلى دائرة اللامعقول فتصيبنا بالجنون المطبق .

(٢) أو تسلمنا إلى دائرة «اللاّ أخلاق» التى تقف بنا أمام الدّعوة الصّريحة للفسوق والعصيان، وكأنّ الجنّ قد استباح الإنس رجالا ونساء فى ممارسة هذا المجون، وإذا كان هذا الهُراء يدور بين «الجنون والمجون» فلا يتسنى لنا أن نطالب بالدّليل الذى اخترعوه متمثّلا فى ألفاظ تعتبر فى حكم الشّرع والقانون جريمة لا تغتفر .

وعندما يُتوجّه بالسُّؤال إلى أحد [الأئمّة المعاصرين] حول إمكانيّة حدوث زواج بين الإنس والجنّ؟ يشير إلى أنّ الكلام فى هذا الموضوع يعتمد فيه على ما كتبه الشّبلى والدّميرى منذ أكثر من ٨٠٠ عام من خلال أمرين :

(الأول) أنّ إمكان التّزاوج بين الإنس والجنّ قد أثبته الجمهور مستدلين بقوله تعالى ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الإسراء : ٦٤] . ويوضّح هذه المشاركة ما ذكره ابن جرير فى «تهذيب الآثار» أنّ النّبى ﷺ قال «إذا جامع الرّجل امرأته ولم يسمّ انطوى الشّيطان إلى إحليله فيجامع معه» . ! ! [وهذا حديث مكذوب] ! ! .

(الثّانى) جواز مشروعيّة النّكاح بين الجنسين وقد نُقل ذلك عن الحسن البصرى وقتادة وغيرهما، وشهد الأعمش نكاحا للجنّ بجهة «كوثى» كما ذكره أبو بكر الخرائطى، وحُجّة هؤلاء فى عدم المنع أنّ الأصل فى التّكليف أنّه يعم الفريقين الإنس والجنّ وليس هناك ما يخصّص هذا التّعميم بالنّسبة للمُناكحة بينهما [(١)] .

و[أقول] : إنّ الحقيقة الغائبة فى هذه المسألة تُؤكد على أن الشّيخ قد جانبه الصّواب فى تفسير الآية عن المشاركة التى تصوّر فضيلته أنّها [جنسية ! !] ثمّ ساق ما ذُكر عن ابن جرير من كلام مكذوب يستحى المسلم أن يتقوّله ! ! إنّه الافتراء على الله تعالى بتأويل يخالف نصوص الكتاب، والكذب على نبيّه ﷺ بما نسبه إليه من حديث ! .

ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ بل ألصق الشّيخ الفرية ذاتها بالإمام مالك رحمه الله عندما قال [كما أنّ الإمام مالكا أورد وجهة نظر فى الكراهة لها قيمتها، فقد قيل له : إنّ رجلا من الجنّ يخطب إلينا جارية يزعم أنّه يريد الحلال ! فقال : ما أرى بذلك بأسا فى الدّين، ولكن أكره إذا وجدت امرأة حامل قيل لها من زوجُك ؟ قالت : من الجنّ، فيكثر الفساد فى الإسلام بذلك ! !] . ولا يستطيع المرء إزاء هذه التّخاريف إلاّ أن يردّد قول الله تعالى ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ۝ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ .

---

(١) انظر كتاب الفتاوى للشّيخ عطيّة صقر رحمه الله [ص ١١٢ - ١١٣] .

إنّ مثل هذا الهَذَيان عندما يكون مقروءاً ومُتداولا بين خاصّة النّاس وعامّتهم فى كتب الفقه والدّين فإنّ خُطورته تكمن فى أمرين :

(الأوّل) عندما يكون مثل هذا الكلام الهابط منسوبا إلى ابن تيمية وهو إمام جليل من أئمّة المسلمين انتشر علمه فى الآفاق فإنّه يعتبر توثيقا لفهم خاطىء ونشرا لضلالة فاتنة تُخالف المنهج الصّحيح للدّين القويم .

(الثّانى) عندما يكون ذلك مسطورا على صفحات أشهر ما كتبه السّلف الصّالح فإنّ ذلك يكشف القصد المبيّت للطّعن فى العقيدة النّقيّة الصّحيحة للإسلام ، ونشر الأفكار الشّيطانيّة المقيتة التى تهدمه من داخله .

وعندما نضع مثل هذه الدّعاوى موضع التّحليل والتّقييم فإنّنا لابدّ وأن نؤكّد على عدّة ثوابت :

(أوّلها) أنّ الحديث عمّا يتّصل بالأمور الغيبيّة لا يقوم على التّأويلات المخالفة للنّص الصّحيح الصّريح ، ولا يرتكن إلى الافتراضات المتصوّرة للمعنى ، ولا يستند إلى الخرافات المتداولة للحكاية ، وإنّما يتطلّب فى مواجهتها الدّليل القطعى الثّابت من هدى الكتاب العزيز والسُّنّة المطهّرة ولا شىء سواهما .

وحينما يقول الله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ . فالمقصود به الغيب الثّابت بدليل الكتاب والسُّنّة ، وعندما يكون الحديث عن أمر غيبى مثل الجنّ والملائكة واليوم الآخر والجنّة والنّار ، فليس لأحد مهما كان أن يضيف أمرا أو تفصيلا لم ينزل الله به سلطانا أو أن ينتقص ما ثبت بالدّليل ، أو يفسر ظاهر الآيات وفق الهوى والرّغبة .

(الثّانى) استحالة تسخير الإنس للجنّ بعد نبوّة سليمان عليه السّلام وملكه الذى ما كان لأحد من بعده ، لأنّ المعجزات التى يتأيّد بها الأنبياء لا تتكرّر ولا تستمرّ بعدما ينتهى دورها ، وهو الأمر الذى قرّره رسول الله ﷺ عندما تفلّت عليه العفريت ليقطع عليه صلاته فقال :

« إِنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الْجِنِّ تَفَلَّتَ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلَاةَ ، فَأَمْكَنَنِي اللهُ مِنْهُ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تُصْبِحُوا وَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [ص :٣٥] . فَرَدَّهُ اللهُ خَاسِئًا (١) » .

ويأتى قوله ﷺ « فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ » : للدّلالة على أنّ مِلْكَ الجنّ والتّصرّف فيهم

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى [٤٦١] ومسلم [٥٤١] .

بالقهر مما خُصَّ به سليمانُ عليه السّلام، وسبب خصوصيته دعوته التى استُجيبت له حيث قال﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِي﴾، ولما تحقق للنبى ﷺ خصوصيّة ذلك لنبى الله سُليمان امتنع من تعاطى ما همَّ به من أخذ الجنّىّ وربطه، فإن قيل كيف يتأتّى ربطه وأخذه واللّعب به مع كون الجنّ أجساما لطيفة روحانيّة! قلنا كما تأتّى ذلك لسليمان عليه السّلام حيث جعل الله له منهم ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾[ص:٣٧].

ولا شك أنّ الله تعالى أوجدهم على صور تخصُّهم ثمّ مكّنهم من التّشكُّل فى صور مُختلفة فيتمثّلون فى أى صورة شاؤوا أو شاء الله، وكذلك فعل الله تعالى بالملائكة لقوله تعالى﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[مريم :١٧]. وكما جاء قوله ﷺ فى رواية البخارى «وأَحْيَانًا يتمَثَّلُ لِى الْمَلَكُ رَجُلاً فَيُكَلِّمنِى».

فيجوز أن يُمكّن الله تعالى نبيّه محمّدا ﷺ من هذا الجنّىّ مع بقائه على صورته التى خُلِقَ عليها فيوثّقه كما كان سليمان عليه السّلام يُوثّقهم ويرفع الموانع عن أبصار النّاس فيرونه موثّقا حيثُ يلعب به الغلمان، ويجوز أن يشكّله الله تعالى فى صورة جسميّة محسوسة فيربطه ويُلْعَبُ به ثمّ يمنعه من الزّوال عن تلك الصّورة التى تشكّل فيها حتّى يفعل الله ما همّ به النّبى ﷺ [(١)].

فكان من دلالات هذا الحديث :

(١) أنّ النّبى ﷺ لم يستخدم الجنّ أصلا كما استخدمه سليمان لكنّه دعاهم إلى الإيمان بالله تعالى وقرأ عليهم القرآن وبلّغهم الرّسالة وبايعهم كما فعل بالإنس.

(٢) أنّ الذى أُوتيه رسول الله ﷺ أعظم مما أُوتيه سليمان، فإنّه استعمل الجنّ والإنس فى عبادة الله تعالى وحده وسعادتهم فى الدّنيا والآخرة لا لغرض يرجع إليه إلاّ ابتغاء وجه الله تعالى وطلب مرضاته.

(الثّالث) نجاح أصحاب «دعوى الولوج» من الوصول إلى مُدوّنات الإمام الجليل وكُتُبه ودسّها عليه ليسهل وصولها إلى النّاس وقيمة الشّىء بمصدره.

(الرّابع) إنّ التّعصُّب للإمام الجليل لا يكون بالتّسليم الكامل بكلّ ما ورد بكتبه وإنّما يكون بواحد من أمرين:

(١) أنّ المصدّق بما جاء عن هذا الفكر من نصوص أشرنا إليها، ما عليه إلاّ أن يقدّم الدّليل على أنّها ليست مدخولة على الشّيخ، وإن كان يعتقد فى صحّتها فما وجه الصّحّة فى كلام غير مُوثّق يخالف نصوص الشّرع والدّين وافتقاده الدّليل الذى استند

---

(١) انظر المُفهم للقرطبى [ج ٢ ص ١٤٩].

إليه في ذلك خصوصا وأنّ الأمر يتعلّق بمسائل غيبيّة لا يصحّ فيها إلاّ الصّحيح.

(٢) إن لم يصادف هذا الكلام دليلا قاطعا من كتاب أو سُنّة فإنّ كلّ قول يخالف الهدى المحمّدى الرّاشد لابدّ وأن يُستنكر ويُضرب به عُرض الحائط لما جاء عن صاحب الشّرع ﷺ «وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ(١)». وقوله «مَنْ أَحْدَثَ فى أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ(٢)». وقوله «مَنْ صَنَعَ أَمْرًا عَلَى غَيْرِ أَمْرِنَا فَهُوَ رَدٌّ(٣)».

كما أنّ مثل هذا الخلط يستحيل أن يصدر عن إمام جليل كابن تيمية رحمه الله تعالى والدّليل على ذلك نعرضه من خلال ثلاث مسائل:

(الأولى) أنّ حبّه لدينه وتمسُّكه به جعله طوال حياته يعمل على تنقيته ممّا علق به من شوائب البدع وما لحق به من الخُرافات والمنكرات تلك التى استفحل أمرها واستشرى خطرها فى عصره رحمه الله تعالى عندما أخذ هذا الجانب شطرا كبيرا من وقته وجهده وتسبَّب ذلك فى إلحاق كثير من الأذى والمحن به.

ولأنّه اعتبر أنّ فُشُوَّ البدع والخرافات المنكرة فى مجتمعٍ ما نذيرُ فنائه ومقدّمةُ انهياره وكسرُ شوكته فى أعين أعدائه، وما أوردناه ضمن هذا البحث ممّا هو منسوب إلى شيخ الإسلام ومكذوب عليه إنّما يُمثّل النّوع الأخطر من تلك الخرافات التى تضرّ بالعقيدة وتقود إلى الهلاك والدّمار تلك التى ظلّ رحمه الله تعالى يحاربها طوال رحلته الطّويلة بلا هوادة ولا لين.

(الثّانية) لقد أثبت المؤرّخون أنّ الكثير من المؤامرات قد حيكت حول ابن تيمية حتّى رُمى بالكفر والإلحاد، وزُوِّرت عليه الكتب التى تنال منه، وما كان لمثل ابن تيمية أن يسلم من حقد حاسديه، فكما نيل منه فى حياته كذلك تعرّض تراثه وعلمه لأيدى العابثين بعد وفاته، وحمّلت ألفاظه أكثر ممّا تحتمل ووضعت فى غير موضعها، وهذا ما يذكره صراحة بقوله [وكان قد بلغنى أنّه زُوِّرَ علىَّ كتابا إلى الأمير «ركن الدّين الجاشنكير» أستاذ دار السّلطان - يتضمّن عقيدة مُحَرَّفة ولم أعلم بحقيقته، لكن علمت أنّه مكذوب وعلمت أنّ أقواما يكذبون علىّ ويقولون للسّلطان أشياء(٤)].

وعندما حمل ابن تيمية على الصّوفية وغيرهم وأظهر للنّاس ما فى طريقتهم من

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم [٨٦٧].

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى [٢٦٩٧] ومسلم [١٧١٨] وابن ماجه [١٤].

(٣) حديث صحيح أخرجه أبو داود [٤٦٠٦].

(٤) انظر العقود الدّرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية لابن عبد الهادى [ص ٢٠٩] وكتاب الإمام ابن تيمية وموقفه من التّأويل لمحمّد السّيد الجليند [ص ٤١٤].

البدع والخرافات التي يتقرّبون بها إلى نفوس العامّة، عمل هؤلاء وأولئك على إثارة مشاعر النّاس ضدّه ورموه بالتّجسيم والتّشبيه وافتروا عليه عند السلطان ودسّوا عليه من الأراء ما يشين مذهبه، ففطن الرّجل إلى ذلك وبرأ نفسه ممّا نسب إليه في حياته حين قال في مجلس المناظرة الذى عقده له الأمير يوم الاثنين الثّانى من شهر رجب المبارك عام خمس وسبعمائة هجريّة بحضور القضاة والفقهاء:

[أنا أعلم أنّ ناسا يزوّرون عليَّ كما فعلوا ذلك غير مرّة(١)] !!. ويكفى من ابن تيمية أنه برأ نفسه سلفا من كلّ شبهة تشين مذهبه أو قول يُخالف هدى الكتاب الكريم والسّنّة الرّاشدة.

(الثّالثة) إنّ وقائع التّاريخ لتؤكّد أنّ دخول شيخ الإسلام السّجن كان فرصة سانحة لأعدائه للتّشنيع عليه والتّشفّى منه، ورميه بالتّهم النّكراء، والوشاية به كثيرا لدى الحكّام، حتّى حكم عليه بالحبس في يوم الجمعة ١٠ شعبان عام ٧٢٦ هـ ثمّ أصدر سلطان عصره «مرسوما» بإخراج ما عنده من «الأوراق والكتب» في شهر جمادى الآخرة [عام ٧٢٨هـ] فأودع بعضها بمكتبة العادلية بدمشق وتوزّع معظمها على الذين حاربوه وكانوا سببا في سجنه [(٢)].

فالأمر (الأوّل) يُؤكّد مدى حرص ابن تيمية على محاربة البدع الدّخيلة على الدّين، إلاّ أن الطّبيعة البشريّة قد جرت على أنّ كلّ من علا نجمه واشتهر فضله كثر حسّاده ودبّر له النّاقمون عليه، وما أكثر حسّاد ابن تيمية وما أكثر النّاقمين عليه، فإنّ لسان الرّجل وقلمه لم يجعلا له من صدبق لإعلانه الحقّ واضحا، فلم يُدارِ أحدا ولم يعرف النّفاق إلى قلبه سبيلا.

أمّا (الثّانى) فإنّه يشيرإلى أنّ مثل هذه الدّعاوى وما يتّصل بها من الولوج والتّلبُّس إنّما هى قديمة قدم تراث ابن تيمية زوّرها حسّاده عليه حقدا ونيلا من علمه، وليُزجّ به في غياهب السّجون كما فُعل به غير مرّة، وقد أدرك رحمه الله هذه المؤامرة وأعلن أنّ كلّ ما يخالف منهج القرآن والسّنّة فهو ملفّق عليه ومزوّر.

وكذلك الأمر (الثّالث) فإنّه يُبرهن على أنّ ما نُسب إليه أمرٌ يجانبه الصّواب وأنّه تلفيق لنظريّة ما يسمّى «بولوج الجن جسد الإنس» وإقحامها على مدوّناته ومؤلّفاته، إلى أن أصبحت على مرّ الأيام واقعا مسلّما به فى فكر من يقرأ «مجموع الفتاوى» الأمر الذى

---

(١) انظر العُقود الدُرّيّة لابن عبد الهادى [ص ١٧١ طبعة أولى - دار الفاروق].

(٢) انظر تاريخ ابن الوردى [٢ / ٢٨٤] والعقد الجمان للعينى - مصوّر بدار الكُتب المصريّة برقم [١٥٨٤] تاريخ - ورقة رقم [١٣].

يجعلنا نتوجّه من خلال هذا البحث إلى المراكز البحثيّة للسُّنَّة النَّبويّة والهيئات العلميّة والشَّرعيّة وعلى رأسها مجمع البحوث الإسلاميّة بالأزهر الشّريف بالتّوصيّات التّالية :

(أوّلا) إنّ وجود مثل هذه الأفكار في كُتُب التّراث لتحتاج إلى دراسة الظُّروف والملابسات التّاريخية التي أدّت إلى تسجيل هذا التّحريف في بعض أمهات الكتب خصوصا ما نُسب منها إلى ابن تيمية لتبرئة ساحته من هذا الفكر الدّخيل .

(ثانيا) تنقية كتب التّراث من «الفكر الولوجي» المخالف لهدى الكتاب والسُّنّة والرّد عليه وكشف خطورته من خلال الدّراسات والأبحاث التي تناقش هذا الفكر وتكشف حقيقته .

إنّ كلّ ما تضمّنه هذا الفكر المريض لا يزيد عن كونه جريمة من جرائم النّصب والاحتيال التي تتوفّر عناصرها بالقصد المتعمّد الذي يستهدف الإضرار بالإسلام العظيم وقيمه الخالدة ممّا يترتب عليه تضليل النّاس والكذب عليهم وخداعهم ، إنّ الفارق بين الحقيقة والخرافة في هذه القصّة هو هذا الوهم الذي لا ترتفع قيمة أسهمه دائما إلاّ في سوق المرضى المخدوعين في غيبة من الضّمير والقانون والعلم الصّحيح بحقائق الدّين .

لقد تآمر أهل البدع والخرافات على الشّيخ مرّتين :

(الأولى) تآمروا على حياته فسلبوه حرّيته وسجنوه عُدوانا وظُلما .

(والثّانية) عندما تآمروا على علمه مرّة أخرى فحرّفوه وأوغلوا البدعة فيه وهو الأمر الذي مكّنهم من أن يدسُّوا عليه تلك الأفكار التي لا تتّفق أبدا مع ما آمن به من قيم الشّرع والأخلاق والدّين .

(ثالثا) إنّ فتح الباب على مصراعيه للكتابة في مسألة الولوج والعلاج على النّحو الذي ينشر فكرها ، ويشيع ما يُدَّعى من وسائلها ، إنّما يُعتبر أمرا مخالفا لما هو معلوم من الدّين بالضّرورة ، ممّا يتطلّب مصادرة ما يُتداول من هذه الكتب والأشرطة وتجريم من يتبنّى هذا الفكر قانونا .

(الخاتمة)

[وبعد] : فها هو العمل الذي بفضل الله تعالى بدأناه ، والقصد الذي لوجهه الكريم ابتغيناه ، والسّبيل الذي بتوفيقه سبحانه سلكناه ، من أجل أن نضع بين يدي القارئ الكريم تلك الرّيحانة النديّة التي امتزجت بعطر السُّنَّة الفوّاح ، واستشربت منها هدْيها الوضّاح واستلهمت من فيضها الخير والصّلاح .

فكان هذا الكتاب الذي تضمّنت صفحاته دراسة قرآنيّة فريدة تبحث في علاقة

بعض المسائل الغيبيّة بالسّلوك الإنسانى المرتبط بأحكام الدّين القويم، وتتناول التّعريف بالمنهج الصّحيح للوقاية من أذى الجنّ ومسّ الشّيطان، والاحتراز من السّحر والحسد والرُّقية من عين الإنسان.

فجاء البحث على هذا النّحو الذى شاءه الله تعالى وارتضاه وأتمّه بتوفيقه وهُدَاه، عندما تحرّينا فيما قدمناه فيه من مسائل حُسْنَ الفَهم عن كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله الأكرم ﷺ فإذا كان القلم قد شطّ بنا أو زلّ الفهمُ منّا، فإنّا نستغفر الله ونستغفره على كلّ حال، على أمل أن يمنّ علينا سبحانه بمن يدلّنا على أوجه القصور فيما قدمنا أو يُصحِّح لنا ما نكون فيه قد أخطأنا ولا كمال إلاّ لله سبحانه.

ولقد أعجبنى العماد الأصفهانى حين قال: [إنّى رأيت أنّه لا يكتب إنسان كتاباً فى يوم إلاّ قال فى غده: لو غيّر هذا المكان لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يُستحسن، ولو قدّم هذا المكان لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جميع البشر].

وليس لنا فى مقابل هذا إلاّ أن نقول إن ما بين يدى القارىء إنّما هو نتاج ما وفقنا الله تعالى إليه وأعاننا عليه وأكرمنا به وأطال لنا العمر حتّى انتهينا من تحريره وإعداده فى صبيحة اليوم الأغرّ المبارك الثّانى من شّهر جُمَادَى الأُولَى ١٤٢٧هـ الموافق ليوم الاثنين التّاسع والعشرين من شهر مايو ٢٠٠٦م، فإن كنّا قد أصبنا فذلك الفضل من الله، وإن كنّا قد قصّرنا فالله تعالى نرجو وإليه نضرع، أن يغفر بعفوه زلاّتنا، وأن يقيل بفضله عَثَرَاتنا وأن يقبل بفيض كرمه وإحسانه معذرتنا.

وفى الختام نسأل الله تعالى أن يرزقنا العلم النّافع والقلب الخاشع والفقه الشّافع، وأن يتقبّل أعمالنا ويبلّغنا ممّا يرضيه آمالنا وأن يختم لنا بخاتمة السّعادة إنّه سبحانه وتعالى نعم المولى ونعم النّصير وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الأكرم محمّد خير الأصفياء وسيد الأوفياء وعلى آله وصحبه إلى يوم الدّين.

سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

[الصّافات: ١٨٠ - ١٨٢]

المؤلف

المصادر العلمية
والمراجع الفقهية للكتاب

(أولا) - القرآن الكريم وعلومه:

(١) الجامع لأحكام القرآن لمحمد بن أحمد الأنصارى القُرطبى - الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة (الطّبعة الثّالثة - ١٣٨٧هـ).

(٢) تفسير الفخر الرّازى المشتهر بالتّفسير الكبير للإمام محمد فخر الدّين الرّازى - دار الفكر بيروت (الطّبعة الثّالثة - ١٤٠٥هـ).

(٣) التّفسير الكبير للإمام تقىّ الدّين أحمد بن تيمية - دار الكتب العلمية - بيروت. (الطّبعة الأولى - ١٤٠٨هـ).

(٤) تفسير المنار للسيّد محمد رشيد رضا - طبعة الهيئة العامة للكتاب (١٩٧٣م).

(٥) أحكام القرآن لأبى بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربى - تحقيق محمد على البجاوى - دار المعرفة بيروت.

(٦) فى ظلال القرآن للشّيخ سيد قطب - دار الشّروق القاهرة (الطّبعة السّابعة - ١٣٩٨هـ).

(٧) تفسير المعوّذتين لابن القيّم - المكتبة السّلفية - (الطبعة السّادسة ١٤٠٠هـ).

(ثانيًا) - كتب الحديث وعلومه:

(٨) فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى - الطّبعة الثّانية.

(٩) صحيح مسلم بشرح محيى الدّين بن شرف النّووى - دار الحديث القاهرة. (الطّبعة الرّابعة - ١٤٢٢هـ).

(١٠) سُنن الإمام أبى داود - دار الحديث القاهرة (الطّبعة الأولى - ١٤٢٠هـ).

(١١) تحفة الأحوذى بشرح جامع التّرمذى للإمام أبى العلا المباركفورى - دار الحديث القاهرة. (الطّبعة الأولى - ١٤٢١هـ).

(١٢) المُسند للإمام أحمد بن حنبل - شرح أحمد محمد شاكر وحمزة أحمد الزّين دار الحديث القاهرة (الطّبعة الأولى - ١٤١٦هـ).

(١٣) صحيح ابن ماجه القزوينى للشّيخ ناصر الدّين الألبانى - مكتبة المعارف للنّشر - الرّياض (الطّبعة الأولى - ١٤١٧هـ).

(١٤) المستدرك للإمام الحاكم النّيسابورى - دار الفكر (الطّبعة الأولى - ١٤٢٢هـ).

(١٥) الموطأ للإمام مالك - مكتبة المجلّد العربى القاهرة. (الطّبعة الأولى - ١٤٢١هـ).

(١٦) غريب الحديث لأبى عبيد الهروى - مجمع اللّغة العربية (طبعة - ١٤٠٤هـ).

(١٧) المُفهِم لما أشكَلَ من تلخيص كتاب مسلم للإمام القرطبى - دار ابن كثير - دمشق (الطّبعة الثّانية - ١٤٢٠هـ).

(١٨) صحيح الجامع الصّغير وزيادته ـ محمّد ناصر الدّين الألباني ـ المكتب الإسلامي بيروت ـ الطبعة الثّالثة ـ ١٤٠٨ هـ .

(ثالثًا) ـ كتب أصول الفقه:

(١٩) أعلام الموقعين عن ربّ العالمين لابن القيّم ـ مراجعة طه عبد الرّءوف سعد ـ مكتبة الكليّات الأزهرية القاهرة (طبعة ـ ١٩٦٩) .

(٢٠) أصول الفقه للشّيخ محمد أبي زهرة ـ دار الفكر العربي القاهرة (طبعة ـ ١٣٧٧ هـ) .

(رابعًا) ـ كتب الفقه وقواعده:

(٢١) فيض القدير شرح الجامع الصّغير للمناوي ـ المكتبة التّجارية الكبرى القاهرة (طبعة ـ ١٣٥٦ هـ) .

(٢٢) حجّة الله البالغة ـ شاه وليّ الله بن عبد الرّحيم الدّهلوي ـ دار التّراث القاهرة (الطّبعة الأولى ـ ١٣٥٥ هـ) .

(٢٣) سُبُل السّلام بشرح بلوغ المرام من أدلّة الأحكام ـ محمد بن إسماعيل الصّنعاني ـ دار إحياء التّراث العربي (الطّبعة الرّابعة ـ ١٣٧٩ هـ) .

(٢٤) المحلّى لابن حزم الأندلسي ـ تحقيق أحمد محمد شاكر (طبعة دار الفكر) .

(٢٥) الإبداع في مضار الابتداع ـ الشّيخ على محفوظ ـ دار الاعتصام القاهرة (الطّبعة السّابعة ـ ١٣٧٥ هـ) .

(٢٦) زاد المعاد في هدى خير العباد لابن القيّم ـ تحقيق شعيب الأرنؤوط ـ مكتبة المنار الإسلامية (الطّبعة الرّابعة عشر ـ ١٤٠٧ هـ) .

(٢٧) المغني للعلامة أبي محمد عبد الله بن قدامة . مكتبة الرّياض (طبعة ـ ١٤٠١ هـ) .

(٢٨) المنهل العذب المورود شرح سُنن الإمام أبي داود للشّيخ محمود خطّاب ـ مطبعة الاستقامة القاهرة (الطّبعة الأولى ـ ١٣٥١ هـ) .

(خامسًا) ـ كتب التّاريخ والأدب:

(٢٩) العقد الفريد ـ أحمد بن محمد بن عبد ربّه الأندلسي ـ طبعة دار الفكر .

(٣٠) عيون الأخبار لابن قُتيبة ـ الهيئة المصرية للكتاب القاهرة (طبعة ـ ١٩٧٣) .

(٣١) تلبيس إبليس ـ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي البغدادي . إدارة الطّباعة المنيرية (الطّبعة الثّانية ـ ١٣٦٨ هـ) .

(٣٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ـ دار الفجر للتّراث القاهرة (الطّبعة الأولى ١٤٢٣ هـ) .

(٣٣) كتاب العظمة لأبي الشّيخ محمّد بن حيّان الأصبهاني ـ مكتبة القرآن القاهرة .

(٣٤) آكام المرجان فى أحكام الجان لبدر الدّين الشّبلى - مكتبة ابن سينا (٢٠٠٠م) .
(٣٥) العقود الدُّرّية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية لابن عبد الهادى - تحقيق الشّيخ محمّد حامد الفقى - مطبعة أنصار السُّنّة المحمّدية (١٩٣٨)
(٣٦) مدارج السّالكين بين منازل إيّاك نعبد وإيّاك نستعين لابن القيّم - تحقيق الشّيخ محمد حامد الفقى - مطبعة المنار القاهرة (طبعة - ١٣٧٥هـ) .
(٣٧) إغاثة اللّهفان من مصائد الشّيطان لابن القيّم - مكتبة المجلّد العربى القاهرة (الطّبعة الأولى) .
(٣٨) مفتاح دار السّعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن القيّم - مكتبة الفاروق الحديثة القاهرة .
(٣٩) كتاب الرّوح لابن القيّم . مكتبة محمد صبيح القاهرة (الطّبعة الثّالثة - ١٣٨٦هـ) .
(٤٠) الوابل الصّيّب من الكلم الطّيّب لابن القيّم - مطابع المختار الإسلامى القاهرة - (الطّبعة الخامسة - ١٤٠٠هـ) .
(٤١) تهذيب الأخلاق لابن حزم - ضبط وتحقيق عبد الرّحمن محمّد عثمان - المكتبة السّلفية المدينة المنوّرة (طبعة ١٩٧٠) .

(سادسًا) ــ معاجم اللغة:

(٤٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - محمد فؤاد عبد الباقى - دار الحديث بالقاهرة (طبعة - ١٤٠٧هـ) .
(٤٣) لسان العرب لابن منظور المصرى (طبعة دار المعارف - القاهرة) .
(٤٤) المعجم العربى الأساسى - لاروس . المنظمة العربيّة للتر بية والثّقافة والعلوم .
(٤٥) مختار الصّحاح لمحمد بن أبى بكر الرّازى (طبعة المطابع الأميرية - ١٣٢٩هـ) .
(٤٦) معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة للدّكتور محمود عبد الرحمن عبد المُنعم - دار الفضيلة القاهرة (الطّبعة الثّانية - ١٤٠١هـ) .

(سابعا) - الفتاوى:

(٤٧) مجموع فتاوى ابن تيمية - دار الوفاء القاهرة (الطّبعة الأولى - ١٤٠٨هـ) .
(٤٨) كتاب الفتاوى للإمام الأكبر محمود شلتوت شيخ الأزهر - دار الشّروق القاهرة (الطّبعة السّابعة - ١٩٧٤) .
(٤٩) أحسن الكلام فى الفتاوى والأحكام للشّيخ عطية صقر - المكتبة التّوفيقية - القاهرة .

***

مصنّفات الكتاب وتبويباته

* اعتماد المادّة العلمية للكتاب من الأزهر الشّريف (٤) .
* تقديم الكتـاب (٥) .

(الكتاب الأول)

المنهج التّطبيقى لمواجهة المسلم مع الشّيطان

(التّوجُه الأول)

المقدّمات الضّرورية للوقاية والحفظ

(أولا) ليس للشّيطان سُلطان على الذين آمنوا : (٩ ـ ١٥) .
(ثانيا) سلاح المؤمن فى مواجهة الشّيطان علم يتفقّه فيه :

تعريف علم الفقه (١٧) الأمر التّكليفى (١٩) أنواع الأحكام الشّرعية (٢١) فرض العين (٢٢) فرض الكفاية (٢٣) فضل طلب العلم (٢٥) رفع العلم من أشراط السّاعة (٢٨) ضياع الدّين بين الحياء والكبر (٣٢) آفة الدّين بين جاهل ومُتعالم (٣٤) خُطورة التّقوُّل فى الدّين بغير علم (٣٨) لا يستحيى المرء عندما يُسأل أن يقول لا أدرى (٣٩) .

{ملحق تعريفى فى أصول الفقه}

استمداد علم أصول الفقه (٤٣) تعريف الحكم الشّرعى (٤٤) الواجب (٤٦) المندوب (٤٨) الحرام (٥٠) المكروه (٥١) المباح (٥٣) أدلّة الأحكام الشّرعيّة (٥٣) القرآن الكريم (٥٤) السُّنّة المطهّرة (٥٤) السُّنّة القولية (٥٥) السُّنّة الفعلية (٥٥) حُجّيّة السُّنّة (٥٦) تعريف الإجماع (٥٧) القياس (٥٨) الاستحسان (٥٩) الاستصحاب (٦١) المصالح المرسلة (٦٣) سدّ الذّرائع (٦٥) .

(ثالثا) خير ما ألقى فى القلب اليقين :

(١) الاحتياط المتوافق مع شرع الدّين وضرورة الأخذ باليقين :

تدبُّر القرآن وفهم آياته (٧٣) تدبُّر آيات الخالق فى الآفاق (٧٤) العمل بموجب العلم (٧٥) علم اليقين (٧٧) عين اليقين (٧٨) حقّ اليقين (٧٨) .

(٢) عدم الغلوّ فى العبادة والتوسُّط فى أمور التقرُّب والطاعة :

النهى عن الغلوّ فى الدّين (٨٠) خطورة التّشدُّد فى أمور الدّين (٨٢) التّوسُّط والاعتدال فى العبادة (٨٣) أوامر الدّين بين الإفراط والتّفريط (٨٦) خير هذه الأمّة النّمط

الأوسط (٨٨) شريعة الإسلام بين التّيسير والتّعسير (٩٠) المشقة تجلب التّيسير (٩١) الرّخصة الحقيقيّة (٩٥) الرّخصة المجازية (٩٦) الصّلة بين الرّخصة ورفع الحرج (٩٦) العزيمة (٩٨) الاقتصاد فى الطاعة من مقاصد الشّريعة (٩٨) .

(التّوجُه الثّــانى)

التّوقى والاحتراز من غوائل الشّيطان

(القسم الأوّل)

(أولا) الاستعاذة من الوساوس والنّزغات :

الاستـعاذة فى حيـاة المسلم وقاية وعلاج (١٠١) النّفس ومـا جُبلت عليـه من شـر (١٠٢) النّفس المطمئنّة (١٠٤) النّفس اللوّامـة (١٠٥) النّفس الأمّارة بالسّوء (١٠٦) الشّيطان المتمثّل شرّه فى وسوسته وإغوائه (١٠٧) .

(ثانيا) الاستعاذة فى كلام العرب (١٠٨) .

(ثالثا) الاستعاذات الواجبة والمستحبّة فى الجوانب التّعبُّديّة :

الاستعاذة أوّل الصّلاة (١١٢) الاستعاذة عند تلبيس القراءة (١١٣) الاستعاذة عند قراءة القرآن (١١٤) الاستعاذة عند دخول المسجد (١١٦) الاستعاذة من أربع (١١٧) الاستعاذة من عذاب جهنّم (١١٧) الاستعاذة من عذاب القبر (١١٨) الاستعاذة من فتنة المحيا (١٢٠) الاستعاذة من فتنة المسيح الدّجّال (١٢١) .

(رابعا) استعاذات اليوم الموظّفة :

الاستعاذة عند النّوم (١٢٢) الاستعاذة عند الرُّؤيا يكرهها (١٢٢) الاستعاذة عند إرادة قضاء الحاجة (١٢٣) الاستعاذة عند السّفر (١٢٥) الاستعاذة عند نزول المنزل (١٢٦) الاستعاذة عند رؤية الرّيح والغيم (١٢٧) الاستعاذة عند سماع نهيق الحمار (١٢٨) .

(خامسا) الاستعاذة من أعمال القلب وفتن الصّدر :

الاستعاذة من فتنة الصّدر (١٣١) الاستعاذة عند الغضب (١٣٢) الاستعاذة من الأربع (١٣٢) الاستعاذة من علم لا ينفع (١٣٣) الاستعاذة من قلب لا يخشع (١٣٥) الخشوع الباطنى (١٣٦) الخشوع الظّاهرى (١٣٧) الاستعاذة من نفس لا تشبع (١٣٩) ليس الغنى من كثرة العرَض (١٤٤) الاستعاذة من دعاء لا يُستجاب (١٤٥) خفض الصّوت بالدّعاء (١٤٧) الدّعاء في الرّخاء (١٤٩) دعوة المؤمن لا يردّ (١٥١) دعوة المظلوم والمسافر والوالدين (١٥٢) يُستجاب لنا فى اليهود (١٥٣) .

[ما يمنع استجابة الدّعاء] :

كسب المال الحرام (١٥٤) ترك الفروض والواجبات (١٥٤) ترك الأمر بالمعروف (١٥٥) الاستعجال فى الإجابة (١٥٥) الدّعاء بإثم أو قطيعة رحم (١٥٦) الاعتداء فى الدّعاء (١٥٧) الغفلة عن ذكر الله تعالى (١٥٨) عدم العزم فى المسألة (١٥٩) تخصيص الدّاعى نفسه بالدّعاء (١٦٠) دعاء الإنسان على نفسه وأهله (١٦٠) .

(سادسا) الاستعاذة من أمراض النّفس :

الاستعاذة من الذّلّة (١٦١) الاستعاذة من الجبن (١٦٢) الاستعاذة من الخيانة (١٦٢) .

(سابعا) الاستعاذة من سوء الأخلاق :

الخلق الحسن والسّيىء (١٦٤) الاستعاذة من الغيبة (١٦٦) النّميمة (١٦٨) الكذب (١٦٩) خطورة التّعامل بوجهين (١٧٢) ظن السّوء (١٧٢) الغشّ (١٧٣) الكِبْر (١٧٤) الكِبْر بين المهابة والتّواضع (١٧٧) الظّلم (٧٨) دعوة المظلوم لا تردّ (١٨٠) عقوق الوالدين (١٨١) .

(ثامنا) الاستعاذة من هموم النّفس وعجزها :

الاستعاذة من الهمّ والحزَن (١٨٥) الاستعاذة من العجز والكسل (١٨٦) الاستعاذة من الكُفر والضّلال (١٨٧) الاستعاذة من الحوْر بعد الكوْر (١٨٧) الاستعاذة من الشّقاق والنّفاق (١٨٨) .

(تاسعا) الاستعاذة من مصائب الدُّنيا :

المصائب امتحان واختبار (١٩٠) الاستعاذة من التّردىِّ والهدم (١٩٢) الاستعاذة من فُجَأة النّقمة وزوال النّعمة (١٩٣) الاستعاذة من جهد البلاء ودرك الشّقاء (١٩٣) .

(عاشرا) الاستعاذة من فتن الدّنيا (١٩٤ - ١٩٧) .

(حادى عشر) الاستعاذة من شرّ فتنة المال :

تعس عبدُ الدّينار (١٩٨) شرّ الكسب المال الحرام (٢٠٢) شرّ المال كسب الرّبا (٢٠٣) الاستعاذة من فتنة الغنى (٢٠٦) الاستعاذة من فتنة الفقر (٢٠٧) الاستعاذة من الشُّحّ والبخل (٢٠٨) الاستعاذة من غَلَبَة الدَّين (٢١١) الاستعاذة من فتنة الجوع (٢١٤) الاستعاذة من الطَّمَع (٢١٥) .

(ثانى عشر) الاستعاذة من سيىء الأسقام :

المرض الحقيقى والمجازى (٢١٦) الاستعاذة من الأمراض المزمنة (٢١٧) الاستعاذة من

العلّة والألم (٢١٨) الاستعاذة من الجنون (٢٢٠) الاستعاذة من أرذل العمر (٢٢٠) طول العمر مع حسن العمل (٢٢٣) .

(ثالث عشر) الاستعاذة من شرّ ما خلق :

الشّر نتاج شيطاني (٢٢٤) الاستعاذة من عين الجان (٢٢٦) الاستعاذة من غَلَبة الرّجال (٢٢٧) الاستعاذة من غلَبة العدوّ (٢٢٧) . .

(رابع عشر) الاستعاذة من سوء القضاء :

الرّضا بقضاء الله من كمال الإيمان (٢٢٨) الاستعاذة من المأثم والمغرم (٢٢٩) الاستعاذة من شرّ السَّمع والبصر واللّسان (٢٣٠) الاستعاذة من شرّ العمل (٢٣١) .

(خامس عشر) الاستعاذة من هول ما بعد الموت :

١ ـ الاستعاذة من تخبّط الشّيطان عند الموت (٢٣٣)

٢ ـ الاستعاذة من فتنة القبر وعذابه (٢٣٤) .

(القسم الثّانى)

ما يُعتصم به من الشّياطين ويُحترز به من شرورهم

الاحتراز بذكر الله تعالى (٢٣٧) أفضل الذّكر (٢٣٨) الإقلاع عن المعاصى (٢٣٩) أثر التّسمية فى ردّ كيد الشّيطان (٢٤٠) الاحتراز من أذى الجنّ والسّحر بقراءة المعوّذتين (٢٤٢) سورة البقرة تحُول دون سحر السّحرة (٢٤٣) الأذان الشّرعى يحول دون أذى الجنّ وشرّهم (٢٤٤) إمساك فضول النّظر والكلام (٢٤٥) الوضوء والصّلاة من أعظم ما يُحترز به (٢٤٦) دوام طهارة المرأة يمنع إيذاء الشّيطان لها (٢٤٦] .

(الكتاب الثانى)

نحو العلاج الأمثل للوقاية من أذى شياطين الإنس والجنّ

(أولا) ـ مقدّمة تعريفيّة عن العلاج النّبوى

مرض الأبدان (٢٤٧) كلّ داء وله دواء (٢٤٩) الطّبيب ضامن (٢٥١) أمراض القلوب (٢٥٣) الصّلاة نور وشفاء (٢٥٣) الصّيام تهذيب للنّفوس (٢٥٤) فى القرآن شفاء وهدى للمؤمنين (٢٥٥) سورة الفاتحة (٢٥٦) سورة البقرة سنام القرآن (٢٥٨) آية الكرسى الحافظة من كلّ شر (٢٥٨) خواتيم سورة البقرة حصن حصين (٢٥٩) المعوّذات رقية السّماء لأهل الأرض (٢٦٠) .

(ثانيا) ـ السّحر بين الحقيقة والتّخييل

مقدّمة تعريفيّة (٢٦٣) السّحر فى القرآن الكريم (٢٦٥) سحر اليهودى للنّبى ﷺ (٢٦٦) ماذا عن لبيد السّاحر (٢٧١) هديه ﷺ فى علاج مرضه بالسّحر (٢٧٢) حقيقة السّحر فى الكتاب والسّنّة (٢٧٣) بعض أنواع السّحر (٢٧٥) تأثير السّحر على المسحور (٢٧٧) السّاحر والشّيطان قرينان متلازمان (٢٧٩) الشّيطان يسحر للإنسان (٢٨١) حكم العمل بالسّحر (٢٨٢) حرمة الذّهاب إلى السّحرة (٢٨٣) الوقاية من السّحر (٢٨٤).

■ الاحتراز من السّحر:

(١) التّحصّن من السّحر بذكر الله تعالى وآياته (٢٨٤).

(٢) مباشرة بعض الأعمال اليقينيّة مثل:

الاصطباح بالتّمر سبعا (٢٨٦) خصوصية السّبع من الأعداد (٢٨٨) دفن الشّعر وقُلامات الأصابع (٢٨٩).

■ العلاج من السّحر:

استخراج السّحر وإبطاله (٢٩٠) استفراغ المحل الذى يصل إليه السّحر (٢٩٢) حكم حلّ السّحر عن المسحور (٢٩٤) كيفيّة حلّ السّحر (٢٩٥) المأخوذ عن زوجته المشكلة والحلّ (٢٩٦) الفرق بين المعجزة والكرامة والسّحر (٢٩٨).

(ثالثا) ـ الحسد تلك العداوة الفاجرة فى قلب الإنسان

الحسد الحقيقى والمجازى (٢٩٩) لا حسد إلاّ فى اثنتين (٣٠٠) الحسد شرّ مركوز فى طبع صاحبه (٣٠٢) كراهية الحاسد لخير النّاس (٣٠٣) الفرق بين الحسد والغبطة (٣٠٥) ليس أسوأ من حسد اليهود للمسلمين (٣٠٦).

■ ما يندفع به شرّ الحاسد عن المحسود:

التعوّذ بالله تعالى من شرّ كلّ حاسد (٣٠٨) تقوى الله تعالى (٣٠٩) التّسليم بأنّ ما أصاب المرء لم يكن ليُخطئه (٣٠٩) التوكّل على الله تعالى (٣١٠) التّوبة إلى الله من الذّنوب (٣١١) كثرة الصّدقة والإحسان (٣١١) الإحسان إلى الحاسد (٣١٢).

(رابعا) ـ عين الإنس والجان والرّقية منهما

مقدّمة تعريفيّة (٣١٤) نظرة الجنّ وحسده للإنسان (٣١٦) عين الإنس وكيف تؤثر فى المعين (٣١٧) الفرق بين العين والحسد (٣١٨) دفع شرّ العين بالرّقية (٣١٩) أقسام الرُّقى (٣٢٠).

العناصر المؤثرة في الرّقيـة:

■ ما يستحبّ في الرّاقي (٣٢٠) .

■ المرقي بـــه :

أن تكون الرّقـية بكلام الله عزّ وجلّ (٣٢١) حكم تعليق التّمائم والتّحويطة والحجاب (٣٢٢) الرّقية بالمعوّذتين (٣٢٤) أمّ القرآن رقية من كلّ شيء (٣٢٥) الرّقية بالمأثور عن النّبي ﷺ (٣٢٦) أن تكون الرّقية باللّسان العربي (٣٢٦) اليقين في أن الرّقية لا تؤثر بذاتها (٣٢٧) .

■ المرقي منـــه :

الرّقية من العين (٣٢٩) رقيـة المريـض (٣٣٠) الرّقية من كلّ ذي سُمٍّ (٣٣١) .

■ العلاج من العين :

التّحصّن بالآيات والأذكار (٣٣٣) الاستغسال للمعين (٣٣٤) كيفيّة غسل العائن (٣٣٧) كيفيّة صبّ الماء على المعين (٣٣٧) الحكمة من استغسال العائن للمعين (٣٣٨) .

■ الآداب المتعلّقة بالرُّقيـة :

النّفث والمسح باليد (٣٣٩) حكمة النّفث حال الرُّقيـة (٣٤٠) المسح في الرُّقية باليد اليمنى (٣٤١) التّبريك على الشّيء عند رُؤيته (٣٤٢) ماذا يُفعل بالعائن ؟ (٣٤٣) ستر محاسن من يُخافُ عليه من العين (٣٤٤) العلاقة بين العين الحاسدة والنّفس الحاقدة (٣٤٥) .

(خامسا) - المسّ الشّيطاني والتّوقّي منه

المسّ الشّيطاني بين الحقيقة والمجاز (٣٤٧) المسّ في اللّغة (٣٤٨) هل المسّ هو الصّرع ؟ (٣٤٩) معنى المسّ في كتاب الله تعالى (٣٥٣) .

حالات المسّ التي وردت في كتاب الله تعالى:

مسّ الإغواء والإضلال (٣٥٦) وسوسة الصّلاة (٣٥٧) وسوسة الشّك والتّردُّد (٣٥٨) وسوسة النّزغ والإغراء (٣٥٨) الصّرْع النّفسي (٣٦٠) مسّ الشّيطان بالمرض (٣٦١) .

■ دعوى التلبُّس بالجنّ مرض نفسي :

تعريف الأمراض النّفسية (٣٦٦) المدخل إلى المرض النّفسي (٣٦٧) الهستيريا التحوُلية

(٣٦٩) أعراض مرض الهستيريا (٣٧٠) مسّ الخبل والجنون (٣٧٢) الصَّرْع العضوى (٣٧٤) أعراض مرض الصَّرْع (٣٧٦) الصَّرْع العام (٣٧٧) الفروق العلميّة بين نوبة الصَّرْع ونوبة الهستيريا (٣٧٨) هل يستطيع الشّيطان أن يصرع النّاس ؟ (٣٧٩) حديث إفاقة المصروع موضوع (٣٨٠) الجنّ لا يمسّ الإنسان بنصّ القرآن (٣٨٣) .

المسّ لا يكون بولوج الجنّ جسد الإنس (٣٨٥) مخالفة تأويل كلمة «المسّ» لحقيقة اللّفظ (٣٨٦) نقض ما ادعوا أنّه أدلّة من السُّنّة المطهّرة (٣٩٠) العلاج بالقرآن انحراف به عن وجهته الصّحيحة (٣٩٥) اعتقاد الولوج مؤامرة مدبّرة ضدّ الإسلام (٣٩٨) .

■ خطورة تأويل أحاديث النّبى ﷺ على غير وجهها الصّحيح :

حديث صفيّة أمّ المؤمنين (٤٠٠) حديث عثمان بن أبى العاص (٤٠٤) حديث أبى سعيد الخدرى (٤٠٥) حديث أنس بن مالك (٤٠٧) حديث أبى اليَسر (٤٠٨) .

■ التّعامل مع الجنّ ضلالة عصرية :

وهم اسمه تحضير الجنّى (٤٠٨) كيف يكتشف الدّجالون أنّ المريض ملبوس بالجنّ (٤١٠) أكذوبة قراءة القرآن على الماء لحلّ السّحر وكشف المسّ (٤١٣) عدم جواز تخصيص آيات بعينها لعلاج مرض معيّن (٤١٦) الأثار السّلبية من شيوع بدعة الولوج (٤٢٠) عقيدة الإمام ابن تيمية فى الولوج بين الحقيقة والتّلفيق (٤٢٢) .

■ التّوصيّات الخاتمة للبحث (٤٢٩) .

■ المصادر العلميّة والمراجع الفقهيّة للكتاب (٤٣١ - ٤٣٣) .

■ مصنّفات الكتاب وتبويباته (٤٣٤ - ٤٤٠) .

[كتب للمؤلف]

* قبس من هدى الصّلاة - طبعة رابعة.
* روح الصّلاة - طبعة أولى.
* الحجّة والبرهان فى الحكمة من خلق الملائكة والجان - طبعة أولى.
* فقه الدّين بين التعلُّم والتّعليم - طبعة أولى.
* مقاصد الطّهارة فى الإسلام - تحت الطبع.
* أدبيّات الجنس فى الإسلام - تحت الطبع.